الأب لويس شيخو

شعراء النصرانية

بعد الإسلام



منشورات دار المشرق
بيروت

شُعَرَاءُ النَّصْرَانِيَّة

بعد الإسلام

دار المشرق ش.م.م – ص.ب. ٩٤٦، بيروت

ISBN 2-7214-1014-8

التوزيع : المكتبة الشرقية
ص.ب. ١٩٨٦ – بيروت ، لبنان

شعراء النصرانية

بعد الإسلام

جمعه ونسقه

لويس شيخو

الطبعة الرا.



ار المشرق

كتاب

شعراء النصرانية

بعد الاسلام

تمهيد

قد بيّنّا في الجزء الأول ما كان للنصرانية من السهم الوافي بين شعراء الجاهلية. وها نحن نتتبع آثار الشعراء النصارى الذين نبغوا بعد ظهور الاسلام مستندين في قولنا الى اقدم تآليف العرب لاسيّما مؤرخي المسلمين وممّا تيسّر لنا جمعهُ من مكاتب اوربّة ومصر ومن خزائن الخاصّة في انحاء الشرق ولاسيما من مخطوطات مكتبتنا الشرقيّة ونباشر بذكر الذين اشتهروا في اوّل بزوغ الدين الاسلامي من المخضرمين وعلى الله الاتكال

القسم الاوَّل

الشعراء المخضرمون

من المعلوم انَّ المُخضرَم ويقال المحضرم من عاش مدَّةً في الجاهليَّة قبل الهجرة وادرك الاسلام فعاش في زمن نبيّهِ او في عهد خلفائهِ الاوَّلين

١ عثمان بن الحويرث

هو عثمان بن الحُوَيرِث بن أَسد بن عبد العزَّى بن قُصيّ القرشيّ كان من جملة الحنفاء الذين اعتزلوا عن قومهم وطلبوا الدين الحقّ ثم تنصَّروا . قال احمد ابن واضح الشهير باليعقوبيّ في تاريخهِ (طبعة ليدن ١ : ٢٩٨) : « تنصَّر من احياء العرب قومٌ من قريش من بني اسد بن عبد العزَّى منهم عثمان بن الحُويرث بن اسد بن عبد العزَّى وورقة بن نوفل بن اسد » . وكان عثمان من قرابة ورَقة جدُّهما اسد بن عبد العزَّى وكلاهما من قرابة رسول الاسلام

وقد جاء ذكر عثمان في اخبار ايَّام العرب في ذكر الفِجار الثاني . وهي حربٌ جرت بين قريش وهَوازن نحو السنة ٥٩٠ اعني ثلاثين سنة قبل الهجرة . قال صاحب الاغاني انَّ عثمان بن الحويرث « كان على بني عبد الدار ولِفَها » فتولَّى قيادتهم في محاربة هوازن

امَّا تنصُّرهُ فقد رواهُ ابن هشام في سيرة الرسول قال (ص ١٤٣—١٤٤ éd. Wüstenfeld) :

« اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من اصنامهم كانوا يعظّمونهُ وينحرون لهُ ويعتكفون عندهُ ويدورون بهِ وكان ذلك عيدًا لهم كلّ سنة يوماً فخلص منهم اربعة نجيًّا ثمَّ قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض . قالوا : أجَل . وهم : ورقة بن نوفل . وعبيدالله بن جحش . . . وعثمان بن الحويرث . . . وزيد بن عمرو بن نفيل . . . فقال بعضهم لبعض : « تعلَّموا والله ما قومُكم على شيءٍ لقد اخطأوا دين ابيهم ابرهيم . ما حجَرٌ نُطيف به لا يسمع ولا يُبصر ولا يضرُّ ولا ينفع . يا قوم التمسوا لانفسكم ديناً فانكم والله ما انتم على شيء » فتفرَّقوا في البلدان يلتمسون الحنيفيَّة دين ابرهيم . فامَّا ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانيَّة . . . وامَّا عُبَيد الله بن جحش فاقام على ما هو عليهِ من الالتباس حتَّى اسلم ثمَّ هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعهُ امرأتهُ ام حبيبة ابنة ابي سفيان مسلمةً فلمَّا قدماها تنصَّر وفارق الاسلام حتَّى هلك هناك نصرانياً . . . وامَّا عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصَّر وحَسُنت منزلتهُ عندهُ . ولهُ عند قيصر حديث . . . »

وهذا الحديث الذي لم يذكرهُ ابن هشام في السيرة فقد رواهُ الامام ابو عبدالله محمَّد بن اسحاق الفاكهي من اقدم كتبة الاسلام في كتابهِ المنتقى من اخبار امّ القرى قال (ص ١٤٣—١٤٤ éd. Wüstenfeld) :

تملُّك عثمان بن الحويرث بن اسد على قريش بمكَّة

قال الزبير بن بكَّار فيما رويناهُ عنهُ : حدَّثني علي بن صالح . . . عن عروة بن الزبير قال : خرج عثمان بن الحويرث وكان يطمع ان يملك قريشاً وكان من اظرف قريش وأعقلها حتى قدم على قيصر وقد رأى موضع حاجتهم اليهِ ومتجرهم من بلاده فذكر لهُ مكَّة ورغَّبهُ فيها وقال : « تكون زيادةً في ملكك كما ملك كسرى صنعاء » فملَّكهُ عليهم وكتب لهُ اليهم . فلمَّا قدم عليهم قال : « يا قوم انَّ قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كنفهِ وقد ملَّكني عليكم وانما انا ابنُ عمكم وأحدُكم وانَّما آخذ منكم الجراب من القَرَظ والعُكَّة من السمن والاوهاب فأجمعُ ذلك ثمَّ ابعثُ بهِ اليهِ . وانا اخاف ان أبيتم ذلك ان يمنع منكم الشام فلا تتَّجروا بهِ وينقطع مَرْفقكم منهُ » . فلمَّا قال لهم ذلك خافوا قيصر واخذ بقلوبهم ما ذكر من متجرهم فاجمعوا على ان يعقدوا على رأسهِ التاج عشيَّةً وفارقوهُ على ذلك . فلمَّا طافوا عشيَّةً بعث الله عليهِ ابنَ عمهِ ابا زمعة الاسود بن المطلب بن اسد فصاح على أحفل ما كانت قريش في الطواف وقال : « عبادُ الله ملك تهامة » فانحاشوا انحياش حُمر الوحش ثمَّ قالوا : « صدقتَ واللات والعزَّى ما كان بتهامة ملكٌ قطّ » فانتفضت قريش عمَّا كانت قالت لهُ . ولحق (عثمان) القيصر ليُعلمهُ . ثمَّ روى الزبير بسندهِ ان قيصر حمل عثمان على بغلة عليها سرجٌ عليهِ الذهب حين ملَّكهُ . قال الزبير : اتى عثمان بن الحويرث حين قدم مكَّة بكتاب قيصر مختوم في اسفلهِ بالذهب . . . . وذكر الزبير خبرًا فيما انتهى اليهِ امر عثمان بن الحويرث وملخَّص ذلك انهُ خرج الى قيصر بالشام . فسأل تجارُ قريش بالشام عمرو بن جفنة الغسَّاني ان يُفسد على عثمان عند قيصر . فسأل عمروٌ في ذلك ترجمان قيصر فاخبر الترجمانُ قيصر عن عثمان حين حضر عثمان وترجم عنهُ بان عثمان تسنَّم الملك بامر قيصر فاخرجَ عثمان لهُ . ثمَّ تحيَّلَ عثمان حتى عُرف من اين اتى ودخل على قيصر وعرَّفهُ ما يقتضي ان الترجمان كذب . عليه فكتب قيصر الى عمرو بن جفنة يأمرهُ بان يحبس لعثمان من اراد حبْسَهُ من تجَّار قريش بالشام ففعل ذلك عمرو ثمَّ سُمَّ عثمان فمات بالشام . (قال) وذكرنا هذا الخبر بنصّه في اصل هذا الكتاب

وممَّا ذكرهُ ياقوت عن عثمان في معجم البلدان (١ : ١٢٨) انهُ كان « هجَّاء لقريش عالماً بمثالبها » . ولعثمان شعرٌ لم نقف منهُ الَّا على ابياتٍ نقلناها عن كتاب البيان والتبيين للجاحظ عن نسخة باريس (Ms de Paris, 2657 ff. 338) يهجو بها عمرو بن العاص (من الطويل) :

لهُ أبوانِ فهو يُدعى اليهما وشرُّ العبادِ من لهُ ابوانِ
وقد حكما فيهِ لِتصدُقَ امُّهُ وكان لها علمٌ بهِ ببيانِ
فقالت صراحاً وهي تعلم غيرهُ ولكنها تهذي بغير لسانِ

٢ الحارث بن كَلَدة

هو الحارث بن كَلَدة بن عمرو بن علاج الثقفي كان نصرانيًا على مذهب النساطرة قال جمال الدين ابن القفطي في تاريخ الحكماء (ص١٦١) : « الحرث بن كلدة . . . طبيب العرب في وقتهِ اصلهُ من ثقيف من اهل الطـائف . وحل الى ارض فارس واخذ الطبَّ من اهل تلك الديار من اهل جنديسابور (١ وغيرها في الجاهليَّة قبل الاسلام وجاد في هذه الصناعة وطَبَّ بارض فارس وعـالج وحصل لهُ بذلـك مالٌ كثير هناك وشهد اهل فارس ممَّن رآهُ بعلمهِ وكان قد عالَج بعض اجلَّائهم (٢ فبرأ واعطاهُ مالًا وجاريةً سمَّاها الحـارث سُمَيَّة ثمَّ ان نفسَهُ اشتاقت الى بلادهِ فرجع الى الطائف واشتهر طبُّهُ بين العرب وكان رسول الاسـلام (صلعم) يأمر من كانت بهِ علَّة أن يأتيهُ فيسألهُ عن علّتهِ . . قال ابو عمر : امر رسول الله (صلعم) سعد بن ابي وقَّاص بأن يأتيهُ فيستوصفهُ في مرض نزل بهِ فيدلُّ انهُ جـائز ان يشاور اهل الكفر في الطبّ اذ كان من اهلهِ والله اعلم

«قال محمَّد بن زياد الاعرابي : وكان للحارث بن كلدة تقدُّم في النحو واللغة . قال ابو عمر : ومات الحارث بن كلدة في اوَّل الاسلام ولم يصحّ اسلامهُ . . (قال) وكان الحرث يضرب العود تعلَّم ذلك ايضاً بفارس واليمن وبقي الى زمن معاوية فقـال لهُ معاوية : ما الطبّ يا حارث ؟ فقال : الأَزْمُ يا معاوية (يعني الجوع والحِمْية عن الطعام) . وروى لهُ عبد الرحمان بن ابي بكرة قولـهُ : مَنْ سرَّهُ البقاء والإِبقاء فليباكر الغداء وليخفّف الرداء وليُقلّ من غشيان النساء (اراد بخفّة الرداء أن لا يكون عليهِ دَيْن »

وقد روى ابن ابي اصيبعة اخبار الحارث بن كلدة في كتابهِ عيون الانبـاء في طبقات الاطباء (١ : ١٠٩–١١٣) قال عنهُ « انهُ بقي ايَّام رسول الله (صلعم) وايَّام ابي بكر وعثمان وعليّ ومعاوية . قال ابو زيد : وكانت للحارث معالجات كثيرة ومعرفة بما كانت العرب تعتادهُ وتحتاج اليه . (قال) وللحـارث بن كلدة من الكتب كتاب

١) جنديسابور مدينة قديمة في العجم كان لنصـارى الكلدان فيها مدرسة طبّ شهيرة

٢) دعاهُ ابن عبد ربّهِ في العقـد الفريد (٣ : ٢) ابا الخير بن عمرو الكندي وفي معجم البلدان لياقوت (٢ : ٩٥٢) عن ابن الكلبيّ انَّ الـذي عالجهُ هو النوشجاني كان جُذم فعالجه اطباء فارس فلم ينجحوا فشفاهُ الحارث بن كلدة

المحاورة في الطبّ بينهُ وبين كسرى انو شروان • . ورُوي هناك (ص ١١٠) بعض كلامهِ مع كسرى عن الطبّ وخواصّهِ

امّا شعر الحارث بن كلدة فروى لــهُ ابن عبد ربّهِ في العقد الفريد (٣: ١١٤) ابياتاً قالها في يوم الحُرَيرة وهو احد ايّام حرب الفجار الآخر كان لهوازن على كنانة وقريش (من الكامل) :

تركتُ الفارسَ البذّاخَ منهم ... تَمُجُّ عروقُـهُ عَلَقاً عبيطـا
دعستُ بَنانَـهُ بالرمح حتى ... سمعتُ لمتنـهِ فيـهِ أطيطـا
لقد أرديتُ قومَكَ يا ابن صخرٍ ... وقـد جشّمتُهُم امرًا شطيطـا
وكم اسلمتُ منكم من كميٍّ ... جريحاً قد سمعتُ لهُ غطيطـا

وروى لهُ ايضاً البحتري في حماستهِ (ع٣٨١) وصاحب مجموعة المعاني (ص٦٤) قولهُ في المؤاخاة عند الرخاء والخذلان عند الشدَّة (من الطويل) :

فـأمَّا اذا آستغنيتمُ فعـدوُّكم ... وأُدعى اذا ما الدهرُ نابت نوائبُهْ
فان يكُ خيرٌ فـالبعيدُ ينالُـهُ ... وان يكُ شرٌّ فابنُ عمّكَ صاحبُهْ

وهذه ابيات ذكرهـا لهُ صاحب الحماسة البصريَّة (ج ٢ ص ٣٣ من نسخـة مكتبتنا الشرقيَّة وقال انَّها تروى ايضاً لغيلان بن سَلَمة الثقفي وهي(من الوافر) :

ألا أَبلـغْ مُعـاتبتي وقولي ... بني عمّي فقـد حَسُنَ العِتابُ
وَسَلْ هل كان لي ذنبٌ اليهم ... همُ منـهُ فأَعتبَـهُ غِضـابُ
كتبتُ اليهمِ كتبـاً مرارًا ... فـلم يرجع اليَّ لهـا جوابُ
فـا ادري أغيّرهمُ تَنَاءٍ ... وطولُ العهـدِ ام مالٌ اصابوا
فمن يكُ لا يدومُ لـهُ وفـاءٌ ... وفيهِ حين يغتربُ انقـلابُ
فعهـدي دائمٌ لهمُ وودّي ... على حالٍ اذا شهدوا وغـابوا

ومما رُوي للحارث بن كلدة في كتاب حماسة ابن الشجري (نسخة مكتبة باريس ص ٧٦) بيتان رواهما الجاحظ في كتاب البيان والتبيين للحارث بن حلزة (اطلب الصفحة ٣٠ من ديوانهِ الذي طُبع في المشرق قبلًا من البسيط):

لا أعرفنَّك إنْ أرسلتَ قافيةً ... تُلقي المعاذير ان لم تنفع العِذَرُ

انَّ السعيدَ لهُ في غيرهِ عظةٌ ... وفي التجارب تحكيمٌ ومعتَبَرُ

والحارث بن كلَدة هو ابو النضر بن الحارث وكان ابن خالة نبيّ الاسلام وكان نصرانيًا كابيهِ قال ابن ابي اصيبعة(١ :١٢٣): «انهُ سافر البلاد كابيهِ واجتمع مع الافاضل والعلماء بمكَّة وغيرها وعاشر الاحبار والكهنة واشتغل وحصَّل من العلوم القديمة اشياء جليلة القدر واطّلع على علوم الفلسفة واجزاء الحكمة وتعلّم من ابيهِ ايضاً ما كان يعلمهُ من الطبّ وغيرهِ» على انَّهُ كان معادياً لرسول المسلمين اذا سمع القرآن اعرض عنهُ واستهزأ به ثمَّ حاربهُ يوم بدر فكان من جملة المأسورين مع عُقبة ابن ابي مُعَيط فقتلها محمَّد بعد مصرفهِ من بدر في الصفراء على ثلثة اميال من المدينة في السنة الثانية من الهجرة. فأتت اخت النضر قتيلة بنت الحارث الى الرسول وقالت ترثي اخاها (من الكامل):

يا راكباً انَّ الأُثَيل مَظِنَّةٌ ... من صُبح خامسةٍ وانت موفَّقُ (١

بَلِّغ بهِ ميتاً فانَّ تحيَّةً ... ما إنْ تزالُ بها الركائبُ تخفقُ (٢

منّي اليهِ وعَبرةً مسفوحةً ... جادت بُدرَّتها واخرى تخنُقُ (٣

فليَسْمَعنَّ النَّضرُ ان ناديتَهُ ... ان كان يسمع ميّتٌ او يَنطِقُ (٤

ظلَّت سيوفُ بني ابيهِ تنوشُهُ ... لِلّه ارحامٌ هناكَ تُمزَّقُ (٥

صبرًا يُقاد الى المنيَّةِ مُتعَباً ... رَسْفَ المقيَّدِ وهو عانٍ موثَقُ

١) الأُثَيل موضع فيهِ قبر النضر ٢) يروى: أبلغ . . بانَّ . . . بها النجائبُ

٣) يروى: جادت لسائحها. وجادت لمائحها . . . تخنق

٤) يروى: هل يسمعني . . ام كيف يسمع هالك لا ينطق ٥) ويروى: تشقّق

أَمحمَّدٌ ولَأَنتَ نسلُ نجيبةٍ (١ في قومها والفحــلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ

ما كان ضرَّكَ لو مَنَنْتَ وربَّما مَنَّ الفتى وهو المَغيظ المُحْنَقُ

والنضرُ اقربُ من اخذتَ بزلَّةٍ (٢ واحقُّهم ان كان عِتقٌ يُعتَقُ

لو كنتَ قابلَ فديةٍ لَفديتُهُ بأعزّ ما يُفدى بهِ من يُنفِقُ (٣

قال ابو الفرج الاصبهاني: فبلغنا ان النبيَّ صلعم قال: لو سمعتُ هذا قبــل ان اقتلهُ ما قتلتُهُ . فيقال انَّ شعرها اكرم شعر موتورة واعفُّهُ واكفُّهُ واحلمهُ

٣ ابو القيس صِرْمة الراهب

هو ابو قيس صرمة بن أَنس وقيل ابن ابي انس بن صرمة بن مالك من بني عديّ ابن النجّــار من الخزرج وكان يلقَّب بالراهب لنسكهِ . قال في كتاب انساب العرب (Ms. de Paris, Suppl., 3864, ff. 207) وابن اسحاق في سـيرة الرسول (ص٣٤٨) : «كان ابو قيس رجلًا قد ترهَّب في الجاهليَّة ولبس المسوح وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة وتطهَّر من الحائض من النساء وهمَّ بالنصرانيَّة ثمَّ امسك عنها ودخل بيتاً واتَّخذ مسجدًا لا يدخلهُ عليهِ طامث ولا جُنُب وقال: «أعبدُ ربَّ ابرهيم حين فارق الاوثان وكرهها» حتى قدم رسول الله صلعم الى المدينة فأسلم فحسُن اسلامهُ وهو شيخ كبير وكان قوَّالًا بالحق معظمًا لله عزَّ وجلَّ في الجاهليَّة يقول في ذلــك الاشعار الحسنة»

هذا مــا ورد في كتب الرواة ومن العجب انَّ ابن سعد في طبقــاتهِ الكبرى لم يذكرهُ في جملة الصحابة . وفي تلقيب القدماء لـهُ بالراهب دليل كافٍ على نصرانيّتــهِ وقد قال رسول المسلمين «لا رهبانيَّة في الاسلام» . ولا ندرك قولهم «همَّ بالنصرانيَّة ثم امسك عنها» وهم يردفونهُ بقولهم انهُ «دخل البيت واتَّخذ لهُ مسجدًا لا تدخلهُ النساء» وكل ذلك من اعمال رهبان النصارى . ففي قولهم اذن نظرٌ وكذلــك في

(١) ويروى: يا خير ضِنءِ كريمةٍ (٢) ويروى: من اسرتَ قرابةً . ويروى ايضاً: من اصبتَ وسيلةً (٣) ويروى: او كنت . . . ينلو لديك وينفقُ

زعمهم انهُ عاش نحوًا من مائة وعشرين سنة · ولم يذكرهُ ابو حاتم السجستاني في كتاب المعمَّرين · ويتَّفق الذين ذكروهُ على انهُ كان شاعرًا ولهُ الاشعار الحسنة في الدين والادب مع الاشارة الى نصرانيَّتهِ · فمن ذلك ما روى لهُ ابن هشام في سيرة الرسول (ص ٣٤٨) وابن الاثير في أُسد الغابة في معرفة الصحابة (٥ : ٢٧٨) وابن حجَر العسقلاني في تمييز الصحابة (٢ : ٤٨٦) وغيرهم ما يدلّ على رهبانيَّته (من الطويل):

يقول ابو قيسٍ وأَصبحَ غاديًا ... أَلا ما استطعتم من وصاتي فافعلوا (١

اوصيكمُ بالله والبرّ والتقى ... وأَعراضِكم والبرُّ باللهِ اوَّلُ (٢

وانْ قومُكم سادوا فلا تحسُدُنَّهم ... وان كنتمُ اهلَ السيادة فأَعدِلوا (٣

وان نزلتْ احدى الدواهي بقومكم ... فأَنفُسَكم دون العشيرةِ فاجعلوا

وإِن نابَ غُرمٌ فادحٌ فأَرفقوهمُ (٤ ... وما حمَّلوكم في المُلِمَّات فاحملوا

وان انتمُ أَمعَرتمُ (٥ فتعفَّفوا ... وان كان فضلُ الخير فيكم فأَفضلوا

ومن وصاياهُ التقويَّة في الجاهليَّة قولهُ (من الخفيف) :

سبِّحوا الله شرْقَ كلّ صباحٍ ... طلعَتْ شمسُهُ وكلَّ هلالِ

عالمُ السرّ والبيانِ لدينا (٦ ... ليس ما قالَ ربُّنا بضَلالِ

ولهُ الطيرُ تستريدُ وتأْوي ... في وكورٍ من آمناتِ الجبالِ

ولهُ الوحشُ بالفلاة تَراها ... في حِقافٍ وفي ظِلالِ الرمالِ

ولهُ هوَّدت يهودٌ ودانت ... كلُّ عينٍ إِذا ذكرتَ عُضالِ

ولهُ شمَّسَ النصارى وقاموا ... كلَّ عيدٍ لربّهم واحتفالِ

ولهُ الراهبُ الحبيسُ تراهُ ... رَهنَ بؤْس وكان ناعمَ بالِ

١) ويروى : واصبح ناصحًا .. من وصاتي ٢) ويروى : واوصيكُم بالخير والبرّ .. واعراضكم بالله والبرُّ اوَّلُ ٣) ويروى : اهل الرئاسة ٤) ويروى : امرٌ خارج فاردفوهمُ ٥) ويروى : أَملقتمُ ٦) ويروى : جميعًا

يا بنيَّ الأرحامَ لا تقطعوها   وصِلوها قصيرةً من طِوالِ (١
واتَّقوا الله في ضعافِ اليتامى   ربَّما يُستَحَلُّ غيرُ الحلالِ
واعلموا انَّ لليتيمِ وليًّا   عالمًا يهتدي بغير السؤالِ
ثمَّ مالَ اليتيمِ لا تأكلوهُ   انَّ مالَ اليتيم يرعاهُ والي
يا بنيَّ التخومَ (٢ لا تخزلوها   انَّ خزلَ التخوم ذو عُقّالِ
يا بنيَّ الأيامَ لا تأمنوها   واحذروا مكرَها (٣ ومرَّ الليالي
واعلموا انَّ مرَّها (٤ لنفادِ الـ   ـخلقِ ما كان من جديدٍ وبالِ
واجمعوا أمرَكم على البرّ والتقوى   وتركِ الخنا وأخذ الحلالِ

ومما رُوِي لهُ في الاسلام مشيرًا الى نبيّهم قولهُ وفيهِ ايضاً دلائل على نصرانيّتهِ حيث يذكر « صلاتهُ في كلّ بيعةٍ » (طويل) :

ثوى في قريشٍ بضعَ عشرةَ حجَّةٍ   يذكّر لو يَلقى صديقاً مؤاتيا
ويَعرض في اهل المواسم عِرضَهُ   فلم يرَ من يُؤمن ولم يرَ داعيا (٥
فلمَّا اتانا اظهر الله دينَهُ   فأصبح مسرورًا بطَيْبةَ راضيا
وألفى صديقاً واطمأنّت بهِ النوى   وكان لنا (٦ عوناً من الله باديا

١) قيل في شرحها : هذا يحتمل تأويلين : احدُهما ان يُريد «صِلوا قِصَرها من طولكم» اي كونوا انتم طوالًا بالصلة والبرّ ان قَصُرت هي . . والتأويل الآخر ان يريد مدحاً لقومهِ بانَّ ارحامهم قصيرة النسب ولكنَّها من قوم طوال كما قال الطائي :

انتم بنو النَّسب القصير وطولكم   بادٍ على الكُبَراء والأشرافِ

والنسب القصير ان يقول «انا ابن فلان» فيُعرف وتلك صفة الاشراف ومن ليس بشريف لا يُعرف حتى يأتي بنسبةٍ طويلة يبلغ بها رأس القبيلة   ٢) قال ثعلب : التُّخوم واحد والتخوم جمع اي حدود الارض   ٣) ويروى : كَرَّها   ٤) ويروى : امرها
٥) ويروى : ويعرضُ . . . نفسهُ . . من الناس داعيا   ٦) ويروى : وكان لهُ . ويروى ايضاً : وكنّا لهُ

يَقُصُّ لنا ما قال نوحٌ لقومهِ ... وما قال موسى اذ اجاب المُناديا
واصبح لا يخشى عداوةَ واحدٍ(١ ... قريباً ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا لهُ الاموال من جُلّ مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
ونعلَمُ انَّ الله لا شيءَ غيرُهُ ... ونعلمُ انَّ اللهَ افضلُ هاديا
نعادي الذي عادى من الناس كلّهم ... جميعاً وان كان الحبيبَ المصافيا
اقول اذا صلّيتُ (٢ في كلّ بيعةٍ ... تباركتَ قد اكثرتَ لاسمك داعيا
اقول اذا جاوزتُ ارضاً مخوفةً ... حنانيك لا تُظهر عليَّ الاعاديا
فطأْ مُعرضاً انَّ الحُتوفَ كثيرةٌ ... وانك لا تُبقي بنفسك باقيا (٣
فوالله ما يدري الفتى كيف يتَّقي ... اذا هو لم يجعل لهُ اللهُ واقيا
ولا تَحفِلُ النَّخلُ المقيمةُ ربَّها ... اذا اصبحت ريًّا واصبح ثاويا
بدا ليَ ان عشتُ تسعين حجَّةً ... وعَشرٌ اوَّلٌ وما بعدها ثمانيا(٤
فكم ألفها لمَّا مضَت وعددتُها ... بحسْبها في الدهر ولا لياليا

٤ أكثم بن صَيفي

هو أكثم بن صيفي بن رُباح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أُسيّد بن عمرو بن تميم اشهر حكّام العرب في الجاهليَّة وحكمائهم وخطبائهم كان من نصارى تميم وادرك الاسلام . ويقول بعض الكتبة ارسل وفداً من قومهِ الى نبيّ المسلمين مع ابنهِ حبيش فلمَّا رجعوا أعلموهُ بامرهِ فاستحسن طريقتهُ وحضَّ قومهُ

١) ويروى : من الناس واحدًا ٢) ويروى : اذا أدعوكَ
٣) ويروى : وانك لا تبقى لنفسك . ويروى هذا البيت والذي بعدهُ لافنون الشاعر (شعراء النصرانيَّة ص١٩٣) ٤) كذا روى ابن حجَر هذا البيت وما بعدهُ وكلاهما مختلّ الوزن

على اتّباعها وانهُ حاول الخروج الى محمّد فمات قبل اجتماعهِ بهِ والله اعلم

وكان اكثم احد المعمَّرين ذكرهُ ابو حاتم السجستاني في كتاب المعمَّرين .éd) وممّا Goldziher, 9-18) رووا لهُ في ذلك قولهُ(من الطويل حماسة البحتري ع ٤٦١) :

وانَّ امرءًا قد عاش تسعينَ حِجَّةً الى مـائةٍ لم يَسأمِ العيشَ جاهِلُ

مضت مئتانِ غيرَ ستٍّ واربعٍ وذلك من عَدِّ الـليالي قـلائلُ

فان صحَّ قولهُ يكون بلغ من العمر مائةً وتسعين سنة. على انَّ لهـذين البيتين روايةً اخرى لعلّها هي الصحيحة تجعل عمرهُ خمساً وتسعين سنة فقط وهي :

وانَّامرءًا قد عاش تسعين حجَّـةً لخمسٍ ولم يسأمِ العيش جـاهلُ

فلا ترجُ عمرًا بعدَ من فادَ انّمـا بقاؤكَ في الـدنيا ليالٍ قـلائل

وكان العرب يتقاضون الى اكثم ولا يردُّون حكمهُ لنزاهتهِ وبرّهِ . روى في الاغاني (١٥ : ٧٣) رَفع قبيلتَي الرَّباب وسعد دعواهما الى حكمهِ . واخبر السجستاني (ص ١٢) انَّ القَعقاع وخالد بن مالك بن سَلْم النهشلي تنافَرا الى اكثم بن صيفي أيُّهما اقرب الى المجد والسؤدد فقال: سفيهان يريدانِ الشرَّ ارجعا فان أبَيتما فاني لست مفضِّلًا احدًا من قومي على احدٍ كلُّهم اليَّ شَرَعٌ سواء.. وخـلا بكل واحدٍ منهما يسألهُ الرجوع عمّا جاء لهُ فلمّا ابيا بعث معهما رجلًا الى ربيعة بن حُذار الاسدي وحبس عنده إبلهما فغضبا وطلبا ردَّها بعنف فقال اكثم (طويل) :

نُبِّئتُ انَّ الأَقرعَيْن وخـالـدًا ارادوا بأن يستنقصوا عزَّ أكثما

(فويلُ أمّهم لن يستطيعوا المَأربٍ) بعَمْـدٍ ارادوا أن أُذَمَّ ويغـنما

قال : اي يغنم خالد. وقال اكثم (طويل) :

سأحبسهـا حتى يبـين سبيلُهـا ويَسرحُها تُحدَى الى الحيّ اسلَمُ

ويمنعُهـا قومي وتمنعُهـا يـدي وجرداءُ من اهل الأَفاقة صِلْدِمُ

واخبر ابو حاتم السجستاني ايضاً انَّ النعمان بن المنذر اصاب اسارى من تميم. وحبسهم بالحيرة والقُطْقُطانة فركب اليهِ وفودُهم وفيهم اكثم بن صيفي حتى انتهوا الى النَّجَف ثمَّ قدموا الحيرة واقاموا مدَّةً لم يحظوا بالدخول على النعمان ثمَّ شخص النعمان الى القُطْقَطانة موضع في البرِّيَّة قرب الكوفة حيث كان سجنُ النعمان فسار الوفد اليها وهجم اكثم على بابها ونادى حارسَ السجن بقولهِ (من الرجز) :

يا حَمَلَ بنَ مالكِ بنِ أَهبانْ هَلْ تُبلغنْ ما اقولُ النُّعمانْ
انَّ الطعام كان عيشَ الانسانْ اهلَكْتَني بالحبس بعد الحِرْمانْ
من بين عارٍ جائعٍ وعَطْشانْ وذاكَ من شرّ حِباء الضِيفانْ

فسمع النعمان صوته واذن لوفد تميم ان يأتوهُ وقال: مرحباً بكم سَلُوني ما شئتم الَّا اسارى عندي. فطلب اليهِ القوم حوائجهم وأبى اكثم ان يسألهُ فقال لهُ النعمان: ما يمنعُك. فقال اكثم: ابيتَ اللعن قد علم قومي اني من اكثرهم مالاً ولم اسأل احدًا شيئاً انَّ المسئلة من أضعف المكسبة وقد تجوع الحرَّة ولا تأكل بثدْيَيْها. فقال النعمان: صدقتَ سَلْ حاجتك. فقال: ناقتَك برَحلها وخلعَتك وكلَّ مكروب بالقُطقطانة والحيرة عرفني. قال: ذلك لك. فركب ناقتهُ في كِسْوتهِ ثمَّ نادى يا اهل السجن انَّ النعمان قد جعل لي مَنْ عرفني. قالوا: كلُّنا نعرفك انت اكثم بن صيفي. ثمَّ فعل مثل ذلك بالحيرة فأخرجهم ثمَّ قال (من الوافر) :

ثوَيْنا بالقَطاقِطِ ما ثوَيْنا وبالعَبْرَيْن حَوْلًا ما نَريمُ (١)
وأُخبِرَ اهلُنا ان قد هلكنا وقد اعيا الكواهنُ والبُسُومُ
وآسانا على ما كان اوسٌ وبعضُ القومِ مَلْحيٌّ ذَميمُ

١) القطاقط هي القُطقُطانة السابق ذكرها. وقال ياقوت (٦٠٥:٣) « انَّ العَبْرين موضع». ولم يَزِدْ ايضاحاً. ويروى: الغرَيْن

فقــلتُ لهم أيا قومي أبانت — فكونوا الناهضينَ بها وقوموا
بوَفـدٍ من سَراة بني تمـيمٍ — الى أمثـالهم لجـأ اليتيمُ
فانـكمُ لِأن تَـكفوهُ اهـلٌ — عليـكم حقٌّ قومكمُ قـديمُ
وانـكمُ بعقْـوةِ ذي بَـلاءٍ — وحقُّ المَلْكِ مكشوفٌ عظيمُ

هذا ما وجدنا من شعر اكثم بن صيفي. امَّا حكمهُ فكثيرة لو جُمع ما بقي منها لأنافت على عدَّة صفحات. وقد عُرف اكثم بحكمتهِ حتى ضُرب بهِ المثل في ذلـك وكاتبهُ الملوك يطلبون اقوالهُ. منهم ملك هَجَر او نجران طلب ان يكتب اليهِ باشياء ينتفع بها وان يُوجز . فكتب اليهِ (كتاب المعمَّرين ص ١٦) : « ان احقَ الحمقِ الفجور . وأمثل الاشياء تركُ الفضول . واياك والتبذير فانَّ التبذير مفتاحُ البؤس . واحوجُ الناس الى الغنى مَنْ لا يُصلحهُ الَّا الغِنى واولئك الملوك. وحبُّ المديح رأسُ الضَّياع . وفي المشورة صلاح الرعيَّة ومادَّةُ الرأي. ورضا النـاس غايةٌ لا تُدرك فتحَرَّ الخير بجهدك ولا تَحفِل سُخط مَنْ رِضاهُ الجور . . الخ »

وروى لـهُ هناك حكماً اقترحها عليهِ ملك عرب الشام الحـارث بن ابي شمّر الغسَّاني ليُرسلها الى هِرَقْل ملك الروم فيعرف انَّ في العرب مثل خطبـاء غسَّان حكمةً وعقولًا وألسنةً . فاجاب أكثم الى امرهِ . وكذلك نقـلوا عن اكثم حكماً بليغة كتبها لبعض ملوك فارس الذي كان عيَّر العرب بخفَّةَ احـلامهم وقلَّة عقولهم فامرهُ النعمان بن المنذر ان يبيّن لهُ شيئاً يُعجَب بهِ ملك فارس ويرغبهُ بهِ في العرب. فكتب: «لن يهلكَ امروٌ حتى يضيّعَ الرأيَ عند فعلهِ ويستبدَّ على قومهِ بأمرهِ ويُعجَب بما ظهر من مروءتهِ ويغترَّ بقوَّتهِ والامرُ يأتيهِ من فوقهِ والى الله تصير المصائر» وهي طويلة اكتفينا بهذا

ولمَّا كان يوم الـكُلاب اشار اكثم على قومهِ بني تميم حين سارت اليهم مَذحِجُ باجمعها فقال: « استشيروا وأقِلُّوا الخلاف على امرائكم وكونوا جميعاً فان الجميعَ غالبٌ ولا جماعة لمن اختلف . تثبَّتوا ولا تُسارعوا فانَّ احزم الفريقين اركَنُهما ورُبَّ عجلةٍ تَهَبُ ريثاً »

ومما يدلّ على نصرانيَّة اكثم عدَّة حكم اخذها من الانجيل المقدَّس والاسفار الالهيَّة هذه البعض منها تُروى في العقد الفريد لابن عبد ربّهِ وفي كتاب المعمّرين وفي شرح رسالة ابن زيدون كقولهِ: «أَحسِن يُحسَن اليك. ولكل عمل ثواب. ارحم تُرحَم. وكما تدين تدان. وستُساق الى ما انت لاقٍ. ولا تُلزم أخاك ما ساءك. ولا تكوننَّ راضياً بالقول. ففضل الفعل على القول مكرُمة. حيلةُ ما لا حيلة لهُ الصبر. واستر سوءة اخيك لما تعرفُ فيك. والدالُّ على الخير كفاعلهِ. وجازِ بالحَسَنة ولا تكافئ بالسيئة. افضلُ الزاد ما تُزُوِّد للمعاد»

ولمَّا حضرت اكثم بن صيفي الوفاة جمع ولدهُ وقال: «يا بنيَّ الدهرُ قد ادَّبني وقد احببتُ أن أُؤَدِّبكم وازوِّدكم امرًا يكون لكم بعدي مَعقلاً. يا بنيَّ تبارُّوا فانَّ البرَّ يُنسئ في الاجل ويُنمي العدد وكفُّوا أَلسنتكم فانَّ مقتل الرجل بين فكَّيهِ والصدقُ منجاة ومن قُنع بما هو فيهِ قرَّت عينهُ فانَّ مَصارع الالباب تحت ظلال الطمع ومَن سلك الجدَد أمِن العِثار وخير الامور اوساطها والمِكثار كحاطب ليل ومن اكثر سَقَطَ. لا تمنعنَّكم مساوئ رجل من ذكر محاسنهِ والحرُّ حرٌّ وان مسَّهُ الضرّ ...»

٥ عبد المسيح بن بُقَيلة

احد اعيان نصارى الحيرة الذي اشتهر في الجاهليَّة واوَّل الاسلام. ولشهرتهِ وشيوع اخبارهِ نُسبت اليهِ امور غريبة كقصّتهِ مع سطيح الغسَّاني وكزعمهم انهُ عاش ٣٥٠ سنة. وكلّ من ذكروهُ مجمعون على شرفهِ وثباتهِ في النصرانيَّة بعد الاسلام ومصالحة خالد بن الوليد قومهُ على يدهِ في الحيرة

قال في معجم الشعراء للمرزبانيّ: «هو عبد المسيح الغسَّاني ابنُ عمرو بن قيس ابن حيَّان بن بُقَيلة (وفي الاغاني ١٥: ١١ روى نفيلة وهو تصحيف). وبُقَيلة اسمهُ ثعلبة بن سُنَين (والصواب: سُنَين) الحارث. وسُمّي بُقَيلة لأنهُ خرج في بُردَين اخضرين فقيل لهُ: يا حارث ما انتَ الَّا بُقَيلة خضراء. فغلبت عليهِ». قال ابن دريد في الاشتقاق (ص٢٨٥): «وبنو سُنَين في الحيرة منهم بُقَيلة صاحب القصر الذي يقال لهُ قصر بني بُقَيلة بالحيرة ومنهم عبد المسيح الذي صالح خالد بن الوليد على الحيرة»

وقال ابن الاثير في المرصَّع (ص٤٠) : « ابن بُقَيْلَة جاهليّ قديم من المعمّرين يقال انهُ عاش ثلثمائة وخمسين سنةً وادرك الاسلام فلم يُسلم وعاش الى ان غزا خالد بن الوليد الحيرة في خلافة الصِدّيق (ابي بكر) رض واسمهُ عبد المسيح بن عمرو بن بُقَيْلَة وكان نصرانيًّا » . قال ابو الفرج الاصفهاني (في الاغاني ١٥ : ١١) : « وكان عمرو بن نفيلة (بُقَيْلَة) ابو عبد المسيح وزيرًا للنعمان » . وذكرهُ ابو حاتم السجستاني في جملة المعمّرين (ص ٣٨ éd. Goldziher) . وجاء في كتاب انساب العرب لسَلَمة بن مسلم (Ms de Paris, 2864 ff 197r) : « ومن علماء غسّان وشعرائهم وملوكهم ومعمّريهم عبد المسيح بن عمرو . . . . وهو ابن اخت سطيح » وورد مثل ذلك في التذكرة الحمدونيّة (Ms de Berlin, WE, ff. 216r)

وقد روى بعض الكتبة كابن هشام في سيرة الرسول (ص ٩–١١) والطبري في تاريخهِ (١ : ٩٨٣) وابن عبد ربهِ في العقد الفريد (١ : ١٣٣–١٣٤) وابن العربيّ في المحاضرات (٢ : ٥٠–٥١) اخبارًا غريبة مصنوعة عن وفود عبد المسيح بن بُقيلة على سطيح الكاهن خالهِ لا نُعيرها بالًا لما فيها من التباين والتناقض . زعموا انَّ كسرى اوفد عبد المسيح من العراق الى سطيح الذئبي هذا وكان بالشام وهو خالهُ اشبه بنَسناس منهُ بانسان مسخٌ بلا عظام ليفسّر لكسرى رؤيا رآها استدلّ بها على مولد نبي المسلمين وسقوط دولة ملوك العجم بعد اربعة عشر ملكاً . وممَّا رووا هناك من الاشعار لعبد المسيح قولهُ عند قدومهِ على سطيح فوجدهُ مشرفاً على الموت (من الرجز) :

أَصمُّ أَم يسمعُ (١) غِطْرِيفُ اليمَنْ ... أَمْ فازَ فازْلَمَّ بهِ شأْوُ العَنَنْ (٢)
يا فاصل الخُطَّةِ (٣) أَعيَتْ مَنْ وَمَنْ ... وكاشِفَ الكربةِ في الوجهِ الغضَنْ (٤)
اتاكَ شيخُ الحيِّ من آلِ سَنَنْ ... وامُّهُ من آلِ ذِئبِ بنِ حَجَنْ

١) ويروى: ام تسمعُ ٢) ويروى: ام فاز فازلمَّ بهِ سافُ العَنَن
٣) ويروى: وفاصل الخطبة ٤) ويروى: وفارج الكربة في الامر العَنَن

ازرقُ مُمهَى النابِ(١ صرّارُ الأُذُن ... ابيضُ فضفاضُ الرداء والبَدَنْ
رسول قَيلِ العُجم يَسري للوسَنْ(٢ ... يجوبُ بالارضِ علنداةٌ شَجَنْ
يرفَعُني وَجْناً ويهوي بي وُجُنْ (٣ ... لا يرهبُ الرعدَ ولا ريب الزمَنْ
حتَّى أتى عاري الجآجي والقَطَنْ(٤ ... تلُفُّهُ في الريح بَوْغاءُ الدِمَنْ(٥
كأنَّما حثحثَ من حِضنَيْ ثَكَنْ

ثم قال عبد المسيح عند رجوعهِ الى كسرى بعد ان فسَّر لهُ سطيح الرؤيا وقضى نحبهُ (من البسيط) :

شَمِّرْ فانَّك ماضي الهمّ شِمّيرُ ... لا يُفزعنَّك تشديدٌ وتغزيرُ (٦
ان كان(٧ ملكُ بني ساسانَ أفرطَهم ... فانَّ ذا الدهرَ اطوارٌ دهاريرُ
فربَّما اصبحوا منهم بمنزلةٍ (٨ ... يهابُ صولَهُمُ الأُسدُ المهاصيرُ (٩
منهم بنو الصَّرح بهرامٌ(١٠ واخوتهُ ... والهُرمُزانِ وسابورٌ وشابورُ (١١
حَثُّوا المطيَّ وجَدُّوا في رحالِهمِ ... فما يقوم لهم سرجٌ ولا كُورُ
والناس اولادُ عَلَّاتٍ فمَنْ عَلِموا ... أن قد اقلَّ فمهجورٌ ومحقورُ (١٢
وهم بنو آدمٍ لمَّا رأوا نسباً ... وذاك(١٣ بالغَيبِ محفوظٌ ومنصورُ

١) ويروى: اصكُّ مهمى النابِ ٢) ويروى: يجوي للوسن ٣) ويروى: تحملهُ وجناء تهوي من وجَن ٤) ويروى: غار الجآجي والقطن ٥) ويروى: بوْها الدمن . وثكن جبل في البيداء ٦) ويروى: تفريقٌ وتغييرُ ٧) ويروى: ان يكُ ٨) ويروى: وربَّما ربَّما اضحى بمنزلة ٩) ويروى: موتهمُ . - الاهاصير
١٠) ويروى: اخو الصرح مهرانٌ ١١) ويروى: سابورٌ وسابورُ
١٢) ويروى في مجموعة المعاني (ص ٦٥) : فمجفوٌّ ومهجورُ
١٣) ويروى: وهم بنو الامّ يوماً ان رأوا نشباً فذاك.

والخيرُ والشرُّ مقرونانِ في قَرَنٍ   فالخيرُ مُتَّبعُ والشرُّ محـذورُ (١

وروى في كتاب الحماسة البصريَّة (ج ٢ ص ٣٢ من نسخة مكتبتنا الشرقيَّة) ابياتاً من هذه القصيدة رواها في التاج (٣: ٢١٩) لغيره من الشعراء (من البسيط) :

استَقْـدِرِ اللهَ خيرًا وأَرْضيَنَّ بِهِ   فبينما العُسْرُ اذ دارت مَيـاسيرُ
تأتي امورٌ فما تـدري أَعاجِلُها   خيرٌ لنفسكَ ام مـا فيهِ تأخيرُ
وبينما المرء في الأَحيـاء مغتبطٌ   اذصارفي الرَّمس تعفوهُ الأَعاصيرُ
يبكي الغريبُ عليهِ ليس يعرِفُهُ   وذو قرابتـهِ في الحيِّ مسرورُ
حتى كأَنْ لم يكن الَّا تَـذَكُّرُهُ   والـدهرُ أيَّتَما حينٍ دهـاريرُ

ثمَّ أَتبعها بالثلثة الابيات الاخيرة السابقة مـع اختلاف في بعض الروايات كما اثبتناها

وكان عبد المسيح عباديًا كثير التقى عمّر ظـاهر الحيرة ديرًا بوضع يُقال لـهُ الجَرَعة عُرف بدير الجَرَعة وبدير عبد المسيح (معجم البلدان لياقوت ٢: ٦٥١ و٦٧٧). وفي هذا الدير يقول على ما روى ياقوت (من الرمل) :

كم تجرَّعتُ بدير الجَرَعـهْ   غُصَصاً كِـبْدي بها مُنْصَدِعَهْ
من بُدورٍ فوق اغصانٍ على   كُثُبٍ زُرْنَ احتسـاباً بِيَعَـهْ

وكان قبل تشييدهِ للدير ابتنى قصرًا بالحيرة ذكرهُ ابن حمدون في التذكرة قال : « وهذا القصر هو المعروف بقصر ابن بُقَيْلَة » وروى لهُ بيتين انشدهما لمَّا بناهُ (من الوافر) :

(١) روى ابن عذيل هذا البيت في كتـابهِ عين الادب والسياسة (ص ١٢١) بعد قولهِ « شرُّ ما في الكريم ان يمحك خيرهُ وخيرُ ما في اللئيم ان يكفَّ عنك شرَّهُ »

لقد بُنِيَتْ للحدثانِ حصناً (١ لو أنَّ المرءَ تنفعُهُ الحصونُ

طويلَ الرأسِ أقعسَ مُشمَخِرًّا لانواعِ الرياحِ بهِ حَنينُ (٢

وامَّا اخبارهُ مع خالد بن الوليد فذكرها البلاذري في فتوح البلدان قال (ص ٢٤٣) : « انَّ خالد بن الوليد سار من اليمامة الى العراق سنة ١٢ ﻫ (٦٣٤ م) قاصدًا الحيرة فخرج اليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيَّان بن بُقَيلة (واسم بُقَيلة الحارث وهو من الأَزْد) وهانئ بن قبيصة بن مسعود الشيباني واياس بن قبيصة الطائي ويقال فَرْوة بن اياس وكان اياس عامل كسرى أَبَرْوِيز على الحيرة بعد النعمان ابن المنذر فصالحوهُ على مئة الف درهم ويقال على ثمانين الف درهم في كلّ عام وعلى ان يكونوا عيونًا للمسلمين على اهل فارس وانهُ لا يهدم لهم بيعةً ولا قصرًا . . . وذلك في سنة ١٢ ﻫ . . وكان اهلها تحصَّنوا في القصر الابيض وقصر ابن بُقيلة وقصر العَدَسيّين وهم من كَلْب نُسبوا الى امّهم وهي كلبيَّة ايضًا»

وذكر البلاذري هناك حديثًا فكاهيًا جرى لخالد مع عبد المسيح لمَّا استقبلهُ «فقال لهُ خالد: من اين أَقصى أَثرك يا شيخ؟ فقال: من ظهر امّي. قال: فمن اين خرجت؟ قال: من بطن امّي. قال: ويحك في ايّ شيءٍ انت؟ قال: في ثيابي. قال: ويحك وعلى اي شيءٍ انت؟ قال: على الارض. قال: أَتعقلُ؟ قال: نعم وأُقيِّد. قال: ويحك انَّما اكلّمك بكلام الناس. قال: وانا انَّما أُجيبك جواب الناس. قال: أَسِلْمٌ انت ام حَرْب؟ قال: بل سِلْم. قال: فما هذه الحصون؟ قال: بنيناها للسفيه حتى يجيء الحليم. ثمَّ تذاكرا الصلح فاصطلحا على مائة الف يؤدُّونها في كل سنة . . »

وهذا الخبر قد رواهُ كثيرون فزادوا وانقصوا. منهم الجاحظ في البيان والتبيين (١ : ٢٠٣) والمسعودي في مروج الذهب (١ : ٢٢٠) وصاحب الاغاني (١٥ : ١١-١٢) وذكر هناك انَّ عبد المسيح كان اعدَّ لنفسهِ سمَّ ساعةٍ ليشربهُ ان لم يقوَ على مصالحة خالد فتناولهُ خالد وسمَّى اسمَ الله واكلهُ « فتجلَّتهُ غشيةٌ ثمَّ افاق يمسح العرق عن وجههِ فرجع ابن نفيلة (بُقَيلة) الى قومهِ فاخبرهم بذلك وقال: ما هؤلاء القوم الَّا من الشياطين وما لكم بهم طاقة فصالحوهم على ما تريدون ففعلوا »

---

١) ويروى: بيتًا ٢) ويروى: رفيعَ الرأس احوى . ويروى: اعلى . . بانواع

وممّا رُوي من خِدَم عبد المسيح للعرب ما ذكرهُ صاحب أنساب العرب (Ms. de Paris 2864, ff. 282) قال : انّ عُمر كتب الى سعد بن ابي وقّاص بعد فتح المدائن انّ العرب لا تصلح الّا بارضٍ تصلح بها الإبل . فأتاهُ ابن نفيلة (بُقيلة) العبادي فقال : ادلّك على بقعةٍ ارتفعت عن البقّة وسفلت عن الفلاة ؟ فدلّهُ على موضع الكوفة . قال ياقوت (٤ : ٣٢٣) وكان يقال لهُ سُورَستان . وقال ايضاً (٢ : ٦٧٧) انّ عبد المسيح بقي في ديره حتى مات وخرب الدير بعد مدّة

أمّا شعر عبد المسيح فمتفرّق نروي ما وجدنا منهُ في مخطوطات مكتبتنا الشرقيّة ومطبوعاتها . فمن قوله ما انشدهُ بعد مصالحة خالد (في الوافر) :

أَبَعْدَ المُنذِرَيْنِ أرى سَواماً ... تُرَوَّحُ بالخَوَرْنَقِ والسَّديرِ (١
تَحاماهُ فوارسُ كلّ حيٍّ ... مخافةَ ضَيغَمٍ عالي الزئيرِ (٢
وبعدَ فوارسِ النُّعمان ارعى ... قَلوصاً بين مُرَّةَ والحَفيرِ (٣
فصِرْنا بعدَ هُلْكِ ابي قُبَيسٍ ... كجُرْبِ المَعْزِ في اليومِ المطيرِ (٤
تَقَسَّمُنا القبائلُ من مَعَدٍّ ... عَلانيةً كأيسارِ الجَزُورِ (٥
وكنّا لا يُرامُ لنا حريمٌ ... فنحنُ كضَرَّةِ الضَّرْعِ الفَخورِ
نؤدّي الخَرْجَ بعد خراجِ كسرى ... وخَرجٍ من قُرَيْظةَ والنَّضيرِ (٦
كذاك الدهرُ دولتُهُ سجالٌ ... فيومٌ (٧ من مساءةٍ أو سرورِ

ووجدنا في بعض مخطوطات باريس (Ms. 1842 ff. 73) قولهُ (مجزوء الكامل) :

المرءُ يأمُلُ أنْ يعيشَ م ... وطولُ عيشٍ قد يَضرُّهْ

١) ويروى : سوى ما يَروح على الخورنق ٢) ويروى : مخافة أغضفٍ
٣) ويروى : ارعى رياضاً بين مزّةَ . . وبين مكّة
٤) ويروى : بعد مُلْك ابي قَبُوسٍ كمثل الشاء . . ٥) ويروى : كأنّا بعضُ اجزاء الجزور . . . وبعض اعضاء ٦) ويروى : يُؤدّي . . وتُؤدّي . ويروى : بعد خراج بُصرى . وخَرْج بني قريظة . . وقريضة ٧) ويروى : يومٍ

تَـفنى بشاشتــهُ ويـأ تي بعد حلوِ العيش مُرّهْ
وتسرُّهُ الأيام حـتى م ـايرى شيئاً يَسُرُّهْ

وجاء في التذكرة الحمدونيَّة (Ms de Berlin) : وفي معجم البلدان (٢ : ٦٧٧) ذكر انَّ بعض مشايخ اهـل الحيرة خرج الى ظهرهـا يختطُّ ديرًا فلمَّا حفر موضع الاساس وامعن في الاحتفار اصاب كهيئةِ بيتٍ وظهرَ أزَجٌ معقود من حجارة فظنُّوه كنزًا ففتحوهُ فاذا على سرير من رخام عليهِ رجل ميّت وعنـد رأسهِ لوح فيهِ « انا عبد المسيح بن بُقيلة » (وافر) :

حلبتُ الدهرَ اشطرَهُ حيـاتي ونـلتُ من المُنى بُلَغ المَزيدِ (١
وكافحتُ الامورَ وكافـحتْني ولم أحفِـل بمُعضِـلةٍ كؤودِ (٢
وكِـدتُ أنالُ بالشَّرَفِ الثُرَيَّا ولـكن لا سبيـلَ الى الخلودِ

وممَّا روى القالي في اماليهِ لعبدالمسيح(١ : ٢٤٠) ما تمثَّل بهِ ابو جهم لمعاوية قال: نحنُ عندك يا اميرَ المؤمنين كما قال عبد المسيح لابن عبد كلال (وافر) :

نَميلُ على جوانبـهِ كأنَّا نَميلُ اذا نَميلُ على ابينا
نقلِّبـهُ لِنَـخبُرَ حالتَيـهِ فنَخبُرُ منهما كرَماً ولِينا

فامر لهُ بمائة الف

٦ الحُرقة هند بنت النعمان

هي التي تُعرَف بهند الصُغرى ابنة النعمان بن المنذر ملك الحيرة . قال ابو الفرج في كتاب الاغاني (٢ : ٣٢—٣٣) : « انَّ هندًا كانت من اجمل نساء اهلها وزمانها وأمُّها مارية الكنديَّة . . . رآها عديّ بن زيد الشاعر النصرانيّ العبـادي وزير النعمان يوم

١) ويروى : بلغ فوق المزيد ويروى : ولم اخضع لمعضلةٍ ٢) ويروى في الشرق

خميس الفصح اذ دخلت البيعة مع حاشيتها وعمرُها حينئذٍ احدى عشرة سنة فهَويها . ثم اتى النعمان بعد الفصح بثلاثة ايّام وذلك في يوم الاثنين فسألهُ ان يتغدّى عنـدهُ هو واصحابهُ فلمّا اخذ منهم الشراب خطبها الى النعمان فاجابهُ وزوّجهُ وضمّها اليهِ . قـال خالد بن كلثوم : فكانت معهُ حتى قتلهُ النعمان (١ فترَّهبت وحبست نفسها في الدير المعروف بدير هند في ظاهر الحيرة . وقال ابن الكلبيّ : بل ترَّهبت بعـد ثلث سنين ومنعتهُ نفسها واحتبست في الدير حتى ماتت وكانت وفاتها بعد الاسلام بزمن طويل في ولاية المُغيرة بن شعبة الكوفة وخطبها المغيرة فردَّتهُ » . وروى ابن حبيب عن ابن الاعرابي انَّ النعمان لمَّا حبس عديًّا اكرهَهُ في امرها على طلاقها ولم يزل بهِ حتى طلّقها وقيل انها ترَّهبت وبنت ديرها المنسوب اليها بعد ان حبس كسرى اباهـا ومات في حبسهِ . اقامت في ديرها مترهّبة حتى ماتت فدُفنت فيهِ

وممَّا رواهُ ايضاً ابو الفرج (في الاغاني ٢ : ٣٣) انَّ هندًا بنت النعمان كانت تَهوى زرقاء اليمامة وانَّها ترَّهبت لمَّا قُتلت الزرقاء . وقد اصاب اسماعيل الموصلي في كتـاب الاوائل (خزانة الادب ٣ : ١٨٢)منتقدًا لزعمهِ : «وفي قول ابي الفرج نظرٌ فانَّ هندًا بنت النعمان ماتت في ولاية المغيرة بن شعبة على الكوفة وزرقـاء اليمامة من جديس في زمن ملوك الطوائف وبينهما زمان طويل فما اعلم من اين وقع لابي الفرج هذا »

ويلوح من اخبار العرب انَّ الحُرَقة ابنة النعمان بعد ان قتل ابوها عديًّا وقتـل كسرى اباها طلبها كسرى والحَّ في طلبها فابت الاقتران بهِ . قال في العقد الفريد : «لمَّا قُتل النعمان استجارت الحرقـاء (الحُرَقة) بحَيَّيْ بكر وتغلب من كلّ طـالب يطلبها والحَّ كسرى في طلبها فاجتمعت القبائل وجرت وقائع يطول ذكرها . ثم انَّ الحُرقاء لبست المسوح وتعفَّفت من الازواج »

وقد بنى رواة العرب على ذلك رواية تاريخيَّة في كتاب «حرب بني شيبـان مع كسرى انوشروان في شأن الحُرقة ابنة النعمان» منهُ نسخـة خطّيَّة في مكتبة لندن (Ms. 913) وفي مكتبتنا الشرقيَّة . وقد طُبع هذا الكتاب في بمباي سنة ١٣٠٥هـ . وقد ورد هناك ابيات للحُرقـة نظنُّها مصنوعة . فمن ذلك قولها لمَّا استجـارت ببعض قبائل اياد وغسَّان فأبوا ان يجيروها خوفاً من كسرى فقالت (من الكامل) :

١) اطلب ترجمة عدي بن زيد في شعراء النصرانيَّة في الجاهليَّة (ص ٤٣٩–٤٥٠)

لم يبقَ في كلّ القبائلِ مطمعٌ لي في الجوارِ فقتلُ نفسي أعوَدُ
ما كنتُ احسبُ والحوادثُ جمَّةٌ انّي اموتُ ولم يَعُدْني العُوَّدُ
حتّى رأيتُ على جرايةِ مَولِدي ملكاً يزولُ وشملُهُ يتبدَّدُ
فدُهيتُ بالنّعمان اعظمَ دُهيةٍ ورجعتُ من بعد السَّمَيدع أطرَدُ
وغَشيتُ كلّ العُرْبِ حتّى لم أجد ذا بِرَّةٍ حسَن الحفيظةِ يُنهَدُ
ورجعتُ في أكدار نفسي لا أعي عطشاً وجوعاً حرُّهُ يتوقّدُ
يا نفسي موتي حسرةً واستيقني سيضمُّ جسمَكِ بعد ذاك المُلحَدُ
خاب الرجا ذهب العزا قلّ الوفا لاالسهلُ سهلٌ ولا نجودي أنجُدُ
جمدتْ عيون الناسِ من عَبَراتها وقلوبهم صمٌّ صِلادٌ جَلمَدُ
لا يرحمونَ يتيمةً مكروبةً مقتولةَ الآباء نِضوًا تُطرَدُ
تبغي الجِوارَ فلا تُجار وقبل ذا كان المنادي للجوار يُسَوَّدُ
افٍّ لدهرٍ لا يدومُ سرورُهُ ولخصبِ عيشٍ غَضُّهُ يتنكّدُ
ما الدهرُ الّا مثلُ ظلٍّ زائلٍ وبدورِ شمسٍ فارقَتْها الأسعُدُ
وصروفُ هذا الدهرِ اعظمُ مطلباً للأعظمينَ فهلْكُهم يتودَّدُ
قومي تهيَّئي للممات فانّهُ أولى بذي حزنٍ اذا لا يُسعَدُ

وقالت لما استجارت ببني شيبان وادخلتها صفيّة بنت ثعلبة في حمى قومها (من الكامل) :

أَحيُوا الجوارَ فقد اماتَتْهُ معاً كلُّ الاعاربِ يا بني شيبانِ
شيبانُ قومي هل قبيلٌ مثلهم عند الكفاحِ وكرّةِ الفرسانِ

لا والذوائبِ من فروع ربيعةٍ   ما مثلهم في نائب الحدثانِ
قومٌ يُجيرون اللهيفَ من العدى   عند الكفاح ومن صروف زمانِ
يا آل شيبان ظفرتم في الدُّنى   بالفخر والمعروف والاحسانِ

ثمَّ ذكروا ما جرى بين جيوش العجم وبني شيبان من الوقائع التي جعلوا ختامها يوم ذي قار . وهو من اشهر ايام العرب انتصروا فيهِ على جيوش فارس . وذو قار هذه وادٍ متاخم لسواد العراق يذكر العرب فيهِ يومين والمُراد هنا هو يوم ذي قار الثاني الذي وقع نحو السنة ٦١١ للميلاد قبل الهجرة باحدى عشرة سنة . وامَّا اختلفوا في سببهِ . وقد جعلهُ هنا صاحب حرب بني شيبان وكسرى المدافعةَ عن الحرقة بنت النعمان والله اعلم . وممَّا رووا لها قولها تحرّض بني شيبان على مقاتلة العجم فقالت تخاطب زعيمهم عُمر بن ثعلبة (من الكامل) :

حافظ على الحسبِ النفيس الارفعِ   بمدجَّجين مع الرماح الشُّرَّعِ
وصوارمٍ هنديَّةٍ مصقولةٍ   بسواعدٍ مفتولةٍ لم تُمنَعِ
وسلاهبٍ من خيلكم معروفةٍ   بالسَّبْق عاديةٍ بكلّ سَمَيْدعِ
واليومُ يوم الفصل منك ومنهمُ   فاصبرْ لكلّ شديدةٍ لم تُدفَعِ
يا عمرو يا عَمْرَ الكفاحِ فتى الوغى   يا ليثَ غابٍ في اجتماع المجمعِ
احذر على فقدان صبرك واظفرَنْ   فتُضيعَ مجداً كان غير مضيَّعِ
أَظهر وفاءً يا فتًى وعزيمةً   كيما يُذَاعُ بفخركم في تُبَّعِ

وقالت الحرقة ايضاً لعمروٍ (من الطويل) :

فديتك من عمروٍ يروحُ ويَغتدي   ببأسٍ اذا ناواهُ قومٌ بهائلِ
رغمنا بعمروٍ أنف كسرى وجندهِ   وما كان مرغوماً بكل القبائلِ

وهذا قُصارى الامرِ فاحملْ محسَّرًا لكُمَيك ما بين الظُّبي والذوابلِ

وقالت بعد انتصار بني شيبان تمدح صفيَّة اخت عمرو بن ثعلبة وقومها (من الكامل) :

المجدُ والشرفُ الجسيمُ الارفعُ لصفيَّةٍ في قومها يُتوقَّعُ
ذات الحجابِ لغيرِ يومِ كريهةٍ ولدى الهياج يُحَلُّ عنها البُرْقعُ
لا أنسَ ليلة اذ نزلتُ بسوحها والقلبُ يخفقُ والنواظرُ تدمعُ
والنفس في غمراتِ حربٍ فادحٍ وَلَها الفؤادِ كئيبةٌ اتفجَّعُ
مطرودةٌ من بعد قتل ابوَّتي ما ان أُجارُ ولم يسَعْني المضجعُ
ويئستُ من جارٍ يُجير تكرُّماً فأُجِرْتُ واندملَتْ هناك الأَضلعُ
فألحَّ كسرى بالجنود عليهمُ وطميحُ يُردفُ بالسيوفِ ويدفعُ
كم زادهم من غارةٍ ملمومةٍ بالقَبِّ تَقطُبُ والاسنَّةُ تلمعُ
وهمُ عليهِ واردون بعزمهم والنصرُ تحت لوائهم يترعرعُ
حتَّى غدا العجميُّ في اجنادهِ والقومُ جرحى والمذاكي ضُلَّعُ
قد أهلكَ الدهرُ الغواةَ بفعلهم والحقّ بان ونورهُ لا يُقلعُ

وذكر الراوي بعد ذلك مصالحة كسرى للعرب وزواج الحرقة مع ابن عمها الملك الرَّيان بن المنذر الذي ادرك الاسلام ومات في سنة الهجرة في يوم أُحد · على انَّ هذه الرواية تخالف ما سبق من امتناع الحُرقة هند بنت النعمان عن الزواج بعد موت ابيها وانحباسها في الدير الذي شيَّدتهُ في الحيرة

ثمَّ انَّ الكتبة لم يقتصروا على ما ذكروهُ من امر هند بنت النعمان وانَّما زعموا انَّ الحجَّاج بن يوسف الثقفي عامل الامويّين على الكوفة خطبها لحسنها وبذل لها

مالًا كثيرًا فتزوَّجها وانَّما تركتْهُ وهجته فطلّقها فاعطت مَن بشَّرها بخلاصها منهُ مائتي الف درهم . هكذا ورد في الكتاب الرابع من الف ليلة وليلة (ص ٦٩) . وجاء هناك انَّ امير المؤمنين عبد الملك بن مروان ارسل اليها يخطبها فاشترطت عليهِ ان يأمر الحجَّاج فيقود مَحملها الى دمشق لتعبث بهِ . ولمَّا اخذ بزمام بعيرها كشفت ستارة المحمل وضحكت منهُ . فانشد هذا البيت :

فان تضحكي يا هندُ يا رُبَّ ليلةٍ ... تركتُكِ فيها تسهرينَ نَواحا

فاجابتهُ بهذين البيتين (من البسيط) :

وما نُبالي اذا ارواحنا سَلِمت ... بما فقدناهُ من مالٍ ومن نشَبِ
فالمالُ مكتسَبٌ والعزُّ مرتجعٌ ... اذا اشتفى المرءُ من داءٍ ومن عطبِ

وروى هناك انَّها رمت من يدها بدينار وزعمت انهُ درهم طلبت من الحجَّاج ان يناولهُ ايَّاها فقال : هذا دينار ليس درهماً . فقالت : الحمد لله الذي عوَّضنا بالدرهم الساقط دينارًا فناولنا ايَّاهُ . فخجل من ذلك ثمَّ اوصلها الى قصر امير المؤمنين عبد الملك ابن مروان ودخلت عليهِ وكانت محظيَّةً عندهُ

ولا غرو ان هذه الرواية ايضاً مصنوعة لانَّ موتها وقع قبل عهد الحجَّاج وملك عبد الملك بن مروان كما سترى . ورد في معجم ما استعجم للبكري (ص ٣٦٢) «انَّ هند بنت النعمان التي تُعرَف بحُرَقة (ويُقرأ بحُرَيقة) هي التي دخلت على خالد ابن الوليد لما افتتح الحيرة فقال لها : أَسلِمي حتى ازوّجك رجلًا شريفاً من المسلمين . قالت : امَّا الدين فلا رغبة لي عن ديني ولا ابتغي بهِ بدَلًا وامَّا التزويج فلو كانت في بقيَّة لَما رغبتُ فيهِ فكيف وانا عجوز هامَّةُ اليوم او غدٍ»

وكان فتحُ خالد للحيرة السنة الثانية عشرة للهجرة فوجد هندًا عجوزًا فكيف امكن عبد الملك بعد ذلك بخمسين سنة ان يخطبها ? ومنهُ ترى ما في اخبار العرب من الاضطراب . ثم اردف البكري : « وقال خالد لهند : سَليني حاجتكِ . فقالت : هؤلاء النصارى الذين في ايديكم تحفظونهم . فقال : هذا فرضٌ علينا وقد وصَّانا بهِ نبيُّنا . قالت : ما لي حاجة غير هذه انا ساكنة في دير بنيتُهُ ملاصق هذه الأَعظُم البالية من اهلي حتى أَلحَقَ بهم . فامر لها بمعونة ومال وكسوة . فقالت : «ما لي الى شيءٍ

من هذا حاجة. لي عبدان يزرعان مزرعةً لي القوتُ منها ما يُمسك رمقي (رَمَقي) ».
وزاد ياقوت على هذا في معجم البلدان (٢: ٧٠٨) انَّ خالدًا « قال لها: اخبريني بشيءٍ ادركتِ. قالت: لقد طلعت الشمس بين الخورنق والسَّدير الّا على ما هو تحت حكمنا فما امسى المساء حتى صرنا خَوَلًا لغيرنا ثمَّ انشأت تقول (من الطويل):

بينا نسوسُ النـاسَ والامرُ أَمرُنا اذا نحنُ فيهم سُوقةٌ نتنصَّفُ (١
فتبًّا لـدنيا لا يـدومُ نعيمُها تَقلَّبُ تاراتٍ بنا وتَصرَّفُ (٢

ثم قالت: « اسمع مني دعاءً كنّا ندعو بهِ لأَملاكنا: شكرتْكَ يدٌ افتقرتْ بعد غنًى ولا ملكتْك يدٌ استغنت بعد فقر. واصاب الله بمعروفك مواضعهُ ولا ازال عن كريمٍ نعمةً الّا جعلك سببًا لردّها اليهِ ولا جعل لك الى لئيم حاجةً وعقد لك المِنَن في اعناق الكرام ». (قال) فتركها وخرج فجاءها النصارى وقالوا: ما صنع بكِ الامير؟ قالت:

صـان لي ذمَّتي واكرَمَ وجهي انّمـا يُـكرِمُ الكريمَ الكريمُ

وروى ابو الفرج في الاغاني (١٤: ١٤١) والمبرَّد في الكامل (éd. Wright, ٢٦٦) قالا: ركب المُغيرة بن شُعبة وهو والي الكوفة فصار الى دير هند بنت النعمان وهي عمياء مترهّبة بنت تسعين سنة فاستأذن عليها فقيل لهـا: امير هذه المَدَرة بالباب. فقالت: قولوا لهُ: أَمِن ولدِ جبَلة بن الأَيهم انت؟ قال: لا. قالت: افمن ولد المنذر بن ماء السماء انت؟ قال: لا. قالت: فمن انت؟ قال: انا المغيرة بن شعبة. قالت: انت عامل الكوفة؟ قال: نعم. قالت: فما حاجتُك؟ قال: جئتك خاطبًا. قالت: لو جئتني لجمالٍ او لمالٍ لأَجبناك: « مالي رغبة لجمال ولا لكثرة مال » ولكنك اردتَ ان تتشرَّف في محافل العرب فتقول: تزوَّجتُ بنت النعمان بن المنذر والّا فايُّ خيرٍ في اجتماع أعورَ وعمياء. هذا والصليب ما لا يكون ابدًا أوما يكفيك فخرًا ان تكون في مُلك النعمان وبلادهِ فتدبّرها كما تريد. فقال: وكيف كان امركم. قالت: « سأختصر لك

١) ويروى: فبينا نسوق ... ونتنصَّف اي نُتَّخذ كخدم. الناصف الخادم
٢) ويروى: فافٍّ لدنيا

الجواب أَمسينا مساء وليس في الارض عربيٌّ الّا وهو يرغب الينا ويرهبنا ثمَّ اصبحنا وليس في الارض عربيٌّ الّا ونحن نرغب اليـهِ ونرهبهُ • .قالت هذا وبكت فخرج المغيرة وهو يقول :

ادركتُ ما منَّيتُ نفسي خـالياً ... للّهِ دركِ يـا ابنـةَ النعمانِ

فلقد رددتِ على المغيرة ذهنَـهُ ... انَّ الملوكَ ذكيَّـةُ الاذهـانِ

اني لِحَلْفِكِ بالصليب مصدّقٌ ... والصَّلْبُ اصدقُ حلفةِ الرهبانِ

وكانت بعد ذلك تدخل عليهِ فيكرمها ويبرُّها

واخبر الجاحظ في كتاب المحاسن والمساوئ(ص١٧٥)وابن العربيّ في محاضرة الابرار (٢ : ٢٢٥) وغيرهما قالوا : زعموا انَّ زياد بن ابيهِ مرَّ بالحيرة فنظر الى دير هناك فقال لخادمهِ : لمن هذا ؟ قال: دير حُرَقة بنت النعمان بن المنذر . فقال:ميلوا بنا اليهِ لنسمع كلامها . فجاءت الى وراء الباب فكلَّمها الخادم فقـال لها : كلّمي الامير . قالت : أأوجزُ ام أُطيل ؟ قال: بل أَوجزي. قالت : كنّا اهل بيت طلعت الشمس علينا وما على الارض احد اعزُّ منّا فما غابت تلك الشمس حتى رَحِمَنا عدوُّنا . (قال)فامر لهـا بأوساقٍ من شعير فقالت : أَطعمتْك يدُ شَبْعى جاعت ولاأَطعمتك يدُ جَوْعى شبعتْ . فسُرَّ زياد بكلامها فقال لشاعر معهُ : قيّد هذا الكلام لِيُدْرَس فقال :

سَلِ الخيرَ اهلَ الخير قدماً ولا تَسَلْ ... فتًى ذاق طعمَ الخيرِ منـذُ قريبِ

ويقال انَّ فروة بن اياس بن قبيصة انتهى الى دير حُرقة بنت النعمان فألفاها وهي تبكي فقال لها : ما يُبكيكِ ؟ قالت : ما من دارٍ امتلأَت سروراً الّا امتلأَت بعد ذلك ثبوراً ثم قالت : فبينا نسوس . . . (البيتان)

واخبر الطرطوشي في سراج الملوك وعبد القادر البغدادي في خزانة الادب (٣ : ١٨٢) والخفاجيّ في شرحهِ على درَّة الغوّاص (ص ٢٥٢) وابن العربي في المسامرات (١ : ١٤١) قالوا : لمّا قدم سعد بن ابي وقّاص القادسيَّة اميراً قيل لهُ : هاهنا عجوز من بنات الملوك يقال لها الحُرقة بنت النعمان وكانت من اجلّ عقائل العرب وكانت اذا خرجت من بيتها نُشرَتْ عليها الف قطيفةِ خزّ وديباج ومعها الفُ وصيفةٍ . فارسل اليها سعد فجاءت كالشنّ البالي في جَوارٍ لها زُيّن كزيّها فلمّا وقفنَ بين يديهِ قال :

أيّتكنَّ حُرقة ؟ قالت هي : «انا حُرقة فما تكرارك الاستفهام عني ؟ انّ الدنيا دار قُلعة وزوالٍ وانّها تنتقل باهلها انتقالاً ولا تدوم على حال . يا سعد كنّا ملوكَ هذا المِصر قبلك يُجبَى الينا خراجُهُ ويطيعنا اهلُهُ . فلمّا أدبر الامر وانقضى صاح بنا صائح الدهر فصدَّعَ عصانا وشتّت ملأنا والدهرُ ذو نوائب وصروف . فلو رأيتنا في ايّامنا لأرعدتْ فرائصكَ فرقاً منّا . فقال لها سعد : ما انعمُ ما تنعَّمتم بهِ ؟ قالت : سَعَة الدنيا علينا وكثرة الاصوات اذا دعونا . ثمَّ انشأت تقول من شعر لها : فبينا نسوسُ . . . (البيتان) . فقال سعد : قاتل الله عديَّ بن زيد كأنّهُ ينظر لهذه حيث يقول :

انّ للدهر صولةً فاحذرَنْها لا تبيتنَّ قد امنتَ الدهورا
كم يبيتُ الفتى معافًى فيَرْدى ولقد باتَ آمنًا مسرورا

ثمَّ قالت : «يا سعد انهُ ليس من قوم في يُسْرة الّا والدهر يُعقبهم حسرةً حتى يأتي امرُ الله على الفريقين» . فأكرمها سعد واحسن جائزتها

قال ابن العربيّ في محاضرة الابرار (١ : ١٤٢) . فبينما هي تخاطب سعداً اذ دخل عمرو بن معدي كرب فقال : انتِ حُرقة التي كانت تُفرَش الارض من قصركِ الى بيعتك بالديباج المبطَّن الموشّى ؟ قالت : نعم . قال : ما الذي دهمكِ واذهبَ محمود شيَمكِ وغوَّرَ ينابيع نِعَمكِ وقطع سَطَوات نقمكِ . قالت : يا عمرو انَّ للدهر عثرات تُلحق السيّدَ من الملوك بالعبد المملوك وتخفض ذا الرفعة وتُذلّ ذا النعمة وانَّ هذا امرٌ كنّا ننتظرهُ فلمّا حلّ بنا لم ننكرهُ

وروى ابن العربيّ ايضاً (٢ : ٣٥٢) عن اسحاق بن طلحة بن عبيدالله قال : دخلتُ على خرقة (حُرَقة) بنت النعمان وقد ترهَّبت في ديرٍ لها بالحيرة وهي في ثلاثين جارية لم يُرَ مثل حسنهنَّ قطّ فقلت : يا خرقة (حرقة) كيف رأيتِ في الدنيا غِيَرات الملك ؟ قالت : «ما نحنُ فيهِ اليوم خيرٌ ممّا كنّا امس . أنّا نجد في الكتب انهُ ليس من اهل بيت يعيشون في حَبْرة الّا سيُعقَبون بعدها عَبْرة . وانَّ الدهر لم يظهر لقوم بيومٍ يحبّونهُ الّا بَطَنَ لهم بيوم يكرهونهُ . وانَّ على ابواب السلطان كاخوانٍ من الفتن من اصاب من دنياهم شيئاً اصابوا من دينه مثلَيْهِ وقد قلتُ في ذلك شيئاً» . فقلتُ : وما هو ؟ فقالت : بينا نسوسُ . . . (البيتان)

ومن شعرهـا ما رواهُ صاحب الاغاني (٢٠ : ١٣٥) تحرّضُ قومها يوم ذي قار (من الوافر) :

ألا أبلغ بني بكرٍ رسولًا فقــد جَدَّ النفيرُ بعَنقفــيرِ
فليتَ الجيشَ كلُّهمُ فداكم ونفسي والسريرَ وذا السريرِ
كأني حين جدَّ بــهِ اليكم معلَّقةُ الــذوائب بالعُبُورِ
فلو انّي أَطَقْتُ لذاكَ دفعاً اذن لدفعتُهُ بدمي وزيري

وقــد وقفنا للحُرقة في نسخة مخطوطة من الحماسة في مكتبتنا الشرقيّــة (ص ١٣٥) على رثاء قالتهُ في عدَّاء وهو زوجُها الاوَّل عديّ بن زيد (من الطويل) :

أَعدَّاءُ مَنْ لليَعْمَلاتِ على الوَجى واضيــافِ ليــلٍ بيَّتوا لنزولِ
أَعدَّاء مــا للعيش بعدكَ لــذَّةٌ ولا لــلخليل بهجــةٌ بخليــلِ
اعــدَّاء ما وجدي عليــك بهيّنٍ ولا الصبرُ ان أُعطيتُهُ بجميــلِ
كــأنّي والعــدَّاءُ لم نَسْرِ ليلــةً ولم نُزْجِ أَنضــاءً لهنَّ ذميــلُ
ولم نَلوِ رَحْلَينــا ببيــداءَ بَلْقعٍ ولم نَرْمِ جَوْزَ الليلِ حيث يميلُ

هذا ما حصلنا عليهِ من آثار تلك المرأة التي تمتّعت دهرًا بنعيم الدنيا ثمَّ زهدت بملاذّها الباطلة وانقطعت في ديرها الى خدمة باريها الى آخر انفاسها فماتت كما قال في الاغاني في ولاية المغيرة بن شعبة اعني نحو ٢٠ للهجرة (٦٤٢ م) ودُفنت في ديرها

٧ الزِّبْرِقان بن بَدْر

هو الحُصَين بن بَدْر بن امرئ القيس بن خلف بن بَهْدلة بن عوف بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم . والزِّبرقان لقبٌ ومعناهُ القَمر سُمّي بهِ لجمالهِ ودُعي

لذلك بقمر نَجد . وقال السُّهَيلي «بل سُمّي بالزبرقان لانهُ كان يُرفَع لـهُ بيت من عمائم وثياب وينضح بالزعفران والطيب وكانت بنو عامر تحجُّهُ » . وقال قوم : انّما سُمّي بالزبرقان لخفَّة لحيتهِ . وقال غيرهم لانهُ كان يصبغ عمـامتهُ بالزَّعفران وكانت سادة العرب تفعل ذلك (الاشتقاق لابن دريد ١٥٥—١٥٦) . وكان الزبرقان يُكنَّى ابا العبَّاس وكان لهُ بنون العبَّاس وشدرة وعيَّاش ربَّما كُني بهم وكانت ابنتهُ بكرة ابنة هُنَيدة بنت صعصعة بن ناجية تزوَّجها الحكم بن عثمان بن ابي العـاص وهي امّ يزيد بن الحكم قيل انَّها اوَّل عربيَّة ركبت البحر فأُخرج بها الى الحكَم وهو يتوَّج (الاغاني ١١ : ١٠) . وكانت بعض قبائل العرب تتفاخر بالزبرقان وتنسبهُ الى قومها . فقيل لـهُ : انك من بني عامر ذي المجَاسد وكان سيّدهم وصـاحب مرباعهم فقال (من الطويل) :

إنْ أكُ من كَعْب بن سَعْـدٍ فانَّني رَضِيتُ بهم من حيّ صِدْقٍ ووالدِ
وانْ يكُ من كعبِ بن يَشكُرَ مَنصِبي فـانَّ ابانا عـامرٌ ذو المَجَاسـدِ

وكان الزبرقان من نصـارى تميم والدليل عليهِ قولـهُ لمحمَّد يفتخر بقومهِ تميم وبتشييدهم للبيَع (الطبري ١ : ١٧١٢ سيرة ابن هشام ٩٣٥) :

نحنُ الكرامُ فلا حيٌّ يعادلنـا منَّا الملوكُ وفينـا تُنصَبُ البيعُ

وذلك انهُ وفد على رسول الاسلام السنة التاسعة للهجرة مع بني تميم وهم على ما روى صاحب الاغاني (٤ : ٨—٩) سبعون او ثمانون رجلًا فيهم الاقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعُطارد بن حاجب وقيس بن عاصم وعمرو بن الاهتم فقدموا المدينة ودخلوا المسجد فوقفوا عند الحجَرات فنادوا بصوتٍ عالٍ جافٍ : اخرُج الينا يا محمَّد فقد جئنا لنفاخرك وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا . ثمَّ ذكر هناك ما دار بينهم من الخطب ثمَّ قالوا : يا محمَّد ائذَنْ لشاعرنا . فقال : نعم . فقام الزبرقان وقال :

نحن الكرامُ فلا حيٌّ يُعادلنـا منا الملوكُ وفينا تُنْصَبُ البيَعُ (١

١) وروى في الاغاني :
نحنُ الملوكُ فلا حيٌّ يقـاربنا منَّا الملوك وفينـا يؤخذ الرّبَعُ
ويروى : فينا تُقسم الرّبَعُ

تلك المكارمُ حُزناها مُقارعةً ... اذا الكرامُ على أمثالها اقترعوا
كم قد نشدنا من الأحياء كلِّهمِ ... عند النِّهاب وفضلُ العزِّ يُتَّبعُ (١
ونحرُ الكُوم عَبطاً في أرُومتنا ... للنازلين اذا ما استطعموا شبعوا (٢
ونحن نُطعم عند القَحْط مَطعمنا ... من العَبيط اذا لم يَظهر القَزَعُ (٣
ونَنصرُ الناسَ تأتينا سَراتُهمُ ... من كلِّ أوبٍ فنمضي ثمَّ تتَّبعُ (٤
فلا ترانا الى حيٍّ نُفاخرهم ... الّا استقادوا وكاد الرأس يَقتطعُ (٥
فمن يفاخرُنا في ذاك نعرفُهُ ... فيرجعُ القومُ والاخبارُ تُستَمَعُ (٦
اذا أبينا فلا يأبى لنا احدٌ ... انّا كذلك عند الفخر نرتفعُ (٧

وروى لهُ ابن هشام في سيرة الرسول (ص ٩٣٧) قولهُ يخاطب محمَّدًا ورواهُ في الاغاني لعطارد بن حاجب (طويل) :

اتيناك كَيما يعلَم الناسُ فَضلَنا ... اذا اختلفوا عند احتضارِ المواسمِ (٨
بأنَّا فروعُ الناس في كلِّ موطنٍ ... وأنْ ليس في ارض الحجازِ كدارمِ

ثم رووا هناك ما ردّ بهِ عليهِ حسَّان بن ثابت . وزعموا انَّ الوفد اسلموا ومنهم الزبرقان وانَّ نبيَّ الاسلام استعملهُ على صدقة قومهِ بني تميم . قال ابن سعد في طبقاتهِ (٧ : ٢٤) : « فقُبض رسول الله صلعم وهو عليها وارتدَّت العرب ومنعوا الصدقة وثبت الزبرقان بن بدر على الاسلام واخذ الصدقة من قومهِ فأدَّاها الى ابي بكر

١) ويروى : وكم قسَرْنا ٢) ويروى : عَبْطا في منازلنا . . اذا ما أُنزلوا
٣) ويروى : عند المحلّ ما اكلوا من الشواء اذا لم يؤنس القَزَعُ . ويروى : القَرَع والقَزَعُ ٤) ويروى : بما ترى الناس . . من كلّ ارض هويًّا ثمَّ نصطنعُ . ويروى : ثمَّ ترى . . . هوانا متَّبَعُ ٥) ويروى : فكانوا الرأس ٦) ويروى : فمن يقادرنا في ذاك يعرفنا فيرجع القولُ ٧) ويروى : انَّا ابينا ولا . . . عند الفجر
٨) ويروى . اذا اجتمعوا وقت

الصدّيق وكان ينزل ارض بني تميم ببادية البصرة وكان ينزل البصرة كثيرًا»

وقال ابن سلّام الجُمَحيّ في كتاب طبقات الشعراء (ص ٢٥) : «وكان الزبرقان شاعرًا مفلقًا» ثم ذكر تحامُل بني قريع عليهِ وحَمْلهم الحُطَيْئةَ على هجائهِ وهجاءُ البغيض والمخبَّل السعديّ . قال ابن سلّام: «وكان الزبرقان يعاتبهم ولم يكن يهجوهم وكان حليمًا » وكان سبق فأضاف الحطيئة وجعلهُ في جوارهِ في سنة مجدبة واوصى امرأتهُ باكرامهِ فصدر منها يومًا جفوةٌ فسعى بنو بغيض فجذبوهُ حتى هجا الزبرقان فاستعدى عليهِ عمرَ بن الخطّاب فحبسهُ عمر ثمَّ استندمهُ واطلق سبيلهُ (الاغاني ٢ : ٥٢—٥٥)

ومما يدلُّ على تردّد الزبرقان في اسلامهِ ما ذكرهُ الطبري (٣ : ١٩١٩) انهُ هو وعطارد بن حاجب ونظراءهم بعد وفاة نبيّ المسلمين ارتدُّوا وتبعوا مُسيلمة بن حبيب وسجاح التغلبيَّة ثم عادوا بعد قَتل مسيلمة الى اسلامهم . وذكر في الاغاني (١٢ : ١٥٢) غدر الزبرقان بقيس بن عاصم وكان كلاهما متوليًا صدقات قومهِ فلمّا توفي محمَّد « دسَّ الزبرقان الى قيس مَنْ زيَّن لهُ المَنع لما في يدهِ وخدعهُ بذلك وقال لهُ : «انَّ النبيَّ صلعم قد توفّي فهلمَّ نجمع هذه الصدقة ونجعلها في قومنا فان استقام الامر لابي بكر وادّت العرب اليهِ الزكاة جمعنا لهُ الثانية » ففرَّق قيس الابل في قومهِ وانطلق الزبرقان الى ابي بكر بسبعمائة بعير فادّاها اليهِ وقال في ذلك (الطبري ٣ : ١٩٢٤ . من الطويل) :

وفيتُ بأذوادِ الرسولِ وقد أبت ... سُعاةٌ فلم يردُدْ بعيرًا مجيرُها (١

معًا ومَنَعْناها من الناس كلّهم ... تَرامي الاعادي عندنا ما يَضيرُها

فأدَّيتُها كي لا أخونَ بذمّتي ... مَحانيقَ لم تُدرَسْ لِرَكْبٍ ظُهورُها (٢

اردتُ بها التقوى ومجدَ حديثها ... اذا عُصبةٌ سامَى قَبيلي فخورُها (٣

وانّي لمن حيٍّ اذا عُدَّ سَعيُهم ... يرى الفخرَ منها حيُّها وقبورُها (٤

١) ويروى : بأذواد النبيِّ محمَّدٍ وقد اتت سعادٌ

٢) ويروى : مجانيق لم يُدرس . وإبل مَحانيق سِمان ٣) ويروى : اذا عصمةٌ سامى قبلُ

٤) ويروى : شعيهم ترى

اصاغِرُهم لم يَضرعوا و كبارُهم رِزانٌ مَراسيها عِفافٌ صُدورُها(١
ومن رَهط كنَّادٍ توفيتُ ذمَّتي ولم يَثْنِ سيفي ذَبْحُها وهَريرُها(٢
وقُبَّةِ مَلْك قد دخلتُ وفارسٍ طعنتُ اذا ما الخيلُ شَدَّ مُغيرها(٣
ففرَّجتُ أُولاها بنَجْلاءَ ثَرَّةٍ بحيثُ الذي يَرجو الحياةَ يَضيرُها(٤
ومَشهدِ صِدْقٍ قد شهدتُ فلم اكنْ بهِ خاملًا واليومَ يُثني مَصيرُها
ارى رهبةَ الأعداء مني جَراءَةً ويبكي اذا ما النفسُ يوحي ضميرُها

قال ابو الفرج فلمَّا عرف قيس ما كادهُ بهِ الزبرقان قال : لو عاهد الزبرقان أمَّهُ لغَدَر بها . فنشب الشرّ لذلك بين الاحياء

وجاء في التبريزي في شرح الحماسة (ص ٦٦٦) وفي الاغاني (١٢ : ٤٤) وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة (ص ٢٥٠) وكان للزبرقان اخت تُدعى خُلَيْدة زوَّجها رجلًا يُدعى هزَّالًا كان قتل واحدًا من بني عبد القيس في جوار الزبرقان فعيَّرهُ بذلك المخبَّل وهجا خُلَيْدة . ثمَّ نزل يوماً عندها ضيفاً وهو لم يعرفها فقرَتْهُ واحسنت اليهِ وزوَّدتهُ لمَّا ارتحل فسألها عن اسمها فعرفها وصرخ : وا سوءتاه ثمَّ قال :

ضَلِلتُ لعمري في خُلَيْدةَ انني سأُعتِبُ قومي بعدَها وأَتوبُ
فأَشهَدُ والمستَغفَرُ اللهُ إنني كذبتُ عليها والهجاءُ كَذُوبُ

وقال ابن قتيبة في الشعر والشعراء (ص ٢١٩) انَّ عمرو بن معدي كرب الزُّبَيدي احد فرسان العرب كان ابن خالة الزبرقان التميميّ . وقال عن الأضبط بن قُرَيع الشاعر السَّعْدي (ص ٢٢٥) انهُ من رَهط الزبرقان . وبين الفرزدق والزبرقان قرابة ايضاً وكانت هُنَيْدة عمَّة الفرزدق امرأة الزبرقان فقال الفرزدق يردُّ على جرير (نقائض جرير والفرزدق ص ٧١٣) :

١) ويروى : لم يصرعوا وكبارها رزانٌ ٢) ويروى : من رهط كنَّاز . . نفخها وهديرها ٣) ويروى : وقبَّة ملكٍ . . . مغيرها ٤) ويروى : نضيرها وبصيرها

وإنْ تَنبحُ آلَ الزبرقانِ فانَّنا هجوتَ الطوال الشُّمَّ من هَضْبِ يَذْبُلِ
وقد ينبحُ الكلبُ النجومَ ودونها فراسخُ تُنضي العينَ للمتأملِ

وقال دثار بن شيبان النمري يمدح بني بهدلة وخصَّ منهم الزبرقان :

مَنْ يَكُ سائلاً عني فانّي انا النَّمريُّ جارُ الزبرقانِ
طريدُ عشيرةٍ وطريدُ حربٍ بما اجترحتْ يدي وجنى لساني
أبيتُ الليلَ ارقبُ كلَّ نجمٍ شآمٍ قرَّ في بلدٍ يمانِ
كأني اذ حللْتُ بهِ طريدًا حللتُ على المُمنَّعِ من أبانِ
الى بيت الاكارمِ من مَعَدٍّ محلًّا بيِّنًا لمن ابتغاني
فخلُّوا عنهمُ يا آلَ لأيٍ فليس لكم بسعيهم يدانِ
غداةَ سعى لهم عمرو بن عوفٍ وذو البُرْدَيْنِ نِعْمَ الساعيانِ
سيدرككنا بنو القمر بن بدرٍ سراجُ الليلِ للشمس الحصانِ

وذو البُرْدَيْن المذكور هنا هو عامر بن بهْدلة اخذ بُرْدَيْن عرضهما المنذر بن ماء السماء على اعزّ العرب قبيلةً واكثرهم عددًا فاتَّزر بهم الأُحيمر وقال : « أيُّها الملك انَّ العزَّ والعدد من العرب في معدٍّ ثمَّ في نزار ثمَّ في مُضَر ثمَّ في خِنْدف ثمَّ في تميم ثمَّ في سعد ثمَّ في كعب ثمَّ في عوف ثمَّ في بَهْدلة » فلم يَقُمْ اليهِ احد من الناس فقال الزبرقان (طويل) :

وبُرْدا ابنِ ماءِ المُزْنِ عمِّي اكتساهما بعزِّ مَعَدٍّ حين عُدَّت محاصِلُهْ
رآهُ كرامُ الناس أولاهمُ بهِ ولم تجدوا في عزّهم مَن يُعادِلُهْ

وللزبرقان شعرٌ متفرّقٌ في كتب الادب فمن ذلك ما ورد لهُ في حماسة البحتري (ع ١٣٠٤) قال يعاتب ابن عمهِ علقمة بن هوذة (من مجزوءِ الكامل) :

ولِيَ ابنُ عمٍّ لا يزا لُ يَعيبني ويُعينُ عائبْ (١
وأُعينُهُ في النائبا تِ ولا يُعينُ على النوائبْ

١) روى في ديوان مختارات شعراء العرب : «يعيبني» وهو تصحيف وفي الاغاني (٢ : ٥٢) ويعيب عائب

تَسري عقـارِبُـهُ اليَّ م ولا تَنـاوَلُـهُ عقارِبْ (١

لاهِ ابنَ عمِّـك مـا يخـا فُ الجازياتِ من العواقب (٢

وممّا روى لهُ في الوفاء (ع ٧٢٣) قال (من الوافر) :

وفيتُ بذِمَّـةِ القَيْسيِّ لمـّا تواكَلَها الصحابَةُ والجِوارُ

كما أوْفيتُ بالعُكليِّ ضرباً بفَصْلِ السيفِ اذ عَلَنَ السِرارُ

وروى لهُ في الامتناع عن مصالحة آل ظلّام لأَسرهم احد قومهِ (ع ١٠٨) قال (من البسيط) :

أَبعْـدَ بِشرٍ أسـيرًا في بيوتِهِمِ ترجو المَوَادَةَ عندي آلُ ظـلّامِ

فلن أُصالِحَهم ما دمتُ ذا فرسٍ واشتدَّ قبضاً على السَّيلانِ إبهامي (٣

تعدو الذئابُ على من لا كلابَ لهُ وتتَّقي مَرْبِضَ المستنفِرِ الحامي (٤

وروى لهُ بيتاً مفردًا في الانفة من الظلم (ع ٧٤) قال (من الكامل) :

أَغشى المهالِكَ بالرجالِ ولا أُعطي المَقادة سائمي الحقْرَا

وروى لهُ ابو بكر ابن الانباري في الاضداد في انَّ «المولى» تأتي بمعنى ابن العم (ص ٣٠) قال (من الوافر) :

ومن المَوالي مَولَيان فمنهما مُعطي الجزيلِ وباذلُ النَّصرِ

---

١) وروى فيهِ: ولا تبيّهُ عقارب . وروى في اللسان وفي التاج (مادَّة عقب) : ولا تدبُّ لهُ وهما ينسبان البيت لذي الاصبع العدوانيّ ٢) ويروى : ما تخاف . ولا تخاف المُجزيات . وفي الاغاني : لا يخاف المخزيات

٣) روى في التاج واللسان (في مادَّة سيل) : ولن اصالحكم . وروى في محاضرة الادباء (٢ : ١٠٢) : واشتدَّ قبضاً على الاسياف إبهامي ٤) وهذا البيت قد رواهُ البعض للنابغة لعلَّ الزبرقان اقتبسهُ منهُ

ومن الموالي ضبٌّ جَنْدلـةٍ لِحزُ المروءَةِ طـاهِرُ الـغمْرِ

وممّا ذكرهُ لهُ الراغب الاصبهاني في محاضراتهِ (١ : ٣٧٢) قولهُ في من يمنع معروفهُ ويعضّل ظلمهُ (من الطويل) :

طوى كلَّ معروفٍ وأَحضرَ دونَهُ عقاربَ أَخشى لَسْعَها وأفاعيـا

وروى لهُ ياقوت في معجم البلدان في باب أَطد (١ : ٣٠٧) وعِتْكان (٣ : ٦١١) حيث حملَ صدقاتِ قومهِ الى ابي بكر (من البسيط) :

ساروا الينا بنصفِ الليل فاحتَمَلوا فـلا رَهينَةَ الَّا سيِّـدٌ صَمَـدُ
سيروا رُوَيدًا فانَّا لن نفوتَـكُمُ وانَّ ما بيننا سهـلٌ لكم جَدَدُ
انَّ الغزالَ الـذي ترجونَ غِرَّتَهُ جمعٌ يَضيقُ بهِ العِتْكَانُ اوأَطَدُ(١
مستحقباً حَلَقَ الماذي بحُفْرتِهِ (٢ ضربٌ طِلَحْفٌ وطعنٌ بينَهُ خَضِدُ

وروى ايضاً (٤ : ٦١٩) يخاطب رجلًا من بني عَوْف كان قد هجا ابا جهـل وتناوَلَ قريشاً (من الوافر) :

أَتدْري من هجوتَ ابا حبيبٍ سليل(٣خضارمٍ سكنوا البِطَاحا
أَزادَ الرَّكْبِ تـذكرُ ام هشاماً وبيتَ الله والبلـدَ اللَّقاحـا (٤
همُ منعوا الاباطـحَ دون فهرٍ ومن بالخَيْف والبُـدُنَ اللِقاحا

١) ويروى : عزَّتهُ . وقال : أَطد ارض بقرب الكوفة نزلها جيش المسلمين في اوَّل ايَّام الفَتْح . وعِتْكان موضع آخر وقال الأَسود : العتكان وأَطد اودية لبني بهدلة (قوم الزبرقان)
٢) ويروى : بحُفرتهِ ٣) ويروى : ابا خبيب حليلَ ٤) وهذان البيتان قد رواهما في الاغاني (٢ : ٥٩) لبعض بني انف الناقة مع ما يتلوهما . قالهما في الزبرقان اذ منع بئرهُ عن ابناء السبيل وهو يروي : اتدري من منعت ورودَ حوضٍ . . . تمنعُ ام هشاماً وذا الرعين امنهم سلاحا

بضربٍ دون بَيضتهم طلحفٍ اذا الملهوف لاذَ وصاحا
وما تدري بأيهم تُلاقي صدورَ المَشرفيَّة والرماحا

هذا ما وقفنا عليهِ من شعر الزبرقان. وقد اختلفوا في الحكم عن طبقتهِ . سبق لابن سلّام في طبقاتهِ (ص ٢٥) انهُ دعا الزبرقان «شاعرًا مفلقًا» وكذلك قدَّمهُ وَفْدُ تميم لمحمَّد كشاعرهم وفي ذلك دليل على حسن رتبتهِ بين الشعراء . وقد حكم غيرهم في انهُ من الشعراء المتوسطين فذكرهُ السيوطي في المزهر (٢ : ٢٤٤) بين المغلَّبين لتغلُّب الحطيئة وبغيض بن عامر والمخبَّل السعدي وعمرو بن الاهتم (١ عليهِ في بعض المواقف. وكذلك ورد في الاغاني (٢١ : ١٧٤) لربيعة بن حُذار الاسدي لمَّا تحاكم اليهِ علقمة بن عَبَدة التميمي والزبرقان والمخبَّل وعمرو بن الاهتم انهُ قال للزبرقان : «اما انت يا زبرقان فانَّ شعرك كلَحْمٍ لم يَنضج فيؤكل ولا تُرِك نيئاً فيُنتفعُ بهِ»

٨ عديّ بن حاتم

هو عديّ بن حاتم الطائيّ بن عبدالله الطائيّ ويكنى ابا طريف . وابوهُ حاتم هو الذي يضرب العرب بهِ المثل في الجود والكرم. وقد نشأ عديّ في حِجْر والدهِ وتخلَّق باخلاقهِ وصار بعد وفاتهِ خلفاً لهُ في رئاسة قومهِ فكان بنو طيّ ينقادون لهُ في كلّ امورهم . وكان عديّ نصرانيًّا لا خلاف في ذلك وقد صرَّح بنصرانيَّتهِ ابن هشام في سيرة الرسول (ص ٧٤٧) والطبري في تاريخهِ (١ : ١٧٠٧) وقد ذكر عن نفسهِ انهُ كان ملكاً في قومهِ يسير فيهم بالمرباع على خلاف قوانين دينهِ وانهُ كان ركوسيًّا وقد اختلفوا في معنى ذلك فقالوا الركوسيَّة مذهب من مذاهب النصارى وقال ابن الأعرابي بل هو نعتٌ من نعوتهم (راجع التاج في مادَّة ركس)

وممَّا رواهُ في معجم البلدان عن سبب تنصُّرهِ (٣ : ٩١٣) انهُ كان عتَرَ عند صنمٍ

---

١) وفي ابن الاهتم قال محمَّد «انَّ من البيان لسحرًا» وكان سمعهُ يمدح الزبرقان في امور ويذمُّهُ في اخرى فأحسن بكليها (امثال الميداني ١ : ٧)

لطيّ يُدعى الفَلْس يعبدونهُ ويهدون اليهِ ويعترون عندهُ عتائرهم ولا يأتيهِ خائف الّا أمِن ويزعمون انَّ لا احدًا يستطيع ان ينتهك حرمتهُ الّا أُصيب بداهيةٍ. فخرج مالك ابن كلثوم الشمخي يطلب ناقة لجارة استغاثت بهِ فوجدها موقوفة عند الفَلْس فحلَّ عقالها وتوّل الصنم برمحهِ فدعا عليهِ سادنُ الصنم. فبلغ خبرهُ عديًّا وجلس هو ونفر يحدّثون بما صنع مالك وفرغ من ذلك عديّ بن حاتم وقال: انظروا ما يصيبهُ في يومهِ. فمضت لهُ أيّام لم يُصبهُ شيء فرفض عدي عبادتهُ وعبادة الاصنام وتنصَّر

وبقي عديّ على نصرانيتهِ بعد ظهور الاسلام الى السنة التاسعة من الهجرة وهو شديد الكراهية لرسول العرب حتى غزا المسلمون احياء طيّ فاسروا السفَّانة ابنة حاتم اخت عديّ فلاذت بمحمَّد بقولها: امنُن عليّ منَّ الله عليك. فعرف محمَّد انَّها ابنة حاتم الطائي ففكَّ اسرها واعادها الى قومها في الشام مكرّمةً. فلمَّا قدمت الشام اخبرت اخاها بما فعل محمَّد فأثّر ذلك بهِ ودفعهُ الى ان يَفِد بقومهِ الى محمَّد ويدين بالاسلام فولّاهُ صدقات قومهِ. وكان عديّ احد المعمّرين قيل انهُ عُمّر ١٨٠ سنة على ما روى ابو حاتم السجستاني في كتاب المعمّرين (ص ٣٧) وتوفي سنة ٦٨ هـ (٦٩٠م) فيكون وقع اسلامهُ اذ أربى عمرهُ على المئة والثلثين سنة فتأمَّل

وممَّا يُخبر عنهُ في الاسلام انهُ كان مواليًا لعليّ ولأنصارهِ وانهُ حارب مع المسلمين في مواقع كثيرة فسار مع خالد لفتح فارس وحضر يوم القادسيَّة ويوم المدائن ويوم جَلُولا ويوم نهاوند ويوم تُستَر وشهد مع عليّ الجمل وصفّين في محاربتهِ لمعاوية وذهبت عينهُ يوم الجمل وحارب الخوارج وهو لم يزل في عزّ قوّتهِ ثمَّ نزل الكوفة وابتنى بها دارًا في طيّ ومات بالكوفة زمن المختار

وكان عديّ ابيًّا فخورًا يرى السباق لقبيلتهِ. قيل انهُ لمَّا قدم على رسول الاسلام وحادثهُ قال لهُ: «انَّ فينا اشعر الناس واسخى الناس وافرس الناس». اراد باشعر الناس امرءَ القيس بن حجر وباسخاهم حاتمًا والدهُ وبأفرسهم عَمرو بن معدي كرب. وكان لعديّ حظوة لدى الخلفاء والارباب فكان الجُناة يستشفعون بهِ فينال لهم النجاة من العقاب

وكان عديّ مع ذلك شاعرًا وان لم يبلغ في ذلك مبلغ ابيهِ. فممَّا رواهُ لهُ البحتري في حماستهِ (ص ٥٨) قولهُ (من الطويل):

مَنْ مُبلغٌ أفناءَ مَذْحِجَ انّني ثأرتُ بخالي ثمّ لم أتأثّمِ
تَرَكتُ أبا بكرٍ ينوءُ بصدرهِ بصِفّين مخضوبَ الكعوبِ من الدمِ
يذكّرني ثأري غداةَ لقيتُهُ فأجررتُهُ رُمحي فخرَّ على الفمِ
يذكّرني ياسينَ حينَ طعنتُهُ فهلّا تلا ياسينَ قبلَ التقدُّمِ

وروى لهُ ايضاً (ص ٣٠٣) قولهُ (من المنسرح) :

أَصبحتُ لا أتبعُ الصديقَ[1] ولا أملكُ ضرًّا للشانئِ الشَّرِسِ
وإنْ عدا بي الكُمَيتُ مُنطلقاً لم تَملكِ الكفُّ رَجعةَ الفرسِ[2]
أَصبحتُ حِسًّا مُمَيّتاً خَلَقاً قلبي لحبِّ الحياةِ في لَبَسِ

وروى لهُ ابو حاتم السجستاني في كتاب المعمّرين (ص ٣٧ ,éd. Goldziher) قولهُ وكان لمّا اسنَّ استأذن قومهُ في وِطاء يجلس عليهِ في ناديهم وكان قد كبِر ورقّ عظمهُ . فأبطأوا عليهِ فقال (من الوافر) :

أجيبوا يا بني ثُعَلَ بن عمروٍ ولا تكمُوا الجوابَ من الحياءِ
فانّي قد كَبِرتُ ورَقّ عظمي وقلَّ اللحمُ من بَعدِ النَّقاءِ
وأَصبحتُ الغداةَ أُريدُ شيئاً يقيني الارضَ من بردِ الشِّتاءِ
وِطاءٌ يا بني ثُعَلَ بنِ عمروٍ وليس لشيخكم غيرُ الوِطاءِ
فان تَرضَوْا بهِ فسُرورُ راضٍ وان تأبَوْا فانّي ذو إباءِ
سأتركُ ما اردتُ لِما أَردتُمْ وردُّك مَنْ عَصاكَ من العَناءِ

١) ويروى في تذكرة الحمداني : لا انفع الصديق
٢) روى في التذكرة : وان جرى بي الجوادُ . . .

لأني من مَساءتكم بعيدٌ كبُعْد الارض من جوّ السماء
واني لا اكونُ بغير قومي فليسَ الدّلوُ إلّا بالرِشاء

فأذنوا لهُ ان يَبسُط في ناديهم وطابت بهِ انفسُهم وقالوا : انت شيخنا وسيّدنا وابنُ سيّدنا وما فينا احدٌ يكرهُ ذلك ولا يدفعهُ

وقد رُويت لهُ ابيات من الرجز قالها في صفين (وقعة صفّين ٣: ٢٨١) :

اقول لمّا أن رأيتُ المَعمعَهْ واجتمع الجندان وَسْطَ البَلْقعَهْ
هذا عليٌّ والهُدى حقّاً معَهْ فمن أراد غيَّه فضعضعَهْ
يا ربِّ فاحفظهُ ولا تضيّعهْ فانهُ يخشاك ربي فارفعهْ

ورُوي لهُ ايضاً اذ حمل في صِفّين على عبد الرحمان بن خالد (٤: ٣٢١)

ارجو الهي واخافُ ذنبي وليس شيءٌ مثلُ عفو ربّي
يا ابن الوليد بغضُكم في قلبي كالهضْب بل فوقَ قِنانِ الهضْبِ

وروي لابنهِ طريف وكان في يوم صفّين حاملًا للواء فاقتحم ساحة الوغى وهو يقول راجزاً (٤ : ٣٠٢)

أَبَعْد عمّارٍ وبعد هاشمِ وابنِ بَديلٍ فارس الملاحمِ
ترجو البقاء مثلَ حُلم الحالمِ وقد عضضْنا امس بالأَباهمِ
فاليومَ لا تُقرَعُ سِنُّ النادمِ ليس امرؤٌ من يومهِ بسالمِ

ومن ظريف ما اخبرهُ ابن قتيبة في الشعر والشعراء عن كرم عدي بن حاتم ما حرفهُ قال (ص ٢٣٧) : « اتى سالم بن دارة الاسدي عديَّ بنَ حاتم فقال لهُ : قد مدحتُكَ . فقال عديٌّ : أمسِكْ عليك حتى أُنبئك مالي فتمدحني على حسبهِ . لي الفُ صانيةٍ والفا درهم وثلاثة أعبُد وفرسي هذا حبيس في سبيل الله فقُل . قال :

تَحِنُّ قَلُوصي في معدٍّ وانّما تُلاقي الربيع في ديار بني ثُعَل

وأبقى الليالي من عديّ بن حاتمٍ حساماً كلونِ الملحِ سُلَّ من الخِلَلْ
ابوك جوادٌ لا يُشَقُّ غبارُهُ وانت جوادٌ ما تَعَذَّرُ بالعِلَلْ
فإن تتّقوا شرًّا فمثلُكمُ اتّقى وان تفعلوا خيرًا فمثلكمُ فعَلْ

فقال لهُ عديّ : أمسكْ عليك لا يبلغُ مالي اكثرَ من هذا . وشاطرَهُ مالهُ

سِمْعان بن هُبَيرة

هو ابو السَّمّال (ويروى السمّاك والسّبال) سمعان بن هُبَيرة بن مساحق بن بُجَير ابن عُمير الاسدي شاعر نصرانيّ من بني اسد بن خزيمة اسلم مع قومهِ عند ظهور الاسلام لكنّهُ ارتدّ الى دينهِ بعد وفاة محمّد وتبع طُليحة بن خويلد بن نوفل مع الحليفَين اسد وغطفان . فأسرع ابو بكر وارسل سريّةً مع خالد بن الوليد فانهزم طليحة ولحق بنواحي الشام عند بني جفنة النصارى وتبدّد قومهُ . فعاد سمعان بن هبيرة الى الاسلام

وقد نظم ابو حاتم السجستاني سمعانَ بن هُبيرة في سلك المعمَّرين قال (ص ٥٤ (éd. Goldziher, : انهُ عاش مائة وسبعاً وستين سنةً . قال الصفدي في الوافي بالوفَيات(Ms. de Paris, 716, ff.1867) : «سمعان بن هبيرة ابو السَّمّال الاسدي الكوفيّ شاعر فصيح وفد على معاوية وكان مع طُليحة على الردّة وكان لا يغلق على اربابهِ باباً فينادي مناديهِ في السوق والكناسة : « من كان ها هنا من الاعراب ممَّن ليست لهُ خطّة فعليهِ بمنازل ابي السمّال ألا وبني كلب خاصّةً » . فقيل لهُ : لِمَ خصصتَ كلباً ؟ قال : لأنّهم ليس لهم في الكوفة كثيرُ اهل . فلمّا بلغ ذلك عثمان بن عفّان اتّخذ للاضياف منازل . قال ابن المزربان : وسمعان بن هبيرة هو الذي شرب الخمر عند النجاشي في شهر رمضان نهارًا فهرب ابو السمّال وحدَّ عليُّ بن ابي طالب عنهُ النجاشيَّ . ومن شعرهِ (من البسيط) :

لن ندّعي معشرًا ليسوا بأُخوتنا حتى المماتِ وان عزُّوا وان كرموا
اذ نحنُ حيٌّ جميعُ الامرِ حلَّتُنا غورًا تِهامةُ والإسافُ والحرمُ

ثمَّ استمرَّت بوم دارٌ مفرّقةٌ بين الجميع ودهرٌ زينُهُ أَضمُ

وهو الذي يقول (من الطويل):

وهازئةٍ من شيبتي وتحنّني وطولِ قعودي بالوصيد افكّرُ
تقول فَتَى سمعانُ بعد اعتدالهِ وبعد سواء الرأس فالرأسُ أَزعرُ
فقلتُ لها لا تهزئي انَّ قَصْرَكِ م المنايا وريبُ الدهر بالمرء يغدرُ
فكم من صحيحٍ عاش دهرًا بنعمةٍ فحلَّ بهِ يومٌ اغرُّ مشهَّرُ
وصار لِقًى في البيت لايبرحُ الفنا رَذيًا عليهِ كآبةٌ وتوقُّرُ
وقد كان مِدْلاجاً الى المجد مُتْعِباً اليهِ المطايا عُمرَهُ ليس يفترِ
فَلمَّا ترمَّتْهُ المنايا وريبُها تقوَّس منهُ الظهرُ فالخطوُ مُقصَرُ(١
وعاد كفرخِ النَّسر اعمى عن التي يُريدُ طوالَ الدهر يَهذي ويَهذِرُ
فان اكُ شيخاً فانياً فلربَّما اصبتُ الذي أهوى وما كنتُ احذرُ
وَرُبَّ خُيورٍ جمَّةٍ قد لقيتُها وشرٍّ كثيرٍ عن شواتي (٢ تحدَّرُ
وخيلٍ دعتني للنزالِ اجبتُها وفي الكفِّ منّي مَشرَفيٌّ مُذكَّرُ
وتحتي طِمِرٌّ مستطارٌ فؤادهُ سليمُ الشَّظا نهدٌ كُمَيتٌ مُضمَّرُ
تنازلتُ اذ نادَوا نَزالِ ونلتُ ما ينالُ الكريمُ الاحوذيُّ المشمّرُ
فذلك دهرٌ قد مضى حلوُ عيشهِ وغادرني شأوًا لي الذئبُ يَكشرُ
وقد كنتُ أَبّاء على القِرن مُرجمًا(٣ اجودُ واحمي المُسنِفاتِ وأَحبرُ

١) قال الشارح: مُقصر مصدر صفة للخطو
٢) شواتُهُ جلدة رأسهِ
٣) مرجمًا اي شديدًا كأنهُ يُرجَم بهِ معاديهِ

وللموتُ خيرٌ لامرئٍ من حياتهِ بدارةِ ذُلٍّ عَلْ بلايا يوقَّرُ

(قال) يريد «على البلايا» فادغم اللام. وقال ابو حاتم: وآخر حرفٍ في كتاب سيبويه «عَلْماء يتوكَّلون» يريد «على الماء»

١٠ النجاشيّ الحارثي

هو قيس بن عمرو بن مالك بن معاوية بن خديج بن حماس شاعر اليمن من بني الحارث بن كعب النصارى اصحاب نجران واسمهُ النجاشيّ يدلّ على ما كان لرهطهِ من العلاقة مع الحبش الذين ملكوا في اليمن بعد محاربتهم لذي نوَاس اليهودي. عاش دهرًا في الجاهليَّة ولمَّا فتح المسلمون انحاء اليمن اسلم النجاشي مع من دخل الاسلام لكنَّهُ لم يكترث لفرائض دينهِ. قال ابن قتيبة في الشعر والشعراء (ص١٨٨): وفي خزانة الادب (٤: ٣٦٨) «وكان النجاشي فاسقاً رقيق الاسلام» ثمَّ روى قصتهُ في رمضان مع سمعان بن هبيرة المعروف بابي السمَّال قال «وخرج في شهر رمضان على فرسٍ لهُ يريد الكناسة فمرَّ بابي سمَّال الاسدي فوقف عليهِ فقال: هل لك في رؤوس حُملان في كرش في تنُّور من اوَّل الليل الى آخرهِ قد أينعت وتهرَّأت. فقال لهُ: ويحك في شهر رمضان تقول هذا. قال: ما شهر رمضان وشوَّال الَّا واحدًا. قال: فما تسقيني عليها. قال: «شراباً كأنهُ الورس يطيّب النفس ويجري في العِرق ويكثر الطَّرق ويشدُّ العظام ويسهّل الكلام». فثنى رجلهُ فنزل ودخلا المنزل فأكلا وشربا. فلمَّا اخذ فيهما الشراب تفاخرا فعلت اصواتهما فسمع ذلك جارٌ لهما فأتى عليَّ بن ابي طالب رضَ فاخبرهُ فبعث في طلبهما. فامَّا ابو السمَّال فشقَّ الخُصَّ ونفذ الى جيرانهِ فهرب وأُخذ النجاشيّ فأُتيَ بهِ عليَّ بن ابي طالب فقال لهُ: ويحك ولِداننا صيام وانت مُفطر. فضربهُ ثمانين سوطاً وزادهُ عشرين سوطاً فقال: ما هذه العلاوة يا ابا الحسن. قال: هذه لجرأتك على الله في شهر رمضان. ثمَّ وقفهُ للناس في تبَّانه ليروهُ فهجا اهل الكوفة قائلًا (من البسيط):

اذا سَقَى اللهُ قوماً صَوْبَ غاديةٍ ... فلا سقى الله اهلَ الكوفةِ المَطرا

السارقين اذا ما جنّ ليلُهمُ ... والطالبين اذا ما أصبحوا السُّوَرا

أَلقِ العداوةَ والبغضاء بينهمُ ... حتى يكونوا لمن عاداهم جَزَرا

وممّا يدلُّ على ضعف اسلامهِ قولهُ يهجو قريشاً ولقّبها بسَخينة وهو طعام رقيق من دقيق وسَمْن كان القرشيُّون يكثرون من أكلهِ (من الطويل) :

انَّ قُرَيشاً والإقامَةَ كالذي ... وَفى طَرفاهُ بعد ان كان أجدعا (١

وحُقّ لمن كانت سَخينَةُ قومَهُ ... اذا ذُكر الاقوامُ ان يتقنَّعا(٢

وقال يهجوهم ايضاً (من الطويل) :

سَخينةُ حيٌّ يعرفُ الناسُ لُؤمَها ... قديماً ولم تُعرَفْ بمجدٍ ولا كَرَمْ

فيا ضَيعَةَ الدنيا وضيعةَ اهلها ... اذا وُلّي المُلكَ التنابلةُ القُزُمْ

وعهدي بهم في الناس ناسٌ وما لهم ... من الحظِّ الّا رِعْيةُ الشاء والنعَمْ

وهجا كذلك تميم بن أُبيّ بن مقبل وحيَّهُ بني العَجلان (ابن قتيبة ص ١٨٨ وخزانة الادب ١ : ١١٢) فقال (من الطويل) :

اذا اللهُ عادى اهلَ لُؤمٍ ورقّةٍ ... فعادى بني العَجْلان رَهطَ ابنِ مُقبِل(٣

قُبَيِّلةٌ (٤ لا يَغدِرون بذمّةٍ ... ولا يظلمونَ الناسَ حَبَّةَ خردلِ

ولا يَرِدونَ الماءَ الّا عشيّةً ... اذا صدر الوُرَّادُ عن كل منهلِ

تَعافُ الكلابُ الضارياتُ لحومَهم ... وتأكل من كعبٍ وعوفٍ ونَهْشلِ (٥

١) ويروى : والامانة . . وفى طرفيهِ. ويروى: وفى طرفاهُ ٢) ويروى: يتقنّعا
٣) ويروى : اذا الله جازى . . فجازى ٤) ويروى : قبيلتهُ ٥) ويروى : ويأكلن من كعب بن عوفٍ

وما سُمّي العَجْلانَ الّا لقيلهم (١ خُذِ القَعْبَ واحلب ايها العبدُ واعجلِ

اولئك اخوانُ اللعين واسوةُ الهـجين ورهـطُ الواهنِ المتذلّلِ

وكان بنو العجلان يفتخرون باسمهم لُقّب بهِ جدُّهم عبدالله بن كعب لتعجيله القرى لضيوفهِ فلمَّا قال النجاشيّ شعرهُ رغبوا عنـهُ واستَعْدوا على النجاشيّ عمر بن الخطاب فحبسَهُ وقيل جلَدَهُ

ومن هجائه قولهُ يهجو الانصار وقومهم الخزارجة من بني النجّار (من الطويل) :

لَسْتم بني النجّار أكْفاءَ مثلنا فـأَبعدكُم منّـا هنـاك بأبعـدِ

فان شئتمُ نافرْتُـكُمْ عن ابيـكمُ الى من أردتم من تِهـامٍ ومُنْجدِ

فالتجأ بنو النجّار الى حسّان بن ثابت ليردّ عليهِ ففعل وهجا بني الحماس رهط النجاشي وبني الحارث بن كعب فاهتمّ للامر عبدالله بن مدان الحارثي فأتى بالنجاشيّ الى حسّان فاعتذر اليه . ومن اقوال النجاشي في بني عبد المدان يمدحهم قولـهُ (من الوافر) :

وقد كُنّا نقولُ اذا رأينـا لذي جسمٍ يُعَدُّ وذي بيانِ

كأنّك ايُّهـا المُعطَى بيانـاً وجسماً من بني عبد المدانِ

وكان النجاشي يتشيّع ومن قولهِ في يوم صفّين كتب بهِ الى معـاوية (ابن قتيبة ص٨٩ العقد الفريد لابن عبد ربهِ ٢ : ٢٩٤ وخزانة الادب ٤ : ٣٦٨ وحماسة البحتري (ص ٢٣٣) قال (من البسيط) :

يا ايُّها الملكُ المُبدي عداوتَـهُ انظُر لنفسك (٢ ايَّ الامر تـأتمرُ

وما شَعرتُ بما أضمرتَ من حَنَقٍ حتّى أتتني بهِ الاخبارُ (٣ والنُّذُرُ

فإن نَفِستَ على الأقوام مجدَهمُ فابسُطْ يديك فان المجدَ يُبتَدَرُ (٤

١) ويروى : لقولهِ

٢) ويروى : روِّ لنفسك ٣) ويروى : الانباء ٤) ويروى : فانَّ الخير مبتدرُ

واعلم بأنَّ عليَّ الخيرِ من نَفَرٍ(١ شُمّ العَرانين لا يعلوهمُ بَشَرُ
نِعْمَ الفتى انت(٢ إلّا أنَّ بينكما كما تفاضلَ ضوءُ الشمسِ والقمرُ(٣
وما إخالُكَ إلّا لستَ مُنتهياً حتّى يَمَسَّك من اظفاره ظُفُرُ (٤
إني أمرؤٌ قلَّ ما أُثني على أحدٍ حتى أُبيّنَ ما يأتي وما يذرُ (٥
لا تحمدنَّ امرءًا حتى تجرّبهُ ولا تذُمّنَّ مَنْ لم يَبْلُهُ الخبرُ (٦

ومنها في حماسة البحتري (ص ١٩) :

أمشي الضَّراء لأقوامٍ أُحاربُهم حتّى اذا ظهرتْ لي منهمُ الفُقَرُ
جمعتُ ضَبْرًا جَراميزي بداهيةٍ مثل المنيّة لا تُبقي ولا تَذَرُ

وقال ايضاً يهجو معاوية ودعاهُ بابن حرب ويذكر يوم صفّين (مجموعة المعاني ص ٤٤ حماسة البحتري ٥٤ والاغاني ١٢ : ٧٣ و٧٦) (من الطويل) :

فمن يَرَ خيلَنا غداةَ تلاقيا يقُلْ جبلا الغوريّ ينتطحانْ
ففرّت ثقيفٌ فرّقَ اللهُ جمعها الى جبلِ الزيتونِ والقطرانِ
كأني اراهم يطرحونَ ثيابهم من الرَّوع والخيلانِ تَطَّردانِ
فيا حَزَنًا أَنْ لا اكونَ شهدتُهمْ فأَدهُنَ من شحم اللئام سِناني
وأمّا بنو نصرٍ ففرَّ شريدُهمْ الى الصَّلَتانِ الجون والعلجانِ
وفرّت تميمٌ سعدَها وربابَها الى مَنْبِتِ التنّوم والشَّبَهانِ

---

١) ويروى : من بشر ٢) ويروى : هو ٣) ويروى : نور الشمس
٤) ويروى : وما اظنّك . . حتى ينالك من اظفارهم بعض ما ٥ ويروى : حتى ارى
٦) ويروى : لا تمدحنَّ

وَصدَّت بنو وَدٍّ صُدودًا عن القنا | الى آبِلٍ في ذلَّةٍ وهَوانِ (١
ونجّى ابنَ حربٍ سابحٌ ذو عُلالةٍ | أجشُّ هزيمٌ والرماحُ دواني
من الأعوجيَّاتِ الطِوال كأنَّهُ | على شَرَفِ التقريبِ شاهُ إرانِ
شديدٌ على فأسِ اللِّجام شكيمُهُ | يفرّجُ عنهُ الرَّبْوَ بالعَسَلانِ
سليمُ الشَّظَا عبلُ الشَّوا شَنِجُ النَّسا | اقبُّ الحشا مستطلعُ الزّفيانِ (٢
كأنَّ عُقاباً كاسرًا تحتَ سَرجِهِ | يُحاول قُرب الوَكْر بالطيَرانِ
اذا قُلتُ اطرافُ العوالي (٣ ينَلْنَهُ | مرتْهُ بهِ الساقانِ والقدمانِ
اذا ابتلَّ بالماء الحميم رأيتَهُ | كقادمةِ (٤ الشؤبوبِ ذي الهطلانِ
كأنَّ جَنابَيْ سَرجِهِ ولِجامِهِ | من الماءِ ثَوْبًا مائحٍ خضِلانِ
من الوُرْدِ او أحرى كأنَّ سَراتَهُ | بُعيدَ جَلاءٍ ضُرّجتْ بِدِهانِ
جَزاهُ بنُعمى كان قدَّمها لهُ | بما كان قبلَ الحرب غيرَ مُهانِ

ومنها بيتان في خزانة الادب (١ : ٤٠٠) يعرّض باختلاف الازد في قبائلهم قال :

وكنتُ كذي رِجلَيْن رجلٍ صحيحةٍ | ورجلٍ بها رَيبٌ من الحَدَثانِ
فأمَّا التي صحّت فأَزدُ شَنُوءَةٍ | وأمّا التي شُلَّتْ فأزدُ عُمانِ

ومنها ما رواهُ المسعودي في مروج الذهب (٤ : ٣٧٨) ذاكرًا لرفع معاوية وحزبه المصاحف في ساحة الحرب يوم صفّين :

فأَصبحَ اهلُ الشام قد رفعوا القنا | عليها كتابُ اللهِ خيرُ قُرانِ

١) رواهُ ياقوت في معجم البلدان (١ : ٥٦) قال اراد آبل الزيت بالاردنّ من مشارف الشام ٢) ويروى في الاغاني : آكيد النضى باقٍ على النسلان ٣) ويروى : اذا خلتُ اطراف الرماح ٤) ويروى : اذا بلّ ليتَيهِ . . كقاذفة

ونادوا عليها يا ابنَ عمّ محمّدٍ أَما تتّقي أَنْ يَهلكَ الثّقلانِ

والى ذلك يشير النجاشيّ في ابياتٍ رواها في حماسة البحتري (ص ٤٣) :

أَبلغْ شِهاباً اخا خَولانَ مأْلُكَةً(١ أَنّ الكتائبَ لا يُهزَمْنَ بالكُتُبِ

تُهدي الوعيد برأسِ السَّروِ مُتّكئاً(٢ فان اردتَ مِصاعَ القومِ فاقتربِ

وان تَغِبْ في جُمادى عن وقائعنا فسوف نَلْقاك في شَعبانَ اورَجَبِ

وروى لهُ المسعودي (طبعة مصر ٢ :٣٧) رثاء الحسن بن عليّ لمّا سمّتهُ جَعْدة بنت الاشعث (من السريع) :

جَعْدَةُ بكّيهِ ولا تسأَمي بعد بُكاء المُعْوِلِ الثاكلِ

لم يَسلِ السمُّ الى مثلهِ (٣ في الارضِ من حافٍ ولا ناعلِ

كان اذا شبَّت لهُ نارهُ يرفعها بالسَّندِ الغائلِ

كيما يراها بائسٌ مُرْمِلٌ وفردُ قومٍ ليس بالآهلِ

يُغْلي بنَيْءِ اللحم حتى اذا انضجهُ لم يغلِ للآكلِ (٤

اعني الذي أَسلَمنا هُلْكُهُ للزمن المستخرج الماحلِ

وروى لهُ المبرّد في الكامل (ص١٨٧) يخاطب معاوية ويمدح عليًّا (من المتقارب) :

دَعاً(٥ يا مُعاويَ ما لن يكونا فقد حقّق الله ما تَحذرونا

أَتاكم عليٌّ باهلِ العراقِ واهل الحجاز فما تصنعونا

ومن شعرهِ قولهُ يخاطب قومهُ اليمنيّين لمّا اراد معاوية ان يغزو اليمن في البحر

١) روى في الحماسة البصريّة : ابلغ شهاباً وخيرُ القول اصدقهُ ٢) وروى فيها : باعلى الدمل (؟) من اضم ٣) ويروى : لم يُسبَل السترُ على مثلهِ ٤) جاء في الاصل «لم يغل كل آكلٍ» والبيت مكسور ٥) دعاً مثل «دَعَنْ»

وتميماً في البرّ (خزانة الادب ١ : ٤٦٧) (طويل) :

أَلا ايُّها الناسَ الذين تجمَّعوا بعكّـاً أُناسٌ انتمُ ام أَباعِرُ
أَيـتْرُكَ قيساً آمنينَ بـدارهم ونركبُ ظهرَ البحرِ والبحرُ زاخرُ
فوالله مـا ادري واني لسائـلٌ أَهمْدانُ تحمي ضَيْمها ام يُحابرُ
ام الشرفُ الاعلى منَ اولادِ حميرٍ بنو مالـكٍ ان تستمرَّ المراثرُ
أَأَوصى ابوهم بينهم أَن تَوَاصَلوا واوصى ابوكم بينكم ان تدابَرُوا

فرجع القومِ جميعاً من وجههم فبلغ ذاك معاوية فسكّن منهم وقال : انا أُغزيكم في البحر لانهُ ارفقُ من الخيل واقلُّ مؤونةً

وروى البحتري (ص ٦١) للنجاشيّ في إخلاف الوعد (من الطويل) :

متى نَلْقَكم عاماً يَكُنْ عامَ عِلَّةٍ ويَنْظُرْ بنا عامٌ من الدهر مُقبِلُ
فوالله ما ندري أَما عندكم لنـا يُريثُ على الموعودِ ام نحنُ نُعجِلُ

وروى لهُ ايضاً في التشبُّه بالاجداد (ص ٢٢١) قولهُ (من الطويل) :

ومـا فيَّ من خيرٍ وشرٍّ فـانَّها سجيَّةُ آبائي وفعلُ جدودي
هم القومُ فَرْعِي منهمُ متفرِّعٌ وعُودهُمُ عند الحوادثِ عُودي

وروى لهُ الجاحظ يذكر فضل قحطان على عدنان (من الطويل) :

ايا راكباً إِمَّا عَرَضتَ فبلِّغَنْ بني عامرٍ مني لذاكَ ابنِ صَعصعِ
ثُبَتُّم ثبات الخيزرانيّ في الوغى(١ حديثاً متى ما يأتِكَ الخيرُ يَنفعِ

ومن ظريف ما رُوي للنجاشيّ في خزانة الادب (٤ : ٣٦٧) قولهُ في التقائهِ بالذئب (من الطويل) :

١) ويروى : نبتم نبات الخيزراني في الثرى

وماءٍ كلَون الغِسْل قد عادَ آجِناً قليلٌ بهِ الاصواتُ في بلدٍ مَحْلِ
وجدتُ عليهِ الذئبَ يَعْوي كأنَّهُ خليعٌ خلا من كلّ مالٍ ومن اهلِ
فقلتُ لهُ يا ذئبُ هل لك في فتًى يوأسي بلا مَنٍّ عليك ولا بُخلِ
فقالَ هداكَ الله للرُّشد انَّما دعوتَ لِما لم يأتِهِ سَبُعٌ قبلي
فلستُ بآتيهِ ولا أستطيعُهُ ولاكِ اسقني ان كان ماؤكَ ذا فضلِ (١
فقلتُ عليك الحوضَ اني تركتُهُ وفي صَغْوهِ فضلُ القَلوصِ من السَّجْلِ
فطَرَّبَ يستدعي ذِئاباً كثيرةً وعَدَّيتُ كلٌّ من هواهُ على شغلِ

وروى البحتري (ص٢٢١) منها بيتاً في الانتساء بالأجداد :

خلائقُ فينا من ابينا وجدّنا كذلك طِيبُ الفرعِ ينمي على الاصلِ

وذكر لهُ الطبريّ (١ : ٢٦٨٤) بيتين في الربعيّ بن عامر وكان استخلفهُ الاحنف ابن قيس على طخارستان سنة ٢٢ هـ (٦٤٤م) قال وقد نسبهُ الى امّهِ وكانت من اشراف العرب (من الطويل) :

أَلا رُبَّ مَن يُدعى الفتى ليس بالفتى أَلا انَّ رِبعيَّ ابنَ كأسٍ هو الفتى
طويلٌ قعودُ القومِ في قعرِ بيتهِ اذا شبعوا من ثُفْلِ جفنتهِ سقَى (٢

وفي معجم البلدان (١ : ١٠٥) روى لهُ قولهُ (من الطويل) :

أَلجَّ فؤادي اليوم فيما تذكّرا وشطَّت نوى مَن حلَّ جوًّا ومَحْضَرا
من الحيّ ان كانوا هناك واذ ترى لكَ العينُ فيهم مستزادًا ومَنظَرا
وما القلبُ الّا ذِكرهُ حارثيَّةً حَوارِيَّةً يحيي لها اهلُ أبهرا

١) ولاكِ هنا مثل ولكن ٢) ويروى: من ثِقل جفنتهِ ومن مِلْ جفنتهِ. ويروى: شفى

قال : أبهر مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل واخبر المبرّد (ص٧٦٨) ان رجلًا وقف على قبر النجاشي فترحّم وقال: «لولا ان القول لا يُحيط بما فيك والوصف يقصرُ دونك لأطنبتُ بل لأسهبتُ». ثم عقر ناقتهُ على قبرهِ وقال (من الطويل) :

عقرتُ على قبر النجاشيّ ناقتي بأبيضَ عضبٍ اخلصتهُ صياقِلُهْ
على قبر من لو انّني متُّ قبلَهُ لهانت عليهِ عند قبري رواحلُهْ

وقال خديج بن عمرو اخو النجاشي يرثيهِ (معجم البلدان ٤ : ٣٥٢) :

من كان يبكي هالكاً فعلى فتًى ثوى بِلوَى لَحجٍ وآبتْ رواحلُهُ
فتًى لا يُطيع الزاجرين عن الندى وترجع بالعصيان عنهُ عواذِلُهْ

قال ياقوت : « لَحج مخلاف في اليمن»

١١ جُحَيّة بن المُضرِّب الكندي

هكذا كتب اسمَهُ صاحب الاغاني (٤ :١١٧—١١٨و٢١ :١٤) وضبطهُ بتقديم الجيم المضمومة على الحاء المفتوحة . وفي الاشتقاق لابن دريد (ص ٢٢٢) كُتب حُجَيّة بتقديم الحاء على الجيم ومثلهُ في حماسة ابي تمّام (ص٥٢٢) وفي نوادر ابي زيد (ص٥٣ و٧٧) . وكذلك رووا «المضرَّب» بفتح الراء المشدّدة . كان جُحَيّة من اهل اليمن من بني قُتيرة من حيّ السكون من كندة جاهليًّا ادرك الاسلام . وكان يدين بالنصرانيَّة كما شهد عليهِ صاحب الاغاني (٢١ :١٥) . وقد روى لهُ هناك اخبارًا قليلة يؤخذ منها انهُ عاش الى ايّام عُمر بن الخطّاب . ويؤخذ منها ايضاً ومن نوادر ابي زيد (ص ٥٣) انهُ كان لجحيَّة اخوان مَعْدان ومنذر وكانت امرأتهُ زينب من بنات عمهِ ولهُ ولد منها يدعى حَوْطاً . وقال التبريزي في الحماسة (ص ٦٨) : « ويكنّى ابا حوط وهو شاعرٌ جاهلي وفارس مقدام حليف في بني ابي ربيعة بن ذُهل بن شيبان»

وقد افتتح ابو الفرج الاصبهاني اخبار جحيَّة بقصَّة القاسم بن محمَّد بن ابي بكر

واختهِ وكيف احتملها عنها عبد الرحمان بن ابي بكر من مصر لمّا قتل اباهما معاوية ابن حُدَيج الكندي وعمرو بن العاص (قال) : وقدم بهما الى المدينة فبعثت اليهما عائشة (زوج رسول المسلمين) وعُنيت بتربيتهما . ولمّا شبّا ردّتهما الى عبد الرحمان بقولها : « ها هما هذان فضمّهما اليك وكن لهما كجُحيَّة اخي كندة »

فاستطرد هنا صاحب الاغاني وذكر برّ جُحيَّة ببني اخيهِ فقال : « انّهُ (اي جحيَّة) كان لهُ اخٌ يقال لهُ معدان مات وترك صِبيةً صغارًا في حِجر اخيهِ فكان أبرّ الناس بهم واعطفهم عليهم وكان يؤثرهم على صبيانهِ فمكث بذلك ما شاء الله . ثمّ انهُ عرض لهُ سفرٌ لم يجد بُدًّا من الخروج فيهِ فخرج واوصى بهم امرأتهُ وكانت احدى بنات عمهِ وكان يقال لها زينب فقال : « اصنعي ببني اخي ما كنتُ اصنعُ بهم » . ثمّ مضى لوجههِ فغاب اشهرًا ثمّ رجع وقد ساءت حال الصبيان وتغيّرت فقال لامرأتهِ : ويلكِ ما لبني مَعدان مهازيل وارى بنيّ سمانًا ؟ قالت : كنتُ أواسي بينهم ولكنّهم كانوا يعبثون ويلعبون . فخلا بالصبيان فقال : كيف كانت زينب لكم . قالوا : « سيّئةً . ما كانت تعطينا من القوت الّا مِلْءَ هذا القدح من اللبن » . واروهُ قدحاً صغيراً فغضب على امرأتهِ غضباً شديدًا وتركها حتى اذا اراح عليهِ راعياهُ إبلَهُ قال لهما : اذهبا فانتما وإبلكما لبني مَعدان . فغضبت من ذلك زينب وهجرتهُ وضربت بينهُ وبينها حجاباً . فقال : والله لا تذوقين منها صَبُوحاً ولا غَبوقاً ابدًا . وقال في ذلك (من الطويل) :

لَجِجْنا ولَجَّتْ هذهِ في التعضُّبِ ولَطِّ الحِجابِ بيننا والتغضُّبِ (١
وخطَّت بفِرْدَيْ إِثْمِدٍ جَفْنَ عينها لِتَقتلني وشدَّ ما حُبُّ زينبِ
تلومُ على مالٍ شفاني مكانُهُ فلُومي حياتي مابدا لكِ واغضبي (٢
رَحِمتُ بني مَعْدانَ اذ قلَّ مالُهم وحُقَّ لهم منّي وربِّ المُحَصَّبِ

١) ويروى : ولطّ . وفي حماسة ابي تمّام (ص ٥٢٢) : دوننا والتنقُّبِ . قال الشارح : التعضُّب ان يغضب شيئاً بعد شيءٍ . والتنقُّب شدّ النقاب . واللّطّ الستْر

٢) ويروى : اليكِ ولومي . ويروى في نسخة خطّية من حماسة ابي تمّام في مكتبتنا : فلومي عليهِ

وكان اليَتامى لا يَسُدُّ احتلالُهم هَدايا لهم في كلّ قَعبٍ مُشعَّبِ (١
فقلتُ لعبـدَيْنا أَريحا عليهمُ سأَجعلُ بيتي مثلَ آخرَ مُعزبِ (٢
وقلتُ خذوها واعلموا انَّ عمَّكم هو اليومَ اولى منكمُ بالتكسُّبِ
عِيالي أَحقُّ ان ينالوا خَصاصَةً وان يشربوا رَنقاً لدى كلّ مشربِ (٣
ذكرتُ بهم عِظامَ مَنْ لو اتيتُهُ حَريباً لآساني لدى كلّ مَركَبِ (٤
اخي والـذي إن أَدْعُـهُ لِمُلمَّةٍ يُجبْني وان اغضبْ الى السيفِ يَغضَبِ (٥
فلا تَحسبيني بُلْدُماً انْ نكحتهِ ولكنَّني جُحَيَّةُ بنُ المضرَّبِ (٦

ففي برّ جُحَيَّة باولاد اخيهِ وتفضيلهم على بنيهِ لَمَّا يُشعر بفضيلة مسيحيَّة راسخة. وقد روى صاحب لسان العرب (١٩ : ٦٦) حديثاً لعائشة تُثني فيهِ على جُحَيَّة وعلى شعرهِ حيث قالت : « روُّوا لشعر جُحَيَّة فانهُ يعين على البرّ »

وممَّا ورد من اخبارهِ في كتاب الاغاني (٢١ : ١٦) انَّ زينب امرأة جحيَّة لَمَّا بلغها شعر زوجها السابق وما وهبهُ بني معـدان كرماً لم ترضَ بفعلهِ الجميل فخرجت حتى اتت المدينة فأسلمت وذلك في ولاية عمر بن الخطاب. فقدم جحيَّة المدينة فطلب زينب ان تُرَدّ عليهِ وكان نصرانيّاً فنزل بالزُّبير بن العوَّام فاخبرهُ بقصَّتهِ فقال لهُ : ايَّاك ان يبلغ هـذا عنك عُمَر فتلقى منهُ أَذًى . وانتشر خبر جُحَيَّة وفشا بالمدينـة وعُلم فيما كان مُقدَمُهُ فبلغ ذلك عُمَر فقال للزبير : قد بلغني قصَّة ضيفك وقد هممتُ

١) ويروى : رأيتُ اليتامى لا يَسُدُّ فُقورهم قال التبريزيّ : فُقور جمع فقر. والمصادر لا تُجمَع الَّا انهُ ذهب بهِ مذهب الاسم واعتقدهُ اسماً. والقَعْب القدح من الخشب. والمشعَّب المجبور في مواضع منهُ

٢) ويروى : أريحوا . . بيت آخر . قال الشارح : أريحا اي ردًّا الابل رواحاً اليوم . مِثل آخر اي مثل بيت آخر . مُعزب يعني الذي عزبت بهِ اي بعدت عنهُ

٣) ويروى : بنيّ احقُّ ان ينالوا سَنابةً . . . الى حين مَكسب

٤) ويروى : أحافي بهـا مَنْ لو قصدتُ لمالهِ . . على كلّ مركبِ . ويروى ايضاً : حبوتُ بها قبرَ امرئٍ . قال : الحريب السليب يعني انهُ قضى حقَّ اخيهِ الميت في بنيهِ

٥) ويروى : ان ادعهُ لعظيمةٍ

٦) هذا البيت رُوي في حماسة ابي تمَّام . (قال) البُلْدُم الثقيل الوخم

بهِ لولا تَحَرُّمهُ بالنزول عليك فرجع الزبير الى جُحيَّة فاعلمهُ قول عُمَر فقال جُحيَّة في ذلك (من البسيط) :

انَّ الزُّبيرَ بنَ عوَّامٍ تداركَني منهُ بسَيْبٍ كريمٍ سَيْبُهُ عِصَمُ
نفسي فداؤُكَ مأخوذًا بحُجْرتها اذشاط لحمي واذ زلَّت بيَ القَدَمُ(١
اذ لا يقرمُ بها الّا فتًى أُنُفٌ عاري الاشاجع في عِرنينهِ شَمَمُ

ثمَّ انصرف من عندهِ متوجهاً الى بلدهِ آنساً من زينب كئيباً حزيناً فقال في ذلك ابياتاً ذكر في الاغاني (٤: ١١٧–١١٨) فيها صوتاً ليونس (من الطويل) :

تَصابيتَ ام هاجت لك الشوقَ زينبُ وكيف تصابي المرءِ والرأسُ اشيَبُ
اذا قَرُبت (٢ زادتْك شوقاً بقُربها وان جانبَتْ (٣ لم يُسلِ عنها التجنُّبُ
فلا اليأسُ إنْ أَلْمَمتَ يبدو فترعوي ولا انت مردودٌ بما جئتَ (٤ تطلبُ
وفي اليأس لو يبدو لك اليأسُ راحةٌ وفي الارض عمَّن لا يُؤاتيك مذهبُ

(قلنا) انَّ في فعل عُمر لعجباً اذ فصل بين جُحيَّة وامرأتهِ وتهدَّد زوجها بالاذى. وفيه دليل واضح على ما كان من الضغط في اوَّل الاسلام على من يأبى الدخول في دينهم. وفي ثناء عائشة لبرّ جحيَّة واكرام الزبير لضيفهِ ما هو اجمل بهما

أمَّا شعر جُحيَّة فقد اخذ اكثرَهُ الضياع وانَّما وقفنا لهُ على بعض المقاطيع نرويها بحرفها. فمن ذلك مدحهُ لابن العبَّاس القرشيّ الهاشميّ (من الطويل) :

اذا ما ابنُ عبَّاسٍ بدا لكَ وجههُ رأيتَ له في كلّ احوالهِ فضلا
اذا قال لم يَترك مقالًا لقائلٍ بمُنْتَصِحاتٍ لا ترى بينها فصلا
كفى وشفى ما في النفوسِ ولم يَدَعْ لذي إرْبةٍ في القول جدًّا ولا هزلا

١) ويروى : بحجرتهِ ... واذ ولَّتْ ٢) ويروى : اقربت
٣) ويروى : جنَّبت ٤) ويروى : بما انت

وروى لهُ القالي في امالِيهِ (١ : ٥٤) عن ابن الكلبي قولهُ يمدح يَعفُر بن زُرْعة احد الأُملوك املوك رَدْمان (من الطويل) :

اذا كنتَ سئَّالًا عن المجد والعُلى وايْنَ العطاءُ الجزلُ والنائلُ الغمْرُ
فنقّب عن الأُملوك واهتف بيَعفُرٍ(١ وعِشْ جارَ ظلٍّ لا يغالِبهُ الدهرُ
اولئك قوم شيَّد اللهُ فخرَهم فما فوقهُ فخرٌ وان عَظُمَ الفخرُ
أُناسٌ اذا ما الدهرُ اظلَمَ وجههُ فأَيديهِمُ بيضٌ وأَوجُهُهم غُرٌّ(٢
يصونونَ أَحساباً ومجدًا مؤثَّلًا ببذلِ أَكُفٍّ دونَها المُزْنُ والبحرُ
فلو لامَسَ الصخرُ الاصمُّ أَكُفَّهم افاض(٣ ينابيعَ الندى ذلك الصخرُ
سمَوا في المعالي رتبةً فوق رتبةٍ احلَّتهمُ حيث النعائمُ والنَّسرُ
افادت لهم احسابُهم فتضاءلتْ لِنورهمُ الشمسُ المُنيرةُ والبدرُ
ولو كان في الارض البَسيطة منهمُ(٤ لمختبطٍ عافٍ لَما عُرف الفقرُ
شكرتُ لكم آلاءكم(٥ وبلاءكم وما ضاع معروفٌ يكافئهُ الشكرُ

وجاء لابي زيد في نوادرهِ (ص ٥٣) : قال جُحيَّة بن مضرَّب الكنديّ وزعم المفضَّل انهُ بلغ بعض الملوك عن جحيَّة شيءٌ فبلغ ذلك جحيَّة فقال (من الطويل) :

أَنْ كان ما بُلِّغتَ عنّي فلامني صديقي وحُزَّت(٦ من يدَيَّ الانامِلُ
وكُفِّنتُ وَحدي مُنذرًا في ثيابِهِ(٧ وصادفَ حوطاً من اعاديَّ قاتلُ

قال ابو زيد: منذر اخوهُ وحَوْط ابنهُ. وقولهُ في ثيابه اي لا اجد لهُ كفناً غيرها. وهذان البيتان رواهما ابو تمَّام في حماسته (١ : ٦٨—٦٩) لهَمدان بن جوَّاس الكندي

١) وفي الحماسة البصريَّة: بجعفرٍ ٢) ويروى: واوجههم زُهْرُ ٣) ويروى : لفاضت ٤) ويروى : مثلهم ٥) ويروى : معروفكم
٦) ويروى : وشلَّت ٧) ويروى : في ردائه

١٢ امرؤ القيس بن عابس

هو امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرئ القيس بن السِّمط بن عمرو بن معاوية بن الحارث الاكبر . كان من نصارى كندة ومن اهل اليمن كسميّه امرئ القيس بن حُجْر . وروى اسمهُ في شرح شواهد التلخيص (ص ٦٢) « ابن عانس » بالنون . قال ابن دريد في الاشتقاق (ص ٢٢٢) : « وكان شاعرًا ادرك الاسلام » . وهو معدود من الصحابة . قال ابن الاثير في أُسد الغابة (١ : ١١٥) : « وفد الى النبي فأسلم وثبت على اسلامهِ ولم يكن فيمن ارتدّ من كندة وكان شاعرًا نزل الكوفة » . وهو غير امرئ القيس بن الاصبع الكلبيّ وكان ايضاً نصرانيًّا كما رواه في الاغاني (١٤ : ١٦٣) واسلم في زمن عمر بن الخطّاب فعقد لهُ على من اسلم من قضاعة بالشام وهو الذي زوَّج بثلث بناتهِ المحيَّاة وسلمى والرَّباب عليَّ بن ابي طالب وولديهِ الحسن والحُسَين

ومما ورد من اخبار امرئ القيس بن عابس في كتاب الاصابة في تمييز الصحابة (١ : ١٢٣) وفي أُسد الغابة لابن الاثير (١ : ١١٥) ما حرفهُ : « كان بين امرئ القيس ورجل من حضرموت اسمهُ ربيعة بن عَيدان خصومةٌ فارتفعا الى النبي صلعم وقال للحضرمي : بيّنتك وإلَّا فيمينهُ . قال : يا رسول الله ان حَلَفَ ذهب بارضي . فقال : مَنْ حلفَ على يمين كاذبة يقتطعُ بها حقَّ اخيهِ لقي الله وهو عليهِ غضبان . فقال امرؤ القيس : يا رسول الله فما لِمن تركها وهو يعلم انهُ مُحِقّ . قال : الجنّةُ . قال : فاني اشهدُك اني قد تركتُها لهُ » . (قلنا) وهذا نعم الدليل على استقامة الكندي ونفورهِ من الحَلْف كما اعتادهُ النصارى وتعلّموهُ من انجيلهم

ويؤخذ من تاريخ الطبري (ج ١ : ٢٠٠٥) انَّ امرؤ القيس بن عابس حضر فتح اليمن مع ابن زياد . وقال عبد الرحيم العبّاسي في شرح شواهد التلخيص المسمّى معاهد التنصيص (ص٦٢) : « وشهد فتح النُّجَير باليمن وهو حصن قرب حضرموت ثمَّ حضر الكنديين حين ارتدُّوا فثبت على اسلامهِ ... ولمَّا خرجوا ليقتتلوا وثب على عمّهِ فقال لهُ : ويحك يا امرءَ القيس أتقتُلُ عمَّك . قال : انت عمّي والله عزَّ وجلَّ ربّي

فقتلهُ». (قلنا) هـذا ما تعلّمهُ من دينهِ الجديد . وورد في ابن حجر انهُ حضر فتوح الشام وكان يوم اليرموك على كردوس

أمّا شعر امرئ القيس بن عابس فقليـلٌ روى لهُ القدماء نتفاً فمن ذلك قولـهُ (من الكامل) :

قِفْ بالـديار وُقوفَ حـابِسْ ‏ ‏ ‏ وتـأنَّ انَّـكَ غيرَ آنِسْ (١

لَـعِبَتْ بـهنَّ الغـاديـا ‏ ‏ ‏ تُ الرّائحـاتُ الى الروامِسْ (٢

مـاذا عـلـيـك من الوقو ‏ ‏ ‏ فِ بهـا مَدَى الطَّلَلَيْنِ (٣ دارِسْ

يا رُبَّ باكيـةٍ عـليَّ ‏ ‏ ‏ م ومُنْشـدٍ لي في المجـالِسْ

او قـائـلٍ يا فـارساً ‏ ‏ ‏ مـاذا رُزِئْتَ من الـفوارسْ

لا تَعْـجَبوا إن تسمعوا ‏ ‏ ‏ هلَـكَ امرؤُ القيس بن عابِسْ (٤

قال ابن قتيبة في الشعر والشعراء بعد ذكر الابيات الاولى الثلثة (ص٣٦٩) : اخذهُ الكميت كلّهُ غير القافية فقال :

قِفْ بالديار وقوفَ زائِرْ ‏ ‏ ‏ وتـأيَّ انك غيرُ صاغِرْ

مـاذا عليـك من الوقو ‏ ‏ ‏ فِ بهامدِ الطَّلَلَينِ داثِرْ

درجَتْ عليـهِ الغـاديـا ‏ ‏ ‏ تُ الرائحاتُ من الاعاصِرْ

قال ابن حجر العسقلاني (١ : ١٢٤) يذكر نسب امرئ القيس بن عابس : «وجدُّ ابيهِ امرؤ القيس بن السِمْط كان يقال لـهُ ابن تَمْلِك وهي أمّهُ وقـد ذكرهُ امرؤ القيس الشاعر في قصيدتهِ الرائيّة فدعاهُ امرءَ القيس بن تَمْلِك فنسبهُ الى امّه». والى ابن عابس نُسبت الابيات اللاميّة الآتيـة في لسان العرب (٢٠ : ٢٠) وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة (ص ٢٢) (من الهزج) :

١) ويروى : وقوف عابس وتأنَّ انَّهَ غير آنس. ويروى : وتأيَّ ٢) ويروى : العاصفات الرائحات من الروامِسْ ٣) ويروى : جاتك الطَّلَلَيْن . وجامدِ الطَّلَلَيْن

٤) ويروى : طانس

أَيَا تَمْلِكُ يا تَمْلِي ذَرِيني وذَري عَذْلي (١
ذَريني وسلاحي ثمَّ م شُدّي الكفَّ بالغَزْلِ (٢
ونَبْلي وَفُقاها م كعراقيبِ قطاً طُحْلِ
ومنّي نظرةٌ بعدي ومني نظرةٌ قبلي (٣
فإمّا مُتُّ يا تَمْلي فمُوتي حُرَّةً مثلي (٤

قال ابن حجر : وهذا الشعر مما اختارهُ الاصمعي لخفّة رويهِ . ومما ورد في كتاب الاغاني (٣ : ٩٧—٩٨) من الابيات التي عليها اصوات ١٠ رُوي لامرئ القيس بن عابس وقد رواها قوم لامرئ القيس بن حُجر بالغلط وهي الابيات الآتية (من الكامل) :

حيِّ الحمولَ بجانب العَزْلِ اذ لا يوافقُ شكلُها شكلي
اللهُ أَنجحُ ما طلبتُ بهِ والبرُّ خيرُ حقيبةِ الرَّحلِ
انّي بحبلكَ واصلٌ حَبلي وبريش نَبلكَ رائشٌ نَبلي
وشمائلي ما قد علمتَ وما نَبَحَتْ كلابُكَ طارقاً مثلي

وذكر هناك (ص٩٦—٩٩) الغناء الذي وضعهُ ابو هارون عطرد على هذه الابيات وكيف طرب لها الوليد بن يزيد فرمى حالهُ في بركةٍ مملوّة خمراً فنهل منها حتى سكر فأُخرج منها كالميت

وذكر ايضاً دخول عبّاد بن سلمة ابن قاضي البصرة ليلاً على عطرد مع جماعةٍ فلمّا رآهُ عطرد ومن معهُ فزع فقال لهُ عبّاد : لا ترَعْ

اني قصدتُ اليك من اهلي في حاجة يأتي لها مثلي

---

١) تملي ترخيم تملك . ويروى : يا تملك . . صليني ٢) ويروى : بالعُزْلِ . وبالعَذْلِ
٣) ويروى : نظرة خلفي . قال في اللسان : اي افهمُ ما حضر وغاب
٤) ويروى . فكوني حُرَّةً

فقال عطرد: وما هي اصلحك الله؟ قال:

لا طالبًا شيئًا اليك سوى «حيِّ الحمولَ بجانب العزلِ»

اراد ان يُسمعهم غناءهُ في الابيات السابقة. فقال: انزلوا على بركة الله فلم يزل يغنّيهم هذا وغيرهُ حتَّى اصبحوا

وروى ياقوت في معجم البلدان (٢: ٨٠٩ و ٤: ٦٦٢) لامرئ القيس بن عابس في وصف رَوْضة مَنْصَح وهي روضة لبني وكيعة بن كندة (من الطويل):

أَلَا ليتَ شعري هل أَرى الورْدَ مَرَّةً ... يُطالِبُ سَرْباً مُوكَلًا بغرارِ

أَمامَ رَعيلٍ او بروضةِ مَنْصَحٍ ... أُبادِرُ أَنعاماً وأَجْلَ صِوارِ

وهَلْ اشربَنْ كأساً بلذَّةِ شاربٍ ... مُشعشعةً او من صريحِ عُقارِ

اذا ما جرَتْ في العظمِ خِلْتَ دَبيبَها ... دبيبَ صِغارِ النَّمْلِ وهي سَوَادِ

وقال ابن حُجر (١: ١٢٤) انَّ ابن عابس كتب الى ابي بكر في الردَّة (من الوافر):

أَلا بلِّغْ ابا بكرٍ رسولًا ... وبلِّغها جميعَ المسلمينا

فليس مجاورًا بيتي بيوتاً ... بما قال النبيُّ مكذِّبينا

ويُروى لهُ في كتب الأدباء ابيات متفرّقة. منها بيت في الكامل للمبرّد (ص ٥٤٦) (من الهزج):

وقد اختلِسُ الضربةَ م لا يَدمَى لها نَصْلي

وروى لهُ البكري في معجم ما استعجم (ص ٦٦٩) في مادَّة عَمواس من قرى الشام بين الرملة وبيت المقدس (من الرمل):

رُبَّ خِرْقٍ مثلِ الهلالِ وبيضا ... ءَ لَعُوبٍ بالجِزْعِ من عَمواسِ

وكذلك روى ياقوت في معجم البلدان (١: ١٤١) عن امرئ القيس بن عابس (من المتقارب):

فيا هِندُ لا تَنكحي بُوهَةً   عليهِ عقيقتُهُ أحسبا

(قال)اي كأن عقيقتهُ لم تُحلَق في صغرهِ حتى شاخ والأحسب ما كان في شعره شقرة

ولم يذكر احد سنة وفاة امرئ القيس بن عابس

١٣ نائلة بنت الفَرافصة زوجة الخليفة عثمان

هي نائلة بنت الفرافصة بن الاحوص بن عمرو بن ثعلبة الراقي نسبُها الى عليّ بن جناب من بني كلب النصارى . والفَرافِصة بفتح الفاء الاولى وكسر الثانية ويُروى القراصفة بالقاف. وقد شهد في كتاب الاغاني (١٥ : ٧٠) عن نصرانيَّة الفرافصة ابي نائلة كما شهد الطبري في تاريخهِ على نصرانيَّة ابنته نائلة . امَّا زواجها بالخليفة عثمان فوقع سنة٢٨هجريَّة (٦٥٠م) قال الطبري في تاريخهِ(١ : ٢٨٢٧) : « وفي هذه السنة تزوَّج عثمان نائلة بنت الفَرافصة وكانت نصرانيَّة فتحنَّثت (كذا) قبل ان يدخل بها »

وقد ذكر كتاب الاغاني (١٥ : ٧٠) سبب هذا الزواج وذلك انَّ عثمان بن عفّان بلغهُ انَّ سعيد بن العاص وهو على الكوفة تزوَّج هنداً بنت الفرافصة وبلغهُ نسبها وجمالها فكتب اليهِ: ان كانت لها اخت فزوّجنيها . فبعث سعيد الى الفرافصة يخطب احدى بناتهِ على عثمان فامر الفرافصة ابنهُ ضبًّا فزوَّجها اياهُ وكان ضبّ مسلماً وكان الفرافصة نصرانيًّا وقد اوصاها قبل فراقها بما يحسن بها فعلُهُ اذا صارت بين نساء قريش . (قال) فلما حُملت كرهت الغربة وحزنت لفراق اهلها فأنشأت تقول لاخيها ضبّ (من الطويل) :

أَلستَ تَرى يا ضَبُّ بالله انني   مُصاحبةٌ نحو المدينةِ أَركبا

اذا قطعوا حَزْناً تحت ركابهم   كما حرَّكت(١ ريحٌ يراعاً مُثقَّبا

لقد كان في ابناء حصن بن ضمضم   لك الويلُ ما يغني الخِباءَ المطنَّبا(٢

١) ويروى : كما زعزعت

٢) حصن بن ضمضم من اجداد نائلة . ويروى في فتيان حصن . . ما يجزي الخباء المحجَّبا

قضى الله حقاً ان تموتي غريبةً   بيثربَ لا تلقينَ اماً ولا أبا

ولابن عائشة المغنّي لحنٌ في هذه الابيات . ثمَّ ذكر ابو الفرج دخولها على عثمان فقال لها : ألا تكرهين ما رأيتِ من شيبي . فقالت : اني من نسوة احبُّ ازواجهن اليهنَّ الكُهول . وانَّها كانت من أحظى نسائهِ عندهُ . وفي كتاب البدء والتاريخ (٥ : ٢٠٢) انهُ اعطاها مائة الف من بيت المال

وكانت نائلة ابيّة كريمة الطبع فلمَّا تآمر الناس على عثمان في السنة ٣٥ ﻫ (٦٥٦م) وحصروهُ اربعين ليلة صرفت نائلة زوجها عن نصيحة مروان بن الحكم فشتمها مروان وذكر نصرانيَّة والدها بقوله (الطبري ١ : ٢٩٧٤-٢٩٧٦) : «وما انت وذاك فوالله لقد مات ابوكِ وما يُحسن يتوضَّأ فقالت لهُ : مهلًا يا مروان عن ذكر الآباء تُخبر عن ابي وهو غائب تكذب عليهِ وانَّ اباك لا يستطيع ان يدفع عنهُ . أما والله لولا انهُ عمُّهُ (اي عم عثمان) وانهُ ينالهُ غمُّهُ اخبرتُك عنهُ ما لن اكذب عليهِ» . فاراد مروان ان يتعرَّض لها فقال عثمان : «لا تذكرنَّها بحرفٍ فأُسوِّدَ لك وجهَك فهي والله انصحُ لي منك» . فكفَّ مروان

وما لبث الناس ان تسوَّروا دار عثمان ومعهم السيوف يتقدَّمهم محمَّد بن ابي بكر فجلس عثمان والمصحف في يدهِ فنشرت نائلةُ شعرَها فقال لها عثمان : خذي خمارَكِ فلعمري لَدخولهم عليَّ اعظم من حرمة شعركِ . واهوى رجل اليهِ بالسيف فأكبَّت عليهِ نائلة ابنة الفرافصة واتَّقت السيف بيدها فتعمَّدها وقطع اصابعها وولَّت تغمزَ اوراكها ثمَّ ضرب عثمان فقتلهُ . قال الطبري (١ : ٣٠٠٨) : واخذت ابنة فرافصة حَليَها فوضعتهُ في حَجْرها وذلك قبل ان يُقتَل فلما قُتل ناحت عليهِ وقالت ترثيهِ (من الطويل) :

ألا انَّ خيرَ الناسِ بعد ثلاثةٍ (١   قتيلُ التُّجَيبيّ الذي جاء من مصرِ
وما ليَ لا ابكي وتبكي قرابتي   وقد غُيّبت عنَّا فُضولُ ابي عمروِ (٢

١) قولها «بعد ثلاثة» تريد محمَّدًا وخليفتَيه ابا بكر وعُمر . والتُّجيبي هو كنانة بن بشير الذي ضرب عثمان على جبهتهِ بعمود وضربه سعد بن حمران المرادي بالسيف

٢) ابو عمرو كنية عثمان . ويروى : وقد غيَّبوا عني

فترى ما اظهرتهُ نائلة من الشهامة في الدفاع عن زوجها ولا شكَّ بأنَّ ما استقتهُ من مناهل النصرانيَّة من المبادئ الشريفة هو الذي ارشدها الى بذل نفسها دون الخليفة زوجها على خلاف نسائهِ العشر. وقد روى في الاغاني(١٥ : ٧١)انَّ نائلة بعثت قميص عثمان المضرَّج بدمهِ مع النعمان بن بشير الى معاوية واهل الشام وكتبت الى معاوية كتاباً مطوَّلًا دوَّنهُ هناك وفيهِ تصف قتل عثمان وممَّا قالت ما حرفهُ :

اني اقصُّ عليكم خبرَهُ لأني كنتُ مشاهدةً امرَهُ كلَّهُ حتى قضى الله عليهِ. انَّ اهل المدينة حصروهُ في دارهِ يحرسونهُ ليلهم ونهارهم قياماً على ابوابهِ بسلاحهم يمنعونهُ كلَّ شيءٍ قدروا عليهِ حتى منعوهُ الماء . . . فمكث هو ومن معهُ خمسين ليلة واهل مصر قد اسندوا امرهم الى محمَّد ابن ابي بكر وعمَّار بن ياسر وكان عليٌّ (بن ابي طالب) مع المحرّضين من اهل المدينة ولم يقاتل مع امير المؤمنين ولم ينصرهُ ولم يأمر بالعدل الذي امر الله تبارك وتعالى بهِ . . . فدخل عليهِ القوم . . . فقتلوهُ رحمة الله عليهِ في بيتهِ وعلى فراشه وقد ارسلتُ اليكم بثوبهِ وعليهِ دمهُ . . . »

قال الطبري (١ : ٣٢٥٥) : « ولمَّا قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان رض الذي قُتل فيهِ مخضَّباً بدمهِ وبأصابع نائلة زوجتهِ مقطوعةً بالبراجم اصبعان منها وشيء من الكفّ واصبعان مقطوعتان من اصولها ونصف الابهام وَضَعَ معاوية القميص على المنبر وكتب بالخبر الى الاجناد وثاب الناس اليهِ وبكوا سنة وهو على المنبر والاصابع معلَّقة فيهِ وآلى الرجال من اهل الشام ألَّا يأتوا النساء ولا يمسّهم الماء للغسل ولا يناموا على الفرش حتَّى يقتلوا قَتَلة عثمان او تفنى ارواحهم » . وكان ذلك سبب خروج معاوية بن سفيان ومحاربتهِ لعليّ بن ابي طالب في صفّين . وممَّا رواهُ ابن عبد ربّه في العقد الفريد (٣ : ٢٧٢) انَّ معاوية بعث الى نائلة يخطبها فارسلت اليهِ ؟ ما ترجو من امرأة جذماء؟ وقيل انها قالت لمَّا قُتل عثمان : اني رأيتُ الحزن يبلى كما يبلى الثوب وقد خشيت ان يبلى حزن عثمان من قلبي . فدعت بفهر فهتمت فاها لتبقى ثابتة على عهد زوجها عثمان . قال النووي في تهذيب الاسماء (ص ١٨٥٥) : « سمعت عثمان وروى عنها النعمان بن بشير وغيرهُ . . . وولدت لعثمان امَّ خالد وأروى وامَّ ابان وكانت احظى نساء عثمان عندهُ في وقتها وتزوَّجها وهي نصرانيَّة واسلمت عندهُ على يدهِ »

وقد روى ابو الفضل احمد بن ابي طاهر في كتاب بلاغات النساء (ص ٧٠—٧٢)

خطبةً خطبت بها نائلة في مسجد المدينة بعد قتل عثمان وهي متسلّبة في اطمار معها نساء من قومها والخطبة طويلة افتتحتها بقولها :

« معاشر المؤمنة واهل الملّة لا تستنكروا مقامي ولا تستكثروا كلامي فاني حرَّى عَبْرى رُزِئتُ جليلاً وتذوّقتُ ثكلاً من عثمان »

ثمَّ اطنبت في فضل زوجها ومحاسنه واردفتُ بتقريع اهل المدينة قائلةً :

« سفكتم دمهُ وانتهكتم حرمَهُ واستحللتم منهُ الحُرَم الاربع حُرمة الاسلام وحرمة الخلافة وحرمة اشهُر الحرام وحرمة البلد الحرام فليعلمنَّ الذين سعوا في امرهِ ودبُّوا في قتلهِ ومنعونا عن دفنه اللهمَّ أنْ بئس للظالمين بدلًا وانهم شرٌّ مكاناً واضعف جنداً لَتتعبدَّنكم الشُّبُهات ولتفرقنَّ بكم الطرقات ولَتذكرُنَّ بعدها عثمان ولا عثمان وكيف بسخط الله من بعدهِ ... »

(قال) ثمَّ اقبلت بوجهها على قبر النبي صلعم فقالت : اللهمَّ اشهد

أيا قبرَ النبيِّ وصاحبَيْهِ عذيري ان شكوتُ ضياع ثوبي(١
فاني لا سبيلَ فتنفعوني ولا ايديكمُ في منع حَوبي

١٤ ميسون بنت بَحْدل الكلبيَّة

هي امرأة أُخرى من نصارى كلب وابوها بجدل بن أُنيف من بني الحارثة بن جناب. وقد وصفها ابن عساكر في تاريخ دمشق وغيرهُ بالذكاء وقالوا انَّها كانت لبيبةً ورِعة وهي زوج معاوية بن ابن سفيان وامّ ابنهِ يزيد . قال ابن الكلبي في الجمهرة (خزانة الادب ٣: ٥٩٢) : « كان معاوية بن ابي سفيان بعث رسولًا الى بهدلة بن حسَّان بن عدي يخطب اليهِ ابنتهُ . فأخطأ الرسول فذهب الى بجدل بن أُنيف فزوّجهُ ابنتهُ ميسون» وكانت بدويَّة فلمَّا اتَّصلت بمعاوية ونقلها من البدو الى الشام ضاقت نفسها لمَّا تسرَّى عليها وكانت تكثر الحنين الى اناسها والتذكّر لمسقط رأسها فعذلها على ذلك وقال لها : انتِ في مَلكٍ عظيم وما تدرين قدرَهُ وكنتِ قبل اليوم في العباءة . فقالت (من الوافر) :

١) كنَت بضياع ثوبها عن فقدها زوجها

لَبَيتٌ تَخفِقُ الأَرواحُ فيـهِ … أَحبُّ اليَّ من قصرٍ مُنيـفِ (١

ولُـبسُ عبـاءَةٍ وتَـقَرُّ عيني … احبُّ اليَّ من لبس الشُّفوفِ (٢

وأَكلُ كُسَيرَةٍ في كِسرِ بيتي … احبُّ اليَّ من اكل الرغيفِ (٣

وكَـلبٌ ينبَـحُ الطُّرَّاقَ دوني … أَحبُّ اليَّ من قِـطٍّ أَلوفِ (٤

وبَـكرٌ يتبعُ الأَظعـانَ صَعبٌ … احبُّ اليَّ من بغـلٍ زَفُوفِ (٥

واصواتُ الرياح بكـلِّ فَـجٍّ … احبُّ اليَّ من نَقرِ الـدُّفوفِ

وخِرقٌ من بني عمّي نحيـفٌ … احبُّ اليَّ من عِلـجٍ عَليفِ (٦

خشونةُ عيشتي في البدوِ أَشهى … الى نفسي من العيش الظريـفِ

فـما ابغي سوى وطني بـديـلًا … فحسبي ذاكَ من وطنٍ شريـفِ

فلمَّا سمع معاوية الابيات قال لها: ما رضيتِ يا ابنة بجـدل حتى جعلتِني علجاً عليفاً. قال اللخمي: «فطلّقها وأَلحقها بأهلها وقال لها: كنتِ فبِنتِ. فقالت: لا والله ما سُرِرنا اذ كنَّا ولا أَسِفنا اذ بِنَّا. ويقال انَّها كانت حاملًا بيزيد فوضعتهُ في البرّيَّة فمن ثمَّ كان فصيحاً». (قلنا) وفي خبر طلاقها المذكور نظرٌ والاصحّ عندنا ما روى الكلبيّ عن عوانة (الخزانة ٣: ٥٩٤) قال: «لمَّا زُفَّت ميسون بنت بجدل من بادية كلب الى معاوية وهو بريف الشام ثقل عليها الغربة والبعد عن قومها فسمعها ذات ليلة تقول هذه الابيات فقال: انا والله العِلج. وازداد بها عجباً واليها ميلًا». وذكر ابن الاثير في تاريخهِ انَّ ميسون ولدت لمعاوية ابنةً اسمها أَمة ربّ المشارق ماتت صغيرةً

١) ارادت بالبيت خيمة البدو. وتخفق اي تضطرب. والأرواح جمع رِيح كالرياح. والمنيف العالي ٢) تقرّ اي تسكن وترتاح من القرار. والشفوف جمع شِفّ وشَفّ وهو الثوب الرقيق ٣) والكُسَيرة تصغير كسرة الخبز. والكِسر طرفُ الخباء من الارض ٤) الطُّرَّاق جمع طارق وهو الآتي ليلًا. ويروى. عنّي ٥) البكر الفتيّ من الابل. والاظعان جمع ظعينة وهي المرأة ما دامت في الهودج. والزَّفوف المُسرع ٦) الخِرق الكريم. العلج الصلب الشديد من حمار الوحش. والعليف المسمَّن. قال الاعلم: تُعني بهِ معاوية لقوَّتهِ وشدَّته مع سِمَنهِ ونَعمته. ويروى العنيف بالنون ويروى النَّليف وهو الذي يصبغ لحيتهِ بالنالية

١٥ ابو زُبَيْد الطائيّ

﴿اسمهُ ورهطهُ﴾ هو ابو زُبَيْد الطائي حَرْملة بن المنذر بن معدي كَرِب بن حنظلة بن النعمان بن حيَّة من قبيلة طيّ الراقية الى زيد بن كهلان من عرب اليمن. قال ابن دُريد في الاشتقاق (ص ٢٣١) : « وزُبَيْد تصغير الزَّبْد وهو العطاء » . ورهطهُ بنو الحيَّة هم رهط اياس بن قبيصة وحنظلة بن ابي عفراء (الاغاني)

﴿زمانهُ ودينهُ﴾ قال ابو الفرج الاصبهاني (١١ : ٢٤) : ابو زُبَيْد هو ممَّن ادرك الجاهليَّة والاسلام فعُدَّ في المُخَضْرَمين. وجعلهُ ابو الحاتم السجستاني في جملة المعمَّرين قال (ص ٩٨) انهُ عاش مائة وخمسين سنة. وهكذا روى ابن الكلبي (الاغاني ١١ : ٢٨) وبلغ الى زمن علي ومعاوية. أمّا دينهُ فكان في الجاهليَّة النصرانيَّة بلا شكّ كمعظم ابناء قبيلتهِ طيّ. وكاياس بن قبيصة وحنظلة بن ابي عفراء اللذين اثبتنا نصرانيَّتهما (اطلب كتابنا النصرانيَّة وآدابها بين عرب الجاهليَّة ٨٩–٩٠ و٩٢ و١٣٣ و١٣٥). امَّا في الاسلام أثَبَتَ على دينهِ او أسلم فجاء فيهِ قولان قال الطبري في تاريخهِ (ج ١ ص ٢٨٤٣) : « قدم ابو زُبَيْد على الوليد بن عُقبة في الكوفة فلم يزل الوليد بهِ وعنهُ حتَّى اسلم في آخر امارة الوليد وحَسُن اسلامهُ » وكذا ورد في حاشية كتاب الاشتقاق لابن دريد (ص ٢٣١). ويردّ هذا القول ما جاء في معظم كتب الادباء الذين يصفون ابا زبيد بالنصرانيّ حيثما ورد اسمهُ. فاذا رووا لهُ بيتاً قالوا « قال ابو زُبيد النصرانيّ » دون اشارة الى تغييرهِ دينهُ. قال ابو حاتم السجستاني في المعمَّرين (ص ٩٨) « وكان ابو زُبيد نصرانيًّا » لا بل يصرّحون بموتهِ نصرانيًّا. قال ابن قتيبة في الشعر والشعراء (ص ١٦٧) : « ادرك ابو زُبيد الاسلام ومات نصرانيًّا » . ومثلهُ قال ابن سلّام الجمحي في طبقات الشعراء (ص ١٩٦) وقال ابو الفرج في الاغاني (١١ : ٢٤) : « وكان ابو زُبيد نصرانيًّا وعلى دينهِ مات » . وتجد هناك عثمان الخليفة يكلّمهُ بقولهِ « يا اخا تُبّع المسيح » . وذكر ايضاً (ص ٢٨) انهُ قبل موتهِ « كان يُحمل في كلّ احد الى البيعة » وبهذهِ الشواهد ردّ كافٍ على زعم الطبري . قال في خزانة الادب ينتقد على زعم الطبريّ (٢ : ١٥٥) « وهذا خلاف ما قال العلماء انهُ مات على نصرانيَّتهِ »

﴿مُقامهُ واخباره﴾ كان مقام ابي زُبَيْد بالرقَّة في الجزيرة وبها مات (اغاني ١١ : ٢٨) وقال (ص ٢٧) : «كان اخوال ابي زُبَيْد بني تغلب وكان يقيم فيهم اكثر ايامهِ وكان لهُ غلام يرعى ابلهُ» . وقال ابن سلَّام في طبقات الشعراء (ص ١٩٦) : « وكان ابو زُبيد الطائي من زوَّار الملوك ولملوك العجم خاصَّةً وكان عالمًا بسيَرها» وروى في الاغاني (١١ : ٢٦) «انهُ اتى النعمان بن المنذر وجالَسَهُ » وقال ابن سلام : وكان عثمان ابن عفَّان يقرّبهُ ويُدنيهِ ويدني مجلسه» . وكان ابو زُبَيْد طويل القامة جميل المنظر . روى في الاغاني (١١ : ٢٨) عن ابن الكلبي عن ابيهِ ان «طول ابي زُبيد كان ثلثة عشر شبرًا» (١ . امَّا جمالهُ فقد روى عنهُ (٦ : ٣٣) مسندًا قولهُ الى ابن دريد قال : « كان وضَّاح اليمن والمقنَّع الكندي وابو زبيد الطائيّ يَرِدُون مواسم العرب مقنَّعين يستترون وجوههم خوفًا من العين (!!) وحذارًا على انفسهم من النساء لجمالهم» . وقال ايضاً (١١ : ٢٨) : كان ابو زبيد الطائيّ ممن اذا دخل مكَّة دخلها متنكرًا . وقال في خزانة الادب (٢ : ١٥٥) « انَّ عمر بن الخطَّاب استعمل ابا زُبيد على صدقات قومهِ ولم يستعمل نصرانيًا غيرهُ » . وروي عن ابي زُبَيْد انهُ تنقَّل الى بلاد مختلفة وانهُ دخل مكَّة والمدينة وسكن مدَّة في الكوفة ينادم الوليد بن عقبة . قال في الاغاني (٤ : ٨٢—٨٣) : «انَّ ابا زبيد وفد على الوليد بن عُقْبة حين استعملهُ عثمان على الكوفة فانزله الوليد دار العقيل بن ابي طالب وهي دار القبطي على باب المسجد فاستوهبها منهُ فوهبها لهُ . فاحتجَّ عليهِ اهل الكوفة انَّ ابا زُبيد كان يخرج اليه من دارهِ يخترق المسجد وهو نصرانيّ فيجعلهُ طريقاً . وقيل انهُ كان يخرج من منزلهِ حتَّى يشقّ الجامع الى الوليد فيسمر عندهُ ويشرب معهُ ويخرج فيشقّ المسجد وهو سكران فذلك نبَّههم عليهِ»

وقد ورد ذكر ابي زُبَيْد في كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار لخليل بن ايبك الصفدي (Ms de Londres, 575, ff. 56-57) قال : « ومنهم ابو زُبَيْد الطائي واسمهُ حرملة بن المنذر وكان نصرانيًا من متنصّرة العرب ، والواقع في هذا الدين اكله اذ اعترب (كذا) ، قلَّ ان طوَتْ طي ٠ على مثلهِ بُردها ، او مدَّت بمثل

١) روى عبد القادر البغدادي في خزانة الادب (٢ : ١٥٥) انَّ ا‌با زُبيد «كان اعور آدم» ونسب هذا القول لابن سلام الجمحي فلم نجدهُ في كتابهِ طبقات الشعراء

انواء قريحتهِ وردها ، تجلبب سرابيل الدماء ، وانتسب الى المنذر وهو ابن ماء السماء ، الّا انهُ لو ولد مثل المنذر لقدّمهُ على نبيهِ لتحقيقهِ ، او واخى النعمان لما اجراهُ الّا مجرى شقيقهِ »

﴿ ابو زبيد والاسد ﴾ وممَّا اشتهر بهِ ابو زُبيد وصفهُ للأسد قيل انهُ لقيهُ في بعض اسفارهِ بالنجف فرأى من بطشهِ ما ارعد فرائصهُ فوصفهُ وصفاً لم يأتِ بمثلهِ غيرهُ

اخبر امين الدولة الشيزري في كتابهِ جمهرة الاسلام (Ms de Leid, ff 238r) قال: حضر ابو زُبَيد ذات يوم عند عثمان بن عفّان وعندهُ المهاجرين (المهاجرون) والانصار فتذاكروا مآثر العرب وايّامها وسِيَرها واشعارها فالتفت اليهِ عثمان فقال: يا اخا تُبَّع دين المسيح أَسمعنا بعض شعرك فقد أُنبئتُ انك تجيد الشعر. فانشدهُ كلمتهُ العينيَّة التي يصف فيها الاسد وهي (اطلب الحماسة البصريّة ٢: ٢١٩—٢٢٠)

مَنْ مبلغٌ قومَنا النائين اذ شَخَصوا (١ … أَنَّ الفؤاد اليهم شَيِّقٌ وَلِعُ
تَناذروني (٢ كأَنّي في أَكُفّهمُ … حتّى اذا ما رأوني خالياً نَزَعوا
واستَحدث القومُ امرًا غيرَ ما وهموا … وطارَ انصارُهم (٣ شتّى وما جمعوا
والدارُ إمَّا نأتْ بي عنهمُ فلَهُم … ودِّي ونَصْري اذا اعداؤهم سَبَعوا
إمَّا بحدّ سِنانٍ او مُحافلَةً … فلا قَحومٌ ولا فانٍ (٤ ولا ضَرِعُ
حمّالُ اثقالِ اهلِ الودّ آوِنةً … أُعطيهمُ الودَّ مني بَلْهَ ما سمعوا (٥
كأنّما يتفادى اهلُ أَمرِهمُ … من ذي زوائدَ في أَرساغهِ فَدَعُ
ضَرْغامةٍ أَهرَتَ الشِدْقَيْنِ ذي لِبَدٍ … كأنهُ بُرنسٌ في الغابِ مُدَّرِعُ (٦

١) ويروى: اذ شحطوا. واذ سخطوا ٢) ويروى: تبادروني ٣) ويروى: وكان انصارهم ٤) ويروى: وانٍ ٥) بلهَ ما سمعوا اي على خلاف ما سمعوا. وبَله بمعنى غير. ويروى: أُعطيهم العهدَ. ويروى: الجهدَ
٦) ويروى: اهدب الشدقين . . كأنما برنساً

بالشِّيِّ (١أسفلَ من حمَّاءَ ليس لهُ — الّا بَنيهِ والّا عِرسَهُ سَبَعُ
أَبَنَّ عِرِّيسَهُ غنَّاؤها أَشِبٌ — ودون غايتها مستَورَدٌ شرَعُ
شأسُ الهبوط زنَّاءٌ الحاقنَين متى — ينشَغ بَوارده يحدثْ لها فزَعُ
أبو شتيمَين(٢من حصَّاءَ قد أفلتْ — كأنَّ أطباءَهُ في رُسْغها رقَعُ
أعطيتها جهدها حتى اذا وجمت — صدَّت وصدًّا فلا غِيلٌ ولا فدَعُ
وَرْدَيْن قد اخذا اخلاقَ شيخهما — ففيهما عزمة (٣ الظَّلماء والجَشَعُ
غذاهما بلحوم القوم مذ شدَنا (٤ — فما يزال بوَصْلَيْ راكبٍ يضَعُ
على جَناجنهِ من ثوبهِ هبَبٌ — وفيهِ من صائكٍ مستكرَهٌ دفعُ
كأنَّما هو في اهداب ارملةٍ — مسرولٌ والى الإبطين مدَّرِعُ
أفزَّ عنهُ بني الخالات جرأتُهُ — لا الصيدُ يُمنع منهُ وهو ممتنعُ
في ما اكتسبنَ رئيس غير منفصمٍ — وليس فيما يُرى من كسبهِ طمَعُ

حتى انتهى الى آخرها فقال لهُ عثمان (الاغاني ١١ : ٢٤–٢٥ وطبقات الشعر للجمحي ص ١٩٦ والمحاسن والاضداد للجاحظ ص ١١٢) : تاللهِ تذكر الاسدَ ما حييتَ واللهِ اني لَاحسبك جباناً هرَّاباً (ويروى : هِداناً) . قال : كلّا يا امير المؤمنين ولكنّي رأيتُ منهُ منظرًا وشهدتُ منهُ مشهدًا لا يبرح ذكرهُ يتجدَّد في قلبي ومعذورٌ انا يا امير المؤمنين غير مَلوم . فقال عثمان : وأنّى كان ذلك . قال : خرجتُ في صِّابة اشرافٍ من افناء قبائل العرب ذوي هيئة وشارة حسنة ترتمي بنا المَهاري بانسائها (الاغاني : باكسائها) ومعنا البغال عليها العبيد يقودون عتاق الخيل ونحن نريد الحارث ابن ابي شمّر الغساني ملك الشام فاخرَوَّطَ (غ : اخرورط) بنا السير في حمارَّة القيظ حتّى عصبَت الافواه وذبلت الشفاه وشالت(غ : وسالت) المياه وأذكت

١) الشِّيّ جبل بالحجاز ٢) ويروى : ابو شتيمين . والشتيم الاسد الكريه الوجه
٣) ويروى : جرأة ٤) شدَنا قويا

الجوزاء المعزاء وداب (غ: وذاب) الصَّيهد (١ وَصرَّ الجُندب وضاف(غ: واضاف) العصفورَ الضبُّ في وجاره (غ: في وكره . ويروى : في جواره) فقال قائلنا: يا أيها الركب غوروا بنا في ضَوج (٢ هذا الوادي. واذا وادٍ قد بدا عيناً كثير الدَّغَل، دائم الغَلَل، شجراؤهُ مُغِنَّة، واطيارهُ مُرِنَّة، فحططنا رحالنا باصول دوحات كَنَهْبلات، ونبعات منهدلات، فأصبنا من فَضَلات المزاود وأتبعناها بالماء البارد

« وإنّا لنِصف حرّ يومنا ومماطلته اذ صرَّ أقصى الخيل أذُنَيه، وفحصَ الارضَ بيدَيه، فوالله ما لبث ان جال، ثم حَمْحم فبال، ثم فعل فِعلَهُ الفرس الذي يليه واحداً فواحداً . فتضعضعت الخيل وتكَعكعت الابل وتقهقرت البغال . فمن نافرٍ بشِكاله، وناهضٍ بعقاله، وجائل بجلاله، فعلمنا أن قد أُتينا وانَّهُ السَّبع . ففزع كلٌّ واحدٍ الى سيفهِ فاستلَّهُ من جرابه ثمَّ وقفنا رَزْدقاً أرسالاً . فاقبل ابو الحرث من اجمتهِ، يتطالع(غ: يتظالع)في مشيتهِ كأنَّهُ مَجنوب او في هجارٍ. لصدره نحيط، ولبلاعمهِ غطيط، ولطَرْفهِ وميض، ولأرساغهِ نقيض، كأنهُ يخبطُ هشيماً، او يطأ صريماً، واذا هامةٌ كالمِجَنّ، وخدٌّ كالمِسَنّ. وعينان سجراوان كأنهما سراجان يَقِدان وقَصَرة رَبِلة، ولهزمة(غ: ولهذمة)رهلة، وكَتَد مُغبَط، وزَور مُفرَط، وساعد مجدول، وعَضُد مفتول، وكفٌّ شَثْنة البراثن، الى مخالب كالمحاجن، ثمَّ ضرب بيدهِ فأرهج، وكشَّر فأفرج، عن انياب كالمعاول مصقولة، غير مفلولة، وفمٍ اشدق، كالغار الأخوق، تمطَّى فاشرع (غ: فاسرع) بيديهِ، وحفز ورِكَيهِ برجلَيهِ، حتَّى صار ظلُّهُ مِثلَيهِ، ثمَّ أقعى فاقشعرَّ، ثمَّ مثل (غ: تمثّل) فاكفهرَّ، ثم تجهَّم فازبأرَّ، فلا والذي(غ: وذو) بيتهُ في السماء ما اتَّقيناهُ الّا باخٍ لنا من بني فَزارة، كان ضخم الجُزارة، فوقصهُ(٣ ثمَّ أقعصهُ فقضقض متنهُ، وبقر بطنهُ، وجعل يَلغ في دمهِ. فذمرتُ لاصحابي فهجهجنا به فبعد لأيٍ ما استقدموا فكرَّ مقشعرًّا بزبرةٍ (غ: بزبره) كأنَّ به شيهماً (غ: شمصاً) حولياً فاختلج رجُلًا أعجر ذا حوايا فنفضهُ نفضةً تزايلت مفاصلهُ وانقطعت اوداجهُ ثمَّ نهم فقرقر، ثمَّ زفر فبربر، ثمَّ زأر فجرجر، ثمَّ لحظ فوالله لخلتُ البرقَ يتطاير من تحت جفونهِ، من عن شمالهِ ويمينهِ، فأرعشت الايدي واصطكَّت الارجل وأطَّت الاضلاع،

١) الصَّيهد حرارة الشمس. ويروى: الصَّيخد وهو عين الشمس ٢) ضَوج الوادي منعطفهُ. ومثله الصَّوح ٣) وقصهُ دقَّ عنقهُ ويروى وَهَصهُ ورهَصهُ

وارتجّت الاسماع، وحمّجت (غ : وشخصت) العيون، ولحقت الظهور بالبطون، واخزلت المتون، وساءت (غ : وتحققت) الظنون »

فقال لهُ عثمان: اسكتْ قطع الله لسانك فقد أرعبتَ قلوب المسلمين. ثم حضر بعد ذلك عند معاوية بن ابي سفيان وعندهُ جماعة من اصحابهِ فقال: أيّكم يصف لي الاسد ؟ فقام ابو زُبيد الطائي ثمَّ جثا بين يدي معاوية فقال: يا امير المؤمنين انا اصفهُ لك حتى كأنك تراهُ. « لهُ عينان حمراوان كوهج النيران، كأنّما نُقرتا بالمناقير في عرض الصَّفوان، هامتهُ عظيمة. وجبهتهُ شتيمة، كأنما ناباهُ من سنان، وشفتاهُ من صوّان، لونهُ وَرْد، وزئيرهُ رَعد، اذا مشى تبهنس، واذا ألّيل اعلنكس وتجسّس، من قاسمهُ ظلم، ومن قارعهُ غشم » ثمَّ انشأ (من الطويل):

عبوسٌ شموسٌ مُصلَخِدٌّ خنابسٌ جريءٌ على الارواح للقِرنِ قاهرُ (١)

منيعٌ ويحمي كلَّ وادٍ يرومُهُ شديدٌ أُصولِ الماضغَينِ مُكابرُ

براثنهُ شَثْنٌ وعيناهُ في الدُّجى كجمرِ الغضا في وجههِ الشرُّ ظاهرُ

يُدِلُّ بأنيابٍ حدادٍ كأنها اذا قلّص الاشداقَ عنها خناجر

فقال لهُ معاوية: نعتَّهُ نعتاً خلتُهُ ان سيثب عليَّ من ورائي

وممّا رواهُ ابو علي القالي في اماليهِ (٣: ١٨٣—١٨٥) ورفعهُ الى ابي عبيدة قال: اجتمع عند يزيد بن معاوية ابو زُبيد الطائي وجميل بن مَعمَر العذري والاخطل التَّغلَبيّ فقال لهم: أيّكم يصف الاسد في غير شعرٍ فقال ابو زُبيد: « لونهُ وَرْد، وزئيرهُ رَعد (وقال مرّة اخرى : زَغد)، ووثبهُ شَدّ، واخذهُ جِدّ، وهولهُ شديد، وشرّهُ عتيد، ونابهُ حديد، وأنفهُ أخثم، وخدّهُ أدرَم، ومشفرهُ أدلم، وكفّاهُ عُراضتان، ووجنتاهُ ناتئتان، وعيناهُ وقّادتان، كأنهما لمحٌ بارق، او نجمٌ طارق، اذا استقبلتَهُ قُلتَ أفدَع، واذا استعرضتَهُ قلتَ أكوَع، واذا استدبرتَهُ قلتَ أصمع، بصيرٌ اذا استغضى، هَمُوسٌ اذا مشى، اذا قفّى كمّش، واذا جرى طمّش، براثنهُ شثنة، ومفاصلهُ متّرصة، مُضيق لقلب الجبان، مروّع للماضي الجنان، ان قاسمَ ظلَم،

---

١) ويروى: عبوسٌ كبوسٌ .. مكالبٌ .. على الإقدام

وان كابرَ دَهَم ، وان نالَ غشَم . ثمَّ انشأ يقول (من الرجز) :

خُبَعثِنٌ أَشوسُ ذو تَــهكُّمِ   مشتبكُ الانيــابِ ذو تبرطُمِ
وذو اهــاويــلَ وذو تجــهُّمِ   ساطٍ على الليثِ الهزبرِ الضيغمِ
وعينهُ مثلُ الشِهاب المُضرَمِ   وهــامُــهُ كالحجَرِ المُــلَمْلَمِ

فقال (يزيد) : حسبُك يا ابا زُبَيْد . ثمَّ قال : قُلْ يا جميل . فقــال : يا امير المؤمنين وجهُهُ فدَغم ، وشِدقُهُ شَدقم ، وأنفُهُ مُعرَنزِم، مقــدَّمُهُ كثيف ، ومؤخَّرهُ لطيف ، ووَثبُهُ خفيف ، وأَخذهُ عَنيف ، عَبل الذراع ، شديد النُّخاع ، مُردٍ للسباع ، مُصعِق الزئير، شديد المَرير، أَهرَتُ الشِدقَين، مُترَصُ الحَصيرَين ، يركبُ الاهوال ، ويهتصِرُ الأبطال ، ويمنعُ الأَشبالِ ، ما إنْ يزالُ جاثمًا في خِيس ، او رابضًا على فَريس ، او ذا وَلغٍ ونَهيس . ثم قال :

ليثُ عَرينٍ ضيغمٌ غضَنفرُ   مُــداخَلٌ في خَلقــهِ مضبَّرُ
يُخــافُ من انيابهِ ويُذعَرُ   ما إنْ يزال قــائمًا يُزَمجِرُ
لهُ على كلّ السباعِ مَفخَرُ   قُضاقِضٌ شَثْنُ البنانِ قَسْوَرُ

فقال : حسبُك يا ابنَ مَعمر . ثمَّ قال : قل يا اخطل . فقال : ضيغَمٌ ضِرغام، غشمشمٌ هَمْهام ، على الاهوال مِقدام ، ولــلأقران هطَّام ، رئبالٌ عَنبس ، جريٌّ دَلَهمس ، ذو صدرٍ مُفَرْدس، ظَلومٌ اهوس، ليثٌ كَروَّس

قُضــاقِضٌ جهمٌ شديدُ المَفــصِلِ   مضبَّرُ الساعدِ ذو تَعشْــكُــلِ
شَرَنبثُ الكفَّين حامي أَشبُــلِ   اذا لقــاهُ بطــلٌ لم يَنكَــلِ
مُلَمْلَم الهــامةِ كَمشُ الأَرجــلِ   ذو لُبَــدٍ يغتــالُ في تمهُّــلِ
انيــابُهُ في فيهِ مثــلُ الأَنصُلِ   وعينهُ مثلُ الشهــاب المُشعَلِ

فقال لهُ : حسبك . وامر لهم بجوائز

ومن قول ابي زُبَيد في وصف الاسد ما رواهُ الصفدي في جمهرة الاسلام (ص ٢٣٨

من نسخة لَيدن) (من الطويل) :

فلا يَعلقَنكم مِهصَرُ الناب عَنبَسٌ عبوسٌ لـهُ خَلقٌ غليظٌ غضنفرُ
لهُ زُبَرٌ كاللبْد طارت رَعابلًا وكتفانِ كالشرخين عبلٌ مُصبَّرُ
رحيبُ مَشَقِّ الشِدقِ اغضفُ ضيغمٌ لهُ لَحَظاتٌ مُشرفاتٌ ومَحجرُ
وعينانِ كالوَقبَين في قُبلِ صخرةٍ يُرى فيهما كالجمرتين التبصُّرُ
من الأُسد عاديٌّ يكاد لصوتهِ رؤوس الجبال الراسيات تقعَّرُ
كأنَّ اهتزامَ الرعد خالطَ جوفَهُ اذا حنَّ فيهِ الخيزرانُ المثجَّرُ
يظلُّ مُغِبّاً عندهُ من فرائسٍ رفيتُ عظامٍ او غريضٌ مشرَّرُ
وخلقانُ درسانٍ حوالي عرينهِ ورفضُ سلاح او قُنان مُقتَّرُ
اقلَّ فأقوى ذات يوم وخيبةٌ لاوَّل من يلقى وغيٌّ ميسَّرُ
فابصر ركباً رائحين عشيَّةً فقالوا أبغلٌ مائل الجلِّ اشقرُ
بل السبع فاستنجوا واين نجاؤكم فهذا وربِّ الراقصات المزعفرُ
فولَّوا سراعاً ينـدهون مطيَّهم وراح على آثارهم يتقمَّرُ
فساراهمُ ما ان لحسٍّ حسيسةُ مدى الصوت لا يدنو ولا يتأخَّرُ
فلمَّا رأوا ان ليس شيءٌ يَريبهم وقد ادلجوا الليل التمام وابكروا
وقد بردَ الليل الطويلُ عليهمُ ومرَّ بهم لَفحٌ من القرِّ اعسرُ
تنادوا بان حُلُّوا قليلًا وعرِّسوا وحطُّوا الركابَ حولكم وتيسَّروا
بعينيهِ لمَّا عرَّسوا ورحالهم ومسقطهم والصبح قد كاد يُسفرُ
ففاجأهم يستنُّ ثانيَ عِطفهِ لـهُ غَبَبٌ كأنما بات يَمكرُ

فنادوا جميعاً بالسلاح ميسَّرًا واصبح في حافاتهم يَتَنَمَّرُ
ونَدَّت مطاياهم فمن بين عاتقٍ ومن بين مُودٍ بالبسيطة يَعْثِرُ
وطاروا بأسيافٍ لهم وقطائفٍ وكلُّهمُ يخفي الوعيدَ ويزجرُ
فاوَّل من لاقى يجول بسيفهِ عظيم الحوايا قد شَتا وهو اعجرُ
فقَضْقَصَ بالنابين قُلَّة رأسهِ ودقَّ صليفَ العُنقِ والعنقُ أصعرُ
ووافى بهِ من كان يرجو ايابَهُ فصادفَ منهُ بعضَ ما كان يحذرُ

ومن وصفهِ للاسد ما روي في بعض المجاميع المخطوطة (من الرجز) :

كالليث عندهُ الليوثُ الضَّيْغمِ يُرْضعنَ اشبالًا ولمَّا تُفْطَمِ
فهو يحامي غيرهُ ويحتمي عَبْلِ الذراعَيْن كريهِ الشَّدْقَمِ
ليثِ الليوثِ في الصدام مِصْدَمِ وكَهْمَسِ الليلِ مِصَكٍّ هَيْصَمِ
ذي جبهةٍ غَرَّا وأنفٍ أخثمِ يُكنى من الناس ابا مُحطِّمِ
قَسْورةٍ عَبْسٍ صفيّ الشجعمِ صمٍّ صِماتٍ مُصْلخدٍّ صِلْدِمِ
أَغْضَفَ رئبالٍ خِدَبٍّ قَدْعمِ منتشرِ العَرْفِ هضيمٍ هَيْضَمِ
منْ هيبةِ المنونِ لم يُجَمْجِمِ زهبةٍ مرهوبِ اللقاء ضيغمِ
اذا تناجي النفسُ قالت صَمِّمِ غمغمةٌ في جوفها المغمِّمِ
مُجَرْمِزٍ شأنَ ضرارٍ شيظمِ عند العراكِ كالفَنيقِ المُعْلَمِ
يَفْدي الكميّ بالسلاح المُعْلَمِ منهُ بأنيابٍ ولمَّا تُقْضَمِ
ترى من الفَرْسِ بهِ نَضحَ الدمِ بالنَّحر والشِدْقَيْن لونَ العَنْدمِ

أَغلبُ كم رضَّ انوف الرُّغم   اذا الاسود أحجمت لم يـحجمِ

ومَّا يروى لابي زُبيد ايضاً في وصف الاسد قولهُ (طويل):

يظَلُّ مُغِبّاً عنـدهُ من فرائسٍ   رُفاتُ عظامٍ اوغريضٍ مُشرشرِ (١

ومن وصفهِ للاسد ما رواهُ ابن السكّيت في تهذيب الالفـاظ (ص ٢٨٣) (من البسيط) :

اذا تَبَهْنس يمشي خِلتَـهُ وَعِثـاً   وَعَتْ سواعدُ منهُ بعد تكسيرِ (٢

وقال ايضاً فيهِ (من الوافر) :

فلمَّا ان رآهم قـد توافَوْا   أتاهم وسط أرْجُلهم يميسُ (٣

وفي اللسان (في مادَّة حمر) لهُ في وصف الاسد ايضاً (من الطويل):

اذا عَلِقَتْ قرناً خطاطِفُ كفّهِ   رأى الموت رأيَ العينِ اسودَ أحمرا

ومَّا أخبر ابن الاعرابي (الاغـاني ١١ : ٢٦) انهُ كان لابي زُبيد كلبٌ يقال لهُ أكدر وكان لهُ سلاح يُلبسهُ ايَّاهُ فكان لايقوم لهُ الاسد . فخرج ليلةً قبل ان يُلبسَهُ سلاحهُ فلقيهُ الاسد فقتلهُ ويقال اخذ سلاحَهُ فافلت منهُ فقـال عند ذلك ابو زُبَيد (من البسيط) :

أحـالَ أكـدرُ مشياً لا لعادتهِ   حتّى اذا كان بين البئر والعَـطَنِ

لاقى لدى ثَلَلِ الأَطواء داهيـةً   أسرَتْوا أكدرُ تحت الليلِ في قَرَنِ

حطَّت بهِ شيمـةٌ وَرْهاءُ تطردُهُ   حتى تناهى الى الجَولانِ في السَّنَنِ

١) الغريض الطريّ من اللحم . والمُشرشر المقطَّع المشقَّق

٢) يصف الاسد . تبهنس اي تبختر كانهُ يمشي وعثاً اي في رملٍ تسوخُ بهِ الاقدام . ووَعَتْ سواعدُ منهُ اي جُبرت بعد كسرٍ

٣) اي لمَّا رأى الأسد قوماً مسافرين دخل في وسطهم وهو يتبختر

الى مُقابل خَطْوِ الساعدَيْنِ لــهُ فوق السَّراةِ كذِفْرى الفالجِ القَمِنِ
رئبالُ غابٍ فلا قَحْمٌ ولا ضَرِعٌ كالبَغْلِ يحتطمُ العجلَيْن في شَطَنِ

وهي قصيدةٌ طويلة . (قال) فلامَهُ قومُهُ على كثرة وصفهِ للاسد وقالوا لهُ : قد خِفنا ان تَسبَّنا العرب بوصفك لهُ . قال: لو رأيتم ما لقيَ اكبدُ لَا لُمْتموني . ثمَّ أَمسك عن وصفهِ فلم يصفهُ بعد ذلك بشعرهِ حتَّى مات

فهذه الاوصاف ادلُّ دليل على ما قيل عن ابي زُبَيْد انَّهُ امتاز بوصف الأُسود

﴿ابو زُبَيد والوليد بن عُقبة وموتهما﴾ قال ابو الفرج (الاغاني ٤ : ١٨٦—١٨٧) : الوليـد هو ابن ابي مُعيط واخو عثمان الخليفة من امهِ وأُمهما اروى بنت كَرِيز بنت عبد المطلب . والوليد هذا من فتيان قريش وشعرائهم وشجعانهم واجوادهم وكان عثمان جعلهُ والياً على الكوفة فكان لم يزل مدمناً على شرب الخمر فجَلَدَهُ الحدَّ على شربهِ (الاغاني ١١ : ٢٨) . وكان ابو زُبَيد الطـائي ينادم الوليد في أيّام ولايتهِ ثمَّ عُزل الوليد وعـدل عن امور الدولة وصار الى الرَّقة واعتزل علياً ومعاوية فلحق اليهِ ابو زُبَيد فكان ينادمُهُ وكان يُحمَل في كلّ احدٍ الى البيعة مع النصارى فبينا هو يوم احد يشرب والنصارى حولهُ رفع نظرهُ الى السماء فنظر ثمَّ رمى بالكأس من يدهِ وقال (حماسة البحتري ص ١٠٧ وكتاب المعمَّرين ٩٨) (من الطويل) :

اذا أَصبحَ المرء الذي كان حازماً يُحَـلُّ بهِ حَلَّ الْحوارِ ويُحْمَلُ(١
فليس لــهُ في العيش خيرٌ يُريدهُ وتكفينُـهُ مَيْتاً أَعفُّ وأَجمـلُ
أَتاني رسول الموتِ يا مرحباً بــهِ ويا حَبَّذا هو مُرسَلًا حين يُرسَلُ(٢

قال الجمحيّ : ثمَّ مات فجاءهُ اصحابهُ فوجدوهُ ميتاً فدُفن هناك على نهر البليخ . فلمَّا حضرت الوليد بن عقبة الوفاة اوصى ان يُدفن الى جنب ابي زبيد . جـاء في

١) ويروى : اذا جُعل . . . حلَّ الجواري ويُرحل . ويروى : حلّ الجوار
٢) ويروى : لآتيهُ وسوفَ وللهِ افعلُ

كتاب ادب النديم لكشاجم (Ms de Paris, Suppl. ar. 1347, p .65) ؛ انَّ الوليد بن عقبة لم يزل ينادم ابا زُبَيد الطائي والياً ومعزولًا على وتيرةٍ واحـدة من الانصاف لم ينتقل عنها ويجلّهُ ويعظّمهُ ولا يقدّم عليهِ احدًا حتَّى هلك ابو زبيد فوَجد عليهِ الوليد وَجدًا شديدًا ثمَّ اعتلَّ ومات فيقال انهُ دُفن الى جانبهِ . ومرَّ بقبرَيهمـا اشجع بن عمرو السُّلَمي ومعهُ صديقان لهُ يقال لهما حمزة وسعيد فوقف بهما ثمَّ قال :

مررتُ على عظام ابي زُبَيدٍ رهيناً تحت مُوحشةٍ صَلودِ
نـديمٌ للوليد ثوى فاضحى مُجـاورَ قبرُهُ قبرَ الوليدِ
وما ادري بمن تبدو المنـايا بأَشجَعَ او بحمزةَ او سعيدِ

فقال انهم ماتوا على هذا النسق اوَّلًا فاوَّلًا . (قلنا) هذا مـا ورد عن وفاة ابي زُبَيد انهُ سبق الوليد بموتهِ . وجاء في الاغاني في محلّ آخر (١١ : ٢٨) : « وقيل ان أبا زُبَيد مات بعد الوليد فأوصى ان يُدفن الى جنب الوليد »

وقد مدح ابو زبيد الوليد لإِحسانهِ اليهِ . اخبر في الاغاني (٤ : ١٨٣) قال : كان ابو زبيد استودع بني كنانة بن تيم التغلبيين ابلًا فلم يردّوها عليهِ حين طلبها فـلاذ بالوليد وكان عُمَر ولّاهُ صدقات بني تغلب فاخـذ لهُ بحقهِ فقال ابو زُبيد يمدحهُ (من البسيط) :

يا ليت شعري بـأنبـاء أنبَّأها قد كان يَعيا بها صدري وتقديري
عن امرئٍ ما يَزِدهُ اللهُ من شرفٍ أَفرَح بهِ ومُرَيٌّ غيرُ مسرورِ (١

وفيها يقول :

انَّ الوليد لـهُ عندي وحقَّ لـهُ ودُّ الخليلِ ونُصحٌ غيرُ مذخورِ
لقـد رعـاني وأدناني وأظهرني على الاعادي بنصرٍ غير تقديرِ

١) اراد مُرَيًّا بن اوس بن حارثة بن لأم

فشذَّب القومَ عنّي غيرَ مكترثٍ حتّى تناءوا على رغمٍ وتصغيرِ
نفسي نداء ابي وهبٍ وقلْ لهُ يا امَّ عمرٍو(١ فحُلّي اليومَ او سِيري

ثمَّ روى عن ابن الاعرابيّ ما يلي قال : كان الوليد بن عُقبة قد استعمل الربيع ابن مُرَيّ بن اوس بن حارثة بن لأم الطائي على الحِمى فيما بين الجزيرة وأظهُر الحيرة فأجدبت الجزيرة وكان ابو زبيد في تغلب فخرج بهم ليرعيهم فأبى عليهِ الأوسي وقال : ان شئتَ ارعيك وحدك فعلتُ والّا فلا . فأتى ابو زُبيد الوليدَ بن عُقبة فأعطاهُ ما بين القصور الحُمْر من الشام الى القصور الحمر من الحيرة وجعل لهُ حمًى واخذها من الآخر فقال ابو زُبَيد يمدح الوليد (من الوافر) :

لَعَمْرُ ابيكَ يا ابنَ ابي مُرَيٍّ لِغيرِكَ مَن أباح لها الديارا
أباح لها أبارقَ ذات نورٍ تُرَعّي القُفَّ منها والقفارا
بحمد الله ثمَّ فتى قُرَيشٍ ابي وَهْبٍ غدت بطناً غزارا
أباح لها ولا يحمي عليها اذا ما كنتمُ سنةً جِزارا(٢
فتًى طالت يداهُ الى المعالي وطَحْطحنَ المقطَّعةَ القصارا

فلمّا عُزل الوليد ووليها سعيد (والصواب سعد بن ابي وقاص) انتزعها منهُ واخرجها من يدهِ فقال (خزانة الادب ٣ : ٢٨٢) (من الخفيف) :

ولقد متُّ غير أنّيَ حيٌّ يومَ باءت بودّها خنساء
من بني عامرٍ لها شِقُّ قلبي(٣ قسمةٌ مثلُ ما يُشَقُّ الرداء

الى ان قال :

فانتهوا انَّ للشدائد اهلًا وذَرُوا ما تُزَيّنُ الأهواء

---

١) وفي رواية ابن حبيب : يا امَّ زيد اعني يا ام ابي زيد
٢) يريد جَزَرًا من اجدب والشدّة ٣) ويروى : شقُّ نفسي

ليت شعري وايْنَ منّيَ لَيتٌ ... انّ ليتاً وانّ لوًّا عَناء (١
ايُّ ساعٍ سعى ليقطع شِربي ... حين لاحت للصابحِ الجوزاء (٢
واستظلَّ العصفورُ كرهاً مع الضبِّ ... واوفى في عُودهِ الحرباء (٣
ونفى الجُندبُ الحصا بكراعَيـــهِ ... وأذكت نيرانَها المعزاء (٤
من سَمُومٍ كأنّها حَرُّ نارٍ ... سفعَتْها ظُهَيرةٌ غرَّاء (٥
واذا اهلُ بلدةٍ (٦ أنكروني ... عرفَتْني الدَوِّيَّةُ الملساء
عرفتْ ناقتي الشمائلَ منّي ... فهي الّا بُغامَها خرساء
عرفت ليلَها الطويلَ وليلي ... انّ ذا النومَ للعيونِ غِطاء (٧

وممّا رُوي لهُ في مدح الوليد قولهُ يتشوّق اليهِ لمّا خرج من الكوفة (من الطويل) ·

لعمري لئنْ أمسى الوليدُ ببلدةٍ ... سوايَ لَقد امسيتُ للدهر مُعْوِرا
خلا انّ رزقَ الله غادٍ ورائحٌ ... واني لهُ راجٍ وان سرتُ اشهُرا
اذا صادفوا دوني الوليدَ كأنّما ... يرون بوادي ذي حَماسٍ مُزعفَرا

ثمَّ قال :

تناذَرَهُ السُفّارُ فاجتنبوا لهُ ... منازلهُ عن ذي حَماسٍ وعَرْعرا (٨

---

١) اراد الشاعر بليت ولوّ لفظَيها فاقامها مقام الاسماء وصرفها ٢) الشِرب بالكسر النصيب من الماء . والصابح الذي يسقي الابل في اوَّل النهار

٣) ويروى : واستكنَّ . قال الجاحظ في كتاب الحيوان : اذا وصف العرب شدَّة الحرّ وصفوا كيف توقي الحرباء على العود الجَزْل وكيف تلجأ العصافير الى حُجُرات الضِباب من شدَّة الحرّ ٤) ويروى : المغراء ٥) وروى الجاحظ : نفخ نارٍ سعرتها المجيرة العماء . ويروى : شفعتها ٦) ويروى : واذا الدارُ اهلها

٧) ويروى : ذا الليل للعيونِ غِشاء ٨) ويروى : اذا ما رأوا . وحَماس ارض بالعالية وعرعر وادٍ هناك (مبكري ٥٤٣)

خضيبُ بَنانٍ ما يزال براكبٍ يخُبُّ وصاحي جلده قد تقشّرا

ومن اخباره مع اخواله بني تغلب ما رواهُ ابن الاعرابي (الاغاني ١١ : ٢٧) قال: كان اخوال ابي زُبيد بني تغلب وكان يقيمُ فيهم اكثر ايّامه وكان لهُ غلام يَرعى إبله فغزت بهراء بني تغلب فمرّوا بغلامه فدفع اليهم ابل ابي زُبيد وقال: انطلقوا وادلّكم على عورة القوم وأُقاتل معكم. ففعلوا والتقوا فهُزمت بهراء وقُتل الغلام. فقال ابو زُبيد وفي هذه الابيات غناء لابن محرز (من المنسرح) :

هل كنتَ في مَنظرٍ ومستمَعٍ عن نَصْر بَهْراء غيرَ ذي فَرَسِ
تَسعى الى فِتيةِ الأَراقم وأَسْتعجلْتَ قبلَ الجُمانِ والقبَسِ
في عارضٍ من جبال بهرائها م الأُولى مَرينَ الحَرورِ عن دَرَسِ
فَبَهرةٌ مَن لَقُوا حسبتَهمُ احلى واشهى من باردِ الدِبسِ
لا تِرَةٌ عندهُم فتطلبُها ولا همُ نُهزةٌ لمختلسِ
جُودٌ كرامٌ اذا همُ نُدبوا غيرُ لئامٍ ضُجْرٍ ولا كُسُسِ
صُمتٌ عظامُ الحلوم ان قَعدوا من غير عيٍّ بهم ولا خرَسِ
تَقودُ افراسَهم نساؤهمُ يُزْجون أَجمالَهم مع الغَلَسِ
صادفتَ لمّا خرجتَ منطلقاً جَهْمَ المحيّا كباسلٍ شرِسِ
تخالُ في كفّهِ مُثقَّفةً تلمعُ فيها كشُعلة القبَسِ
بكفّ حرّانَ ثائرٍ بدمٍ طُلّابُ وِترٍ في الموت مُنغمِسِ
إمّا تقارنْ (١) بك الارواح فلا ابكيكَ الّا للدَّلو والمرَسِ
حمِدتُ امري ولمتُ امركَ اذ أَمسك جِلْزُ السنانِ للنفَسِ

---

١) ويروى: تقارش

وقـد تصلّيتَ حرَّ نارِهمُ كما تَصَلَّى المقرورُ من قَرَسِ
تذُبُّ عنهُ كفٌّ بها رَمَقٌ طيرًا عُكوفاً كَزُوَّرِ العُرُسِ
عمَّا قليلٍ علونَ جثّتهُ (١ فهنَّ من والغٍ ومُنتهِسِ

فلمّا فرغ ابو زُبيد من قصيدتهِ بعث اليهِ بنو تغلب بديةِ غلامهِ وما ذهب من ابلهِ فقال في ذلك (من الطويل) :

ألا أبلغْ بني نصر بن عمروٍ (٢ بأنّي في مودّتكمْ نفيسُ

وفيها يقول :

فما انا بالضعيف فتظلموني ولا جافي اللِقاء ولا خسيسُ
اخي حقٍّ مؤاساتي اخاكم بمالي ثمَّ يظلمني السَّريسُ (٣

ومما يُذكر من اخبار ابي زُبَيْد (الاغاني ١١ : ٢٧) ما روى حمَّاد عن ابيهِ قال : كان لابي زُبيد نديمٌ يشربُ معهُ بالكوفة فغاب ابو زبيد غيبةً ثمَّ رجع فأخبروهُ بوفاتهِ فعدل الى قبرهِ قبل دخولهِ منزلهُ فوقف عليهِ ثمَّ قال (من السريع) :

يا هاجري اذ جئتُ زائرَهُ ما كان من عادتك الهَجْرُ
يا صاحبَ القبر السلامُ على مَن حال دونَ لقائهِ القبرُ

ثمَّ انصرف وكان بعد ذلك يجيءُ الى قبرهِ يشربُ عندهُ ويصبُّ الشراب على قبرهِ

﴿شعر ابي زُبيد﴾ لابي زُبَيْد شعر كثير متفرّق ولا نعرف لهُ ديواناً مستقلًّا . وهو ممَّن يرجع اهل اللغة الى كلامهِ لفصاحة اقوالهِ وقد جعلهُ ابن سلّام (ص ١٩٦)

١) ويروى : يصبّحن مهجتهُ ٢) وروى ابن سلّام : بني عمروٍ رسولًا ٣) السريس الضعيف الذي لا ولد لهُ

في الطبقة الخامسة من الشعراء الاسلاميين. وقد اختار البحتري في حماسته كثيرًا من ابياته وفيها الحكم والاقوال البليغة فمن ذلك قولهُ في صحّة المودّة وحفظ الاخاء من قصيدةٍ رواها الزبيدي (في الاغاني ٤ : ١٨٢) (من الخفيف):

مَنْ يرى العيرَ لابن أروى على ظهـرِ المَرَوْرَى حُداتهنَّ عِجالُ (١
مُصْعِداتٍ والبيت بيتُ ابي الوَهْـب خَلاءٌ تحنُّ فيهِ الشَمالُ
يعرفُ الجاهلُ المُضلَّل ان الد م هر فيهِ النَّكْراءُ والزّلزالُ
ليت شعري كذاكمُ العهدُ ام كا نُوا أُناساً كمن يزولُ فزالوا
بعد ما تعلمين يا امَّ زُبَيْدٍ كان فيهم عزٌّ لنا وجمالُ
ووجوهٌ بودّنا مشرقاتٌ ونَوالٌ اذا أُريد النوالُ
اصبحَ البيتُ قد تبدَّل بالحَيّ وجوهاً كأنها الأقتالُ (٢
كلُّ شيءٍ يحتالُ فيهِ الرجالُ غير أنْ ليس للمنايا احتيالُ
ولَعَمرُ الإلهِ لو كان للسيف مِصالٌ او للسنان مقالُ (٣
ما تناسيتُكَ الصفاءَ ولا الودّ م ولا حالَ دونكَ الاشغالُ
ولَحرَّمتُ لحمَك المتعضّى ضَلّةً ضلَّ بالهم ما اغتالوا (٤
قولُهم شربُك الحرامُ وقد كا ن شرابٌ سوى الحرامِ حلالُ
وأبى الظاهرُ العداوةِ الّا شنآناً وقولَ ما لا يُقالُ
من رجالٍ تقارضوا مُنكَراتٍ لينالوا الذي ارادوا فنالوا
غيرَ ما طالبين ذَحْلًا ولكن مالَ دهرٌ على اناسٍ فمالوا

١) المرورى جمع مَرَوْراة وهي الصحراء ٢) ويروى : الاقيال
٣) ويروى في الاغاني : للسان مقالُ ٤) ويروى : المتقصّى . . . ضَلَّ حِلمهم

مَنْ يَخُنْك الصفاءُ او يتبدَّلْ او يَزُلْ مثلما تزول الظِلالُ (١
فاعلمَنْ أنني اخوك اخو الو م دّ حياتي حتى تزولَ الجبالُ (٢
ليس بُخلًا عليك عندي بمالٍ ابدًا ما أقلَّ نعلًا قِبالُ (٣
ولك (٤ النصرُ باللسان وبالكـفّ اذا كان لليدين مَصالُ

وقال في الرجل ذي النميمة الذي يُسخط قومهُ (من الطويل):

ومن شرّ اخلاق الرجال نميمةٌ متى ما تَبِعْ يوماً بها العِرضَ يَنْفُقِ
وان امرءًا لا يتّقي سُخط قومهِ ولا يحفظُ القُربى لَغيرُ موفَّقِ
أَبيتُ الذي يأتي الدنيَّ شبيبتي الى ان علا وخطٌ من الشَّيبِ مَفرَقي

وقال في من يحرم خيرَهُ الاقارب ويولي الاجانب (من الطويل):

وانتَ امروٌ منّا خُلقتَ لغيرنا حياتُك لا تُرجى وموتك فاجعُ

ومن شعرهِ قولهُ يردّ على بني شيبان وكانوا افتخروا بقتل رجلٍ من طيّ يُدعى المُكَّاء كان نزل ضيفاً برجل من بني الحرث بن ذهل بن شيبان فاضافهُ وسقاهُ فلمّا سكر جعل يفاخر بني شيبان فوثب عليهِ الشيباني فقتلهُ وخرج هارباً فقال ابو زُبيد يهجو بني شيبان (خفيف):

خبرَّتنا الرُكبانُ أن قد فَرِحتم وفخَرتُمْ بضربةِ المُكَّاء
ولعمري لَعارُها كان أدنى لكمُ من تُقًى وحُسن وفاء
ظلَّ ضيفاً اخوكم لأخينا في صَبوحٍ ونِعمةٍ وشِواء
لم يَهَبْ حُرْمةَ النديم وحقَّت يا لَقومي للسوءةِ السَّوْءاء

١) ويروى: يزولُ ٢) ويروى: فاعلماً . اخو العهد ٣) ويروى: ليس بُخل عليك مني . . اقلَّ سيفاً حمالُ ٤) ويروى: فلكَ

فأَصدقوني وقد خبرتم وقد ثا ... بت اليكم جوائبُ الأَنباء (١

هل عَلِمتم من معشر سافهونا ... ثمَّ عاشوا صفحاً ذوي غُلَواء

كم ازالت رماحُنا من قَتيلٍ ... قاتَلونا بنَكبةٍ وشَقاء

بعثوا حَربَنا اليهم (٢ وكانوا ... في مقامٍ لو أَبصروا ورَخاء

ثمَّ لمَّا تشذَّرت وأَنافت ... وتصلَّوا منها كريهَ الصِّلاء (٣

طلبوا صُلحَنا ولاتَ أَوانٌ ... فأَجبنا ان ليس حينَ بقاء

ولعمري لقد لَقوا اهلَ بأسٍ ... يصدقون الطِعان عند اللقاء

ولقد قاتلوا فما جبنَ القو ... مُ عن الأُمهاتِ والأَبناء

الى ان قال :

فاصدقوني أَسوقةٌ ام ملوكٌ ... انتمُ والملوكُ اهلُ عَلاء

أَبديءٌ (٤ أَن تَقتُلوا اذ قَتلتم ... ام لكم بسطةٌ على الأَكفاء

ام طمعتم بأَن تُريقوا دِمانا ... ثمَّ انتم بنَجوةٍ في السَّماء

فلحا الله طالِبَ الصلح منَّا ... ما اطاف المُبِسُّ بالدهناء (٥

انَّنا معشرٌ شمائلُنا الصَّبـرُ ودفعُ الأَسَى بحسنِ العَزاء

ولنا فوق كلِّ مجدٍ لِواءٌ ... فاضلٌ في التمام كلَّ لواء

فاذا ما استطعتمُ فاقتلونا ... مَن يُصِبْ يرتَهِنْ بغير فداء

١) الجوائب جمع جائبة وهي الخبر يجوب الارض وينتشر بها ٢) ويروى : طلبهم

٣) تشذَّر تهيأً للقتال . وتصلوا من صلى بالنار اذا وجد حرَّها . والصلاء حرُّ النار

٤) أبديءٌ الهمزة للاستفهام وبَدِيء كبديع وزنًا ومعنًى اي هل يجمل بكم

٥) الدهناء موضع في بلاد بني تميم . والمُبِس حادي الابل الذي يُبِسُّ بها اي يزجرها

ولهُ يهجو ضُبَيْعة (جمهرة الاسلام ص ٢٩٥) (من الوافر) :

تُنازعني ضُبَيْعةُ أمرَ قومي وما كانت ضُبَيعةُ للامورِ
وهل كانت ضبيعةُ غيرَ عبدٍ ضممناهُ الى نسَبٍ شطيرِ
واوصاني ابي فحفظتُ عنهُ بفكّ الغلّ عن عُنُقِ الأَسيرِ
واوصى جحدرٌ فوقا بنيهِ بإِرسال القُراد على البَعيرِ

ومن حكمهِ ما رواهُ لهُ البحتري في حماسته (من الطويل) :

عليك برأسِ الامر قبل انتشابهِ وشرُّ الامور الأَعسَرُ المُتَدبَّرُ

وفي حماسة الخالديين (نسختنا الخطّيَّة 59v) وفي الحماسة البصريَّة (١ : ١٥٤ من نسختنا) (من الطويل) :

سأقطعُ ما بيني وبينَ ابن عـامرٍ قطيعةَ وصلٍ لست اقطعُ جافيا
فمن يتبع النُّعمى بنعمى تربُّهـا ولا يتبعُ الاخوان بالـذمّ زاريا
اذا كان شكري دون فيضِ بَنانهِ وطاوَلني جودًا فكيف احتياليا

وروى لهُ في اللسان (٦ : ١٠) يمدح الوليد بن عثمان قـال ويروى ايضاً للحزين الكناني (من الكامل) :

فإلى الوليد اليومَ حنَّت ناقتي تهوي لِمُغْبَرّ المتون سَمالِقِ (١
حنَّت الى بَرْقٍ فقلتُ لها قَرِي بعضَ الحنينِ فانَّ سَجْرَكِ شائقي (٢

١) والسَّمالِق جمع سَمْلَق الارض التي لا نبات لها ٢) وفي التاج (٣ : ٢٥٦) : الى برك . وقَرِي من وَقَرَ اي اسكني واهدأي . ونصب « بعض الحنين » على معنى كُفّي عن بعض الحنين فانَّ حنينكِ الى وطنكِ شائقي لأنهُ يذكرني اهلي ووطني يقال سَجَرت الناقة اذا مدَّت حنينها

كم عنده من نائلٍ وسماحةٍ وشمائلٍ ميمونةٍ وخلائقِ

ومما رواهُ ابن عبد ربّهِ(العقد ٣: ١٣٣) لابي زُبَيد قولهُ يهجو مَن منعهُ صلتهُ (من المنسرح) :

ان كان رِزقي اليك فأرمِ بهِ في ناظرَي حَيّةٍ على رَصَدِ
ليتَكَ ادَّبتَني بواحدةٍ تجعلُها منك آخرَ الأبَدِ
تَحلِفَ أن لا تبَرَّني ابداً فانَّ فيها بَرْداً على كَبِدي

وروى لهُ ابو عليّ القالي(١: ٢٩)من قصيدة في رثاء الخليفة عثمان يصف المساحي وهي المجارف التي حفروا بها قبرهُ (من البسيط) :

لها صَواهِلُ في صُمّ السِّلامِ كما صاحَ القَسِيَّاتُ في ايدي الصَياريفِ
كأنهنَّ بأيدي القومِ في كَبَدٍ طيرٌ تَكشَّفُ عن جُونٍ مزاحيفِ(١

ولما قُتل الخليفة عليّ بن ابي طالب قال ابو زبيد يرثيه (من البسيط) (الكامل للمبرّد ص ٥٥٣) :

انَّ الكرامَ على ما كان من خُلُقٍ رهطُ امرئٍ خارَهُ للدينِ مُختارُ(٢
طَبٌّ بَصيرٌ بأضغانِ الرجالِ ولم يُعدَل بحَبْرٍ رسولِ الله أحبارُ(٣

---

١) قال القالي: وصفَ مساحِيَ . والسِلام الحجارة والصياريف الصَّيارفة ثمَّ شبَّه المساحي في ايدي الحفَّارين الذين يحفرون قبر عثمان رضَ بطير تطير عن إبل جُون اي سُود . والمزاحيف المُعْيِية . وانما جعلها جُوناً لأنهم حفروا في حَرَّةٍ فشبَّهَ الحَرَّة بالإبل السود . وهذه رواية التاج :

كأنَّ اوبَ مساحي القوم فوقهمُ طيرٌ تعيفُ على جُونٍ مزاحيفِ

٢) قال المبرّد: خارَهُ إنما هو اختارَهُ ٣) اضغان الرجال أسرارُها ومخبّآتها . ويروى: باضغاف . ويروى: باخوان . والحَبْر العالِم

وقَطْرةٌ قَطَرت اذ حان مَوعِدُها وكلُّ شيءٍ لـهُ وقتٌ ومقـدارُ
حتَّى تنصَّلَهـا في مَسْجـدٍ طُهُرٍ على إمامٍ هُدًى إن معشرٌ جاروا (١
حُمَّت ليـدخلَ جنَّاتٍ ابو حسَنٍ وأُوجبَتْ بعدَهُ للقاتلِ النارُ (٢

ومن مختار شعر ابي زُبيد الطائيّ داليَّتهُ التي قالها في اللَّجلاج . امَّا اللَّجلاج المذكور فقيل انهُ اللجلاج بن اوس من انسباء ابي زُبيد وقيل انهُ اخوهُ (القاصـد النحويَّة للعيني ٤ : ٢٢٢) وقيل بل هو ابن اختهِ اللجلاجُ الحارثي وهو طفيل بن يزيد بن عبد يغوث (خزانة الادب لعبد القادر البغدادي ٢ : ٦٥٥) . وهذه القصيدة انتخبهـا ابو زيد القرشي في جمهرة اشعار العرب فنظمها في بعض النسخ في جملة المذهَّبات وفي غيرها في جملة المراثي . وقد كنَّا نسخناها على نسخ خطيَّة في مكاتب اوربَّة ومصر وذكرنا رواياتها وبعض شروحها فنثبتها هنا كما وجدناها (من الخفيف) :

انَّ طولَ الحيـاة غـيرُ سعودٍ وضَلالٌ تـأميلُ طولِ الخلودِ (٣
عِلَـلُ المرء بالرجـاء ويُضحِي غرَضاً للمَنون نَصْبَ العـودِ (٤
كلَّ يوم ترميـهِ منهـا سهـامٌ فمُصيبٌ او صافَ غيرَ بعيدِ (٥
من حميمٍ ينسي الحياة جليدِ م القوم حتى تراهُ كالمبلودِ (٦
كلُّ ميتٍ قد اغتفرْتُ فـلا أجـزعُ من والـدٍ ولا مولودِ
غير انَّ اللَّجلاج (٧ هدَّ جنـاحِي يوم فـارقتُـهُ بـأعلى الصعيـدِ

١) تنصَّلها يريد استخرجها ٢) حُمَّت اي قُدّرت ٣) ويروى : نيل الخلود ٤) ويروى : عرَضاً وفي العيني : نصب العود : اي ان المرء كالعود المنصوب للرمي ٥) يقال صاف السهمُ اذا عدل عن الهدف . وروى القالي في اماليه (٢ : ٣٥) : يرميه منها برشْقٍ . . . او ضافَ . وضاف السهمُ كصافَ ٦) ويروى : ينسي الحياة جليدِ ٧) ويروى : الحُلاح

صـادياً يَستغيثُ غيرُ مُغـاثٍ ولقـد كان عُصْرةَ المنـجودِ (١
رُبَّ مُستَـلحِمٍ عليـهِ ظِـلالُ مِ ٱلموت لَهفانَ جاهـدٍ مَجْهودِ (٢
خـارجٍ نَاجِـذاهُ قـد بَرَدَ المو تُ على مُصطَـلاهُ ايَّ بُرودِ (٣
غاب عنهُ الأَدنى وقد وردتْ سُـمْرُ العوالي اليـهِ ايَّ ورودِ
فـدعـا دَعوة المُحَنَّقِ والتَّلـبيبُ منهُ في عـاملٍ مقصودِ (٤
ثمَّ أَنقـذتَـهُ وفرَّجتَ عنـهُ بغَموسٍ او ضربـةٍ أُخـدودِ (٥
بـحُسامٍ او زَرَّةٍ من نَحيـضٍ ذاتِ رَيْبٍ على الشُّجاع النجيدِ (٦
يَشتـكيها بقَـدكَ اذ باشرَ المو تَ جديدًا والموتُ شرٌّ جديدِ (٧
فـلوتْ خيلُـهُ عليـهِ وهـابوا لَيثَ غـابٍ مقنَّعاً في الحـديدِ
غيرَ مـا ناكلٍ يسيرُ رويدًا سَيْرَ لا مُرهَقٍ ولا مهـدودِ (٨
ساحياً لِلجـام يقصرُ عنهُ عَرِكاً في المَضيق غيرَ شَرودِ (٩

---

١) عُصْرة المنجود اي ملجـأ المنكوب . وروى العيني : نُصرة النجود وهو تصحيف
٢) المستلحم الناشب في ملحمة القتال ٣) ويروى : خارجاً . وروى في اللسان (٤ : ٥٢) : بارزٌ. قال ابو الهَيثم : بَرَد الموتُ على مُصطلاه اي ثَبَت عليه . ومصطلاهُ يداهُ ورجلاهُ ووجههُ وكلّ ما برز منهُ فبَرَد عند موتهِ وصار حرُّ الروح منهُ باردًا . والناجـذان السِنَّان اللتان تليان النابين ٤) المحنَّق المغتاظ . والتليب النحر والطوق . والعامل أعلى الرمح . والمقصود المكسور ٥) ويروى : ونفَّستَ عنهُ . اي انقذت المستغيث بك . والطعنة الغموس الواسعة . والاخدود التي تنفذ في مَنْ طُعن بها ٦) ويروى : من حُسام او ضربةٍ . والزرَّة الطعنة . والنحيض السنان المُرهَف . وذات ريب اي يرتاب من شرّها الشجاع . ويروى : ذات رَيث . والنجيد الشجاع ٧) اي يقول لضاربهِ : قَدكَ اي حسبُكَ هذه الضربة وكفَتْني هذه الطعنة
٨) الناكل المتقهقر . والمُرهَق المعنَّى المكروب . ويروى : مَهْرودِ
٩) ويروى : ساحباً بالباء . ويروى : شاحياً باللجام

في ضريحٍ عليهِ عِبءٌ ثقيلٌ (١ من تُرابٍ وجَنْدلٍ منضودِ
عن يمينِ الطريقِ عندَ صَدى حرَّ م انَ يدعو بالويلِ غيرَ معودِ (٢
مستعدًّا لِمثلها ان دنَوْا منـــهُ وفي صدرِ نَحْرهِ كالصَّديدِ (٣
نظرَ الليثَ همَّهُ في فريسٍ أَقْصَدَتْهُ يدا مجيدٍ مُفيدِ
ساندوهُ حتّى اذا لم يروهُ شدَّ اجلادَهُ على التسنيدِ (٤
يئسوا ثمَّ غادروهُ لطيرٍ عَكَفوا حولهُ عكوفَ الوفودِ
وهمُ ينظرون لو طلبوا الوِتْـــر الى واترٍ شَمُوسٍ حَقودِ (٥
قُحَمةٍ لو دنَوا لَثارَ اليهم حَرْشَفٌ قد ثناهمُ لِعديدِ (٦
يا ابن امّي ويا شُقَيِّقَ نفسي انت خلَّيتني لِدهرٍ سديدِ (٧
يبلغُ الجهدَ ذو الحَصاةِ من القو مِ ومَن يُلفَ لاهياً فهو مُودي (٨
كلَّ عامٍ أَرمي ويُرمَى أمامي بسهامٍ من مُخطئٍ وسديدِ
ثمَّ أَوحَدْتني وأَثلَلْتَ عرشي عند فُقدان سيّدٍ ومَسُودِ
من رجالٍ كانوا جَمالًا نجوماً فهمُ اليوم صَحْبُ آلِ ثمودِ

---

١) العبءُ الحملُ الثقيل ٢) ويروى: عند حرَّانَ غير مَعود اي لا يَعُودهُ احد. وروى العيني: غير مقود. والحرَّان الشديد العطش ٣) الصديد الدم والقَيح
٤) ساندوهُ اي اجلسوهُ لمَّا رأوهُ لم يقوَ على الاستناد ٥) الشَّمُوس الشرس الخلق
٦) القُحَمة المقتحم الشدائد. ويروى: فَخْمة. والحَرْشف صغار الطير
٧) شُقَيِّق تصغير شقيق وهو الاخ . ويروى : يا ابن خنساء. ويروى ايضاً : يا ابن حَسْناء . . . يا جلاحُ خلَّيتني لشديد. ويروى: لامرٍ شديدِ ٨) ويروى: يبلغ الجَهْدُ ذا الحصاة ويروى : يلفَ واهناً . وذو الحصاة الذي يُقاس لهُ الماء بالحجارة عندما يتصافنون عليها الماء

خـان دهرٌ بهم وكانوا همُ اهـــلُ عظيمُ الفعـالِ والتمجيــدِ
مانعي باحةِ العراقِ من النــا سِ بجُرْدٍ تعدو كمثلِ الأُسودِ (١
كلَّ عامٍ يَلْثِمْنَ قوماً بكفِّ الد هرِ جمعاً وآخـذٍ في مَزيـدِ (٢
جـازعـاتٌ اليهمُ جُشُعِ الأَوْ داةِ تُسقى قوتاً ضياحَ المديدِ (٣
مُسْنِفـاتٌ كأنّهنَّ قنـا الهِنْـــدِ ونَسّى الوجيفُ شَغْبَ المَرُودِ (٤
مستحيرًا بها الهُـداةُ اذا يقــطَعْن نجدًا وصَلْنَـهُ بنجودِ (٥
فأنا اليوم قَرْنُ أعضبَ منهم لا أرى غيرَ كائدٍ ومَكودِ (٦
غيرَ ما خاضعٍ لقومٍ جَناحي حين لاحَ الوجوهُ سُفْعَ الخدود (٧
كانَ عَنّي يردُّ دَرْأَكَ بعـد م اللهِ شَغْبُ المستصعَبِ المِرّيدِ (٨
مَنْ يَكِـدْني بسَيّءٍ كنتَ منهُ كالشَّجا بين حلقـهِ والوريـدِ (٩
أَسَدٌ غيرُ حيـدرٍ ومُلِثٍّ يُطلعُ الخصمَ عَنوةً في كَؤُودِ (١٠
وخطيبٌ اذا تمغَّرَتِ الأَوْ جُهُ يوماً في مأزِقٍ مشهودِ (١١

---

١) ويروى: مانعي . . . بمثل الاسودِ ٢) يَلْثِمْنَ يَكسِرْنَ. ويروى: وأخذ حيٍّ فَريدِ ٣) ويروى : خُشُع . . . قوتاً صباحَ المديد

٤) المسنفات الخيل المتقدّمة ويروى: شُعْث المدود وفي اللسان : الشغب المرَح. والمَرود والمارد الذي يجيء ويذهب نشاطاً ويروى: قنا الخطّ لطول الوجيف صُعر الخدودِ

٥) المستحير المتحيّر . والنجد المكان المرتفع. والهداة الادلاء ٦) اي صرتُ بعد الميت كالكبش الأعضَب الذي لا قَرْنَ لهُ ٧) الاسفع الاسود في بياض. ويروى: شفع الخدود. وسبّ الوفودِ ٨) ويروى : كان مني. الدرء الدَفع. والشَغْب تهييج الشرّ. والمِرّيد المبالغة من المارد والشرّير. ويروى: شغبُ المستصعِب ٩) ويروى: من يَردني. كادهُ اي خدعهُ ومَكَرَ بِهِ. الشجا العظم يعترض في الحَلْق. والوريد عرق في العنق

١٠) الحيدر القصير. والمُلِثّ اللَّجُوج والعنوة القَهْر . والكؤود العقبة الشاقّة

١١) تمغّرت احمرَّت كأنها طُليت بالمُغرة . المأزق موضع الحرب الشديد القتال

وُمطيرُ اليَدَيْن بالخير للحمـــدِ اذا ضنَّ كلُّ جِبسٍ صَلودِ (١
أَصلَتيٌّ تَسمو الـعيون اليـهِ مستنيرٌ كالبدرِ عامَ العهودِ (٢
مُعمِلُ القِـدْر بارزُ النار للضَّيْـفِ اذا همَّ بعضُهم بجُمودِ
يعتلي الـدهرَ ان عَلا عاجزَ القَو مِ وينمي للـمستتمِّ الحميـدِ
واذا القومُ كان زادُهمُ اللحـــمَ قَصيدًا منهُ وغيرَ قصيدِ
وسَعَوا بالمطيّ والـذُّبُل الـسُّمْرِ لعَمْيـاءَ في مَفارطِ بيدِ (٣
مستحيرًا بها الرياحُ فـلا يَجْـتابُها في الظَّلامِ كلُّ هَجُودِ (٤
وتخال القريضُ فيهـا غنـاءً للندامى من شاربٍ غِرّيدِ (٥
قال سِيروا انَّ السُّرى نُهزةُ الاكيـاس والغَزْوِ وليس بالتمهيـدِ (٦
واذا ما اللَّبُون سافَتْ رمادَ الـحيّ يوماً بالسَّمْلقِ الأُملودِ (٧
بدَّلَ الغَزْوُ أَوجُـهَ القومِ سودًا ولقـد ابـدأُوا وليست بسُودِ
ناطَ امرَ الضعـافِ واحتفلَ الـلَّـيلُ كحَبْلِ العاديَّة الممـدودِ (٨
في ثيـابٍ عِمادُهنَّ رمـاحٌ عند جوعٍ يسمو سموَّ الكبُودِ
كالبـلايا رؤوسُهـا في الولايا سانحاتِ السَّمومِ سُفْعَ الخُدودِ (٩

١) الجبس اللئيم. والصَّلود القاسي الذي لا تندى يدهُ بخير ٢) ويروى: اصلتياً ... مستنيرًا. والاصلتيّ السريع. والعهود الامطار ٣) العمياء التي لا طريق لها. والمفارط المهلكات. والبيد جمع بيداء الفلاة المُبيدة لسالكها. ويروى: الذُّبل الصمّ

٤) المُستحير الطريق في المفازة لا يُعرف لها منفذ. ويروى: مستجرًا ٥) ويروى: وتخال النزيق. وتخال النزيف ٦) ويروى: وليس بالتهميد ٧) اللبون ذات اللبن. سافت شمَّت ويروى: شاقت.. والسَّملق التي لا نبات فيها. والاملود الذي لا ورق فيهِ

٨) ناطَ علَّقَ ورفع. والعاديَّة الطريق.. والحَبْل اثر الناس ٩) الولايا جمع وليَّة وهو ما يلي الظهر تحت الكور. والبـلايا جمع بليَّة وهي الناقة تحبس عند قبر صاحبها في الجاهليَّة. سانحات مُعطيات ويروى: ماغات. والسَّموم الريح الحارَّة

ان تَفُتْني فلم أَطِبْ عنك نفساً   غير اني أُمنَى بدهر كَنُودِ(١

كلَّ عامٍ كأنهُ طالبٌ وِتْـرًا الينا كالثائر المستقيدِ(٢

هذا ما امكننا ان نجمعهُ من شعر ابي زبيد . ولهُ في المعاجم وكتب الادب ابيات مفردة عديدة يُستدلُّ منها انهُ كان غزير المادَّة ذا قريحة واسعة . ولعلَّ بعض الرواة جمعوا شعرهُ في ديوانٍ فَفُقِد بآفات الدهر والله اعلم

وبابي زبيد هذا نختم القسم الأَوَّل من كتابنا في شعراء النصرانيَّة بعد الاسلام فننتقل من المخضرمين الى الشعراء الذين برَّزوا في عهد الدولة الامويَّة قريباً ان شاء الله



١) المستقيد الذي يطلب القَوَد من غيرهِ   ٢) ويروى: كَنُودِ

فهرس

القسم الاوَّل من شعراء النصرانية بعد الاسلام

الشعراء المخضرمون

كتاب

شعراء النصرانيّة

بعد الاسلام

القسم الثاني

شعراء الدولة الأمويّة



القسم الثاني

مقدمة

ختمنا القسم الاوَّل من تراجم شعراء النصرانيَّة بعد الهجرة فذكرنا منهم خمسة عشر شاعرًا اشتهروا في اوَّل الاسلام وفي عهد الخلفاء الراشدين ولا نشكّ في وجود غيرهم ممَّن نبغوا في تلك الحقبة ودانوا بالنصرانيَّة دون ان يُذكر دينهم فانَّ الكتبة القدماء قلَّما يكترثون لهذا الامر واذا اتوا بذكره ذكروهُ عَرَضًا كما مرَّ بك في ما سبق وكما سترى في بعض من ندوّن تراجمهم وذلك امَّا كرهًا للاعلان بنصرانيَّتهم وامَّا ظنًّا منهم انَّ ذلك معروفٌ لا يحتاج الى التصريح

وما يقال اجمالًا عن الشعراء النصارى في عهد بني اميَّة انهم أشعر من السابقين ولعلّ السبب في ذلك ما صارت اليهِ الدولة العربيَّة من السكينة والهدوّ بعد حروبها الاولى فانَّ الآداب تأنس بالسلام والقرائح تُشحَذ في المقامات الشريفة لدى كبار الرجال وفي قصور الملوك ونوادي الطرب وعند وقوع الامور الخطيرة . فيكتسب شعر الشعراء من تلك المجالس رقَّةً وانسجامًا وطباعةً . فترى في قصائدهم مع متانة شعراء الجاهليَّة سلاسة شعراء الاسلام كشعر الاخطل وشعر القطامي

ومن خواصّ هؤلاء الشعراء انَّك لا تجد في اقوالهم شيئًا من بذاءة ومجون معاصريهم كجرير والفرزدق فكأن دينهم ارشدهم الى العفاف والحياد عن التهتُّك والخلاعة

هذا وانَّنا في ذكر الذين طُبعت دواوينهم نجتزئ في تراجمهم برواية بعض محاسن شعرهم محيلين القرَّاء الى مجموع قصائدهم

١ هُدْبة بن الخَشْرَم [١]

﴿اصل هدبة﴾ قال ابو الفرج في كتاب الاغاني (٢١ : ٢٦٤) : «هو هُدبة بن كُرز

(١) اطلب المجلَّة الاسيويَّة Journal Asiatique, V^e série, vol.V, 360-383

ابن ابي حيَّة بن الكاهن وهو سَلَمة اسحم بن عامر بن ثعلبة بن عبدالله بن ذبيان » ثمَّ اوصل نسبَهُ الى قُضاعة من اكبر قبائل العرب. وفي تاج العروس (١ : ٥١٣) دعا جدَّهُ «كُرَيْزًا» وقال ابن قتيبة في الشعر والشعراء (ص ٤٣٤) ومثلهُ ابن دُريد في الاشتقاق (ص ٤٢٠) انهُ من بني عُذْرة احدى قبائل قضاعة. وجعل ابنُ دُرَيد ابا الحيَّة كاهنًا ليس ابن الكاهن كما ورد في الاغاني

﴿اسمهُ واسرتهُ﴾ قيل انهُ دُعي بهُدْبة وهو اسم طائر وقيل انهُ من هُدْبة الثوب اي خَمَلهِ وطرَّته . وكان اسم ابيهِ خَشْرَم والخشرم جماعة النحل واميرُها وكان من وجوه رهطهِ بني عامر . امَّا هدبة فكان معروفًا بالشجاعة والنجدة والجلادة والصبر والمروءة. وقال ابو الفرج: «وكان لهدبة ثلثة اخوة كلُّهم شاعر وهم حَوْط وسَيْحان والواسع . وأُمهم حيَّة بنت ابي بكر بن ابي حيَّة من رَهطهم الأَدْنَين وكانت شاعرةً ايضًا » وقد دعاها شارح الحماسة (ص ٢٣٤) باسم رَيحانة . وكان لهدبة كذلك اختان تُدْعى الواحدة سلمى وهي زوجة زيادة بن زيد الذبياني من بني رَقاش الآتي ذكرهُ والاخرى فاطمة التي تغزَّل فيها زيادةُ فكانت سبب الشرّ بين القبيلتَين

﴿ دينهُ ﴾ كان هُدْبة نصرانيًا كما يشهد عليهِ شارح الحماسة (ص ٢٣٥) حيث يدعوهُ زيادةُ هو ورهطَهُ بامَّة المسيح. ولا غرو فانهُ كان من قضاعة التي اثبتنا نصرانيَّتها في كتابنا النصرانيَّة وآدابها بين عرب الجاهليَّة (ص ٢٩، ١٣٧، ٤٥٨) ونصرانيَّةَ فروعها كسَليح وجَرْم وبهراء وكلب . وكان هدبة من رَهط بني عامر النصارى. ولعلَّ اسم الكاهن بين اجداده يدلُّ على كهنوت النصارى لا يُراد به الساحر

﴿اخباره﴾ انَّ غاية ما اخبرهُ القدماء عن هدبة ما جرى بينهُ وبين صهرهِ زيادة ابن زيد من الخلاف والضغائن التي افضت بهِ الى قتل زيادة والى ما لحقهُ هو من القصاص بسببهِ فأُقيد بهِ على موجب سُنَن البادية وهي بئس السنن

امَّا تفاصيل هذه الرواية المشؤومة فقد وردت في عدَّة تآليف كالاغاني (٢١ : ٢٦٤ — ٢٧٠) وشرح الحماسة (٢٣٢—٢٣٦) وكامل المبرّد (٧٦٥—٧٦٨) وغيرهم مختصرها عنهم. روى ابو الفرج (ص٢٦٥) عن عيسى بن اسمعيل : كان اوَّل ما هاج الحرب بين بني عامر بن عبدالله بن ذبيان وهم رهط هدبة وبين بني رَقاش وهم بنو

قرّة بن خنبس بن عبدالله بن ذبيان وهم رهط زيادة بن زيد انّ حوطاً بن خشرم اخا هدبة راهنَ زيادة بن زيد على جملَين من إبلهما وكان مَطلَقُها من الغاية على يوم وليلة وذلك في القيظ فتزوَّدوا المـاء في الرَّوايا والقِرَب . وكانت اخت حوط سلمى بنت خشرم تحت زيادة بن زيد فمالت مع اخيها على زوجها فوهّنت اوعية زيادة ففني ماؤه قبل ماء صاحبهِ ففي ذلك يقول زيادة :

قـد جعلتْ نفسيَ في أديمِ ... مُحرَّمِ الدباغِ ذي هُزومِ (١
ثمّ رَمَت في عُرُضِ الدَّيمومِ ... في بارحٍ من وَهَجِ السَّمومِ
عند اطّلاع وَهْجةِ النُّجومِ

وقال زيادةُ ايضاً :

قـد علمتْ سَلْمةُ بـالعَميسِ ... ليـلةَ مَرْمارٍ ومَرْمَريسِ (٢
أنَّ ابـا المِسْوَرِ ذو شريسِ ... يشفي صُداعَ الأبلجِ الدِّلْعيسِ (٣

(قال) فـكان ذلك اوّل ما أثبتَ الضغائن بينهما

ثمّ انّ هُدْبة وزيادة اصطحبا وهمـا مقبلان من الشام في رَكْبٍ من قومهما . فـكانا يتعاقبان السَّوق بالابل وكانت مع هدبة اختهُ فاطمة فنزل زيادة وقال رجزاً اوّلهُ : « عوجي علينا واَرْبَعي يا فاطما » فغضب هدبة حين سمع زيادة يرتجز بأُختهِ فنزل وارتجز باخت زيادة وكان اسمها امّ الحازم وقيل امّ القاسم . فشتمهُ زيادةُ وسبَّهُ هدبة فصاح بهما القوم ووعظوها حتى امسك كلّ واحد منهما على ما في نفسهِ وهدبة اشدُّهما حنقاً لانهُ رأى انّ زيادة رَجزَ باختهِ وهي تسمعُ واختُ زيادة غائبة لم تسمع رجزهُ فمضيا ولم يتحاوروا بـكلمةٍ حتى رجعا الى عشائرهما

ثمّ زاد حنقُ رهطِ هدبة اذ سمعوا أَدْرع اخا زيادة يرجز بزُفَر عمّ هـدبة فلم يزالوا يترَصَّـدونهُ حتى خلَوْا وضربوهُ الحـدّ ضرباً مبرّحاً فراح بنو رقاش وقـد اضمروا الحرب

١) قال اليزيدي : المحرَّم الذي لم يُدبَغ . والهزُوم الشقوق
٢) المِسْوَر ابنُ زيادة فتكنَّى بِهِ ابوهُ
٣) العميس موضع . ويروى : الخَميس والحميس . والمَرْمار والمرمريس الشدَّة والاختلاط

امَّا زيادة وهُدبة فجعلا يتهاديان الاشعار ويتفاخران ويطلب كلّ واحد منهما العلوّ على صاحبهِ في شعرهِ . فمَّا قالهُ زيادة قصيدة اوَّلها :

أراكَ خليلًا قد عزمتَ التجنُّبا وقطَّعتَ حاجاتِ الفؤادِ فأصحَبا

وفيها يقول متفاخرًا :

انا ابنُ رَقاشٍ وابنُ ثعلبةَ الذي بنى هاديًا يعلو الهواديَ أغلبا
بَنى العزُّ بُنيانًا لقومي فأصبحُوا بأسيافهم عنهُ فأصبحَ مُصعَبا
فإن ترى في الناس امًّا كأمّنا ولا كأبينا حين ننسبُهُ أبَا
أتمَّ وأنمى بالبنينَ الى العُلى وأكرمَ منًّا في المناصب مَنصبا (١
ملَكْنا ولم نُملَكْ وقُدْنا ولم نُقَدْ كأنَّ لنا حقًّا على الناس تُرَتَّبا
بآيةِ أنَّا لا نرى متوَّجًا من الناس يعلونا اذا ما تعصَّبا
ولا مَلِكًا الَّا اتَّقانا بمُلكهِ ولا سوقةً إلَّا على الخَرْجِ أُتعبا
ملكْنا الملوك واستبَحْنا حِماهمُ وكنَّا لهم في الجاهليَّة مَوكبا
نَدامى وأَرْدافًا فلم ترَ سُوقةً تُوازِنُنا فاسئَل ايادًا وتغلبا (٢

ولمَّا لجَّ الشرّ بين رهط هُدبة ورهْط زيادة قال قوم لزيادة لهُ : اهجُ هُدْبة وقومهُ . فقال : اني لم ابسط لساني على قوم قطّ الَّا جهدوا على تَبلي (ويروى : قَتلي) من شدَّة هجائي ولكن انطلقوا لنضربَهُ . فخرج زيادة في رهط قومهِ فيهم اخوهُ نفَّاع يطلبون هُدْبة فوجدوا الحيَّ خُلوفًا ووجدوا هدبة واباهُ خشرمًا فضربوهما بسيوفهم فاصاب خشرمًا شجَّاتٌ في رأسهِ ووقع بذراع هدبة حزٌّ وضرب نفَّاع برجلهِ ريحانة امَّ هدبة فقال قائلهم :

شَجَجْنا خَشْرمًا في الرأس سبعًا وخدَّعْنا هُدَيْبة اذ هجانا
كذاك العبدُ انّ العبد يومًا اذا وَقَّفْتَهُ بالسيف لانا

فاجابهُ هُدْبة (من الوافر) :

وانَّ الدهرَ مؤتنَفٌ طويلٌ وشرُّ الخيلِ اقصرُها عنانا

١) ويروى : أوفى . . . في المناسبِ منسبا
٢) ويروى : فلم تلك سوقةٌ . . فاسئَل زيادًا

وليس اخو الحروب بمن اذا ما   مرتهُ الحربُ بعدَ العَصْبِ لانا

ثمَّ انَّ هدبة جمع رهطاً من قومهِ واصحابهِ فقصدوا لزيادةَ وكانت رَيحانة امُّ هُدبة نهتهُ عن الخروج فلم يَنتهِ واتوهم ليلاً في وادٍ يقال لهُ خَشُوب وزيادةُ وابياتهُ على ماء يُدعى سَخنة فضوا حتى بيَّتوا زيادة فلمَّا غشوهُ جعل يرتجز ويقول وفي رجزه اشارة الى دين هدبة وقومهِ :

من اينَ جاءت عامرُ القبوحِ   لا مرحباً بأمَّة المسيحِ
لن تقبلوا العَقلَ مع القضوحِ   ولن تُبيحوا الحيَّ في سَريحِ
حتى تذوقوا خُدُبَ الصفيحِ (١

وجعل نقّاع اخوهُ يرتجز ويقول :

اني اذا استخفى الجبانُ بالخَدَرْ   وكان بالكفِّ شهابٌ كالشَّرَرْ (٢
صَدْقُ القناة غير شَشاعِ العَذَرْ   حمَّالُ ما حمّلتُ من خير وشرّ

وهي طويلة ثمَّ التقى هُدبة وزيادة فضرب هدبة زيادةَ فأطنَّ داغضةَ رجلهِ اي عَضَلتها فاعتمد على رمح وجعل يُذبِّب بسيفهِ عن نفسهِ حتى غشيَهُ هدبة فصرعهُ وزعموا انَّ زيادة جدعَ انفَ هدبة في تذبيبهِ عن نفسهِ وضرب القوم زيادةَ حتى ظنّوا انهم قد اجهزوا عليهِ . ثمَّ اتوا منزل أَدْرَع اخي زيادة فصوّتوا بهِ فخرج عليهم فحاضرهم ونجا منهم فقال هدبة :

وكانت شِفاء النفس ممَّا أصابها   غداتئذٍ لو نلتُ بالسيفِ أَدْرَعا
واقسمُ لو ادركتُهُ لكسوتُهُ   حساماً اذا ما خالطَ العظمَ أَمْرعا

ثمَّ رجع الى زيادة فوجدهُ صريعاً بين النساء فضرب عاتقهُ بالسيف حتى خرجت الرئة من بين كتفيه. فانصرف الى اهلهِ فأخبرهم وشبّت الحرب بين الحيَّين ونأى كلّ واحد منهما عن صاحبهِ

---

١) الخُدُب الضرب الشديد. ضربة خدباء ورجل اخدب اذا كان فيهِ هوَج

٢) قال الشارح: الخَدَر المكان المظلم فسمّى يوم الغيم اليوم الخدر

ثمَّ تنحَّى هدبة مخافة السلطان واستعدى اصحابُ زيادة عليهِ والعاملُ على المدينة يومئذٍ سعيد بن العاص فارسل الى ابي نُمير عم هدبة واهلهِ فحبسهم بالمدينة. فلمَّا بلغ هدبة ذلك اقبلَ فأمكن من نفسهِ وتخلَّص عمَّهُ واهلهُ

﴿هدبة في الحبس﴾ امر سعيد بن العاص بهدبة الى الحبس فلمَّا دخلهُ قال (من الوافر) :

ألا نَعَقَ الغرابُ عليك ظُهرًا ألا مِن فيك من ذاك التُرابُ
يخبّرنا الغرابُ بأن ستنأى حبائبُنا فُقِدتُكَ يا غرابُ

وقال ايضاً يذكر عرسهُ (من الطويل) :

ولمَّا دخلتُ السجنَ يا امَّ مالكٍ ذكرتُكِ والاطرافُ في حَلَقٍ سُمْرِ
وعند سعيدٍ (١ غير أن لم أَبُحْ بهِ ذكرتُكِ انَّ الامر يُذكر بالامرِ

وقال ايضاً يعلل نفسهُ بالخلاص (وافر) :

عسى الكَرْبُ الذي امسيتُ فيهِ يكون وراءهُ فرجٌ قريبُ
فيأمنَ خائفٌ ويُفَكَّ عانٍ ويأتي اهلَهُ النائي الغريبُ

وبقي هدبة في حبسهِ وسعيد بن العاص يكرهُ الحكم بين الحيَّين فرفع امرهما الى معاوية وبعث معهم بهُدبة فوفد الى معاوية وَفْدُ بني رَقاش وفيهم عبد الرحمان بن زيد اخو القتيل. ووفد بني عامر وفيهم ابو جبر عمّ هدبة. فلمَّا صاروا بين يدي معاوية قال لهُ عبد الرحمان اخو زيادة: يا امير المؤمنين اشكو اليك مظلمتي وقتل اخي وترويع نسوتي. وتكلَّم ابو جبر كأنهُ يردُّ عليهِ فقال معاوية لهُدبة: أخبرني خبرَك. فقال هدبة: ان شئتَ أن اقصَّ عليك قصَّتنا كلاماً او شعرًا فعلتُ. قال: أنشدني فعسى ان استغني عن قصصك بشعرك. فقال هدبة هذه القصيدة مرتجلًا بها

١) سعيد المذكور هنا رجلٌ كان حسن الثغر جدًّا فذكر بهِ ثَغر زوجتهِ

ولمعبدٍ غناءٌ في بيتَيها الاوَّلين (من الطويل) :

أَلا يا لَقومي (١ للنوائب والدهرِ ... وللمرء يُردي نفسَهُ وهو لا يدري
وللأرض كم من صالحٍ قد تأكَّمَتْ (٢ ... عليـهِ فوارتْـهُ بلمَّاعـةٍ قفرِ
فـلا تتَّقي ذا هيبةٍ لجلالـهِ ... ولا ذا ضياعٍ هنَّ يُترَكنَ للفقرِ

ومنها :

فلمَّـا رأيتُ انَّهـا هي ضربـةٌ ... من السيفِ او إِغضاءُ عينٍ على وِترِ
عَمـدتُ لامرٍ لا يُعيِّر والـدي ... خَزَايتَـهُ ولا يُسَبُّ بهِ قبري (٣
وكم نكبةٍ لو انَّ أدنى مُرورِهـا ... على الدهر ذلَّت عندها نُوَبُ الدهرِ
فان تكُ في اموالنا لا نَضِقْ بها ... ذِراعاً وان تَقْسِر أبَيْنَا على القَسْرِ (٤
وان يكُ قتلٌ لا أبا لك نَصطَبِرْ ... على القتل انَّا في الحروب أُولو صَبْرِ
رُمينا فرامَيْنـا فصادَفَ رَمْيُنا ... مَنايا رجالٍ في كتابٍ وفي قَدْرِ
وانتَ اميرُ المؤمنينَ فما لنـا ... وراءَكَ من مَعْدًى ولا عنك من قَصْرِ

فقال لهُ معاوية : اراك قد أقررت بقتل صاحبهم . قال : هو ذاك . فقال عبد الرحمان : أَقِدْني . فكره ذلك معاوية وضنَّ بهدبة عن القتـل فقال معاوية لعبد الرحمان : هل لزيادة ولد ؟ قال : نعم المِسْوَر وهو غلامٌ صغير لم يبلغ وانا عمُّهُ ووليّ دم ابيهِ . فقال : «انك لا تؤمَن على اخذ الدِّية او قَتْل الرجل بغير حقّ أَو ما عليك ان تشفي صدرك وتحرم غيرك والمِسْور احقُّ بدم ابيهِ اذا احتلم فان شاء قَتَلَ وان شاء أَخذ العَقْل» . ثمَّ كتب الى سعيد في المدينة ان يحبس هدبةَ الى ان يبلغ ابن زيادة فضمَّنهُ السِجن

١) ويروى : لَقَوْمِ ٢) ويروى : قد تودَّأت وتمأَّت
٣) ويروى : ولا تعير . الخَزَاية الاستحياء . اي لا يأنف منهُ ولا يخزى
٤) ويروى : وان صبرٌ فنصبر للصبر

وتربّص بلوغ المِسْور بن زيادة فمكث في السجن ثلاث سنين وقيل ستًّا وقيل سبعاً. وقال هدبة في السجن اشعارًا كثيرة منها ما رُوي عنهُ ومنها ما ذهب . ولمّا شخص هدبة الى المدينة فحُبس بها قالت أُمُّهُ :

أيا إخوتي اهلَ المدينة أكرموا   اسيرَكُمُ انَّ الاسيرَ كريمُ
فرُبَّ كريمٍ قد قراهُ وضافهُ   ورُبَّ امورٍ كلُّهُنَّ عظيمُ
عصا جُلَّها يوماً عليهِ فراضهُ   من القوم عَيَّافٌ أشمُّ حليمُ

قال ابو الفرج: فأرسل هدبةُ عشيرتهُ الى عبد الرحمان في اوّل سنةٍ فكلّموهُ في قبول الدية فامتنع قائلًا :

أبعدَ الذي بالنَّعْفِ نعفِ كُوَيكبٍ   رهينةِ رمسٍ في تراب وجندلِ
أُذَكَّرُ بالبُقيا على من أصابني   وبُقياي انّي جاهدٌ غيرُ مُؤْتَلِ

فرجعوا الى هدبة بالابيات فقال: لم يؤيسني بعد. فلمّا كانت السنة الثالثة بلغ المِسْور فارسل هُدْبة الى عبد الرحمان من كلّمهُ فأنصتَ حتى فرغوا ثمَّ قام مغضباً وانشأ يقول :

سأُكذِبُ اقوامًا يقولون انني   سآخذ مالًا من دمٍ انا واترُهْ
فاقسمُ لا انسى زيادةَ مرةً   من الدهر الّا ريثما انا ذاكرُهْ
وكان ابنُ امّي لم يُعَيَّر بسوءةٍ   ولا دَنَسٍ جرَّبتُ فيما أُعاشِرُهْ

وقال ايضاً :

يُعزّي عن زيادةَ كلُّ صاحٍ (١   خَليِّ لا تأوّبهُ الهمومُ
وكيف تجلُّد الادنَيْنَ عنهُ   ولم يُقتَل بهِ الثارُ المُنيمُ
فلو كنتُ القتيلَ وكان حيًّا   تجرّدَ (٢ لا أَنفٌ ولا سَؤُومُ
ولا جثّامةٌ في الرحل ثِقلٌ   ولا ضَرِعٌ اذا أمسى نَؤُومُ
ولا هيّابةٌ بالليل نِكسٌ   ولا وَرِعٌ اذا يلقى جَثُومُ
غشومٌ حين يبصر مُستقادًا   وخيرُ الطالبي الوِتر الغَشُومُ

ونهض فرجعوا الى المدينة فاخبروهُ الخبر فقال: الآن يئستُ منهُ. وقيل انَّ سعيد

١) ويروى: تعزّى كلُّ مولًى   ٢) ويروى : ولو كنتُ المصاب ... لشمَّر

ابن العاص وعده بمائة ناقة حمراء كدية هدبة فلم يقبل وقال: ولو ملأتَ لي قبّتك هذه مالًا ما فديتهُ لقوله (من البسيط) :

لَنَجْدعنّ بايدينا أُنوفَكُمُ ويذهبُ القتلُ فيما بيننا هدَرَا

فسلّمهُ اليهِ

قال شارح الحماسة (ص ٢٣٥) والمبرّد في الكامل (ص ٧٦٥) : فمكث هدبة في السجن ما شاء الله ان يمكث حتى ادرك المِسْور بن زيادة. وجعل عمُّهُ عبد الرحمان بن زياد يقدم المدينةَ فيكلّمهُ القرشيُّون وغيرهم وكان اهل المدينة رقُّوا لهدبة لوفائهِ وشعرهِ وانّهُ اوّل مصبور رأوهُ في المدينة بعد زمن النبي صلعم وأَضعفوا لهُ (وقيل للمِسْور) الدِّيةَ حتى بلغت عشر دِيات. وكان ممّن عرض عليهِ الديات الحسين بن عليّ ابن ابي طالب وعبدالله بن جعفر وعبدالله بن عمر بن الخطّاب وسعيد بن العاص وعمرو ابن عثمان بن عفّان ومروان بن الحكم وسائر القوم من قريش فأبى الّا القوَد

وروى في الاغاني (٢١ : ٢٨٠) انّ جميل بن معمر العُذري دخل على هدبة السجن وهو محبوس بدم زيادة بن زيد واهدى لهُ بُردَين من ثيابٍ كساهُ ايّاهما سعيد بن العاص وجاءَهُ بنفقةٍ. فلمّا دخل اليهِ عرض ذلك عليهِ وسالهُ ان يقبلَهُ منهُ وكان جميل هجا قومهُ بني عامر فردّ هديّتهُ قائلًا: خُذْ بُرديك ونفقتك فاليك عنّي. فخرج جميل فلمّا صار في باب السجن خارجًا قال: اللهمَّ أَغنِ عني أَجدعَ بني عامر. (قال) وكانت بنو عامر قد قلّت فحالفت لأيّاد

﴿موت هدبة بن الخشرم﴾ قال ابو رياش في الحماسة (ص ٢٣٦) : فمات عبد الرحمان في تلك السنين قبل احتلام مِسْور بن زيادة. فلمّا احتلم خرج بهِ في تلك الليلة الى المدينة. وفي الاغاني (٢١ : ٢٧١) ان عبد الرحمان لم يَمُت بعد قال : « وذهب عبد الرحمان بالمِسْوَر وقد بلغ الى والي المدينة سعيد بن العاص وقيل مروان بن الحكم فأَخرج هُدبة» . وفي الحماسة «انّ اخوان هُدبة من قُريش ارسلوا اليهِ كفنًا وحَنُوطًا فأُخرج في سلطان الوليد بن عُتبة بن ابي سفيان فقال هدبة (من الطويل) :

أَلا عَلِّلاني قبلَ نَوحِ النوائحِ وقبلَ اطّلاعِ النفسِ بين الجوانحِ (١

١) ويروى: قبل صدع الصوادع . ويروى: قبل ارتقاء النفس فوق الجوانح

وقبل غَدٍ يا ويل نفسي على غدٍ اذا راح اصحابي ولستُ برائحِ (١
اذا راح اصحابي تُفيض عيونُهم وغُودِرتُ في لَحْدٍ عليَّ صفائحي
يقولون هل أَصلحتمُ لأَخيكمُ وماالقبرُ في الارضِالفضاءِبصالحِ

وقال لمَّا خرج الى القوم وفي قولهِ ما يدلُّ على الورع والتقى المسيحيّ من الطويل):

أذا العَرْشِ انّي لائذٌ بك عائذٌ من النار ذو بَثٍّ اليك فقيرُ (٢
بغيضٌ اليَّ الظلمُ ما لم أُصبْ بهِ من الظلم مَشعوفُ الفؤَادِ نفيرُ
واني وان قالوا اميرٌ مسلَّطٌ وحُجَّابُ ابوابٍ لهنَّ صريرُ (٣
لأَعلم انَّ الامر امرُك إن تَدِنْ فربٌّ وان تَغفِر فانتَ غفورُ

وقال الرواة: فلمَّا كان في الليلة التي قُتل في صباحها ارسل الى امرأتهِ يستقدمها ليودعها وكان يحبّها ولهُ منها ولدان. فلمَّا اتتهُ حادثها وبكى وبكت ولمَّا قبَّلها سمعت قعقعة الحديد فاضطربت فتنحَّى عنها قائلًا (من الطويل) :

لقد زعمَتْ امُّ الصبيَّين انني أَفزَّ جَناني وازدهَتْني المخاوفُ
وأَدنَيتِني حتى اذا ما جعلتِني لدى القلبِ اذ ذاك استقلَّك راجفُ
فان شئتِ واللهِ انتهيتُ وانني لَأَنْ لا تَرَيْني آخرَ الدهر خائفُ
رأَت ساعدَيَ غُولٍ وتحت ثيابهِ جآجِيءَ يَدمى حدُّها والحراقفُ

وقيل انَّ هدبةبعث الى عائشة يقول لها: استغفري لي. فقالت: ان قُتلتَ استغفرتُ لك. قال المبرّد: ولمَّا خُرج بهِ ليُقاد بالحَرَّة جعل ينشد الاشعار فقالت لهُ حُبَّى المدنيَّة : ما رأَيتُ قلباً أَقسى منك أَتنشد الاشعار وانت يُمضَى بك لتُقتَل وهذه خَلفَك كأَنها

١) وقد روى صاحب الحماسة (ص٥٥٨) هذين البيتين لابي الطمحان شرقي بن حنظلة القيني
٢) ويروى: اني مسلم بك. ويروى: اني عائذٌ بك مؤمنٌ مُقرٌّ بزلّاتي اليك فقيرُ
٣) ويروى: اميرٌ وتابعٌ وحرَّاسُ ابوابٍ

ظبيٌ عطشان تولول (تعني امرأتهُ) . فوقف ووقف الناس معهُ فأقبل على حُبَّى فقال (طويل) :

وجدتُ بها ما لم تجدْ أمُّ واحدٍ ولا وَجْدَ حُبَّى بابن أمّ كِلابِ (١

وانّي طويلُ الساعدَيْن شَمَرْدَلٌ على ما اشتهتْ من قوّةٍ وشبابِ (٢

فانقمعت حبَّى داخلةً الى بيتها فأغلقت الباب في وجههِ . وقال في الاغاني: لمّا مُرَّ بهدبة على حُبَّى قالت لهُ : في سبيل الله شبابُك وجَلَدُك وشعرُك وكرمك فقال (من الطويل) :

تَعجَّبُ حُبَّى من أسيرٍ مُقيَّدٍ (٣ صليبِ العصا باقٍ على الرَّسَفَانِ

فلا تَعجَبي منّي (٤ حليلةَ مالكٍ كذلك يأتي الدهرُ بالحدَثانِ

واخبروا انهُ لمّا خرج بهِ صاحب الشرطة ليُقتَل جعل الناس يتعرَّضون لهُ ويَخبُرون صبرهُ ويستنشدونهُ . فلقيهُ عبدالرحمان بن حسَّان بن ثابت الانصاري فقال لهُ : أنشدني يا هُدبة . فقال : أعلى هذه الحال ؟ قال : نعم فانشدهُ (من الطويل) :

وما أتصدَّى للخليل وما أرى مُريدًا غِنى ذي الثروةِ المتقطِّبِ

وما أتبعُ الألْوَى المُدلّي بودّهِ عليَّ وما أنأى من المتقرّبِ

ولا أتمنَّى (٥ الشرَّ والشرُّ تاركي ولكن متى أُحمَل على الشرّ أركبِ

ولستُ بمفراحٍ اذا الدهرُ سرَّني (٦ ولا جازعٍ من صرفهِ المتقلّبِ

وما يعرفُ الاقوامُ للدهرِ حقَّهُ وما الدهرُ ممّا يكرهون بمُعتِبِ

١) ويروى : وما وجدَتْ وَجْدي بها امُّ ٢) ويروى : رأتهُ طويل الساعدين . . . كما اشتهت . ويروى : كما انبعث . فالشمرْدل الحسَن الخلْق وقيل السريع

٣) ويروى : مكبَّل ٤) ويروى : منهُ

٥) ويروى : ما ابتغي . ويروى : ولستُ بباغي ٦) ويروى : مسّني

وللدهر في اهــل الفتى وتِــلادهِ   نصيبٌ كحزِّ الجـازرِ المتشعِّبِ
وحرَّبني مولايَ حتى غَشيتُهُ (١   متى ما يُحرِّبْكَ ابنُ عمِّكَ تَحْرَبِ

ولمَّا قُدِم نظر الى امرأتهِ وكانت من اجمل الناس فدخلتهُ غيرةٌ وقد كان جُدع في حربهم فقال (من الطويل) :

أَقِلِّي عليَّ اللومَ يا أمَّ بَوْزَعا   ولا تَجزعي ممَّا أصاب فأوجعا (٢
فإن يكُ أنفي بانَ منهُ جمالُهُ   فما حَسَبي في الصالحينَ بأجدعا
وما حسَّنَتْ نفسي لِيَ العجزَ مُذ بَدَتْ   نَواجذُها يَمْجُجْنَ سُمّاً مُسلَّعا
فلا تَنكحي إنْ فرَّق الدهر بيننا   أَغَمَّ القفا والوجهِ ليس بأنزعا
كليلاً سوى ما كان من حدِّ ضِرسهِ   لدَى الزادِ مِبطانَ العشيَّاتِ اروعا (٣
ضَروباً بِلحيَيْهِ على عَظمِ زَورهِ   اذا الناسُ (٤ هَشُّوا للفَعالِ تقنَّعا
أُصَيهِبَ لا يُرضيك في الحيِّ قاعداً   اذا ما مشى او قال قولاً تَبلَّتعا
وحُلِّي بذي أُكرومةٍ وحميَّةٍ   وصبرٍ اذا ما الدهر عَضَّ فأَفجعا (٥
وكوني حبيباً او لأَروعَ ماجدٍ   اذا ضَنَّ أَعشاشُ الرجال تبرَّعا (٦
وليس اخو الحرب الشديدةِ بالذي   اذا زبَنَتْهُ جاء (٧ للسِلْم أخضعا
ولكن اخو الحرب الحديدُ سلاحُهُ   اذا حمَلَتْهُ فوق حالٍ تشجَّعا
أخو الحرب لا ينآدُ للحرب مَتْنُهُ   ولا يُظهِر الشكوى اذا كان مُوجَعا

---

١) ويروى : خشيتهُ
٢) ويروى : ولا تجزعي . . . وأوجعا   ٣) ويروي : من جدّ ضَرْسِهِ أُكَيبدَ مبطانِ العشيَّة . ويروى : أُعَيبد مبطان الضحى   ٤) ويروى : اذا القوم   ٥) ويروى : عضَّ فاسرعا . ويروى : فاوجعا   ٦) ويروى : وكوني حنيناً . جاهدٍ . . . اوباش الرجال
٧) ويروى : اذا ربقتهُ كان

رَكوبٌ على أثباجها(١ متخوَّفٌ   لعَوراتها حتى اذا الثقلُ أضلعا

وختمها بقولهِ :

فانَّ التُّقى خير المَتاع وانّما   نصيبُ الفتى من مالهِ ما تمتَّعا

فأدركهُ عبد الرحمان بن حسَّان فقال لهُ : يا هدبة تأمرني ان اتزوَّج هذه بعدك (يعني زوجتهُ وهي تمشي خلفهُ) . قال : نعم ان كنت من شرطها . قال : وما شرطُها . فكرَّر عليهِ الابيات . قالت زوجتهُ الى جزَّار فاخذت شفرتهُ فجدَّعت بها أنفها وجاءَتهُ تَدمى مجدَّعةً . فقالت : أتخاف ان يكون بعد هذا نكاح ؟ (قال)فرسف في قيودهِ وقال : الآن طاب الموت . وقيل انها فعلت ذلك بحضرة مروان وقالت لهُ : انَّ لهدبة عندي وديعةً فأمهِلهُ حتى آتيهُ بها . فقال : اسرعي فانَّ الناس قد كثُروا . وكان جلس لهم بإزاء دارهِ فمضت الى السوق وانتهت الى قصَّاب وقالت : اعطني شفرتك وخذ هذين الدرهمين وانا اردُّها عليك . ففعل فقرُبت من حائط وارسلت ملحفتها على وجهها ثمَّ جدَعت أنفها من اصلهِ وقطعت شفتيها ثمَّ ردَّت الشفرة واقبلت حتى دخلت بين الناس وقالت : يا هدبة اتراني متزوّجة بعد ما ترى قال : لا . الآن طاب الموت

ثمَّ خرج يرسف في قيودهِ فاذا هو بابوَيه يتوقَّعان الثكل وهما بسوء حال فأقبل عليهما وقال معرباً عن رجائهِ بالآخرة (من الخفيف) :

أبلِيَاني اليومَ صبراً منكما   انَّ حزناً إنْ بدا باديْ شرّ(٢

لا أُراني اليوم الّا ميّتاً (٣   انَّ بعد الموت دارَ المستقَرّ

إصبرا اليوم فاني صابرٌ   كلّ حيّ لقضاء (٤ وقدَرْ

قال في الاغاني : فدُفع هدبة الى عبد الرحمان اخي زيادة ليقتلهُ فاستأذنَ في ان

---

١) ويروى : رحوبٌ على اثباجها

٢) ويروى : انَّ حزناً فلكما اليوم يسرّ   ٣) ويروى : ما اظنُّ الموتَ الّا هيّناً

٤) ويروى : لفناء

يصلي ركعتين فأذن لهُ فصلَّاهما وخفَّف ثمَّ التفت الى من حضر فقال : لولا أن يُظنَّ بي الجزَع لأطلتُها فقد كنتُ محتاجاً الى إطالتها. ثمَّ قال لأهلهِ انهُ بلغني انَّ القتيل يعقل ساعةً بعد سقوط رأسهِ فإنْ عقلتُ فاني قابضٌ رجلي وباسطها ثلاثاً. ففعل ذلك حين قُتل. وقال قبل ان يُقتَل (من الطويل) :

إن تقتلوني في الحديد فانَّني قتلتُ اخاكم مطلقاً لم يُقيَّدِ

فقال عبد الرحمان اخو زيادة: والله لا قتلتُهُ الّا مطلَقاً من وثاقهِ فأُطلق فقام اليهِ وهزَّ السيف ثمَّ قال :

لقد علمَتْ نفسي وانت تعلمُهْ لأقتلنَّ اليومَ من لا ارحمُهْ

ثمَّ قتلهُ. هذه رواية من لم يقل بموت عبد الرحمان. امَّا حمَّاد الرواية فقال انَّ الذي تولَّى قتلَهُ المِسْوَر دفع اليهِ عمُّهُ السيف وقال لهُ: قم فاقتل قاتل ابيك. وفي كامل المبرّد (ص ٧٦٧) انَّ هدبة قــال لابن زيادة: أَثبِتْ قدميك وأجدِ الضربةَ فــاني ايتمتُكَ صغيراً وراملتُ امَّك شابَّةً . . . مــا اجزعُ من الموت. وفي شرح الحماسة (ص ٢٣٦): انهُ لمَّا برك للقتل قامت امرأة زيادة امَ المِسْوَر فسلَّت السيف ثم قالت لابنها: اضرب بأبي انت وامّي. فضربهُ ضربةً أبانت رأسهُ. وفي الاغاني : فضربهُ ضربتين فقتلهُ بهما. ووثب رهطُ هُدبة فنحَّوهُ عنهُ حتى دُفن. فقال واسع اخوهُ يرثيهِ (من البسيط) :

يا هُدبَ ياخيرَفتيان العشيرةِ مَنْ يُفجَعْ بمثلك في الدنيا فقد فُجِعا
الله يعـلمُ أنّي لو خشيتُـهُمُ أَوأَوجسَ القلبُ من خوفٍ لهم فَزَعا(١
لم يقتبـلوهُ ولم أُسلِمْ اخي لهمُ حتَّى نعيشَ جميعاً او نموتَ معا(٢

﴿رتبتهُ بين الشعراء﴾ قــال ابو الفرج في الاغاني (٢١ : ٢٦٤) «هدبة شاعر فصيح متقدّم من بادية الحجاز وكان شاعرًا راويةً كان يروي للحطيئة . . وكان جميل

١) ويروى: احسنَ القلب. ويروى: اوجعَ القلب . . . جزعا
٢) هذه الابيات تمثَّل بها ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن عليّ بن ابي طالب لمَّا بلغهُ قتل اخيهِ محمَّد (الاغاني)

(ابن معمر) راوية هُدبة » وقد افادنا ابن النديم في الفهرست (ص ٧٨ و ١٥٩) انَّ السكّري «عمل اشعار جماعة من الفحول» ذكر من جملتهم «هُدبةَ بن الخشرم» وصهرهُ «زيادة بن زيد» ولا بُدَّ ان يكون ديوانهما مفقودًا وممَّا رُوي عن مروان بن ابي حفصة وعن حمَّاد الراوية قولهما (الاغاني٢٧٥): «كان هُدبة اشعر الناس منذ دخل السجن الى أن أُقيد » وفي قوله هذا شاهد على ما قيل بانَّ اشعر الشعر ما أنشدهُ صاحبهُ متجرّدًا عن الغايات مندفعًا اليهِ بعواطف غريزتهِ . وحدَّث مُصعَب الزبيري قال: «كنَّا بالمدينة اهل البيوتات اذا لم يكن عند احدنا خبرُ هُدبةَ وزيادةَ واشعارهما ازدريناهُ وكنَّا نرفع من قَدْر اخبارهما واشعارهما ونُعجَب بها » . وقد امكن القرَّاء ان يستدلُّوا على شعرهِ المطبوع في ما مرَّ من اخبارهِ وها نحن نضيف اليهِ ما وجدناهُ متفرقًا في كتب الادباء لئلَّا تأخذهُ يدُ الضياع . فمن ذلك ما رواهُ ابو تمَّام في حماستهِ (من الوافر) :

إنّي من قُضاعةَ مَنْ يَكِدْها أَكِدْهُ وهِي منّي في أمانِ
ولستُ بشاعرِ السَّفْسافِ فيهمْ ولكن مِدْرَهُ الحَرْبِ العَوانِ (١
سأهجو مَنْ هجاهم من سِواهمْ وأُعرِضُ منهمُ عمَّن هجاني

ومن جيّد شعرهِ قصيدتهُ البائيَّة التي قالها في الحبس جمعناها من كتب مختلفة كأمالي القالي (١ : ٧٢) والحماسة البصريَّة (ص٣٧) وخزانة الادب (٤ : ٨٢–٨٣) (من الوافر) :

طَرِبْتَ وانت احياناً طَروبُ وكيف وقد تعلَّاكَ (٢ المشيبُ
يُجِدُّ النأيُ ذكرَكِ في فؤادي اذا ذَهِلَتْ على النأيِ (٣ القلوبُ
يُؤرِّقني اكتئابُ ابي نُمَيرٍ (٤ فقلبي من كآبتهِ كئيبُ

١) السَّفْساف ما لا خيرَ فيهِ من الافعال والاقوال . والمِدْرَه السيّد الذي يُدفَع بهِ الشرّ فيَنظم امور الحرب ٢) ويروى: تشاءَك ٣) ويروى: عن النأي
٤) قال اللخميّ: ابو نمير ابنُ عمّهِ كان مسجونًا معهُ . وقيل رجل من قرابتهِ كان يزورهِ في حبسهِ

فقلتُ لهُ هداكَ اللهُ مهلًا ... وخيرُ القولِ ذو اللُّبِّ اللَّبيبُ(١
عَسَى الكَرْبُ(٢الذي أمسيتُ فيهِ ... يكونُ وراءَهُ فرَجٌ قريبُ
فيأمنَ خائفٌ ويُفكَّ عانٍ ... ويأتي اهلَهُ الرجلُ الغريبُ
ألا ليتَ الرياحَ مسخَّراتٌ ... بحاجتنا تباكِرُ (٣ او تؤوبُ
فتُخبِرَنا الشَّمالُ اذا أتتنا ... وتُخبِرَ اهلَها(٤ عنَّا الجَنُوبُ
بأنَّا قد حَلَلنا دارَ بَلوى ... فتُخطِئُنا المنايا او تُصيبُ(٥
وقد عَلِمَتْ سُلَيمَى أنَّ عُودي ... على الحَدَثانِ ذو أيدٍ صَليبُ
وأنَّ خَليقتي (٦ كرمٌ وأنّي ... اذا أبدَتْ نواجذَها الحروبُ
أُعينُ على مكارمِها وأغشَى ... مكارِهَها اذا كَعَّ الهَيُوبُ(٧
وقد ابقى الحوادثُ منك ركناً ... صليباً ما تؤيِّسُهُ الخطوبُ
واني في العظائمِ ذو غَناءٍ ... وأُدعى للفَعالِ (٨ فأستجيبُ
وأني لا يخافُ الغَدرَ جاري ... ولا يَخشى غوائليَ القريبُ
وكم من صاحبٍ قد بانَ عنّي ... رُميتُ بفقدِهِ وهو الحبيبُ
فلم أُبدِ الذي تحنو ضُلوعي ... عليهِ وانّني لأنا الكئيبُ
مخافةَ ان يرانِي مُستكيناً ... عدوٌّ او يُساءُ بهِ قريبُ
ويَشمتَ كاشحٌ ويَظُنَّ أني ... جَزوعٌ عند نائبةٍ تَنوبُ

١) ويروى: ذو البَهجِ المصيبُ ٢) ويروى: الهمُّ
٣) ويروى: لحاجتنا تُراوح ٤) ويروى: فتُبلغنا الشمالُ اذا نأينا وتبلغ اهلنا
٥) ويروى: فانّا قد نزلنا . . . المنيّةُ ٦) ويروى: خلائقي
٧) ويروى: اذا هاب الهَيُوب ٨) ويروى: وادعى للسَّماح

فبَعدكَ سدّتِ الاعداء طُرْقاً الَيَّ ورابَني دهرٌ يُريبُ
وانكرتُ الزمانَ وكلَّ اهلي وهرَّتني لغيبَتك الكَليبُ
وكنتَ تُقطِّع الابصار دوني وان وغرَتْ من الغيظِ القلوبُ
على انَّ المنيَّة قد تُوافي لوقتٍ والنوائبُ قد تَنوبُ
فان يكُ صدرُ هذا اليومِ ولّى فانَّ غداً لناظرهِ قريبُ

وممَّا رواهُ لهدبة في الحماسة البحتريَّة (ع ٢٤) قولهُ (من الطويل) :

مشيتُ البَراحَ للرجال شبيبتي الى ان علَتْني كَبْرَةٌ بمَشيبِ
فلا تَفغَروا افواهكم إنّني شجاً الى الحلْقِ والأضراسِ غيرُ حبيبِ
لَعمريَ ما شتمي لكم ان شتمتُكم بسِرٍّ ولا مَشيي لكم بدَبيبِ
ولا وُدُّكم عندي بعِلْقٍ مَضَنَّةٍ ولا شرُّكم عندي بجِدِّ مَهيبِ
فَملآنَ عاجلتم رياضةَ مُصعَبٍ مُدِلٍّ عسيرِ الصُلْبِ غيرِ ركُوبِ
وقاسيتُمُ غَرْباً يَمُدُّ عِنانَهُ كغَرْبِ الفُراتِ جاش يومَ جَنُوبِ

ومن روايتهِ فيها (ع ٨٨١ و١٣٨٨) (من الطويل) :

وبعضُ رجاء المرء ما ليس نائلاً غناءٌ وبعضُ الناسِ(١) أعفى وأَرْوَحُ
وآخِرُ ما شيءٍ يَغُولُك والذي تقادَمَ تنساهُ وان كان يَفدَحُ

وقد روى ايضاً (ع ١٠٤) وكذلك في اصلاح المنطق (ص ١٦٢) (من الطويل) :

وكذَّبَ قولَ العائبينَ سَماحتي وصبري اذ ما الامرُ عَضَّ فأَضجرا

١) ويروى : غناء وبعض اليأسِ

وانّي اذا مـا الموتُ لم يكُ دونهُ مَدى الشِبْر(١ أَحمي الأَنفَ أَن اتأَخرا

وفيها يقول :

وأبيضَ يُستَسقَى الغَمامُ بوجهـهِ اذا اختيرَ قالوا لم يقُلْ مَنْ تخيَّرا

من الرافعينَ الهمَّ للذكر والعُلَى اذا لم يبُؤْ الّا الكريمُ ليُـذكَرا

رُزِينـا فـلم نُعثِرْ لِوَقعتهِ بنـا ولو كان في حيٍّ سِوانا لأَعثرا

ومـا دهرُنا إِلّا يكونُ أصابنـا بنَفْـلٍ ولكنّـا رُزِينـا لنَصْبِرا

وروى لهُ ايضاً (ع ١٣٦٧) في ذمّ المزح قولهُ (من الطويل) :

ورُبَّ كلامٍ قد جرى من مُمازحٍ فساقَ اليهِ سَهمَ حَتْفٍ فعجّـلا

فدَعْ عنك قُربَ المَزْحِ لا تَقْرَبنَّهُ كفى بامرئٍ وعظاً اذا ما تكهّلا

ومن روايتهِ ايضاً (ع ١٧٤) في استطابة الموت قولهُ (من الطويل) :

مَضى قُدُماً يَدعو الحياةَ عَنـاهُ ويدعو الوفاةَ الخُلدَ ثَبْتٌ مُواقِفُ

ومن البحر والقافية ما جاء في احد مخطوطات مكتبتنا الشرقيّة يصف عفافهُ (ص ٢٦) :

واني لَأُخلي للفتـاة فِراشَهـا وأُكثرُ هجرَ البيت والقلبُ آلِفُ(٢

حَذاري الرَّدى اوخِشيَةً أن يَجُرَّني الى مَوقِفٍ أُرمَى بهِ او أُقاذَفُ

ومما رواهُ لهُ ايضاً (ع ٥٣٧) (من الطويل) :

صَبورٌ على مكروهِ ما يَجشَمُ الفتى ومرٌّ اذا تُبغَى المَرارةُ مُمقِرُ

١) ويروى : قِدى الشبر . القِيد والقَاد والقِدَى القَدْر

٢) ويروى : وأَصرم ذات الدَّلّ والقلبُ والِهُ . ويروى بعد هذا البيت :

يظَلُّ بهـا الغادي يقلّبُ طَرْفـهُ من الهول يدعو وَيْلهُ وهو رعفُ

وجاء لهُ في مبادئ اللغة للاسكافي قالهُ وهو سائر الى الموت (من الوافر) (ص٥١):

أُشدُّ قِبالَ نَعْلي لا يراني عدوّي للحوادث مستكينا

وفي كتاب مجموع اللقيف (Ms de Paris, 3388, ff. 168r) لهدبة يصف ديكاً صاح في غير وقت الصبح فلمّا رأى الليل كفّ عن الصياح (من الطويل) :

ومستَجْذِلٍ يدعو الصباحَ وقد رأى عَرانِينَ مشهورٍ من الصبح أَبلقا
الى غير هَيْجاءِ صَحتْ غير انهُ دجا فوقَهُ ليلُ التمامِ فأَطرقا

ومما رواهُ ابو علي القالي في اماليهِ (٢: ٢٠٦–٢٠٧) في وصيَّة عبدالله بن شدَّاد لابنهِ محمَّد قولهُ : « اي بُنَيَّ : اذا احببتَ فلا تُفرط واذا ابغضتَ فلا تُشطِط ... وكن كما قال هدبة بن الخشرم العذري (من الطويل) :

وكُنْ مَعْقِلاً للحلم واصفَحْ عن الخَنا فانَّك راءٍ ما حَييتَ وسامعُ
وأَحبِبْ اذا احببتَ حباً مُقارباً فانك لا تدري متى انت نازِعُ
وأَبغِضْ اذا ابغضتَ بُغضاً مُقارباً فانَّك لا تدري متى أنتَ راجعُ

فترى من هذه الامثلة ما طُبع عليهِ هدبة من البلاغة وجودة القريحة والتفنُّن في المعاني . وعسى ان يعثر احد الادباء على نسخة من ديوانهِ فيغني بنشرها آثار لغتنا القديمة

٢ موسى بن جابر

﴿ اصلهُ ونسبهُ ﴾ هو موسى بن جابر احد شعراء بني حَنيفة اهل اليامة . روى صاحب الاغاني (١٠: ١١٣) ان مِسْمع بن مالك قسم سائر بطون بكر بن وائل على جُذْمَين جُذمٍ يقال لهُ الذُّهلان وجذمٍ يقال لهُ اللهازم فالذُّهلان بنو شيبان بن ثعلبة بن يشكر بن وائل وبنو ضبيعة بن ربيعة . واللهازم قيس بن ثعلبة وتيم بن

اللات بن ثعلبة بن عجل بن لجيم وعنزة بن اسد بن ربيعة . (قال) وقد دخل بنو قيس ابن عُكابة مع اخوتهم بني قيس بن ثعلبة . واما حنيفة فلم تدخل في شيء من هذا لانقطاعهم عن قومهم باليامة في وسط دار مُضر . وكانوا لا ينصرون بكرًا ولا يستنصرونهم . فلمَّا جاء الاسلام ونزل الناس مع بني حنيفة ومع بني عجل بن لُجَيْم فتَلَهْزَموا ودخل معهم حلفاؤهم بنو مازن بن جدي بن مالك بن مصعب بن علي فصاروا جميعاً في اللهازم . وقال موسى بن جابر الحَنَفي السُّحَيْمي بعد ذلك في الاسلام (من الطويل) :

وَجدْنا أَبانا كان حلَّ ببلدةٍ سِوًى بين قَيسٍ قيسَ عَيلانَ والفِزْرِ (١

برأيتهِ امَّا العدوُّ فحولَنا مُطيفٌ بنا في مثل دائرةِ المُهْرِ

فلمَّا نأَتْ عنَّا العشيرةُ كلُّها أَقمنا وحالَفنا السيوفَ على الدهرِ (٢

فما أَسلَمَتْنا بعدُ في يوم وَقْعةٍ ولا نحنُ أَغمَدنا السيوفَ على وِتْرِ (٣

﴿اهلهُ وزمانهُ﴾ لم يُفِدْنا الكتبة شيئاً عن رهط موسى بن جابر . وقد نسبهُ في الاغاني الى سُحَيم وسُحَيمٌ بطن من حنيفة . ودعاهُ ياقوت في معجم البلدان (٤ : ١٥٥) بالعُبَيدي ولعلَّ في قولهِ اشارة الى بني عُبَيدة عشيرته . وقال صاحب خزانة الادب (١ : ١٤٦) : «ويقال لهُ ابن الفريعة وهي امُّهُ . وجاءَ لهُ في شعرهِ ذكرُ ابن عمّ يدعى زيدًا وقيل اخوهُ» . وقد ذكر التبريزي في حماسة ابي تمام خالَيهِ مرداساً وعامرًا

١) سِوًى صفةٌ لبلدة اي متوسطة . والفِزْر لقب لسعد بن زيد مناة . يريد حلَّ بين مُضَر والفِزْر ونأى عن ربيعة لان قيساً والفزر من مضر ٢) ويروى : أَقمنا قال في خزانة الادب (١ : ١٤٧) يقول : «لمَّا خذلتْنا عشيرتُنا وهم ربيعة اكتفينا بأنفسنا فأقمنا بدار الحفاظ والصبر واتَّخذنا سيوفَنا حلفاء على الدهر . وهذا مثلٌ ضربهُ لاستقلالهم فيما مضوا فيهِ بعَدَدهم وعُدَّتهم وبلائهم وصبرهم واستغنائهم عن القاعدين»

٣) ويروى : عند يوم كريهةٍ ولا نحن اغضينا الجفون . . . قال شارح الحماسة (ص٤٦) : «اي ما خذلتنا عشيرتنا في يوم حرب ولا نحن اغضينا جفوننا على وتر وحقد . يعني انهم ادركوا كل ثأر» . وهذه الابيات رواها ابو تمَّام في الحماسة ليحيى بن منصور الحنفي وقد غلَّطهُ ابو رياش واثبتها لموسى بن جابر

ابني شمّاس بن لأي من بني انف الناقة وأمهما من بني العنبر فقال موسى يمدحهما (من الطويل) :

اذا ذُكر أبنا العنبريّةِ لم تضِقْ ذِراعي وألقى بأسْتِهِ مَنْ أفاخِرُ(١

هِلالان حمّالان في كلّ شَتْوَةٍ من الثِقل ما لا تستطيعُ الأباعرُ(٢

امّا زمانهُ الذي عاش فيهِ موسى بن جابر ففي عهد اواخر الخلفاء الراشدين واوائل الدولة الامويّة كما يستدلّ على ذلك من بعض اقوالهِ

﴿دينهُ﴾ كانت النصرانيّة شائعة في بني حنيفة كما اثبتنا ذلك بشواهد عديدة في كتاب النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة (ص٧٢,١٢٩,١٤٩ الخ) وبقيت على دين النصرانيّة زمناً بعد الاسلام(ص٤٥٦) . فلا عجب اذ وافق موسى قومهُ في دينهم . وصرّح صاحب خزانة الادب بنصرانيّتهِ حيث قال(١ : ١٤٦) : «ويقال كان نصرانياً»

﴿شعرهُ﴾ ذكر في الخزانة انهُ كان «احد شعراء بني حنيفة المكثرين» الّا انّ ما يُعرف من شعرهِ لايتجاوز بضعَ قِطَع متفرّقة في كتب الادباء الاقدمين وفي المعاجم ما يدلُّ على انّهم كانوا يعوّلون عليهِ في فصاحة اللغة . وها نحن نروي ما عثرنا عليهِ من ابياتهِ . فمن ذلك ما ورد في حماسة ابي تمّام (١ : ١٥٧—١٥٨) يصف ترفُّع نفسه (من الكامل) :

لا أشتهي يا قومِ الّا كارهاً بابَ الأميرِ ولا دفاعَ الحاجبِ(٣

ومنَ الرجالِ اسنَّةٌ مذروبةٌ ومزنَّدونَ حُضورهم كالغائبِ(٤

١) اراد بابني العنبريّة خالَيْهِ مرداساً وعامراً ابني شمّاس وكانت امّهما من بني العنبر . يقول اذا ذُكر هذان الرجلان من اهلي لم يُعْيِني أمرُ مَن أفاخره بل اردُّهُ على عقبيهِ مُدبِراً

٢) اي انّ الممدوحَين مشتهران يتكلّفان في سنة الجَدْب والمحل وفي المغارم وقرى الضيوف اثقالاً ويصطنعان صنائع ما لو صارت اجراماً ووُزنت لعجزت عن النهوض بها الإبل مع صبرها على ثقل حولها لانهُ حِملكها

٣) ويروى : الّا مكرهاً . يقول لا آتي بابَ الامراء ولا اتعرّض لدفاع الحجّاب الّا كارهاً

٤) ويروى : وشهودهم كالغائب . يقول انّ مِن الناس من يشبهون بروقهم ونفاذهم الأسنّة المذروبة اي المحدَّدة . ومنهم مزنَّدون اي بُخلاء لا فائدة فيهم وسيّان حضورهم او غيبتهم . المزنَّد مشتقّ من الزَّند الذي يُضرب بهِ المثل في القلّة

منهم ليوثٌ لا تُرامُ وبعضهم ممّا قمشتَ وضمَّ حبلُ الحاطبِ (١

وممّا ورد في امالي القالي (٣: ٧٢-٧٣) ما حرفهُ قال: «كتب الحجّاج الى عبد الملك بن مروان أمرَ قطريَ بن الفجاءة المازني (٢ . فكتب اليهِ عبدُ الملك: أُوصيك بما أوصى بهِ البكريُّ اخاهُ زيدًا . فلمّا ورد الكتاب لم يدرِ الحجّاج ما اوصى بهِ البكري فقال لحاجبهِ: نادِ في الناس: مَنْ اخبر الاميرَ ما اوصى بهِ البكريُّ اخاهُ زيدًا فلهُ عشرة آلاف درهم (٣ . فقام اعرابيٌّ قد طالت إقامتهُ وقال: انا اعرفُها . فأدخلهُ على الحجاج فقال: ما قالهُ البكريُّ لزيدٍ؟ . قال: هو موسى بن جابر الحنفيّ قال لابن عمهِ زيد هذه الابيات (من الطويل):

اقولُ لزيدٍ لا تُترْترْ فانَّهم يرونَ المنايا دون قتلكَ او قتْلي (٤
فان وضعوا حرباً فضعْها وإنْ أبَوْا فشُبَّ وَقُودَ الحربِ بالحطبِ الجزْلِ (٥
فان عضَّت الحربُ الضَّروسُ بِنابها فعُرضةُ نارِ الحربِ مِثْلُكَ اومِثْلي (٦

فقال الحجّاج: وابيك انّها لهي وقد صدَق اميرُ المؤمنين «عُرضةُ نار الحرب مثلي او مثلُهُ» ثمَّ قضى حاجتَهُ . وممّا رُوي لموسى ايضاً في الحماسة قولهُ (من الطويل):

١) ويروى: منهم أُسود اي منهم كالأُسود الكاسرة المنيعة ومنهم من تَقْمشُهُ اي تلمُّهُ وتجمعهُ في رزمةٍ واحدة كما يَضمُّ الحاطبُ رزمةَ حطبهِ جامعاً بين الجيّد والرديء . يريد انهُ لا غَناء عندهم

٢) وفي حماسة ابي تمّام (ص ١٨٠ انَّ الحجّاج كتب ذلك لمّا خلَع عبد الرحمان بن الاشعث ابن قيس ٣) وفي الحماسة: قضيتُ حاجتَهُ

٤) وفي الحماسة: قلتُ لزيدٍ . ويروى: لا تُبربر . ولا تثرثر . ولا تُبزبز . وكلّها بمعنى متقارب اي لا تكثر الكلام ولا تُقلقْ فانّهم لا يَصلون اليَّ واليك الّا بعد ان نذيقهم كأس المنون . او يكون المعنى: انّهم مستعدّون لتضحية نفوسهم لينالوا أرَبهم منك او مني

٥) في الحماسة روى هذا الشطر هكذا: فعُرْضةُ عضِّ الحرب مثلك او مثلي . فبدلَهُ من ثاني شطر البيت التالي . يقول: ان سالموا فسالِمْ وان أبوا فأسعِرْ نار الحرب

٦) روى في الحماسة الشطر الاوّل: وان وضعوا الحربَ العوانَ التي ترى فشُبَّ . . . الحرب الضّروس الشديدة . والعوان التي قوتل فيها مرَّةً بعد أُخرى . اي ان انتشبت نار الحرب فعُدَّتُها مثلك او مثلي . يقال: فلان عُرْضةٌ كذا اي مُطيق لهُ قادر عليهِ

أَلَمْ تَرَيا أَنِّي حَمَيْتُ حَقِيقَتي وباشرتُ حَدَّ الموتِ والموتُ دُونُها (١
وَجُدْتُ بِنفسٍ لا يُجادُ بمثلها وقلتُ أطمإنِّي حين ساءَتْ ظنونُها
وما خيرُ مالٍ لا يفي الذمَّ ربَّهُ بنفسِ امرئٍ في حقِّها لا يُهِينُها (٢

وروى ايضاً صاحب الحماسة لموسى (ص ١٨١ — ١٨٢) قولَهُ يلوم قومهُ على قعودهم عن نصرتهِ واعتلالهم بالمعاذير الكاذبة (من الطويل) :

ذَهبتُم ولُذْتُم بالأمير وقلتمُ تَرَكْنا احاديثاً ولَحماً مُوَضَّعا (٣
فما زادني الَّا سَناءً ورِفعةً وما زادَكم في الناس الّا تَخَضُّعا (٤
فما نفرتْ جِنِّي ولا فُلَّ مِبْرَدي ولا أصبحتْ طيري من الخوف وُقَّعا (٥

وقال يهجو قومهُ لمَّا خذلوهُ (من الكامل) :

كانت حنيفةُ لا أبا لكَ مرَّةً عند اللقاء اسنَّةً لا تَنْكُلُ (٦
فرأتْ حنيفةُ ما رأت أشياعُها والريحُ احياناً كذاكَ تحوَّلُ (٧

١) الحقيقة ما يجب على الانسان حمايتُهُ . اي دافعتُ عنها حتى الموت . ودونُها بضمّ النون صفة اي حميتُها والموت قريبٌ منها

٢) اي لا خير في مالٍ لا يصونُ صاحبَهُ من الذمّ

٣) قال شارح الحماسة : «يقول التجأتم الى الامير وقلتم تَرَكْنا قوماً يقولون ولا يفعلون فهم كاللحم المُوَضَّع تتعلَّق الأطماع بتناوُلهِ وأخذهِ . وان رُوِيَت «تُرِكْنا» على البناء على المجهول كان المعنى ادَّعيتم علينا لمَّا اردتم مفارقتنا وخُذلاننا وقلتم تُرِكْنا احدوثةً للناس»

٤) قال : «اي فلم يَزِدْني قولكم الَّا ارتفاعَ محلٍّ ولم يَزِدْكم في الناس الَّا تذلُّلاً لانَّ من لا يصلح لعشيرتهِ لا يسكن اليهِ الناس البعداء

٥) قال : «يجوز انهُ يريد لم يَنْخزل لمَّا اتيتم واخبرتم اصحابي الذين هم كالجنّ ولا فُلَّ لساني الذي هو كالمبرد ولا ذُعِرَ جأشي فصار طيري واقعةً . يريد ذكاءَهُ ونشاطَهُ . ويُشبَّه الرجل النافذ في الامور بالجنّي والشيطان . ووقوع الطير كناية عن ضعفهِ »

٦) نكَلَ جَبُن وضعف . ولا ابا لك تحضيض وليس بدعاء

٧) يقول اصبحت حنيفة بعد مآثرها في الحرب تتقلَّب كبعض مشايعيها وأنصارها كما يعرض للريح التي تتقلَّب احياناً

وروى ياقوت لموسى بن جابر (٤ : ٩٥٥) (من المتقارب) :

فـلا يَغْرُنـكَ فيما مضى مُخيفُ قُرَيشٍ وأكثارُها

غداةَ علا عَرْضَنـا خالـدٌ وسالتْ أُباضُ وهَدَّارُها

يريد محاربة خالد لمسيلمة الكذَّاب في قرية الهدَّار وبها كان مولده ونشأته ' فقتلهُ خالد ودخل اهل قرى اليمامة في صُلح الهدَّار . وأُباض وادٍ في اليمامة

وروى لهُ صاحب مجموعة المعاني في باب النجدة والبأس (ص٣٨) قولهُ (من الطويل) :

وانّا لوقّافون بالمَوْقف الـذي يُخافُ رَداهُ والنفوسُ تطـلَّعُ

وانّا لَنُعطي المَشرفيَّةَ حقَّهـا فتقـطعُ في أيماننـا وتُقَطَّـعُ

وفي حماسة البحتري (ص ٧١) روى قول موسى في ترك قطع الاخ الـقديم للمستطرف (من مجزوء الكامل) :

لا كُـلُّ مُطَّرِفٍ هَوايَ ولا من طول صُحبةِ صاحبٍ أَقْلِي

فهذا كلّ ما صبر على الدهر من شعر ذاك «الشاعر المُكثِر» والله اعلم

وروى الجاحظ لابن جابر في كتاب الحيوان (٤ : ٩٣) قولهُ (من الرَّمل) :

طَرَدَ الأَرْوى فما تَقرُبُهُ ونفى الحيَّاتِ عن بَيضِ الحَجَلْ

٣ شَمْعَلة التغلبيّ

﴿اسمهُ ونسبهُ﴾ هو شَمْعَلة ويقال شَمْعَل وقد فسَّروهُ بالخفيف النشيط . والناقة الشمعلة النشيطة السريعة . والاصحّ على ما ترجح انَّ هذا الاسم اعجميّ كاسمعيل وبهِ عُرف شاعر آخر يُدعى شمعلة بن الاخضر الضبيّ . وامَّا نسبُـهُ فالشائع انهُ ابن فائد بن ابي حجوة بن خَيْبَرى من بني حَدَس بطن من بني لخم النصـارى (اطلب الاشتقاق لابن دريد ص ٢٢٧) واختلف بعضهم في هذا النسب . قـال ابن حبيب (الاغاني ١٠ : ٩٩) انهُ شَمْعلة بن عامر بن عمرو بن بـكر اخو بني فائد وهم رهط الفُرس . وسمَّاه في مجموعة المعاني : شمعل بن الحُصَين التغلبيّ

﴿زمانهُ﴾ كان في اواسط عهد بني اميَّة اعني في اواخر القرن السابع واوائل القرن

الثامن في أيّام عبد الملك بن مروان وابنَيْهِ الوليد بن عبد الملك وهشام كما سيتَّضح من اخبارهِ

﴿مقامهُ ودينهُ﴾ كان شمعلة رئيساً لبني تغلب ذا قدر عظيم وفضل عميم وهيئة وجمال وبلاغة في المقال وشاعرًا ظريفاً وكان نصرانياً عريقاً في دينهِ كقومهِ التغلبيّين الذين ثبتوا بعد الاسلام على دينهم وكانوا يسكنون الجزيرة وعلى حدود الشام. وكان شمعلة بصفةِ رئاستهِ على بني تغلب يتردَّد على عاصمة الشام ويدخل على الخلفاء

﴿استشهادهُ في سبيل دينهِ﴾ قال شهاب الدين احمد بن يحيى المعروف بابن فضل الله الكاتب الدمشقي (المتوفَّى سنة ٧٤٨ هـ ١٣٤٨م) في كتابهِ مسالك الابصار في ممالك الانصار (من مخطوطات لندن Br. Mus., Ms, 575, p. 103-104) :

«شمعلة بن فائد ذو نخوةٍ دينيَّة ، وحميَّةٍ جاهليَّة ، وأنفةٍ أساء فيها النيَّة ، كان نصرانياً لهُ أُبَّهة باديَة ، وقدْر عظيم في البادية ، يُشارُ اليهِ ويُسار ، ويَغار لهُ من رآهُ من عاقبة البَوار ، والمصير الى النار ، فطالبَهُ هشام بن عبدالملك بالاسلام لِما رأى من فضلهِ وجمالهِ ، وما أعجبَهُ من هيئتهِ وإضاءة حالهِ ، وأحبَّ لهُ الدخول في الدين ، وأن يكونَ من المهتدين ، فامتنع وأَبى ، واتَّبع هواهُ ليكون لجهنَّمَ حطَبًا ، قال الله تعالى (سورة القصص ع ٥٦) : انَّك لا تَهدي مَن احببت ولكنَّ الله يهدي من يشاء . فقال لهُ هشام : إن لم تفعل لأُطعمنَّك لحمَك فقال شمعلة : « ولو قطَّعتني لَما أسلمتُ على هذا الوجه . فلمَّا خلّى عنهُ قال اعداؤهُ : اطعمَهُ هشامٌ لحمهُ . فقال شمعلة (من الطويل) :

أَمِنْ حزَّةٍ في الفَخْذِ مني تَباشرتْ عِداي[1] ولا نَقصٌ عليَّ ولا وِتْرُ
وانَّ اميرَ المؤمنين وفعلَهُ لَكالدَّهرِ لا عارٌ بما صنع الدهرُ

وقد روى المبرّد في الكامل هذا الخبر ونسبَهُ الى عبد الملك بن مروان قال (ص٥٢٤) : «كلَّمَ شمعلُ التغلبيّ عبدَ الملك كلاماً لم يُرضِهِ فرماهُ عبد الملك بالجُرز فخُدش وهُشم (ويروى : هُتم) فقال شمعل (ثم روى البيتين هكذا) :

أَمِنْ جَدْبَةٍ بالرِجل منّي تباشرَتْ عُداتي فلا عيبٌ عليَّ ولا سُخْرُ

[1] جاء في الاصل : غذايَ . وهو تصحيف

فــانَّ اميرَ المؤمنينَ وسيفَـهُ لَكالدّهرِ لا عارٌ بما فعلَ الدهرُ

ويروى: أمِن خَدشَةٍ. ورواهُ في مجموعة المعاني (ص١٠٤) : أمِنْ ضربةٍ بالرِجل. وفي كتاب الآداب لِسَنا الملك بن جعفر شمس الخلافة المتوفّى سنة ٦٠٨هـ(١٢١١م) في نسخة لَندن (ص ٢٢)ذَكَرَ الخبر كما ورد في كامل المبرّد وروى هنــاك : «أمن جذبةٍ بالرجل حين تبصَّرت.. وانَّ امير المؤمنين وفعلَهُ ...»

امَّا في كتاب الاغاني (١٠: ٩٩) فروى الخبر في مطاوي اخبار اعشى بني تغلب ونسب اليهِ البيتين على هذه الصورة قال : «قال ابن حبيب كان شمعلة بن عامر بن عمرو بن بكر اخو بني فــائد وهم رهط القُرس نصرانيًّا وكان ظريفاً. فدخل على بعض خلفاء بني امية فقال: أسلِم يا شمعلة. قال : «لا والله لا أُسلم كارهاً ابدًا ولا أُسلم الَّا طائعاً اذا شئتُ». فغضب وامر بهِ فقُطعت بَضعة من فخذهِ وشُويَت بالنار وأُطعِمَها. فقال أعشى بني تغلب في ذلك :

أمِن جَذْوةٍ (١ بالفخذ منك تباشرت عِداكَ فلا عارٌ عليك ولا وِزْرُ
وانَّ أمير المؤمنين وجَرْحَهُ لَكالدهر لا عارٌ بما فعل الدهرُ

هذا ما رواهُ العرب. وقد ورد ذكر شمعلة في تاريخ ميخائيل الكبير البطريرك اليعقوبي من كتبة القرن الثاني عشر قال بعد ذكرهِ لاستشهاد رئيس آخر للتغلبيين يدعى معاذًا قُتل لعدم جحوده دينهُ وهذا نصّهُ بالسريانيَّة (٢: ٤٥١–٤٥٢ (éd. Chabot, وهو ينسب محنة شمعلة الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ولعلَّهُ هو الصواب :

ܘܫܡܥܠܐ ܡܕܒܪܢܐ ܡܢܗܘܢ ܕܛܝܝ̈ܐ ܐܡܪ ܠܗ ܘܠܝܕ: ܕܟܕ ܪܫܐ ܕܛܝܝ̈ܐ ܐܢܬ ܒܨܘܪܬܐ ܚܙܐ ܐܢܬ ܠܟܠܗܘܢ ܕܟܪܣܛܝܢ̈ܐ ܣܓܕܬ. ܐܠܐ ܥܒܕ ܪܥܝܢܟ ܘܐܣܠܡ. ܗܘ ܕܝܢ ܛܘܒܢܐ: ܘܚܢܢ ܡܥܕܘܬܐ ܕܡܫܝܚܐ ܕܗܘܐ ܕܡܫܒܚܝܢ ܠܗ ܡܢ ܡܕܢܚܐ ܚܢܐ (والصواب ܚܙܐ) ܐܡܪ. ܗܘ ܕܝܢ ܐܡܪ ܡܐܡܪܐ ܠܗ ܘܦܩܕ ܕܢܦܠ ܐܚܝܗ ܕܢܚܘܢ ܠܛܝܝ̈ܐ ܐܝܟ ܕܐܡܪܬ ܦܫܚ ܐܢܐ ܕܬܐܟܘܠ

١) كذا في الاصل . والصواب حذوة بالحاء وهي قطعة اللحم

ܐܡܪ ܘܠܝܕ ܠܛܘܒܢܐ ܫܡܥܠܐ. ܘܡܢ ܕܪܝܫ ܐܢܬ ܠܛܝܝܐ
ܘܡܫܬܥܒܕ ܠܗ ܟܠܐ ܐܩܢܘܡ ܢܦܘܩ. ܘܡܫܝܚܐ ܕܒܣܪܗ .
ܢܘܟܠܘܗܝ. ܘܡܢ ܐܟܠܐ ܒܝܘܡܐ ܐܬܦܩܕ ܗܘ ܢܦܩܐ . ܕܗܘܐ
ܠܝܪܟܐ ܘܐܬܦܣܩܬ ܡܢ ܦܚܕܗ ܦܣܩܬܐ ܘܐܬܛܘܝܬ ܒܢܘܪܐ
ܘܫ ܦ ܦܘܡܗ. ܘܚܝܐ ܒܬܪ ܗܠܝܢ ܟܕ ܪܘܫܡܐ
ܗܘܐ ܚܙܐ ܫܘܦܬܐ ܒܟܣܪܗ ܕܐ ܒܬܪܐ

وهذا تعريبهُ :

« قال الوليد للطوبوي شمعل احد التغلبيين : انك من حيث كونك رئيساً على العرب فانك توليهم جميعاً خزياً اذ تعبد الصليب فاخضعْ لمشيئتي وأَسْلِم . فـاجابهُ الطوبوي شمعلة : « انَّ مملكتك باسرها كالتراب بالنسبة الى ما وعدنا بهِ السيّد المسيح . ومـا يزيدني حرصاً على ديني انّني رئيس على تغلب كما قلتَ فان جحدتُ ديني اخاف من ان اكون علّة لهلاك كثيرين » . فلمّا سمع الوليد كلامهُ امر بان يسحبوهُ على وجههِ ويخرجوهُ واقسم بـانهُ سيطعمهُ لحمهُ . الّا ان ذلك البطل لم يفشل لدى سماعهِ هذا الوعيد فامر الملك الظالم بان تُنزَع من فخذهِ قطعة ثمّ شووها بالنار ودحروها في فمهِ . وقد عاش بعد ذلك الشهيد البارّ وعلى جسمهِ اثر جرحهِ »

وقد روى ايضاً ابن العبري هذا الخبر في تاريخهِ الدنيوي الذي كتبهُ بالسريانيَّة ونشرهُ المرحوم الاب بيجان اللعـازري بالحرف الكلداني في ليبسيك سنة ١٨٩٠ (ص ١١٥) ودونك تعريبهُ :

« كان شمعل رئيساً على بني تغلب العرب النصارى فقال لهُ الوليد : « بما انك رئيس على العرب فانك تشملهم بالعار اذ تسجد للصليب ومن ثمَّ افعل ما آمرُكَ به وأَسْلِمْ » . فاجاب شمعل : « لا بل بما اني رئيسٌ على كلّ بني تغلب فلذلك اخاف ان اكون سبباً لهـلاكهم جميعاً اذ اكفر انا فيكفرون هم بالمسيح » . فلمّا سمع الوليـد كلامهُ امر بان يسحبوهُ على وجهـهِ ويخرجوهُ وطردهُ مُقْسِماً بانهُ ان لم يُسلِم يطعمهُ لحمهُ . امّا شمعل فلم يكترث لقولهِ فامر الوليد بان تُجزَّ من فخذهِ قطعةٌ فشواها بالنار وادخلها في فمهِ . واذ ثبت على هذا ايضاً طردهُ فبقي حيّاً وكان اثر جرحهِ يُرى في جسمهِ »

ومن ثم يترجّح رأي هذين الكاتبين في نسبتهما الى الوليد فعلهُ مع شمعلة وهما اعلم بامور النصارى من سواهما ولاسيما انَّ الوليد كان معروفاً بمعاداتهِ للنصارى وقد قتل كثيرًا منهم في الجزيرة كمـا روى المؤرِّخون من الروم والسريان . بل يقول عنهُ مؤرّخو العرب انهُ كان جبّارًا ظالمًا

٤ أعشى بني تغلب

﴿اسمهُ ونسبهُ﴾ يُطلَق اسم الأَعشى على نحوٍ من عشرين شاعرًا كما ترى في المزهر للسيوطيّ (٢: ٢٢٩—٢٣٠) وفي شرح شواهد المغني لهُ (ص ٨٦) وفي تاج العروس (١٠: ٢٤٣ ٢٤٤). وقد كثر التخليط في تعريف اسمائهم وكُناهم وقبائلهم. وربَّما اكتفى الادباء باسم الاعشى دون زيادةٍ في التعريف. وانما اشهرُهم الاعشى المعروف بالاعشى الاكبر وهو ابو بصير الميمون بن قيس وهو جاهليّ(١). واسم الاعشى لقبٌ يُطلق على السيّئ البصر من العِشاء وهي ظلمة تعترض العين فلا تُبصر ليلًا

واعشى بني تغلب قد اختلفوا في اسمهِ. جاء في الاغاني (١٠: ٩٨): «قال ابو عمرو الشيباني اسمهُ ربيعة. وقال ابن حبيب: اسمهُ النعمان بن يحيى». وفي الحماسة البصريَّة (١: ٨٧) «هو ربيعة بن نجران» وفي محلّ آخر «هو نعمان بن نجوان التغلبي واسمهُ ربيعة». وفي المزهر للسيوطي (٢: ٢٢٩): «الاعشى التغلبيّ اسمهُ نعمان بن نجران» وقال في التاج (٩: ٣٤٤). «هو النعمان ويقال ابن جاوان وهو في الاراقم». أمَّا نسبهُ فرفعهُ ابو الفرج في الاغاني الى نزار فقال: «النعمان بن عمرو (بن غنم) بن تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن افصى بن دعمي بن جديلة بن اسد بن ابي ربيعة ابن نزار». وكثيرًا ما اشاروا اليهِ باسم «التغلبيّ» بلا زيادة

﴿زمانهُ وموطنهُ﴾ قال في الاغاني: «هو من شعراء الدولة الامويَّة وساكني الشام اذا حضر واذا بَدا نزل في بلاد قومهِ بنواحي الموصل وديار ربيعة». ومن المعلوم انَّ ديار تغلب كانت في بلاد ما بين النهرين في جوار ديار بكر في جنوبيّها على ضفَّة الفرات الشماليَّة من الرقَّة والرصافة الى جهات سنجار وانحاء الموصل. عاش في اواخر القرن الاوَّل ثمَّ اوائل الثاني للهجرة وفي النصف الاوَّل من القرن الثامن للمسيح في عهد الوليد بن عبد الملك وخلفهِ عُمَر بن عبد العزيز

﴿دينهُ﴾ صرَّح بهِ ايضًا صاحب الاغاني بقولهِ (١٠: ٩٨): «وكان نصرانيًّا وعلى ذلك مات». ومثلهُ قال صاحب الحماسة البصريَّة (١: ٨٧): «وكان نصرانيًّا»

﴿اخبارهُ﴾ لم نعرف من اخبار اعشى بني تغلب الَّا النزر القليل. وانَّما يُستدلُّ

١) اطلب ترجمتهُ في كتابنا شعراء النصرانيَّة في الجاهليَّة (٣٥٧-٣٩٩)

من هذا القليل على علوّ مرتبته . فمن ذلك انهُ حظي عند خلفاء بني اميَّة وعند اعيان زمانهِ . روى ابو الفرج عن ابن حبيب وابي عمرو (١٠ : ٩٩) انَّ الوليد بن عبد الملك كان محسناً الى اعشى بني تغلب . وقد مدحَ مسلمةَ بن عبد الملك اخا الوليد وصاحب الغزوات الكثيرة المتوفّى في سنة ١٢٣ هـ (٧٤٢م) . وكذلك مدح بعض وجوه زمانهِ كمُدْرِك بن عبدالله الكنانيّ

﴿ اخلاقهُ ﴾ كان اعشى التغلبيّ ابيًّا فظَّ الطباع ذا نخوة لا يرضى بالهوان فمن ذلك ما حدَّث بهِ محمَّد بن حبيب عن ابي عمرو الشيبانيّ (الاغاني ١٠ : ٩٨) قال : « كان اعشى بني تغلب يُنادم الحرّ بن يوسف بن يحيى بن الحكم فشربا يوماً في بستان لهُ بالموصل فسكر الاعشى فنام في البستان ودعا الحرُّ بجواريهِ فدخلنَ عليهِ قبَّتهُ واستيقظ الاعشى فأقبل ليدخل القبَّة فمانَعهُ الخدم ودافَعهم حتى كاد ان يهجم على الحرّ مع جواريهِ فلطمَهُ خصيٌّ منهم . فخرج الاعشى الى قومهِ فقال لهم : لطمني الحرُّ فوثب معهُ رجلٌ من بني تغلب يقال لهُ ابن ادعج وهو شهاب بن همام بن ثعلبة بن ابي سعدة فاقتحما الحائط وهجما على الحرّ حتى لطمهُ الاعشى ثم رجعا فقال الاعشى (من الوافر) :

كأنّي وابنَ أدعجَ اذ دخلنا ... على قُرَشيِّكَ الوَرِعِ الجَبانِ
هِزَبْرا غابةٍ وقَصا حمارًا ... فظلّا حولهُ يتناهشانِ
انا الجُشَميُّ من جُشَم بن بكرٍ ... عشيَّةَ رُعتُ وجهكَ بالبنانِ (١
فما يَستطيعُ ذو مُلكٍ عِقابي ... اذا اجترمَتْ يدي وجَنَى لساني
عشيّةَ غاب عنك بنو هشامٍ ... وعثمانُ أُسْتُها وبنو أبانِ
تروحُ الى منازلنا قريشٌ ... وانتَ مُخيِّمٌ بالزُّرْقانِ (٢

والحرُّ المذكور هو الامير ابن يوسف بن يحيى بن الحكم بن ابي العاص بن اميَّة من وجوه قريش واليهِ يُنسب نهر الحرّ بالموصل لانهُ حفرهُ (التاج) . وقد ولي مصر

١) اي لطمتُك . وقولهُ « انا جُشَميّ » اي مثلي يفعل ذلك بمثلك (الاغاني)
٢) (قال) الزرقان قرية كانت للحرّ بسنجار

ثلاث سنين من قبل هشام سنة ١٠٥–١٠٨هـ (٧٢٣-٧٢٦م). وروى ايضاً ابن حبيب عن ابي عمرو قال (الاغاني ١٠: ٩٩): «وكان الوليد بن عبد الملك محسناً الى اعشى بني تغلب فلمّا ولي عُمر بن عبد العزيز الخلافة وفد اليه يمدحهُ فلم يعطهِ شيئاً وقال: «ما ارى للشعر في بيت المال حقّاً ولو كان لهم فيهِ حقٌّ لما كان لك لأنك امرؤ نصرانيّ» فانصرف الاعشى وهو يقول (الحماسة البصريّة ١: ٨٧) (من الطويل):

لَعمري لقد عاش الوليدُ حياتَهُ ... إمامَ هُدًى لا مُستزادٌ ولا نَزْرُ

كأنَّ بني مَرْوانَ بعد وَليدِهم(١ ... جَلاميدُ لا تَنْدى(٢ ولو بَلَّها القَطْرُ

وكانوا أُناساً يُنْتَحَوْن فأصبحوا ... وأكثرُ ما يُعطونك النظَرُ الشَّزْرُ

أَلم يكُ عذرًا ما فعلتم بشَمْعَلٍ ... وقد خاب من كانت أمانيَّهُ القَدْرُ

وكائِنْ دفَعْنا عنكمُ من عظيمةٍ ... ولكن ابيتم لا وفاءٌ ولا شكرُ

فان تكفُروا ما قد فعلتم فربَّما ... أُتيحَ لكم قَسْرًا بأسيافنا النَّصرُ

وشَمْعل المذكور هنا هو الشاعر الذي مرَّ وصفهُ الذي امر الخليفة الاموي بقَطْع جذوةٍ من فخذهِ اذ لم يشأ ان يجحد دينهُ النصرانيَّ (راجع الصفحة ١١٨–١٢٠ من العدد السابق). وفي كتاب الاغاني يُنسب الى أعشى تغلب البيتان اللذان رويناهما هناك (ص ١٨٠)

وممَّا انشده اعشى تغلب قولهُ يذكر وقائع جرت بين بني تغلب وبين شيبان وكان مالك بن مسمع رئيس بني بكر معاوناً في بعضها لبني شيبان فقعد عنهم فقال الاعشى في ذلك (من الطويل):

بني أُمنا مهلًا فانَّ نفوسَنا ... تُميت عليكم عَتْبَها ومَصالَها

وترعى بلا جهلٍ قَرابةَ بيننا ... وبينكمُ لمَّا قطعتم وِصالها

جَزى الله شيباناً وتَيماً مَلامةً ... جزاءَ المُسيءِ سعيَها وفعالَها

---

١) ويروى: بعد وفاتهِ ٢) ويروى: ما يندى

أَبَا مِسْمَعٍ مَنْ تُنْكِرِ الحقَّ نفسُهُ وتَعْجِزْ عن المعروفِ يَعْرِفْ ضَلالَهَا
أَأَوقدتَ نارَ الحرب حتى اذا بَدا لِنفسك ما تَجني الحروبُ فَهَالَهَا
نَزَعتَ وقد جرَّدتَها ذاتَ منظرٍ قبيحٍ مَهينٍ حيثُ أَلقت جلالَها
أَلَسْنا اذا ما الحربُ شُبَّ سعيرُها وكان سفيحُ المشرفيِّ صِلالَهَا
أَجارَتَنا حِلٌّ لكم ان تُنازلوا مَحارِمَها وأَنْ تُجيزوا حَلالَهَا
كـذبتم يمينَ الله حتى تُعـاوِروا صدورَ العوالي بيننا ونِصالَهَا
وحتّى ترى عينُ الذي كان شامتاً مَزاحفَ عقرى بيننا ومَجالَهَا

﴿شعر الاعشى التغلبيّ﴾ انَّ القليل ممَّا بقي من شعر الاعشى التغلبيّ ينبئ بحسن ذوقهِ ومتانة نظمهِ ما يجعلهُ اهلًا بشعراء زمانهِ المفلقين. وقد تغنَّى المغنّون ببعض ما انتجتهُ قريحتهُ. فمن ذلـك ما روى لهُ صاحب الاغاني وهما البيتان التابعـان (من الكامل) :

دارٌ لِقاتِلَةِ الغَرانقِ (١ ما بها غيرُ الوحوشِ خلَت لهُ وخلا لَهَا
ظلَّت تُسائِلُ بالمُتَيَّمِ ما بِهِ (٢ وهي التي فعلَتْ بِهِ أَفعالَهَا

قال: «الشعر لاعشى بني تغلب من قصيدةٍ يمدح بها مَسلمة بن عبد الملك ويهجو جريرًا ويُعين الاخطل عليهِ. وفيهِ صوت والغناء لعبدالله بن العبَّاس .. وقد بقي من القصيدة المذكورة بعض الابيات رُويت في ديوان الاخطـل (ص ٣٢٠–٣٢١ من طبعة الاب انطون صالحاني) وفي الحماسة البصريَّة (٢: ١١٧) وهي هذه :

رحلَتْ أُمامَةُ للفِراقِ جِمالَهـا كَيْما تَبِينُ وما تُحِبُّ (٣ زِيالَهَا
هذا النهارُ بَدا لهـا من هَمِّهـا ما بالُها بالليلِ زالَ زوالُهـا

١) ويروى: لقانصة الغرانق ٢) ويروى : ما لهُ ٣) رَحَل الجملَ حطَّ عليهِ الرحل. ويروى: رحلت سلامة. ورحلت سُمَيَّة. ويروى: فما تُريد

الحُسنُ آلَفها ببيت ضَجيعهـا   وتظَلُّ قاصِرَةً عليهِ ظِـلالَها (١
ولَئِن أُمامَةُ فارقت او بدَّلَت   وُدًّا بودِّك مـا صَرَمْتَ حبالَهـا
ولَئِن أُمـامَـةُ ودَّعَتك ولم تَخُنْ   ما قد عَلمتَ لَتُدرِكَنَّ وِصالَهـا
إِربَعْ على دِمَنٍ تقـادَم عهدُهـا   بالجَوف واستلَبَ الزمانُ حِلالَها(٢
كانت تُريك اذا نظرتَ أَمامهـا   مَجرى السُّموطِ (٣ومرَّةً خَلخالَها
دَعْ ما مضى منهـا فرُبَّ مُدامةٍ   صهباءَ عاريةِ القَذى سَلْسالِها (٤
باكرتُها عند الصباح على نُجًى(٥   ووضعتُ غيرَ جِلالِها اثقـالَهـا
صبَّحتُهـا غُرَّ الوجوهِ غَرانقـاً   من تغلِبَ الغَلْبـاءِ لا أَسفالَهـا
إِخسَأْ اليـك جريرُ انَّا معشَرٌ   نِلْنا السماءَ (٦ نجومَهـا وهِـلالَها
مـا رامَنا مَلِكٌ يُقيمُ قَناتَنـا   الّا استَبَحْنَا خيلَـهُ ورِجـالَها

وممَّا رواهُ الجاحظ في البيان والتبيين(١ : ٢١٥)لاعشى بني تغلب (٧ ومثلهُ امين الدولة محمَّد الافطسيّ في كتاب المجموع اللفيف(Ms de Paris, 3388, ff. 147ᵛ) قولهُ (من البسيط) :

ما ضرَّ غازيَ نِزارٍ أَن يُفارقَهُ   كَـلْبٌ وجَرمٌ اذا ابناؤهُ اتَّفقوا
قالت قُضاعَةُ انَّا من ذوي يَمَنٍ   اللهُ يعلمُ ما بَرُّوا (٨ ولا صَدَقوا

١) وفي الحماسة البصريَّة بعد هذا « ظلَّت تسائل » البيت
٢) إِربَع اي اعطِفْ وعُجْ . والجَوف اسم مكان واصلهُ المطمئنّ من الارض . وبعد هذا البيتان اللذان فيهما الصوت «دارٌ لقاتلة . . . »ويروى : دِمَنٌ لقاتلة الغرانق . . الّا الوحوش » الغُرنوق طائر مائيّ ابيض يستعار للشاب الحَسَن . ويروى : بكرَتْ تسائل والحِلال القوم النزول
٣) مجرى السُّموط اي موضع القلادة والعُنُق
٤) بالاقواء . السلسال الليّنة
٥) النّجى جمع نَجوَة المرتفع من الارض   ٦) ويروى : منّا السماء   ٧) وفي الاصل ابن ثعلبة . وهو غلط اصلحهُ الافطسي   ٨) وفي نسخة باريس : وما برُّوا

يزدادُ لحمُ المناقي (١ في منـازلنا طِيباً اذا عزَّ في اعدائنـا المَرَقُ
ومـا خطَبْنا الى قومٍ بنـاتِهمُ إلّا بـأرْعَنَ في حافـاتهِ الخِرَقُ

واليهِ نسب ابن عبد ربّهِ في وصف يوم ذي قار الابيات التالية في العقـد الفريد (٣:١١٧) وفيها ابيات تُروى في معلّقة عنترة (من الكامل) :

ولقـد رأيتُ اخاكَ عمرًا مرَّةً يَقْضي وضيعَتَهِ بذات العِجْرِمِ
في غمرة الموت التي لا تشتكي غَمَراتِهـا الابطـالُ غيرَ تَغَمْغُمِ
وكأنّمـا أقـدامُهم وأكُفُّهم سِرْبٌ تَساقَطَ في خليجٍ مُفْعَمِ
لمّا سمعتُ دُعاةَ مُرَّةَ قد علا واتى ربيعةَ في العَجـاج الأقْتمِ
ومُحَـلِّمٌ يمشونَ تحت لِوائهم والموتُ تحت لواء آلِ مُحَلِّمِ
لا يَصْرِفون عن الوغى بوجوههم في كلّ سابغـةٍ كـلون العِظْلِمِ
ودعَتْ بنو امِّ الرقـاع فأقبلوا عنـد اللِقـاء بكل شاكٍّ مُعلَمِ
وسمعتُ يَشكُرَ تدّعي بحُبَيِّبٍ تحت العَجاجةِ وهي تقطرُ بالدمِ
يمشونَ في الحَلَقِ الجديد كما مشَتْ أُسدُ العَرينِ بيومِ نحسٍ مُظْـلمِ
والجمعُ من ذُهلٍ كأنّ زُهاءَهم جُرْبُ الجمالِ يقودُها أبنـا قَشْعَمِ
والخيلُ من تحت العَجاج عَوابساً وعلى مَناسِجِهـا سحائبُ من دمِ

وقال في الجاهليّـة يشكو ضرائب ومكوس ملوك العرب (كتاب الحيوان للجاحظ ٦:٤٤) (من الطويل) :

ألا تستحي منّـا ملوكٌ وتتّقي محـارِمَنا لا يبرأُ الدمُ بالدمِ

١) ويروى : لحمُ المنايا

وفي كلّ اسواقِ العراقِ إتاوةٌ وفي كلّ ما باعَ امرؤٌ مَكْسُ دِرْهم

وروى لهُ ايضاً (٥ : ١٦٩) في وصف القطا قال وهي أجود قصيدةٍ قيلَت في القطا (من الطويل) :

ثلاثٌ مَرَوْراتٍ يُجاذبُها القطا ترى الفرخَ في حافاتها يتحرَّقُ
يظلُّ بها فرخُ القطاة كأنَّهُ يتيمٌ يناجيهِ مواليهِ مُطرِقُ
بدَيْمومةٍ قد بات فيها وعينُهُ على موتهِ تُغْضي مرارًا وتَرفقُ
شَبيهٌ بلا شيءٍ هنالك شخصُهُ يواريهِ فَنْكٌ حولهُ مُتفلِّقُ
لهُ مَحْجَرٌ نابٍ وعينٌ مريضةٌ وشِدقٌ بمثل الزَّعفرانِ مُخلَّقُ
تُناجيهِ كَحْلاءُ المدامعِ حُرَّةٌ لها ذَنَبٌ ساجٍ وجِيدٌ مطوَّقُ
سَكاكيَّةٌ كَدْريَّةٌ عَرْعريَّةٌ شكاليَّةٌ عفراءُ سمراءُ سَمْلَقُ
اذا غادرَتْهُ تبتغي ما يُعيشُهُ كفاها رزاياها النجاءُ الهبنَّقُ
عدَتْ تستفي من منهلٍ ليس دونهُ مسيرةُ شهرٍ للقطا مُتعلَّقُ
لأَزْغَبَ مطروحٍ بجَوْزِ تَنوفةٍ تَلَظَّى سَموماً قيظُهُ فهو أَوْرَقُ
تراهُ اذا أَمسى وقد كاد جِلدُهُ من الحَرِّ عن أوصالِهِ يتمزَّقُ
غدَتْ فاستقلَّت ثمَّ وأَت مُغيرةً بها حين تَرْهاها الجَناحانِ أَوْلَقُ
تُيَمِّمُ ضَحْضاحاً من الماء قد بدَتْ دعاميصُهُ في الماء أَطحَلُ أَطرَقُ
فلمَّا أَتَتْهُ مُقْدَحِرًّا تقرَّبَتْ تَقَرُّبَ مجنونٍ فتَطفو وتغرقُ
تجرُّ وتُلقَى في سِقاءٍ كأنهُ من الحنظل العامّيِّ جزءٌ مُفلَّقُ
فلمَّا ارتوتْ من مائها لم يكن لها اناةٌ وقد كادت من الرّمي تَبعقُ

طمَتْ طموةً صُعُدًا ومدَّتْ جِرانَها وطار كما طار السحابُ المحلِّقُ

هذا ما أمكنَنا جمعهُ من آثار ذلك الشاعر وكفى بهِ دليلًا على فضلهِ

٥ أعشى بني ابي ربيعة

﴿اصلهُ ونسبهُ﴾ كان هذا الأعشى معاصرًا الأعشى تغلب يشبههُ في دينهِ وانتمائهِ الى الدولة الامويَّة. اسمهُ عبدالله بن خارجة بن حبيب بن قيس بن عمرو بن حارثة بن ابي ربيعة بن ذهل بن شيبان. وقد عُرف باعشى ربيعة او اعشى بني ابي ربيعة. وابو ربيعة احد اجدادهِ عُرف بالمُزدلف قال ابن دريد في الاشتقاق (ص ٢١٥): «سُمّي المزدلف لانهُ قال لقومهِ وهو في حرب: ازدلفوا قِيدَ رمحي اي اقتربوا. وينتمي الاعشى الى بني شيبان الذين ثبتوا مدَّةً على نصرانيَّتهم بعد الاسلام. وكنيتهُ ابو عبدالله وجاء في حماسة ابي تمَّام (٢: ٧٧٣): اعشى بني ربيعة من بطن منهم يقال لهم بنو أُمامة. وأمَّا السيوطي في المزهر (٢: ٢٢٩) فانهُ زعم انَّ اسم اعشى بني ربيعة صالحُ بن خارجة

﴿اخبارهُ﴾ قال ابو الفرج في الاغاني (١٦: ١٦٠): «هو شاعر اسلاميّ (اي عاش بعد الجاهليَّة) من ساكني الكوفة وكان مروانيَّ المذهب شديد التعصُّب لبني اميَّة». وقدم الاعشى الشام ودخل على الخلفاء الامويين في دمشق فمدحهم ونال صِلاتهم وقد تردَّد خصوصاً على عبد الملك بن مروان وعلى سليمان بن عبد الملك فعاش الى ايَّام الوليد بن عبد الملك

ومن اخبار اعشى بني ابي ربيعة مع عبد الملك ما اخبرهُ في الاغاني (١٦: ١٦٣) قال: دخل اعشى بني ربيعة على عبد الملك بن مروان فأنشدهُ قولهُ (من الوافر):

رأيتُكَ أمسِ خيرَ بني مَعَدٍّ وانتَ اليومَ خيرٌ منك أمسِ
وانت غدًا تزيد الضِعفَ ضِعفاً كذاك تزيد سادةُ عبدِ شمسِ

فقال لهُ: من ايّ بني ربيعة انت؟ (قال) فقلت لهُ: من بني أُمامة. قال: فانَّ أُمامة ولد رجلين قيساً وحارثة فاحدهما نَجمَ والآخر خَمَلَ. (قال) فقلت: انا من ولد حارثة وهو الذي كانت بكر توَّجتهُ. (قال) فقام بمخصرةٍ في يدهِ فضربها في

بطني ثم قال: يا اخا بني ربيعة هَمّوا ولم يفعلوا فاذا حدّثتني فلا تكذبني. فجعلتُ لهُ عهداً أَلّا احدّث قرشياً بكذب ابداً

واخبر ايضاً ان اعشى دخل على عبدالله وهو يتردّد في الخروج لمحاربة ابن الزُبير ولا يجدّ فقال لهُ: يا امير المؤمنين ما لي اراك متلوّماً يُنهضك الحزم ويُقعدك العزم. وتَهمّ بالإقدام وتجنح الى الإحجام. انفُذْ لنصرتك وأَمضِ رأيك وتوجّه الى عدوّك فجَدُّك مُقبل وجَدُّهُ مُدبِر. واصحابهُ لهُ ماقتون ونحن لك محبّون. وكلِمتُهم متفرّقة وكلمتُنا عليك مجتمعة والله ما تُؤتَى من ضعف جنان ولا قلّة اعوان. ولا يثبّطك عنهُ ناصح ولا يحرّضك عليه غاشٌّ وقد قلت في ذلك ابياتاً. فقال: هاتِها فانك تنطق بلسانٍ وَدُود وقلب ناصح. فقلتُ (من الكامل):

آلُ الزُبيرِ من الخِلافة كالتي عجَلَ النتاجُ بحَملها فأَحالَها
او كالضِعافِ من الحَمولةِ جُمّلَتْ ما لا تُطيق فضيّعت احمالَها
قوموا اليهم لا تناموا عنهمُ كم للغُواةِ أَطلتمُ إِمهالَها
انّ الخلافةَ فيكمُ لا فيهمِ ما زلتمُ أركانها وثِمالَها
أَمسَوا على الخيرات قفلاً مُغلَقاً فانهَضْ بيُمنك فافتتحْ أَقفالَها

فضحك عبد الملك وقال: «صدقت يا ابا عبدالله انّ أَبا خُبَيب (هذه كنية عبد الله ابن زُبير) لَقَفْل دون كلّ خير ولا نتأخّر عن مناجزته ان شاء الله ونستعين الله عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل». وامر لهُ بصلةٍ سنيّة

وروى العبّاس بن هشام عن ابيه قال: قدم اعشى بني ربيعة على عبد الملك بن مروان فقال لهُ عبد الملك: ما الذي بقيَ منك؟ قال انا الذي اقول(١ (من الطويل):

وما انا في أَمري ولا في خصومتي بمهتَضَمٍ حقّي ولا قارعٍ سِنّي (٢

١) وفي حماسة ابي تمام (ص٧٧٣) ان عبد الملك قال لهُ: يا ابا المغيرة ما بقي من شعرك؟ فقال: يا امير المؤمنين لقد بقي منهُ وذهبَ على انّي الذي اقول . . . ٢) ويروى:

وما انا في حقي ولا في خليقتي بمهتضمٍ حقّي ولا قارعٍ قِرني

(قال) في حقي اي في ما استحقّهُ من الناس

ولا مُسْلِمٍ مولايَ عنـد جِنايةٍ ولا خائفٍ مولايَ من شرّ ما اجني (١

وانَّ فؤادًا بين اجنبيَّ عـالمٌ بما ابصرتْ عيني وما سمعتْ أُذني

وفضَّلني في الشعر واللُّبّ أنّني اقولُ على علمٍ واعرفُ ما اعني (٢

فاصبحتُ إن فضَّلتُ مَرْوانَ وابنَهُ على الناس قد فضَّلتُ خيرَ أَبٍ وابنِ

فقال عبد الملك : من يلومني على هذا . وامر لهُ بعشرة آلاف درهم وعشرة تُخوت ثياب وعشر فرائض من الابل واقطعهُ الف جريب وقال لهُ : امضِ الى زيد الكاتب يكتب لك بها واجرى لهُ على ثلثين عيلًا فاتى زيدًا فقال لهُ : ائتني غدًا . فـأتاهُ فجعل يردّدهُ فقال لهُ (من الرجز) :

يا زيـدُ يا فَـداكَ كلُّ كاتبِ في النـاس بين حاضرٍ وغـائبِ

هل لك في حقٍّ عليك واجبِ في مثلـهِ يرغبُ كلُّ تاعبِ

وانت عَفٌّ طيّبُ المكـاسبِ مُبرَّأٌ من عيبِ كلِّ عـائبِ

ولستَ ان كفيتَني وصاحبي طول غُـدوٍّ ورَواحٍ دائبِ

وسَدَّةُ البـاب وعُنفُ الحاجبِ من نعمـةٍ اسديتَها بخـائبِ

فأبطأ عليهِ زيد فاتى سفيان بن الابرد الكلبي فكلّمهُ سفيان فأبطأ عليهِ فعاد الى سفيان فقال لهُ (من البسيط) :

عُدْ اذ بدأْتَ بحُسنى فانت لها ولا تكنْ من كلام الناس هيَّابا

واشفع شفاعة أنفٍ لم يكن ذَنَباً فـانّ مِن شُفعـاء النـاس أذنابا

١) ويروى : من شرّ ما جرى . ويروى : ما جنى . (قال) اي اذا جنى ابن عمّي جناية لم اخذلهُ ولكني ادفع عنهُ ولا الزمهُ جنايتي . وفي هذين البيتين غناء لابراهيم الموصلي

٢) ويروى : وفضّلني في القول . . من اعني

فاتى سفيان زيدًا الكاتب ولم يفارقه حتى قضى حاجتهُ . وذكر البلاذري في كتاب الاشراف (ص ٣٤٠ ,éd. Ahlwardt, Bd XI) انّ اعشى بني ابي ربيعة قال شعرًا يحثّ فيهِ عبد الملك على بَيْعة الوليد وخَلْع اخيهِ عبد العزيز (من المنسرح) :

ابنُكَ أَولى بمُلْكِ والدهِ وعمُّهُ إِذْ عَصاكَ مُطَّرَحُ
ورثتَ عثمانَ وابنَ حَرْبٍ ومَرْ وانَ وكلٌّ للهِ قد نَصَحوا
فعِشْ حميدًا واعمَلْ بسُنَّتهم تَكُنْ بخيرٍ وا كدَحْ كما كَدَحوا

(قلنا) وهذه الابيات تُروى مع بعض اختلاف في الرواية لنابغة بني شيبان من جملة قصيدة طويلة (اطلب الصفحة ١٣٨–١٣٩)

وممَّا روى ابو فراس عن خداش (الاغاني ١٦ : ١٦٣ حماسة ابي تمَّام ٧٧٣) ان اعشى بني ربيعة دخل على سليمان بن عبد الملك وهو وليّ عهد فقال (من الطويل) :

أَتينــا سُليمانَ الاميرَ نَزورهُ وكان امرءًا يُحْبَى ويُكرَمُ زائِرُهْ
اذا كنتَ بالنَّجوى بهِ متفرِّدًا فلا الجودُ مُخْليهِ ولا البُخلُ حاضِرُهْ (١
كِلا شافِعَيْ سوءالهِ من ضميرهِ عن الجَهْل ناهيهِ وبالحِلْم آمِرُهْ (٢

فاعطاهُ واكرمهُ وامر كلّ من كان بحضرتهِ من قومهِ ومواليــهِ بصلتهِ فوصلوهُ فخرج وقد ملأ يديهِ

وكان الاعشى في الكوفة لمَّا تولَّى الحجَّاج على العراق سنــة ٧٥ ﻫ فوجد منهُ الحجَّاج ما كرههُ . قال ابن حبيب (الاغاني ١٦ : ١٦٢) : «كان الحجَّاج قد جفا الاعشى واطَّرحهُ لحالة كانت عند بشر بن مروان . فلمَّا فرغ الحجَّاج من حرب الجماجم(٣ ذكر فتنة ابن الاشعث وجعل يوبّخ اهل العراق ويؤنّبهم فقال من حَضَر من اهل البصرة :

١) قال في الحماسة (٧٧٤) : النجوى المسارَّة . يقول : اذا وقعتَ في خاطرهِ وانفردت بمناجاتهِ فالجود نُصب عينيهِ والبخل غائب عن همّهِ

٢) وفي الاغاني : « فلا شافعي» وهو تصحيف . (قال) جعل للسوءال شافعين وكلاهمــا ينهاهُ عن البخل ويأمرهُ بالبذل

٣) الجماجم مكان قرب الكوفة عنــدهُ كانت وقعة محمَّد ابن الاشعث مع الحجَّاج سنة ٨٢ ﻫ (٧٠١م) قيل انهُ دُعي بالجماجم لكثرة من قُتل بهِ فبُني من جماجمهم بناء.

انَّ الريب والفتنة بدَأَا من اهل الكوفة وهم اوَّل من خلع الطاعة وجاهر بالمعصية. فقال اهل الكوفة: لا بل اهل البصرة اوَّل مَنْ اظهر المعصية مع جرير بن هميان السَّدوسي اذ جاء من الهند. واكثروا من ذلك فقام اعشى بني ابي ربيعة فقال: «أَصلَح الله الامير لا بَراء من ذنبٍ ولا ادّعاء على الله في عصمةٍ لاحد من المصرّين قد والله اجتهدوا جميعاً في قتالك فأَبى الله الَّا نَصْرَكَ وذلك انهم جزعوا وصبرتَ وكفروا وشكرتَ وغفرتَ اذ قدرتَ فوسَعهم عفوُ الله وعفوكَ فنجوا فلولا ذلك لبادوا وهلكوا». فسُرَّ الحجّاج بكلامهِ وقال لهُ جميلًا وقال: تهيَّأ للوفادة الى امير المؤمنين حتى يسمع هذا منك كفاحاً

وحدَّث حمَّاد بن اسحاق عن ابيهِ قال (الاغاني ١٦: ١٦٢): بلغ الحجَّاج ان اعشى بني ابي ربيعة رثى عبد الله بن الجارود(١) فغضب عليهِ فقال يعتذر اليهِ (من الطويل):

أَبيتُ كأَنّي من حِذار ابن يوسفٍ ... طريدُ دمٍ ضاقت عليهِ المَسالكُ

ولو غيرُ حجَّاجٍ اراد ظُلامتي ... حمتْني من الضيمِ السيوفُ الفواتكُ

وفِتْيانُ صدقٍ من ربيعةَ قَصْرةٍ ... اذا اختلفت يومَ اللقاء النيازكُ

يُحامون عن احسابهم بسيوفهم ... وارماحُهم واليومُ اسودُ حالكُ

فرضي عنهُ. وكان بين اهل الكوفة رجلٌ شهير بفضلهِ وكرمهِ وهو اسماء بن خارجة. اشتهر وفيهِ يقول عبدالله بن زبير يثني على جودهِ:

أَلم ترَ انَّ الجود أَرسل فانتقى ... حليفَ صفاء واتلى لا يزايلهْ

تخيَّرَ اسماء بن حصنٍ فبُطِّنت ... بفعل العَلا أَيمانُهُ وشمائلهْ

ولا مَجد الَّا مجدُ اسماء فوقَهُ ... ولا جَريَ الَّا جَريُ اسماء فاضلهْ

تراهُ اذا ما جئتَهُ متهلّلًا ... كأنك تعطيهِ الذي انت نائلهْ

١) عبدالله بن الجارود العبديّ من اهل البصرة خالَفَ الحجَّاج بن يوسف والي العراق في امرٍ وتبعهُ وجوه الناس فاقتتلوا قتلاً شديدًا فقُتل ابن الجارود وجماعة من اصحابهِ سنة ٧٥هـ

ولو لم يكن في كفّهِ غيرُ روحهِ لجادَ بها فليتّقِ اللهَ سائلُهْ

وقد امتدح اعشى بني ابي ربيعة اسماء المذكور فأعطاهُ وكساهُ فقال (من الوافر) :

لأسماء بنِ خارجةَ بنِ حِصْنٍ على عِبْء النوائبِ والغرامَهْ
أقلُّ تعلُّلًا يوماً وبُخلًا على السؤّال من كعب بن مامَهْ (١
ومَصْقَلَةَ الذي يبتاعُ بَيْعاً رَبيحاً فوق ناجيةَ بن سامهْ (٢

ومن شعرهِ ما رواهُ لهُ الطبري في تاريخهِ يذكر يوم ذي قار الذي انتصر فيهِ العرب على العجم (من الوافر) :

ونحنُ غداةَ ذي قارٍ أقمْنَا وقد شهدَ القبائلُ مُحْلِبينا
وقد جاؤوا بها جأواء فِلْقاً مُلَمْلَمةً كتائبُها طَحُونا
لِيوم كريهةٍ حتى تجلّت ظِلالُ دُجاهُ عنّا مُصْلتينا
فولّوْنا الدوابرَ واتَّقَوْنا بنُعمانَ بنِ زُرْعةَ أكْتَعينا
وذُدْنا عارضَ الأحرارِ وِرْدًا كما وردَ القَطا الثَّمَدَ المَعِينَا

واعلم انَّ اعشى بني ابي ربيعة يُدعى ايضاً «اعشى شيبان» فيُنسَب الى هذا ما ينسبهُ آخرون الى ذاك فهذا الجاحظ في البيان والتبين (١ : ١٥١) قد نسب الى اعشى بني شيبان ما رواهُ في الاغاني والحماسة لاعشى بني ابي ربيعة. ومن ثمَّ نظنُّ انَّ ما ينسب في بعض التآليف لاعشى بني شيبان هو لاعشى بني ربيعة الشيباني كالذي جاء مثلًا في تاريخ الطبري (٢ : ١١٧٧) وفي كتاب انساب الاشراف للبلاذري (ص٢١٣) :

١) كعب بن مامه هو الايادي الذي اعطى في البرّيّة حصّتهُ من الماء رجلًا طلبها منهُ فمات هو عطشاً وضُرب المثل بجودهِ ٢) مصقلة هو مَصْقلة بن هبيرة البكري (اطلب اخبارهُ في المشرق ١٤ [١٩١١] : ٨٣٨–٨٤٢) . وناجية قبيلة من العرب ينسبون الى ناجية بن سامة وقيل بل ناجية أُمهم. قال الكلبيّ : جعل الاعشى ناجية رجلًا وهي امرأة لضرورة الشعر . والله اعلم

وهو في معنى ما ذُكر سابقاً من اقوال اعشى بني ربيعة لعبد الملك (من مجزوء الكامل) :

عرفَتْ قريشٌ (١ كلُّها لبني ابي العاصِ الإمارَهْ
لِأَبَرّها وأحقِّها عند المَشُورةِ بالإِشارَهْ
المانِعين (٢ لِما وَلُوا والنَّافعين ذوي الضرارَهْ
وهمُ احقُّهمُ بها (٣ عند الحَلاوةِ والمرارَهْ

وفي حماسة البحتري (ع ٤٨٣) قولهُ في الشماتة وعاقبتها (من الوافر) :

اذا ما المرءُ غالتْهُ شَعُوبُ فما للشَّامتين بهِ خُلودُ
وريبُ الدهر بالانسانِ جمٌّ ولا تُنجي من التَّلَفِ الجُدودُ

والى اعشى بني شيبان ينسَبُ ايضاً في بعض المخطوطات قولهُ في المقايسة بين امور الزمان (من السريع) :

يا أيها السائلُ عن ما مضى من ريبِ هذا الزمنِ الذاهبِ
ان كنت تبغي العلمَ او نحوَهُ او شاهدًا يُخبر عن غائبِ
اعتَبِرِ الارضَ باسمائها واعتبرِ الصاحبَ بالصاحبِ

وكذلك يُنسب الى اعشى شيبان في كتاب الكتَّاب للصولي (ص ١٧٧) قولهُ (من البسيط) :

يا عمرو أقصدْ نواكَ اللهُ بالرَّشَدِ واقْرِ السلام على الأبقاء والقَصَدِ(٤
وبكِّ عيشاً تولّى بعد جِدَّتِهِ طابت أصائلُهُ في ذلك البَلَدِ

---

١) ويروى: عرفت أُميَّةُ ٢) ويروى: والتابعين
٣) ويروى: وهمُ احقُّ بإرثها
٤) ورد هذا البيت في اللسان (٢٠ : ٢٢٣) وفي التاج (١٠ : ٢٧٩) وروايتهما : يا عمرو أحسِنْ. وروى في الصحاح: على الذَّلْفاء بالثَّمدِ. ويروى الزلفاء بالزاي . . على الأبقاء والثَّمدِ.
قالوا: نواك الله اي حفظك وصحبك في سفرك

٦ مَرْقس الطائي

نضيف الى الاعشيَيْن التغلبيّ والشيبانيّ احدَ الطائيّين الذي عُرف في عهدهما وذكر في شعرهِ حرب الحروريّة في أيام عليّ بن ابي طالب. ألَا وهو مَرْقس الطائي. وكفى بأسمهِ دليلًا على نصرانيَّتهِ

﴿اسمهُ ونسبهُ﴾ هو احد بني طيّ اليمنيين الذين تكرَّر ذكر تنصُّرهم (اطلب كتابنا النصرانيَّة وآدابها بين عرب الجاهليَّة (ص ١٢١–١٢٢ و ١٣٢–١٣٣). أمَّا اسم مَرْقُس هذا فذكرهُ في التاج (٤: ١٦٣) فقال: «مَرْقَس كمَقْعَد بفتح الميم والقاف ويقال بضمّ القاف مَرْقُس». (قلنا) وهذا الصواب وهو اسم نصرانيّ صريح وتعريب اسم الانجيليّ الشهير القديس مَرْقُس (١. (قال) «واسمهُ عبد الرحمان» (قلنا) وفي هذا دليل على انَّ النصارى كانوا يتَّخذون لهم اسمَين اسماً في العماد يدلُّ على نصرانيَّتهم واسماً آخر يُعرَفون بهِ. وهكذا كان يفعل بزماننا ايضاً كثيرون من النصارى. وقال في التاج انَّ الصواب في اسمه «عبد الرحمان بن مَرْقُس» امَّا في الحماسة فقال «انَّ اسمهُ عبد الرحمان ولقبهُ مرقس»

وقد ذكر المبرّد نسبهُ في الكامل (٥٦٣–٥٦٤) وابو تمام في الحماسة (ص ٢٩٧) قالا: «كان من طيّ واسمهُ عبد الرحمان احد بني مَعْن بن عَتُود اخي بُحتُر ثم احد حُتَيّ (ويروى حُيَيّ) بن مَعْن من بني طيّ كابي زُبيد السابق ذكرهُ وقد أجمع الكتبة كلهم بانهُ «شاعرٌ طائيّ» لكنَّهم لم يرووا لهُ من الشعر الَّا ابياتاً من الرجز اثبتها ابو تمَّام في حماستهِ (ص ٥٦٣–٥٦٣) قالها في لقاء بني مَعْن الحَروريَّة والحروريَّة قوم من الخوارج قاتلوا عليّ بن ابي طالب مع نَجْدة بن عامر الحنفيّ نُسبوا الى حَرُوراء قرية تبعد ميلَين عن الكوفة كانوا اجتمعوا فيها فقال مَرقس يذكر قومهُ (من الرَّجز):

قد قارَعَتْ مَعْنٌ قِراعاً صُلْبَا　　قِراعَ قومٍ يُحسنون الضَّربَا

---

١) ومن الشعراء النصارى الذين ذكرناهم سابقًا في «شعراء النصرانيَّة» (ص ٢٨٢) المرقَّش الاكبر. ولهُ ابن اخٍ يُعرف بالمرقَّش الاصغر قالوا انهُ دُعي بذلك لبيت قالهُ:

الدارُ قفرٌ والرسومُ كما　　رقَّشَ في ظهر أديمٍ قلَم

ولعلَّ الصواب انَّ «المرقّش» صورةٌ اخرى لاسم «مرقس»

تَرَى مع الروعِ الغُلامَ الشَّطْبا اذا أحسَّ وَجَعاً او كَرْبَا (١

دَنَا فـما يزدادُ إلّا قُرْبَا تَمَرُّسَ الجَرْباءِ لاقَتْ جُرْبا (٢

هذا ما امكنَّا الوقوف عليهِ من اخبار وشعر هذا الطائيّ اثبتناهُ هنا مع قلّتهِ

٧ نابغة بني شيبان

﴿ اسمهُ ونسبهُ ﴾ ذكرهُ ابو الفرج في الاغاني (٦ : ١٥١) فقال : « اسمهُ عبدالله ابن المخارق بن سليم بن حضيرة بن قيس بن سنان بن حمَّاد بن جارية بن عمر بن ابي ربيعة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن عليّ بن ابي بكر بن وائل » ثمَّ أوصلهُ بربيعة بن نزار . وقد وقع بعض اختلاف باسمهِ ونسبهِ . قال السيوطي في المزهر (٢ : ٢٢٩) عن ابن دريد « نابغة بني شيبان جمل بن سعدانة » (كذا) . ودعاهُ الزمخشري في الكشَّاف (ص ٤١) : « النابغة الذهليّ » وفرق بينهُ وبين النابغة الشيباني الـذي يدعوهُ « جمل بن سعد » . ودعاهُ صاحب مجموعة المعاني (ص ١٤٠) « عبيدالله بن مخارق » وسمَّاهُ كثيرون « مخارق » . وجاء في تاج العروس (٦ : ٣٢) انهُ « عبدالله بن مخارق بن سليم بن حصرة (وفي ديوانهِ : خضرة) بن قيس بن شيبان (لا سنان كما ورد في الاغاني) بن حمّاد بن حارثة (لا جارية كما ذُكر في الاغاني . وروى في ديوانهِ : « بن حارث ») ولم يذكر « ذهلاً » في السلسلة

﴿ جنسهُ ودينهُ ﴾ قال في الاغاني : انهُ « شاعر بَدَوي » . كان يُقيم كما نظنّ في حدود الشام مع قومهِ بني شيبان ويتردَّد على مدنها . فهو يذكر في شعرهِ دمشق وبعلبك . امَّا دينهُ فقال عنهُ ابو الفرج : « وكان فيما ارى نصرانيًّا لاني وجدتُهُ في شعرهِ يحلف بالانجيل وبالرهبان وبالأيمان التي يحلف بها النصارى » . وكذلك قال الصفدي في الوافي بالوَفَيات (Ms de Paris, 2432, f. 79) : « قيل انهُ كان نصرانيًّا » . ويدعوهُ عبد العزيز بن مروان (الاغاني ٦ : ١٥٢) « بابن النصرانيَّة »

---

١) الشَّطب السَّبْط العظام الخفيف اللحم . (قال) واكثر ما يستعملون هـذا الوصف بالماء يقولون فرسٌ شَطْبَة ٢) اي لا يتأخر عن الدنوّ من العـدوّ بل يزداد مع الروع اقترابًا لمحاربتهِ . والتمرُّس التحكُّك . اي تمرُّس المِثْل بمثلهِ كالشاة الجرباء اذا لاقت مثلها

﴿زمانهُ واخبارهُ﴾ نبغ نابغة بني شيبان في اواخر القرن الاوّل وفي القسم الاوّل من القرن الثاني للهجرة اعني ختام القرن السابع وفي شطر من القرن الثامن للمسيح. قال صاحب الاغاني: «كان النابغة من شعراء الدولة الامويّة وكان يفد الى الشام الى خلفاء بني اميَّة يمدحهم فيجزلون عطاءهُ . . . ومدح عبدالملك بن مروان ومَنْ بعدهُ من ولدهِ»

ومن اخبارهِ مع عبدالملك (٦٥–٨٦ هـ = ٦٨٥–٧٠٥م) ما حدَّث بهِ العُمَري عن العُتْبي (الاغاني ٦: ١٥١) والصفدي في فوات الوفيات قالا: لمَّا همَّ عبدالملك بخلع اخيهِ عبد العزيز وتولية الوليد ابنهِ العهدَ وكان نابغة بني شيبان منقطعاً الى عبدالملك دخل اليهِ في يوم حَفْل والناس حواليهِ وولدهُ قدَّامهُ فمثَلَ بين يديهِ وانشدهُ قصيدة طويلة رواها جامع ديوانهِ واقتطف منها ابو الفرج والصفديّ بعضها هذا اوَّلها (من المنسرح):

اشتَقْتَ وانهلَّ دمعُ عينك إذْ اضحى قِفارًا من اهلهِ (١ طَلَحُ
بسابسٌ دارُها ومَعدِنُها تُمسي خلاءً وما بها شَبَحُ
كأنَّهُ لم يكن بها احدٌ فالقلبُ من قَلْب مَنْ نأى قَرِحُ

ثم انتقل من وصف الاطلال الى ابتعادهِ عنها راكباً ناقتهُ السريعة فبلغت بهِ الى الممدوح فقال وهو يذكر انتصار عبدالملك على ابن الزبير ويحضُّهُ على تولية ابنه الوليد بعدهُ:

فكم وردْنا من منهلٍ أَبِدٍ اعذبَ ما تستقي بهِ المُتُحُ
آمِلُ فضلًا من سيبِ منتجَعٍ اياهُ يَنوي الثناءُ والمِدَحُ
أَزَحتَ عنَّا آلَ الزُّبيرِ ولو كانوا هم المالكين ما صَلَحوا (٢
تسوسُ اهلَ الإسلامِ عُمْلَتُهم (٣ وانت عند الرحمان منتصحُ
إن تلقَ بَلْوى فانت مُصطبرٌ (٤ وان تُلاقِ النُّعمى فلا فَرِحُ

١) وفي ديوانهِ: انشقتَ . . من خلَقٍ ٢) وفي الديوان: ولو كان امام سواك ما صلحوا ٣) العُملة والعِملة أجر العمل ٤) وفي الديوان: فصابرٌ أُنُفٌ

ترمي بعيْنَي أروى على شُرَفٍ ... لم يُودِهِ عائرٌ ولا لَمَحوا (١
تبينُ فيهِ عُنقُ الأعاصي كما ... يبينُ يوماً للناظر الصُبحُ
آلُ ابي العاصِ اهلُ مأثرةٍ ... غُرٌّ عِتاقٌ بالخيرِ قد نَفَحوا (٢
خيرُ قُريشٍ وهم أفاضلُها ... في الجدّ جِدٌّ وان هُمُ مَزَحوا
أرحَبُها ذَرعاً وأخيرُها ... انتم (٣اذا القومُ في الوغى كَلَحوا
أمّا قُرَيشٌ فانت وازعُها (٤ ... تكفُّ من شَغْبهم اذا طَمَحوا
حَفِظتَ ما ضيَّعوا وزَندهمُ ... أوريتَ إنْ أصلدوا وان قَدَحوا (٥
مناقبُ الخير انت وارثُها ... والحمدُ ذُخرٌ تُغلَى بهِ الرِبَحُ
آليتُ جُهدًا وصادقٌ قَسَمي ... بربِّ عبدٍ تَجُنُّهُ الكُرَحُ (٦
يَظَلُّ يتلو الانجيلَ يدرسهُ ... من خشيةِ الله قلبُهُ طَفِحُ (٧
لَابْنُكَ أولى بمُلكِ والدهِ ... وعَمُّهُ ان عصاكَ مُطَّرَحُ (٨
داوُدُ عَدْلٌ فاحكُمْ بسيرتهِ ... وآلُ مَروانَ كانوا قد نَصَحوا (٩
فهم خيارٌ فاعمَلْ بسُنّتهم ... وأحيِ بخيرٍ وا كدَحْ كما كَدَحوا

راجع ما قلنا في ما رُوي من هذه الابيات لاعشى بني ربيعة (ص ١٣٢)

(قال) فتبسَّم عبدالملك ولم يتكلَّم في ذلك بإقرار ولا دَفْع فعلم الناس انَّ رأيَهُ خلعُ عبدالعزيز. وبلغ عبدَ العزيز قولُ النابغة فقال: لقد ادخَلَ ابنُ النصرانيَّة نفسهُ

١) وفي الديوان: لعينَيْ أقنى .. لم يودهِ عائدٌ ولا لحُ ٢) روى الصفدي: قد لقحوا ٣) وفي الديوان: واصبرها صبرًا ٤) وفي الاغاني: فانت وارثُها. تكفُّ عن صعبهم ٥) وفي الديوان: إذ اصلدوا وقد قدحوا ٦) وفي الاغاني تصحَّح هذا الشطر فرواهُ: لربّ عبدالله ينتصحوا. ورواهُ الصفدي: بربّهِ عبدالله ينتصحُ. والكُرَح جمع كِرْح وهو الدير وبيت الراهب ٧) وفي الديوان: فهو يتلو. قلبهُ فضحُ. وروى الصفدي: وقلبهُ قَرِحُ. وفي البيت شاهد على نصرانيَّة الشاعر ٨) وفي الاغاني: ونجمُ من قد عصاك ٩) وفي الاغاني: ثمّ ابنُ حربٍ فانّهم نصحوا

مدخلًا ضيّقاً واوردها مَورِدًا خطِرًا وبالله عليَّ لئن ظفرتُ به لأخضبنَّ قدمهُ بدمهِ

وفي السنة ١٠١هـ(٧٢٠م) تولّى الخلافة يزيد بن عبدالملك فارسل اخاهُ مسيلمة لمحاربة يزيد بن المهلّب وكان الخليفة ناقمًا عليهِ وهو قد فرَّ من سجن سلفهِ عمر بن عبد العزيز وخرج مع آل المهلّب وتفاقم امرهُ فغلبهُ مسيلمة وقطع رأسهُ وارسلهُ الى يزيد اخيهِ سنة ١٠٢ (٧٢١م) فدخل النابغة الشيباني عليهِ وانشدهُ قصيدةً في تهنئتهِ بالفتح رواها جامع ديوانهِ وهي تزيد عن مئة بيت واختار منها صاحب الاغاني وصاحب الحماسة البصريّة وغيرهما بعض ابياتها. اوّلها (من الوافر) :

ألا طالَ التنظُّرُ والثواءُ وجاء الصيفُ وانكشفَ الغطاءُ

وليس يُقيمُ ذو شَجَنٍ مقيمٌ ولا يمضي اذا ابتُغيَ المَضاءُ (١

طِوالَ الدهرِ إلّا في كتابٍ ومِقدارٍ يوافقُهُ القَضاءُ (٢

فما يُعطَى الحريصُ غِنًى لِحرصٍ وقد يُنمَى لذي الجودِ الثراءُ

وفي هذه القصيدة حكمٌ جليلة يروي الادباء ابياتاً منها يتمثّلون بها كقولهِ :

غِنى نفسٍ اذا استغنَتْ غَناءٌ وفقرُ النفس ما عَمِرَتْ شَقاءُ

اذا ٱستحيا الفتى ونَشا بحِلمٍ وساد الحيَّ خالفَهُ السَّناءُ

وليس يَوَدّ ذو ولدٍ ومالٍ خفيفَ الحِلم ليس لهُ حَياءُ

ومَنْ يكُ حَيّاً لم يلقَ بؤساً يُنِخْ يوماً بعَقْوتهِ البَلاءُ (٣

تَعاوَرُهُ بناتُ الدهرِ حتى تُثَلِّمَهُ كما انثلَمَ الإناءُ

وكلُّ شديدةٍ نزَلتْ بحيٍّ سيأتي بعد شدّتها الرَّخاءُ

١) وفي الديوان : اذا ابتنا (كذا) ٢) وفي التاج (١٠ : ٢٩٦) بقدارٍ (قال) : والقضاء الحكمُ الفصل وأدان الدين ٣) روى في الحماسة البصريّة (٤ : ٢٤٠) : ومن يكُ سالمًا . ويروى : ومن يكُ ذا حياً . ويروى : «بحومتهِ» بدل عقوتهِ

فقل للمتَّقي عَرْضَ المنايا(١ توَقَّ فليس يَنفعك اتّقاءُ
ولا تبكِ المصابَ فايُّ حيٍّ اذا ما ماتَ يُحْييهِ البكاءُ
وقُلْ للنفس: مَنْ تُبْقي المنايا ؟ فكلُّ الناس ليسَ لهم بقاءُ
تَعَزَّيْ بالأسى في كلّ حيٍّ فذلك حين ينفعُها العَزاءُ
ستَفْنى الراسياتُ وكلُّ نفسٍ ومالٍ سوف يبلغُهُ الفناءُ
يُعمَّرُ ذو الزمانةِ وهو كَلٌّ على الادنى وليس لهُ غَناءُ
ويَرْدَى المرءُ وهو عميدُ حيٍّ ولو فادَوْهُ ما قُبِل الفِداءُ
اذا حانت منيّتُهُ وأَوصى فليس لنفسهِ منها وَقاءُ
وكلُّ أُخوَّةٍ في الله تَبقى وليس يدومُ في الدنيا إخاءُ
أَصِبْ ذا الحِلْم منك بسَجْلِ وُدٍّ وصِلْهُ لا يكن منك الجَفاءُ
ولا تَصِلِ السفيهَ ولا تُجِبْهُ فانَّ وِصالَهُ داءٌ عَياءُ (٢
وانَّ فِراقَهُ في كلّ امرٍ وَصرْمُ حبالِ(٣ خِلّتهِ شِفاءُ
وضيفَكَ ما عَمِرتَ فلا تُهِنْهُ وآثِرْهُ وان قَلَّ العَشاءُ
ولا تجعَلْ طعامَ الليلِ ذُخرًا حِذارَ غدٍ لكلِّ غدٍ غِذاءُ
وكلُّ جِراحةٍ تُوسى فتَبرَا ولا يَبرا اذا جرَحَ الهِجاءُ
يؤثّر في القلوب لهُ كُلومٌ كداء الموتِ ليس لهُ دواءُ
من الشعراء أَكْفاءٌ فُحولٌ وفَرّاثون إنْ نَطقوا أَساؤوا

١) وفي ديوانه: حَذَث المنايا ٢) كذا في حماسة البحتري (ع ٣٢٢) وفي الديوان: فانَّ وصال ذي الخزَيات داءٌ. الخزْية العيب ٣) وفي حماسة البحتري: وقطعُ حبال

فهل شِعْرانِ شعرٌ غِناً وحُكمٍ   وشعرٌ لا يَهيجَ بِهِ سَواءُ
فان يكُ شاعرٌ يَعْوي فاني   وجدتُ الكلب يقتُلُهُ العَوَاءُ

وفيها يقول يمدح يزيد :

أؤمُّ فتًى من الاعياص مَلْكاً   أغرَّ كأنَّ غُرَّتَهُ ضِياءُ
لِأَسْمِعَهُ غريبَ الشعر مَدْحاً   وأُثني حيث يتَّصلُ الثناءُ (١
يزيدُ الخيرِ وهو يزيدُ خيرًا   وينمي كلّما ابتُغِيَ النَّماءُ
الى الشُّمِّ الشَّمارخ من قُرَيْشٍ   تَجوَّبَ عن ذوائبها العَماءُ (٢
قريشٌ تبتغي المعروفَ قِدْماً   وليس كما بَنَيْتَ لها بناءُ
فَضَضْتَ كتائب الازديِّ فضّاً   بِكَبْشك حين لَقَّها اللقاءُ (٣
وعادتُهُ اذا لاقى كباشاً   فناطَحَهُنَّ قتلٌ واحتِواءُ
أَبدتَّ عدوَّهم وعفوتَ عفوًا   بهِ حُقِنَتْ من الناسِ الدماءُ
سَمَكْتَ لهم بإِذْنِ الله مُلْكاً   كما سُمِكَتْ على الارضِ السماءُ
واحيَيْتَ العطاءَ وكان مَيْتاً   ولا واللهِ ما حُمِيَ العطاءُ
ففي كلِّ القبائل من مَعَدٍّ   ومن يَمَنٍ لهُ ايضاً حِباءُ
وَصَلْتَ اخاكَ وهو وليُّ عهدٍ   وعند الله في الصِلة الجزاءُ
نُرَجّي ان تكون لنا إماماً   وفي مُلك الوليد لنا الرجاءُ (٤
هشامٌ والوليدُ وكلُّ نفسٍ   تريد لك الفَناءَ لك الفداءُ (٥

١) وفي الديوان : غريب الشعر غرًّا . حيث يتصلُ   ٢) قال ويروى : يجوبُ على دوائبها العماء . والعماء السحاب الرقيق   ٣) يريد يزيد بن المهلب . ويروى : بكبشك وهو بغيتهُ اللقاءُ   ٤) اراد الوليد ابن الخليفة يرجو لهُ الخلافة بعد ابيهِ بنبذ حقوق اخوي الخليفة هشام والوليد ابني عبدالملك   ٥) في الاغاني : تريد لك الفناء (كذا)

وانت ابنُ الخلائفِ من قُريشٍ نَموكَ وفي عَداوتهم إباءُ
إمامُ الناس لا ضَرعٌ صغيرٌ ولا قَحمٌ يُثلِّمُهُ الزكاءُ
على الأعياص عندكَ حين تُغفي لممتدحٍ من الثمن الغَلاءُ
ومحتبطين من بلدٍ بعيدٍ عَبأتَ لهم سِجالكَ حين جاؤوا
كشفتَ الفقرَ والإقتار عنهم فنالوا الخير وانكشفَ الغطاءُ
فعيصُكَ خيرُ عيص في قريشٍ وهم من كلّ سَيئاتٍ بَراءُ
أُولاكَ السابقونَ بكلّ خيرٍ اذا كَذَبَ المسبّقةَ البِطاءُ

وقد روى البحتري في حماستهِ (ع ١٢٢٤) بيتين من هذه القصيدة لم نجدهما في الديوان وهما :

وكائنْ قد تراهُ يُسِرُّ أمرًا عليهِ من سريرتهِ لِواءُ
ومُظهِرِ عارفٍ ومُسِرِّ سوءٍ وما يَمحو سريرتَهُ الرِّئاءُ

قال ابو الفرج(٦ : ١٥٢) : فامر لهُ (يزيد) بمائة ناقة من نَعَم بني كَلْب وأن تُوقَر لهُ بُرًّا وزبيباً وكساهُ واجزل صِلَتَهُ

(قال) ووفد النابغة الى هشام لما وليَ الخلافة (١٠٥—١٢٥هـ = ٧٢٤—٧٤٣م) فلمّا رآهُ زجرهُ وشتمهُ ثمَّ قال: الستَ القائل :

هشامٌ والوليدُ وكلُّ نفسٍ تريد لكَ الفَناءَ لكَ الفداءُ

أَخرجوهُ عني والله لا يرزأُني شيئاً ابدًا. وحرمهُ ولم يزل أيامـهُ طريدًا حتى ولي الوليد بن يزيد (١٢٥—١٢٦ هـ = ٧٤٣—٧٤٤ م) فوفد اليـهِ ومدحهُ مدائح كثيرة فأجزل صِلَتَهُ

وممّا اخبرهُ في الاغاني (٦ : ١٥٣) انَّ ابا كامل مولى الوليـد بن يزيد غنَّى يوماً بحضرتهِ ابياتاً في مديح الخمرة فسأل الوليد عن قائل هذا الشعر فقيل نابغة بني شيبان

فامر باحضاره فاحضرهُ فاستنشدهُ القصيدة فانشدهُ اياها وظنَّ انَّ فيها مدحاً لهُ فاذا هو يفتخر بقومهِ ويمدحهم فقال لهُ الوليد: لو سَعَدَ جدُّك لكانت مديحًا فينا لا في بني شيبان ولسنا نُخليك على ذلك من حظٍّ. ووصلهُ وانصرف. واوَّل هذه القصيدة (من الرمل) :

حلَّ قلبي من سُلَيمى نَبلُها اذ رمَتني بسِهامٍ لم تَطِشْ

وفيها وصفُ الخمرة :

أيها الساقي سقتْك مُزْنَةٌ (١ من ربيعٍ ذي أهاضيبَ وطَشْ
إمدَحِ الكأسَ ومَن أعملها واهجُ قوماً قتلونا بالعطَشْ
انما الكأسُ ربيعٌ باكرٌ فاذا ما غابَ عنَّا لم نَعِشْ (٢
وكأنَّ الشَّرْبَ قومٌ مُوتوا مَن يَقُم منهم لأمرٍ يرتعش
خُرُسُ الأَلسُن ممَّا نالهَم بين مصدوعٍ وصاحٍ مُنتَعِشْ (٣
من حُمَيا قَرْقفٍ حُصِّيَّةٍ قهوةٍ حَولِيَّةٍ لم تمتَحِشْ (٤
ينفعُ المزكومَ منها ريحُها ثمَّ تشفي داءهُ ان لم تَنِشْ (٥
كلَّ من يشربُها يألفُها يُنفِق الاموالَ فيها كلَّ هَشْ

وفيها يقول مفتخرًا بقومهِ بني شيبان :

---

١) وفي الديوان : سقتْهُ مزنة ٢) في هذين البيتين غناء لابي كامل قال في الاغاني: «ولحنُهُ المختار من خفيف الثقيل الثاني بالوسطى وهو الذي تسمّيهِ الناس اليوم الماخوري» ٣) وفي الديوان: ممَّا صاجم. وفي الاغاني: بين مصروعٍ ٤) الحُصِّيَّة اي الشبيهة بالحصّ وهو الزعفران. ولم تمتحش لم تصبها النار ٥) وفي الاغاني: تنفي داءهُ. قال في الديوان: لم تَنِشْ من النَّشْوة. وفي قولهِ نظر. لان النَّشْوة من نَشَا نَشْوًا اي سكر. ونشَّ هنا مضاعف يقال نشَّ النبيذ اذا غلى وذهب ماؤه

وبنو شيبــانَ حولي عُصَبٌ منهمُ غُلْبٌ وليسوا بالقُمُشْ (١

ورَدوا المَجْد وكانوا اهلَــهُ فرَوُوا والمجدُ عافٍ لم يُنَشْ (٢

وترى الجُرْدَ لــدى أبياتهم كرِبابٍ بين صَلصال وجَشّ (٣

فيها يَحوون اموال العــدى ويصيدون عليها كلَّ وَحْشْ

دَمِيَتْ أكفالُها من طعنهم بالرُّدَينيَّات والخيــلِ النُّجُشْ

نُنهِل الخَطّيَّ من اعدائنا ثمَّ نفري الهامَ إن لم تَفترِشْ (٤

ذاكَ قولي وثنــائي وهمُ اهلُ ودّي خالصاً في غيرِ غِشّ

فسَلُوا شيبانَ ان فارقتُهم يوم يمشون الى قبري بنَعْشْ

هل غَشِينا مَحْرماً من قومنا او جزَينا جازياً فُحْشاً بفُحْشْ

ما احسن هذا الختام وفيهِ دليل واضح على نصرانيَّة شيبان العاملين بوصيَّـة السيد المسيح وامرهِ بمحبَّة الاعداء.

قال ابو الفرج (٦: ١٥٤) وممَّا يُغنَّى فيهِ من شعر نابغــة شيبان وذكر يونس انَّ فيهِ لحناً آخر لابن عائشة. والقصيدة في ديوان النابغة تُنيف على ستين بيتاً اختار منهـا في الاغاني ثمانية وننتقي منها ما يلي (من مجزوء الرمل) :

ذرَفتْ عيني دموعاً من رُسومٍ بحَفيرِ

مُوحِشاتٍ طامساتٍ مثــل آيات الزُّبُورِ

غيَّرَتهــا في سُفورٍ مرُّ ايَّام الــدهورِ

١) وفي الديوان: حولي منهم خَلَفٌ . والقُمُش الرعانف ٢) ويروى: والجود عافٍ . لم يُنَش اي لم يُنَل ولم ينقص ٣) وفي الديوان: وترى الخيل . . . كلّ جرداء وشاحيٍ هَمِش ٤) اي نسقي في الحرب رماحنا الخطّيَّة من دماء اعدائنا ثمَّ نقطع رؤوسهم ان لم تخضع لنا

جـادَهـا كلُّ مُلِثٍّ ذي اهاضِيبَ مَطيرِ
واذا النَّكباءُ هاجت لَعِبتْ فيهـا بِمُورِ
وَجَنُوبٌ وشَمـالٌ وَصَباً بعد الـدَّبُورِ
قـد اذاعَتْ برسومٍ لا تَبيـنُ لِـبَصيرِ
بُدِلَ الرَّبْعُ وحوشاً من كبـيرٍ وصغيرِ
ذاكَ من بعـد حِلالٍ وأنيسٍ وعُمورِ
وهِجـانٍ وقيـانٍ وقِبابٍ كالقصورِ
وخُيـولٍ أرِنَاتٍ من إناثٍ وذكورِ
وَسَماحيجَ سِراعٍ مثلَ عُقْبانٍ كُسورِ
وحِسانٍ آنسـاتٍ وعَذارى في خُدورِ
قـاصراتٍ ناعمـاتٍ في نعيمٍ وسرورِ
ليس من يذكرُ هذا يا لَـقومِ بصَبُورِ
وكهولٍ قـد أراهم كخضاريمِ البُحورِ
ورجـالٍ لم يَشيبوا وشَبـاب كالصُقورِ
كم تَرى فيهم نـديماً من رئيسٍ كالاميرِ
ذي عَطـاءٍ وغَنـاءٍ مُحْسنٍ نَسْجَ الامورِ
قـائدٍ جيشاً هُمـاماً عند حـلّ ومَسيرِ
لَجِباً يُسْمعُ رِزًّا عنـد طعنٍ ونفـيرِ

فـاذا تَندو شبـاباً كلٌّ ميمونٍ هَصُورِ
ركبوا كلَّ عَلَنْدَى ذي أفانينَ صَبُورِ
فـاذا لاقوا اسودًا أوعدَتْ أُسدًا بزِيرِ
طاعَنوا بعد رِمـاءٍ وضرابٍ بالذكورِ
ومن النـاسِ غنيٌّ ذو سَوامٍ وقُـدورِ
ووسيطٌ في زَمـاعٍ ذو معـاشٍ وفقيرِ
كلُّ باغي الخيرِ يوماً راكبُ الهَولِ الكبيرِ

﴿شعرهُ﴾ استحقَّ عبدالله بن مخارق الشيبـاني ان يدعوهُ قومهُ نابغةَ لجودة شعرهِ الجامع بين المتانة والانسجام . وديوانهُ قد نجا من آفات الـدهر منهُ نسخةٌ في مكتبة مصر المعروفة سابقاً بالخديويَّة عنها نُقلت نسخة مكتبتنا الشرقيَّة . وهي تتألَّف من ٤٦ صحيفة اعني ٩٢ صفحة وفي الصفحة ١٥ بيتاً ومجموع قصائد الديوان عشرون عدًا . على انَّ هذه النسخة سقيمة لا بُدَّ من نسخةٍ ثانية لإصلاح ما وقع فيها من التصحيف والتحريف . وهـا نحن نروي منها بعض المقاطيع التي تشهد لقائلهـا بالذكاء والقريحة الشعريَّة . وقد وجدنا في كتب الادباء ابياتاً ومقاطيع ليست في هذا الديوان فنروي منها ما نرى من ايرادهِ فائدةً . فمن شعر النابغة الشيباني المختار قصيدتهُ البائيَّة في مديح يزيد بن عبدالملك اوَّلها (من البسيط) :

بان الخليطُ فشَطُّوا بالرَّعـابيبِ وهنَّ يُؤبَنَّ بعـد الحُسن بالطِيبِ
فهيَّجوا الشوقَ اذ خَفَّتْ نَعامتُهم وأورثوا القلبَ صَدْعاً غيرَ مَشْعوبِ

وهي طويلة منها قولهُ في كوارث الدهر :

ما يَطْلُبِ الدهرُ تُدرِكْهُ مَخـالبُهُ والدهرُ بالوِترِ ناجٍ غيرُ مغلوبِ

يُبْلي الشبابَ فينفي الشيبُ بهجتَهُ والدهرُ ذو الغُوص يأتي بالاعاجيبِ
هل من أناسٍ أولي مجدٍ ومأْثرةٍ إلاَّ يَشُدُّ عليهم شَدَّةَ الذيبِ
حتى يُصيبَ على عهدٍ خيارَهُمُ بالنافذاتِ من النَّبْلِ المَصاييبِ
انّي وجدتُ سهامَ الموتِ مَعْدنُها بكل حَتْمٍ من الآجال مكتوبِ
والدهرُ حالانِ همٌّ بعدَهُ فَرَحٌ وفَرْحةٌ بعدها همٌّ بتغييبِ
من يَلْقَ بَلْوى يَنَلْهُ بعدَها فرَجٌ والناس من بينِ ذي رَوْحٍ ومكروبِ
وبينِ داعٍ الى رُشْدٍ صحابَتَهُ وبينِ غادٍ وذي مالٍ ومحروبِ
والعيشُ طِبْيانِ طِبْيٌ ثَرٌّ حالِبُهُ وطِبْيٌ جَدّاءُ ذاوٍ غيرُ مَحْلوبِ

ومن حِكَمها الصبية :

عاتِبْ أخاكَ ولا تُكْثِرْ مَلامَتَهُ وزُرْ صديقَكَ رِسْلًا بعد تغييبِ
وان عُنيتَ بمعروفٍ فقُلْ حسناً ولا تَهُنْ عن ذوي ضِغْنٍ لتهييبِ
لا تحمَدَنَّ امرءًا (١ حتى تجرّبَهُ ولا تَذُمَّنَّهُ من غير تجريبِ
انَّ الغلامَ مطيعٌ مَن يؤدِّبُهُ ولا يُطيعُكَ ذو شَيْبٍ لتأديبِ

ومنها في مدح يزيد :

وان رحلتَ الى مَلْكٍ لتمدحَهُ فارْحَلْ بشِعْرٍ نقيٍّ غيرِ مَخْشوبِ
وامدَحْ يزيد ولا تَغْلُ بمِدحتِهِ وقُدْ أوائلَها قَوْدًا بتشبيبِ
انَّ الخليفةَ فرعٌ حينَ تَنْسُبُهُ من الأعاصر هَيْجا غيرِ مَنْسوبِ
يَنْميهِ حَرْبٌ ومَرْوانٌ وأصلُهُما الى جراثيمِ مجدٍ غيرِ مأشوبِ

١) ويروى : لا تمدحنَّ فتى

نَمَاكَ أَرْبعةٌ كانوا ائمّتَنا فكان مُلْكك حقّاً ليس بالحُوبِ (١
اعطاكَ مُلكاً وتقوى انت سائلُهُ بعد الفضائلِ مَن أوخى الى النُّوبِ (٢
أَبلجُ كالبَدْرِ عالي الهمّ مختلِفٌ يُنْمَى الى الأَبطحيَّات المصاعيبِ
بحرٌ نمتْهُ بُحورٌ غيرُ ساجيةٍ تلك المخاصيبُ ابناءُ المخاصيبِ
قومٌ بمكّةَ في بطحائها وُلدوا ابناءُ مكّةَ ليسوا بالأَعاريبِ
الاكثرونَ اذا ما سال مَوْجُهمُ بكلِّ أَصْيَدَ سامي الطَّرْفِ هَبْهوبِ (٣
والضاربون من الابطال هامَهُمُ ضرباً طِلَخفاً وَهَكاً غيرَ تذبيبِ (٤
انت ابن عاتكةَ الميمونِ طائرُها امّ الملوكِ بني العزّ المناجيبِ
اذا الملوكُ جرت يوماً لَمكرُمةٍ جَرْيَ المحاضيرِ حُثَّتْ بالكلاليبِ
جريتَ جَرْيَ عتيقٍ لم يكن وَكِلًا بَذّ العَناجيجِ سبقاً غيرَ مضروبِ

ومن قصائده الغرّاء داليّتهُ الشهيرة التي اوّلها (من الوافر) :

أَتَصْرِمُ أَم تُواصِلُكَ النَّجُودُ (٥ وليس لها وإن وصلَتْكَ جُودُ

وفيها يقول في وصف حدثان الدهر :

وعَوْضُ الدهرِ بالانسانِ جَمٌّ فما للشامتين بهِ خُلودُ
وكلٌّ مُنعَّمٍ واخي شقاءٍ ومُثرٍ والمُقِلُّ معاً يَبيدُ
اذا ما ليلةٌ مرّتْ ويومٌ أَتى يومٌ وليلتُهُ جديدُ

١) الحوب الإثم ٢) النُّوب النحل ٣) الهبهوب الخفيف
٤) الطلخف والطلّخف الشديد. وَهَكَهُ هدّه
٥) النجود المرأة العاقلة النبيلة

أَباد الأَوَّلين وكلَّ قرنٍ وعادًا مثل ما بادت ثمودُ
ولا يُنجي من الآجالِ ارضٌ يُحَلُّ بها ولا القصرُ المَشيدُ
ولا يُحيي الجبانَ حِذارُ موتٍ ويَبلغُ عُمرَهُ البطلُ النَّجيدُ

ومنها في مدح التقى ومصاحبة الأخيار :

ولستُ ارى السعادةَ جمعَ مالٍ ولكنَّ التقيَّ هو السعيدُ
وتقوى الله خيرُ الزادِ ذُخرًا وعند الله للأتقى مزيدُ
فصاحِبْ كلَّ أروعَ دَهثميٍّ (١ ولا يَصحَبْكَ ذو الجهلِ البليدُ
يرى ما نال غُنماً كلَّ يومٍ صَفاةٌ حين تَخبُرهُ صليدُ
وشرُّ مُصاحِبٍ خَلْفٌ قَسيٌّ ونِعمَ الصاحبُ الخُلقُ السديدُ

ومن هجائها :

فما بالي وبالُ بني لَكاعٍ عليَّ لهم اذا شَبِعوا فَديدُ
اذا ما غبتُ عنهم أَوعدوني وايُّ الناسِ يقتُلُهُ الوَعيدُ
متى ما يسمعوا رِزّي يدينوا (٢ كما دانت لسيِّدها اليهودُ
كأنَّهمُ لقد جَشِعوا وذلّوا مخافةَ أن أُجدِّعهم سُجودُ
بهرتُهمُ وأُفحِمَ ناطِقوهم كما بَهَرَ المُحمَّلةَ الصُّعودُ (٣

ومن فخرها قولهُ في بني شيبان :

---

١) الدهثميّ السَّهل الخُلق اللَّين العريكة
٢) الرزّ الصوت الخفيف تسمعهُ من بعيد
٣) شبَّه اعداءهُ بالابل الموقورة تكلُّ صعودًا . ويروى : وأُفحمُ ناطقيهم

نفى عني العدوَّ قُرَاسِياتٌ (١ قُرومٌ من بني شَيبانَ صِيدُ
فنهم حين تنتطح النواحي اذا اُذْكِرَ المآثرُ والعَديدُ
فَقرونٌ وحارثةُ بنُ عمرو هما الفرعانِ مجدُهما تَليدُ (٢
وَبِسْطامٌ تَغمَّطَ والمُثَنَّى بهِ قُضَّتْ من الفُرْس الجُنودُ (٣
وعَوفٌ (٤ المآثراتِ وكلّ عهدٍ وَفيٌّ حين تُنتقَضُ العهودُ
وذو المأنى ابو حربِ بن عوفٍ مَعاذتُهُ تُفَكُّ بها القُيودُ (٥
وكان الحَوفزانُ شهابَ حربٍ رئيسَ الناس مُتَّبعاً يقودُ (٦
وفكَّاكُ العُناةِ ابو ثُبَيْتٍ يزيدُ بعدَهُ منَّا يزيدُ (٧
وعُدَّ أبا الوَجيهةِ في نُجومٍ نجومُ حَمَّةٌ تلك السعودُ (٨
قَبيصَةُ وابنُ ذي الجَدَّين فيهم (٩ وأشرسُ والمُحَبَّةُ (١٠ والشريدُ (١١
وعمروٌ والأَغَنُّ عميدُ حيٍّ وكلٌّ في أَرُومتهِ عَميدُ (١٢

١) القُراسيات الابل الشديدة الضخمة شبَّه بها قومَهُ ٢) هما مفروق من بني ابي ربيعة وحارثة بن عمرو بن ابي ربيعة الشيباني ذو التاج كان على بكر بن وائل يوم أُوارة حين قاتلوا المنذر بن ماء السماء ٣) هو بسطام ذو الجدَّين. والمثنَّى هو ابن حارثة الشيباني ٤) عوف من بني هند ٥) جاء في اصل الديوان: المأنى الانتظار. والمأنى جد الأناة والحلم. معاذتهُ اي كان الرجل اذا أثرَهُ قال: عذتُ بفلان وابو حرب هو ابن عوف من بني هند ٦) هو الحوفزان بن شريك واسمهُ الحارث. وابوه شريك بن مَطَر من معن بن زائدة كان أكبر الناس عند المنذر (الاشتقاق لابن دريد)

٧) ابو ثُبَيْت هو يزيد بن مسهر من بني همام بن مرَّة. ويزيد ابو حوشب ابنهُ

٨) ابو الوجيهة ركضة بن ركضة بن النعمن وهو من بني سعيد بن همام بن قبيصة بن ابي ربيعة ٩) قال ابن الأثير في المرصَّع (ص ٧٠): « ذو الجدَّين هو قيس بن مسعود بن قيس بن خالد الشيباني وهو والد بسطام بن قيس سُمّي بهِ لانهُ كان أَسَرَ اسيرًا لهُ فداء كبير فقال رجلٌ: انهُ لذو جَدٍّ في الأسر اي حظٍّ فقال آخر: انهُ لذو جدَّين

١٠) وأشرس من بني هند. والمحبَّة من بني ربيعة ١١) الشريد من بني مرَّة بن همام وهو خالد بن السفاحة من بني مرَّة ١٢) الأغنّ احد بني حارثة بن وهل ابو حماس بن زيد بن خُلَيد احد بني الورثة

وسادَ ابنُ القُرَيمِ وكان قَرْماً أخا حربٍ يُشَبُّ لها الوَقُودُ (١
وحمَّالُ المِئِينَ ابو حِماسٍ اثابَ بها اذا ضَلِعَ اللَّهِيدُ
وجادَ ابنُ الحُصَيْنِ وكان بحرًا والمَزْهازِ عند الجَهْدِ جُودُ (٢
ومَصْقَلةُ الذي أجدى وأعطى لهُ من مَدِّ عافيةٍ وُرُودُ (٣
بهِ عُتِقَ السَّبايا بعد رِقٍّ اذا أبطَتْ فكاكَهُمُ الوُفودُ
جلودُهُمُ من العَثَراتِ مُلْسٌ نقيَّاتٌ اذا دَنِسَ الجُلودُ
أولئك أسرتي سأذودُ عنهم اذا ما خامَ عنهمْ مَن يَذُودُ
بغُرٍّ من قَوافٍ نافِذاتٍ جَوارِحَ في الصُّدورِ لها خُدودُ
فخيرُ الشعرِ أكرمُهُ رجالاً وشرُّ الشعرِ ما نَطَقَ العبيدُ

وللنابغة من قصيدة يذكر فيها الخالق عزَّ وجلَّ ويحضّ الانسان على الصلاح (من الطويل) :

وتُعجِبُني اللذَّاتُ ثمّ تَعُوجُني وتَسْتُرُني عنها من الله ساتِرُ
فقلتُ وقد مرَّت حتوفٌ بأهلها ألا ليس شيءٌ غيرَ ربّيَ غابِرُ
هو الباطنُ الربُّ اللطيفُ مكانُهُ وأوّلُ شيءٍ ربُّنا ثمّ آخِرُ
كريمٌ حليمٌ لا يُعقَّبُ حكمُهُ كثيرُ ايادي الخيرِ للذنبِ غافِرُ
يُقيم حَصادَ الزرعِ بعد ارتباعِهِ فتفنى قرونٌ وهو للزرعِ آبِرُ
ومن يُعنى بالأخبارِ عن مَن يَرُومُها فانّي بما قد قلتُ في الشعرِ خابِرُ

١) ابن القريم من بني تَيم بن شيبان وهو سلَمة بن ثمامة
٢) هو عمرو بن الحصين احد الاحلاف من بني عمرو بن همام . والمزهاز من بني ابن همّام
٣) مصقلة من بني ثعلبة بن شيبان . عافٍ وعافية من عفوتُهُ واعتفيتهُ اذا اتيتَهُ

ألا أيها الانسانُ هل انت عاملٌ   فانك بعد الموت لا بُدَّ ناشرُ
ألم ترَ انَّ الخير والشرَّ فتنةٌ   ذخائرُ مجريٌّ بهنَّ ذخائرُ
ومن يعملِ الخيرات اويخطَ خالياً   يُجازَ بها أيام تُبلَى السرائرُ
وجدتُ الثَّرا ثمَّ المُصيباتِ كُلَّها   يجيءُ بها بعد الإلهِ المقادِرُ
فإنْ عُسْرةٌ يوماً اضرَّت بأهلها   أتتْ بعدَها من غير شكٍّ مياسرُ (١
ونازلِ دارٍ لا يُريد فِراقَها   ستُظْعِنهُ عمَّاً يريدُ الجرائرُ
ومن يُنصِفِ الأقوامَ ما كان قاضياً   وكلُّ امرئ لا يُنصفُ الناسَ جائرُ (٢
ويُعذَرُ ذو الذَّنب المُقرُّ بذنبهِ   وليس لمن يُغضي على الذنبِ عاذِرُ (٣

ومن جيّد شعر النابغة لاميّتهُ التي مدح فيها يزيد اولها (من الخفيف) :

أذِنَ اليومُ جيرتي بارتحالِ   وبيْنٍ مودّعٍ وارتجالِ

وهي طويلة ومن حكمها قولهُ :

يا بُنَيَّ أستمعْ فذا وعظُ شيخٍ   عَجمَ الدهرَ في السِّنينَ الطوالِ
كلُّ عيشٍ ولذَّةٍ ونعيمٍ   وحياةٍ تودي كفَيءِ الظِلالِ
كفَّني الحلمُ والمشيبُ وعقلي   ونهى الله عن سبيلِ الضلالِ
وأرى الفقرَ والغنى بيد الله   م وحَتْفَ النفوسِ في الآجالِ
ليس ماءٌ يَرْوَى بهِ مُعتفوهُ   وإتِناً لا يَغُورُ كالأوشالِ
قد يغيضُ الفتى كما يَنقُصُ البدْ   رُ وكلٌّ يصيرُ كالمُستحالِ
فمُحاقٌ هذا وهذا كسيرٌ   بعد ما كان ناشئاً كالهلالِ
ليس يُغني عنهُ النسيجُ ولا البرْ   جُ ولا مُشفقٌ كريمُ الفعالِ

١) ويروى: اتت بعدها عمّاً وُعدنا المياسرُ   ٢) ويروى: لم يأتِ قاضيا . . .
لا ينصفُ اللهَ   ٣) هذه رواية حماسة البحتري . وفي الديوان : ويُعذر ذو الدين المطلوب بدينهِ وليس لامرٍ يظلم الناس عاذرُ

ليس حيٌّ يبقى وان بلغ الكِبْر ۔ ةَ إلَّا مصيرُهُ للزَّوالِ
إن تَمُتْ أنفسُ الانام فانَّ ۔ ـمَ اللهَ يبقى وصالحَ الاعمالِ
كلُّ ساعٍ يسعى ليُدْرِكَ شيئاً ۔ سوف يأتي بسَعْيِهِ ذا الجَلالِ
فهمُ بين فائزٍ نال خيرًا ۔ وشقيٍّ اصابَهُ بنكالِ
انَّ مَنْ يركبُ الفواحش سِرًّا ۔ حين يخلو بسرّهِ غيرُ خالِ
كيف يَخْلو وعندهُ كاتباهُ ۔ شاهداهُ وربُّهُ ذو المِحالِ (١
فاتّقِ اللهَ ما استطعتَ وأَحسِنْ ۔ انَّ تقوى الإلهِ خيرُ الخِلالِ

ومنها في مديح يزيد بن عبدالملك الخليفة :

تبتغي من يزيدَ فضلَ يديهِ ۔ اريحيًّا فَرْعاً سمينَ الفَعالِ
حَكَمياً بين الأعاصي وحربٍ (٢ ۔ أَبطحيَّ الأَعمام والاخوالِ
امَّـهُ مَلْكَـةٌ نمتها ملوكٌ ۔ وهي اهل الإِكرام والإِجلالِ
تلك امٌّ كَسَتْ يزيدَ بهاءً ۔ او جمالًا يَبُذُّ كلَّ جمالِ
وابوهُ عبدُ المليك نماهُ ۔ زادَ طولًا على الملوك الطِوالِ
فهو مَلْكٌ نَمَتْهُ ايضاً ملوكٌ ۔ خيرُ من يَحتذي رِقاقَ النِعالِ
حالفَ المجد عبشمياً إماماً ۔ حلَّ دارًا بها تكونُ المَعالي
أُعطِيَ الحِلمَ والعفافَ معَ الجو ۔ دِ ورأياً يفوقُ رأيَ الرجالِ
وحباهُ المليكُ تقوى وبِرًّا ۔ وهو من سُوس ناسكٍ وفِحالِ
يقطعُ الليلَ آهَةً وانتحاباً ۔ وابتهالًا للهِ ايَّ ابتهالِ
تارةً راكعاً وطورًا سجودًا ۔ ذا دموعٍ تنهلُّ ايَّ انهلالِ
عادلٌ مُقسِطٌ وميزانُ حقٍّ ۔ لم يَحِفْ في قضائهِ للمَوالي

١) ذو المِحال اي شديد العقوبة. ويروى: ذو الجلال . وأراد بالكاتبين ملاكين صالح وطالح يراقبان الانسان لتدوين اعمالهِ الحسنة والسيئة او هما ناكر ونكير ٢) م اجداد بني امية

مُوفياً بالعهودِ من خَشيـةِ اللّٰه م ومن يُعفِهِ يَكُنْ غيرَ قـالِ
مُحسنٌ مُجمِلٌ تقيٌّ قويٌّ وهو اهلُ الاحسانِ والاجمالِ
وهو إن يَعفُـهُ فِئامٌ شعوبٌ يبتدي المُعتفين قبل السؤالِ
ويَذُدْ عنهمُ الخَلالـةَ منـهُ بسِجـالٍ تَغدو أمـامَ سجالِ

وقال في الخليفة عمر بن عبد العزيز (من الخفيف) :

نحو عبدِ العزيز ما تطعَمُ النَّو مَ ومنها بعد الرَّواح البُكورُ
وهُوَ الثـالثُ الخـليفـةُ للّٰه م امـامٌ لـلمؤمنين امـيرُ
ان ارادوا التُّقَى بـهِ فتَـقيٌّ او ارادوا عـدلًا فليس يجورُ
ولـدتهُ الملوكُ مَلْكاً هُمـاماً فهو بدرٌ غمَّ النجومَ مُنيرُ
حَكَماً يُراحُ للمجـد فَرعـاً موفيـاً بالعُهود حين يُجيـرُ
معشرٌ مَعْـدِنُ الخـلافةِ فيهم بدؤها منهمُ وفيهم تَحُورُ
لا يرومنَّ مُـلْكهم آدميٌّ انَّ من رامَ ملـكَهم مغرورُ
إبنَ أُمِّ البنين انت فتى النا سِ وانتَ الموفَّقُ المـأجورُ

ومن مديحه للخليفة الوليد (من الكامل) :

تنوي وتنتجعُ الوليدَ خليفةً يُعفَى بذلك جُهدُها وجَمامُها
ملكٌ اغرُّ نمـا الملـكِ كفُّهُ خيرُ العطاء بدورُها وسَوامُهـا
تَندى اذا بَخِلَ الاكفُّ ولا تُرى تعلو براجمَ كفِّهِ إبهامُهـا
وهو الذي يُمسي ويُصبح مُحسناً شتَّى لهُ نِعَمٌ جَدًا إنعامُهـا

واذا قريشٌ سابقتْك سبقتها بقديمٍ أُولاها وانت قِوامُها
واذا قناة المجدِ حاولَ اخذَها فبطول بَسْطتهِ يُدَدُّ جِسامُها
انت الذي بعد الإِله هديتَها ان خاطرَتْكَ بالقداحِ قوامُها
فورثتَ قائدها وفُزْتَ بقدحها وخصمتَ لُدًّا لم تَهُلْكَ خصامُها

قد سبق ما رويناهُ عن ابي الفرج الاصفهاني في نصرانيَّة النابغة الشيباني على انَّ في ديوانهِ قصيدةً تدلُّ على انهُ ارتدَّ للاسلام وذلك في قصيدة فائيَّة قالها في مديح الوليد . ومن المحتمل ان الوليد جذبهُ بالوعد او بالوعيد الى جحود دينه ولنا في تاريخهِ ما يُثبت تشدُّدهُ على النصارى والله اعلم . وهذه بعض ابيات تلك القصيدة (من البسيط) :

انَّ الوليدَ اميرَ المؤْمنين لهُ حقٌّ من الله تفضيلٌ وتشريفُ
خليفةٌ لم يَزَل يجري على مَهَلٍ اغرُّ تَنمي بهِ البِيضُ الغطاريفُ
لا يُخمِدُ الحربَ إِلَّا رَيثَ يوقدُها في كلّ فجٍ لهُ خيلٌ مَسانيفُ
يحوي سبياً فيُعطيها ويقسمها ومن عطيّتهِ الجُرْدُ السراعيفُ
اخزى طَرَنْدَةَ منهُ وابلٌ بَرَدٌ وعسكرٌ لم تَفُزْهُ العُزّلُ الجُوفُ(١
مازالَ مسلمةُ (٢الميمونُ يَحصُرها وركنُها بثقال الصخرِ مقذوفُ
وقد احاطت بها ابطالُ ذي لَجَبٍ كما أَحاط برأسِ النَّخلة الليفُ
حتَّى علَوا سُورَها من كلّ ناحيةٍ وحان مَنْ كان فيها وهو ملهوفُ
فاهلُها بين مقتولٍ ومُستَلَبٍ ومنها موثَقٌ في القِدّ مكتوفُ

١) قال في الديوان : « طَرَنْد ملك الروم » والصواب ان طرندة مدينة كانت على ثلث مراحل من مَلَطية . والجُوف جمع أجْوف وهو من لا عقل لهُ ٢) هو مسلمة بن عبدالملك

يا أيها الاجدعُ الباكي لمسلكهم هل بأسُ رَبِّكَ عن مَن نام مصروف
تدعو النصارى لنا بالنصر ضاحيةً والله يعلمُ ما تخفي الشراسيفُ
قلّعتَ بيعتهم عن جوفِ مسجدنا فصخرُها عن جديدِ الارضِ منسوفُ(١
كانت اذا قام اهلُ الدين فابتهلوا باتت تجاوبنا فيها الأساقيفُ
فاليوم فيهِ صلاةُ الحقّ ظاهرةٌ وصادقٌ من كتاب الله معروفُ
فيهِ الزَبَرْجدُ والياقوتُ مؤتلفٌ والكأسُ والذهبُ العِقْيانُ مرصوفُ
ترى تهاويلَهُ من نحو قُبْلتنا يلوحُ فيهِ من الالوان تشويفُ
يكادُ يُعشي بصيرَ القوم زِبْرِجُهُ حتى يكادَ سوادُ العين مطروفُ
وفضّةٌ تُعجبُ الرائينَ بَهجتُها كريهُا فوق اعلاهنّ معطوفُ
وقبّةٌ لا تكادُ الطيرُ تبلغُها أعلى محاريبها بالساج مسقوفُ
لها مصابيحُ فيها الزيتُ من ذهبٍ يُضيء من نورها لُبنانُ والسِيفُ
فكلّ أفنائهِ والله زيّنهُ مُبطّنٌ برخام الشام محفوفُ
في سُرّةِ الارض(٢ مشدودٌ جوانبهُ وقد أحاط بهِ الانهارُ والريفُ
فيهِ المثاني وآياتٌ مفصَّلَةٌ فيهنّ من رَتَبٍ وعدٌ وتخويفُ
تمّت قصيدة حقٍّ غير ذي كذبٍ في حوكها من كلام الشعر تأليفُ
قوّمتُ منها فلا زيغٌ ولا أوَدٌ كما اقام قنا الخطّيِّ تثقيفُ

---

١) يشير الى ما فعلهُ الوليد اذ اغتصب نصارى دمشق على كنيستهم الكبرى فحوّلها جامعاً (الجامع الاموي)

٢) سُرّة الارض اي جوفها . ويروى : سُتْرة

فهذا الوصف الجميل للجامع الاموي كما اصلحهُ الوليد وجمَّلهُ بضروب المحاسن الهندسيَّة من اقدم وادقّ ما انشدهُ فيهِ احد الشعراء المعاصرين . وممَّا قالهُ في سيرهِ في انحاء الشام (من الوافر) :

أَرِقتُ وصاحِبيَّ بِعَلْبَكِّ وأَرَّقني الهمومُ مع التشكّي

ومنها في رسوم الدار واطلالها :

وكم مِن دونها من خَرْقِ تِيهٍ ومن رَمْـلٍ ومن جبلٍ ودَكِّ
غَشِيتُ لهـا رسومـاً دارساتٍ بأسفَـلَ لَعْلَعٍ من دون أَرْكِ
تُغيّرهـا الرياحُ وكلُّ غَيْثٍ لهُ حَبْكٌ رُواءٌ بَعْدَ حَبْكِ
وقفتُ بها ودمعُ العين يجري تحادُرَ لُؤلؤٍ من وَهْيِ سِلْكِ
ومَن يَسَلِ الرسومَ فـلا تُجِبْهُ يَحِنَّ كما حننتُ بهـا ويبكي

ومن حِكَمِهِ ايضاً ما ورد في اوَّل قصيدة ديوانه التي بدؤُها (من الطويل) :

أَرِقتُ وشرُّ الـداء همٌّ مؤرِّقُ كأَني اسيرٌ جانِبَ النومَ مُوثَقُ

وفيها يقول ويؤْخذ منهُ انَّ نابغة بني شيبان هو المدعو بالنابغة البكريّ :

وقال العدوُّ والصديقُ كلاهما لنابغةَ البكريِّ شعرٌ مُصدَّقُ
فأَحكَمُ أَلبابِ الرجالِ ذوو التُّقى وكلُّ أمرئٍ لا يتَّقي اللهَ احمقُ
وللناسِ أَهواءٌ وشتَّى همومُهم تُجَمَّعُ احياناً وحيناً تُفرَّقُ
وزرعٌ وكلُّ الزرعِ يُشبِهُ أَصلَهُ همُ وُلِدوا شتَّى مَليسٌ ومُمْحَقُ
فذو الصوتِ لا يجني عليهِ لسانُهُ وذو الحِلْمِ مَهدِيٌّ وذو الجَهْلِ أخرَقُ
ولستُ وان سُرَّ الاعالي بهالكٍ وليس يُنَجِّيني من الموتِ مُشفِقُ

ومن قوله في بلايا الدهر (من الطويل) :

ما الناسُ الّا في رِماقٍ وصالحٍ ... وما الدهرُ الّا خِلْفةٌ ودُهورُ

مَراتبُ إمّا البؤسُ منها فزائلٌ ... وكلُّ نعيمٍ في الحياةِ غُرورُ

فذو الشرِّ لا يبقى ولا الخيرُ دائمٌ ... وكلُّ زمانٍ بالرجالِ عَثُورُ

متى يَختلفْ يومٌ عليك وليلةٌ ... يَلُحْ منهما في عارضَيْكَ قَتيرُ

جديدانِ يُبْلَى فيهما كلُّ صالحٍ ... حَثيثانِ هذا رائحٌ وبَكُورُ

وأعلمُ أنْ لا شيء يبقى مؤمَّلًا ... خلا أنَّ وجهَ اللهِ ليس يبورُ

وكلُّ امرئٍ ان صحَّ او طال عمرُهُ ... الى ميتةٍ لا بُدَّ سوف يصيرُ

يؤمّلُ في الأيّام ما ليس مُدرِكًا ... وليس لهُ من ان يَنالَ خفيرُ

وكائنْ تَرى من كاملِ العقلِ يُزدرَى ... ومن ناقصِ المعقولِ وهو جَهيرُ (١

ومنهم قصيرٌ رامَ مجدًا فنالَهُ ... وآخرُ هَيْقٌ في الحفاظِ قصيرُ

ومن طالبٍ حقًّا بفُحْشٍ يفوتُهُ ... ويُدركهُ بالحقِّ وهو سَتيرُ

ومن اقوالهِ ايضاً في الدهر وحدثانهِ (من البسيط) :

كم من مؤمِّلِ شيءٍ ليس يُدرِكهُ ... والمرءُ يُزري بهِ في دهرهِ الأَمَلُ

يرجو الثَراءَ ويرجو الخُلْدَ مجتهدًا (٢ ... ودونَ ما يُرتجى الاقدارُ والأَجلُ

والدهرُ يُبْلي الفتى حتى يُغيّرَهُ ... كما تَغيَّرُ بعد الجِدَّةِ السَّمَلُ

كلُّ المصائبِ ان جلّتْ وان عَظُمت ... الّا المصيبةَ في دينِ الفتى جَلَلُ

ومنها في مدح مسلمة بن عبد الملك بن مروان :

---

١) رواهُ في حماسة البحتري (ع ٦٨٦) : وهو طريرُ

٢) كذا روى البحتريُّ في حماسته (ع ١٤٤) وفي الديوان : ذو املٍ

يَنوونَ مُسلمةَ الفيَّاضَ نائلُهُ وكَعْبُهُ في يَفاعِ المجد معتدِلُ
صُلْبُ القَناةِ رباً والحزمُ شيمَتُهُ فليسَ في امرهِ وَهْنٌ ولا هَزَلُ
قضاؤهُ مستقيمٌ غيرُ ذي عِوَجٍ فليس في حكمهِ حَيْفٌ ولا مَيَلُ
القائلُ الفَصْلُ والميمونُ طائرُهُ فليس في قولهِ هَذْرٌ ولا خَطَلُ
لا ينقُضُ الامرَ إلّا ريثَ يُبْرِمُهُ وليس يَثْنيهِ عن أمرِ التُّقى كَسَلُ
انَّ الذين بهم يرمون صخرتَهُ لن يبلغوهُ وان عزُّوا وان كَمَلوا
لن يُدرِكوكَ ولم يَلحقْكَ سُوْؤُهمُ حتى يُوَلَّجَ سمَّ الإبرةِ الجملُ(١)

ومن قصائده المستحسنة فائيَّتهُ التي اوَّلها (من البسيط) :

بانَ السَّفاءُ(٢) وأودى الجهلُ والسَّرَفُ وفي التُّقى بعد إفراط الفتى خَلَفُ
وقد كَساني شيباً قد غنيتُ بهِ مرُّ الليالي مع الأيّام تختلفُ
قالت ليَ النفسُ سرًّا اذ خلوتُ بها والنفسُ صادقةٌ لو انَّها تقفُ
انَّ الشبابَ جنونٌ شَرْخُ باطلهِ يقيمُ غضاً زماناً ثمَّ ينكشفُ
ذَرِ الشبابَ فلا تتبع لذاذَتَهُ انَّ الذي يتبعُ اللذّاتِ مُقترِفُ
من يَعْلُهُ الشيبُ لم يُحدِثْ لهُ عِظَةً فذاكَ من سُوسهِ الإفراطُ والعَنَفُ
فلا تَهابنَّ أسفارًا وإن بَعُدَتْ إن هابها عاجزٌ في عُودهِ قَصَفُ
قد يَرجِعُ المرءُ لا تُرجى سلامتُهُ وقد يُصيب طويلَ القعدةِ التَّلَفُ

ومَّا يروى لنابغة بني شيبان عبدالله بن مخارق (في حماسة البحتري ع ١٢٧٦) ولم نجدهُ في ديوانهِ قولهُ في سكوتهِ عن جواب الجاهل (من الطويل) :

سأمنعُ نفسي رَفْدَ كلِّ بخيلِ وأحبِسُ نُطقي عن جوابِ جهولِ

١) هو تشبيه مستعارٌ من الانجيل

٢) قال الانباري في الاضداد (ص ٦٥٩) : السَّفاء الخفّة والطيش ممدود

فـانَّ الجَهولَ لا يُرَدُّ كلامُـهُ وليس سبيلُ الجاهلين سَبيلي

وروى لهُ ايضاً البحتري (ع ٢٥٣ و ٨١١) يوصي بمؤاخاة الصالحين والابتعاد عن ذوي النميمة (من الوافر) :

عليـك بكلّ ذي حسَبٍ ودِينٍ فانّهمُ همُ اهـلُ الوفـاء

وإنْ خُيِّرتَ بينهـمُ فَـلاصِقْ باهـل العقـل منهمُ والحيـاء

فانَّ العقلَ ليس لهُ اذا مـا تفاضَلَتِ الفضـائلُ من كِفـاء

ولا تَثِـقَنَّ بالنَّمَّـامِ فيما حَباكَ من النصيحةِ في الخَـلاء

وأيقِنْ أنَّ مـا أُفضِي اليـهِ من الأسرارِ مُنكشِفُ الغطَـاء

وقال الدينوري في تاريخهِ المعنون بالاخبار الطوال (ed. Guirgas, p 197) :

« كتب معاوية الى عليّ : انّما مَثَلي ومثل عثمان كما قال مخارق (من الطويل) :

فَمَهما تَسَلْ عن نصريَ السَّيدَ لا تجدْ لدى الحربِ بيتَ السَّيدِ عندي مُذَمَّما

فكتب اليهِ عليّ : اني عارضٌ عليك ما عرض مُخارق على بني فـالج قال (من الطويل) :

يا راكبـاً إمّـا عرضتَ فبلّغَنْ بني فالجٍ حيثُ استقرَّ قَرارُهـا

هَلُمُّوا الينا لا تكونوا كأنّكمْ بَلاقِعُ ارضٍ طارَ عنها غُبارُهـا

سُلَيمُ بنُ منصورٍ أُناسٌ أَعِزَّةٌ وأرضُهمُ ارضٌ كثيرٌ وَبارُها

وكذلك روى لهُ في اللسان في مادّة نمى (٢٠ : ٢١٨) قولهُ ممّا لا ذكر لـهُ في ديوانهِ يصف ما في شعرهِ من الهجو الحادّ (من الوافر) :

وقافيـةٍ كأنَّ السمَّ فيهـا وليس سليمُها ابـدًا بنامي

صرفتُ بها لسانَ القوم عنكُم فخَرَّتْ للسنابكِ والحوامي

(قال) النامي الناجي. وروى لهُ ياقوت في معجم البلدان(١ : ٧٤٢و٣ : ٦١ وفي المشترك ص ٦٦) قولهُ (من البسيط) :

أرى البَنانَةَ أقوتْ بعدَ ساكِنها فـذا سُدَيرٌ وأقوى منهمُ أُقُرُ

(قال) البنانة ارضٌ من بلاد غطفان . والبنانة ايضاء ماء لبني جَذيمة. والسُدَيْر موضع في ديار غطفان وقيل قاع بين البصرة والكوفة . وأُقُرُ جبل

٨ حُنَين الحيري الشاعر المغنّي

﴿تعريفهُ ودينهُ﴾ قال ابو الفرج في الاغـاني (٢ : ١٢٠) : « حُنَيْن بن بلُّوع الحيري مختلَفٌ في نسبهِ فقيل انهُ من العِباديّين وقيل انهُ من بني الحرث بن كعب وقيل انهُ من قوم بقوا من جديس وطسم فنزلوا في بني الحرث بن كعب فعُدُّوا فيهم . ويكنَّى ابا كعب وكان شاعرًا مغنيًا فحلًا من فحول المغنّين ولهُ صنعة فاضلة متقدّمة وكان يسكن الحيرة ويكري الجمال الى الشام وغيرها وكان نصرانيًّا » (١

وقال صاحب مسالك الابصار (Ms du Caire, 336-337) في فصلهِ الـذي خصَّهُ بمشاهير اهل الموسيقى : « حُنَيْن الحيري مُطرِب لا يرتفع اليهِ رأس مُطرِق ، ولا يتقع معهُ املُ متشوّق ، من سُراة اهل الغناء ، وبُراة الطرب للعناء ، يكاد سامعهُ يخرُج من إهابهِ ، ويُحرَق بالتهابهِ ، ما حرَّك عودَهُ الَّا فهم ، ولا بنَت شفتـهِ الَّا في نَعَم ، لو سمعهُ جبلٌ لتحرَّك ، او دخل في أُذن سوقةٍ لظنَّ انهُ قد تملَّك »

﴿اخبارهُ﴾ لحنين الحيري النجفي العِباديّ اخبار كثيرة تولّى جمعها اسحاق بن ابرهيم الموصلي في كتاب دعاهُ « اخبار حنين الحيري » ذكرهُ ابن النديم في الفهرست (ص١٤١) وذكر ايضاً كتاباً آخر مثلهُ (ص١٤٨) لابي أيوب المدائنيّ يُستدلُّ بهما على مقام حنين . واليهِ تُنسب الحُنَيْنيَّات التي ورد ذكرها في شعر دعبل الخزاعي في هجوهِ لابرهيم بن المهديّ المغني الشهير وكان البعض بايعوهُ بالخلافة فأتاهُ قومٌ ينتجعون عطاءهُ وهو لا يستطيع ان يرفدهم بشيء . فقال دعبل يهجو ابرهيم :

يا معشر الاجنـاد لا تقنطوا وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تُعطَون حُنَيْنيَّـةً يلتذُّهـا الأَمردُ والاشمطُ
والمَعبـديّاتُ لقوّادكم لا تدخلُ الكيس ولا تُربَطُ
وهكـذا يُرزَقُ قوّادَهُ خليفـةٌ مُصحَفهُ البربَطُ

قالوا الحُنَينيّات اغاني منسوبة الى حنين النجفيّ العباديالمغني الشهير . والمَعبديّات

١) اطلب المجلّة الاسيويّة الفرنسويّة Jour. As., 1872², 425-433

منسوبة الى مَعبَد المغني والبربط آلة تشبهُ العود فارسي معرَّب (نزهة الجليس ١: ٢٦٧— ٢٦٨)

سبق قول ابي الفرج انَّ حنيناً كان شاعراً ومغنياً. امَّا شعرهُ فلم يبقَ منهُ الَّا القليل. وامَّا غناؤهُ فكثير ولهُ الاصوات المتعددة التي ذكرها في الاغاني في اماكن عديدة منها. وربَّما كان يتغنَّى بشعرهِ وهو القائل يصف الحيرة ومنزلهُ فيها قال (من المنسرح):

اَنا حنينٌ ومَنزِلي النَّجَفُ (١ ... وما نديمي الَّا الفتى القَصِفُ

أَقرعُ بالكاس ثغرَ باطيةٍ (٢ ... مُترَعةٍ تارةً وأَغترفُ

من قهوةٍ باكَرَ التِجارُ بها ... بيتَ يهودٍ قرارُها الخزَفُ

والعيشُ غضٌّ ومنزلي خَصِبٌ ... لم تَغْذُني شقوةٌ ولا عَنَفُ (٣

فالشعر والغناء كلاهما لحنين

ومن اخبار حنين ما رواهُ عنهُ حمَّاد الراوية قال (الاغاني ٢: ١٢٢) : قرأتُ على ابي عن المدائني قال: كان حنين غلاماً يحمل الفاكهة بالحيرة وكان لطيفاً في عمل التحيَّات. فكان اذا حمل الرياحين الى بيوت الفتيان ومياسير اهل الكوفة واصحاب القيان والمتطربين الى الحيرة ورأوا رشاقتهُ وحسن قدهِ وحلاوتهُ وخفَّة روحهِ استحلوهُ واقام عندهم وخفَّ لهم. فكان يسمع الغناء ويشتهيهِ ويُصغي اليهِ ويستمعهُ ويطيل الاصغاء اليهِ فلا يكاد ينتفع بهِ في شيء اذا سمعهُ حتى شدا منهُ اصواتاً فأسمعها الناس وكان مطبوعاً حسن الصوت واشتهوا غناءهُ والاستماع منهُ وعِشرتهُ وشُهر بالغناء وسهر فيه وبلغ منهُ كثيراً. ثمَّ رحل الى عمر بن داود الوادي والى حكَم الوادي واخذ منها وغنَّى لنفسهِ في اشعار الناس فاجاد الصنعة واحكمها ولم يكن بالعراق غيرهُ فاستولى عليهِ في عصرهِ

وجاء في اخبار حنين لابي ايوب المدائني. انَّ ابن محرز احد كبار المغنين قَدِم وقتئذٍ الكوفة وبها الامير بشير بن مروان وقد بلغهُ انهُ يشرب الشراب ويسمع الغناء فصادفهُ قد خرج الى البصرة وبلغ خبرُهُ حنينَ بن بلُّوع فتلطَّف لهُ حتى دعاهُ

١) روى البكري في معجم ما استعجم: وداريَ النجفُ

٢) ويروى: اقرعُ بالكأس بطنَ باطيةٍ ٣) ويروى: فالعيش غضٌّ . . . لم يترني

فغنّاهُ ابن محرز لحناً من جيّد الاغاني فسمع حنين شيئاً هالَهُ وحيَّرهُ فخشي ان يعرفهُ الناس فيستحلونهُ ويستولي على البلد فيسقط هو فقال لابن محرز : كم مَنَّتْكَ نفسك من العراق . قال : الفَ دينار . فقال : فهذه خمسمائة دينار حاصلة عاجلة ونفقتُك في عَوْدتك وبداءتك ودَع العراق وامضِ مُصاحَباً حيث جئتَ واحلفْ انك لا تعود للعراق . (قال) وكان ابن محرز صغير الهمَّة لا يحبّ عِشرة الملوك ولا يؤثر على الخلوة شيئاً فاخذها وانصرف

وقد اخبر حمَّاد الراوية عن حنين (الاغاني ٢ : ١٢١) انَّ هشام بن عبد الملك حجَّ مع عديلهِ الابرش الكلبيّ فوقف لهُ حنين بظهر الكوفة معهُ عودهُ وزامرٌ لهُ وعليهِ قلنسوة طويلة . فلمَّا مرَّ بهِ هشام عرض لهُ فقال : من هذا ؟ فقيل لهُ : حنين . فأمر بهِ فحُمل في محمل على جمل وعديلهُ زامرهُ وسيَّرهُ امامهُ وهو يتغنَّى (من مجزوء الوافر) :

أمِنْ سَلْمى بظَهْرِ الكو فةِ الآياتُ والطَلَلُ
يلوحُ كما تلوحُ على جفونِ الصَيْقَلِ الخَلَلُ

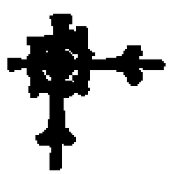
(قال) فلم يزل هشام يستعيدُ الصوت حتى نزل من النجف فامر لهُ بمائتي دينار وللزامر بمائة

واخبر اسحاق الموصلي (الاغاني ٢ : ١٢٢–١٢٣) انَّ والي العراق خالد بن عبدالله القسري حرَّم الغناء بالعراق في ايَّامهِ . ثمَّ أذِنَ للناس يوماً في الدخول عليهِ فدخل حنين ومعهُ عودهُ تحت ثيابهِ فقال : أصلحَ الله الامير كانت لي صناعة أعودُ بها على عيالي حرَّمها الامير فاضرَّ بي وبهم . فقال : وما صناعتك ؟ فكشف عن عودهِ وقال : هذا . فقال : غنِّ . فحرَّك اوتارهُ وغنَّى (في شعر عدي بن زيد العبادي) :

أيها الشامتُ المعيِّرُ بالدهـ ـرِ أأنتَ المُبرَّأُ الموفورُ
ام لديكَ العهدُ الوثيق من الأيَّـ ـامِ بل انت جاهل مغرورُ
مَنْ رأيتَ المنونَ خلَّدنَ ام مَنْ ذا عليهِ من ان يُضامَ خفيرُ

(قال) فبكى خالد وقال : « قد اذنتُ لك وحدك خاصَّةً فلا تجالسنَّ سفيهاً ولا معربدًا » . فكان اذا دُعي قال : أفيكم سفيه او معربد ؟ فاذا قيل لهُ : لا . دخل

ومن ظريف ما رُوي عن الشعبيّ انهُ قال (الاغاني ٢ : ١٢٣) : لمَّا ولي بشر بن




مروان الكوفة كنتُ على مظالهِ فأتيتهُ عشيَّةً وحاجبهُ أعيَن صاحب «حمَّام أعيَن» جالسٌ فقلتُ: «أَعْلِمْهُ وخلاكَ ذمٌّ فقد حدثَ امرٌ لا بُدَّ لي من انهائهِ اليهِ» وكان لا يجلس بالشعبيّ. فقال: لا ولكن اكتُبْ ما حاجتك في رقعةٍ حتى أوصلها اليهِ. فكتبتُ رقعةً فما لبث ان خرج التوقيع على ظهرها: ليس الشعبيّ ممَّن يُحتشم منهُ. فأذن لي فقال: ادخل. فدخلتُ فاذا بشر بن مروان عليه غِلالة رقيقة صفراء ومُلاءة تقوم قياماً من شدَّة الصِقال وعلى رأسهِ اكليل من رَيحان وعلى يمينهِ عِكرمة بن ربعيّ وعلى يسارهِ خالد ابن عتَّاب بن ورقاء واذا بين يديهِ حُنين بن بلُّوع معهُ عودُهُ. فسلَّمتُ فردَّ عليَّ السلام ورحَّب وقرَّب ثمَّ قال: يا ابا عمرٍو لو كان غيرك لم آذن لهُ على هذه الحال. فقلتُ: أصلح الله الامير عندي لك الستر لكلّ ما ارى منك والدخول معك فيما لا يجمُل والشكر على ما توليني. فقال: كذاك الظنُّ بك. ثمَّ التفتُّ الى حنين وعودُهُ في حِجرهِ وعليهِ قَباء خشك شوى (وقال اسحاق: خشكون) ومنَشَّة حمراء وخُفَّان مكعَّبان فسلَّم عليَّ فقلتُ لهُ: كيف انت يا ابا كعب؟ فقال: بخيرٍ ابا عمرو. فقلتُ: أحزق الزير وأرخِ البمّ. ففعل وضرب فاجاد. فقال بشر لاصحابهِ: تلومونني على ان آذن لهُ في كلّ حال. ثمَّ اقبل عليَّ فقال: ابا عمرٍو ومن اين وقع لك حَزق الزير؟ فقلتُ: ظننتُ انَّ الامر هناك. قال: فانَّ الامر كما ظننتَ هناك كلهُ. ثمَّ قال: فمن اين تعرف حنيناً؟ فقلتُ: هذا بطَّةُ أعراسنا فكيف لا أعرفهُ. فضحك وغنى حنين فاجاد فطرب الامير وامر لهُ بجائزة ثمَّ ودَّعتُهُ وذلك بعد ان ذكرتُ لهُ ما جئتُ فيهِ فامر لي بعشرة آلاف درهم وعشرة اثواب فقمتُ مع الخادم حتى قبضتُ ذلك منهُ وانصرفت

وقد جرى لحنين مع اهل حمص فصلٌ مضحك اخبر بهِ فقال (الاغاني ٢: ١٢٣): خرجتُ الى حمص التمس الكسبَ بها وأرتاد مَن استفيدُ منهُ شيئاً. فسألتُ عن الفتيان واين يجتمعون فقيل لي: عليك بالحمَّامات فانهم يجتمعون بها اذا أصبحوا. فجئتُ الى احدها فدخلتُ فاذا فيها جماعة منهم فأنِستُ وانبسطتُ واخبرتهم انّي غريب ثمَّ خرجوا وخرجتُ معهم فذهبوا بي الى منزل احدهم. فلمَّا قعدنا أُتينا بالطعام فاكلنا وأُتينا بالشراب فشربنا فقلتُ لهم: هل لكم في مغنٍّ يغنّيكم؟ قالوا: ومن لنا بذلك؟ قلتُ: انا لكم هاتوا عوداً. فأُتيتُ بهِ فابتدأتُ في هنيَّات ابي عُباد مَعبَد. فكأنَّما غنَّيتُ للحيطان لا فكِهوا لغنائي ولا سُرُّوا بهِ. فقلتُ: ثقُلَ عليهم غناء معبد لكثرة

عمله وشدَّته وصعوبة مذهبه. فأخذتُ في غناء الثريض فاذا هو عنــدهم كلا شيء. وغنَّيتُ خفائف ابن سُريج واهزاج حكَم والاغاني التي لي واجتهدتُ في ان يفهموا فلم يتحرَّك من القوم احد وجعلوا يقولون: ليتَ ابا مُنبه قد جاءنا. فقلتُ في نفسي: أرى انّي سأفتضح اليوم بابي منبه فضيحةً لم يفتضح بهــا احد قطّ مثلها. فبينــا نحن كذلك اذ جاء ابو منبه واذا هو شيخ عليهِ خفَّان احمران كــأنهُ جمّال فوثبوا جميعاً اليه وسلَّموا عليهِ وقالوا: يا ابا منبه ابطأتَ علينا. وقدّموا لهُ الطعام وسقوهُ اقداحاً وخَنَستُ انا حتى صرتُ كلا شيء خوفاً منهُ. فاخذ العود ثمَّ اندفع يغني:

طَرِبَ البحرُ فاعبري يا سفينه لا تشقّي على رجــال المدينه

واقبلَ القوم يصفّقون ويطربون ويشربون. ثمَّ اخذ في نحو هــذا من الغناء. فقلتُ في نفسي: انتم ها هنا لئن اصبحتُ سالماً لا أمسيتُ في هذه البلدة. فلمَّا اصبحتُ شددتُ رحلي على ناقتي واحتقبتُ رَكوةً من شراب ورحلتُ متوجّهاً الى الحيرة وقلتُ (من الخفيف):

ليت شِعري متى تَخُبُّ بيَ النـا قــةُ بين السَّدير والــصِّنّينِ

مُحتقِبــاً رَكوةً وخبزَ رقــاقٍ وبُــقولاً وقطعــةً من نُونِ

لستُ ابغي زادًا سواها من الشا مِ وحسبي عُــلالــةٌ تكفيني

فــاذا أُبتُ سالماً قلتُ سَحقاً وبعــادًا لمعشرٍ فــارَقوني

وقد استطرد صاحب الاغاني(٢: ١٢٥)فروى فصلًا في ذكر الحيرة واهلها ننقلهُ هنا عنهُ قال: كان بعض ولاة الكوفة يذمُّ الحيرة في ايَّام بني اميَّة فقال لهُ رجلٌ من اهلها وكان عاقلًا ظريفاً: أتعيبُ بلدةً بها يُضرَب المثل في الجاهليَّة والاسلام. قال: وبماذا تُمدَح؟ قال: «بصحَّة هوائها وطيب مائها ونزهة ظاهرها تصلح للخُفّ والظِّلف. سهلٌ وجبل، وبادية وبستــان، وبرٌّ وبحر، محلُّ المــلوك ومزارهم، ومسكنهم ومثواهم، وقد قدِمتَها اصلحك الله مُخِفًّا فرجعتَ مُثقَلًا ودرتَها مقــلًّا فأصارتك مُكثِرًا». قال: وكيف تعرّف ما وصفتَها بهِ من الفضل؟. قلتُ: بان تصير اليَّ ثمَّ ادعُ ما شئتَ من لذّات العيش فوالله لا اجوز بك الحيرة فيه. قال: فأصنع لنا صنيعاً وأخرج من قولك. قلتُ: أفعل. فصنع لهم طعاماً واطعمهم من خبزها وسمكها وما

صِيدَ من وحشها من ظباء ونعام وارانب وحُبارى وسقاهم ماءها في قِلالها وخمرَها في آنيتها واجلسهم على رَقِّها وكان يتّخذ بها من الفرش اشياء ظريفة ولم يستخدم لهم حرًّا ولا عبدًا الّا من مولَّديها ومولَّداتها من خدَم ووصائف كأنّهم اللؤلؤ لغتُهم لغةُ اهلها ثمّ غنّاهم حنين واصحابهُ في شعر عدي بن زيد شاعرهم واعشى همذان لم يتجاوزهما وحيّاهم برياحينها ونقّلهم على خمرها وقد شربوا بفواكهها ثمّ قال لهُ : هل رأيتني استعنتُ على شيء مما رأيتَ واكلتَ وشربت وافترشتَ وشممْتَ وسمعت بغير ما في الحيرة؟. قال : لا والله ولقد احسنتَ صفة بلدك ونصرتَهُ فاحسنتَ نُصرتَهُ والخروج ممَّا قد تضمَّنتهُ فبارك الله لكم في بلدكم

وبقي حنين يتردَّد في البلاد الى ايّام شيخوخته : حدَّث شيخ من المكيّين يقال لهُ شريس قال : انّا لبالأبطح (في مكّة) ايّام الموسم نشتري ونبيع اذ اقبل شيخٌ ابيض الرأس واللحية على بغلة شهباء ما ندري أهو اشدُّ بياضًا ام بغلتهُ ام ثيابهُ فقال : اين بيت ابي موسى ؟ فأشرنا لهُ الى الحائط فمضى حتى انتهى الى الظلّ من بيت ابي موسى ثمّ استقبلَنا ببغلتهِ ووجهه ثمّ اندفع يغنّي في شعر لكثيّر :

أسعديني بدمعةٍ أسرابِ من دموعٍ كثيرة التَّسكابِ

(قال) ثمّ صرف الرجلُ بغلتهُ وذهب فتبعناهُ حتى ادركناهُ فسألناهُ من هو . فقال : « انا حنين بن بلوع وانا رجل جمَّال اكري الابل » ثمّ مضى

وقد اخبر ابرهيم بن المهدي (الاغاني ٢ : ١٢٥–١٢٦) بخبر سمعهُ من حفيد حنين قال : كنتُ مع الرشيد في السنة التي نزل فيها على عون العبادي فأتاني عون بابنِ ابنِ حنين بن بلوع وهو شيخ فغنَّاني عدَّة اصوات لجدّهِ فما استحسنتُها لان الشيخ كان مشوَّه الخَلق طنّ الغناء قليل الحلاوة الّا انهُ كان لا يفارق عمود الصوت ابدًا حتى يَفرغ منهُ فغنَّاني صوتَ ابن سُريج (في قول عنترة) :

فتركتُهُ جزَرَ السباع يَنُشنَهُ ما بين قُلَّةِ رأسهِ والمعصمِ

فما اذكرُ اني سمعتهُ من احدٍ قطّ احسن ممَّا سمعتُهُ منهُ فقلتُ : لقد احسنتَ في هذا الصوت وما هو من اغاني جَدّك ولا من اغاني بلدك واني لأعجبُ من ذلك . فقال لي الشيخ : والصليبِ والقربان ما صُنع هذا الصوت الّا في منزلنا وفي سَرداب جدّي ولقد كاد ان يأتي على نَفَس عمّي فسألتهُ عن الخبر في ذلك فقال : حدَّثني ابي

انَّ عبيدالله بن سريج قدم الحيرة ومعهُ ثلثمائة دينار اتى بها منزلنا في ولاية بشر بن مروان الكوفة وقال : انا رجل من اهل الحجاز من اهل مكّة بلغني طيبُ الحيرة وجودة خمرها وحسن غنائك في هذا الشعر (من الوافر) :

حَنَتني حانياتُ الدهر حتَّى كأنّي خاتلٌ يدنو لصَيدِ
قريبُ الخطوِ يَحسبُ من رآني ولستُ مقيَّدًا أنّي بقَيدِ

فخرجتُ بهذه الدنانير لأُنفقها معك ونتعاشر حتى تنفد وأنصرف الى منزلي . فسألهُ جدّي عن اسمهِ ونسبهِ فغيَّرهما وانتمى الى بني مخزوم فأخذ جدّي المال منهُ وقال : «موفَّرٌ مالُكَ عليك ولك عندنا كلُّ مَا يحتاج اليهِ مثلُك ما نشطتَ للمقام عندنا فاذا دعتك نفسك الى بلدك جهَّزناك اليهم ورددنا عليك مالك وأخلفنا ما انفقتَهُ عليك ان جئتَنا» . وأسكنَهُ دارًا كان ينفرد فيها فمكث عندنا شهرين لا يعلم جدّي ولا احد من اهلنا انهُ يغني حتى انصرف جدّي من دار بشر بن مروان في يوم صائف مع قيام الظَّهيرة فصار الى باب الدار التي كان انزل ابنَ سريج بها فوجدهُ مغلقًا فارتاب بذلك ودقَّ الباب فلم يُفتح لهُ ولم يُجبْهُ احد فصار الى منازل الحرَم فلم يجد فيها ابنتَهُ ولا جواريَها ورأى ما بين الدار التي فيها الحرم ودار ابن سريج مفتوحًا فانتضى سيفهُ ودخل الدار ليقتل ابنتَهُ . فلمَّا دخلها رأى ابنتَهُ وجواريَها وقوفًا على باب السرداب وهنَّ يومئنَ اليهِ بالسكوت وتخفيف الوطء . فلم يلتفت الى اشارتهنَّ لِما تداخلَهُ الى ان سمع ترنُّم ابن سريج بهذا الصوت فألقى السيف من يدهِ وصاح بهِ وقد عرفهُ من غير ان يكون رآهُ ولكن بالنعت والحِذق : « ابا يحيى جُعلتُ فداءك اتيتَنا بثلثمائة دينار لتُنفقها عندنا في حيرتنا فوحقّ المسيح لا خرجتَ منها الَّا ومعك ثلثمائة دينار وثلثمائة دينار وثلثمائة دينار سوى ما جئتَ بهِ معك» . ثمَّ دخل اليهِ فعانقَهُ ورحَّب بهِ ولقيَهُ بخلاف ما كان يلقاهُ بهِ وسألهُ عن هذا الصوت فاخبرهُ انهُ صاغهُ في ذلك الوقت فصار معهُ الى بشر بن مروان فوصلهُ بعشرة آلاف درهم اوَّل مرَّة ثمَّ وصلهُ بعد ذلك بمثلها . فلمَّا اراد الخروج ردَّ عليهِ جدّي مالهُ وجهَّزهُ ووصلهُ بمقدار نفقتهِ التي انفقها من مكّة الى الحيرة ورجع ابن سريج الى اهلهِ وقد اخذ جميعُ من كان في دارنا منهُ هذا الصوت

وقال اسحاق الموصلي (الاغاني ٢ : ١٢٥) : لم يكن بالحيرة مذكور في الغناء سوى

حنين الَّا نفرًا من السدريّين (١ يقال لهم عباديس وزيد بن الطليس وزيد بن كعب ومالك بن حممة وكانوا يغنّون غناء الحيرة بين الهزج والنَّصب وهو الى النصب اقربُ ولم يَدّروا منهُ شيئاً لسقوطهِ وانهُ ليس من اغاني الفحول وما سمعنا نحن لاحد من هؤلاء خبرًا الَّا لمالك بن حممة . وقال اسحاق (الاغاني ٢ : ١٢١) قيل لحنين: انت تغنّي منذ خمسين سنةً ما تركتَ لكريمٍ مالًا ولا دارًا ولا عقارًا الَّا اتيتَ عليهِ . فقال: بأبي انتم انّما هي أنفاسي أقسمها بين الناس أفتلومونني ان أُغلي بها الثمن

وقال وكيع في خبرهِ عن اسحاق : عاش حنين بن بلوع مائة سنة وسبع سنين وكان يقال انهُ من جديس . (قال)وقيل ايضاً انهُ من لخم وكان هو يزعم انهُ عباديّ واخوالهُ من بني الحرث بن كعب

امَّا سبب موتهِ فما حدَّث بهِ حفيدهُ عُبَيد قال (الاغاني ٢ : ١٢٧): كان المغنّون في عصر جدّي اربعة نفر ثلاثة بالحجاز وهو وحدهُ بالعراق والذين بالحجاز ابن سُريج والغريض ومعبد فكان يبلغهم انَّ جدّي حنيناً قد غنى في هذا الشعر (وهو لعدي ابن زيد) :

هلَّا بكيتَ على الشبابِ الذاهبِ وكففتَ عن ذمّ المشيب الآيبِ
هذا وربِّ مُسوِّفين سقيتُهم من خمر بابلَ لذّةً للشاربِ
بكروا عليَّ بسحرةٍ فصبَحْتُهم من ذات كَرْنيبٍ كقَعْب الحالبِ
بزجاجةٍ ملءُ اليدينِ كأنها قنديلُ صبحٍ في كنيسة راهبِ

(قال) فاجتمعوا فتذاكروا امر جدّي وقالوا: ما في الدنيا اهل صناعةٍ شرٌّ منّا لنا اخٌ بالعراق ونحن بالحجاز لا نزورهُ ولا نستزيرهُ . فكتبوا اليهِ ووجّهوا لهُ نفقةً وكتبوا يقولون: نحن ثلاثة وانت وحدك وانت أولى بزيارتنا . فشخَصَ اليهم . فلمَّا كان على مرحلةٍ من المدينة بلغهم خبرهُ فخرجوا يتلقَّونهُ فلم يُرَ يوم كان اكثر حشرًا ولا جمعاً من يومئذٍ . ودخلوا فلمّا صاروا في بعض الطريق قال لهم مَعْبد: صِيروا اليَّ . فقال لهُ ابن سريج : ان كان لك من الشرف والمروءة مثل ما لمولاتي سُكَيْنة بنت الحسين (بن ابي طالب) عطفنا اليك . فقال: ما لي من ذالك شيء . وعدلوا الى منزل سكينة . فلمّا دخلوا اليها أذِنت للناس إذناً عامًّا فغصَّت الدار بهم وصعدوا

١) السدريّون قومٌ من الطويّين

فوق السطح وامرت لهم بالاطعمة فاكلوا منها ثمّ انهم سألوا جدّي حنيناً ان يغنّيهم صوتهُ الذي اوّلهُ «هلّا بكيت على الشباب الذاهب» فغنّاهم ايّاهُ بعد ان قال لهم: ابدأُوا انتم. فقالوا: ما كنّا لنتقدّمك ولا نغني قبلك حتى نسمع هذا الصوت. فغنّاهم ايّاهُ وكان من احسن الناس صوتاً فازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوهُ فسقط الرواق على من تحتهُ فسَلِموا جميعاً وأُخرِجوا اصحّاء ومات حنين تحت الهدم فقالت سُكينة عليها السلام: لقد كدَّر علينا حنينٌ سرورَنا انتظرناهُ مدَّة طويلة كأنّا والله كنّا نسوقهُ الى منيّتهِ

وقد ورد في اخبار حنين بن اسحاق المتطبّب (طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ١: ١٨٩) نقلًا عن كتاب اللهو والملاهي للسرخسي انّهُ قال: وافاني في بعض الليالي ايّامَ المتوكل رسلٌ من دار الخليفة يطلبونني ويقولون: الخليفة يريدك. ثمّ وافت بعدهم طائفة ثمّ وافاني زَرافة فاخرجني من فراشي ومضى بي ركضاً حتى ادخلني الى الخليفة فقال: يا سيّدي هوذا حنين. (قال) فقال: ادفعوا الى زرافة ما ضمنّا لهُ. (قال) فدُفع اليهِ ثلاثون الف درهم ثمّ أَقبل عليَّ فقال: انا جائع فما ترى في العشاء؟ فقلتُ لهُ في ذلك قولًا. فلمّا فرغ من اكلهِ سألتُ عن الخبر فقيل لي انّ مغنّياً غنّاهُ صوتاً فسألهُ لمن هو فقال: لحنين بن بلّوع العبادي فامر زرافةَ بإحضار حنين بن بلوع العبادي فقال لهُ: يا امير المؤمنين لا اعرفهُ. فقال: لا بُدَّ منهُ وان احضرتهُ فلك ثلاثون الف درهم. (قال) فاحضرني ونسي المتوكل السبب بما كان في رأسهِ من النبيذ وحضرتُ وقد جاع فاشرتُ عليهِ بان يقطع النبيذ ويتمشَّى وينام ففعل

٩ الاخطل التغلبيّ

ليس بين شعراء النصرانيَّة بعد الاسلام شاعر بلغ مبلغ الاخطل التغلبيّ بجودة شعرهِ ومتانتهِ وغزارتهِ وتفنّنهِ. وقد اتّفق على ذلك كلّ ارباب النقد على اختلاف نزعاتهم واديانهم ومواطنهم. فلا يَسَعنا ان نضرب صفحاً عنهُ في ذكرنا لشعراء النصرانيَّة في عهد بني اميَّة وهو شاعرُهم غير منازَع يفتخرون بهِ ويحلّونهُ محلّ ندمائهم واعزّ اصدقائهم ويجيزون لهُ ما لا يجيزونهُ لسواهُ من اصحابهم

على انَّ احد اخوتنا حضرة الاب انطون صالحاني قد شُغف بهِ وبشعرهِ منذ ثلثين سنةً فلم يدع كبيرةً ولا صغيرةً من امورهِ الَّا كشف عنها القناع استناداً الى ثلث نسخ من ديوانهِ والى ما ورد من اخبارهِ المتفرّقة في عشرات من تآليف الادباء. وهو لا يزال يكدُّ ذهنهُ ويسهر جفنهُ ليلتقط ما لعلَّهُ فاتهُ من آثارهِ ويُعدُّ فهارسهُ التي ستكلّل طبعة ديوانهِ بتاجٍ من الكمال لا نظنُّ ان شاعراً آخر اصاب مثلهُ . وعليهِ لم يبقَ لنا الَّا ان نغرف من هذا البحر الطامي ونستخرج بعض درارّيهِ لنصوغ لشاعرنا قلادةً صغيرة محيلين قرّاءنا الى ما جمعهُ رصيفنا الفضال

﴿اصل الاخطل ونسبهُ وصباه﴾ هو ابو مالك غياث بن غوث من قبيلة غَنم ابن تغلب . كان مولدهُ في اواسط القرن السابع للميلاد نحو السنة ٦٤٠م . ولد في الجزيرة اي ما بين النهرين حيث كانت منازل تغلب في جهات الرقّة والرصافة . وكان ابوهُ غوث من وجوه قومهِ وامُّهُ ليلى تُعرف بامّ كعب وكانت تحبُّهُ وتُعنى بأمرهِ . وكان الولد اشهب الشعر لطيف المنظر فعلّقت على صدرهِ صليباً لم ينزعهُ عن صدرهِ حتى في ايام كهولتهِ وعند دخولهِ على الخلفاء فعُرف لذلك بذي الصليب

ما كاد الولد يبلغ اشدَّهُ حتى ظهرت فيهِ ملامح النجابة والذكاء ولعلَّهُ تفقَّه في اصول القراءة والكتابة على بعض كهنة قومهِ . وما يلوح من بعض اعمالهِ في صباهُ انَّهُ كان فَزِهاً جريئاً سليط اللسان لا يهاب سطوة اكبر منهُ فلقّبوهُ بالاخطل اي السفيه . وسَمِع الشعر من بعض مواطنيهِ فتنبَّه اليهِ ذهنهُ ووجد في قريحتهِ شحذاً لقَرْبهِ فقالهُ وهو غلام مترعرع

﴿دينهُ﴾ ولد الاخطل نصرانياً وتلقَّن مبادئ دينهِ في حداثتهِ وثبت عليهِ في مدى حياتهِ . والمرجَّح انهُ كان على مذهب اليعقوبيَّة الذي كان شاع في قبائل البادية . وكان الاخطل يجاهر بدينهِ لا يعمل فيهِ الحياء البشري . والدليل عليهِ دخولهُ على الخلفاء والصليب على صدرهِ لا يخجل من حَمْلهِ علانيةً . كما انَّ هجاء اقرانهِ الشعراء ولاسيَّما جرير لم يؤثّر فيهِ من هذا القبيل . ولمَّا عَرض عليهِ الخليفة عبد الملك ان يدين بالاسلام أبى ونجا منهُ بأبيات هزلية . وسمعهُ هشام بن عبد الملك ينشد في قصيدتهِ اللاميَّة قولهُ :

واذا افتقرتَ الى الذخائرِ لم تجِدْ ذُخراً يكونُ كصالح الاعمالِ

فقال لهُ: هنيئاً لك يا ابا مالك هذا الاسلام. فقال لهُ: يا امير المؤمنين ما زلتُ مسلماً في ديني. ولمّا دعاهُ بعضهم في الكوفة الى دخول مسجد بني رؤاس ليصلّي وكان مؤذّنهم نادى بالصلاة قال (من الوافر):

أُصلّي حيثُ تُدرِكني صَلاتي وليس البِرُّ عند بني رؤاسِ

وربّما قرّعوهُ بالكفر فكان لا يكترث لشتمهم. وعلى خلاف ذلك كان يرضخ لاوامر رؤسائهِ النصارى ويتقرّب اليهم في اسرار دينهِ فكان «يقوم بين يدي قسّيسهِ لأخذ القربان» كما بكّتهُ عليهِ جرير بعد قولهِ (من الطويل):

واني لَقوَّامٌ مَقاوِمَ لم يكن جريرٌ ولا مولى جريرٍ يقومُها

بل كان مع إبائهِ وعزّة نفسهِ لا يستنكف من تأديب رؤسائهِ لهُ كما اخبر عنهُ في الاغاني ابو الفرج عن احد الرواة انهُ رأى القسَّ في الجزيرة وقد قبض بلحية الاخطل وضربهُ بعصاه وهو يُصيء كما يصيء الفرخ فقال لهُ: اين هذا ممّا كنتَ فيهِ بالكوفة. فقال لا فُضَّ فوهُ: يا ابن اخي اذا جاء الدين ذَلَلْنا (الديوان ٣٣٧)

واعجبُ منهُ ما رواهُ هناك ايضاً اسحاق بن عبدالله بن الحارث بن نون عن تذلّلهِ في دمشق لقسّيسهِ وفي طبقات الجمحي (ص١٤٤) لاسقفهِ قال (الاغاني ٧: ١٨٢–١٨٣):

«قدمتُ الشام وانا شابٌ مع ابي فكنتُ اطوف في كنائسها ومساجدها فدخلتُ كنيسة دمشق واذا الاخطل محبوس فجعلتُ انظر اليهِ فسأل عني فأُخبر بنسبي فقال: يا فتى انك لَرجلٌ شريف واني اسألك حاجةً. فقلتُ: حاجتُك مقضيّة. قال: انَّ القسَّ حبسني ها هنا فتُكلّمهُ ليُخلّي عني. فاتيتُ القسَّ فانتسبتُ لهُ فرحّب وعظّم. قلتُ: انَّ لي اليك حاجةً. قال: ما حاجتك. قلتُ: الاخطل تخلّي عنهُ. قال: «اعيذك بالله من هذا. مثلُك لا يتكلّم فيهِ فاسقٌ يشتمُ اعراض الناس ويهجوهم». فلم ازل اطلب اليهِ حتى مضى معي متّكئاً على عصاهُ فوقف وجعل يهدّدهُ ورفع عليهِ عصاه وقال: «يا عدوّ الله أتعود تشتمُ الناس وتهجوهم وتقذف المحصنات» وهو يتضرّع اليهِ ويقول: «لستُ بعائد ولا افعل» ويستخذي لهُ. (قال) فقلتُ لهُ: «يا ابا مالك الناس يهابونك والخليفة يكرمك وقَدرُك في الناس قَدرُك وانت تخضع لهذا هذا الخضوع وتستخذي لهُ. (قال) فجعل يقول لي: انّهُ الدين انّهُ الدين»

وآثار الدين في شعر الاخطل قليلة سواء كان السبب ضياع بعض شعرهِ ام بالاحرى لعدم وجودهِ داعياً لوصف الدين. وفي ديوانهِ انهُ كان يحلف بالانجيل والقربان. وفي شعرهِ اشارات واستعارات منقولة عن عادات النصارى ومعتقداتهم وقد تكرّر

فيهِ ذكر الانبياء والجنّة والخلود. وقلّما تجد قصيدةً بين قصائده الّا دلّت على تديُّنه ان لم تدلّ على نصرانيّتهِ

﴿ اتّصال الاخطل بالخلفاء ﴾ تنقّل الاخطل في البلاد مع قبيلتهِ تغلب الرُّحّل فسكن البادية المجاورة للفرات عند قومهِ بني مالك وعاش مدّة في الحيرة حتى قال عنهُ في الاغاني (٧ : ١٧٠) انهُ «كان نصرانيًّا من اهل الحيرة» وقد مرَّ لنا ذكر مرورهِ بالكوفة. ثمَّ نمى خبرهُ الى الخلفاء بني اميَّة فرحل اليهم الى دمشق فما لبث ان حظي عندهم اوفر حظوى لمّا سمعوا انشادهُ واختبروا جودة قريحتهِ وغزارة مادّتهِ ورسوخ قدمهِ في صناعة الشعر وابتكارهِ للمعاني البليغة وصوغها في الطف ديباجة من اللفظ. وقد مدح خلفاء الامويين مباشرةً بيزيد بن معاوية ثم نظم القصائد الطنّانة في عبد الملك بن مروان وفي هشام والوليد ابني عبد الملك فأولع الخلفاء بشعرهِ وحملهم تفضيلهم لهُ على غيرهِ الى ان دعوهُ بشاعر بني أُميَّة واكرموهُ ايَّ اكرام واغزروا عليهِ صِلاتهم بل حدا بهم حبُّهم لهُ انهم اتّخذوهُ كنديمهم ولم يؤاخذوهُ بشربهِ الخمر. وكان عبد الملك خصوصاً معجباً بهِ اخبر ابو عمرو (الاغاني ٧ : ١٧٧—١٧٨) قال : لقد كان الاخطل يجيء وعليهِ جبَّةُ خزٍّ وحرزُ خزٍّ في عنقهِ سلسلة ذهب تنفضُ لحيتهُ خمرًا حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن. فلمَّا انشدهُ قصيدتهُ الرائيَّة التي اولها (من البسيط) :

خفَّ القَطينُ فراحوا منك او بَكَروا وأزعجَتهم نوًى في صَرْفِها غِيَرُ

قال عبد الملك لغلامهِ: خذ بيدهِ يا غلام فأخرِجْهُ ثمَّ أَلقِ عليهِ من الخلع ما يغمرهُ وأحسِن جائزتهُ . ثمَّ قال: انَّ لكل قوم شاعرًا وانَّ شاعر بني اميَّة الاخطل

وفي الاغاني (٧ : ١٧٥) نكتةٌ هزليَّة رواها قبل انشادهِ القصيدة السابقة قال:

« دخل الاخطل على عبد الملك بن مروان فاستنشدهُ فقال: قد يَبِسَ حلقي فمُرْ مَن يسقيني. فقال: اسقوهُ ماء. فقال: شرابُ الحمار وهو عندنا كثير. فقال: فاسقوهُ لبنًا. قال: عن اللبن فُطِمْتُ. قال: فاسقوهُ عسلاً. قال: شراب المريض. قال: فتُريد ماذا ؟ . قال : خمرًا يا امير المؤمنين. قال: او عهدتَني اسقي الخمر لا أمَّ لك لولا حُرْمَتُكَ بنا لفعلتُ بك وفعلتُ. فخرج فلقي فرّاشًا لعبد الملك فقال: ويلك انَّ امير المؤمنين استنشدني وقد صحِلَ صوتي فأَسقِني شربة خمر. فسقاه فقال: أَعدِلْهُ بآخر. فسقاهُ آخر. فقال: تركتَهما يعتركان في بطني. أَسقِني ثالثًا.

فـقاهُ ثالثاً فقال: تركتني امشي على واحدة أعدلُ ميلي براح. فـقاهُ رابعاً فدخل على عبدالملك فانشدهُ» .

قال الاصمعيّ فلمّا انشدهُ قصيدتهُ «خفّ القطين» جعلتُ أرى عبـد الملك يتطاولُ لها ثم قال: ويحك يا اخطل أتريد ان اكتب الى الآفاق انك اشعرُ العرب؟ قال: اكتفي بقول امير المؤمنين . وامر لـهُ بجفنة كانت بين يديهِ فمُلئت دراهم والقى عليهِ خلعاً وخرج بهِ مولى لعبد الملك على الناس يقول: هذا شاعر امير المؤمنين هذا اشعرُ العرب

وكما تفرّد الاخطل بمديح بني اميّة قد برّز ايضاً في مديح كبار دولتهم واعيان زمانهِ كبشر بن مروان والحجّاج بن يوسف وعِكرِمة الفيّاض ومَصقـلة بن هبيرة وهمّام بن مُطرِّف ويزيد بن المهلّب وكثيرين غيرهم. وكانوا كلّهم يفضّلون مديحـهُ على كلّ نفيس ثمين

جاء في وفيات الاعيان لابن خلّكان (٢: ٣٥٠—٣٥١) وفي تحفة المجالس للسيوطي (ص ٢٠٢) وغيرهما انّ الحجّاج بن يوسف حبس يزيـد بن المهلّب (والي خراسان) لبقايا كانت عليـهِ من خراج خراسان وأقسمَ ليَستأدي منهُ كلّ يوم مائة الف درهم . فبينما هو يومـاً وقد اختلى فيهِ اذ دخل عليـهِ الاخطـل فأنشدهُ (من الطويل):

أبا خالدٍ ضاعت خراسانُ بعدكم ... وقال ذوو الحاجـاتِ اين يَزيـدُ

وما قطَرَتْ بالري بعـدك قَطرةٌ ... ولا اُخضرّ بالمَرْوَين بعدك عُودُ

وما للسرير بعـد مُلكك بهجةٌ ... ولا لجوادٍ بعـد جودِك جودُ

فقال: يا غُلام أعطِهِ المائة الف درهم وانا اصبرُ على عذاب الحجّـاج ولا نُخيِّب الاخطل. فبلغ الحجّاج فقال: للهِ درُّ ابن المهلّب لو كان تاركاً للسخـاء لتركهُ وهو يتوقّع الموت فعفى عنهُ وخلّى سبيلَهُ (١

(١) اطلب ديوان الاخطل (ص ٣٨١—٣٨٢) وراجع ما ورد هناك في نسبة هذه الابيات لغير الاخطل

﴿رُتبة الاخطل بين الشعراء﴾ اذا ما جمعنا ما حكمَ بهِ ارباب اللغة واصحاب النقد الصحيح عن شعر الاخطل لاتّضح لنا انهُ بلغ رتبةَ اكبر شعراء العرب وكلُّهم ينظمهُ بين فحولهم الاوّلين. وكفى بهِ فخرًا ان ابا عَمرو بن العلاء جعلهُ في عهد الاسلام شبيهاً بالنابغة الذبيانيّ في الجاهليَّة ويفضّلهُ لصحَّة شعرهِ . وقد قال عنهُ (الاغاني ٧: ١٧٤—١٧٥) : « لو ادرك الاخطل يوماً واحدًا من الجاهليَّة لَما فضَّلتُ عليهِ احدًا» . ومثلهُ ابو عبيدة كان يقول: «شعراء الاسلام الاخطل ثمّ جرير ثمّ الفرزدق . والاخطل اشبه بالجاهليَّة واشدُّهم أَسرَ شعرٍ واقلُّهم سقطاً ». وروى ابن قتيبة في الشعر والشعراء (ص ٣٠١) لمَسلَمة بن عبد الملك انهُ شبَّهَ الاخطل وجريرًا والفرزدق بثلثة افراس تجري في حَلبة السباق فقال : انَّ الاخطل سابقٌ ابدًا في كلّ حالاتهِ بخلاف جرير والفرزدق اللذين يتقدَّمان حيناً ويتخلَّفان حيناً آخر. وقد خصُّوا الاخطل بالتقدُّم في الوصف والفخر ومدحوا هَجْوهُ فقالوا: انهُ كان اخبث الشعراء هجاءً في عَفافٍ من الفُحش . والفحش كثير في شعر جرير والفرزدق. وسُئل حمَّاد الراوية عن الاخطل فقال: « ما تسألوني عن رجل قد حبَّب شعرهُ اليَّ النصرانيَّة» . ثمّ قال: اشعر العرب شيخا وائلٍ : الاعشى في الجاهليَّة وهو صنَّاجة العرب. والاخطل في الاسلام »

ولمَّا كان الفضل ما اقرَّت بهِ الاعداء يحسن بنا هنا ان نروي ما اخبر بهِ نوح بن جرير (الاغاني ٧: ١٧٢) قال: بينا انا آكل مع ابي يوماً وفي فيهِ لقمة وفي يدهِ اخرى فقلتُ: يا ابتِ انت اشعر ام الاخطل ؟ فجَرَضَ بلقمتهِ التي في فيهِ ورمى بالتي في يدهِ وقال: « يا بُنيَّ لقد سررتَني وسُؤتني فامَّا سرورك ايَّاي فتعهُّدك لي مثل هذا وسؤالك عنهُ . وأمَّا ما سؤتني بهِ فذكرُك رجلًا قد مات. يا بُني ادركتُ الاخطل ولهُ نابٌ واحد ولو ادركتهُ ولهُ نابانِ لأَكلني . ولكنَّني أُعِنتُ عليهِ بكفر (يريد نصرانيَّتهُ) وكبر سنّ »

﴿اخبار الاخطل في حروب قومهِ﴾ لمَّا توفي يزيد بن معاوية الخليفة الامويّ سنة ٦٤ (٦٨٣م) اعتزل ابنهُ معاوية الثاني بعد مئة يوم وبايع الناسُ عبد الله بن الزبير في المدينة امَّا اهل الشام فبايعوا مروان بن الحكم فكان ذلك سبباً لحرب عوانٍ وقعت بين الخليفتين كان فيها النصر لمروان على خصمهِ في مَرج راهطٍ قريباً من دمشق . وكان التغلبيُّون يناصرون مروان بخلاف القيسيين الذين حاربوا مع عبد الله

ابن الزبير. فثبتت العداوة مدّةً بين القبيلتين ووقعت عدّة وقائع بينهما كان الظفر فيها سِجالًا لاحدى القبيلتين وكان الاخطل يحارب القيسيين مع تغلب ولهُ في وصف تلك الحروب قصائد يصف ويلاتها ويذكر فظائع قيس ورؤساءهم كزُفَر بن الحارث وعُمَير بن الحُباب والجحّاف. وفي احد ايّام هذه الحروب في يوم البِشْر قُتل ابو الاخطل غياث وقيل بل هو ابنهُ ابو غياث ووقع الاخطل في أسر الاعداء. قال ياقوت في معجم البلدان (١: ٦٣١–٦٣٢): « أُسر الاخطل وعليهِ عباءة فظنّوهُ عبدًا وسُئل فقال: انا عبد. فخُلّي سبيلهُ فخشي ان يُعرَف فيُقتل فرمى نفسهُ في جبّ من جِبابهم فلم يزل فيهِ حتى انصرف القوم فنجا. وعظم قَدْر التغلبيّين في اعين بني اميَّة وحملوا ديات القوم. على انَّ الاخطل فارتْ في قلبهِ فائرة الغضب اذ بلغهُ يومًا بعد صلح القبائل انَّ عبد الملك استنزل زُفر بن الحارث من قصرهِ في قرقيسيا وأقعدهُ معهُ في سريرهِ. فدخل عليهِ ابن ذي الكلاع وكان قومهُ حاربوا مع تغلب وبني اميَّة فلمّا رأى زفر على السرير بكى فقال لهُ عبد الملك: ما يبكيك فقال: يا امير المؤمنين وكيف لا ابكي وسيف هذا يقطر من دماء قومي في طاعتهم لك وخلافهِ عليك ثمَّ هو معك على السرير وانا على الارض. قال: اني لم أُجلسهُ معي لانهُ اكرمُ عليَّ منك ولكن لسانهُ لساني وحديثهُ يعجبني. فقال الاخطل لمّا أُخبر بذلك: أما والله لأقومنَّ في ذلك مقامًا لم يَقُمهُ ابن ذي كلاع ثم دخل على عبد الملك فلمّا ملأَ عينهُ منهُ قال (من الوافر):

وكأسٍ مثلِ عين الديك صِرْفٍ ... تُنَسّي الشاربين لها العقولا

اذا شرب الفتى منها ثلاثًا ... بغير الماء حاول ان يَطولا

مَشي قُرَشيَّةً لا عَيبَ فيها ... وأَرخى من مآزرهِ الفُضولا

فقال لهُ عبد الملك: ما أخرَج هذا منك يا ابا مالك الَّا خطَّةٌ (خَلَّة؟) في رأسك قال: أَجل يا امير المؤمنين حين تُجلس عدوَّ الله هذا معك على السرير وهو القائل بالأَمس:

لعمري لقد أبقَتْ وقيعةُ راهطٍ ... لمروانَ صدعًا بيننا مُتنائيا

فلاصُلحَ حتى تَنحطَ الخيلُ بالقنا ... وتثأرَ من نسوان كلبٍ نسائيا

فقد ينبُتُ المرعى على دِمَنِ الثرى ... وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا

(قال) فقبض عبد الملك رجلهُ ثمَّ ضرب بها صَدرَ زُفَر فقلبَهُ عن السَّرير. وقال: أذهَبَ اللهُ حزازات تلك الصدور. فقال: انشدُكَ الله يا امير المؤمنين والعهدَ الذي اعطيتني. فكان زُفَر يقول: ما ايقنت بالموت قطّ الَّا تلك الساعة حين قال الاخطل ما قال (الاغاني ٧: ١٧٦-١٧٧)

﴿ موت الاخطل ﴾ قال حضرة ناشر ديوان الاخطل (ص ٣٧١): انَّ الاخطل عمّر عمرًا طويلًا حتى قيل عنهُ انهُ «شيخ قد تحطَّم (الاغاني ٧: ١٧٢) وانهُ «دخل بين جرير والفرزدق في آخر امرهما وقد أسنَّ ونفدَ اكثر عُمرهِ» (الاغاني ٧: ٣٨) ووُصف بانهُ «رجل ابيض الرأس واللحية (الاغاني ٩: ١٦٩) فاستنتج حضرتهُ من هذه الادلَّة ان الاخطل يكون توفي نحو السنة ٦٩٢ هـ اي ٧١٠ للمسيح. قال حضرتهُ: «الَّا انَّ شوكتهُ في الشعر لم تنكسر بل بقيت حادَّةً نافذةً يرشدك الى ذلك قصائد دريَّة نظم جواهرها في آخر حياتهِ. وكانت وفاتهُ في خلافة الوليد بن عبد الملك ولهُ فيهِ عدَّة قصائد امتدحهُ بها»

وروى صاحب الاغاني (٧: ٦) انَّ الوليد بن عبد الملك قال لجرير: فما تقول في الاخطل؟ قال: ما أَخرجَ لسانُ ابن النصرانيَّة ما في صدرهِ من الشعر حتى مات». واخبر ايضاً (٧: ١٨٠) انهُ لمَّا حضرت الاخطلَ الوفاةُ قيل لهُ: يا ابا مالك ألا توصي فقال (من المتقارب):

أُوصي الفرزدقَ عند المَماتِ ... بأُمّ جريرٍ وأَعيارِها

وزار القبورَ ابو مالكٍ ... برغم العُداةِ وأَوتارِها

﴿ ديوان الاخطل ﴾ روى ابن الاعرابي في كتاب الفهرست لابن النديم (ص ٧٨ و ١٥٧) انَّ ابا سعيد الحسن المعروف بالسكَّري «عَمِلَ شعر الاخطل وجوَّدهُ» اي ضبطهُ ونظَّمهُ. وانَّما كانت نُسخ هذا الديوان اعزَّ من بيض الأَنوق. ولقد كان يُعرف منها الى السنة ١٨٨٧ نسخة وحيدة قديمة في بطرسبورج كان يصعب الاطِّلاع

عليها . ففي السنة ١٨٨٧ اهدى الى مكتبتنا الشرقيَّة احدُ الاصحاب عدَّةً من المخطوطات التي كان الحلبيّ الشهير والاديب البارع رزق الله حسّون نسخَهَا بخطّهِ الجميل نسخاً بديعاً على ورق صقيل مزيَّن الاطراف بنقوش صناعيَّة رائعة . فكان من جملتها نسخة من ديوان الاخطل منقولة عن نسخة بطرسبورج . فنبَّهَ وجودها خاطر حضرة الاب صالحاني واستفزَّتهُ النخوة لنشرها كأثر فريد في جنسهِ . ثمَّ كتب لناظر مكتبة بطرسبورج المستشرق الطيّب الذكر البارون فون روزِنْ فتلطَّف وقابل النسخة الحسّونيَّة على الاصل الذي ترى منهُ مثالًا في صدر طبعتنا . فتحفَّز الاب الغيور بعد ذلك للعمل ونشر الديوان بأُهبة علميَّة مستوفية ضاعفت قيمتهُ فبلغ مع حواشيهِ وملحوظاتهِ المتنوّعة ٤٠٠ صفحة في اربعة اقسام . هذا فضلًا عن طبعهِ البديع الذي قلّما يُشبههُ كتاب آخر في مطبوعات الشرق والغرب

ولمَّا كانت السنة ١٩٠٥ توفَّق حضرة الاب انستاس الكرملي المرسل في بغداد فوجد نسخة مخطوطة من ديوان الاخطل في دار السلام . فتمكَّن متولّي طبع الديوان من اقتنائها بهمَّة الاب الكرملي فنشرها بتصوير النور وطبع الحجر لما فيها من الزيادات والروايات والشروح التي لا توجد في نسخة بطرسبورج ودلَّ على كلّ ذلك بتذييلات وفهارس متقنة . فجاء هذا الاثر طرفةً جديدة تضاف الى السابقة

وبعد ذلك بسنتين أطلع جناب الدكتور الايطالي والمستشرق اوجينيوس غريفيني الاب صالحاني على نسخة ثالثة وُجدت في اليمن ذات فوائد جمَّة فرضي ان ينشرها في مطبعتنا كتتمَّة للنسختين السابقتين . وقد عُلّق عليها ايضاً كثير من التعليقات المفيدة والفهارس المدقَّقة مع المقدَّمات المتنوّعة . فزاد اقبال العلماء على هذا الديوان الجميل

ثمَّ بلغ حضرة الاب انَّ في الاستانة العليَّة في المكتبة المعروفة بالعموميَّة (ع ٥٤٧) نسخةً فريدة قديمة جدًّا بخطّ يقرب من الخط الكوفي من نقائض جرير والاخطل فيها عدَّة قصائد ليست في نسخ الديوان او هي اتمُّ منها . فلم يصبر عنها حتى تجشَّم السفر الى عاصمة الدولة والحربُ على وشك الانتشاب فاستنسخها واعدَّها للطبع في بُهرة الحرب فما كادت تحطّ اوزارَها حتى باشر بنشرها فجاءت اثرًا رابعاً لا يقلّ

ثمة عن الآثار المتقدمة كما شرحنا ذلك في مقالة انتقادية في المشرق (٢٠:[١٩٢٢]: ١٤٤-١٤٨)

ويضاف الى المطبوعات السابقة ملحق على ديوان الاخطل «يحتوي زيادة ايضاح في الشرح وتصحيح اغلاط ومقابلات وفهارس للاعلام والالفاظ اللغوية ظهر منه قسمهُ الاول في ١٠٧ صفحات دقيقة الحروف وسيظهر عمّا قريب ان شاء الله قسمهُ الثاني الاخير . جازى الله اوفر جزاء القائم بهذا العمل الذي تنوء تحت عبئهِ مناكب الفحول

﴿ نخبة من شعرهِ ﴾ انّنا لو حاولنا ان نختار شيئاً من ديوان الاخطل اصابنا ما اصاب تلك الاعرابيّة التي سُئلت عن ايّ اولادها احبُّ اليها والافضل لديها فكانت اذا ذكرت الواحد منهم بعد الآخر قالت انّهُ الاحبُّ اليها والافضل حتى انتهت الى قولها بعد حيرتها : انّهم كالحلقة المُفرَغة لا يُدرَى اين طرفاها . فكذلك اذا اعتبرنا قصائد الاخطل وجدنا كلًّا منها جديرة بالذكر لمحاسنها . على انّنا في آخر امرنا اضطرّنا ضيق المجال ان نُثبت نُتفاً قليلة من شعرهِ نجعلها كمثال في كل باب

﴿ اقوال الاخطل في الوصف ﴾ للشاعر التغلبي في هذا المعنى اقوال جميلة من الشعر الحرّ حتى قيل عنهُ انهُ فاق على سواهُ من الشعراء بالوصف فلهُ في الزهد (الديوان ١٧٦-١٧٧) (من الطويل) :

أعاذِلَتيَّ اليومَ وَيحكما مَهلَا ... وكُفّا الأذى عنّي ولا تُكثِرا عَذْلا
ذَراني تَجُدْ كفّي بمالي فانّني ... سأُصبحُ لا أَسطيعُ جُودًا ولا بُخلا
اذا وضعوا فوقَ الضريحِ جنادلًا ... عليَّ وخلّيتُ المَطيّةَ والرَّحلا
وأبكيتُ من عِتبانَ كلَّ كريمةٍ ... على فاجعٍ قامت مشقّقةً عُطْلا(١
مُدمّيةً حرًّا من الوجهِ حاسرًا ... كأن لم تُمِتْ قبلي غلاماً ولا كَهلا

١) عتبان قوم من بني تغلب . والفاجع امرأتهُ الثكلى . والمشقّقة التي تشقّ ثيابها حزناً . والعطل المجرَّدة من الحُلي

وقد كُنتُ فيما قد بنى ليَ حافري اعاليَــهُ تَوًّا واسفلَــهُ دَحــلَا (١
فــلا انا مجتــازٌ اذا مــا نزلتُــهُ ولا انا لاقٍ ما ثوَيتُ بهِ أهــلا
وقد قسَّموا مالي وأضحت حلائلي قد استبدلَت غيري ببهجتها بَعلَا
أعاذِلَ انَّ النفس في كفّ مالكٍ اذا ما دعا يوماً اجابت لهُ الرُّسْلَا
ذَريني فــلا مالي يَرُدُّ منيَّتي وما إن أرى حيًّا على نفسهِ قُفْلا (٢
وليس بَخيلُ النفس بالمال خالدًا ولا من جوادٍ فأعلمي مَيّتٍ هَزْلا
ألا رُبَّ مَنْ يَخشَى نوائبَ قومهِ وريبُ المنــايا سابقاتٌ بهِ الفِعْلا
ويا رُبَّ غــادٍ وهو يُرجى إيابُهُ وسوفَ يلاقي دون أوبتــهِ شُغلا

وقد اشتهر وصفهُ للفرات عند فيضانهِ (٩٦–٩٧) شبَّه بهِ كرم الخليفة يزيد بن معاوية (من الطويل) :

وما مُزبِدٌ يَعلو جزائرَ حــامرٍ يَشُقُّ اليهــا خَيزُراناً وغَرقدا (٣
تحرَّز منهُ اهلُ عانةَ بعدَما كسا سُورَها الأَعلى غُثاءٌ مُنضَّدا (٤
يُقَمِّصُ بالمــلّاحِ حتى يَشُفَّهُ م الحِذارُ وان كان المُشيحَ المعوَّدا (٥
بِمُطَّرِدِ الآذيِّ جَونٍ كــأنّمــا زَفا بالقراقيرِ النَّعامَ المُطَرَّدا (٦

١) يقول ان حافر قبري قد بناهُ تَوًّا اي منصوب البِناء ودَحلًا اي كالسراب تحت الارض
٢) اي يجعل لنفسه قفلًا ليصونها من الموت
٣) ويروى: جلاميد حامرٍ. وحامر ناحية بين منبج والرقَّة على شاطئ الفرات. والغرقد كبير العوسج ٤) عانة قرية على الفرات. والغثاء ما يقذفهُ النهر من الزَّبَد وقمايات النبات والاوراق. والمنضَّد المتراكم ٥) يقمّص بالملّاح اي يوقع اضطراباً في السفينة حتى يُخيف الملّاح من سَورتهِ وان كان مشيحاً اي حاذقاً في تدبير السفن
٦) المطَّرد المتتابع. والآذيّ الموج والجون الابيض المُزبد. وزفا حثَّ. اي يدفع الفرات بامواجهِ المتوالية المزبدة سفينة الملّاح المُشبهة بشراعها الابيض طير النعام الناشر جناحيهِ عند طردهِ

كـأنَّ بناتِ المـاء في حَجَراتِهِ أَباريقُ اهدَتْهَا دياف لصَرْخدا(١
بأَجودَ سَيْباً من يزيدَ اذا غدَتْ بِهِ بُختُهُ يَحمِلْنَ مُلكاً وسُودَدا(٢

وكم اجاد الاخطل بوصف صيد ثور الوحش فلهُ فيهِ كلُّ حسنة كقولهِ (٢٦٠-٢٦٢) يشبّه ناقتهُ بعد طول سيرها بضمور الثور (من البسيط) :

كأنَّها بعـد ضمّ السَّير جَبْلَتَها من وَحْشِ غَزَّةَ مَوْشيُّ الشَّوى لَهِقُ(٣
باتت لهُ ليلـةٌ هاجتْ بوارحُهـا ومُرْزِمٌ من سَحاب العَيْنِ يأْتلِقُ(٤
يلوذُ ليلتَـهُ منهـا بغَرْقَدَةٍ والغصنُ ينطِفُ فوقَ المَتْنِ والورَقُ(٥
باتَ الى جـانبٍ منها يكفّئُهُ ليلٌ طويلٌ وقلبٌ خائفٌ أَرِقُ(٦
فـالقَطرُ كاللُّؤلؤِ المَنْثورِ يَنْفُضُهُ اذا أَقْشَعَرَّ بِهِ سِرْبالُـهُ اللَّثِقُ(٧
حتى اذا كاد ضوءُ الصُّبحِ يَفضَحُهُ وكاد عنـهُ سوادُ اللَّيـلِ يَنْطلِقُ
هاجتْ لهُ ذُبَّلٌ مُسْحٌ جواعِرُها كأنَّمـا هنَّ من نَبْعيَّـةٍ شِقَقُ(٨
فظَلَّ يَهْوي الى أَمرٍ يُساقُ لـهُ وأَتْبَعَتْهُ كلابُ الحيِّ تَستَبِقُ(٩

١) بنات الماء الطير . والحَجَرات نواحي النهر. شبّه الطير بأباريق من الخمر يرسلها اهل دياف الى اهل صَرْخد وهما قريتان في حوران ٢) البُخْت الابل الخراسانيَّة
٣) يقول انَّ ناقتهُ بعد ان اضمر السَّير جَبْلَتَها اي بدَنَها اشبهت ثور وحشٍ يُرى في انحاء غزَّة . وجلدُ شواهُ اي قوائمهُ . مَوْشيّ اي شبيه بالوشي . واللَّهَق واللَّهِق الشديد البياض
٤) البوارح الرياح الشديدة ثمَّ استعار للسحاب عيناً . مُرزم اي تُسمع صوت الرعد حيناً وتأتلق اي تبرق حيناً آخر ٥) اي يأوي ليلتهُ تحت غَرْقدة اي عوسجة كبيرة بينا يترل على جسمهِ منها نقط المطر التي تقطر عليهِ من اغصان الغرقدة واوراقها ٦) منها اي من الغرقدة . يكفّئهُ يقلّبهُ ذات اليمين وذات الشمال لطول الليل وخوفهِ من الريح والمطر . وهو أرِقٌ اي ساهر يقظان ٧) سرباله جلدهُ . واللَّثِق المبتلّ ٨) هاجت لهُ اي ثارت كلابٌ ذُبَّل اي ضامرة . مُسْح جواعرُها اي دقيقة المؤخّر تشبه بضمورهـا القسيّ المتّخذة من شجرة النَّبع ٩) يهوي الى امرٍ يساق لهُ اي يهبط سائرًا الى موتهِ

يُفَرِّجُ الموتَ عنــهُ قد تَحَضَّرهُ • كِدْنَ يَلْحَقْنَهُ او قد دَنَا اللَّحَقُ (١
لمَّا لَحِقْنَ بهِ أنحى بمِغْوَلــهِ يَمْلا فرائصَها من طعنهِ العَلَقُ (٢
فكرَّ ذو حربــةٍ يحمي حقيقتَهُ اذا نَحا لِكُلاها الرَّوْقُ يَمْتَرِقُ (٣
فهُنَّ من بين متروكٍ بــهِ رَمَقٌ صَرعى وآخرَ لم يُترَكْ بهِ رَمَقُ (٤

ومن اوصافهِ قولهُ (ص ٣-٤) في خمر بَيْسان من قرى فلسطين (من الطويل):

وجاؤوا بِبَيْسانيَّةٍ هيَ بعــد ما يُعَلُّ بهــا الساقي أَلَذُّ وأَسْهَلُ (٥
فصَبُّوا عُقارًا في الإناء كأنَّهــا اذا لَمَحوها جُذْوةٌ تتــأَكَّلُ (٦
تَمُرُّ بها الأيدي سَنيحاً وبارحاً وتوضَع بِاللّـهُمَّ حَيِّ وتُحْمَلُ (٧
وتُوقَفُ أحيــاناً فيَفْصِلُ بيننــا سَماعُ مُغَنٍّ او شِواءٌ مُرَعْبَلُ (٨
فلذَّت لِمُرتاحٍ وطــابت لشاربٍ وراجعني منها مِراحٌ وأَخْيَلُ (٩
فما لَبَّثَتْنا نَشوةٌ لَحِقَتْ بنــا تَوابِعُها ممَّا نُعَلُّ ونُنْهَــلُ (١٠

---

١) فرَّجهُ ابعدهُ . تحضَّرهُ اي شعر بحضورهِ . اللَّحَق الإدراك
٢) انحى اليها بمِغْوَلهِ اي قصد الكلاب بقرنهِ . والعَلَق الدم
٣) اراد بحربته قرنهُ . وكذلك الرَّوْق القرن اي كرَّ الثور دفاعاً عن نفسهِ وحِماه وقصد كُلاها اي جلد صدورها فامترقها وخرَّقها ٤) هي اي الكلاب وقع بعضها صريعاً مُدنفاً وبعضها ميتاً . الرَّمق بقيَّة الحياة
٥) اي انَّ هذه الخمر أطيب اذا كرَّر الساقي سكْبها فيَعُلُّ بها الشاربين اي يسقيهم ثانيةً
٦) العُقار الخمر العتيقة . شبَّهها في انائها بشعلة من النار المتَّقدة
٧) اي تتناولها الايدي تارة من اليمين وتارة من الشمال . ويُذكر عليها اسمُ الله عند رَفْعها ووَضْعها ٨) اي لا يتوقَّفون عن شربها الّا لسماع الغناء او لأكل قِطَع من اللحم المشويّ ورَعبل اللحمَ قطَّعهُ لينضج على النار
٩) المِراح النشاط . والأخيَل كالخُيَلاء العُجب والكبر
١٠) النشوة السكر . والنَّهَل اوَّل الشرب والعَلَل ثانيهِ

فدَبَّتْ دبيباً في العِظام كأنَّها   دبيبُ نِمالٍ في نقاً يتهيَّلُ (١

ومثلهُ ظرافةً وصفهُ (ص٣٢١) للثمل السكران (من الطويل) :

شربْنا فمتْنا مِيتةً جاهليَّةً   مضى اهلها لم يعرفوا ما مُحمَّدُ (٢
ثلثةَ ايَّامٍ فلمَّا تنبَّهتْ   حُشاشاتُ انفاسٍ أتتنا تَرَدَّدُ (٣
حَيينا حياةً لم تكن من قيامةٍ   علينا ولا حَشْرٍ أتاناهُ مَوْعِدُ (٤
حياةَ مِراضٍ حولَهم بعد ما صَحَوْا   من الناس شتَّى عاذلون وعُوَّدُ (٥
وقُلنا لِساقينا عليك فَعُدْ بنا   الى مثلها بالأَمسِ فالعَوْدُ أَحمَدُ
فجاء بها كأنَّما في إِنائهِ   بها الكوكبُ المِرّيخُ تَصفُو وتُزْبِدُ (٦
تفوحُ بماءٍ يُشبهُ الطيبَ طيبُهُ   اذا ما تعاطت كأسَها من يدٍ يدُ
تُميتُ وتُحيي بعد موتٍ وموتُها   لذيذٌ ومَحياها أَلَذُّ وأحمدُ

﴿الفخر﴾ وللاخطل في الفخر (ص٣٠٧) قولهُ يذكر قومهُ (من الطويل) :

ولكن لنا بَرُّ العراقِ وبَحْرُهُ   وحيثُ تَرى القَرْقورَ في الماءِ يسبَحُ
اذا ابتدَرَ الناسُ السِجالَ وجدتَنا   لنا مِقْدحا مجدٍ وللناس مِقْدَحُ (٧

---

١) شبَّهَ فعل الخمرة في العظام بحركات النمل في نقاً يتهيَّل اي في كثيبٍ من الرمل ينهار ويتحدَّر   ٢) يقول شربنا الخمر فسكرنا وكان السكر اشبه بالموت . وذلك على سُنَّة العرب في الجاهليَّة اذ لم يبلغهم تحريم محمَّد للخمر . ويروى : خلا انَّنا في موتنا ليس نُلْحَدُ   ٣) يريد خُمار الخمر ونشوتها ايدام فيهم ثلثة ايَّام الى ان تردَّدت اليهم بقيَّة حياةٍ فصحَوْا منها   ٤) يقول ان الحياة التي عادت الينا ليست كالحياة التي سيحيا بها البشر يوم القيامة اذ يُحشرون من قبورهم   ٥) يريد انَّ تلك الحياة بقي فيها اثر سكرهم فوجدوا حولهم لمَّا صحَوا قوماً يعودونهم كمراض وقوماً يلومونهم لسكرهم
٦) شبَّهها في إنائها بالسيَّارة المرّيخ التي يضرب لونها الى الحُمرة
٧) اي اذا فاخرَنا الناس وجدوا سهمنا من المجد ضِعف سهمهم ونصيبهم

وانَّا لَمَمْدودونَ ما بين مَنْبِجٍ ... فَنافِ عُمانٍ فالحِمى لِيَ أفيحُ (١

ولهُ ايضاً (ص ١٧٨) في الفخر قولهُ (من الطويل) :

وانّي لَمِنْ عَلْياءِ تَغلِبِ وائلٍ ... لَأَطْولُها بيتاً وأَثبتُها أصلا

انا الجُشَمِيُّ الرَّحبُ في الحيِّ منزلًا ... اذا احتلَّ مَضهودٌ بِمُضْنِيَةٍ هَزْلا (٢

وعمّايَ نِعمَ المرءُ عمرٌو ومالكٌ ... وثعلبةُ المُولي بِمَنْظورةٍ فَضْلا (٣

وقد عَلِمت أفناءُ تغلب أنّني ... نُضارٌ ولم أَنْبُتْ بِقَرْقرةٍ أَثْلا (٤

وأَنّيَ يوماً لا مُضِيعٌ ذِمارَها ... ولا مُفلِتي هاجٍ هجا تَغلباً بُطْلا

ومن فخرهِ (٢٤٩—٢٥٠) استقبالهُ للضيف في ليلةٍ شاتية (من الطويل) :

ومُسْتَنْبِحٍ بعدَ الهدوِّ دعوتُهُ ... بصَوْتيَ فاستَعْشى بِنِضْوٍ تَرَغّما (٥

فجاء وقد بلَّتْ عليهِ ثيابَهُ ... سحابةُ مُسْوَدٍّ من الليل أَظلما

وفي ليلةٍ لا يَنبحُ الكلبُ ضيفَها ... اذا نُبِّهَ المَلْوذُ فيها تَغَمْغَما (٦

فلمّا اضاءَتْهُ لنا النارُ وأَصطَلى ... اضاءَت هِجَفّاً مُوحِشاً قد تهشَّما (٧

---

١) اي نحكم على البلاد الممتدَّة بين مدينة مَنْبِج الى انحاء عمان وخصَّ عمان بالناف وهي شجرة مُشَوكة تكثر فيها . ثمَّ قال ان حمانا أفيح اي اوسع واوفر

٢) المضهود الطريد المقهور . والمُضنية المُصيبة المُنهكة للقوى . يقول اذا التجأ الى منزلي بئيسٌ وجد عندي منزلًا رحباً

٣) جُشَم وعمرو ومالك وثعلبة كلهم من اجداد الاخطل في سلسلة نسبهِ الى تغلب

٤) افناء تغلب احياؤها. النُّضار الشجر الصلب العود بخلاف الأَثل اي شجرة الطرفاء يكون خشبُها خوَّارًا اذا نبت في قرقرة اي ارض ليّنة مطمئنَّة

٥) المستنبح الطارق ليلًا الصارخ ليستهدي بنبح الكلاب الى مكان الحيِّ . والهدوّ اوَّل الليل اذ يهدأ الناس . واستعشى طلب موضع النار وهو مقبلٌ على ناقةٍ نِضوٍ اي مهزولة لتعبها وهي تترغَّم اي تُردّد رغاءها ضعيفاً

٦) وصف شدَّة تلك الليلة التي يجمد لبردها الكلب فلا ينبح واذا نُبّه النائم بَلَدَ في مكانهِ ولصق متغمغماً اي يُسمع صوتاً ضعيفاً

٧) يقول لمَّا انارت نارنا وجه ضيفنا وجدناهُ هجفّاً اي غليظاً جافياً . وموحشاً اي بائتاً في القفر مع الوحش

فنبّهتُ سعدًا بعد نوم لطارقٍ اتانا ضئيلًا صوتُهُ حين سلّما (١
فقلتُ لهم هاتُوا ذخيرةَ مالكٍ وان كان قد لاقى لَبوساً ومَطعما (٢
فقال ألا لا تَجشِمُوها وانما تَنَحنَحَ دونَ المُكرَعاتِ لِتُجشَما (٣
وانّي لَحلّالٌ بِيَ الحقُّ اتّقِي اذا نَزلَ الاضيافُ ان أتجهّما (٤
اذا لم تَذُدْ أَلبانُها عن لُحومها حلَبْنا لهم منها بأسيافنا دما (٥

﴿المديح﴾ هي قصائد المديح التي قرّبت الاخطل من الخلفاء. فرفعوا قدرهُ وخصّوهُ بالطافهم. منها قصيدتهُ الرائيّة في مدح عبد الملك بن مروان (ص ٩٨–١١٢) وفيها يقول (من البسيط) :

الى امرئٍ لا تُعدّينا نَوافلُهُ (٦ أَظفرَهُ اللهُ فليهنأْ لهُ الظفَرُ
الخائضِ الغمْرَ والميمونِ طائرُهُ خليفةِ اللهِ يُستَسقَى بهِ المطَرُ
والهمُّ بعد نجيِّ النّفسِ يَبعَثُهُ بالحزمِ والاصمعانِ القلبُ والحذَرُ (٧
والمستمرُّ بهِ امرُ الجميعِ فما يَغتَرُّهُ بعد توكيدٍ لهُ غرَرُ (٨
وما الفراتُ اذا جاشَتْ حوالِبُهُ في حافتَيهِ وفي اوساطهِ العُشَرُ (٩

١) سعد غلام الاخطل يدعوهُ لخدمة ضيفهِ الطارق ليلاً الخافت الصوت
٢) ذخيرة مالك اي ناقة ادَّخرها لابنهِ مالك . يُريد ان يُتحف بها ضيفَهُ
٣) يقول انَّ الضيف قال: لا تتكلّفوا مثل هذه الضحيّة لكنّهُ تنحنح اي ردَّ ذلك وامتنع ظاهرًا عن تضحية المُكرَعات وهي الابل وهو يرغبُ باطنًا بان تُهدَى لهُ
٤) يقول اذا حلّ بي الضيف وجب عليّ حقُّهُ واحذر ان استقبلهُ بوجه عبوس .
٥) اي اذا امتنعت الابل عن إدرار لبنها عقرناها ليشرب ضيفُنا دمها
٦) اي لا تفوتُنا هِباتهُ ٧) اي اذا بعثَتْهُ نفسهُ الى امر جليل اهتمَّ بهِ وساعدهُ على القيام بهِ حزمهُ وذكاء قلبهِ وفطنتهِ. والأَصمع الذكيّ من كلّ شيء ٨) اي انّ الجميع ثابتون على ولائهِ. فلا تفاجئهُ بعد ذلك تهلكةٌ. اغترَّهُ حلّ بهِ بغتةً. والغرر الفاجئة
٩) حوالبهُ اي امواجهُ. ويروى: غواربُهُ. والعُشَر كبار شجر العضاه

دَعْذَعَتْهُ رياحُ الصيفِ واضطربَتْ   فوقَ الجآجىءِ من آذِيّهِ غُدُرُ (١

مسحَنْفِرٌ من جبال الرومِ يَستُرُهُ   منهــا اكافيفُ فيها دونَها زَوَرُ (٢

يوماً بأجودَ منــهُ حينَ تسألُــهُ   ولا بأجهَرَ منــهُ حينَ يُجتَهَرُ (٣

ومن مديحهِ المستحسن قولهُ (ص ٢٤٣–٢٤٦) في احد اعيــان قومهِ همّام بن مُطرِّف التغلبيّ (من الطويل):

فتى الناسِ هَمّامٌ وموضعُ بيتهِ   برابيــةٍ يعلو الروابيَ طُولُهــا

فلو كان همّامٌ من الجنّ أصبحت   سُجودًا لــهُ جِنُّ البلادِ وغُولُهــا

نمتْهُ الذُرى من مالكٍ وتعطَّفَتْ   عليهِ الروابي فرعُهــا وأُصولُهــا

أجادت بهِ ساداتُهــا فترغَّبَتْ   لأخلاقهِ أمجادُهــا وحَفيلُهــا (٤

سَبوقٌ لغاياتِ الحِفاظِ اذا جرى   ووهّابُ اعناقِ المئينَ حَمولُها (٥

ودَفّــاعُ ضَيمٍ لا يُسامُ دَنيّــةً   وقطّاعُ أقرانِ الامورِ وَصُولها (٦

وأخّــاذُ أقصى الحقّ لا مُتهضَّمٌ   اخوهُ ولا هَشُّ القَنــاةِ رَذيلُها (٧

أغرُّ أريبٌ ليس يُنقَضُ عهــدُهُ   ولا شاهدًا مغبونةً يَستَقيلُها (٨

---

١) دعذعتْهُ فرّقتهُ. وآذيُّــهُ امواجهُ. والجآجيْ صدور السفن الجــارية على الفرات. والغُدُر جمع غدير ٢) المسحنفر السريع الجري. اكافيف الجبال قِممُها وتلالها. والزَّوَر المَيْل ٣) الجَهير الجسيم الرائع. واجتهرتُهُ اذا اعجبك حسنُهُ

٤) اي رَغب الناس كلُّهم في خيرهِ. والحفيل الجمع الكثير اي الجمهور

٥) قال شارح الديوان: الغاية الأَمد. والحِفاظ ما وجب عليه ان يحفظَهُ. واعناق المئين جماعتُها فيقول هو حَمول لما يُحمَّل ٦) القَرَن الحبل يريد انّ لهُ القطعُ والوَصْل والامر والنهي ٧) هشّ القناة اي رخوها. ويروى: ذَبُولُها ٨) في الديوان انَّ شاهدًا منصوبة على الحاليّة اي لا يشهد خُطّةَ غَبْنٍ ومكر. يَستقيلُها اي تستوجب ان يستغفر ظالمَهُ لاجلها

جوادٌ اذا ما أَمحَلَ الناسُ مُمرِعٌ ... كريمٌ لِجَوْعات الشتاء قَتولُها (١

اذا نائباتُ الدهر شقَّت عليهمِ ... كفاهم أذاها فاستُخِفَّ ثقيلُها (٢

يُهينُ وراء الحيّ نفساً كريمةً ... لكَبَّةِ موتٍ ليس يُودَى قتيلُها (٣

ويعلمُ انَّ المرءَ ليس بخالدٍ ... وأَنَّ منايا الناسِ يَسعى دليلُها

فإن عاش همَّامٌ لنا فهو رحمةٌ ... من الله لم تُنفَس علينا فُضولُها (٤

وان مات لم تَستبدلِ الارضُ مثلَهُ ... لأَخذ نصيبٍ او لامرٍ يعولُها (٥

وللاخطل مديحٌ جليلٌ في مَصْقلة بن هُبَيرة الشيباني(١٤٣)قد ذكرهُ سابقاً حضرة الاب صالحاني في المشرق (١٤ [١٩١١] : ٨٣٨—٨٤١) ورجَّح نصرانيَّة مصقلةَ استناداً الى ما رواهُ الطبري في تاريخهِ(١ : ٣٤٣٤—٣٤٣٨)ومنهُ قولهُ (من البسيط):

دَعِ المُغَمَّرَ لا تَسأَلْ بمصرَعهِ ... واسأَل بمَصْقَلَةَ البكريِّ ما فعلا(٦

بمتْلِفٍ ومُفيدٍ لا يَمُنُّ ولا ... تُهلِكُهُ النفسُ فيما فاتَهُ عَذَلا (٧

جَزْلِ العطاء واقوامٌ اذا سُئلوا ... يُعطون نَزْرًا كما تَستوكِفُ الوَشَلا(٨

وفارسٍ غيرِ وَقَّافٍ بِرَايَتِهِ ... يومَ الكريهةِ حتى يُعمِلَ الأَسَلا(٩

١) أَمحَلَ الناس أقحطوا. ومُمرِع ذو خصب ونعمة. . وقَتولها اي مُزيلُها بعطائهِ

٢) شقَّتْ صَعُبت. واستُخِفَّ اي وُجِد خفيفاً

٣) وراء الحيّ اي دونَهُ. والكَبَّة الدفعة في القتال. واودى هلك. يقول انهُ يخاطرُ بحياتهِ في سبيل قومهِ ويعرّض بنفسهِ لميتةٍ تخلّد ذكر صاحبها ٤) اي عيشتهُ نعمة من الله لم يبخل الله علينا بفضلها ٥) لأَمرٍ يعولُها اي يعمُّها. ويجوز يَغولها اي يدهمها ويهلكها

٦) المغمَّر الذي فَضَلَهُ غيرُهُ. اراد بهِ القعقاع الذهليّ. واسأل بهِ كاسأل عنهُ

٧) لا تُهلكه النفس اي لا تبكّتهُ ولا تلومهُ عن كثرة ما بذلَهُ جودًا وكرماً

٨) استوكفَهُ استمطرهُ. والوَشَل الماء القليل. شبَّه عطاء غيرهِ بالماء القليل وعطاء الممدوح بالوفرة والكثرة ٩) اي اذا نزل الى ميدان الوغى ونشر رايتهُ في يوم الحرب لا يزال يتقدَّم حتَّى يطعن العدوّ بأسلهِ اي رمحهِ

﴿الهجو﴾ كما امتاز الاخطل بالوصف والفخر والمديح كذلك صوَّب الى اعدائهِ سهام الهجاء . وقد رأيتَ في اخبارهِ انَّ القسيس والاسقف قد عاقباهُ على تعرُّضهِ لقذف الناس وانَّما هجاء الاخطل مع حدَّتهِ كان مع عَفاف لا تكاد تجد لهُ بيتاً بذيًّا ماجناً اللهمَّ الَّا ما ندر على خلاف قِرنَيهِ جرير والفرزدق فانَّ ديوانها مشحون بضروب الالفاظ البذيَّة والعبارات المستقبحة القذعة . فمن هجاء الاخطل قولهُ (ص ٣٠٥) لعشيرة زهير بن جُندَب (من الطويل) :

لَعمرُكَ انَّا من زُهَيرِ بن جُندَبٍ لَدانونَ لو أنَّ القَرابةَ تَنفَعُ
فأمَّا إناءُ الخير منهم ففارغٌ وامَّا اناءُ الشرّ منهم فمُترَعُ

ومثلهُ قولهُ في المسمَّى ابا مروان (ص ٣٠٤) يهجوهُ لبُخلهِ (من الطويل) :

كأنَّ ابا مَروان يُنزَعُ ضِرسُهُ اذا القومُ قالوا متِّعونا بدِرهَمِ

واوقعُ منهُ قولهُ في بني اسد (ص ٣١٥–٣١٧) وخصَّ منهم خنجرًا (من الطويل) :

بنو أسدٍ رِجلانِ رِجلٌ تَذَبذَبَتْ ورِجلٌ اضافَتها الينا التَّرَاتِرُ (١
فما الدينَ حاوَلتم ولكن دَعاكمُ الى الدينِ جوعٌ لا يُغمِّضُ ساهرُ (٢
بني اسدٍ لا تذكروا الفخرَ بينكم فانتُم لئامُ الناسِ بادٍ وحاضِرُ
بني اسدٍ لا تذكروا المجدَ والعُلَى فانَّكمُ في السوقِ كُذْبٌ فواجرُ (٣

وقال يخاطب خنجرًا :

أَخَنجرُ قد اخزَيتَ قومَكَ بالتي رَمَتكَ فُوَيقَ الحاجِبَينِ السنابرُ (٤

١) تذبذبت اي تقلَّبت وذهبت الى غيرنا . والتراتر الشدائد
٢) كان بنو اسد بن خزيمة نصارى فأسلم بعضهم (اطلب كتابنا النصرانيَّة وآدابها بين عرب الجاهليَّة ص ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩) ٣) كُذْب مخفَّف كُذُب جمع كَذُوب . ويروى : كذب ساهرُ ٤) يشير الى جُرحٍ اصابهُ في جبينهِ في بعض المناوشات . رماهُ بهِ السنابر اي بنو امّ سَنبَر من بني نصر بن قُعَين

فلو كنتَ ذا عزٍّ منعتَ بعضهِ جبينَك أنْ تَدمى عليهِ البصائرُ
فأَبدِ لمن لاقيتَ وجهَكَ واعترِفْ بشنعاءَ للذِّبّان فيها مصايرُ (١
أَمِنْ عوزِ الأسماء سُمّيتَ خنجرًا وشرُّ سِلاحِ المسلمينَ الخناجرُ
ولو كنتَ ابصرتَ القنابلَ والقنا وهَبْوةَ يومٍ هيَّجَتْها الحوافرُ
برابيةِ الخابور ما أقرنَتْ لنا خُزَيْمَةُ اذ سارت جميعاً وعامرُ
فما لك في حيٍّ خُزَيْمَةَ من حصًى وما لك في قيسِ بنِ عَيْلانَ ناصرُ

﴿الإغراء﴾ للاخطل فيهِ اقوالٌ أَحَدُّ من السهام كفى منها مثلًا قولهُ (ص ١٠٥–١٠٦) للخليفة عبد الملك يحذِّرهُ من زُفَر بن الحارث الكِلابي احد انصار ابن زُبَيْر في محاربة بني اميَّة فقال (من البسيط) :

بني أُميَّةَ انّي ناصحٌ لكمُ فلا يَبيتنَّ فيكم آمناً زُفَرُ
واتّخذوهُ عدوًّا انَّ شاهِدَهُ وما تغيَّبَ من اخلاقهِ دَعَرُ (٢
انَّ الضغينةَ تَلقاها وان قَدُمتْ كالعَرِّ يكمُنُ حيناً ثمَّ ينتشرُ (٣

﴿النسيب﴾ وقد عرف الاخطل النسيب اللطيف فاجاد فيهِ كما في سواهُ قال (ص ٢١١–٢١٢) في مطلع قصيدتهِ التي مدح فيها عكرمة الفيّاض (من الطويل) :

أَلا يا اَسْلَمي يا امَّ بِشرٍ على الهَجْرِ وعن عَهْدكِ الماضي لهُ قِدَمُ الدهرِ
لياليَ نلهو بالشباب الذي خلا بمُرْتَجّةِ الأَردافِ طيّبةِ النَّشرِ

---

١) المَصير الموقع. يقول لا تستر تلك الشجّة الشنيعة التي يتراكم عليها الذُّباب ويلزمها
٢) الدَعَر الفساد اي انَّ خارجهُ كباطنهِ دغلٌ وفساد
٣) العَرّ الجَرَب. يريد انَّ ضغينة قلبهِ مها كمنَت فانّها ستفشو وتنتشر

أَسيلةُ مَجْرى الدمع ِخفَّاقةُ الحَشا ... من الهِيف ِمِبرَاقُ التَّرائبِ والنَّحْرِ (١

وتَبْسِم عن أَلْمى شَتيتٍ نباتُهُ ... لذيذٍ اذا جادت بهِ واضحُ الثَّغرِ (٢

من الجازئاتِ الحُورِ مطلَبُ سِرّها ... كَبيضِ الأَنُوقِ المستكِنَّةِ في الوَكْرِ (٣

واني وايّاها اذا ما لقيتُها ... لَكالماءِ من صَوْبِ الغَمامة والخَمْرِ

ولهُ في وصف غادةٍ (ص ٣٢٣) (من الكامل):

ما روضةٌ خضراءُ أَزهر نَورُها ... بالقَهْر بين شقائقٍ ورِمالِ (٤

بَهِجَ الربيعُ لها فجادَ نباتُها ... ونمَتْ بأَسحَمَ (٥ وابلٍ هطَّالِ

حتَّى اذا التفَّ النباتُ كأَنَّهُ ... لونُ الزَّخارِفِ زُيِّنَتْ بِصِقالِ

نفَتِ الصَّبا عنها الجَهامَ وأَشرَقَتْ ... للشمسِ غِبَّ دُجُنَّةٍ وطِلالِ (٦

يوماً بأَمْلَحَ منكِ بَهْجَةَ مَنطِقٍ ... بَيْنَ العَشِيِّ وساعةَ الآصالِ

حسناً ولا بألذَّ منكِ وقد صغَتْ ... بعضُ النجومِ وبعضهنَّ تَوالي (٧

﴿الحِكَم﴾ ولا يخلو ديوان الاخطل من الاقوال الحكميَّة والامثال الصائبة كقولهِ (٢٥٨) (من الطويل):

---

١) الاسيلة الصقيلة الخدَّين. خفَّاقة الحشا اي ضامرة الحشا. والهِيف جمع هَيفاء. والترائب جمع تَريبة موضع القلادة ٢) اللَّما اللَّثَة التي تضربُ الى السواد. اراد بالشتيت الاسنان غير المتراصّة المتراكبة ٣) شبهها بالجازئات جمع جازئة وهي الظبية ووصفها بالعفاف والتحصُّن ٤) القَهْر اسافل الحجاز ممَّا يلي نجدًا. والشقائق جمع شقيقة وهي الفُرْجة بين جبلين تنبت العشب ٥) الاسحم السحاب المظلم لامتلائه ماء ٦) الجهام السحاب الذي اراق ماءهُ. وغبَّ دُجُنَّةٍ اي بَعْد ظلامها. والدُّجُنَّة الغيم الريَّان المظلم. والطِلال جمع طَلّ وهو المطر الضعيف. وصف الروضة وحسنها عند شروق الشمس عليها بعد ان رَوِيت من مياه الامطار ٧) يقال صغَت النجوم اذا مالت للغروب. وتوالي النجوم اواخرها

وانَّ امرءًا لا ينثني عن غَوَايــةٍ اذا مــا اشتهتهــا نفسُهُ لَجَهُولُ

وكقولهِ (الديوان ٥٥) (من الكامل) :

وصاحبِ صَبْوةٍ صاحبتُ حيناً فــتُبْتُ اليومَ من جَهْــلٍ وتابا
ونفسُ المرء ترْصُــدُهــا المنــايا وتَحْــدُرُ حولــهُ حتى يُصَــابا
إذا أَمَرَتْ بــهِ أَلــقَتْ عليــهِ أَحــدَّ سِلاحِهــا ظُفرًا ونابا
وأَعلمُ أنني عمــاَّ قــليــلٍ ستكسوني جنــادِلَ او ترابا

وقولهِ (٧٣) (من البسيط) :

اليومَ أُجهِدُ نفسي ما وَسِعتُ لكم وهل تُكلَّفُ نفسٌ فوقَ ما تَسَعُ

وقولهِ (١٤٣) (من البسيط) :

وبينما المرءُ مغبوطٌ بمــأمنــهِ اذ خانَهُ الــدهرُ عمَّا كان فانتقلا

وقولهِ(١٥٨) وهو مسك الختام (من الكامل) :

والنــاسُ هَمُّهمُ الحيــاةُ ولا أرى طولَ الحيــاةِ يزيدُ غيرَ خبــالِ
واذا افتقرتَ الى الذخائرِ لم تجِدْ ذُخرًا يكونُ كصالحِ الأعمالِ

فنكتفي بهذا القليل علَّهُ يبعث في قلوب القرّاء الرغبــة لدرس شعر الاخطل ومعرفــة خواصّهِ ولاسيَّما انَّ حضرة متولّي طبعه قد قرَّبهُ منهم بتوفيرِ الاسبــاب لاقتباس منافعهِ الجمَّة

١٠ القطامي التَّغْلبي

﴿اسمهُ ونسبهُ﴾ قال عبــدالله بن سلّام الجُمَحيّ في كتابهِ طبقات الشعراء

(éd. Hell,121): اسمهُ عُمَير بن شُيَيم بن عمرو احد بني بكر بن حُبَيب بن عمرو بن غَنم بن تَغلِب» والقُطامي بفتح القاف وضمّها لقبٌ غلب عليهِ وهو اسم من اسماء الصقر معناه المحدِّد البصر الى الصيد لقولهِ (من الرجز) :

يَصُكُّهنَّ جانباً فجانبا   صَكَّ القُطاميِّ القَطا القَواربا

وقد لُقِّب ايضاً بلقب آخر فدُعي بصريع الغواني لقولهِ (من الطويل) :

صريعُ غوانٍ راقهنَّ ورُقنَهُ   لَدُنْ شبَّ حتى شاب سودُ الذوائبِ

والقطاميّ من الأَراقم والاراقمُ احياء من تغلب يجمعهم هذا الاسم وهم ستَّة جُشم ومالك وعمرو وثعلبة ومعاوية والحرث. قيل لهم ذلك امَّا من الرَّقم اي الكثير لعددهم وامَّا تشبيهاً بالأَراقم اي الحيَّات لشبه عيونهم بها . وقد افتخر القطاميّ بنسبتهِ اليهم فقال (من الوافر) :

ويَرْفِدُني الأَراقِمُ خيرَ رِفْدٍ   وشيبانُ بنُ ثعلبةَ القُرومُ

والقطاميّ ابن اخت الاخطل التغلبي الشهير السابق ذكرهُ

وللقطامي التغلبي سميَّان شاعران مثلهُ الَّا انَّهما اقلّ شهرةً ذكرهما الآمديُّ في كتابه المختلف والمؤتلف وكلاهما كان في زمانهِ في عهد بني اميَّة: احدهما القطامي الضَّبعي من ضبيعة بن ربيعة بن نزار كان ابوهُ من اصحاب خالد القسري والي الكوفة. والآخر القطامي الكلبيّ واسمهُ الحصين وهو ابو الشرقيّ الوليد بن القطامي

﴿دينهُ﴾ قال ابو الفرج الاصبهاني في الاغاني (٢٠ : ١١٨) : وكان (القطاميّ) نصرانيًّا وهو شاعر اسلاميّ. فقولهُ «كان نصرانيًّا» يثبتهُ : اوَّلاً نسبهُ الى تغلب القبيلة المتحمّسة في دينها حتى ايَّام بني عبَّاس . وثانياً قرابتهُ الى الاخطل الراسخ في دينهِ النصراني كما رأيت والقطاميّ ابنُ اختهِ. وثالثاً افتخارهُ بقومهِ وبحروبها ومآثرها ما يدلُّ على مجاراتهِ لهذيها . رابعاً ولا يخلو شعر القطامي من اشارات الى التوراة والكتب النصرانيَّة (اطلب كتابنا النصرانيَّة وآدابها بين عرب الجاهليَّة (ص ٢٦٣ و٢٧١)

امّا قول صاحب الاغاني انهُ «شاعر اسلامي» فليس معناهُ انهُ صار مسلماً بل انهُ عاش في الاسلام ولم يبلغ عهد الجاهليَّة كالمخضرَمين. ولعلَّ هذا الذي خدع ابن عساكر في تاريخ دمشق فقال عن القطامي «كان نصرانيًا فأسلم» وهو اوَّل من قال بذلك وابن عساكر من كَتَبة القرن السادس للهجرة (توفّي سنة ٥٧٢ هـ) وعنهُ اخذ الذين قالوا باسلام القطاميّ كعبد القادر البغدادي (في الخزانة ١ : ٣٩٣) وصاحب معاهد التنصيص. وقد جنح الى ذلك ايضاً المستشرق الالماني «بَرْث» (Barth) الذي نشر ديوانهُ فعدَّهُ من المسلمين مستشهدًا بابن عساكر. وليس في نسخ ديوان القطامي ما يؤيّدهُ في ذكر نسبهِ الّا انَّ بعض النسَّاخ زاد ذلك على هامش نسخة مصر مستندًا الى ابن عساكر. امّا ما ورد في بعض ابيات القطامي من مدح الاسلام والمسلمين فيمكن حَملهُ على المجاملة كما ترى في شعر الاخطل

﴿اخبارهُ﴾ لا يُعرف الّا القليل من اخبار القطاميّ أزهر في القسم الثاني من القرن السابع في ايَّام الامويين بعد معاوية وكان معاصرًا للاخطل وهو اصغر منهُ سنًّا فعاش زمناً بعدهُ ولم يبلغ عهد بني عباس. وللقطامي ذكرٌ في حروب قومهِ التي جرت لهم مع القيسيين ومرَّ وصفها في ترجمة الاخطل (اطلب الصفحتين ١٧٥–١٧٦). ومن ايَّام تلك الحرب يوم ماكِسين ويقال لهُ ايضاً يوم القناطرة. وماكسين قرية لبني تغلب على شاطئ الفُرات تبعد عن رأس العين مسيرة يوم جنوباً وبها حَمَّة. قال البكري في معجم ما استعجم (ص ٥٣٣): «وبهذه القرية لَقي عُمَير بن الحُباب بني تغلب حين غزاهم فاقتتلوا عند قنطرة القرية وهي اوَّل قرية تراجعوا فيها فقُتل فيها من تغلب زهاء خمسمائة وكان رئيسُهم ورئيس من معهم من النَّمر وبكر شُعَيث بن مُلَيل». امّا في الاغاني (٢٠ : ١٢٨) فيقول انَّ «رئيس تغلب يومئذٍ عبدُالله بن سُرَيح بن مرَّة.. فقُتل وقُتل اخوهُ». قال: «وأُسر القطاميّ الشاعر وأُخذت إبلُهُ فاصاب عُمَيرُ واصحابهُ شيئاً كثيرًا من النعم... ولمَّا أُسر القطامي أَتى زُفَر بن الحرث بقرقيسيا فخلّى سبيلَهُ وردّ عليهِ مائة ناقة كما ذكر ادهم بن عمران العبديّ» فنظم القطامي القصائد في مديح زفر كما سترى

ولم يتّصل القطاميُ بالخلفاء كمواطنهِ الاخطل وانَّما بلغ شعرهُ عبد الملك بن مروان فاثنى على جودة قريحتهِ. وليس في اخبارهِ ما يدلُّ على تقرُّبهِ من الخلفاء على

انهُ جاء في نسخة مصر انَّ القطاميّ قال في مديح عبد الملك قصيدتهُ الرائيَّة التي اوَّلها (من الوافر) :

أَمِنْ طَرَبٍ بكيتَ وذكرِ أهلٍ ... وللطَرَبِ المُتاحِ لك ادّكارُ

ولا بُدَّ انَّها أصابت موقعاً لدى عبد الملك وهي عامرة الابيات الَّا انَّنا لم نجد في اخبار القطاميّ ما يُشير الى دخولهِ على هذا الخليفة ونَيْلهِ سوابغهُ . وفيها يقول ونعم القول :

اميرُ المؤمنين هُدًى ونورٌ ... كما جَلَّى دُجى الظُلَمِ النهارُ

فريعُ بني أُميَّةَ من قريشٍ ... همُ السِرُّ المهذَّبُ والنُضارُ

وعبدُ المَلِكِ للفُقراء طُعْمٌ ... وحرزٌ ليس مَعقِلُهُ يُضارُ

وقد حملَ الخلافةَ ثمَّ حلَّتْ ... بها عند ابنِ مروانَ القَرارُ

امَّا اخصّ مديحهِ فهو في زفر الكلابي وفي بعض الاعيان كعبد الواحد بن سليمان وهو ابن عم عبد الملك وكأسماء بن خارجة الفزاريّ

﴿شعرهُ وديوانهُ﴾ القُطاميّ يُعدّ بين الشعراء المُقلّين . وقد نظمهُ الجُمحيّ في كتاب طبقات الشعراء (ص ١٢١–١٢٢) في جملة شعراء الطبقة الثانيـة في الاسلام وذكرهُ مع خُداش بن بشر المعروف بالبعَيث الدارمي وكُثيّر بن عبدالرحمان الخزاعيّ وغَيلان الشهير بذي الرُّمَّة

وقد وصف قدماء العرب القطاميَّ بالشاعر الفحل واستحسنوا شعرهُ . قال الجمحي في طبقات الشعراء (ص١٢١) : كان القطامي شاعرًا فحلًا رقيق الحواشي حُلو الشعر والاخطل أبعد منهُ ذكرًا وامتن شعرًا . وقال ابو هلال (حماسة ابي تمام ص١٧٠) : وكان القطامي فحلًا رقيق الحواشي كثير الامثال . وقال ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء (ص٤٥٣) : وكان (القطامي) حسن التشبيب رقيقهُ . وقال ابو البركات محمَّد الغزّي العامري في كتابهِ تقريب المعاهد في شرح الشواهد (نسخة مكتبتنا الشرقيَّة ص٦١) : هو شاعر اسلاميّ مُقلّ فحلٌ مجيد

وجاء في الاغاني (٢٠ : ١١٨) عن الشَّعبي قال: قال عبد الملك بن مروان وانا حاضر للاخطل: يا أخطلُ أتحبّ انَّ لك بشعرك شعرَ شاعرٍ من العرب؟ قال: اللهمَّ لا إلّا شاعرًا منّا مُغْدَف القناع خامل الذكر حديث السنّ إن يكن في احدٍ خيرٌ فيكون فيهِ ولوددتُ انّي سبقتهُ الى قوله (من البسيط):

يَقْتُلْنَنا بحديثٍ ليس يَعلَمُهُ مَن يَتَّقِينَ ولا مكنونُهُ بادِ
فهنَّ يَنْبِذْنَ من قولٍ يُصِبْنَ بهِ مواقعَ الماء من ذي الغُلَّة الصادي

امّا ديوانهُ فقد صبر على كوارث الزمان. فقد ذكرهُ الحاج خليفة في كشف الظنون (٣ : ٣٠٢) وقد تصحَّف هناك اسمهُ « بالقدامي عمير بن سيم » (كذا). وفي طبعة الاستانة (ص٥١٩) «عمرو بن سليم». وفي كلاهما تُذكر سنة وفاته في ١٠١هـ الموافقة للسنة ٧١٩ م. وديوان القطامي شرَحهُ كما يُروى في عرض ديوانه ابو سعيد الحسن السكّري. ومنهُ نسختان الواحدة في برلين (Ahlwardt, VI, p. 548) كُتبت سنة ٣٦٤ هـ (٩٧٤م) وقابلها ابو علي المرزوقي. والاخرى في المكتبة الخديويّة تاريخها ١٦ ربيع الآخر سنة ٥٨٢ (١١٨٦ م) وعنها نقلت نسخة مكتبتنا الشرقيَّة

وقد دخلت من شعر القطامي قصيدتهُ اللاميَّة في جمهرة شعراء العرب فنظمها هناك ابو زيد القرشي في جملة المَشوبات (طبعة مصر ١٥١) ارادوا بها القصائد ذات المعاني المختلطة

وقد اهتمَّ بنشر النسخة البرلينيَّة المرحوم المستشرق بَرْت (G. Barth) طبعها سنة ١٩٠٢ في ليدن ونقلها الى الالمانيَّة وعلّق عليها عدَّة ملحوظات مع روايات شتّى وجدها في نسخة مصر وفي مخطوطات ومطبوعات الادباء. وها نحن ننقل نُتفًا منها ونضيف اليها ما وقفنا عليهِ في ابحاثنا الخاصَّة عن هذا الشاعر في بعض مخطوطات مكتبتنا الشرقيَّة والمطبوعات الحديثة

﴿منتخبات من شعر القطامي﴾ من اجود شعر القطامي لاميّتهُ المعروفة بالمَشوبة. وقد ذكر في الاغاني (٢٠ : ١٩) ما كان الباعث لنظمها قال: قال ابو عمرو بن العلاء: اوّل ما حرَّك من القطامي ورفع من ذكره انهُ قدم في خلافة الوليد بن عبد الملك دمشق ليمدحهُ فقيل لهُ انهُ بخيل لا يُعطي الشعراء. وقيل بل قَدِمها في خلافة عُمر

ابن عبد العزيز فقيل لهُ انَّ الشعر لا ينفُقُ عند هذا ولا يُعطي شيئاً . وهذا عبد الواحد ابن سليمان(١ فأمدحهُ . وكان عبد الواحد ابن عمّ الخليفة عبد الملك بن مروان فمدحهُ بقصيدتهِ اللاميَّة التي اوَّلها (من البسيط) :

انّا مُحَيُّوكَ فاَسلَمْ ايُّها الطَّلَلُ وان بَلِيتَ وانْ طالت بك الطِّيَلُ

فقال لهُ: كم أمّلتَ من امير المؤمنين . قال : أمّلتُ من امير المؤمنين ان يعطيني ثلاثين ناقة . فقال : قد امرتُ لك بخمسين ناقة موقرة بُرًّا وتمرًا وثياباً . ثم امر بدفع ذلك اليهِ . وفيها يقول مادحاً لعبد الواحد ولقريش :

أَهلَ المدينة لا يَحزُنْكَ شأنُهمُ اذا تَخطَّأَ عبدَ الواحد الأَجلُ
امَّا قريشٌ فلن تلقاهُمُ أَبدًا إِلَّا وهم خيرُ من يَحفَى ويَنتعلُ
الَّا وهم جبلُ اللهِ الذي قَصُرَتْ عنهُ الجبالُ فما ساوى بهِ جبَلُ
همُ الملوكُ وابناءُ الملوكِ لهم والآخذون بهِ والساسةُ الأُوَلُ

وفي هذه اللاميَّة يقول متمثِّلًا :

والعيشُ لا عيشَ الَّا ما تَقَرُّ بهِ عينٌ ولا حالَ الَّا سوف تنتقلُ
والناسُ مَنْ يَلقَ خيرًا قائلونَ بهِ ما يشتهي ولِأُمّ المُخطئِ الهَبَلُ
قد يُدرِكُ المتأنّي بعضَ حاجتهِ وقد يكون مع المستعجلِ الزَّلَلُ

وزاد في الحماسة البصريَّة بيتاً لم يُروَ في الديوان :

وربَّما فاتَ قوماً بعضُ أَمرِهمُ منَ التأنّي وكان الحَزمُ لو عجلوا

امَّا في الاغاني (٢٠ : ١٢٠) فلهذا البيت رواية اخرى عن لسان رجل كان يديم الاسفار سافر الى الشام ومعهُ اعرابيّ فتمثّل ببيت القطامي «قد يدرك الخ» فقال: ما

١) وفي معجم البلدان لياقوت (٤ : ٤٨٩) يدعوهُ عبد الواحد بن الحارث بن الحكم

زاد قائل هذا الشعر على ان يثبّط الناس عن الحزم فهلّا قال بعد بيتهِ هذا :

وربّما ضرّ بعضَ الناس بُطؤُهمُ   وكان خيرًا لهم لو أنّهم عجلوا

ولهُ في زفر بن الحرث الكلابي الذي اطلق سبيلهُ من الاسر قصائد عامرة الابيات. اشهرها عينيّتهُ التي افتتحها بقولهِ يخاطب ضباعة ابنة زفر (من الوافر):

قِفي قبلَ التفرّقِ يا ضُباعا   ولا يكُ مَوقفٌ منكِ الوَداعا

قِفي فادي أسيركِ انّ قومي   وقومَكِ لاأرى لهمُ اجتماعا

أَلَمْ يَحزُنْكِ أنَّ جبالَ قيسٍ   وتَغلِبَ قد تَبايَنتِ انقطاعا

أَلم يحزنكِ انّ ابنَيْ نِزارٍ   أسالا من دِمائهما التِّلاعا

ومنها في شكر زُفر على تخلية سبيلهِ وانعامهِ عليهِ بمائة ناقة :

أَكُفرًا بعد ردِّ الموتِ عنّي   وبعد عَطائكَ المائةَ الرِّتاعا (١

إذَن لهلكتُ لو كانت صِغارٌ   من الاخلاقِ تُبتَدَعُ ابتداعا (٢

فلم أرَ مُنعِمينَ أَقلَّ مَنًّا   واكرمَ عندما اصطنعوا اصطناعا

من البِيض الوجوهِ بني نُفَيلٍ   أَبَتْ أخلاقُهم الّا اتّساعا (٣

بني القَرْم الذي عَلِمتْ مَعَدٌّ   تفرَّعَ قومَها سَعةً وباعا

وقد مدحهُ ايضاً بداليّتهِ التي يقول فيها (من البسيط) :

من مُبلِغٌ زُفَرَ القيسيَّ مِدحتَهُ   من القطاميِّ قولًا غيرَ إفنادِ (٤

---

١) اكفرًا اي أأجزيك كفرًا. والرتاع الراتعة في المرعى. ويروى: الرباعا اي التي تُنتَج في الربيع

٢) ابتدَعَ الشيء استحدثَهُ اي لو ابتدعتَ فيَّ اموزًا صعابًا لهلكتُ

٣) بنو نُفَيل بن عمرو بن كلاب رهط زُفَر الممدوح

٤) غير إفناد اي لا كذب فيهِ

اني وإن كان قومي ليس بينهمُ ... وبين قومكَ إلّا ضربةُ الهادي (١

مُثنٍ عليك بما اَستبقيتَ معرفتي ... وقد تعرَّضَ مني مقتلٌ بادِ (٢

فلن أُثيبكَ بالنَّعماء مَشتمةً ... ولن أُبدِّلَ إحساناً بإفسادِ

فإن هجوتُكَ ما تمَّتْ مُكارمتي ... وان مدحتُ فقد أَحسنتَ إِصفادي (٣

اذ الفوارسُ من قيسٍ بشِكَّتهم ... حولي شُهودٌ وما قولي بشَهَّادِ (٤

اذ يَعتريكَ رجالٌ يسألون دمي ... ولو أَطعتَهمُ أَبكيتَ عُوَّادي

فقد عصيتَهمُ والحربُ مُقبلةٌ ... لا بل قدحتَ زنادًا غيرَ صَلَّادِ (٥

والصِيدُ آلُ نُفَيلٍ خيرُ قومِهمُ ... عند الشتاء اذا ما ضُنَّ بالزادِ (٦

المانعونَ غداةَ الروعِ جاءَهمُ ... بالمَشرَفيّةِ من ماضٍ ومُنآدِ (٧

ايامَ قومي مكاني مُنصِبٌ لهمُ ... ولا يظنُّون إلّا انني رادي (٨

فأَنتاشني لكَ من غبراءَ مُظلمةٍ ... حَبلٌ تضمَّنَ إِصداري وايرادي (٩

فان قَدَرْتُ على خيرٍ جَزَيتُ بهِ ... والله يجعلُ اقواماً بمِرصادِ

قال الجمحيّ: لمّا سمع زفر هذا البيت قال: لا أَقدرَكَ الله على ذلك. وقال يمدح زفر ايضاً (من الرجز):

---

١) الهادي العنق اي قطع الرؤوس

٢) استبقيت معرفتي اي استبقيتني لمعرفتك أَيَّاي اذ ظهر مني ما يستوجب قتلي

٣) الإصفاد العطيَّة ٤) الشِكّة السلاح ٥) يقال صَلَدَ الزند اذ لم يخرج نارًا ٦) الصِيد الاشراف جمع أَصيَد. وضُنَّ بالزاد بُخل بهِ

٧) المشرفيّة السيف. والماضي المستقيم والمُنآد المُعوَّج

٨) يقال أَنصبَهُ اذا آلمهُ واوجعهُ. ويروى: مُنصِبٌ لهم. والرادي الهالك

٩) انتاشني تداركني الغبراء الارض. ويروى: من عَمًا. ثمَّ شبَّه مخلّصه بحبلٍ مدَّهُ الله اليه فتشبَّث بهِ ونجا

يا زُفَرُ بنَ الحارثِ ابنِ الاكرمِ قد كُنتَ في الحي قديمَ المَقدمِ (١

اذ أحجم القومُ ولمَّا تُحجِمِ انك وأبنَيك حَفِظتُم مَحرَمي (٢

وحقَنَ اللهُ بكفَّيك دَمي من بعد ما ذَبَّ لساني وفمي (٣

والرمحُ يهتزُّ اهتزازَ المِحجَمِ (٤ من بعد ما اختلَّ السنانُ مِعصَمي

أنقذتَني من بطلٍ مُعمَّمِ والخيلِ تحت العارضِ المسوَّمِ (٥

وتغلبٌ يدعونَ يا لَلأرقَمِ (٦

ومن امثاله وحكمه قوله من قصيدة (من الكامل) :

فأرى المعيشةَ انما هي ساعةً فرحٌ وساعةُ كُربةٍ وتَحَنُّقِ

وأرى المنيَّةَ للرجالِ حبائلًا شَرَكًا يُعادُ بهِ لمن لم يَعلَقِ

واذا أصابك والحوادثُ جمَّةٌ حَدَثٌ حداك الى أخيك الأوثقِ

فهمُ الرجالُ وكلٌّ ذلك منهمُ تَجِدَنْ في رَحْبٍ وفي متضيِّقِ

انَّ الرجالَ اذا طلبت نوالَهمْ منهم خليلُ مَلاذةٍ وتَملُّقِ

واخو مُكارَمةٍ على عِلَّاتهِ فوجدتُ خيرَهُمُ خليلَ المَصدَقِ

وروى في الاغاني (٢٠ : ١٢٠) منها بيتًا لم يُروَ في الديوان

ليت الهمومَ عن الفؤادِ تفرَّجتْ وجلا التكلُّمُ للِّسانِ المُطلَقِ

وقد أنشد الشعبيّ هذه الابيات عند الخليفة عبد الملك بن مروان فاستحسنها

١) ويروى: في الحرب كريم المقدم ٢) ويروى: انت وابناك صُنتم محرمي

٣) ذبَّ حفَّ وذبل ٤) المحجم آلة الحجّام التي تمصّ الدمّ

٥) المعمَّم السيِّد صاحب العمامة . والخيل المسوَّم المتاز بعلامته

٦) يا للارقم يريد الاراقم قوم التغلبيين يدعون بعضهم بعضاً

عبد الملك وقال: أن ثَكِلَت القطاميَّ أمّهُ هذا والله الشعر

ولهُ في الوصف اقوال حسنة منها قولهُ في عجوز من بني محارب نزل عندها ضيفاً فبات بأسوإ ليلة فقال فيها من قصيدةٍ (من الطويل) :

وإنّي وان كان المسافرُ نازلاً ... وان كان ذا حقٍّ على الناس واجبِ
ولا بُدَّ أنَّ الضيفَ مُخبِرُ ما رأى ... مُخَبِّرُ اهلٍ او مُخَبِّرُ صاحبِ
سأُخبرُ بالأنباءِ عن امّ منزلٍ ... تضيَّفتُها بين العُذَيبِ فراسبِ (١
تَقَنَّعتُ في طَلٍّ وريحٍ تلفُّني ... وفي طِرمساء غيرِ ذاتِ كواكبِ (٢
الى حَيْزَبونٍ تُوقِد النارَ بعدما ... تلفَّعتِ الظلماءُ من كلّ جانبِ (٣
تصلّى بها بَرْدَ الشتاء ولم تكن ... تخالُ وميضَ النارِ يبدو لراكبِ (٤
فما راعها إلّا بُغامُ مطيَّةٍ ... تُريحُ بمحسورٍ من الصَّوتِ لاغِبِ (٥
فسلَّمتُ والتسليمُ ليس يَسُرُّها ... ولكنَّهُ حقٌّ على كلِّ جانبِ (٦
فردَّت سلاماً كارهاً ثمَّ اعرضت ... كما انحاشتِ الافعى مخافةَ ضاربِ (٧
فقلتُ لها لا تفعلي ذا براكبٍ ... اتاكِ مُصيبٍ ما أصابَ فذاهبِ (٨
فلمَّا تنازعنا الحديثَ سألتُها ... مَن الحيُّ قالت معشرٌ من محاربِ

١) العُذَيب نهر في جهات الكوفة وراسب موضع قريب منهُ. ويروى: لَمُخبِركَ الانباء
٢) تقنّع تلفّف بالثوب. الطلّ المطر الخفيف والندى. والطرمساء الليلة المظلمة
٣) الحيزبون العجوز المسنّة. وتلفّعهُ التحفهُ
٤) تصلّى البردَ قاسى شدّتهُ. ويروى: برد العشاء. ويروى ذات العشاء
٥) بغامُ المطيّة صوت الابل وحنينُها. وتريح بمحسور اي تُخرج نفَسَها الضعيف. واللاغب المُعيي ٦) الجانب الغريب ٧) انحاشت تقبّضت. ويروى: انحازت
٨) مُصيب ما اصاب اي يكتفي بما يصيبهُ من الضيافة

من المُشترين . القِدّ مما تراهمُ جياعاً وريفُ الناس ليس بناضبِ (١

فلمّا بدا حِرمانُها الضيفَ لم يكن عليَّ مناخُ السُّوء ضربةَ لازبِ (٢

ألا انما نيرانُ قيسٍ اذا اشتَوَوْا لطارق ليلٍ مثلُ نارِ الحُباحبِ (٣

ولهُ في الحماسة قولهُ (حماسة ابي تمام ص ١٧٠) :

مَن تكُنِ الحضارةُ اعجبتْهُ فأيُّ رجالِ باديةٍ ترانا (٤

ومَن ربطَ الجحاشَ فانَّ فينا قَناً سُلُباً وأفراساً حِسانا (٥

وكُنَّ اذا أغرنَ على جَنابٍ وأعوزَهُنَّ نَهْبٌ حيث كانا

أغرْنَ من الضِّباب على حُلولٍ وضبَّةَ إنَّهُ مَنْ حانَ حانا (٦

وأحياناً على بَكْرٍ اخينا اذا ما لم نَجِدْ الّا اخانا (٧

واستحسن ابن قتيبة للقطامي قولهُ في التشبيب (من البسيط) :

وفي الخدورِ غَماماتٌ برَقْنَ لنا حتى تصيَّدْنَنا من كلِّ مُصْطادِ (٨

---

١) اشتواهُ اتخذهُ شواءً . والقِدّ اناء من جلد . وريفُ الناس ارضهُم المخصبة . والناضب الناثر . اي انَّ الذي نزل عندكِ نالهُ البرد والجوع وهو ضيف لناس مخصبين

٢) اي لم اجد في ضيافتها امرًا موجباً لابقى عندها مع حرمانها فولّيتُ ذاهباً

٣) يريد انَّ نارهم لا يصطلي بها ضيف يأتيهم ليلاً فهي كنار الحباحب اي الدويبة المعروفة بسراج الليل ٤) يقول انَّنا ولو كنَّا من اهل البادية فلسنا دون اهل الحضر

٥) يقول انَّ غيرنا يَربطون الحُمُر لاشغالهم وأمَّا نحن فنُزْلة لنا الرماح السُلُب اي الطويلة او السالبة للنفوس والخيل المسوَّمة اي المرعيَّة او المُطعمة

٦) يقول هذه الخيل واربابها اذا حملَتْ على جنابٍ اي ناحيةٍ واحتاجت الى غنائم في اي مكان وجدتْها تُغير على الاباعد من العرب كقبائل الضباب وهي اربعة ضبَّة وضُبَيْب وحِسل وحُسَيْل . والحُلول الحيّ الذين يحلُّون في محلّ واحد . وحان اتى وقتُهُ

٧) بكر قبيلة شقيقة لتغلب . يقول اذا لم يجدوا مطلوبهم عند الاباعد عطفوا على الاقارب ولو كانوا اخوانهم ٨) الغمامة السحابة كنَّى بها عن المحصَّنات بالخدور

يقتُلْنَنا بحديثٍ ليس يعلَمُهُ مَنْ يتَّقينَ ولا مكنونُهُ بادِ
فهنَّ يَنبِذْنَ من قولٍ يُصِبْنَ بهِ مَواقِعَ الماء من ذي الغُلّةِ الصادي

هذه طرفة من ديوان القطامي نُضيف اليها بعض المقاطيع لم نجدها في الديوان. فمن ذلك ما رواهُ ابن سلّام في طبقات الشعراء (ص١٢٢) يمدح بهِ اسماء بن خارجة وهي تروى لغيرهِ فقال (من الوافر) :

اذا ماتَ ابنُ خارجةَ بنِ حِصنٍ فلا مَطَرَتْ على الارض السَّماءُ
ولا رجَعَ البريدُ بغُنْمِ خيرٍ ولا حملَتْ على الطُّهر النساءُ

وروى لهُ في الحماسة البصريّة (نسخة مكتبتنا الشرقيّة ١ : ٢٠) قولَهُ يذكر يوم ذي قار الذي غلب فيهِ العرب جيوش كسرى قال (من الطويل) :

وانْ نوى الداعي بسَيْبَانَ (١) زعزعَتْ رماحٌ وجاشت من جوانبها القِدْرُ
همُ يومَ ذي قارٍ أناخوا فجالَدوا كتائبَ كسرى بعد ما وَقَدَ الجَمْرُ

وروى ايضاً في الحماسة البصريّة (ص١٣٠) قولهُ يمدح بني دارم (من الطويل) :

جزى اللهُ خيرًا والجزاءُ بكفّهِ بني دارمٍ عن كلّ جانٍ وغارمِ
همُ حملوا رَحْلِي وأدَّوا أمانتي اليَّ وردُّوا فيَّ رِيشَ القوادِمِ
ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ قدورَهم على المال امثالَ السنين الحواطمِ
وأن مَواريثَ الأُولى يَرِثونهم كنوزُ المعالي لا كنوزُ الدراهمِ
ومـا ضرَّ منسوباً ابوهُ وامُّهُ الى دارمٍ أن لا يكون لهاشمِ

ومن حكمهِ قولهُ في فضل الاكتساب بالبأس على الطمع . (الحماسة البصريّة ٢ : ٨) (من الطويل) :

١) سيان جبل ما وراء وادي القرى (ياقوت ٣ : ٢٠٨)

أرى اليأسَ أدنى للرَّشاد وانَّما دَنا الغَيُّ للانسان من حيثُ يطمَعُ
فدَعْ اكثرَ الأَطماع عنك فانّها تضرُّ وانَّ اليـأس لا زالَ ينفَعُ

وفي الحماسة البصريَّة ايضاً(٢: ٢١٦)بيتان من قصيدته المذكورة في ديوانه(تحت العدد XXI ص ٦١) التي اوَّلها (من الوافر) :

مَنْ يكُ ارعاهُ الحِمى أَخواتُـهُ فما ليَ من اختٍ عوانٍ ولا بِكْرِ

امَّا البيتان ففي وصف الناقة لم يُرويا هناك وهما :

اذا بركَتْ خرَّتْ على ثَفَناتها مجافيةً صُلْباً كقَنطرةِ الجِسْرِ
كأنَّ يدَيْها حين تجري ضُفورُها طريدانِ والرِّجلان طالبَتا وِتْرِ

١١ كَعْب بن جُعَيْل التغلبيّ

﴿اسمهُ ونسبهُ﴾ ويقال : ابن جُعَل قال ابن سلَّام في طبقات الشعراء (ص١٢٩) : «هو كَعب بن جُعَيل بن قُمَيْر التغلبيّ» . وفصَّل الطبري في تاريخه (١: ٧٤٩) نسبهُ فقال : «كَعب بن جُعَيل بن عجرة بن قُمَيْر بن ثَعلبة بن عوف بن مالك بن بكر بن حُبَيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل» . وجاء مثل ذلك في خزانة الادب لعبد القادر البغدادي (١: ٤٥٨) الَّا انهُ قدَّم قُمَيْرًا على عَجرة . ثمَّ قال : «ولكعب هذا اخٌ يقال لهُ عُمَيْر بن جُعَل بالتصغير» وقد دعاهُ ابن قتيبة في الشعر والشعراء «عُمَيرَة بن جُعَيل» . وهو غير عَمِيرة بن جُعَل الذي ورد ذكرهُ في المفضليات (ed. Lyall ص٥٢١—٥١٨) وقد روينا شعرهُ في شعراء النصرانيَّة (ص١٩٥) فهذا قد جاء هناك نسبهُ انهُ «عَمِيرة بن جُعَل بن عمرو بن مالك بن الحرث بن حُبَيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل» ومثلهُ في خزانة الادب (١: ٤٥٩) ثمَّ قال : هو شاعر جاهليّ وكانت امُّ كعب وعميرة تدعى ليلى وهي من تغلب ايضاً

﴿ زمانهُ ﴾ عاش كَعب بن جُعَيل في ايَّام الخلفاء الراشدين وبلغ عهد الدولـة

الاموية ذلك ما يَستدلّ بهِ من شعرهِ واخبارهِ كما ستری . الّا انهُ كان مُسِنّاً في ايام معاوية وابنهِ يزيد وبلغ الى زمن عبد الملك عرفهُ الاخطل شيخاً في ذلك الوقت

﴿دينهُ﴾ لا نشكّ في نصرانيَّة كعب بن جُعيل وهو من تغلب القبيلة النصرانيَّة وشاعرها كمواطنَيهِ القطاميّ والاخطل . وكان مكرَّماً في قومهِ النصارى المتصبين في دينهم . وانما يقال عنهُ انهُ شاعر اسلاميّ كما قيل عن القطاميّ بمعنى كونهِ لم ينبغْ في عهد الجاهليَّة واشتهر في زمن الاسلام . وليس في اخبارهِ وشعرهِ مــا يُشعر بتغييرهِ لدينهِ سوى كلمةٍ سيأتي ذكرها رواها الرواة على صُوَر مختلفة لا يُبنى عليها برهان

﴿اخبارهُ﴾ لا يُعرف من اخبار كعب إلَّا ما رواهُ عنــهُ الكتبة استطرادًا . روى صاحب الاغاني (٧ : ١٧٠) عن يعقوب بن السكّيت « انَّ كعب بن جُعَيل كان شاعر تغلب وكان لا يأتي منهم قوماً الَّا اكرموهُ وضربوا لهُ قُبَّةً حتى انهُ كان تُمدّ لهُ حبال بين وتدين فتُملأ لهُ غنماً . فاتى في مالــك بن جُشَم ففعلوا ذلك بهِ . فجـاء الاخطل وهو غلام فأخرج الغنم وطردها فسبَّهُ عُتبة بن الزعــل (ويروى: الوغل) وردَّ الغنم الى مواضعها فعاد الاخطل وأخرجها وكعب ينظر اليهِ فقال : « انَّ غلامكم هذا لأَخطل » والاخطل السفيه فقال الاخطل فيهِ :

سُمّيتَ كعباً بشرّ العظام وكان ابوكَ يُسَمَّى الجُعَــلْ
وانَّ مكانَكَ من وائل مكانُ القُرادِ من اُستِ الجَمَلْ

فقال كعب: قد كنتُ اقول لا يقهرني الَّا رجلٌ لهُ ذكرٌ ونبأ ولقــد اعددتُ هذين البيتين لأَن أهجى بها منذ كذا وكذا فغلب عليها هذا الغلام

وروى القحذميّ خبر الاخطل على غير صورة قــال (الاغاني) : « وقع بين ابنَي جُعَيل (كعب وعميرة) وامّهما درْء من كلام فادخلوا الاخطل بينهم فقال الاخطل :

لَعَمْرُكَ انّني وابنَي جُعَيل وأُمّهما لإِستــارٌ لئيم

فقال ابن جُعيل : يا غلام انَّ هذا لَخَطَلٌ من رأيك ولولا انَّ امّي سَميَّةُ أُمِــك لتركتُ أُمك يحدو بها الركبان . فسُمّي الاخطل بذلك وكان اسم امّهما وامّ الاخطل ليلى » :

وزاد ابن الكلبي عن قوم من تغلب في قصَّــة كعب بن جُعَيل والاخطل مــا حرفهُ (الاغاني) : « وكان الاخطل يومئذٍ يُقرزم (والقرزمة الابتداء بقول الشعر) فقال

لهُ ابوهُ : أَبِغَرْزَمتك(١ تريد ان تُقاوم ابن جُعَيل ؟ ضربهُ (قال) وجاء ابن جُعَيل على تَفِئة ذلك فقال : مَن صاحب الكلام ؟ فقال ابوه : لا تحفَل بهِ فانهُ غلام اخطل ... فانصرف كعب ولجَّ الهجاء بينهما »

وروى في الاغاني ايضاً (٤ : ١٣٠–١٣٢) انَّ النابغة الجعديّ كان شاعرًا متقدّماً وكان مُغَلَّباً ما هاجى قطّ الّا غُلب. هاجى اوسَ بن مَغراء وليلى الاخيليَّةَ وكعبَ بن جُعيل فغلبوهُ جميعاً . ومما رواهُ من ردود كعب عليهِ قولهُ (من البسيط) :

انّي لَقاضٍ قضاءً سوفَ يتبَعُهُ ... مَنْ أَمَّ قَصدًا ولم يَعدِل الى أَوَدِ
فصلًا من القَوْل تأْتَمُّ القُضاةُ بهِ ... ولا أَجُورُ ولا ابغي على أَحدِ
«سادت» بنو عامرٍ سَعدًا وشاعِرَها ... كما «تَسود» بنو عبسٍ بني أَسَدِ

وقد اتّصل كعب بن جُعَيل في ايَّام معاوية بابنهِ يزيد. اخبر ابن سلّام في طبقات الشعراء (ص ١٠٨) وقد سبق في روايتهِ هذه ابا الفرج الاصفهاني وغيرَهُ من الرواة وهو قد توفي بالبصرة سنة ٢٣١ هـ (٨٤٦ م) قال : كان عبد الرحمان بن حسَّان ويزيد ابن معاوية يتقاولان فاستعلاهُ ابنُ حسَّان فقال يزيد لكعب بن جُعَيل : أَجِبْهُ عنّهُ واَهجُهُ . فقال : والله ما تلتقي شفتايَ بهجاء الانصار ولكن ادلُّك على الشاعر الفاجر الماهر فتًى منّا يقال لهُ التوث نصراني (يريد الاخطل) «فهجاهم بابياتٍ شهيرة لا حاجة الى ذكرها

وهذا الخبر عن كعب قد رواهُ في الاغاني (١٤ : ١٢٢) على وجه آخر قال انَّ يزيد بلغهُ ان عبد الرحمان شبّب برملة اختهِ بنت امير المؤمنين معاوية فقال لكعب : اهجُ الانصار . فقال : أَفَرِقٌ من امير المؤمنين ولكن ادلُّك على الشاعر الكافر الماهر الاخطل

ورواهُ المبرّد في الكامل (ص ١٠١) بما يُشعر بإسلام كعب فروى عنهُ انهُ قال ليزيد : « أَأَهجو الانصار أَرادّي انت الى الكفر بعد الاسلام (ويروى : بعد الشرك) ولكن ادلُّك على غلامٍ من الحيّ نصرانيّ كأَنَّ لسانَهُ لسانُ ثور يعني الاخطل الخ

فترى من اضطراب هذه الروايات انهُ لا يجوز ان نقرّر الإسلام لكعب دون بيّنةٍ واضحة ودليل قاطع

١) الغرزمة اوّل ما ينظمهُ الشاعر من الشعر الركيك

ومن اخبار كعب بن جُعَيل انهُ حارب مع قومهِ في يوم صِفّين وكان موالياً لبني امية كالاخطل وسائر عرب الشام في محاربتهم لعليّ . ولكعب في اليوم السابق لتلك الوقيعة رجزٌ رواهُ الدينوري في الاخبار الطوال (ص ١٩٢) :

أصبحتِ الأُمّةُ في أمرٍ عَجَبْ والمُلْك مجموعٌ غدًا لمن غلَبْ
اقولُ قولًا صادقاً غيرَ كَذِبْ انَّ غدًا تهلكُ اعلامُ العرَبْ
غدًا نُلاقي ربَّنا فنَحْتَسِبْ

وقال ايضاً يصف الفريقَيْن اهل العراق مع علي واهل الشام مع معاوية وهذه الابيات كتبها معاوية وارسلها الى عليّ بن ابي طالب لمّا خيَّرهُ برسولهِ بين البَيْعة او الحرب (الكامل للمبرّد ١٨٤ والدينوري ١٧٠ ووقعة صفّين) (من المتقارب) :

أرى الشأمَ تكرَهُ مُلْكَ العراقِ (١ واهلُ العراقِ لهم كارهونا
وكلٌّ لصاحبهِ مُبغِضٌ يَرى كلَّ ما كان من ذاكَ دِينا
إذا ما رمَونا رَميناهُمُ ودِنّاهُمُ مثلَ ما يَقرِضونا (٢
وقالوا عليٌّ إمامٌ لنا فقُلنا رَضِينا ابنَ هِندٍ رَضِينا (٣
وقالوا نَرى ان تَدينوا لهُ فقلنا لهم لا نَرى ان نَدينا (٤
ومن دونِ ذلك خَرطُ القَتادِ وضربٌ وطعنٌ يُقِرُّ العيونا (٥
وكلٌّ يُسَرُّ بما عندهُ يَرَى غَثَّ ما في يدَيهِ سَمِينا
وما في عليٍّ لِمُستَعتِبٍ مقالٌ سوى ضَمّهِ المُحدِثينا (٦

١) ويروى : اهل العراقِ ٢) ويروى في الكامل : يُقرِضونا
٣) هند امُّ معاوية ٤) ويروى البيت :
وقلنا نرى ان تدينوا لنا فقالوا ألا لا نرى ان نَدينا
٥) ويروى : يفضّ الشؤونا ٦) وروى ابن عبدربّه : لمستحدثٍ . . سوى عصمة المحدثينا

وايثارهِ اليومَ أَهلَ الذنوب ورَفْعِ القصاصِ عن القاتلينا (١
اذا سِيلَ عنهُ زوَى وَجْهُ (٢ وعمَّى الجَوابَ عن السائلينا
فليس براضٍ ولا ساخطٍ ولا في النُّهاةِ ولا الآمرينا
ولا هو سَاءَ ولا سَرَّهُ ولا بُدَّ من بعضِ ذا ان يكُونا (٣

وجاء في الكامل للمبرّد (ص١٨٧) وفي الاخبار الطوال للدينوري (ص١٧٠—١٨١) انَّ عليًّا لما قرأ هذه الابيات قال للنجاشيّ : أَجِبْ . فقال (من المتقارب) :

دَعَنْ مُعاوِيَ ما لن يكونا فقد حَقَّقَ اللهُ ما تَحْذرونا
اتاكم عليٌّ باهل العراقِ وأَهلِ الحجاز فما تصنعونا
على كلّ جَرْداءَ خَيفانَةٍ وأَشعَثَ هِندٍ تَسُرُّ العيونا
عليها فوارسُ تَحْسَبُهمْ كأُسدِ العَرينِ حَمَيْنَ العَرينا
يرَوْن الطِّعانَ خِلالَ العَجاجِ وضَرْبَ القَوانِسِ في النَّقْعِ دِينا
همُ هزَموا الجَمْعَ جمعَ الزُّبيرِ وطَلْحَةَ والمَعْشَرَ النَّاكثينا
وقالوا يميناً على حَلْفَةٍ لَنُهْدي الى الشامِ حرباً زَبُونا
تُشيبُ النواصيَ قَبْلَ المَشيبِ وتُلْقي الحوامِلُ منها الجَنينا
فان يكرَهُ القومُ مُلكَ العراقِ فقِدْماً رَضِينا الذي تكرهونا (٤

١) وفيه: وايثارهِ لاهالي الذنوب . قال ابن عبد ربّه في العقد (٢: ٢٧١) اخذ كعب هذا المعنى من قول حسّان بن ثابت لعليّ : انك تقول « ما قتلتُ عثمان ولكن خذلتُهُ ولم آمُرْ بهِ ولكن لم أنْهَ عنهُ» فالخاذل شريك القاتل والساكت شريك القاتل

٢) ويروى: حدا شيهةً . وسِيلَ مخفَّفة سُئِلَ ٣) ويروى: من بعد ذا . روى ابن عبد ربهِ :

ولا هو ساءَهُ ولا سَرَّهُ ولا آمن بعض ذا ان يكونا

٤) ويروى : وان تكرهوا الملك ملك العراق فقد رضي القومُ ما تكرهونا

فقولوا لكعبٍ أخي وائلٍ ومَن جعلَ الغثَّ يوماً سَمينا
جعلتُم عليّاً واشياعَهُ نظيرَ ابنِ هندٍ أما تستحونا

وقد روى البلاذري في كتاب الاشراف(١(ص٢١٢)البيتين الآتيين لكعب في مدح عبد الملك بن مروان (من الوافر) :

أميرُ المؤمنين هُدًى ونُورٌ كما جَلَى دُجى الظُّلَم النهارُ
فريعُ بني أُميَّةَ من قُريشٍ همُ السِّرُّ المهذَّبُ والنُّضارُ

وقد سبق في اخبار القطاميّ (ص٢٧) انّ هذين البيتين من جملة قصيدة منسوبة الى القطاميّ رويناهما هنا لعظم شأن راويهما

واتّصل كعب بن جُعَيل بسعيد بن العاص بن ابي أُحَيحَة بن سعيد بن العاص وكان امير الكوفة لعثمان وكان فصيحاً خطيباً قُتل في غزوهِ لطبرستان سنة ٣٠هـ (٦٥١م) واخبر في الاغاني انّ كعباً نزل عليهِ في المدينة. وقد امتدحهُ بشعرهِ وذكر الطبريّ في تاريخهِ (١: ٢٨٣٨) قولهُ (من الطويل) :

فنِعمَ الفتى اذ جالَ جِيلانُ دونهُ واذ هبَطوا من دَسْتَبَى ثمّ أبهرا (٢
تعلَّمْ سعيدَ الخَيرِ أنَّ مطيَّتي اذا هبَطَتْ أَشفقتُ من أن تُعقَرا
كأنّك يوم الشِّعْبِ ليثُ خفيَّةٍ تحرَّدَ (٣من ليثِ العَرينِ وأَصحرا

وروى الجُمَحيّ في طبقاتهِ (ص ٧٥–٧٦) انّ الفرزدق لمّا هرب من زياد بن ابيهِ في أيام معاوية الى المدينة فاستجار سعيد بن العاص فاجارهُ فمدحهُ الفرزدق وكان الحطيئة وكعب حاضرَين. فقال الحطيئة: هذا والله الشعر لا ما تُعلِّلُ بهِ منذ اليوم

١) اطلب Anonyme arabische Chronik, *ed. Ahlwardt*

٢) جيلان حيّ من عبد القيس . ودَسْتَبَى كورة بين الريّ وهمذان في العجم . وأَبهر مدينة في نواحي اصبهان

٣) يوم الشِّعب من أيّام العرب ذكره الفرزدق . ويروى: تجرَّد

أيُّها الامير فقال: كعب بن جُعَيل فضَلهُ على نفسك ولا تفضَلهُ على غيرك. فقال: بلى افضَلهُ على نفسي وعلى غيره ادركتَ مَن قبلك وسبقتَ مَن بَعدك . وروى الطبري في تاريخهِ (٢ : ١٠٧) هذا الخبر على وجه آخر فقال: «انَّ كعباً لمَّا سمع شعر الفرزدق قال: هذه واللهِ الرؤيا التي رأيتُ البارحة. قال سعيد: وما رأيت؟ قـال رأيت كأني امشي في سكَّة من سِكك المدينة. فـاذا انا بابن قِتْرَة في جُحْر (اي حُفْرةٍ) فكأنهُ اراد ان يتناولني فاتَّقيتهُ (قال) فقام الحطيئة فشقَّ ما بين رِجْلين حتى تجاوز اليَّ (١ فقال: قُلْ ما شئتَ فقد ادركتَ من مضى ولا يُدركك من بقي. وقال لسعيد: هذا واللهِ الشعر لا يعلَّل بهِ منذ اليوم (٢»

﴿شعر كعب وطبقتهُ﴾ قد اخذ الضياع ديوان شعر كعب بن جُعَيل. امَّا طبقتهُ فهي على قول ابن سلَّام (ص ١٢٩) الطبقة الثالثة من الشعراء الإسلاميين يريد انهُ من الذين لم يشتهروا في الجاهليَّة وقالوا الشعر بعد الاسلام ونظمهُ في جملة الشعراء عمرو بن احمر الباهليّ وسُحَيم بن وَثيل الرياحيّ ثمَّ اليَرْبوعي وأَوْس بن مَغْراء القُرَيْعي ثم السعديّ. ثمَّ قال: «وكعب بن جُعَيل شاعر مُفلق قديم في اوَّل الاسلام». وهو يُدعى في كامل المبرّد (ص ١٨٧) شاعر اهل الشام. وقد ذكر لهُ القدماء ابياتاً متفرّقة نروي مـا عثرنا عليهِ منها كقولهِ يمـدح قوماً (شرح المقامات للشريشي ٢ : ٨٦) (من الكامل):

لا يَنكُتون الارضَ عند سؤالهم لِتَطلُّبِ العِلَّاتِ بالعِيـدانِ
بل يبسطون وُجوهَهم فترى لهم عند السؤالِ احسنَ الالوانِ

ولهُ في الرثاء قولهُ في عبيـد الله بن عُمر بن الخطَّاب لمَّا قُتل في صفّين (سنة ٣٧ هـ ٦٥٧ م) وقد رواهُ الطبري (١ : ٣٣١٥) وياقوت (٣ : ٤٠٣) وكتاب وقعـة صفّين (٢١٣ و٢٦٦) (من الطويل):

أَلَا انَّما تبكي العيونُ لفارسٍ بِصِفّين أَجْلَت خيلُهُ وهو واقِفُ

١) وفي الاغاني (٢١ : ١٩٦) ما بين رِجلَيهِ حتَّى تجاوزها

٢) وفي الاغاني (٢١ : ١٩٧) : لا ما كُنَّا نُعلّل بهِ انفسنا منذ اليوم

يُبَدِّلُ من أسماء أَسيافَ وائلٍ وكان فتًى (١ لو أخطأتهُ المَتالفُ

تركنَ عُبَيد الله بالقاع مُسلَباً تَمُجُّ دماً منهُ العروقُ النوازفُ (٢

يَنُوءُ وتعلوهُ شآبيبُ من دمٍ كما لاحَ في جيب القميص الكتائفُ (٣

دعاهنَّ فاستَسْمعنَ من اينَ صوتُهُ وأَقبلنَ شتَّى والعيونُ ذَوارفُ

يُحَلِّلنَ عنهُ زِرَّ دِرْعٍ حَصينةٍ ويُبدِينَ عنهُ بعدهنَّ مَعارفُ

وقد صبرَتْ حول ابن عمّ محمَّدٍ لدى الموتِ (٤ شهباءُ المَباركِ شارفُ

فما برحوا حتى رأى الله صبرَهم حتى أُتيحَتْ بالأَكُفِّ المصاحِفُ

بمَرْجٍ ترى الراياتِ فيهِ كأَنَّها اذا اجتَنَحتْ للطَّعنِ طيرٌ عواكفُ

جزى الله قتلانا بصِفِّينَ خيرَ ما جَزاهُ عِباداً غادرَتْها المواقفُ (٥

أَلا انَّ شرَّ الناسِ في الناسِ كلّهم بنو أسدٍ اني لِما قلتُ عارفُ

وحالتْ تميمٌ بعدَها ورِبابُها وخالفَتِ الجَعْداءُ فيمن يخالِفُ

معاويَ لا تنهَضْ بغير وثيقةٍ فانك بعدَ اليوم بالذلّ آسِفُ

وقال في خزانة الادب (١ : ٤٥٨) : ولكعب هذا اخ يقال لهُ عُمَير بن جُعَيل وهو شاعرٌ ايضاً وهو القائل يهجو قومَهُ (من الطويل) :

كَسا اللهُ حَيَّيْ تَغْلبَ ابنَةِ وائلٍ مِنَ اللُّؤْمِ اظفاراً بطيئاً نُصولُها

---

١) ويروى : تبدّل . . وكان فتى ٢) ويروى : مسلماً . ومسنداً يمجُّ نجيعاً . وفي الدينوري : تمجُّ دمَ الخرقِ العروقُ الذوارِفُ . ويروى : تمجُّ دماً منهُ . وتمجُّ دماهُ والعروق نوازف

٣) ويروى : ينوء ويعلوهُ سآبيبُ . . . ويروى : وتغشاهُ . . . اللقائف

٤) ويروى : ابن عمّ نبيِّنا من الموت

٥) وروى ياقوت : بصفّين ما جزا عباداً لهُ اذ غودروا في المزاحف (كذا)

قال ثمّ ندم فقال (من الطويل) :

نَدِمْتُ على شَتْمي العشيرةَ بعدما مضتْ واستتبّتْ للرُّواة مذاهِبُهْ
فاصبحتُ لا أَسطيعُ ردًّا لِما مضى كما لا يَرُدُّ الدَّرَّ في الضرع حالبُهْ (١

امّا الجمحيّ فانّهُ يروي هذه الابيات في طبقات الشعراء (ص ١٢٩) لكعب وقد اضاف اليها قولهُ (من الطويل) :

مُعاويَ أَنصِفْ تغلبَ ابنةَ وائلٍ من الناس او دَعْها وحيًّا تُضارِبُهْ
قليلٌ على بابِ الاميرِ لُباَنتي اذا رابَني بابُ الامير وحاجِبُهْ
ولمَّا تَدارَوا في تُراثِ محمَّدٍ سمتْ بابن هندٍ في قُريشٍ مَضارِبُهْ

(قلنا) انَّ في هذه الابيات نظرًا . فعلى قول صاحب خزانة الادب (١ : ٤٥٨) انَّ البيت الذي قيل في هجاء تغلب «كسا الله حيَّ تغلب . البيت» هو لعُمَيرة اخي كعب ابن جُعَيل المترجم هنا . ثمّ ذكر (ص ٤٥٩) شاعرًا آخر سمَّاهُ عَمِيرة بن جعل وذكر نسبهُ وقال عنهُ انهُ «شاعر جاهليّ» على انّنا رأينا هذا البيت عينهُ في المفضَّليات (ص ٥١٨) في مقدّمة خمسة ابيات ونسبتهُ هناك ليست لاخي كعب بن جُعَيل بل لعميرة بن جُعَل بن عمرو الشاعر الجاهليّ . وقد اثبتنا نحن هذه الابيات في شعراء النصرانيَّة (ص ١٩٥) لذلك الشاعر الجاهليّ مع ابيات أُخرى نونيَّة رواها لهُ صاحب المفضَّليات (ص ٥٢٠—٥٢٢) وذكر منها في خزانة الادب ثلاثة ابيات . فترى ما وقع من الاضطراب في الروايات لسبب اتّفاق الاسماء

وروي ايضًا لكعب في الحماسة البصريَّة في باب الرثاء (١ : ٢١٠) (من الطويل) :

برابية الثَّرثار (٢ قبرٌ ترابُهُ يَضُمُّ الغمامَ الجودَ والشمسَ والبدرا
رأتْ تَغلبُ العلياءُ عند مُصابهِ عيونَ الأَعادي نحوأَعينها خُزْرا

---

١) ويروى : واصبحتُ لا اسطيعُ دفعًا لما مضى . . .
٢) الثرثار وادٍ عظيم في الجزيرة لبني تغلب يصبُّ ماؤهُ في دجلة

وودَّتْ نجومُ الجود يومَ حملْنهُ على النَّعش لو كانت بأجمعها قبرَا
مُنافسةً منها عليهِ وضنَّةً على الترب ان تمحو المآثر والفخرا
وما بَخلَتْ عيناي بالدَّمع بعده على هالكٍ الّا ذكرتُ لها عمْرا(١

وروى لهُ ايضاً يهجو المُغيرة بن شعبة (٢: ١٨٢) (٢ (من الطويل) :

اذا راح في قُوهيَّةٍ(٣ فتأزَّرا فقلتُ ألا يستنُّ في لبنٍ محضِ
وتحسَبهُ إن قامَ للمشي قاعدًا لقلَّة مِقياسِهِ في الطول والعرضِ
فأقسمتُ لو حُزَّت من استكَ بضعةٌ لَما انكسرت من قرب بعضك من بعضِ
فيا خلقةَ الشيطان أقصِرْ فانّنا رأيتُكَ أهلًا للعداوةِ والبُغضِ

وفي معجم البلدان لياقوت (٢ :٣٧٨) وفي تاريخ الطبري (١ :٧٤٩) بيتٌ فرد لكعب التغلبيّ يذكر غزوة الملك تبّع الحميري للعراق قال (من الرمل) :

وغزانا تُبَّعٌ من حميرٍ نزلَ الحيرةَ في أهلِ عدَنْ

والبيت تصحَّف في الطبري فرواهُ مكسورًا

وغزا تبَّعٌ في حمير حتى نزل الحيرة من ارض عدَنْ

وقد يروى لهُ ايضاً في شواهد سيبويهِ (من الرمل) :

صَعْدةٌ نابتةٌ في حائرٍ أينما الرّيحُ تُميِّلها تَمِلْ

قال الصَعْدة القناة المستوية . والحائر المكان المطمئن . شبَّه امرأةً في تمايلها بهذه القناة . ويلي هذا البيت اربعة ابيات غزليَّة (خزانة الادب ١: ٤٥٧) نضرب عنهـا الصفح

---

١) نظنُّ انهُ يريد عمرًا بن سعيد بن العاص المعروف بالاشدق قتلهُ عبد الملك بن مروان سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م)

٢) كان المغيرة واليًا على الكوفة وفيها توفي بالطاعون سنة ٥٠ هـ (٦٧٠م)

٣) القوهيَّة الثياب البيض المنسوجة في قُوهستان كورة من العجم

١٢ العُدَيل بن الفَرْخ

﴿نسبُهُ﴾ هو العُدَيل بن الفَرْخ (وروى في الاغاني « الفَرَج» وهو) بن معن بن الاسود بن ربيعة بن عِجل البكريّ . وقال في تاج العروس : «وفي بعض النسخ «العديّ بلا لام وهو صحيح » فيكون اسمهُ عديًّا وكان يلقَّب بالعبَّاب . قال في الاغاني (٢٠ : ١١) : «وكان لهُ ثمانية اخوة وأُمهم جميعاً امرأة من بني شيبان منهم أَسود وكان شاعرًا فارساً وسَوادة وشَمْلة (وقيل سلمة) والحرث وكان يقال لامهم دَرْمنا»

﴿دينهُ﴾ كان العديل من قبيلة عجل الثابتة على نصرانيَّتها حتى بعد الاسلام فقال الأُبَيْرد يهجوهم :

بنو عِجْل أَذَلُّ من المطايا ومن لَحْمِ الجَزُورِ على الثُّمامِ
تُحَيَّا المُسلمون اذا تلاقَوْا وعِجْلٌ ما تُحَيَّا بالسلامِ

وكذلك بنو شيبان الذين منهم كانت أُمهُ . وفي ترجمتهِ انَّهُ هرب من الحجَّاج الى بلد الروم ولجأ الى قيصر . ولولا نصرانيَّتهُ لما فعل

﴿اخبارهُ﴾ جاء في الاغاني (٢٠ : ١٢) ما نصُّهُ : « كان للعُدَيل واخوتهِ ابن عمّ يُسمَّى عمرًا فتزوج بنت عمّ لهم بغير امرهم فغضبوا ورصدوهُ ليضربوهُ . فخرج عمرٌو ومعهُ عبدٌ لهُ يُسمَّى دابغاً فوثب العُدَيل واخوتُهُ فاخذوا سيوفهم فقالت أُمهم : اني اعوذُ باللهِ من شرّكم . فقال لها ابنها اسود : وايُّ شيء تخافين علينا فوالله لو حملنا اسيافَنا على هذا الخنو خنو قراقر لما قاموا لنا . فانطلقوا حتى لقُوا عمرًا . فلمَّا رآهم ذُعر منهم وناشدَهم فأبوا فحمل عليهِ سوادةُ فضرب عمرًا ضربةً بالسيف وضربهُ عمرو فقطع رجلهُ فقال سوادة (من الوافر) :

أَلا مَنْ يشتري رِجْلًا برجلٍ تأَبَّى للقيام فلا تقومُ

وقال عمرو لدابغ : إضرب فانت حرّ . فحمل دابغ فقتل منهم رجلًا وحمل عمرٌو فقتل آخر وتداوَلاهم فقتلا منهم اربعة وضرب العُدَيلَ على رأسهِ . ثم تفرَّقوا وهرب

دابغ حتى اتى الشام فداوى ربَضَةُ بن النعمان الشيبانيَّ للعُدَيل ضربتهُ ومكث مدَّة. ثمَّ خرج العديل بعد ذلك حاجًا فقيل لهُ انَّ دابغًا قد جاء حاجًا وهو يرتحل فيأخذ طريق الشام وقد اكترى. فجعل عُدَيل عليهِ الرَّصَد حتى اذا خرج دابغ ركب العُدَيل راحلتهُ وهو ملتثم وانطلق يتبعهُ حتى لقيَه خلف الركاب يحدو بشعر العديل ويقول (من الرجز) :

يا دارَ سلمى أقفرَتْ من ذي قارْ   هل فيكِ يا قِفارَ الدار من عارْ
وقد كُسِينَ عرقاً مثلَ القارْ   يَخرجنَ من تحت خِلالِ الأوبارْ

فلحقَهُ العُدَيل فحبس عليهِ بعيرهُ وهو لا يعرفهُ ويسير رويدًا ودابغ يمشي رويدًا وتقدَّمت إبله فذهبت وانَّما يريد ان يباعدهُ عنها بوادي حنين . ثمَّ قال العُدَيل والله لقد استرخى حقَب رحلي أنزل فأُغيِّر الرحل فتُعينني. فنزل وغيَّر الرحل وجعل دابغ يعينهُ حتى اذا شدَّ الرحل اخرج العُدَيل سيفهُ فضربهُ حتى برد ثمَّ ركب راحلتهُ فنجا وانشأ يقول (من الطويل) :

أَلَمْ تَرَني جَلَّلتُ بالسيفِ دابغاً   وان كان ثأرًا لم يُصِبهُ غليلي
بوادي حُنَينٍ ليلةَ البدرِ رُعتُهُ   بأبيضَ من ماء الحديدِ صَقيلِ
وقلتُ لهم هذا الطريقُ أمامكم   ولم آلُ اذ صاروا لهم بدليلِ

وفي ذلك يقول جرثومة العنزي الجلاني:

ان امرءًا يهجو الكرام ولم يَنَلْ   من الثأر إلَّا دابغاً للَئيمُ
اتطلبُ في جُلّانَ وِترًا ترومهُ   وفاتَكَ بالأوتار شرٌّ غريمُ

يجيب على ما هجا بهِ العديلُ قومهُ حيث قال :

أُهاجي بني جُلّانَ اذ لم يكن لها   حديثٌ ولا في الاوَّلين قديمُ

قالوا واستعدى مولى دابغ على العديل الحجّاجَ بن يوسف وطالبَهُ بالقَوَد فيهِ

فهرب العُدَيل الى بلد الروم. فلمّا صار الى بلد الروم لجأ الى القيصر فأمّنهُ فقال في الحجّاج (من الطويل) :

أُخوَّفُ بالحجّاج حتى كأنّما يُحرَّكُ عظمٌ في الفؤاد مهيضُ
ودونَ يدِ الحجّاج من ان تنالني بساطٌ لأيدي الناعجاتِ عريضُ
مَهامِهُ اشباهٌ كأنَّ سرابَها مُلاءٌ بأيدي الغاسلات رحيضُ

فبلغ شعرهُ الحجّاجَ فكتب الى قيصر: لتبعثنَّ بهِ او لأُغزيَنَّك جيشاً اوّلهُ عندك وآخرهُ عندي. فبعث بهِ قيصر الى الحجّاج

(قال) فخرج العديل يريد الحجّاج فلمّا صار الى بابهِ حجبَهُ الحاجب فوثب عليهِ العُدَيل وقال: انهُ لن يدخل على الامير بعدَ رجالات قريش اكبرُ مني ولا أولى بهذا الباب. فنازعَهُ الحاجب الكلام فأحفظهُ وانصرف العُديل عن باب الحجّاج الى يزيد بن المهلّب فلمّا دخل اليهِ انشأ يقول (من الطويل) :

لَئنْ أرْتجَ الحجّاجُ بالبُخل بابَهُ فبابُ الفتى الازديّ بالعُرف يُفتحُ
فتًى لا يبالي الدهرَ ما قلَّ مالُهُ اذا جعلتْ ايدي المكارمِ تَسنَحُ
يداهُ يدٌ بالعُرفِ تَنهَبُ ما حوتْ وأُخرى على الأعداء تَسطو وتَجرَحُ
اذا ما اتاهُ المُرمِلون تيقّنوا بأنَّ الغنى فيهم وَشيكاً سيَسرَحُ
أَقام على العافين حُرّاسَ بابهِ يُنادونَهم والحُرُّ بالحُرّ يَفرحُ
هلُمّوا الى سَيبِ الاميرِ وعُرفهِ فانَّ عطاياهُ على الناس تُنفَحُ
وليس كعِلجٍ من ثمودٍ بكفّهِ من الجود والمعروفِ حَزمٌ مطرَّحُ

فقال لهُ يزيد: عرَّضتَ بنا وخاطرتَ بدمك. وبالله لا يصل اليك وانت في حيزي. فامر لهُ بخمسين الف درهم وامر لهُ بافراس وقال لهُ: ألحَقْ بعَلياءَ نجدٍ واحذَر

ان تَلحقك حبائلُ الحجّاج او تجتجنك محاجنهُ . وابعث اليَّ في كلّ عام فلسك عليَّ مثل هذا . فارتحلَ . وبلغ الحجّاج خبرهُ فأحفظهُ ذلك على يزيد وطلب العديل ففاتهُ فاستاق ابلَهُ واحرق بيتهُ وسلب امرأتهُ وبناتهِ واخذ حُليهنَّ . فقال العديل (من الطويل) :

سَلَبْتَ بناتي حُلْيَهُنَّ فلم تَدَعْ ... سِوارًا ولا طَوْقًا على النَّحْرِ مُذْهَبا
وما عزَّ في الآذانِ حتى كأنَّما ... تُعطِّلُ بالبيضِ الاوانسِ رَبْربا
عواطلُ لا إن ترى بخدودها ... قُسامَةَ عُتْقٍ او بَنانًا مُخضَّبا
فَكَكْتَ البُرينَ عن خدال كأنّها ... برادِيُّ غيلٍ ماؤُهُ قد تَنَضَّبا
من الدرّ والياقوتِ عن كل حرّةٍ ... ترى سمطها بين الجمانِ مثقَّبا
دعونَ امير المؤمنين فلم يُجِبْ ... دعاءً ولم يُسمعن امًّا ولا أبا

قال ابو عمرو الشيباني (الاغاني ٢٠: ١٣) : «لمّا لجَّ الحجّاج في طلب العُدَيل لفظتهُ الارض ونبا بهِ كلُّ مكان هرب اليهِ . فاتى بكر بن وائل وهم يومئذٍ بادُون جمعٌ منهم بنو شيبان وبنو عجل وبنو يشكر فشكا اليهم امرهُ وقال لهم : انا مقتولٌ أفتسلموني هكذا وانتم اعزُّ العرب؟ . قالوا : لا والله ولكنَّ الحجّاج لا يُراغَمُ ونحن نستوهبك منهُ . فإن اجابَنا فقد كُفيتَ وان حادَنا في امرك منعناك وسألنا امير المؤمنين ان يَهبك لنا . فاقام فيهم واجتمعت وجوهُ بكر بن وائل الى الحجّاج فقالوا لهُ : أيُّها الامير انّنا قد جنَيْنا جميعنا عليك جنايةً لا يُغفر مثلها ونحن قد استَسْلَمنا وألقينا بايدينا اليك فإمّا وهبتَ فأهلُ ذلك انت وإمّا عاقبتَ فكنتَ المسلَّط المالك العادل . فتبسَّم وقال : قد عفوتُ عن كل جرمٍ الّا الفاسق العُدَيل . فقاموا على ارجلهم فقالوا : مثلك أيُّها الامير لا يستثني على اهل طاعتهِ واوليائهِ في شيء . فان رأيتَ ان لا تكدِّر مِنّتك باستثناء وان تهبَ لنا العُديل في اوّل من تهبَ . قال : قد فعلتُ فهاتوه قبّحهُ الله . فأتوهُ بهِ . فلمّا وقف بين يديهِ انشأ (من الطويل) :

ها أنا ذا ضاقت بيَ الارضُ كلُّها   اليكَ وقد جوَّلتُ كلَّ مكانِ
فلو كنتُ في نهلانَ اوشُعبتيْ أجا   لَخِلْتُكَ إلّا أن تَصُدَّ تراني

فقال لهُ الحجّاج: أنشِدْني قولكَ :

ودون يدِ الحجّاج من أنْ تنالني (البيت)

فقال: لم أقلْ هذا أيُّها الامير ولكني قلتُ (من الطويل) :

اذا ذُكر الحجّاجُ أضمرتُ خيفةً   لها بين أحناء الضلوعِ نفيضُ

فتبسَّم الحجّاج وقال: أولى لك فخلّى سبيلهُ وعفا عنهُ وفرض لهُ وتحمّل ديةً دابغ في مالهِ . وممّا أنشدهُ ليسترضي الحجّاج عند قدومهِ العراق قولهُ (من الطويل) :

دعُوا الجبنَ يا أهل العراق فإنّما   يُهانُ ويُسبى كلُّ من لا يُقاتلُ
لقد جرَّد الحجّاجُ للحقّ سيفَهُ   ألا فأستقيموا لا يَميلَنَّ مائلُ
وخافوهُ حتى القوم بين ضُلوعهم   كنَزْوِ القَطا ضُمَّتْ عليهِ الحبائلُ
وأصبحَ كالبازي يُقلّبُ طَرْفَهُ   على مرقبٍ والطيرُ منهُ رواحلُ

﴿زمانهُ وشعرهُ﴾ اشتهر العُدَيل في زمن الدولة الامويّة والمروانيّة وهو من رَهط ابي النجم العِجلي . وكان شاعرًا مُقِلًّا الّا انّ شعرهُ حسن مطبوع . ولهُ في المديح اقوال مشهورة منها لاميّتهُ في الحجّاج لينال الصفح عن هجائهِ فقال (من الطويل) :

فلو كنتُ في سَلمى أجا وشِعابها   لكان لحجّاجٍ عليَّ دليلُ (١
بَنى قُبّةَ الإسلام حتى كأنّما   هدى الناسَ من بعد الضلال رسولُ
اذا جارَ حكمُ الناس ألجأَ حكمَهُ   الى اللهِ قاضٍ بالكتاب عَقولُ

١) يريد جبال طيء في نجد . ويروى : عليَّ سبيلُ

خليلُ امير المؤمنين وسيفُهُ لكلّ إمامٍ صاحبٌ وخليلُ (١
بهِ نصرَ اللهُ الخليفةَ منهمُ (٢ وثبّت ملكاً كاد عنهُ يزولُ
فانت كسيفِ اللهِ في الارض خالدٍ (٣ تصولُ بعونِ الله حين تصولُ
وجازيتَ اصحابَ البلاءِ بلاءَهم فما منهمُ عمّاً تحبُّ نكولُ
وصلتَ بمُرّانِ العراقِ فأصبحتْ مناكبُها للوطءِ وهي ذلولُ
أذقتَ الحِمامَ ابنَيْ عُبادٍ فاصبحوا بمنزلِ موهونِ الجناحِ ثكولُ
ومن قطريٍّ نلتَ ذاك وحولَهُ كتائبُ من رجّالةٍ وخيولُ (٤
اذا ما أتت بابَ ابنِ يوسفَ ناقتي أتت خيرَ منزولٍ بهِ ونزيلِ (٥
وما خفتُ شيئاً غيرَ ربّيَ وحدهُ اذا ما انتحتْ النفسُ كيف اقولُ
ترى الثقلَين الجنَّ والإنسَ اصبحا على طاعةِ الحجّاجِ حين يصولُ

وروى ابو تمّام في الحماسة لعُدَيل العجلي قولهُ في الفخر وقيل انها لابي الأخيل العجلي (من الطويل) :

ألا يا اسلَمي ذاتَ الدماليجِ والعقدِ وذاتَ الثنايا الغُرّ والفاحمِ الجَعْدِ (٦
وذاتَ اللِثاتِ الحُمّ والعارضِ الذي بهِ أبرقتْ عمدًا بأبيضَ كالشَّهْدِ (٧

---

١) ويروى : مصطفى وخليلُ
٢) ويروى : الإمام طيهمُ   ٣) تلميح الى خالد بن الوليد الملقَّب بسيف الله
٤) ابنا عباد والقطري بن الفجاءة ممَّن خرجوا على دولة الامويّين ظفرا بهم الحجّاج
٥) في هذا البيت الاقواء
٦) الدماليج جمع دُملوج وهو العَضُد . والفاحم الشعر الاسود
٧) اللثات مغارز الاسنان . والحُمّ جمع أحمّ اي اسود ويروى : الحُوّ من الحُوَّة اي السُّمرة . والعارض الناب

كأنّ ثناياها اغتبقن مُدامةً ثوت حججاً في رأس ذي قُنّةٍ فردِ (١
جرى بفريقِ العامريّة غُدوةً شواحجُ سودٌ ما تُعيد وما تُبدي
اذا ما نعقن قلتُ هذا فراقها وان هنّ لم ينعقن سكّن من وجدي
لعلّ الذي قاد النَّوى أن يردَّها الينا فقد يُدني البعيدَ من البُعدِ
وعلّ النوى في الدار تجمعُ بيننا وهل يُجمع السيفان ويحك في غمدِ (٢
لعمري لقد مرّت بيَ الطيرُ آنفاً بما لم يكن إذ مرّتِ الطيرُ من بُدّ (٣
ظللتُ أُساقي الموتَ إخوتيَ الأُولى ابوهمُ ابي عند المزاحةِ والجدّ (٤
كلانا ينادي يا نزارُ وبيننا قناً من قنا الخطّيّ اومن قنا الهند
قرومٌ تسامى من نزارٍ عليهمُ مُضاعفةٌ من نسج داؤود والسُّغد (٥
اُذا ما حملنا حملةً مثلوا لنا بمُرهَفةٍ تُذري السواعدَ من صُعْدِ (٦
وان نحنُ نازلناهمُ بصوارمٍ ردَوا في سرابيلِ الحديدِ كما نَردي
كفى حزَناً أن لا أزالَ أرى القنا تمجّ نجيعاً من ذراعي ومن عضدي (٧
لعمري لئن رمتُ الخروجَ عليهمِ بقيسٍ على قيسٍ وعوفٍ على سعدِ
وضيّعتُ عمراً والربابَ ودارماً وعمرَ بن أدٍّ كيف اصبرُ عن أدِّ

١) الاغتباق شُرب العشيّ . ثمّ وصف تلك الخمرة بأنها معتّقة في الدنان
٢) هذه الابيات الاربعة ليست في النسخة المطبوعة وهي في نسخة خطيّة قديمة في مكتبتنا الشرقيّة ٣) يشير الى عادة العرب في مراقبة الطير فيتيمّنون بها ويتشاءمون
٤) ويروى اساقي الهمّ . وساقاهُ شاركهُ في سقيهِ
٥) ينسب العرب اصطناع الدروع للنبي داود ولاهل بلاد السُّغد . ويروى : والسَّرد
٦) المرهفة السيوف المرقّقة . وتذري تسقط . ومن صُعُد اي من اعلى
٧) اراد بالذراع والعضد قومهُ الذين يبطش بهم على اعدائهِ

لكنتُ كمُهريقِ الذي في سِقائهِ لرَقراق آلٍ فوقَ رابيةٍ صَلْدِ(١
كمرضعةٍ اولادَ أخرى وضيَّعتْ بني بطنها هذا الضَّلالُ عن القصدِ(٢
فأُوصيكما يا ابنَيْ نزارٍ فتابعا وصيَّةَ مُفضي النُّصحِ والصِّدقِ والوُدِّ
ولا تَعلَمنَّ الحربُ في الهام هامتي ولا تَرمِ بالنَّبلِ وَيْحكما بعدي(٣
أما تَرهبانِ النار في ابنَي أبيكما ولا تَرجوانِ اللهَ في جَنَّةِ الخُلْدِ(٤
وإني وان عاديتُهم وَجفوتُهم لتأْلَمُ مما عضَّ أكبادَهم كَبْدي
فانَّ أبي عند الحفاظِ أبوهمُ وخالُهم خالي وَجدُّهُمُ جدّي
فما تُربُ أثرى لو جمعت تُرابَها بأكثرَ من ابنَيْ نزارٍ على العدِّ(٥
هما كَنفا الارضِ اللَّذا لو تَزعزعا تَزعزعَ ما بينَ الجَنوب الى السُّدِّ
رِماحُهمُ في الطولِ مثلُ رماحِنا وهم مثلُنا قَدُّ السُّيور من الجِلدِ(٦

وروى لهُ ابن عبد ربّهِ في العقد الفريد قولهُ يذكر يوم ذي قار وحضور بني شيبان وعجل فيهِ (من البسيط) :

ما أوقدَ الناسُ من نارٍ لمَكرُمةٍ إلّا اصطلَينا وكنّا موقدي نارِ

١) يقول لو شئتُ ان اخرج على من عاداني لأثرتُ حربًا اهليَّةً تضرُّ ولا تنفع ورقراق الآل تموُّج السرّ

٢) شبَّهَ فعلهُ وعدم فائدتهِ بطير النعامة التي تذهل عن بيضها وتجثم على بيض غيرها يُضرَب بحماقتها المثل

٣) ويروى: فلا تُعلِمنَّ الحربَ. وخصَّص هامتهُ وهو يريد شخصهِ

٤) هذا قول صريح في اعتقاد الشاعر لعقاب الآخرة وثوابها

٥) الأثري كالثرى هي الارض اصلها اللذانِ فحذف النون

٦) كنفا الارض ناحيتاها . واللذا

وما يَعُدُّون من يومٍ سمعتَ بهِ ... للناسِ أفضلَ من يومٍ بذي قارِ
جئنا بأسلابهم والخيلُ عابسةٌ ... لمّا استلبْنا(١ لِكسرى كلَّ أسوارِ

ومن جيّد شعر العُدَيل قصيدتهُ اللاميَّة التي يمدح فيها قبائل وائل ويذكر دفاعهم عنهُ ويفتخر بهم فقال (الاغاني ٢٠ : ١٤—١٦) (من الكامل) :

صَرَمَ الغَواني واستراحَ عَواذلي ... وصحَوْتُ بعدَ صَبابةٍ وتمايُلِ
وذكرتُ يوم لوى عُنَيْق(٢ نسوةً ... يَخطُرْنَ بين أكِلَّةٍ ومَراجلِ
لَعِبَ النعيمُ بهنَّ في أطلالهِ(٣ ... حتى لَبِسْنَ زمانَ عيشٍ غافلِ
يأخُذْنَ زينتَهنَّ أحسنَ ما ترى ... واذا عطِلْنَ فهنَّ غيرُ عَواطلِ
واذا خَبأْنَ خُدودَهنَّ أرَيْنَني(٤ ... حَدَقَ المَها وأخذنَ سَهْمَ القاتلِ
ورمينَني(٥ لا يَستترنَ بِجُنَّةٍ ... الّا الصِّبا وعلمنَ اين مَقاتلي
يَلبَسْنَ أرديَةَ الشبابِ لأهلها ... ويَجُرُّ باطِلُهنَّ حَبلَ الباطلِ (٦
بَيْض الأُنوق بِكَسْرِهنَّ ومَن يُرِدْ ... بيضَ الأنوقِ فوكْرُها بمعاقلِ(٧
وراكَ اهلكَ منهمُ ورأيتَهم ... بفروع أرعنَ فوقَها متطاولِ
واذا سألتَ ابْنَيْ نِزارٍ بيّنَا ... مجدي ومنزِلَتي من ابْنَيْ وائلِ
حدَبَتْ بنو بكرٍ عليَّ وفيهمُ ... لهمُ المكارمُ بالعديدِ الكاملِ(٨
خطَروا ورائي بالقَنا وتجمَّعتْ ... منهم قبائلُ أردَفوا بقبائلِ

١) ويروى : يوم استلَبْنا
٢) لوى عُنَيْق مكان بعينهِ . ويروى : لوى عَتيق ٣) ويروى : في اظلالهِ
٤) كذا روى الحصريّ في زهر الآداب (١ : ٨٤) . وفي الاغاني : واذا جنان خدودهنَّ أرَيْننا . وهو تصحيف ٥) روى الحصريّ : يرميننا
٦) روى الحصريّ : ذيل الباطل . وقد غنّى ابن سريج بالابيات الاربعة السابقة
٧) يشير الى المثل : اعزُّ من بيض الأنوق
٨) وفي الاصل : والعديدُ الكاملُ

انَّ الفوارس من لُجَيمٍ لم تزَلْ فيهم مَهابةُ كلِّ ابيضَ فاعلِ
مُتَعَمّمٍ بالتاج يسجدُ حولهُ من آلِ هَوْذَةَ للمكارم حاملِ (١
او رهطِ حَنظَلَةَ الذين رماحُهم سُمُّ الفوارسِ حَتفُ موتٍ عاجلِ
قومٌ اذا شهروا السيوفَ رأوا لها حقًّا ولم يكُ سَلُّها للباطلِ
ولئنْ فَخَرْتُ بهم لِمِثلِ قديمهمْ بُسِطَ المفاخرُ لِلِّسانِ القائلِ
اولادُ ثعلبَةَ الذين لِمِثلِهمْ حِلْمُ الحليمِ وردُّ جَهلِ الجاهلِ
ولِمَجدِ يَشكُرَ صورةٌ عاديَّةٌ وأبٌ اذا ذكروهُ ليس بخاملِ
وبنو الفِزارِ اذا عددتَ صَنيعَهم وَضَحَ القديمُ لهم بكلِّ محافلِ
واذا فَخَرْتَ بتَغلِبَ ابنةِ وائلٍ فاذكُرْ مكارمَ مِن نَدًى وأوائلِ
ولتغلبَ الغَلْباء عِزٌّ بَيِّنٌ عاديَّةٌ ويزيدُ فوقَ الكاهلِ
تَسطو على النُّعمان وابنِ مُحرِّقٍ وابنَيْ قَطامِ بعِزَّةٍ وتَناوُلِ
بالمُقْرَباتِ يَبِتْنَ حولَ رِحالهمْ كالقِدِّ بين أجِلَّةٍ وصَواهِلِ
اولادُ أعوَجَ والصَّريحِ (٢ كأنَّها عِقبانُ يومِ دُجُنَّةٍ وتَخايُلِ
يَلْفُظْنَ بعد أُزُومِهِنَّ على الشَّبا عَلَقَ الشَّكيمِ بألسُنٍ وجَحافلِ
قومٌ همُ قتلوا ابنَ هِندٍ عَنوةً (٣ وقَنا الرماحِ تَذودُ وِردَ الناهلِ

١) يشير الى هَوْذة بن عليّ سيّد بني حنيفة النصراني المعروف بذي التاج (اطلب كتاب النصرانيَّة وآدابها بين عرب الجاهليّة ص ٢٦٣)
٢) اعوج والصريح فرسان من الخيل الاصيلة يضرب العرب بكرمهما المثل
٣) قتل عمرو بن كلثوم التغلبيُّ ملكَ الحيرة عَمْرَ بن هِند

منهم ابو حَنَش وكان بكفّهِ ريّ السنانِ وريُ صدرِ العاملِ (١

ومُهلهلُ الشعراء إن فخروا بهِ ونَدى كُلَيبٍ عند فضل النائل (٢

حَجَبَ المنيّةَ دون واحدِ أُمّهِ من أنْ تبيتَ وصدرُها ببلابلِ

وأبَى مجالسةَ الشبابِ فلم يكن يُستَبُ مجلسُهُ وحقّ النازلِ

حتى أجارَ على الملوكِ فلم يَدَعْ حَدَباً ولا صَعَرًا لرأسٍ مائلِ

في كلّ حيٍّ للهُذَيلِ ورَهطِهِ نِعَمٌ واخْذُ كريمةٍ بتناولِ

بيضٌ كرائمُ رَدّهنَّ لعنوةٍ أَسَلُ القَنا وأُخِذنَ غيرَ أراملِ

ابناؤهنَّ من الهُذَيلِ ورَهطِهِ مثلُ الملوكِ وعِشْنَ غيرَ عواملِ

وقد روى لهُ في الاغاني (٢٠ : ١١) ابياتاً فيها غناء لعبدٍ (من الطويل) :

فان تكُ من شَيبانَ أُمّي فانّني لَأَبيَضُ من عجلٍ عريضُ المَفارقِ

وكيف بذِكرَى امّ هارون بعدما خبَطْنَ بأيديهنّ رَملَ الشقائقِ

كأنّ نقاً من عالجٍ آزرَتْ بهِ اذا الذيلُ ألهاهنّ شدّ المَناطقِ

وانّا لَنُغلي في الشتاء قدورَنا ونَصبِر تحتَ اللامعاتِ الخوافقِ

وقد روى الاصمعيّ انّ الشاعر الراجز ابا نجم قال للعُدَيل : أرأيتَ قولك (فان تكُ من شيبان أُمّي . البيت) أكنتَ شاكًّا في نسبك حين قلتَ هذا . فقال له العُدَيل : أفشككتَ انتَ في نفسك او شعرك حين قلت :

أنا ابو النجم وشِعري شعري للهِ درّي ما يجنُّ صدري

فأمسك ابو النجم واستحيا — ومن مديح العُدَيل ما قالهُ في رجلَين عُرِفا بشرفهما

١) ابو حنش كُنية عَصِم بن النعمان التغلبي الذي قتل شرحبيل بن الحارث لقتله اخاهُ لامّهِ ذا السُّنَينة ٢) اطلب اخبار كليب والمهلهل في شعراء النصرانيّة

وضرب المثل بكرمها وهما حوشب الشيباني وعكرمة بن ربعي الفيّاض. روى عنها صاحب الاغاني ما حرفهُ قال (٢٠: ١٨) :

«كان حوشب بن يزيد الشيباني وعكرمة بن رِبْعيّ يتنازعان الشرف ويتباريان في الطعام ونَحر الجُزر في عسكر مُصعَب. وكان حوشب يغلب عِكرمة لسَعَة يدهِ. (قال) وقدم عبد العزيز بن يسار مولى بُختر... بسفائن دقيق فأتاهُ عكرمة فقال لهُ: اللهَ اللهَ فيَّ قد كاد حوشبُ ان يستَعليَني ويغلبني بمالهِ فبِعْني هذا الدقيق بتأخير ولك فيهِ مثلُ ثمنهِ ربحاً. فقال: خذهُ. واعطاهُ ايّاهُ فدفعَهُ الى قومهِ وفرّقهُ بينهم وامرهم بعَجْنهِ كلّهِ فعجنوهُ كلَّهُ ثمَّ جاء بالعجين كلّهِ فجمعهُ في هوّةٍ عظيمةٍ وامر بهِ فغُطّي بالحشيش. وجاء بِرَمَكة فقرَّبوها الى فرس حوشب حتى طلبها وأُفلت ثمَّ ركضوها بين يديهِ وهو يتبعُها حتى ألقوها في ذلك العجين وتبعها الفرس حتى تورَّط في العجين وبقيا فيهِ جميعاً. وخرج قومُ عِكْرمة يصيحون في العسكر: يا معشر المسلمين أدرِكوا فرس حوشب فقد غَرِق في خميرة عِكرمة. فخرج الناس تعجُّباً من ذلك اذ تكون خميرةٌ يغرق فيها فرس. فلم يبقَ في العسكر احد الّا ركب ينظر وجاؤوا الى الفرس وهو غريق في العجين ما يبينُ منهُ الّا رأسهُ وعنقهُ. فما أُخرج إلّا بالعَمَد والحبال وغلب عليهِ عكرمة وافتضح حوشب فقال العُديل بن الفرخ يمدحها ويفخر بهما (من الطويل):

وعِكْرِمَةُ الفيّاضُ فينا وحَوْشبٌ هما فَتَيا الناس اللّذا (١ لم يُعَمَّرا

همـا فَتَيا الناس اللـذا لم يَنَلْهُما رئيسٌ ولا الأقيالُ من آلِ حِمْيَرا

وقال غيرهُ في حوشب :

وأجوَدُ بالمال من حاتمٍ وأنحرُ للجُزْر من حوشبِ

وقد مدح العُديل رجلاً آخر سيّدًا على بني ربيعة بن نزار اسمهُ مالك بن ربيعة ابن مِسْمَع لاذ بابيهِ بنو تميم والأزد لان والي الكوفة زيادًا حمل مالًا من البصرة الى مُعاوية فخرم عرب ربيعة فاستغاثوا بربيعة بن مسمع فارسل ابنهُ مالكاً فلحق بالمال وردّهُ

١) اللذا مثنّى الذي بحذف نونها للشعر

وانفقهُ في الناس حتى وفاهم عطاءهم فما راجعهُ زياد . ثمّ ولي حمزة بن عبدالله بن الزبير البصرة فجمع هو ايضاً مالاً ليحملهُ الى ابيهِ فاجتمع الناس الى مالك واستغاثوا بهِ ففعل مثلَ فعلهِ بزياد فقال العديل قصيدتهُ التي اوّلها (من الطويل) :

أمِنْ مَنزلٍ من أمّ سَكنٍ عشيّــةً ظَلِلتُ بها ابكي عليهِ مُفكّرَا
معي كلُّ مسترخي الإزار كأنّهُ اذا ما مشى من جِنّ غِيلٍ وعَبقَرا
مُنيخي المَطايا لا يُبالي كلاهمــا مُقلّصةً خوصاً من الأَينِ ضُمَّرا

ومنها في مديح بني مسمع ومالك (عمدة ابن الرشيق ٢ : ٦ والاغاني ٢٠ : ١٧) :

بني مِسْمَعٍ لولا الإلــهُ وانتمُ بني مِسْمعٍ لم يُنكِرِ الناسُ مُنْكَرَا
اذا ما خشينا من اميرٍ ظُــلامةً دعونا أبا غسّانَ يومــاً فعسكرا
ترى الناسَ افواجاً الى بابِ دارهِ اذا شــاء جاؤوا دارعِينَ وحُسَّرا

وممّا يُروى ايضاً من شعر العُدَيل بن الفرخ ما قالهُ في رجل من بني عجل يدعى جبّارًا كان رجل من بني العنّاب من رهط العديل اصاب انفهُ (من الطويل) :

ألم تَرَ جبّارًا ومارِنَ أنفهِ لهُ ثُلَمٌ يَهوِينَ أن يتخنّعا
ونحنُ جدَعْنــا أنفهُ فكأنّمــا ترى الناسَ أعداءً اذا هو أطلعــا
كُلوا أنفَ جبّارٍ بِكارًا فانّما تركناهُ عن فَرْطٍ من الشرّ أجدعا
معــاقدُ من أيــديهمِ وأنوفهم بَكارى وثِيباً تَركبُ الحَزْنَ طُلَّعا

وكان رجل من رهــط العُدَيل ضرب ايضاً يد وكيع احد بني الطاغية وهمــا يشربان فقطعها وافترقا فقال العُدَيل في ذلك (من الطويل) :

تركتُ وكيعاً بعد ما شابَ رأسُهُ أشلَّ اليمينِ مستقيمَ الأخــادعِ
تَشرَّبْ بها وُرْقَ الإفالِ وكُلْ بها طعامَ الذليلِ وأنحِرْ في المَخادعِ

فلمّا قال هذا الشعر يفخر بقطع انف جبَّار ويد وكيع حلف رهطها ان يقطعوا انفَهُ ويدهُ دونَ مَن فعَلَ ذلك بهم · فهرب العديل وابوهُ الى بني قيس بن سعد ولجأ الى عُفَير بن جُبَير · فقال بنو قيس بن سعد للفرخ بن العُدَيل أنصِفْ قومك وأعطِهم حقّهم · فركب اليهم الفرخ ومعهُ رجلان من بني الحرث اسمهما حسَّان ودينار فأسرتهُ بنو الطاغية وانتزعوهُ من الرجلين وتوجَّهوا بهِ نحو البصرة · فرجع الرجلان الى قومها مستنفرَين لهم فركب النَّفير في نَهب بني الطاغية فادركوا منهم رجلًا فاشترى منهم الجِراحة بسبعين بعيرًا واخذ ابنَ الفرخ منهم فاطلقهُ · فقال العديل يمدح بني قيس ويهجو بني طاغية (من الطويل) :

ما زال في قيسِ بن سَعْدٍ لِجارهِمْ على عَهْد ذي القَرْنَينِ مُعْطٍ ومانعُ
هم استنقذوا حسَّانَ قسرًا وأنتمُ لئامُ المَقام والرماحُ شوارِعُ
غدرْتم بدينارٍ وحسَّانَ غُدوَةً وبالفرْخِ لمَّا جاءكم وهو طائعُ
فلولا بنو قيس بن سَعْدٍ لأصبحَتْ عليَّ شِدادًا قبضُهنَّ الاصابعُ
ألا تسألون ابنَ المُشتَّمِ عنهمُ جماعةُ والجيرانُ وافٍ وظالعُ

ومما روى ابو الفرج في (الاغاني ٢٠ : ١٩) عن الاصمعي انهُ قال: دخلتُ على الرشيد يوماً وهو محموم فقال: أنشِدْني يا اصمعي شعرًا مليحاً · فقلتُ: أرَصيناً فحلًا يريدهُ اميرُ المؤمنين ام شجياً سَهلًا · فقال: بل غزلًا بين الفحلِ والسهل · فانشدتُهُ للفرخ بن العُدَيل العجلي (من الطويل) :

صحا عن طِلابِ البِيضِ قبل مَشيبهِ وراجَعَ غضَّ الطَّرْف فهو خفيضُ
كأنّيَ لم أرْعَ الصِّبا ويروقُني من الحيِّ أحوَى المُقلتَين غضيضُ
دعاني لهُ يوماً هوًى فأجابَهُ فؤادٌ اذا يَلقى المِراضَ مريضُ
لِمُستأنِساتٍ بالحديث كأنَّهُ تهلُّلُ غُرٍّ بَرْقُهنَّ وميضُ

فقال لي: أعِدْها · فما زلتُ اكرّرها عليهِ حتى حفظها

ولهُ في العتاب ما رواهُ صاحب الحماسة البصريَّة (ص ٢٤٤ من نسخة مكتبتنا) وذلك انَّهُ كان مدَح مع الفرزدق قوماً من رهطهِ فوصلوا الفرزدقَ دونهُ فقال (من الطويل) :

أفي الحقّ ان يُعطَى الفرزدقُ حكمَهُ وتخرُجُ كفّي من نوالكمُ صُفرا
أهُمْ فيثنيني أواصرُ بيننـا وأيدٍ حِسانٌ لا أؤدّي لها شكرا

وممَّا يُستشهد بهِ من شعر العُدَيل في كتب اللغة قولهُ (من الرجز) :

اوعـدَني بالسجن والأداهمِ رِجلي ورِجلي شَثْنةُ المناسمِ

قالوا الأداهم القيود من خشب جمع أدهم . اي تهدّدني بالسجن وتهدَّد رجلي بالقيود وانَّما رجلي شثنة المناسم اي غليظة الباطن لم تؤلمها القيود

ومن رَجَز العديل رائيَّتهُ التي مرَّ ذكرها وهي كثيرة الابيات ذكر منها ابن قتيبة في الشعر والشعراء قولهُ :

يا دار سَلمى اقفرت من ذي دارْ(١) وهل بإقفـار الـديار من عـارْ

ثم ذكر وصفهُ للابل :

قواربَ الماء سَوامي الأبصـارْ وهنَّ يَنهضَنَ بدَكْـداكٍ هارْ(٢)
أورَقَ(٣) من تُرْبِ العِراقِ خوّارْ وقـد كُسِينَ عَرَقاً مثلَ القـارْ
يخرجُ من تحتِ خِلالِ الأوبارْ

﴿وفاة العُدَيل في البصرة﴾ روى في الاغاني (٢٠ : ١٩) عن محمَّد بن سلّام قال : قَدِمَ العديل بن الفرخ البصرة ومدح مالك بن مِسمع الجَحْدري فوصَلَهُ فاقام بالبصرة

١) ويروى : من ذي قار
٢) القوارب جمع قارب وهو طالب الماء ليلاً . والـدكداك الارض الغليظة . والهـار المتداعيَ يريد الارض التي تجرفها السيول
٣) الأورق الذي لونهُ لون الرماد

واستطابها وكان مقيماً عند مالك فلم يزل بهـا الى ان مات · وكان ينادم الفرزدق ويصطحبان فقال الفرزدق يرثيه :

وما ولدَتْ مثلَ المُذيلِ جليلةٌ قديمًا ولا مستحدَثاتُ الحلائلِ
وما زال مُذ شدَّت يداهُ إزارَهُ بهِ تفتَحُ الابوابَ بكرُ بن وائلِ

وهذان البيتان لم يُرْوَيا في ديوان الفرزدق

١٣ العجّاج بن رؤبة

﴿اسمهُ ونسبهُ﴾ هو عبدالله بن رؤبة بن حنيفة احد بني تميم يُكنَّى ابا الشعثاء والشعثاء ابنتهُ · وقد سُمّي العجّاج ببيت قالهُ في مديح قومهِ :

فعرفوا أَلّا يُلاقوا مَخرجا او يبتغوا الى العمادِ دَرَجا
حتى يَعِجَّ عندها مَن عَجْعَجا

وكان يلقَّب بعبدالله الطويل واكثر سكناهُ البصرة فنُسب اليها

﴿زمانهُ وشعرهُ﴾ عاش العجّاج في عهد بني اميَّة فمدحهم ونال صِلاتهم وقد عرف منهم يزيد بن معاوية وسليمان بن عبد الملك وبشر بن مروان بن الحكم ومدح عاملهم على العراق الحجّاج بن يوسف وغيره من اعيان زمانهِ كعُمر بن عبيـد الله بن معمر والي البصرة وكان عبد الملـك بن مروان قد وجَّههُ لقتال ابي فُـدَيك الخارجي الحروريّ فاوقع بهِ وباصحابهِ سنة ٧٣هـ (٦٩٢م) فمدحهُ العجّاج بارجوزة طويلة في نحو مائتي بيت

امَّا شعرهُ فقد اشتهر فيهِ بقصائدهِ الرَجز فانَّهُ كان هو وابنهُ رؤبـة من كبار الرجّازين وفصحائهم وقيل ان الأَغلب العِجلي والعجّـاج وابا النَّجم العجلي اوَّل من اطالوا المقطَّعات ونظموا الاراجيز المطوَّلة · وقد اخبر ابو الفرج في الاغاني (١٨ : ١٢٤) عن ابن دريد انهُ قيل ليونس النحوي : مَن اشعر الناس ؟ قال العجّاج ورؤبة · فقيل لهُ : لِمَ لَمْ تعنِ الرُّجّاز · ؟ فقال : «هم اشعر من اهل القصيد · انَّما الشعر كلام واجودهُ

اشعرهُ». ثم ذكر مثالًا من شعرهما بيَّن فيهِ ما لهما من الفضل وجود القريحة

﴿اخبارهُ﴾ عاش العجّاج في البصرة وفي البادية المجاورة لها في ايام الخلفاء الراشدين ثمَّ في عهد بني امية. وكان مواليًا للامويين ولعلَّهُ حارب مع جيوشهم اعداء دولتهم كما يُستدلّ من اوصافهِ لحروبهم. وقد مرَّ بدمشق ودخل على خلفائها وحضر مع الشعراء بعض المجالس الادبيَّة التي عُقدت فيها. ووقعت بينهُ وبين ابي النجم الراجز مفاخرات كان يدَّعي كلٌّ منهما الفضل على الآخر

وممَّا لا ريب فيهِ انَّ سمعة العجّاج انتشرت في انحاء العرب وكان الناس يتناشدون شعرهُ فنقلهُ عنهم اللغويُّون واستندوا اليهِ في نوادر كتب اللغة

وممَّا اخبرهُ الاصفهانيُّ في الاغاني متفكّهاً (١٨ : ١٢٤) ان راجزًا من اهل المدينة جلس الى حلقةٍ فيها الشعراء وبينهم العجّاج وابنهُ رؤبة وهو لا يعرفهما فقال: «انا ارجز العرب انا الذي اقول :

مروانُ يُعطي وسعيدٌ يمنعُ   مروانُ نبعٌ وسعيدٌ خروعُ

وَددتُ أني راهنتُ مَن احبَّ في الرجز لأَنا ارجز من العجّاج فليت البصرة جمعت بيني وبينهُ». فأقبل رؤبة على ابيهِ فقال: قد والله أنصفك الرجل. فاقبل عليهِ العجّاج فقال: ها انا ذا العجّاج فهلمَّ. وزحف. فقال المدنيّ: واي العجّاجين انت. قال: ما خلتُك تعني غيري انا عبدالله الطويل (وكان يكنَّى بذلك). فقال لهُ المدني: ما عنيتُك ولا أَردتك. قال: وكيف وقد هتفتَ باسمي. فقال: او ما في الدنيا عجّاج سواك؟ قال: ما علمتُ. قال: ولكني اعلمُ واياهُ عنيتُ. قال: فهذا ابني رؤبة. فقال: اللهمَّ غفرًا ما بيني وبينكم عملٌ وانَّما مُرادي غيركما. فضحك الحلقة منهُ وكفَّا عنهُ

وكان العجّاج يقيم في مِربَد البصرة من اشهر محالّها وبها كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء فيقوم بينهم العجّاج محتفلًا عليهِ جبَّةُ خزّ وعمامة خزّ على ناقةٍ لهُ قد اجاد رحلها فينشد الناس

وعاش العجّاج الى ايام الوليد بن عبد الملك فمات نحو السنة ٩٠ هـ (٧٠٩م)

﴿دينهُ﴾ ما كنّا لنجسر ان ننظم العجّاج في سلك شعراء النصرانيَّة لولا كلمةٌ وردت في شعرهِ تدلُّ على انَّهُ دان بالنصرانيَّة وان يكن بعد ذلك عدل الى

الاسلام. وهذه الكلمة هي مطلع قصيدتهِ الرائيَّة الشهيرة حيث يقول :

الحَمْدُ للهِ الذي اعطى الشَّبَرْ

فشرح البعض لفظة «الشَّبَر» بمعنى الخير والعطيَّة اي الحمدُ لله موزّع الخيرات والعطايا. الّا انَّ للفظة معنى آخر قديماً ورد في شعر عدي بن زيد الشاعر النصراني الشهير حيث يصف امانتهُ نحو النعمان (شعراء النصرانيّة ص ٤٥٢) :

لم أَخُنْهُ والذي أعطى الشَّبَرْ

فورد هناك شرح الكلمة «بالانجيل والقربان». وكذلك قال ابن السكّيت في اصلاح المنطق (في الطبعة المصريّة ص ١٦٩) : «وقيل في الشَّبَر ها هنا انهُ القربان». فعديّ اذ أقسم بالشَّبَر اراد أجلَّ ما لدى النصارى في دينهم وهو القربان. وقد زاد العجّاج على قول عدي اذ خصَّ الحمدلة في مقدَّمة قصيدتهِ وبراعة استهلالها بمنحة الله للشَّبَر فلا يُريد ايَّ عطيَّة كانت بل اكبر هبات الله التي هي عند النصارى الانجيل والقربان

ويؤيّد قولنا الشرحُ الوارِد في لسان العرب (٦ : ٥٩) وفي تاج العروس (٣ : ٢٨٩) لبيتي عدي والعجّاج : «الشَّبَرُ شيء يتعاطاهُ النصارى بعضهم لبعض كالقربان يتقرّبون بهِ او القربان بعينهِ. ونقل الصاغاني عن الخليل انَّ الشَّبَر شيء تُعطيه النصارى بعضُهم بعضاً كأنَّهم كانوا يتقرّبون بهِ . . . وقيل الانجيل»

فترى من هذه الشروح انَّ العجّاج وعدي بن زيد ضربا عن وَتَر واحد وانَّ كليهما يدين بالنصرانيّة. واللفظة على ما نظنّ سريانيّة فان كانت بمعنى الانجيل فهي « [illegible] » يراد بها البشرى وهذا معنى لفظة الانجيل في اليونانيّة. وان كانت بمعنى القربان فهي « [illegible] » ومعناها القوت والغذاء اي قوت النفس والقربان

هذا ولا نجهل انَّ بعض الرواة رووا كلمة العجّاج « بالحَبَر وبالخِيَر » وكلاهما بعيد او تصحيف فالحَبَر الاثر او السرور أمّا الخَيَر على فعَل او الخِيَر على فِعَل بلفظ الجمع فلا ذكر لهما في المعاجم . ما لم يُقَلْ انَّ الخِيَر جمع خِيَرة اي المختار ولا شكَّ في انَّ العجّاج نظر الى قول عديّ السابق ذكرهُ . ولاسيَّما انَّ اقدم رواية هي «الشَّبَر» راقية الى الخليل في القرن الثاني للهجرة

ولسنا لنقصد بقولنا هذا ان نصرانيّة العجّاج كانت خالصةً لا غبار عليها فكما ترى هنا اثر نصرانيَّتِهِ تجد ايضاً في شعرهِ آثارًا اسلاميّة منها في قصيدتهِ الرائيّة المذكورة حيث يذكر نبيّ الاسلام بقولهِ :

محمَّدًا واختارهُ اللهُ الخِيَرْ فما وَنَى محمَّدٌ مذ ان غفَرْ
لهُ الالهُ ما مضى وما غبرْ أن أظهر الدينَ بهِ حتى ظَهَرْ

وقيل (في الاغاني ٢١ : ٨٥) انَّ العجّاج انشد ابا هُرَيرة صحابيَّ محمّد قولهُ الذي وصف فيها الخالق واعمالهُ ويوم الحساب واهوالهُ وهو موافق لمعتقد النصارى :

الحمدُ للهِ الذي تَعَلَّتِ بأمرهِ السماءُ واستقلَّتِ
بإذنهِ الارضُ وما تعنَّتِ أرسى عليها بالجبال الثُبَّتِ
وَحَى لها القرارَ فاستقرَّتِ ربُّ البلاد والعباد القُنَّتِ
والجاعلُ الغَيثَ غياثَ المُسنِتِ(١ والباعثُ الناس ليوم المَوقِتِ
بعد المماتِ وهو مُحيي المُوَّتِ يوم ترى النفوسُ ما أعدَّتِ
من نُزُلٍ(٢ اذا الامور غبَّتِ من سَعْيِ دنيا طال ما قد مُدَّتِ
حتى انقضى قضاؤها فأدَّتِ الى الإلهِ خلقَهُ اذ طَمَّتِ(٣
غاشيةُ الناسِ التي تَغَشَّتِ(٤ يومَ يَرى المرتابُ أن قد حُقَّتِ
اذا رأى مَتْنَ السماء أنقدَّتِ وَحْيَ الالهِ والبلادَ رُجَّتِ
وهو الذي أنعمَ نُعمى عمَّتِ دافعَ عنّي بنُقَيرٍ(٥ مُوتَتي

١) المُسنِت الذي اصابهُ الجدب من اسنَتَ القوم اذا اجدبوا
٢) النزل طعام الضيف يريد بهِ الاعمال الصالحة
٣) اذ طمَّتهم اي دفنتهم في التراب
٤) الغاشية الهلاك . وتغشّاهُ غطّاهُ ٥) النُقَير تصغير نَقَر هو فقد المال

بعد اللَّتيَّا واللتيَّا والَّتي (١ اذا علتها أنفسٌ تردَّتِ

فارتاح ربي واراد رحمتي ونعمةً أتمَّها فتمَّتِ

فردَّها عني وقد أعدَّتِ أظفارها ونابها وحدَّتِ

فأساً ومسحاةً لنحتِ جبلتي

فلمَّا سمع ابو هريرة انشادهُ قال: اشهد انك تؤمن بيوم الحساب. وللعجَّاج آثار دينيَّة تراها آنفاً

﴿ديوانهُ﴾ قد نجا ديوان العجَّاج من الضياع. وكان اوَّل من اهتمَّ بجمعهِ الاصمعيّ وابو عمرو الشيباني كما روى ابن النديم في الفهرست (ص١٥٨) . وامَّا اخبارهُ واخبار ابنهِ رؤبة فجمعها عبد العزيز الجلودي من اهل البصرة . وفي المكتبة الخديويَّة نسخة من هذا الديوان نقلها العلَّامة وليم بن الورد (W. Ahlwardt) فنشرها مع ترجمتها الالمانيَّة في برلين سنة ١٩٠٣

وها نحن نقتطف من اراجيزهِ بعض المقطَّعات تنويهاً بفضلهِ فمنها قولهُ مستغيثاً ومستغفراً ثمَّ ذاكراً ويلات الحرب :

يا ربِّ ربَّ البيتِ والمُشرَّقِ والمُرقِلاتِ كلَّ سهبٍ سملقِ (٢

اياكَ ادعو فتقبَّلْ مَلَقي (٣ فاغفرْ خطاياي وثمِّرْ ورَقي

انَّا اذا حربٌ غدتْ لا تتَّقي دَيناً ولا مستأخراً لم يلحقِ

تَرُدُّ حدَّ النابِ منها الأزوَقِ في كلّ يومٍ كاللَّياح الأبلقِ (٤

والحُمْسُ قد تعلمُ يومَ مُلزَقِ انَّا نقي احسابَنا ونَتَّقي (٥

١) اللَّتيا والتي المصيبة والداهية
٢) المُشرَّق مصلَّى العيد. والمرقلات السهب اي الابل القاطعة الفلاة. والسملق الصحراء
٣) اي تقبَّلْ دعائي واصل المَلَق الودّ واللطف
٤) الناب الأزوق اي ذو الزَّوَق وهو طول الثنايا العليا على السُّفلى. واللياح الصبح. والأبلق الذي يختلط سوادهُ بياضهِ ٥) الحُمس جمع أحمس الشجاع. المُلزق القتال. ونتقيهِ نجتنبهُ

بالمَشْرَفيّات افتخارَ الأحمقِ   اذ هَمَّتِ الذُّهلانُ بالتفرُّقِ(١

بعد جخيفِ البَغْيِ والتعمُّقِ   دارَت رَحانا ورحاهم تستقي(٢

سِجالَ موتٍ مَنْ يَخُضْها يغرَقِ

وقال يذكر حُسْن سيرتهِ وعفافهُ :

يا ربِّ اذ شدَدْتني عِقالا   ولو تَشاءُ أسرَعَ انحلالا

ان كنتَ قد غيّرتَ حالي حالا   من كِبَرٍ قد أوهن الأوصالا

فلم أكُن استنطقُ العُذّالا   من أن يَرَوني للخَنا قوّالا

ولم أكُن لجارتي غوّالا   ولم أكُن في جَنْبِها جَهّالا

ولم أكُنْ أُخادعُ الضُّلّالا   ولا لِما حرّمتَهُ أكّالا

ولا لبَيْتِ جارتي خَتّالا   بعد المنام ابتغي الإدغالا(٣

تَبَغّياً ما ليس لي حَلالا   على الإله الباعثِ الأثقالا

يُعقِبُني من جَنّةٍ تَظلّالا(٤   وقد يثيبُ الصابرَ النَّوالا

ومن اقوالهِ ايضاً يذكر صفاتهِ تعالى :

فالحمدُ للهِ العليِّ الأعظمِ   ذي الجَبروت والجلالِ الأفخمِ

وعالمِ الإعلانِ والمُكتَّمِ   وربِّ كلِّ كافرٍ ومُسلمِ

والساكن الارض بأمرٍ مُحكمِ   بَنى السماواتِ بغيرِ سُلَّمِ

١ اراد بالأحمق الذي لا يُبالي بأهوال الحرب. وبالذُّهلان الجُبناء

٢) الجخيف الافتخار الباطل. والرحى حومة الحرب

٣) الختّال الخدّاع. والإدغال الخيانة   ٤) التّظلالا من المصادر النادرة كالتظليل

وربَّ هذا البلدِ المحرَّمِ   والقاطناتِ البيتَ غيرَ الرُّيَّمِ (١

من عهد ابرهيمَ لمّا تُطْسَمِ

ومن مديح العجّاج قولهُ في يزيد بن معاوية :

فقد رأى الرَّاؤون غيرُ البُطَّلِ   أنّك يا يزيدُ يا ابنَ الأفحلِ (٢

اذ زُلزِلَ الاقوامُ لم تُزَلزَلِ (٣   عن دينِ موسى والرسول المُرسلِ

اذ طارَ بالناس قلوبُ الضُّلَّلِ (٤   قتلًا وإضرارًا بمن لم يُقتَلِ

وكنتَ سيفَ الله لم يُفَلَّلِ   يَفرَعُ احياناً وحيناً يَختلي (٥

سوالفَ العادينَ هذَّ العُنْصُلِ   والهامَ والبَيْضَ انتقافَ الحَنظَلِ (٦

حتى ارفأنَّ الناسُ بعدَ المِجوَلِ   وبعد تَشْوالِ الحروبِ الشُّوَّلِ (٧

تفادياً منك ولم تُقَلَّلِ

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك وكان يُكنّى بابي العبّاس :

كم قد حَسَرْنا من عَلاةٍ عَنْسِ   كَبْداءَ كالقَوْسِ وأُخرى جَلْسِ (٨

---

١) الرُّيَّم جمع رائم من رام المكان اذا فارقَهُ

٢) الأفحل الاكرم   ٣) زُلزِل القوم اضطربوا

٤) الضُّلَّل جمع الضالّ المتشتّت المنهزم

٥) فَلَّلَ السيفَ ثلَمهُ. ويفرَع يعلو فوق رؤوس العدوّ. ويختلي يجزُّ ويقطع

٦) السَّوالف مفعول يختلي جمع سالفة وهي صفحة العُنق. والهَذُّ القَطْع السريع. والعُنْصُل البصل البرّي وانتقفَ الحَنْظَلَ كسرهُ من حبّهِ استعارهُ لكسر الرؤوس

٧) ارفأنَّ سكن وهدأ. المِجوَل كرَّة الحرب. وتَشْوال الحرب هيجانها

٨) حَسَرَ العَلاةَ اي ساقَ الناقة سَوْقًا شديدًا. والعَنْس الناقة الصلبة الجسم. ويقال قوسٌ كبداء اذا ملأَ مقبضُها الكفَّ. والناقة الجَلْس الوثيقة الجسم

حتى احتضَرْنا بعد سَيرٍ حَدْسِ إمامَ رَغْسٍ في نِصابٍ وَعْسِ (١

رأسَ قِوامِ الدينِ وابنَ رأسِ خليفةً ساسَ بغير فَجْسِ (٢

في قِنْسِ مَجْدٍ فاتَ كلَّ قِنْسِ (٣ ملَّكهُ اللهُ بغير نَحْسِ

قد علمَ القدُّوسُ رَبُّ القُدْسِ انَّ أبا العبَّاس أولى نَفْسِ

بمَعْدِنِ المُلْكِ كريمِ الكِرْسِ فُرُوعِهِ واصلِهِ المُرَسِّي (٤

وقال في بني مَرْوان :

انَّ بني مَرْوانَ ضَرَّابو البُهَمْ والقاتلون مَن عَصَى اذا اعتَقَمْ (٥

ديناً سوى الحقّ الى أمرٍ أَمَمْ كلُّهُمُ يُنمَى الى عِزٍّ أَشَمْ (٦

وقال يفتخر بقومهِ :

قد علمَتْ بكرٌ وسعدٌ تعلَمُهْ لنَصرَعَنْ ليثاً يُرِنُّ مأتَمُهْ (٧

نطعَنُهُ نَجْلاءَ فيها أَلَمُهْ يجيشُ من بين تراقيهِ دَمُهْ

كمِرْجَلِ الصَّبَّاغ جاشَ بَقَمُهْ (٨

١) السَّير الحَدْس هو السريع. واحتضَرَ كحَضَرَ. الرَّغْس النعمة والبركة خصَّها بالإمام اي الخليفة الوليد. والرَّعْس المشي البطيء من الإعياء

٢) الفَجْس الكِبر والتعظُّم

٣) القِنْس أعلى الرأس والذُّروة

٤) كريم الكِرْس اي كريم الاصل. والمُرَسِّي المتأصّل

٥) البُهَم الشجاع. اعتقم الرجل الى الشرّ تردَّد اليهِ

٦) الامر الأَمَم الواضح البيّن. والأشمّ العالي الشرَف

٧) يُرِنّ مأتَمُهُ اي يكون لموتهِ رنَّة حزن وصراخ

٨) الطعنة النَّجلاء الواسعة. وجاش الدم انصبَّ بغَلَيان. ثمَّ شبَّههُ بغليان خَشَب البَقَم الذي يطبخهُ الصبَّاغ ليصبغ بطبخهِ

ومن حسن اقواله وصفهُ لليلةٍ قضاها بالالم والسهاد :

وليلةٍ من الليالي مَرَّتِ بكابدٍ كابدتُها وجَرَّتِ (١
كَلْكَلَها لولا الإلـهُ ضَرَّتِ في ظُلَمٍ أزلّها فزلَّتِ (٢
عنّي ولولا اللهُ مـا تجلّتِ بتُّ لها يَقْظانَ واقْسأَنَّتِ (٣
اذا رجوتُ ان تُضيء اسودَّتِ دون قُدامى الصُّبحِ فارجحنَّتِ (٤
منها عَجاساءُ اذا ما التجَّتِ حَسِبتُها ولم تَكُرَّ كرَّتِ (٥
كأنَّما نجومها اذ ولَّتِ زَوْرًا تباهي الغَوْرَ اذ تدلَّتِ (٦

ومن اقواله الدينيَّة قولهُ يذكر العمل الصالح وجزاءهُ عند الله :

يعلَمُ والعالِمُ لا كالأجهَلُ أنَّ حسابَ العَمل المُحَصَّلِ
والأولى من غِبِّ الامور الأُوَلِ عند الاله يومَ جَمْعِ الفُمَّلِ
بمَجْمَعِ الحساب والمُزيَّلِ (٧ وأنَّ خيرَ الحولِ المخوَّلِ
فَلَذُ العطاء في الحقوقِ النُّزَّلِ

وقال في مثل ذلك :

لا اشتمُ المرء الكريم المُسْلما ولا أرى شَتْمَ البريءِ مَغْنما

---

١) الكابد المكابدة والمشقَّة
٢) الكَلْكَل الصدر . واستعار جرَّ الداهية بكلكلها لحلول مصائبها . وأزلَّها اي الله أزلَقَها ونحّاها ٣) اقسأنَّت اشتدَّت وصَمُبت
٤) قُدامى الصبح لوائحهُ الاولى . ارجحنَّت مالت واهتزَّت
٥) العجاساء ظلمة الليل . والتجَّت اي التبست واشتدَّ ظلامها
٦) ولَّت زَوْرًا اي ولَّت بزَوْرها اي صدرها ٧) المُزيَّل هنا المختار

ولا ابنِ عمّي أن أراهُ مُفحَما وجارةُ البيتِ أراها مُحرَما(١

كما قضاها اللهُ إلّا إنّما مكارمُ السّعي لمن تكرّما

مَخافةَ اللهِ وعلماً انّما يَجزي المُجازي عاملاً ما قدّما

ومن التشابيه النصرانيَّة قولهُ يصف بقرة وحشٍ :

واعتادَ أرباضاً لها آريُّ من مَعدِنِ الصّيرانِ عُدْمُليُّ

كما يعودُ العيدَ نصرانيُّ وبيعةً لسُورها عِليُّ(٢

فمن هذه الامثلة يلوح للقرّاء ما صار اليهِ شعر الرَّجز في عهــد بني اميَّة اذ بلغ الغـاية من المتانة والتبسُّط وكان للعجّاج في ذلك السهم الفائز وعلى اثرهِ جرى ابنهُ رؤبة من بعدهِ وعاش الى زمن دولة بني عبَّاس ولا نعرف من نصرانيَّتهِ شيئاً كما ظهر من شعر والدهِ ولعلَّهُ لم يثبت على دينهِ او جمع بينهُ وبين الدين المحمّــدي كما وقع لغيرهِ من نصارى عهــد الاسلام الاوَّل الذين لم يستقرُّوا على رأي فتقلَّبوا على حسب احوال الزمان والله اعلم

وبهذه الترجمة نختم هذا القسم من شعراء النصرانية بعد الاسلام في ايَّام بني امية . وسنتبعهُ ان شاء الله بقسم ثالث مخصَّة بالشعراء النصارى في عهد بني عبَّاس

١) المُفحم المنقطع صوتهُ لكثرة البكاء . مُحرَم اي معدودة حراماً

٢) اي اعتاد هذا البقر السَّير في نواحيَ ذات بطون وحزون ووصفهُ بكونهِ من خير الصِيران . والصيران جمع صوار وهي جماعة البقر . والمُدملي التقدُّم في السنّ . ثمَّ شبَّههُ بالنصراني المتردِّد في الاعياد الى كنيستهِ ذات السور المرتفع العليّ

فهرس

القسم الثاني من شعراء النصرانيّة بعد الاسلام

شعراء الدولة الامويّة

كتاب

شعراء النصرانيّة

بعد الاسلام

القسم الثالث

شعراء الدولة العبّاسيّة

القسم الثالث

مقدمة

قد تعدَّد الكتبة النصارى في زمن بني عبَّاس (١٣٢—٦٥٦هـ = ٧٥٠—١٢٥٨م اعني في الخمسة الاجيال التي ثبتت الخلافة في عهدتهم في بغداد عاصمة العراق. على ان معظم اولئك الكتبة خدموا الدولة في ما كانت اليهِ الآداب العربيَّة امسَّ حاجةً فانقطعوا الى العلوم الفلسفيَّة والطبيَّة وتهافتوا على درس الآثار القديمة فنقلوا معظم تآليف اليونان وكثيرًا من تآليف الرومان والسريان الى العربيَّة فوسَّعوا بذلك نطاق معارف العرب ومهَّدوا لهم الطريق الى تلك النهضة الادبيَّة التي امتازوا بها في القرون الوسطى

على ان النصارى لم يهملوا مع ذلك درس اللغة العربيَّة وفنونها اللسانيَّة من نثر وشعر لولا ان كوارث الدهر قد اضاعت كثيرًا منها. وها نحن في هذا الجزء ندوّن ما وجدناهُ من ذلك متفرّقًا في كتب الادباء وخزائن المخطوطات الدوليَّة

١ ابو قابوس الشاعر النصراني

﴿اصلهُ وجنسهُ﴾ لا نعلم عن اصل ابي قابوس وجنسهِ الَّا النزر القليل الذي لا يروي غليلًا. وجدنا في احد مخطوطات مكتبة باريس العموميَّة (Ms de Paris, 2107, ff. 41) الذي عنوانهُ احسن المسالك لاخبار البرامك ليوسف بن محمَّد البلوي انَّ ابا قابوس كان اسمهُ عمرو بن سليمان وابو قابوس كُنية. والقابوس في اللغة الرجل الجميل الوجه الحسن اللون. وبهِ تكنَّى ابو قابوس النعمان بن المنذر ملك الحيرة. وجاء في مخطوط آخر وهو كتاب الكواكب السنيَّة في شرح القصيدة الفريَّة للادهمي

(Ms de Paris 1534, pp. 100) أنَّهُ كان حيريًّا وقد تصفَّح هذا النسب في تحفة المجالس للسيوطي (ص ١٧٥) فسمَّاهُ ابا قابوس الحميري وكان ينتمي الى بني شيبان

﴿زمانهُ ودينهُ﴾ عاش ابو قابوس في عهد هارون الرشيد في اواخر القرن الثامن للميلاد ولم يُروَ لمولده وموتهِ تاريخ. امَّا دينهُ فالنصرانيَّة لا شكَّ فيهِ كما صرَّح كثيرون بالامر منهم ابن الرشيق في العمدة (ص ٣٣) قال: «كان ابو قابوس الشاعر رجلًا نصرانيًّا من اهل الحيرة» وكذا قال الشريشيّ في شرح مقامات الحريري (١: ٦٤) وابو بكر احمد البغدادي في تاريخ بغداد في مكتبة باريس (Ms, de Paris, 2128, ff. 80) وغيرهم

﴿اخبارهُ﴾ كان ابو قابوس شاعرًا منقطعاً الى البرامكة كالرقاشي الشاعر واشجع السُّلَمي وجحظة البرمكي. وتقرَّب بهم الى الخليفة هارون الرشيد. ومن اخباره ما رواهُ صاحب تاريخ بغداد ابو بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي (ص ٨٣ من نسخة باريس) قال: «قال ابو قابوس النصرانيّ: دخلتُ على جعفر بن يحيى في يوم بارد فاصابني البرد فقال: يا غُلام اطرح عليهِ كساء من أكسية النصارى. فطرح عليَّ كساء من خزّ قيمتهُ الف دينار. (قال) فانصرفتُ الى منزلي فاردتُ ان اكتسيهُ في يوم عيدٍ فلم أُصِبْ لهُ في منزلي ثوبًا يشاكلهُ فقالت لي بُنيَّة لي: اكتب الى الذي وهبَهُ لك حتى يرسل اليك بما يشاكلهُ من الثياب فكتبتُ اليهِ (من الطويل):

ابا الفضل لو أبصرتَنا يومَ عيدنا ... رأيتَ مُباهاةً لنا في الكنائسِ
فلو كان ذاك المِطرَفُ الخزُّ جبَّةً ... لَباهيتُ اصحابي بها في المجالِسِ
فلا بُدَّ لي جُبَّةٌ من جبابِكم ... ومن طيلَسانٍ من خيار الطَّيالسِ
ومن ثوبِ قُوهيٍّ وثوبِ غِلالةٍ ... ولا بأس إنْ أتبعتَ ذاك بخامسِ
اذا تمَّت الاثوابُ في العيد خمسةً ... كفَتْك فلم تحتجْ الى لُبس سادسِ
لَعَمرُكَ ما افرطتُ فيما سألتهُ ... وما كنتُ لو افرطتُ منهُ بآيسِ
وذاك لانَّ الشعرَ يَزدادُ حمدُهُ ... اذا ما البِلى أبلى جديد الملابسِ

قال فبعثَ اليهِ جعفر حين قرأ شعرَهُ بتخوتٍ خمسة من كل نوع تحتاً»

وجاء في اخبار البرامك للبلوي وفي شرح مقامات الحريري للشريشي (١ : ٦٤) . انَّ يحيى بن خالد كان اذا وعد انجز وينقدُ سريعاً ما وعد . ومن اقوالهِ : من لم يَبِتْ مسروراً بوعدٍ لم يجد للصنيعة مطعماً . فدخل عليهِ ابو قابوس النصراني فانشدهُ (من البسيط) :

رأيتُ يحيى أتمَّ اللهُ نعمتَهُ عليهِ يأتي الذي لم يأتِهِ أحدُ
يَنْسى الذي كان من معروفهِ ابداً الى الرجالِ ولا يَنْسى الذي يَعِدُ

فاجازه يحيى بجائزةٍ سنيَّة وقضى حوائجهُ

﴿ديوانهُ وشعرهُ﴾ لم نجد في مخطوطات المكاتب ولا في كشف الظنون للحاج خليفة ذكرًا لديوان صنَّفهُ ابو قابوس الحيري . وانَّما جاء في فهرست ابن النديم (ص ١٦٣) في باب اخبار العلماء وما صنَّفوهُ من الكتب ما حرفهُ : « ابو قاموس الشيباني مائة ورقة» يريد انَّ ديوانهُ يبلغ مائة ورقة . اما قولهُ «ابو قاموس» فتصحيف «ابو قابوس» كما يظهر . ومنهُ يستدلّ على انهُ كان من بني شيبان الذين كانوا يحتلّون الحيرة

ومن شعرهِ ما رواهُ ابو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغاني (٣ : ١٢٦ – ١٢٩) يذكر مهاجاة ابي قابوس للعتَّابي وتحامُل ابي العتاهية على ابي قابوس قال : لمَّا هاجى ابو قابوس النصراني كلثومَ بن عمرو العتَّابي جعل ابو العتاهية يشتم ابا قابوس ويضع منهُ ويفضّل العتابي عليهِ فبلغهُ ذلك فقال فيهِ (مجزوء الكامل) :

قُلْ للمُكَنّي نفسَهُ متخيرًا بمتاهِيَهْ
والمُرسلُ الكَلِمَ القبيـــحَ وعَتْهُ أُذنٌ واعِيَهْ
ان كنتَ سِرًّا سُؤْتني او كان ذاكَ علانيهْ
فعليك لعنةُ ذي الجلا ل وامُّ زيدٍ زانيَهْ

يعني امَّ ابي العتاهية وهي امُّ زيـد بنت زياد فقيل لهُ : اتشتمُ مسلماً ؟ فقال : لم اشتمه وانَّما قلت :

فعليك لعنةُ ذي الجلا ... لِ ومن عَنينا زانيهْ

وافضلُ من ذلك قولهُ لمّا اوقع هارون الرشيد بجعفر. قال البغداديّ: « وما انقضت الأيام حتى قُتل جعفر بن يحيي وصُلب عند جسر بغداد فرأوا ابا قابوس تحت جذعهِ يزمزمُ فاخذهُ صاحب الحرَس وادخلهُ على الرشيد فقال لهُ: ما كنتَ قائلاً تحت جذع جعفر؟ قال: أتُنجيني منك للصدق؟ قال: نعم. قال: ترحَّمتُ والله عليهِ. ثمَّ انشدهُ يشفع عندهُ للفضل بن يحيي (من الوافر):

أمينَ اللهِ هَبْ فَضلَ بنَ يحيي ... لنفسك ايها الملكُ الهُمامُ (١

وما طلَبي اليك العفوَ عنهُ ... وقد قَعَدَ الوشاةُ بهِ وقاموا (٢

أرى سببَ الرضى عنهُ قويّاً ... على اللهِ الزيادَةُ والتَّمامُ

نذرتُ عليهِ فيهِ صيامَ شهرٍ ... فان تَمَّ الرضى وجبَ الصيامُ

وهذا جعفرٌ بالجسر تمحو ... محاسنَ وجههِ ريحٌ قَتامُ

اقولُ لهُ وقمتُ لديهِ نصباً ... الى ان كاد يفضحني القيامُ:

أما واللهِ لولا خوفُ واشٍ ... وعينٌ للخليفةِ لا تنامُ

لَطُفْنا حول جِذْعِكَ واستلَمْنا ... كما للناس بالحَجَر استلامُ (٣

فما شاهدنا قبلك يا ابنَ يحيي ... حُساماً فلَّهُ قبلًا حسامُ (٤

عُقابُ خليفةِ الرحمان فخرٌ ... لمن بالسيفِ عاقَبهُ الإمامُ (٥

---

١) ويروى: أيُّها الفضلُ الهمامُ

٢) ويروى: وقد قعد الوشاةُ بنا

٣) ويروى: بالركن استلامُ

٤) رواهُ في العُمْدة:

وما ابصرتُ قبلك يا ابن يحيي ... حساماً قدَّهُ السيفُ الحسامُ

٥) ويروى: عاقهُ الهمامُ. ويروى: اوضعهُ الهمامُ ويروى: حساماً حتفهُ السيفُ الحسامُ

على الدنيا وساكنها جميعاً لدولة آل برمك السلامُ

قال ابن الرشيق في العمدة (ص ٣٣): وقد اختلط هذا الشعر بشعرين في وزنه ورويّه ومعناهُ احدهما لاشجع السُلَمي والآخر لسليمان (الاعمى) اخي (مسلم بن الوليد) صريع الغواني فالناس فيهِ مختلفون وهذه صحّتهُ. (قال) فانظرْ الى تجاسرهِ على مثل هذا الامر العظيم من الشفاعة والرثاء

واردف البغدادي قائلاً: «ولمّا سمع هارون الرشيد هذه الابيات اطرق مليّاً ثمّ قال: رَجُلٌ اولى جميلاً فنال بهِ جميلاً. يا غُلام نادِ بامان ابي قابوس وألّا يُعرَض لهُ - ووصّى حاجبهُ ألّا يحجبهُ عنهُ

هذا ما رواهُ ابن الرشيق وابو بكر البغداديّ. وقد ذكر في الاغاني (١٥: ٣٦) اربعة من اواخر ابيات القصيدة الميميَّة السابقة للرقاشي الفضل بن عبد الصمد الشاعر. وروى عنهُ انهُ قال تلك الاشعار عند جذع جعفر وان الرشيد احضره كما مرّ الخبر عن ابي قابوس ثمّ سألهُ: وكم كان يُجري عليك ؟ قال: الف دينار في كل سنة. قال: فانّا قد اضعفناها لك

وقصيدة ابي قابوس مرويّة ايضاً في كتاب جمهرة الاسلام ذات النثر والنظام من مخطوطات ليدن (Ms Leiden, CCCCXI ff.107) لعميد الدين ابن الغنائم مسلم ابن محمود الشيرازي امّا رواية القصيدة لسليمان الاعمى فوردت في العقد الفريد لابن عبد ربّه (٣: ٣٢) على الصورة الآتية نذكرها تتمّةً للافادة :

هدا الخالونَ عن شَجوي وناموا وعيني لا يُلائمُها منامُ
وما سَهَري بأني مستهامٌ اذا سهرَ المُحِبُّ المُستهامُ
ولكنَّ الحوادثَ أرّقتني فلي أرَقٌ اذا انقطعَ الغَمامُ
فقلتُ وفي الفؤادِ ضريمُ نارٍ وللعَبَراتِ من عيني أنسجامُ
على المعروف والدنيا جميعًا ودولةِ آلِ برمكَ السلامُ
جزعتُ عليك يا فَضلُ بن يحيى ومن يجزع عليك فلا يُلامُ
هوَتْ بك انجمُ المعروفِ فينا وعزَّ بفقدك القومُ اللئامُ
وما ظلمَ الالهُ اخاك لكن قضاهُ كان سبّبهُ اجترامُ
عِقابُ خليفةِ الرحمانِ فخرٌ لمن بالسَّيفِ صبّحهُ الحِمامُ

عَجِبتُ لِما دها فَضْلَ بن يحيى ... وما عجبي وقد غضبَ الإمامُ
جرى في الليل طائرُهم بنحسٍ ... وصَبَّحَ جعفرًا منهُ اصطلامُ
ولم أرَ قبل قَتْلك يا ابن يحيى ... حسامًا قدَّهُ السيفُ الحسامُ
يَرَيْن الحادثاتُ لهُ سهامًا ... فنالَتْهُ الحوادثُ والسهامُ
وانَّ الفضل بعد رداء عزٍّ ... غدا ورداؤهُ دالٌ ولامُ
فقل للشامتين بهِ جميعًا ... لَكَمْ امثالها عامٌ فعامُ
امينَ الله في الفضلَ بن يحيى ... رضيعك والرضيعُ لهُ ذِمامُ
ابا العبَّاس انَّ لكل همٍّ ... وان طال انقراضٌ وانصرامُ
ارى سَبَبَ الرضاء لهُ قَبُولٌ ... على الله الزيادةُ والتمامُ
وقد آليتُ مقتدرًا بنَذرٍ ... ولي فيما نذرتُ بهِ اعتزامُ
بأن لا ذقتُ بعدكمُ مُداماً ... وموتي أن يفارقني المدامُ
أألهو بعدكم وأقرُّ عينًا ... عليَّ اللهوُ بعدكمُ حرامُ
وكيف يطيبُ لي عيشٌ وفضلٌ ... اسيرٌ دونَهُ البلد الشآمُ
وجعفر ثاويًا بالجسر بلَّتْ ... محاسنَهُ السمائمُ والقتامُ
أمرُّ بهِ فيغلبني بكائي ... ولكنَّ البكاء لهُ اكتتامُ
اقول وقمتُ منتصبًا لديهِ ... الى أن كاد يفضحني القيامُ
أما والله لولا خوفُ واشٍ ... وعينٌ للخليفة لا تنامُ
لَطُفنا حول جِذْعك واستلمنا ... كما للناس بالحجر استلامُ

وقد روى في جمهرة الاسلام (f. 63) رثاء آخر لابي قابوس قالهُ في اخيهِ سعيد ويروى هناك انَّ الاصمعيَّ فضَّلهُ على شعر محمَّد بن مناذر بل على شعر جرير والفرزدق والاخطل اولّهُ (من الطويل):

فما أمُّ سَقْبٍ اودَعتهُ قَرارةً ... من الارض وانساخت لترَوى وتهجعا

الى ان قال بعد وصف حزن الناقة على حوارها بتسعة عشر بيتاً:

بأوجعَ مني يا سعيدُ تحرُّقاً ... عليك ولكن لم أجدْ عنك مدفعا
فلو أنَّ شيئاً في لقائك مُطمِعٌ ... صبرتُ ولكن لا ارى فيهِ مُطمعا

فأُقسمُ لا تنفكّ نفسي شجيّـةً عليك ووجهي حائلَ اللون أسفعا
وقد كنتُ أَلحي مَن بكى لمصيبةٍ فها انا ذا قد صرتُ ابكي وأجزعا
وقد قرّعتني الحادثاتُ ورزئها بثكلك حتى لم اجد بيَ مَقرعا
وقد كنتُ مغبوطاً وقد كنتُ مُصعباً فاصبحتُ مرجوماً لفقدك أخضعا
وقد كنتَ لي أنفاً حمياً فنالني بك القَدَرُ الجاري فأصبحتُ أجدعا
فلو انّ طودًا من تِهامَةَ ضافَهُ من الوَجد ما قد ضافني لتَضعضعا
فيا سيّدًا قد كان للحيّ عصمةً ويا جبلًا قـد كان للحيّ مَفزعا
رُزيتُ بـهِ خير الرزايا ولم أجِدْ لهُ خلفاً في الغـابرين فأقنعا
وأبيضَ وضّاحِ الجبين كأنّهُ سنا قَمرٍ أوفى مع العشر أربعا
قطيعَ لسان الكلب عن نَبح ضيفهِ موطّأَ اكنافِ الرواقِ سَمَيدعا
ومجتنباً للقول في غير حينـهِ حِفاظاً وقوّالًا اذا قـال مِصقعا
يصونُ ببَذْل المالِ نفساً كريمةً وعرضاً حمى عن كل سوءٍ ممنّعا
فتى الخير لم يهجُم بغَدْرٍ ولم يُعَبْ بعَجْزٍ ولم يَمْدُدْ الى الذمّ إِصبعا
ولا غابَ الّا نافَسَ القومُ بينهم ولا آبَ إِلّا كان للحيّ مِقْنَعا
ومـا زال حَمّالًا لكلّ عظيمـةٍ الى ان قضى من نحبهِ مذ تَرعرعا
فتى كان لا يدعو الى الشرّ نفسهُ فان جاءَهُ الشرُّ امتطاهُ فأوضعا
ويركبُ صعبَ الامر حتى يَرُدّهُ على عَقْبِهِ منـهُ ذلولًا موقّعـا
رأتهُ المنايا خيرَنا فاختَرَمْنَهُ وكنّ بتعجيلِ الأخايرِ سُرَّعا

ومنها :

ترى الناسَ ارسالًا اليهِ كأنّما تضمَّن ارزاقَ العُفاةِ لهم معا
فمِن صادرٍ قد آبَ بالريّ حامدٍ ومن واردٍ شاحٍ بفيهِ ليكرعا
ويوماً تراهُ يسحبُ الوَشيَ غادياً ويوماً تراهُ في الحديد مقنّعا
اذا نال من اقصى مدى المجد غايةً سما طالباً من تلك اسنى وأرفعا
أَجلُّ عن العُور الهواجر سمعَهُ ووقّرهُ مِنْ ان يُقالَ فيسمعا
له راحةٌ فيها حَياً لصديقهِ وأخرى سقَتْ أعداءَهُ السمَّ مُنقعا
فما فُجع الاقوامُ من رُزئها لكَ بأعظمَ ممّا قد رُزئتَ وأفظعا
ومن طاب نفساً عن اخٍ لوداعه فما طبتُ نفساً عن اخي يومَ ودّعا
فوا عجباً للارض كيف تألّبتْ عليهِ ووارتْ ذلك الفضلَ اجمعا
ويا بؤس هذا الدهرِ من ذي تلوُّنٍ وذي فَجعاتٍ ما أفظّ وأفظعا

هذا ما انتخبنا من هذا الرثاء وهو يبلغ ٩٠ بيتاً

٢ أسحق بن حُنَين

﴿اصلهُ ودينهُ﴾ هو ابو يعقوب اسحق بن ابي زيد حُنَين بن اسحق العباديّ . كان ابوهُ حنين من اشهر اطبّاء عصره واجلّهم خدَمَ هارون الرشيد والخلفاء بعده . ونقل الى العربيَّة كتباً عديدة من تآليف اليونان . وكان عباديًّا والعِباد قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانيَّة بالحيرة كما ورد في المعاجم العربيَّة وغيرها . والنسبة اليهم عِباديٌّ قال الشاعر يصف عباديًّا ساقي الخمرة:

يسقيكها من بني العباد رَشاً منتسبٌ عيدهُ الى الأَحدِ

﴿اخبارهُ﴾ قال ابن العبريّ في تاريخ الدول (ص ٣٥٢) : «وكان لحنين ولدان داوُد واسحق فامّا اسحق فخدم على الترجمة وتولّاها واتقنها واحسن فيها وكانت نفسهُ أميَل الى الفلسفة وامّا داود فكان طبيباً للعامّة . وقال ابن ابي اصيبعة في طبقات الاطباء (١ : ١٨٨) : «كان لحنين ولدان داود واسحق وصنّف لهما كتباً طبيَّة في المبادئ والتعليم ونقل لهما كتباً كثيرة من كتب جالينوس . فامّا داوُد فاني لم اجد لهُ

شهرةً بنفسهِ بين الاطبَّاء ولا يوجد لهُ من الكتب ما يدلُّ على براعتهِ وعلمهِ وان كان الذي يوجد لهُ انَّما هو كنَّاش واحد . وامَّا اسحق فانَّهُ اشتهر وتميَّز في صناعة الطبّ ولهُ تصانيف كثيرة ونقل من الكتب اليونانيَّة الى العربيَّة كتباً كثيرة الّا ان جُلَّ عنايتهِ كانت مصروفة الى نقل كتب الحكمة مثل كتب ارسطوطاليس وغيره من الحكماء». وقال جمال الدين القفطي في تاريخ الحكماء (ص ٨٠) : «وكان اسحق قد خدم مَن خدم ابوهُ من الخلفاء والرؤساء وكان منقطعاً الى القاسم بن عُبيد الله (وزير المعتضد بالله) وخصيصاً بهِ ومتقدّماً عندهُ يُفشي اليهِ اسرارهُ» . وقال ابن ابي اصيبعة (١ : ٢٠١) ولحق اسحقَ في آخر عمره الفالجُ وبهِ مات وتوفي ببغداد في أيَّام المقتدر بالله وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٨ (٩١٠-٩١١م)

﴿آدابهُ وشعرهُ﴾ قال ابن النديم في الفهرست (ص ٢٨٥) : «كان اسحق في مجار ابيهِ في الفضل وصحَّة النقل من اللغة اليونانيَّة والسريانيَّة وكان فصيحاً بالعربيَّة يزيد على ابيهِ في ذلك . . . ولهُ من الكتب سوى ما نقل من الكتب القديمة كتابُ الادوية المفردة على الحروف . كتاب كنَّاش الخفّ . وكتاب تاريخ الاطباء» وقال ابن ابي اصيبعة (١ : ٢٠٠-٢٠١) «ولاسحق حكايات واشعار مستظرفة ونوادر» . ورد هذا في نسخة برلين (Ms de Wetzstein, 323,fol. 182v) . وذكر من كلامهِ قولهُ «قليلُ الراح صديقُ الروح وكثيرُها عدوّ الجسم» . ثم قال : ومن شعرهِ يذكر كبار الاطباء ويفتخر بالطبابة (من الطويل) :

انا ابنُ الذين استُودع الطبُّ فيهمُ ... وسُمّي بهِ طفلٌ وكهلٌ ويافعُ
يُبَصّرُني آرِسْتَطاليسُ بارعاً ... يقوِّم منّي منطقٌ لا يُدافعُ
وبُقراطُ في تفصيل ما أثبتَ الأُلى ... لنا الضرَّ والاسقامَ طبٌّ مضارعُ
وما زال جالينوسُ يشفي صدورَنا ... لِما اختلفَتْ فيهِ علينا الطبائعُ
ويحيي بنُ ماسَويهِ وأهرُنُ قبلَهُ ... لهم كتبٌ للناس فيها منافعُ
رأى انَّهُ في الطبّ نيلَتْ فلم يكن ... لنا راحةٌ من حفظها واصابعُ

(قال)ونقلتُ من خطّ ابن بُطلان في رسالتهِ المعروفة بدعوة الاطباء انّ القاسم ابن عُبَيد الله وزير المعتضد بلغهُ انّ ابا يعقوب اسحق قد شرب دواء مُسهِـلاً فأحبّ مداعبتهُ وكان صديقاً لهُ فكتب اليهِ (من الهزج) :

أَبِنْ لي كيف أَمسيتَ وكم كان من الحالِ
وكم سارت بك الناقــةُ نحو المنزل الخالي

فكتب اليهِ اسحق بن حنين (الهزج) :

بخيرٍ كنتُ مسرورًا رخيَّ الحالِ والبالِ
فامّـا السَّيرُ والناقــةُ والمُرتَبعُ الخـالي
فإجلالُــكَ أنسانيــهِ يا غـايةَ آمـالي

ثمَّ ذكر لهُ تآليف غير السابقة منها كتاب فيهِ ابتداء صناعة الطبّ واسماء جماعة من الحكماء والاطباء . وكتاب الادوية الموجودة في كل مكان . وكتاب اصلاح الادوية المسهلة واختصار كتاب اقليدس وكتاب المقولات وكتاب ايساغوجي وهو المدخل الى صناعة المنطق واصلاح جوامع الاسكندرانيين وشرح جالينوس لكتاب الفصول لأبقراط ومقالة في الاشياء التي تفيد الصحّة والحفظ وتمنع من النسيان ألّفها لعبد الله ابن جعون وكتاب الادوية المفردة ومختصر كتاب صنعة العلاج بالحديد وكتاب آداب الفلسفة ومقالة في التوحيد

٣ يد التُّسْتَري النصراني

﴿نسبهُ واخبارهُ﴾ اسمهُ ابو الحسن (ويروى : ابو الحسين) سعيد بن ابرهيم التُّسْتَري نسبة الى تُسْتَر او شوشتر من مدن خوزستان في العجم . ورد ذكرهُ في الفهرست لابي الفرج بن النديم (ص ١٣٤) قال : « ابن التستري . . . ويكنى ابا الحسين كان نصرانيا . قريب العهد من صنائع بني الفرات وهو وابوهُ يلزم السَّجع في مكاتباتهِ » . ونقل الصفَدي هذا الوصف في وافي الوفيات (Ms. de Paris, 706, fol. 130r) وروى

عن ياقوت «انهُ كان يكتب لعليّ بن محمّد بن الفرات » وزير المقتدر بالله. واخبر هلال الصابي في تاريخ الوزراء (ص٣٣ ,éd. Amédroz) انهُ لمّا أوقف الخليفة المقتدر سنة ٣٠٦هـ (٩١٨م) ابا الحسن عليّ بن الفرات قُبض على التُّستري مع مولاهُ واعتُقل عند نصر الحاجب». ثمّ أفرج عنهُ وعاد مع ابي الفرات الى ديوان الكتابة ثمّ اعتُقل كلاهما ثانيةً سنة ٣١٢هـ (٩٢٢م) بعد وزارة ابن الفرات الثانية. وقد ذكرهُ الصابي في تاريخهِ (ص ٢٤٠) في جملة من كان يحضر مائدةَ الوزير ابن الفرات وما كان يجري فيها من العادات اللطيفة والآداب الشريفة في اكلهم وشربهم واصناف طعامهم وتأنقهم في مجالس الانس

﴿أدبهُ وشعرهُ﴾ قال ابن النديم (ص١٣٤): « وللتُّستري من الكتب كتاب المقصور والممدود على حروف المعجم وكتاب المذكّر والمؤنث على ذلك الترتيب. وكتاب الرسائل في الفتوح على هذا الترتيب ورسائل مجموعة في كلّ فنّ ». وقد نقل الصفدي قولهُ هذا بالحرف عن ياقوت ثمّ اورد لهُ مقاطيع شعريّة كما يلي. قال يحضّ المرء على تسرية الهمّ عن نفسهِ (من السريع):

ما لك قد هيّمك الهمُّ وضلَّ منك الحزمُ والفهمُ
لو رُمتَ ان يبقى الأذى ما بَقي لا فرحٌ دامَ ولا غَمُّ

قال الصفدي: قلتُ: مثلهُ قول القائل:

لا تسألِ الدهرَ في ضرّاء يكشفها فلو سألتَ دوامَ البؤس لم يدُمِ

ثم اورد لهُ في الغزل (من المقتضب) (١ :

قلتُ: زُوري. فأرسلَتْ: أنا آتيك سَحْره
قلتُ: بالليل كان أخفى وأدنى مسَرّه
فاجابت بحجّةٍ زادت القلبَ حَسْره:

١) هذه الابيات وما يليها في نسخة خطية من مكتبتنا الشرقية فيها شرح شواهد التنصيص (ص ١٤٥)

انا شمسٌ وانّما تطلعُ الشمس بُكْرَه

بكرة اي غدوةً . وروى ابو الحسن احمد بن عليّ البتيّ الكاتب عن ابيهِ قال: كنّا عند ابي الحسين سعيد بن ابرهيم كاتب ابن الفرات فغنّت ستارتُهُ (من الخفيف):

وعَدَ البدرُ بالزيارة ليلًا فاذا ما وفى قضيتُ نذوري
قلتُ: يا سيّدي لِمَ تُؤثِرُ الليـــلَ على بهجة النهار المنيرِ
قال لي: لا أُحبُّ تغيير رَسْمي هكذا الرسمُ في طلوع البدورِ

فاختلفت الجماعة لمن هذا الشعر . فقال بعضهم للناجم . وقال قومٌ للعباس وذكروا جماعةً فقال سعيد: هو لي . ثمّ انشدَنا (من الخفيف):

قلتُ للبَدْر حين أَعتَبَ: زُرْني وأَشْمَتِ الهَجْرَ بالقِلى والتجافي
قال: انّي مع العِشاء سآتي فانتظرني ولا تخفْ من خلافي
قلتُ: يا سيّدي فألّا نهارًا فهو أدنى لقُرْبةِ الائتلافِ
قال: لا استطيعُ تغييرَ رسمي انّما البدرُ في الظلام يوافي

(قال) وكنتُ نقلتُ الابيات عن نسخةٍ صحيحة مقابلةً وارى الصواب في البيت الاول

«وأَشمِتِ الوَصْلَ بالقلى والتجافي»

وقد جمع المعنيين ابو العلاء المعرّي في قولهِ :

هي قالت لمّا رأت شيبَ رأسي وارادت تنكُّرًا وازورارا:
انا بدرٌ وقد بدا الصبحُ من شَيْـــبك والصبحُ يطردُ الاقمارا
قلتُ: لا بل اراكِ في الحسن شمسًا لا تُرَى في الدجى وتبدو نهارا

٤ ابو الحسن بن غسّان

﴿اسمهُ ودينهُ﴾ قال جمال الـدين ابن القفطي في تاريخ الحكماء (ص ٤٠٢) انهُ ابو الحسن (ويُروى الحسين) الطبيب البصريّ. ودعاهُ ابن بطلان في كتاب دعوة الاطباء (ص ٩٠) بابي غسّان. وجاء ذكرهُ في تاريخ فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل (ص٩٦ éd. Gismondi) فكنّاهُ بابي علي بن غسّان وروى هناك نصرانيّتهُ وما انفقهُ على نجاز بنـاء دير مار فثيون في بغداد وذلك سنة ٣٤٣ ﻫ (٩٥٣م). فتبيَّن من ذلك انهُ كان نصرانيًّا كلدانيًّا من النساطرة

﴿اخبارهُ﴾ قال ابن القفطي (ص ٤٠٢) : « هذا رجلٌ طبيب من اهل البصرة يعلّم الطبَّ ويشارك في علوم الاوائل وخدَمَ بصناعتهِ ملوك بني بويهِ وعلى الخصوص عَضُد الدولة فنّاخسرو ». وفنّاخسرو هذا هو المعروف بابي شجاع من الملوك البويهيين وممـدوح الشاعر المتنبي توفي في ٨ شوال سنة ٣٧٢ (٩٨٢م). وقال عنهُ ابن ماري في المجدل (ص ٩٦) انهُ كان « كاتباً لركن الدولة » وركن الدولة هو ابو عضد الـدولة كان تولى اوَّلًا على اصبهـان ثمَّ خلف اباهُ في تدبير الدولة في بغداد بعد اخيهِ مؤيّد الدولة توفي سنة ٣٦٦ (٩٧٦م)

﴿أَدبهُ وشعرهُ﴾ قال جمال الدين القفطي (ص ٤٠٢) : وكان لابي الحسن هذا ادبٌ متوفّر وشعرٌ حسن فممّا قالهُ لعضد الدولة عند مسيرهِ الى بغداد (من المتقارب) :

يسوسُ الممالِكَ رأيُ المَلِكْ ويحفظها السيِّد المحتَنِكْ
فيا عَضُدَ الدولةِ أنهَضْ لها فقد ضُيّعَتْ بين شَشٍ وَيَكْ

شَشْ وَيَكْ عددان فارسيّان معناهما في لعب النَّرد (الطاولة) ستّة وواحد. قال ابن القفطيّ : « وذلك لانَّ عزّ الدولة بختيار الذي اخذ عضد الدولة الامر منهُ كان لَهِجاً بلعب النرد ». قال : ومن شعر ابي الحسن ايضاً في بختيار الذي اخرجهُ عَضُد الدولة عن العراق يهجوهُ ويستهجن عزمَهُ ويستضعفهُ :

اقام على الاهواز سبعين ليلةً يدبّر امر المُلك حتى تدمّرا

يدبّر امرًا كان اوّلهُ عَمًى وأوسطهُ بَلوَى وآخرهُ خرا

وممّا ورد لابن غسّان في كتاب دعوة الاطباء وهو يدعوهُ هناك بابي حسّان بن غسّان (ص ٩٠) قولهُ في احكام الدهر والموت (من الخفيف) :

حُكمُ كأسِ المَنون أن يتساوى في احتساها الغبيُّ والألمعيُّ
ويَحُلُّ البليدُ تحت ثرى الأرْ ضِ كما حلّ تحتها اللوذعيُّ
اصبحا رِمّةً ترايلَ عنها فعلُها الجوهريُّ والعرَضيُّ
وتَلاشى كيانُها الحَيَواني وتوارى تقديمها المنطقيُّ

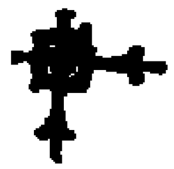
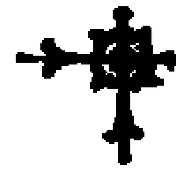
٥ الموصلي النصرانيّ

هكذا رواهُ البيهقي في كتاب المحاسن والمساوئ (ص ٦٩–٧٠ éd. Schwally) ولم يزدنا علماً . وهو كما يظهر من شعراء اواخر القرن الثالث واوائل الرابع للهجرة لان البيهقي الذي ذكرهُ عاش في ذلك العهد ثم ذكر لهُ ابياتاً في مديح بني هاشم (من الطويل) :

عَدِيُّ وتَيمٌ لا أحاوِلُ ذكرَهُمْ بسوءٍ ولكني محبٌّ لهاشمِ
وهل تأخذَنّي في عليٍّ وحُبّهِ اذا لم أعِشْ يوماً ملامةُ لائمِ
يقولون . ما بالُ النصارى تُحِبُّهُ واهلُ التُّقى من مُعرِبٍ وأعاجمِ
فقلتُ : لهم اني لَأحسبُ حُبَّهُ طواهُ إلهي في قلوبِ البهائمِ

٦ يحيى بن عدي

﴿نسبهُ وزمانهُ ودينهُ﴾ قال ابن النديم في الفهرست (ص ٢٦٤) وجمال الدين القفطي في تاريخ الحكماء (ص ٣٦١ وابن ابي اصيبعة في طبقات الاطباء (١ : ٢٣٥)

هو ابو زكريّا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريّا المنطقي نزيل بغداد واليه انتهت الرئاسة ومعرفة العلوم الحكميّة في زمانه . قرأ على ابي بشر بن متى بن يونس (الفيلسوف النصراني) وعلى ابي نصر الفارابيّ وعلى جماعة في وقتهم وكان نصرانيًّا يعقوبي النِحلة ». قال جمال الدين القفطي (ص ٣٦٣–٣٦٤) :

« مات الشيخ ابو زكريا يحيى بن عدي الفيلسوف يوم الخميس لتسع بقين من ذي القعدة سنة ٣٦٤ ه وهو لثلث عشرة من آب سنة ١٢٨٥ للاسكندر (٩٧٥م) ودُفن في بيعة القطيعة ببغداد وكان عمرهُ ٨١ سنة شمسيّة ورأيت في بعض التعاليق بخطّ من يُعنى بهذا الشأن : وفاتهُ كانت في اليوم المقدَّم ذكرهُ من الشهر المقدَّم ذكرهُ من السنة ٣٦٣(٩٧٤م) »

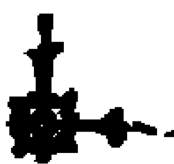
﴿اخبارهُ وآدابه وشعرهُ﴾ قال ابن ابي اصيبعة : « كان يحيى جيّد المعرفة بالنقل وقد نقل من اللغة السريانية الى اللغة العربية وكان كثير الكتابة ووجدت بخطه عدّة كتب » . وقال القفطي : « كان ملازماً للنسخ بيده كتبَ الكثير من كل فنّ وكان يكتب خطًّا قاعدًا بيّنًا » . قال ابن النديم : « وعاتبتُهُ على كثرة نسخهِ فقال لي : من اي شيء تعجب في هذا الوقت أمن صبري ؟ وقد نسختُ بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتُها الى ملوك الاطراف . وقد كتبتُ من كتب المتكلّمين ما لا يُحصى . لعهدي بنفسي وانا اكتب في اليوم والليلة مائة ورقة واقلّ » . ثمَّ عدَّد لهُ جمال الدين القفطي كتباً كثيرة ألّفها في المنطق وابواب الفلسفة او عرّبها عن ارسطاطاليس وغيرهِ من اليونان . ولهُ عدّة فصول حسنة في الدفاع عن العقائد النصرانيّة وتفنيد مَن تعرّض لها وقد نشرنا شيئاً من ذلك في المشرق سابقاً(١)

وقد وقفنا على فصلٍ كتبهُ عن يحيى شهابُ الدين العُمَري صاحب مسالك الابصار (نسخة المكتبة الخديويّة ص ٣٣٦–٣٣٧) قال في باب طبقات الاطباء :

« ومنهم يحيى بن عدي ابو زكريّا المنطقي حكيمٌ علمهُ والوَدْق شيّان ، وقلمهُ والبرق سيّان ، كان اوّل حالهِ عَلَماً في ملّتهِ ، ومعلّماً لاهل قبلته ، وعُرف بالمنطق مع انهُ بعض علومهِ ، ومن جملة ما دخل من الخصائص في عمومهِ ، وأضاءت لهُ من الادب لُمَع تمّمت فضائله ، وتمّت هلالهُ والبدور الكوامل متضائلة »

---

١) اطلب ما نشرهُ حضرة الكاهن اوغست بيريه (Aug. Périer) من ترجمة يحيى وتآليفهِ اللاهوتية (راجع المشرق ١٩[١٩٢١]:٦٢١)




وليحيى بن عديّ شعر قليل منهُ قولهُ في مَن يردُّ اعتقاد اسرار الدين لعدم فهمها (Paris, Ms 101, f 45r) (من البسيط) :

أفَمتَ فَحْصَ المعاني عن حقائقها فلم يبن لك اذ لم تُحسن النظرا
فالشمس تخفى على من ليس ذا بصرٍ وليس تخفى على من أُعطي البَصَرا

وحدّث الآمدي ابو الحسين انهُ سمع من ابي علي بن زرعة تلميذهِ يقول: انَّ ابا زكريا يحيى بن عدي وصّى اليه ان يكتب على قبرهِ حين حضرتهُ الوفاة وهو في بيعة توما بقطيعة الدقيق هذين البيتين (من الخفيف) :

رُبَّ مَيْتٍ قد صار بالعلم حيّاً ومُبقًى قد مات جهلًا وعيّا
فاقتنوا العلمَ كي تنالوا خلودًا لا تَعُدُّوا الحياةَ في الجهل شيّا

٧ ابو تمّام الطائيّ

﴿ توطئة ﴾ قرأنا في آخر عدد من المقتطف (اغسطس ١٩٢٥ ص ٣٣٤) ما نصّهُ :

«عندنا نسخة الدكتور فان ديك في شرح التبريزي للحماسة وعليها بخط الدكتور انَّ ابا تمّام كان نصرانيّاً . فمن اين اتى الدكتور فان ديك بذلك والمتعارف انَّ أبا ابي تمّام كان نصرانيّاً»

فاحببنا ان نفرد هنا فصلًا لهذا الشاعر في كلامنا عن شعراء النصرانيّة في عهد الدولة العبّاسيّة . فننظر ما في مدّعى الدكتور فان ديك من الصحة

﴿ نسب ابي تمام ﴾ هو حبيب بن اوس الطائي ينتهي نسبهُ الى ابي القبيلة الغوث ابن طيّ ومنهُ الى يعرب بن قحطان . يُكنَّى بابي تمّام وتمّام ابنهُ ورد ذكرهُ في تعريف بعض امور ابيهِ في الاغاني وغيرهِ . وُلد حبيب في جاسم وهي على ما قال المسعودي في مروجهِ الذهبيّة (٧: ١٤٧) «قرية من اعمال دمشق بين بلاد الاردن ودمشق بموضع يعرف بالجولان (بالجولان) على اميال من الجابية وبلاد نوا (كذا) وهي مراعي أيوب عم» . امّا صاحب الاغاني فقال (١٥ : ١٠٠) : «هو من نفس طيّ صليبة

مولدهُ ومنشأهُ بناحية منبج (كذا) بقرية منها يقال لها جاسم» وكان مولدهُ على قول تمام ابنهِ سنة ١٨٨هـ (٨٠٤م) ووفاتهُ سنة ٢٣١ (٨٤٥ م) اما الشائع بين الكتبة والمؤرخين كنفطويهِ والطبري وابن الاثير انَّ وفاته كانت في الموصل وقعت سنة ٢٢٨ (٨٤٢—٨٤٣م). وروى ابن خلّكان في وفات الاعيان (١ : ١٥٠) عن ابي القاسم الآمدي في الموازنة قولهُ : «والذي عند اكثر الناس في نسب ابي تمام انَّ اباهُ كان نصرانيًا من اهل جاسم قرية من قرى دمشق يقال لهُ تدوس (ولعلها تدَاوس او تدرُس) العطّار فجعلوهُ أوسًا وقد لُفقت لهُ نسبة الى طيّ» . لكنَّ ابن خلّكان لم يصدّق على قول الآمدي ولم ينكر نسبتهُ الى طيّ وانّما نقل قول الصولي: «قال قوم ان ابا تمام هو حبيب بن تدوس النصراني فغُيّر فصار اوسًا» ثمَّ روى عن ابيهِ انهُ «كان خمّارًا بدمشق»

﴿ خلاصة اخبار ابي تمام ﴾ قال الانباري في طبقات الادباء (ص ٢١٣) : «ابو تمام شامي الاصل» وروى ابن خلكان (١ : ١٥٣) : «انهُ كان يخدم حائكًا ويعمل عندهُ بدمشق». قال : «ونشأ بمصر قيل انهُ كان يسقي الماء في جامع مصر» وزاد الانباري: «وجالس الادباء فاخذ عنهم وتعلّم وكان فطنًا فهمًا وكان يحبُّ الشعر فلم يزل يعانيهِ حتى قال الشعر وأجادهُ وسار شعرهُ وشاع ذكرهُ» . وقد تنقّل ابو تمام في انحاء الشام وسكن مدّة حمص فلم يحمد اهلها (اطلب ديوانهُ ص ٢٣٨ طبعة محيي الدين الخياط) ورحل الى العراق: قال الانباري (ص ٢١٤) : «وبلغ الخليفةَ المعتصم خبرُهُ فحملهُ اليهِ فعمل فيهِ ابو تمام قصائد عدّة واجازهُ المعتصم وقدّمهُ على شعراء وقتهِ».

ولمّا سكن في بغداد جالس فيها الادباء وعاشر العلماء وكان موصوفًا بالظرف وحسن الاخلاق وكرم النفس ثمَّ مدح الخليفة هارون الواثق خلَف المعتصم وسافر في اوّل أيّامهِ الى سامرّا ورحل الى خراسان وارمينية والجزيرة فمدح كبار عمّال الدولة واعيانها كمالك بن طوق التغلبي وابي دلف واحمد بن ابي دؤاد وعبدالله بن طاهر وخالد ابن يزيد بن مزيد والوزيران محمّد بن الزيّات والحسن بن وهب . فعُني بهِ الحسن وولّاهُ بريد الموصل فاقام بها اقلّ من سنتين ومات ولم يتفقوا على سنة وفاتهِ قال البحتري : «وبنى عليه ابو نهشل بن حميد الطوسي قبّةً . (قلتُ)ورأيت قبرهُ بالموصل خارج باب الميدان على حافّة الخندق والعامّة تقول: هذا قبر ابي تمام الشاعر» (رواهُ

ابن خلكان)

﴿دين ابي تمام﴾ رأيت انَّ الدكتور ڤان ديك أعلن في نسخة من حماسة ابي تمام انّ « أبا تمّام كان نصرانيّاً » وفي قولهِ هذا نظر:

﴿اوَّلاً﴾ اتّفق مَن ذكر والد ابي تمام كالصولي والآمدي انهُ كان نصرانيّاً فلا بُدَّ انَّ ابنهُ حبيباً ولد ونشأ على دينهِ ومن هذا القبيل يجوز القول انَّ أبا تمّام كان نصرانيّاً

﴿ثانياً﴾ لنا في اسمهِ حبيب وهو من الاسامي الشائعة بين النصارى النادرة بين المسلمين ما يدلُّ على نصرانيَّته

﴿ثالثاً﴾ وليس في نسبتهِ الى طيّ ما ينفي نصرانيَّتهُ فقد اثبتنا في كتابنا النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهلية (ص ١٢١–١٢٢و١٣٢–١٣٣ و٤٥٦–٤٥٧) شيوع النصرانيّة في قبيلة طيّ وثبات قسم كبير من بطونها على نصرانيَّتهم حتى بعد الاسلام بزمن طويل

﴿رابعاً﴾ وفي مزاولته في حداثته الحياكةَ والسقاية ما يدلُّ على خمولهِ بسبب دينهِ

﴿خامساً﴾ ثم ليس لنا كلام صريح لاحد رواة ترجمتهِ ما يدلُّ على جحودهِ دينهُ النصرانيّ

هذا ما يحملنا على القول بنصرانيَّة ابي تمام. على انَّ في ديوانهِ عدَّة ابيات تشعر بانه يدين بالاسلام فحيناً يحلف بالبيت الحرام ويقول انهُ حجَّ اليه وحيناً آخر يذكر نبيّ العرب ودين الاسلام كانها نبيُّهُ ودينهُ واذا ذكر الروم نبذهم بالشرك والكفر ويعظّم القرآن. وهذا كلُّهُ ممَّا يثبت اسلامهُ

فلا نرى تطبيقاً بين الامرين إلّا ان نقول انهُ لمّا اصاب حظوةً عند الخلفاء وعند وجوه الامراء وكبار الدولة عدل عن دينه الى الاسلام مجاملةً او طمعاً بحطام الدنيا. وليس قولنا هذه حدساً وقد اخذ العجب جنابَ خليل مردم بك في كتابه الحديث «شعراء الشام في القرن الثالث» (ص٣٥–٣٧) حيث قابل بين مديح ابي تمّام للخلفاء من اهل السنّة واطرائهِ للشيعة العلويّة وانتصاره لحقوقها في الخلافة فرأى تناقضاً بيّناً نسبهُ الى اختلاف الزمان

امّا المسعودي في مروج الذهب فنسب أبا تمّام الى المجون وقلّة الدين قال (٧: ١٥١):

«وكان (اي ابو تمام) ماجنًا خليعًا في بعض احوالهِ وربّما ادّاهُ ذلك الى ترك موجبات فرضهِ تماجنًا لا اعتقادًا (!)»

ثم روى لبعض الثقات عن المبرّد النحوي نقلًا عن الحسن بن رجاء قال:

«صار اليَّ ابو تمام وانا بفارس فاقام عندي مقامًا طويلًا ونُمِيَ اليَّ من غير وجه انّهُ لا يصلّي. فوكلتُ بهِ مَن يراعيهِ ويتفقدهُ في اوقات الصلوات فوجدتُ الامر على ما اتّصل بي فعاتبتهُ على فعلهِ. فكان من جوابهِ أن قال: أتُراني انشطُ للشخوص اليك من مدينة السلام واتجشّم هذه الطرقات الشاقّة واكسلُ عن هذه الرَّكَعات لا مؤونةَ عليَّ فيها لو كنتُ اعلم انَّ لمن صلّاها ثوابًا وعلى من تركها عقابًا؟ (قال) وهممتُ واللّه بقتلهِ ثمَّ تخوّفت ان يُصرَف الامر الى غير جهة. قال المبرّد: وهو مع هذا يقول:

وأحَقُّ الانام أن يَقضيَ الدَّين م امروءٌ كان للإله غريمَا

وهذا قولٌ مباين لهذا الفعل»

فترى انّ اسلام ابي تمام كان سطحيًا ليس تماجنًا فقط كما قال المسعودي بل اعتقادًا ايضًا فذكرناهُ هنا بين شعراء النصرانية ليس افتخارًا بدينهِ بل بيانًا لحقيقة تاريخيّة. ثمَّ انَّ في شعرهِ ابياتًا تنبئ بمعرفته لعادات النصارى كقولهِ في هرب توفيل زعيم الروم (الديوان ٣٣: ٢):

جفا الشرْقَ حتى ظنَّ من كان جاهلاً بدين النصارى ان قِبْلَتَهُ الغَربُ

﴿منزلتهُ بين شعراء عصرهِ﴾ لا نطيل الكلام في هذا الموضوع بعد ان طرقهُ قبلنا ائمّة الكتّاب وخصوصاً ابو الفرج الاصبهاني في الاغاني (١٥: ٩٩–١٠٨) فاعتبر ابا تمّام «كأمير الشعراء وخاتمهم مَن لا يشقُّ الطاعنون عليه غبارهُ ولا يدركون وان جدُّوا آثارهُ» وذكر قول الحسن بن وهب يرثيه:

فُجِع القريضُ بخاتم الشعراء وغدير روضتها حبيب الطائي

ماتا معًا وتجاورا في حفرةٍ وكذاك كانا قبلُ في الاحياء

ورثاهُ محمّد بن عبد الملك الزيّات وهو حينئذٍ وزير فقال:

نبأٌ أتى من اعظم الانباء لمَّا ألَمَّ مُقلقِلَ الأحشاء

قالوا حبيبٌ قد ثوى فأجبتهم ناشدتكم لا تجعلوهُ الطائي

ولا نشاء ان نروي شيئاً من شعرهِ وديوانهُ في ايدي الجميع وقد تكرَّر طبعهُ. فطُبع اوَّلًا في مصر سنة ١٢٩٢ﻫ طبعةً سقيمة بلا شكل وبشروح قليلة على الهامش. ثمَّ عُني بطبعهِ في بيروت الاديب شاهين عطيَّه اللبناني سنة ١٨٨٩ ثمَّ كرَّر طبعهُ محمد جمال مع شروح لمحيي الدين الخيَّاط. وهاتان الطبعتان مع فضلهما على الطبعة المصريَّة إلَّا انهما قاصرتان عن كل ما يطلبهُ العلماء من الضبط بالشكل الكامل وتعريف النسخ المنقول عنها الديوان وشرح المعاني وبيان ظروف القصائد واثبات الروايات المختلفة وجمع ما جاء متفرقاً من شعر ابي تمام في كتب الادباء. فانك ترى مثلًا في ما رواهُ ابو الفرج الاصفهاني في الاغاني عدَّة مقاطيع من شعر ابي تمام لم تُروَ في الديوان. وكذلك هناك وفي الكامل للمبرّد وغيرهما قطعٌ اخرى فيها روايات مخالفة لروايات الدواوين المطبوعة وبعضها افضل من المطبوع. فيا ليت احدًا من ادبائنا يَسُدُّ هذه الثُّلَم ويستفيد من ملحوظات ابي القاسم محمّد الآمدي في الموازنة بين ابي تمام والبحتري فيُعنى بطبعةٍ جديدة وافية الشروط لذلك الديوان الفريد والاثر الجليل

٨ ثابت بن هارون

﴿نسبهُ واخبارهُ وشعرهُ﴾ هو ابو نصر ثابت بن هارون النصرانيّ الرَّقّيّ العراقيّ. قال ابو الحسن علي الباخرزي المتوفى سنة ٤٦٧ﻫ (١٠٧٤م) في كتابهِ دمية القصر وعصرة اهل العصر (Flügel, Ms de Vienne, I, 367, f. 46-47)(١):

«ومن شعراء العراق ابو نصر ثابت بن هارون الكاتب النصرانيّ». وعرَّف زمانهُ بما كتبهُ في اواسط القرن الرابع للهجرة والعاشر للمسيح ولم يذكر شيئاً من اخباره ثم قال: ومن شعرهِ قولهُ في من يحجب بابهُ (من الوافر):

على رَبْعٍ يحقُّ بهِ الحجابُ ويُغلَق منهُ دونَ الخير بابُ (٢)

سأهجُرُ كلَّ بابٍ رُدَّ دوني اذا ما ازورُّ او خشيَ الحجابُ

---

١) راجعنا ايضًا نسخة لندن (ع ٥٧٣) ٢) ويروى: دون الحرّ بابُ

ثمَّ ذكر لثابت الرقيّ رثاء قالهُ في المتنبّي الشاعر (المتوفّى سنة ٣٥٤ﻫ (٩٦٥م) ثمّ قال: «وهذا ممّا شذَّ عن الثعالبي (١ وذهب عنهُ شعرهُ. واذا كان المتنبي في طبقات يتيمتهِ من العصريين فالذي بعدهُ ممَّن يُهدي المرثية اليه وينوح مع وُرْق الحمام عليهِ أَولى بان يُعَدَّ من الطبقة. وقد عرض عليَّ ابنُ الشيخ ابي الحسن علي بن يحيى الكاتب في ديوان الحضرة «ديوانَ المتنبي» مُحلَّى الظهر بتوقيعَين لهُ خطَّهما بيمينهِ واثبت بها أَسماع هذا الفاضل اشعارَهُ منهُ مرّتين فرنَيتُ وعرض مجموعهـا على سمعهِ كرّتين. وجرى بعد حصوله تحت كلاكل الأَجل المتاح، وتصديقهِ قولهُ في ترك مهجتهِ سائلةً على كلّ الارماح، على قضيّة كرم العقل واستئثار الامير عضد الدولة على فاتك وبني اسد». وهذا رثاؤهُ المتنبي (من الكامل):

الدهرُ أَخبثُ (٢ والليالي أَنكدُ ... من ان تعيشَ لأَهلها يا احمدُ
ذُقتَ الكريهةَ بغتةً وفُقدتّها ... وكريهُ فَقْدِك في الورى لا يُفقَـدُ
قُل لي ان اسطَعتَ الكلامَ (٣ فإِنني ... صَبُّ الفؤَادِ الى خطابك مُكمَدُ
أَتركتَ بعدك شاعرًا واللهِ لا ... لم يبقَ بعدك في الورى مَن يُنشِدُ
ما كان تاركَكَ الزمانُ لاهلـهِ ... انَّ الزمان على الغريبة يحسدُ
قصدَتْك لمَّا أَنْ رأَتك نفيسَهـا ... بُخلًا بمثلك والنفائسُ تُقصَدُ
غدرَ الزمانُ بهِ فجارَ ولم تزلْ ... ايدي الزمان بـبأسهِ تستنجدُ
لَقيَ الخطوبَ فبذَّها (٤ حتى جرى ... غلطُ القضاءِ عليهِ وهو تعمُّـدُ

وقال يستثير فيها ابا شجاع عضد الدولة على فاتك وبني اسد:

صَهٍ (٥ يا بني اسدٍ فلستُ بنجدةٍ ... آثرتُ فيهِ بل القضاءُ يُقيِّدُ

---

١) يريد انَّ الثعالبي سها عن ذكر ثابت بن هارون فلم ينظمهُ في جملة الشعراء في كتابهِ يتيمة الدهر

٢) ويروى: الدهرُ أَنكى ٣) ويروى: الخطاب. ويروى: الجواب

٤) ويروى: وبَدَّها ٥) ويروى: مَهْ

يا ايها الملكُ المؤيَدَ دعوةً ممَّن حَشاهُ بالأَسى تتوقَّـدُ
هذي بني اسدٍ بضيفك اوقعتْ وحوَتْ عطاءَك اذ حواهُ الفرقَدُ
ولهُ عليك بقصدهِ يا ذا العَلا حقُّ التجرّمِ والذمامُ الأوكَدُ
فارعَ الذمامَ وكن لضَيفك طالباً انَّ الذمام على الكريم مؤيَّدُ
وأَرعَ الحقوقَ لقصدهِ وقصيدهِ عضدَ الملوكِ فليس غيرُك يُقصَدُ
واذا المكارم والمحامدُ أُسنِدَت فالى الامير ابي شجاعٍ تُسنَدُ

٩ بشر بن هارون

﴿ اصلهُ ودينهُ واخبارهُ ﴾ هو ابو نصر بشر بن هارون النصراني العراقي · وهو كما يلوح لنا من قرابة ثابت بن هارون السابق ذكرهُ · وكان لبشر اخوان ابرهيم وجابر ذكرهما الطبري في تاريخهِ (٣ : ١٥١١ و ١٥٢٤) وقال هناك بشر وابرهيم كانا كاتبين لمحمَّد بن عبدالله بن طاهر الامير والي العراق من قبَل المتوكل · واخبر انهُ في السنة ٢٤٩ (٨٦٣ م) شغَب الجند والشاكريَّة في بغداد وانتهبوا الدواوين وقطعوا الدفاتر فالقوها في الماء وانتهبوا دار بشر وابرهيم ابني هارون النصرانيَّين كاتبي محمَّد ابن عبدالله وذلك كلُّهُ في الجانب الشرقيّ من بغداد · ثمَّ ذكر جابرًا اخاهما وقال عنهُ ان محمَّد بن عبدالله وجَّههُ الى طبرستان لبعض اموره

قال الصفدي في الوافي بالوفيات (Ms de Paris, 706, fol. 130.) : كان ابو نصر بشر بن هارون النصراني كثير الهجو للوزراء والرؤساء فممَّن هجاهم ابو نصر سابور بن ازدشير وزير شرف الدولة ابن عضد الدولة بن بويه المولود سنة ٣٣٦ والمتوفى سنة ٤١٦ هـ (٩٤٧—١٠٢٥ م) وكان سابور قليل الالفاظ جافي الاقوال دقيق الخطّ منتظمهُ قصير التوقيع مختصرهُ كثير الشرّ مَخوف البطش شديد التأثر في المعاملات والميل الى المصادرات · فقال بشر يهجوهُ (من الكامل) :

سابورُ وَيحك ما أخسَّكَ م ما أخصَّك بالعيوبِ
وأكَدَّ وَجهكَ بالشناءة م ةِ للعيون وللقلوبِ
وجهٌ قبيحٌ في التبسُّم م كيف يحسُن في القطوبِ

واخبر ابن حمدون في تذكرته (Ms British Museum, Or. 3179, fol. 98)
قال: «حضر يوماً بشر بن هارون وجماعة من الكتَّاب في دار محمَّد المهلّبي الوزير بحيث يراهم ويسمع كلامهم وهم لا يشاهدونهُ فانشأ احدهم يقول :

سِبالُ الوزيرِ سِبالٌ كبيرُ

فقال الآخر:

وعقلُ الوزير وفضلٌ صغيرُ

فقال بشر بن هارون :

زيادةُ هـذا بنقصان ذا كما طال هذا النهارُ القصيرُ

فخرج اليهم المهلبي وشاتمهم وجلس معهم ومازحهم واجاز كلَّ واحدٍ»
وجاء في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ابي المحاسن (طبعة نيويرك ص ٥٩) وفيها (اي سنة ٣٨٥–٩٩٥م) توفي بشر بن هارون ابو نصر النصراني الكاتب وكان شاعرًا هجَّاء خبيث اللسان كتب مرَّة الى ابرهيم الصابي (السريع):

حضرتَ بالجسم وقد كنتَ لو بالنفس لمَّا تَرَني حاضرا
أنطقَني بالشعر حبّي لكم ولم اكن من قبلها شاعرا

فكتب اليهِ الصابئ تحت خطّهِ : «ولا بعدَها»

١٠ عيسى بن فرُّخنشاه

﴿اسمهُ واصلهُ ودينهُ﴾ هو عيسى بن فَرُّخْنشاه من نصارى بغداد وكان

نسطوري النِحلة اشتهر في اواسط القرن الثالث للهجرة والتاسع للمسيح في ايّام الخلفاء العبّاسيين المستعين والمهتدي والمعتزّ والمعتمد تكرّر ذكرهُ في عهدهم في تاريخ الطبري . ولعلّ اسمهُ يدلّ على كون اصلهِ من العجم وقد ورد في بعض روايات الطبري على صورة «فرُّنشاه» وممّا اخبرهُ في حوادث السنين ٢٤٥ و٢٤٩ و٢٥١هـ (٣: ١٤٤٤ و١٥١٣-١٥١٤ و١٦٤٠) انّ الخليفة المستعين اتّخذهُ كاتباً لوزيره الحسن بن مَخلَد سنة ٢٤٥ (٨٥٩م) ثم ولّاهُ ديوان الخراج بعد عَزْل الفضل بن مروان سنة ٢٤٩هـ (٨٦٣م) . واثبتهُ عليهِ خلفهُ المعتز . وذكر في تاريخ سنة ٢٥٢هـ (٨٦٦ م) انّ الاتراك وثبوا عليهِ فتناولوهُ بالضرب واخذوا دوابّهُ فقام المغاربة للدفاع عنهُ . وروى في تاريخ سنة ٢٥٦ (٨٧٠م) ثورة الاتراك على الخليفة المهتدي وثبات عيسى بن فرُّخنشاهُ في وجههم وقال : «انّ الامور كانت تجري على يدهِ وانّ مقامهُ كان كمقام الوزير»

وعلى ظنّنا انهُ هو الذي اشار اليهِ ابن ماري في تاريخ بطاركة المشرق (ص ٨٣) حيث قال انّ فرُّخانشاه قام باستقبال يوانيس مطران الموصل لمّا تعيَّن جاثليقاً على النصارى سنة ٢٨٠ (٨٩٣م) . امّا سنة وفاتهِ فلم نقف عليها وقد اشتهر من قرابتهِ الأخوان سعيد وعبدالله ابنا فرُّخنشاهُ ولعلّ عيسى كان بكرهما . وكان سعيد يكنَّى بابي عمرو ثمّ ذكرهما هلال الصابي في تاريخ الوزراء (ص ١٦١ و٢٠٥ و٢٤٠-٢٤١) وقال انهما كانا نصرانيَّين وكاتبين للوزير ابي الحسن بن الفرات وذكر لهما اخباراً شتى . وكذلك ذكر عريب القرطبيّ في تاريخ الصلة (ص ٥٩) الفضلَ بن يحيى بن فرُّخنشاه الديراني النصراني من دير قنّا على عهد الخليفة المقتدر واستصفاء الخليفة مالهِ

﴿آدابهُ وشعرهُ﴾ كان عيسى بن فرُّخنشاه من كتّاب ديوان الخلفاء ذوي الانشاء البديع . ذكرهُ ابن النديم في الفهرست (ص ١٦٧) فقال : انهُ كان كاتباً مقلّاً وقد ذكر لهُ الصابئ في أدب الكتّاب شعراً قال (ص ٤٦) : «اهدى بعضُ الكتّاب غلاماً كاتباً الى رئيس لهُ وكتب اليهِ يصفهُ بالخطّ وغيرهِ . وسمعتُ من يحكي انّ قائلَ ذلك عيسى بن فرُّخنشاه بابراهيم بن عبّاس الصولي وكان عيسى يكتب لهُ ولا ادري كيف صحّتهُ لاني لم اعتدّ بما لم اسمعهُ من افواه الرجال (من الكامل) :

إقبَلْ هديّةَ شاكرٍ تجزيهِ بالنَّزْرِ الجليلا

بـدرًا يُضِيء اذا نظرْ تَ اليهِ لم يأْلفْ أُفولا (١
اني بعثتُ بهِ وكنـــتُ بحسْنِ موقعهِ كفيلا
لمـّا رأيتُ بخطّهِ حُسناً يصيدُ بهِ العقولا
كمُنمْنَمِ المَوْشِيِّ قـد سحَبَ القِيانُ بهِ الذيولا (٢
او كالرياض بكى الحَيا فيها فأَوسَعَها هُمولا (٣
وتراهُ للمعنى اللطيفِ م اذا اثرْتَ بهِ قبولا
لا مستعيدًا منك اذ تُملي عليهِ ولا مَلُولا
عرَفَ المبادئَ والوصو لَ من الحكايةِ والفُصولا
وصنوفَ ترتيبِ الدعا ءِ وأَنْ يُقصّرَ او يُطيلا
والهَمْزَ والممدود والـــمقصور والمَثَلَ المَقُولا
والفعـلَ والاسماء والـــمصروفَ منها والثقيلا
فأَستَكْفِهِ وأَضمِرْ لهُ أَن لا تُريد له البديلا
يَحمِلْ بفضـلِ لسانهِ وبيانهِ منك الثقيلا

وروى الصولي ايضاً (ص ٨٤) قال دخـل عيسى بن فرُّخنشاه على جارية وهي تكتب خطّاً حسناً فقال (من الطويل) :

١) يقال : افل البدرُ افولًا اذا غاب

٢) قال في شرحهِ : يقال وشيتُ الثوب وشياً من باب وَعَدَ رقمتُهُ ونقشتُهُ فهو موشيّ والاصل مفعول . وغنمتُهُ غنمة رقشتهُ وفي الصحـاح : هي خطوط متقاربة قصار شبه ما تُنمنمُ الريحُ من دقاق التراب ولكل وشيٍ غنمة . والقيان جمع قَينة وهي الأَمة المغنّية او اعمُّ . والتقيُّن التزيُّن بالوان الزينة

٣) الحيا مقصور الغيثُ . وهمل المطر همولًا جرى

سريعةٌ تجري الخطَّ تنظمُ لؤلؤًا رينثرُ دُرًّا لفظُها المترشّفُ
وزادت لدينا حظوةً ثمّ اقبلَتْ وفي اصبعَيْها اسمرُ اللونِ مُرهفُ(١
أصمُّ سميعٌ ساكنٌ متحرّكٌ ينال جسيماتِ المدى وهو اعجفُ(٢

١١ ابن بطريق

في كتاب مسالك الابصار في اخبار ملوك الأمصار لشهاب الدين ابي العبّاس احمد العمري (نسخة المكتبة الخديويّة ٥ : ١٤٧) بعد ترجمة ابن عدلان ذكر المؤلف ابياتاً نسبها الى ابن بطريق ولم يزد افادةً . وقد تسمّى غير واحد بابن البطريق كسعيد ابن البطريق صاحب التاريخ ويحيي او يوحنا بن بطريق وعيسى بن بطريق وكلّهم نصارى عاشوا في القرن التاسع للميلاد . والمرجَّح انَّ الابيات لاحدهم نذكرها هنا تتمّة للافادة يخاطب فيها الشاعرُ موفَّقَ الدين ابن عدلان متفكّهاً (من البسيط) :

موفّق الدين يا مَنْ في فكاهتهِ وفيهِ يحلو لعيْن الساهرِ الأَرَقُ
انَّ ابنَ عدلانَ في إيقاد شمعتهِ ما شانَهُ الغيظُ من بُخلٍ ولا الحَنَقُ
لكن رأى الليل أولى ان يُقضّيَهُ في نيّراتِ معانٍ منك تأتلقُ
لا شيء احسنُ منها اذ بدت شُعَلًا شتّى يُنظَّم فيها لؤلؤٌ نَسَقُ

١٢ ابن بُطلان المتطبّب الراهب

﴿اسمهُ ووطنهُ ودينهُ واساتذتهُ﴾ قال جمال الدين القفطيّ في تاريخ الحكماء

١) مُرهف اسم مفعول من ارهفتُ السيف ونحوهُ اذا رقّقتَ شفرتَهُ
٢) الاعجف الهازل

(ص ٢٩٤): هو الحكيم ابو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون طبيب منطقي نصراني من اهل بغداد قرأ على علماء زمانه من نصارى الكرخ. وقال ابن ابي اصيبعة في عيون الانباء من طبقات الاطباء (١ : ٢٤١) : « كان قد اشتغل على ابي الفرج عبدالله بن الطيب(١ وتتلمذ لهُ وأتقن عليهِ قراءة كثيرٍ من كتب الحكمة وغيرها. ولازَمَ ايضاً ابا الحسن ثابت بن ابرهيم بن زهرون الحرَّاني الطبيب واشتغل عليهِ وانتفع بهِ في صناعة الطبّ وفي مزاولة اعمالها» . وجاء لجمال الدين القفطي في محلّ آخر (ص ٣١٤) ما حرفهُ : « وقد كان ابن بطلان هذا من اصحاب ابي الفرج ابن الطيّب البغداديّ وكان ابو الفرج يُجِلُّهُ ويعظّمهُ ويقدّمهُ على تلاميذهِ ويكرّمهُ ومنهُ استفاد وبعلمهِ تخرَّج وقد رأيتُ مثال خطّ ابي الفرج لهُ على كتابه ثمار البرهان من شرحهِ وهو : «قرأ عليَّ هذا الكتاب من اوَّلهِ الى آخرهِ الشيخ الجليل ابو الحسن المختار بن الحسن ادام الله عزَّهُ وفهَّمَهُ غاية الفهم»

﴿اخبارهُ واسفارهُ﴾ قد اغنانا جمال الدين وابن ابي اصيبعة عن تفتيش اخبارهِ والتنقيب عنها الآن بين روايتها تبايُناً لا بُدَّ من ذكرهِ للانتقاد. قال القفطي (ص ٢٩٤): « كان (اي ابن البُطلان) مشوَّهُ الخِلقة غير صبيحها كما شاء الله فيهِ وفَضُلَ في علم الاوائل يرتزق بصناعة الطبّ وخرج عن بغداد الى الجزيرة والموصل وديار بكر ودخل حلب واقام وما حمدها » . ومن ظريف ما حصل لهُ في حلب وقتئذٍ ما اخبرهُ القفطي قال (ص ٣١٥) : « ولمَّا دخل ابن بُطلان الى حلب وتقدَّم عند المستولي عليها سألهُ رَدَّ امر النصارى في عبادتهم اليهِ فولَّاهُ ذلك واخذ في إقامة القوانين الدينيَّة على اصولهم وشروطهم فكرهوهُ . وكان بحلب رجلٌ كاتب طبيب نصرانيٌّ يُعرف بالحكيم ابي الخير بن شرارة وكان اذا اجتمع بهِ وناظرَهُ في امر الطبّ يستطيل عليهِ ابن بطلان بما عندهُ من التقاسيم المنطقيَّة فينقطع في يدهِ واذا خرج عنهُ حملهُ الغيظ على الوقيعة فيهِ ويحمل عليهِ نصارى حلب . فلم يمكن ابنَ بطلان المقامُ بين أظهرهم وخرج عنهم وكان ابن شرارة بعد ذلك يقول: لم يكن اعتقادهُ مَرْضيّاً» (٢

---

١) هو الفيلسوف النسطوري كاتب الجاثليق صاحب التآليف الدينيَّة والفلسفيَّة والطبيَّة المتعددة المتوفّى سنة ١٠٤٣م (اطلب كتابنا المخطوطات العربيَّة لكتبة النصرانيَّة ص٢٢ ع٦٧)

٢) لعلَّه يشير بذلك الى مذهب ابن بطلان النسطوري

ثم قال القفطي: وخرج ابن بطلان عن حلب الى مصر فاقام بها مدّةً قريبة واجتمع فيها بابن رِضوان المصري الفيلسوف في وقتهِ وجرت بينهما منافرةٌ احدثتها المنالبة في المناظرة وخرج ابن بطلان عن مصر مُغضَباً على ابن رِضوان وورد انطاكية راجعاً عن مصر فاقام بها وقد سَئِم كثرة الاسفار وضاق عَطَنُهُ عن معاشرة الأغمار فغلب على خاطره الانقطاع فنزل بعض دِيَرَة انطاكية وترهّب وانقطع الى العبادة الى ان توفي بها في شهور سنة اربع واربعين واربعمائة (١٠٥٢م) *

ورواية ابن القفطي كاد ابنُ العبريّ ينقلها بحرفها في تاريخهِ مختصر الدول (ص ٣٣١)

امّا رواية ابن ابي اصيبعة فهي اوسع وادقّ وهي تختلف عن رواية جمال الدين في عدّة امور قال (ص ٢٤١): * وكان ابن بُطلان معاصرًا لعليّ بن رِضوان الطبيب المصري وكان بين ابن بُطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة والكتب البديعة الغريبة ولم يكن احد منهم (منهما) يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً إلّا ويردّ الآخر عليهِ ويُسفّه رأيهُ فيه. وقد رأيتُ اشياء من المراسلات التي كانت فيما بينهم (بينهما) ووقائع بعضهم (بعضهما) في بعض. وسافر ابن بطلان من بغداد الى ديار مصر قصداً منهُ الى مشاهدة علي بن رِضوان والاجتماع به. وكان سفرهُ من بغداد في سنة ٤٣٩ (١٠٤٢م). ولما وصل في طريقه الى حلب اقام بها مدّةً واحسن اليه مُعزّ الدولة ثمال ابن صالح بها واكرمهُ اكراماً كثيرًا. وكان دخولهُ الفسطاط في مستهلّ جمادى الآخرة من ٤٤١ (ك ١ ١٠٤٩) واقام بها ثلث سنين وذلك في دولة المستنصر بالله (ص ٢٤٢) من الخلفاء المصريين. وجرت بين ابن بُطلان وابن رضوان وقائع كثيرة في ذلك الوقت ونوادر ظريفة لا تخلو من فائدة. وقد تضمّن كثيرًا من هذه الاشياء كتابٌ أَلّفَهُ ابن بُطلان بعد خروجه من ديار مصر واجتماعهِ بابن رضوان. ولابن رِضوان كتابٌ في الردّ عليهِ. وكان ابن بُطلان اعذب ألفاظاً واكثر ظرفاً وأَميَز في الادب وما يتعلّق بهِ. وممّا يدلّ على ذلك ما ذكرهُ في رسالته التي دعاها بدعوة الاطباء. وكان ابن رِضوان أَطَبّ وأَعلَم بالعلوم الحكميّة وما يتعلّق بها. وكان ابن رِضوان أسود اللون ولم يكن بالجميل الصورة. ولهُ مقالة في ذلك يردّ فيها على من عيّرهُ بقُبح الخلقة وقد بيّن فيها بزعمهِ انّ الطبيب الفاضل لا يجب ان يكون وجهُهُ

جميلاً . وكان ابن بطلان اكثر ما يقع في عليّ بن رضوان من هذا القبيل واشباهه . ولذلك يقول فيه في الرسالة التي وَسَمها بوقعة الاطبّاء (من الطويل) :

فلمّا تبدّى للقوابلِ وجهُهُ نَكَصْنَ على أعقابِهِنَّ من النَّدَمْ
وقُلْنَ وأَخفَينَ الكلام تَسَتُّرًا: أَلَا ليتنا كنّا تَرَكناهُ في الرَّحِمْ

« وكان يلقّبهُ بتِمْساح الجنّ . وسافر ابن بُطْلان من ديار مصر الى القسطنطينيَّة واقام بها سنةً وعرضت في زمنه اوباء كثيرة . ونقلتُ من خطّهِ ما ذكر من ذلك ما هذا مثالهُ قال :

« ومن مشاهير الأَوْباء في زماننا الذي عرض عند طلوع الكوكب الاثاري في الجوزاء من سنة ٤٤٦ (١٠٥٤م) فانَّ في تلك السنة دُفن في كنيسة لوقا بعد ان امتلأت جميع المدافن في القسطنطينيَّة ١٤,٠٠٠ نَسَمة في الخريف . فلمَّا توسط الصيف في سنة ٤٤٧ (١٠٥٥م) لم يوفِ النيل فمات في الفسطاط والشام أكثر اهلها وجميع الغرباء إلَّا من شاء الله . وانتقل الوباء الى العراق فأتى على أكثر اهلهِ واستولى عليهِ الخراب بطروق العساكر المتعادية واتّصل ذلك بها الى سنة ٤٥٤ (١٠٦٢م) وعرض للناس في أكثر البلاد قروح سوداويّة واورام الطحال . . . ولمّا نزل زُحَلُ برجَ السرَطان تكامل خراب العراق والموصل والجزيرة واختلت ديار بكر وربيعة ومُضَر وفارس وكرمان وبلاد المغرب واليمن والفسطاط والشام واضطربت احوال ملوك الارض وكثُرَت الحروب والغلاء والوباء . . . (وذكر مَنْ فُقد من العلماء بزمانه في مدَّة بضع عشرة سنة) بوفاة الاجلّ المرتضى والشيخ ابي الحسن البصري والفقيه الحسن القدوري واقضى القضاة الماوردي وابن الطيّب الطبري على جماعتهم رضوان الله . ومن اصحاب علوم القدماء ابو عليّ بن هيثم وابو سعيد اليمامي وابو علي بن السمح وصاعد الطبيب (ص٢٤٣) وابو الفرج عبدالله ابن الطيّب . ومن متقدّمي علوم الادب والكتابة علي بن عيسى الربعي وابو الفتح النّيسابوري وبهمنيار الشاعر وابو العلاء بن نزيك وابو عليّ بن موصلايا والرئيس ابو الحسن الصابي وابو العلاء المعرّي . فانطفأت سرُج العلم وبقيت العقول بعدهم في الظلمة »

« وتوفي ابن بطلان ولم يتّخذ امرأةً ولا خلّف ولدًا ولذلك يقول من ابيات (من الطويل) :

ولا احدٌ ان مُتُّ يبكي لِميتتي سِوى مجلسي في الطبّ والكُتْب باكيا

(قلنا) فمن هذا يتّضح وجود عدَّة اختلافات بين رواية ابن ابي أُصيبعة ورواية جمال الدين القفطي :

١ً يذكر جمال الدين قبح صورة ابن بطلان . وامَّا ابن ابي اصيبعة فانهُ ينسب ذلك الى علي بن رضوان خصمهِ . ولو كان ابن بُطلان مثلهُ قبحاً لَمَا تجاسر على هجوهِ

٢ً قال جمال الدين انَّ ابن بُطلان « اقام في مصر مدَّةً قريبة » أمَّا ابن ابي اصيبعة فجعل اقامتهُ هناك «ثلاث سنين»

٣ً ذكر جمال الدين انَّ ابن بطلان عاد من مصر الى انطاكية وترهَّب ببعض اديرتها . امَّا ابن ابي اصيبعة فيذكر انهُ سافر من مصر الى القسطنطينيَّة واقام فيها سنةً

٤ً وجعل جمال الدين وفاة ابن بطلان في انطاكية سنة ٤٤٤ (١٠٥٢م) على خلاف ما ورد من التفاصيل في ابن ابي اصيبعة اذ يذكر مـا كتبهُ في السنتين ٤٤٥ و ٤٤٦ . لا بل ذكر في جملة تآليفهِ (ص ٢٤٣) مقالةً صنَّفها في انطاكية سنة ٤٥٥ (١٠٦٣م) ويؤيد ذلك بقولهِ «انَّ ابن بطلان صنَّف كتاب دعوة الاطباء ألَّفها للامير نصير الدولة ابي نصر احمد بن مروان» . قال : «ونقلتُ من خطّ ابن بُطلان وهو يقول في آخرها : فرغتُ من نسخها انا مصنّفها يوانيس الطبيب المعروف بالمختـار بن الحسن بن عبدون بدير الملك المنيّح قسطنطين بظاهر القسطنطينيَّة في آخر ايلول من سنة ١٣٦٥ (اي من تاريخ اليونان) . ويكون ذلك بالتاريخ الاسلامي من سنة ٤٥٠» فترى انَّ ابن بطلان مكث زمناً طويلًا في القسطنطينيَّة وانَّ وفاتهُ بعد السنة ٤٤٤ بعدَّة سنين . وفي كشف الظنون للحاج خليفة (٤ : ٣١٨) انَّ وفاة ابن بُطلان وقعت سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠–١٠٧١م) . وبين التاريخين كما ترى بونٌ عظيم

﴿أدب ابن بطلان وشعرهُ﴾ يشهد على أدب ابن بطلان وشعرهِ ابنُ ابي اصيبعة حيث يقول (١ : ٢٤٣) : « ولابن بُطـلان اشعار كثيرة ونوادر ظريفة وقد ضمَّن منها اشياء في رسالته التي وسمها بدعوة الاطباء وفي غيرها من كتبهِ . ودعوة الاطباء هذه قد عُني بطبعها المرحومان الدكتور بشاره زلزل في مصر والدكتور اسكنـدر البارودي في الطبيب . ومنها نسخةٌ حسنة قديمة في مكتبتنا الشرقيَّة . وهـذه بعض امثلةٍ من شعر ابن بطلان ممَّا ورد في كتابه دعوة الاطباء (ص ٢٠) قال في اختيار الاصحاب (مّن الوافر) :

عدوُّك من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرنَّ من الصِحابِ
لانَّ الداء اكثرُ ما تراهُ يكونُ من الطعام او الشرابِ

وقال (ص ٢٤) في منفعة الادوية (من الوافر) :

فانَّ المُرَّ حين يَسُرُّ حلوٌ وانَّ الحُلوَ حين يضرُّ مرُّ
فخُذْ مُرًّا تُصادِفْ منهُ حلوًا ولا تَعدِلْ الى حلوٍ يَضُرُّ

ولهُ (ص ٦٢) يهجو طبيباً (من المنسرح) :

قالت لهُ النفسُ: كُنْ طبيباً تقضي على الناس بالذهابِ
تأخذُ مالَ العليلِ قهرًا ثمَّ توأتيهِ الى الترابِ

وقال (ص ٦٧) في نكبات الزمان بعد فقد احد احبابهِ (من البسيط):

عينُ الزمان أصابَتنا فلا نظرَتْ وعَذَّبتْ بعذابِ الهجر ألوانا
قد كنتُ أُشفِقُ من دمعي على بَصَري فاليومَ كلُّ عزيزٍ بعدكم هانا

ومن اقوالهِ (ص ٧٠) عن لسان من لا يرى إلّا سلامة نفسه (من الرمل):

انّما دُنيايَ نفسي فاذا ذهبَتْ نفسي فلا عاش أَحَدْ
ليتَ انَّ الشمس بعدي غرَبَتْ ثمَّ لم تطْلُعْ على اهلِ بَلَدْ

وقال (ص ٨٧) في مصالحة العدوّ (من الوافر) :

وكم من مُرتَدٍ للصُلح يوماً فلم يَنجَحْ بذاك الارتيادِ
لانَّ الجُرح يُنقَضُ بعد حينٍ اذا كان البناءُ على فسادِ

وممّا انشدهُ في البطنة والشرَه (من المنسرح):

كم اكلةٍ دخلَتْ حَشا شَرِهٍ فأخرَجتْ روحهُ من الجسدِ
لا باركَ اللهُ في الطعــام اذا كان هــلاكُ النفوسِ بالمِعَــدِ

رحلة ابن بطلان الى الشام

هذه الرحلة صنَّفها ابن بطلان على صورة رسالة كتبها ووجَّهها الى بغداد الى ابي الحسن هلال بن الحسن الصابي (١ سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٩م) رواها ياقوت قطعاً متفرّقة في معجم البلدان وجمال الدين القفطي في تاريخ الحكماء

وكانت احوال الشام في تلك السنين مضطربة وكثرت فيها الحروب. كان الخليفة في بغداد القائم بامر الله وكانت مصر تحت حكم المستنصر بالله العلويّ. وكان يملك على حلب معزّ الدولة ثمال بن صالح بن مرداس صاحب الرَّحبة سابقاً. امَّا انطاكية فكان استولى عليها الروم سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣م) في عهد نيقيفورس فوكاس فبقيت في يدهم الى السنة ٤٧٧هـ (١٠٨٤م) فدخلها ابن بطلان في ايَّام حكم الروم عليها :

« ﴿المقدَّمة﴾ بسم الله الرحمن الرحيم أنا لِما اعتقدهُ من خدمة سيّدنا السيد الاجلّ اطال الله بقاءهُ وكَبَتَ اعداءَهُ دانياً وقاصياً، وأفترضهُ من طــاعتهِ مقيماً وظاعناً، أضمرتُ عند وداعي حضرتهُ العالية وقد ودَّعتُ منها الفضل والسؤدد والمجد والفخر والمَحتِد أن اتقرَّب اليها وأجدِّد ذكري عندها بالمطالعة عمَّا أستطرفُهُ من اخبار البــلاد التي أطرُقها واستغربها من غرائب الاصقاع التي أسلكها خدمةً للكتَّاب الــذي هو تاريخ المحاسن والمفاخر، وديوان المعالي والمآثر، ليودعهُ ادام الله تمكينهُ منها ما يراهُ ويلحق ما يستوفقهُ ويرضاهُ وعليَّ ذكرهُ. فما رأيتُ احداً بعصر وهذه الاعمال اكثر من الراغب فيهِ. وكل رئيس في هذه الديار متشوّق اليهِ ولوصولــه مترقّب متوقّع. ولو وصلت منهُ نسخة لبلغ الجالبُ لها أُمنيّتهُ في رِبْحِها ونَفعِها. والى الله تعالى ارغب في نشر فضيلتهِ الباهرة ومحاسنهِ الزاهرة بجودهِ

« ﴿من بغداد الى حلب﴾ كنتُ خرجتُ من بغداد وبدأتُ بلقاء مشايخ البلاد وخواصّها واستملاء ما عندهم من آثارها وعجائبها. فذكر لي اخبار مستطرفة وغرائب

١) وروى ياقوت (٣٠٦:٢) انهُ كتبها الى هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي في دولة بني مرداش. وهلال هذا من مشاهير الكتاب توفي سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦م)

عجيبة وعجائب غريبة وانواع من الشعر (١ رائقة . ولضيق الوقت وسُرعة الرسول اضربت عن اكثرهِ واختصرتُ على أقلّه . وكنتُ خرجتُ على اسم الله وبركته مستهلّ شهر رمضان سنة اربعين واربعمائة (ك ٢ ١٠٤٩) مُصعداً في نهر عيسى (٢ على الانبار . ووصلتُ الى الرَّحبة (٣ بعد تسع عشرة مرحلة وهي مدينة طيّبة وفيها من انواع الفواكهِ ما لا يُحصى وبها تسعة عشر نوعاً من الأعناب . وهي متوسّطة بين الانبار وحلب وتكريت والموصل وسنجار والجزيرة . وبينها وبين قصر الرصافة مسيرة اربعة أيام . « وهـذا القصر (٤ حصنٌ دون دار الخلافة ببغداد مبنيّ بالحجارة وفيهِ بيعة عظيمة ظاهرُهـا بالفصّ المذهَّب (٥ انشأهـا قسطنطين بن هيلانة وجدّد الرَّصافة وسكنها هشام بن عبد الملك وكان يَفرَع (يفزَع) اليها من البقّ في شاطئ الفرات . وتحت البيعة (٦ صهريج في الارض على مثل بناء الكنيسة معقود على اساطين الرخام مبلّط بالمرمر مملوء من مـاء المطر . وسكّان هذا الحصن بادية اكثرهم نصـارى ومعاشهم تخفير القوافل وجَلب المتاع والصعاليكُ مع اللصوص . وهذا القصر في وسط بريّة مستوية السطح لا يردّ البصر من جوانبها إلّا الأُفق »

« ﴿حلب﴾ ورحلنا منها الى حلب (٧ في اربع رحالات وهي بلدٌ مسوَّر بالحجر الابيض فيهِ ستة ابواب وفي جانب السور قلعة في اعلاهـا مسجد وكنيستـان وفي احداهما كان المذبح الذي يقرِّب عليهِ ابراهيم عم . وفي اسفل المغارة كان يخبأ فيهـا غنمهُ واذا حلبها اطاف الناس بلبنها فكانوا يقولون : « حَلَبَ ام لا » ويسأل بعضهم

١) ويروى : اقطاع من الشعر

٢) نهر عيسى احد الانهار المشتقّة من الفرات

٣) الرحبة هي المدينة المعروفة برحبة مالك بن طوق على شطّ الفرات

٤) ما وُضع بين هلالين ورد في معجم البلدان لياقوت (٢ : ٧٨٥) ولم يروهِ جلال الدين القفطي

٥) الفصّ المذهب هو المعروف بالفسيفساء (mosaïque)

٦) كانت في الرصافة بيعة للقـديس سرجيوس الذي استشهد هناك مع القديس بَخُوس وكان العرب يعظمونها وذكرها الاخطل في شعرهِ

٧) هذا الوصف ذكرهُ ايضاً ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٣٠٦)

بعضاً عن ذلك فسُمّيت حلب (١ . وفي البلد جامع وستُّ بِيع وبيمارستـان صغير والفقهاء يُفتون على مذهب الإمامية . وشربُ اهل البلد من صهاريج مملوءة بماء المطر . وعلى بابهِ نهرٌ يُعرف بقُوَيق يَمُدُّ في الشتاء وينضبُ في الصيف . وفي وسط البلد دار عُلْوَةَ صاحبة البحتري (٢ وهو بلد قليل الفواكه والبقول والنبيذ إلّا ما يأتيهِ من بلاد الروم (٣ . » ومن عجـائب حلب انَّ في قيساريَّة البزّ عشرين دكاناً لوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدرهُ عشرون الف دينار . مستمرٌّ ذلك منذ عشرين سنـة والى الآن . وما في حلب موضع خراب اصلًا »

﴿انطاكية﴾ وخرجنا من حلب طالبين انطاكية بينها يوم وليلة فبتنا في بلدةٍ للروم تُعرف بعِمّ فيها عين جارية يُصاد فيها السمك ويدور عليها رحى وفيهـا من الخنازير (٤ ومباح النساء والخمور امرٌ عظيم . وفيها اربع كنائس وجامع يؤذَّن فيهِ سرًّا . والمسافة التي بين حلب وانطاكية عامرة لا خراب فيها اصـلًا ولكنها ارضُ زرعٍ للحنطة والشعير تحت شجر الزيتون (٥ قراها متصلة ورياضها مزهرة ومياهُهـا منفجرة يقطعها المسافر في بالٍ رخيّ وأمن وسكون . وانطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل وللسور ثلثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة اربعة آلاف حارس يُنفَذون من القسطنطينيَّة من حضرة الملـك فيضمنون حراسة البلـد سنةً ويُستبدَل بهم في الثانية . وشكل البلد كنصف دائرة قُطرها يتَّصل بجبل والسور يصعد مع الجبل الى قُلَّتهِ ويستمّ دائرة (٦ . وفي رأس الجبل داخلَ السور قلعةٌ تبينُ لبعدها من البلـد صغيرةً . وهذا الجبل يستر عنها الشمس فلا تطلع عليها الّا في الساعة الثانية . وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة ابواب وفي وسطها بيعة القسيان (٧ . وكانت دار قُسْيان

١) هذه رواية ضعيفة فانَّ اسم حلب ورد في الآثار الاشورية قبل عهد ابراهيم الخليل

٢) هي علوة بنت زُرْعة الحلبيَّة كان البحتري يشبّب بها

٣) هذا ما ذكرهُ القفطي لابن بطلان عن حلب وزاد عليهِ ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٣٠٧) ذكر بعض شعراء وجدهم في حلب وختم بها وضمناهُ بين هلالين

٤) روى ياقوت (٣ : ٧٢٩) : « مشارير الخنازير

٥) روى القفطي : بجنب شجر الزيتون

٦) روى ياقوت : فتمّ دائرة

٧) روى القفطي : قلعة القسياني

للملك الذي احيا ولدهُ فُطرس رئيس الحواريين (١ وهو هيكل طوله مائة خطوة وعرضهُ ثمانون وعليهِ كنيسة على أساطين ودائر الهيكل اروقة يجلس فيها القضاة للحكومة ومعلّمو (٢ النحو واللغة . وعلى احد ابواب هذه الكنيسة فِنجان (٣ الساعات يعمل ليلًا ونهارًا دائمًا اثنتي عشرة ساعة وهو من عجائب الدنيا . وفي أعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمّامات وبساتين ومقاصير حسنة (٤ تخرّ منها المياه وعلّة ذلك انّ الماء ينزل عليها من الجبل المطلّ على المدينة

وهناك من الكنائس ما لا يُحدّ كثرةً كلّها معمولة بالفصّ (بالفِصّ) الذهب (٥ والزجاج الملوّن والبلاط المجزّع . وفي البلد بيمارستان يراعي البطريرك المرضى فيهِ بنفسهِ . «ويُدخل المجذّمين الحمّامَ في كلّ سنةٍ فيغسل شعورهم . ومثل ذلك يفعل الملك بالضعفاء كلّ سنةٍ ويعينهُ على خدمتهم الاجلّاء من الرؤساء والبطارقة التماس التواضع (٦ » . وفي المدينة من الحمّامات ما لا يوجد مثلهُ في مدينةٍ اخرى لذاذةً وطِيبةً « لان وَقودها من الآس وماءها تسعى سَيحاً بلا كلفة »

« وفي بيعة القُسْيان (٧ من الخدم المسترزقة ما لا يُحصى . ولها ديوان لدَخل الكنيسة وخَرْجها . وفي الديوان بضعة عشر كاتباً . ومنذ سنةٍ وكسر وقعت في الكنيسة صاعقة وكانت حالُها عجيبة . وذلك انهُ تكاثرت الامطار في آخر سنة ١٣٦٢ للاسكندر الواقع في سنة ٤٤٢ للهجرة وتواصلت اكثر أيام نيسان . وحدث في الليلة التي صبيحتُها يوم السبت الثالث عشر من نيسان رعدٌ وبرقٌ اكثر ممَّا أُلِف

١) ورد في بعض التقاليد القديمة انَّ القديس بطرس الرسول لمَّا دخل انطاكية وجد ابن واليها الروماني ميتاً فاحياهُ وعمَّد الوالد والولد ونشر النصرانية في انطاكية واعطاهُ الحاكم قصرهُ فجعلهُ كنيسة عُرفت ببيعة القُسيان

٢) روى ياقوت : متعلّمو

٣) فِنجان كلمة فارسيَّة تعريب بنكان وهي الساعة الرواليَّة (clépsydre) ويقال في العربيَّة ايضاً بنكام

٤) روى ياقوت : مناظر حسنة

٥) روى ياقوت : بالذهب والفضَّة

٦) ما جعلناهُ بين هلالين رواهُ ياقوت وحدهُ (١ : ٢٨٣)

٧) كل هذه القطعة بين الهلالين التي تتضمَّن وصف الزلزلة التي حدثت في انطاكية لم يذكرها جلال الدين القفطي وانّما دوَّنها ياقوت (١ : ٢٨٣-٢٨٤)

وعُهِد وسُمع في جملتهِ اصوات رعدٍ كثيرة مَهولة ازعجتِ النفوس ووقعت في الحـال صاعقةٌ على صدَفةٍ مخبيَّة في المذبح الذي للقُسْيان فقلعت من وجه النَّسرانيَّة (كذا) قطعةً تشاكل ما قد نُحت بالفاس والحديد الذي تُنحَت بهِ الحجـارة وسقط صليبٌ حديد كان منصوباً على علوّ هذه الصدَفة وبقي في المكان الذي سقط فيهِ · وانقطع من الصَّدَفة ايضاً قطعة يسيرة · ونزلت الصاعقة من منفذٍ في الصدَفة وتُنزِّل فيـهِ الى المذبح سلسلة فضَّة غايظة يُعلَّق فيها الشميوطون (كذا) وسعة هذا المنفذ اصبعـان فتقطَّعت السلسلة قطعاً كثيرة وانسبك بعضها ووُجد ما أنسبك منها ملقًى على وجه الارض · وسقط تاج فضةٍ كان معلَّقاً بين يدي مائدة المذبح وكان من وراء المائدة في غربيّها ثلث كراسي خشبيَّة مربَّعة مرتفعة يُنصب عليها ثلثة صلبان كبار فضة مذهَّبة مرصَّعة وقُلع قبل تلك الليلة الصليبان الطرَفيان وتَشظَّيا وتطايرت الشظايا الى داخل المذبح وخارجهِ من غير ان يظهر فيها اثر حريق كما ظهر في السلسلة ولم ينل الكرسيَّ الوسطانيَّ ولا الصليبَ الذي عليهِ شيء · · وكان على كل واحد من الاعمدة الاربعـة الرخام التي تحمل القبة الفضة التي تغطي مائدة المذبح ثوبُ ديباج ملفوف على كل عمود فتقطَّع كل واحد منها قطعاً كبارًا وصغـارًا · وكانت هذه القطع بمنزلة ما قـد عَفِن وتهرَّأ ولا يُشبه ما قد لامستهُ نار ولا ما احترق ولم يلحق المائدة ولا شيئاً من هـذه الملابس التي عليها ضررٌ ولا بان فيها اثرٌ · وانقطع بعضُ الرخام الذي بين يدي مائدة المذبح مع ما تحتهُ من الكلس والنورة كقطع الفاس · ومن جملتـهِ لوح رخام كبير طفرَ من موضعه فتكسَّر الى علوّ تربيع القبة الفضة التي تغطّي المائدة وبقيت هناك على حالهِ وتطافرَ بقيَّة الرخام الى ما قَرُب من المواضع وبَعُدَ · وكان في المجنَّبـة التي للمذبح بَكَرة خشب فيها حبل قُنَّب مجاور السلسلة الفضة التي تقطَّعت وانسبـك بعضها معلَّقٌ فيها طبق فضة كبير عليهِ فراخ قناديل زجاج بقي على حالهِ ولم ينطفئ شيء من قناديلهِ ولا غيرها ولا شمعة كانت قريبة من الكرسيَّين الخشب ولا زال منها شيءٌ · وكان جملة هذا الحادث مما يُعجب منهُ · وشاهدَ غير واحد في داخل انطاكية وخارجها في ليلة الاثنين الخامس من شهر آب من السنة المقدّم ذكرها في السماء شبهَ كُرَةٍ ينورُ منها نورٌ ساطعٌ لامع ثم انطفأ واصبح الناس يتحدثون بذلـك · وتوالت الاخبار بعد ذلك بانهُ كان في اوَّل نهار الاثنين في مدينة غُنجُرة وهي داخل بـلاد

الروم على ١٩ يوماً من انطاكية زلزلة مهولة تتابعت في ذلك اليوم وسقط منها ابنية كثيرة وخُسف موضع في ظاهرها. وكان هناك كنيسة كبيرة وحصن لطيف غابا حتى لم يبقَ لهما اثر ونبع من ذلك الخسف ماء حارّ شديد الحرارة كثير النبع المتدفق وغرق منهُ سبعون ضيعة. وتهارب خلق كثير من تلك الضياع الى رؤوس الجبال والمواضع المرتفعة العالية فسلموا . وبقي ذلك الماء على وجه الارض سبعة ايّام وانبسط حول هذه المدينة مسافة يومين ثمّ نضب وصار موضعهُ وحلاً. وحضر جماعة ممّن شاهد هذه الحال فحدّثوا بها اهل انطاكية على ما سطرتُهُ وحكوا انّ الناس كانوا يُصعدون امتعتهم الى رأس الجبل فيضطرب من عظم الزلزلة فيتدحرج المتاع الى الارض»

«وظاهر البلد نهر يُعرف بالمقلوب(١ يأخذ من الجنوب الى الشمال وهو مثل نهر عيسى وعليهِ رحى ويسقي البساتين والاراضي. وخارج البلد دير سمعان وهو مثل نصف دار الخليفة يُضاف فيها المجتازون يقال انّ دَخْلَهُ في السنة اربعمائة الف دينار(٢ . ومنهُ يُصعَد الى جبل اللكّام وفي هذا الجبل من الديارات والصوامع والبساتين والمياه المتفجرة والانهار الجارية والزهّاد والسيّاح وضرب النواقيس في الاسحار وألحان الصلوات ما يتصوّر معهُ الانسان انهُ في الجنة. وفي انطاكية شيخ يُعرف بابي نصر ابن العطار قاضي القُضاة فيها لهُ يدٌ في العلوم مليح الحديث والإفهام

«وخرجت من انطاكية الى اللاذقية وهي مدينة يونانية(٣ لها مينا وملعب وميدان للخيل مدوّر. وبها بيت كان للاصنام وهو اليوم كنيسة وكان في اوّل الاسلام مسجدًا وهي راكبة البحر وفيها قاضي للمسلمين وجامع يصلّون فيهِ واذان في اوقات الصلوات الخمس. وعادة الروم اذا سمعوا الاذان ان يضربوا الناقوس. وقاضي المسلمين الذي بها من قبل الروم. . . ومن البلد من الحبساء والزهّاد في الصوامع والجبال كلّ فاضل يضيقُ الوقت عن ذكر احوالهم والالفاظ الصادرة عن صفاء عقولهم واذهانهم»

١) يريد نهر العاصي او نهر اورُنط

٢) وجاء في ياقوت (٣ : ٦٧٣) : ولهُ من الارتفاع كل سنة عدّة قناطير من الذهب والفضّة

٣) كانت اللاذقيّة وقتئذٍ في ايدي الروم

١٣ صاعد بن شمَّاس

﴿زمانهُ ودينهُ﴾ ورد ذكر صاعد بن شمَّاس في رحلة ابن بطلان ومنهُ يُستدل على زمانهِ وعلى دينهِ ووطنهِ . وقد مرَّ بك انَّ ابن بطلان عاش في القرن الخامس للهجرة والحادي عشر للمسيح . امَّا ما قال عنهُ ابن بطلان فورد في معجم البلدان لياقوت (٢ : ٣٠٧) في مادَّة « حلب » قال ابن بطلان : «وفيها (اي حلب) كاتبٌ نصرانيّ لهُ في قطعةٍ في الخمر اظنه صاعد بن شمّامة (كذا)»

خاضت صوارمُ ايدي المازحين(١ بها   فألبسَتْ جسمَها دِرْعاً من الحَبَبِ

فقولهُ «صاعد بن شمّامة» قد اصلحهُ ناشر كتاب معجم البلدان في فهرس الاعلام (٦ : ٤٧٦) ودعاهُ «صاعد بن شمّاس» ويحيل هناك الى الجزء الرابع (ص ٨٠) حيث يروي ثلثة ابيات انشدها «ابو زياد لصاعد» دون زيادة في التعريف ولعلّها لصاعد آخر غير ابن شمَّاس فظنَّ ناشر الكتاب انها لهُ . فنرويها هنا على علّاتها وهي واردة في مادَّة «قَرينة» اسم روضة او وادٍ قال (من الوافر) :

ألا يا صاحبيَّ قِفا قليلًا   على دار القدورِ فحَيِّياها
ودارٍ بالشُّمَيط فحَيِّيا بي   ودارٍ بالقَرينة فاسألاها
سقتْها كلُّ واكفةٍ هتونٍ   تُرَجّيها جنوبٌ او صَباها

فدارُ القدور والشُّمَيط والقَرينة كلّها امكنة في البرّيّة . وهذا غاية ما عرفنا عن صاعد المذكور

١٤ عون الراهب

﴿زمانهُ وشعرهُ﴾ ورد ذكرهُ في كتاب زهر الآداب وثمر اللباب لابي

١) كذا في الاصل بالحاء ولعلّها «المازجين» بالجيم

اسحاق الحصري القيرواني فاستدللنا بذكره فيه انهُ كان من ادباء القرن الحادي عشر للمسيح سبق الحصري المتوفى سنة ٤٥٣ للهجرة الموافقة للسنة ١٠٦١ للمسيح . وقد روى لعون الراهب ابياتاً في مديح الغراب ردًّا على من يتشاءم بهذا الطائر فقال (في الطبعة المصريَّة على هامش عقد الفريد لابن عبد ربه (٢ : ٨٤) وفي الطبعة الجديدة (٢ : ١٧٠) (من الكامل) :

غَلَطَ الذين رأيتُهم بجهالةٍ يَلحُون كلَّهمُ غراباً ينعَقُ
ما الذنبُ إلّا للأَباعِرِ انّها ممّا يُشِتُّ جميعَهم ويفرّقُ
انَّ الغراب بيُمْنِهِ تدنو النوى وتُشتِّتُ الشَّمْلَ الجميعَ الأَيْنُقُ

وقد بحثنا كثيرًا في كتب الادباء وتراجم القدماء لنقف لعون المذكور على اثر فخاب رجاؤنا

١٥ ابن مَرْغَر الاشبيلي

﴿ زمانهُ ودينهُ ﴾ ابن مرغر هو ايضاً من شعراء القرن الخامس للهجرة والحادي عشر للمسيح . وقد ورد اسمهُ على صور شتّى فيُروى ابن مَرْغري وابن المرغوي وابن المزعري وابن المغربيّ . والصواب ما ذكرنا . كان في ايّام الملك ابي القاسم محمّد الملقَّب بالمعتمد بن عبّاد وهو آخر ملوك العبّاديّين في اشبلية حاضرة الاندلس ملكَ من السنة ٤٦١ الى ٤٨٤هـ (١٠٦٨-١٠٩١م) . وكان ابن مرغر من نصارى الاندلس لا شكَّ في الامر

﴿ اخبارهُ وشعرهُ ﴾ اخبارهُ قليلة وجدنا منها شيئاً في مخطوطات مكاتب اوربَّة الشرقيَّة . فمن ذلك ما جاء في كتاب اخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء (Ms de Leide, 834, II p. 288) للملك المنصور امير حماة المتوفَّى سنة ٦١٧ (١٢٢٠م) قال (ص ٢٤٧-٢٤٨) : «ابن مرغر من نصارى الاندلس من اهل اشبيلية . قال الشيخ ابو عبّاس شهاب الدين احمد بن يحيى بن الفضل العمري في

كتاب مسالك الابصار من ممالك الامصار : ابن مرغر النصراني مُجيدٌ على ما عُرف من مُدامه ، وعُلم منهُ من جهل . ما فكَّ عنهُ فِدامه ، وقد تردَّى القلب (١ وهي جماد ، وتنطّق الاوتاد وهي جماد ، وتُضيُ النار وهي من حطب الى رماد ، والحمامةُ وهي عجماء قد تسجعُ ، والغمامة وهي طلقةٌ تُستنجَع »

ثمَّ انشد لهُ يصف كلبَ صيدٍ . وهي ستة ابيات رويت في نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (٢ : ٩٤٦) قال : « حُكي ان ابن المرغوي (كذا) النصراني الاشبيلي اهدى كلبة صيد للمعتمد بن عبَّاد وفيها يقول (من المنسرح) :

لم أرَ مَلْهًى لذي اقتناصِ (٢ ومكسباً مُقنعَ الحريصِ
كمثل خطَّارِ ذاتِ جيدٍ أتلعَ في صفرة القميصِ (٣
كالقوس في شكلها ولكن تنفذُ (٤ كالسَّهْم للقنيصِ
ان تخذتْ أنفَها دليلًا دلّ على الكامن العويصِ
محبوكةُ الظَّهْر لم يَخنهُ لحوف بطنٍ لها خميصِ (٥
لو انها تستثير برقاً لم يجدِ البرقُ من محيصِ

قال (ومنها في المديح) :

يشفع تأميلهُ (٦ بودٍّ شَفْعَ القياساتِ بالنصوصِ

وقد روى لهُ عماد الدين الاصفهاني في كتاب خريدة القصر وجريدة اهل العصر

١) كذا في الاصل . ولعلَّ الصواب تروَّى القُلْب وهو جمع قَليب اي البئر وتروَّى كمثل رَوِي
٢) ويروى : لدى اقتناص
٣) ويروى : كمثل خطلاء . . اتلع صفرة . واتلع عن صفرة
٤) ويُروى : ينفذ
٥) ويروى : لم يخنهُ . . جا
٦) ويروى : تنويلهُ

(Ms de Paris, nº 3330, fol. 175ʳ, de Londre, 574) غيرها من الابيات .
منها قولهُ في المديح (من الكامل) :

واللهُ اكبرُ انت بدرٌ طالعٌ والنَّقعُ(١ دجنٌ والكماةُ نجومُ
والجُرْدُ افلاكٌ وانت مُديرها وعدوُّك الغاوي وانت رجومُ(٢

وقال في قوم بات عندهم فلم يوقدوا لهُ سراجاً (من البسيط) :

نزلتُ في آل مكحولٍ وضيفهمُ كنازلٍ بين سمع الارض والبصرِ
لا تستضيءُ بضوءٍ في بيوتهمُ ما لم يكن لك تطفيلٌ على القمرِ

وقال يمدح كريماً رطَّب لسانهُ بكرمهِ وشحذ قريحتهُ في مديحهِ (من البسيط) :

انطقتني بالنَّدى حتى سرى نَفَسي كما تنفَّس في الأنداء رَيحانُ
وغاص في بحر نعماك المحيط بهِ فهذهِ دُرَرٌ منهُ ومَرجانُ

١٦ زَبينا النصراني

﴿زمانهُ وشعرهُ﴾ زبينا اسم سرياني بمعنى المَبيع والمملوك . كان في القرن الخامس للهجرة والحادي عشر للمسيح . ذكرهُ الراغب الاصفهاني (المتوفى سنة ٥٠٢هـ ١١٠٨م) في كتابهِ محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء وروى لـهُ شعراً (١: ١٩٦) في باب الرجل «الموصوف بكثرة المساوي» بعد ذكره لقول الاخطل :

قومٌ تناهى اليهم كلُّ فاحشةٍ وكلَّ مخزيةٍ سُبَّتْ بها مُضَرُ

قال زبينا النصراني (من البسيط) :

---

١) ويروى : والنقع بالقاف
٢) وفي نفح الطيب (٢: ٩٤٦) : والجودُ ... ومن رجوم

لي صاحبٌ لستُ أُحصِي من محاسنهِ شيئاً صغيرًا ولا تُحصى مساويهِ(١
وليس فيهِ من الخيرات واحدةٌ واكثرُ السوءِ لا بل كلُّهُ فيهِ

وقد نقَّبنا عن زبينا هذا لنعرف شيئاً من اخبارهِ فلم يُجدنا التنقيب شيئاً

١٧ ربيب النصراني

﴿زمانهُ وشعرهُ﴾ ربيب النصراني هو ايضاً من الشعراء الذين نقل عنهم بعضَ مقاطيع اشعارهم الراغبُ الاصفهاني في كتابهِ «محاضرات الادباء» وبهِ عرفنا زمانهُ اي انهُ من شعراء القرن الخامس للهجرة والحادي عشر للمسيح. وفي غير هذا الكتاب لم نجد لهُ ذكرًا ولعلَّهُ هو زبينا السابق ذكرهُ فيكون اسمهُ مصحَّفاً. امَّا ما رواهُ عنهُ فهو بيت مفرد ذكرهُ في باب «المغالاة بما لا يقلّ وجودهُ» (١: ٢٩٢) قال ربيب النصراني (من البسيط):

وكلّ شيءٍ غلا او عزَّ مطلبُهُ مسترخصٌ ومهانُ القدرِ إن رَخصَا

١٨ سعيد النصراني

﴿زمانهُ وشعرهُ﴾ سعيد النصراني هو الشاعر الثالث الذي اوقفنا عليهِ الراغب الاصبهاني في محاضراتهِ فأفادنا انهُ عاش في زمانهِ اي في القرن الخامس للهجرة والحادي عشر للمسيح ولم يزدنا علماً امَّا شعرهُ فلم يروِ منهُ الَّا ثلثة ابيات في باب «مزاورة الحبيب وملاقاته والنظر اليهِ» (٢: ٦٤) قال سعيد النصراني (من الخفيف):

وَعدَ البدرُ بالزيارةِ ليلًا فاذا ما وَفَى قضيتُ نذوري
قلتُ: يا سيّدي ولِمْ توثرِ الليلَ على بهجة النهار المُنيرِ

١) في الاصل: احصي. وهو غلط لاختلاف القافية

قال : لا استطيعُ تغييرَ رسمي هكذا الرسمُ في طلوع البدورِ

وقد بحثنا بدون جدوى عن سعيد النصراني المذكور في الراغب فلم نتوفَّق الى معرفة شيء من اخبارهِ في سائر الكتب التي راجعناها

١٩ امين الدولة العلاء بن مُوصلايا

﴿ اسمهُ وزمانهُ ﴾ قال عماد الدين الاصبهاني في خريدة القصر وجريدة العصر (Ms de Paris, 3326) : «هو امين الدولة ابو سعد العلاء بن الحسن بن وَهب بن الموصلايا» وفي نسخة ليدن (Ms de Leide, 881, p. 41) وفي تراجم ابن خلِّكان (ص٥٤٥ طبعة باريس) انهُ يكنى «ابا سعيد العلاء بن الحسين». وضبط ابنُ خلكان اسمهُ مُوصَلايا بضم الميم وسكون الواو وفتح الصاد قال : «وهو من اسماء النصارى». كان منشأه بغداد فدعاهُ ابن خلكان «بالكاتب البغدادي ومنشئ دار الخلافة» على انَّ اسم جدّهِ يدلّ على انَّ اصلهم من المُوصل

اما زمانهُ فانهُ عاش في القرن الخامس للهجرة كانت وفاتهُ في ١٣ ربيع الاوَّل سنة ٤٩٧ (اواسط كانون الثاني ١١٠٤م) كما روى الاصفهاني في خريدة القصر وابن الاثير في الكامل. امّا ابن خلكان فجعل وفاتهُ في تاسع عشر من جمادى الاولى من السنة ويروى ثامن عشر جمادى

وجاء في نكت العميان للشيخ خليل بن ايبك الصفدي (مكتبة بايزيد في الاستانة نمره ٦٦٣) انهُ ولد سنة ٤١٢ (١٠٢١م) فيكون عاش ٨٥ سنةً

﴿ دينهُ ﴾ ولد امين الدولة نصرانيا وعاش نصرانيًّا في خدمة الخلفاء الى السنة ٤٨٤هـ (١٠٩١م) فاسلم . أمَّا اسلامهُ فلم يكن عن اقناع واختيار بل كرهاً واضطرارًا كما روى ابن تغري بردي في تاريخ سنة ٤٨٤ (ed. Popper, III, 287) قال :

«فيها في صفر كتب الوزير ابو شجاع (محمَّد بن الحسين الرُّوذراوَري) الى الخليفة (المقتدي بالله) يعرّفه باستطالة اهل الذمَّة على المسلمين (كذا) وانَّ الواجب تمييزهم عنهم. فأمر الخليفة ان يفعل ما يراهُ . فألزمهم الوزير لبس الغيار والزنانير وتعليق الدراهم الرصاص في اعناقهم

مكتوبٌ «عليَّ الدراهم» وتُجعَل هذه الدراهم ايضًا في اعناق نسائهم في الحمّامات ليُعرَفن بها وان يَلبَسنَ الخفاف فردًا اسود وفردًا احمر وجلجلًا في ارجلهنَّ. فذَلُّوا وانقمعوا بذلك وأسلم حينئذٍ ابو سعد ابن المُوصَلايا كاتب الانشاء للخليفة وابن اخيهِ ابو نصر هبة الله »

فترى التساهل المزعوم الذي يدَّعيهِ بعض الكتبة للخلفاء وكيف أُكره على جحود دينهم كثيرون من النصارى وفي جملتهم ابن الموصلايا أفيحقُّ لنا ان ننظمهُ في سلك الاسلام وان دان بهِ ظاهرًا في السنين الاخيرة من حياتهِ ؟

﴿ أخبارهُ ﴾ كان ابن موصلايا من نصارى بغداد المنتمين الى البدعة النسطوريَّة ورد ذكرهُ في تاريخ المجدل لابن ماري النسطوري (١٢٢ و١٣٣). واصل اسرتهِ من الموصل كما يدلّ عليهِ اسمهُ تخرَّج بالآداب على اهل نحلتهِ ثمَّ دخل في ديوان الانشاء في خدمة الخلفاء. قال الصفدي في كتابهِ نَكت الهِميان في نُكت العميان (عن نسخة الاستانة. اطلب طبعتهُ الجديدة ص ٢٠١—٢٠٢) :

« كان (ابن موصلايا) يتولّى ديوان الرسائل منذ ايّام القائم (بامر الله) وناب في الوزارة وأضرَّ آخرَ عمرهِ وكانت خدمتهُ خمسًا وستين سنة كل يوم منها يزيد جاههُ وناب في الوزارة. ولمَّا أضرَّ كان ابن اختهِ هبة الله بن الحسن يكتب الانشاءات عنهُ . وكان كثير الصدقة والخير. ومولدهُ سنة ٤١٢ وتوفي سنة ٤٩٧ ثامن عشر جمادى الاولى. وكان الخليفة قد لقَّبهُ امين الدولة. قال محمَّد بن عبد الملك الهمداني (ويروى: الهمذاني) : ومَن قرأ علم السيَر علِمَ انَّ الخليفة والملوك لم يثقوا باحدٍ ثقتهم بامين الدولة ولا نصحَهم احد نصحَهُ»

وقال عماد الدين الاصفهاني في خريدة القصر :

« ولم يزل امين الدولة موقَّرًا موفَّر الحرمة ينوب عن الوزارة المقتديَّة والمستظهريَّة حتى قال عميد الدولة للمستظهر عنهُ وعن ابن اخيهِ: هما عينا الدولة وابناها لا يُبرَم دونهما امرٌ. وكان كثير الصدقة والصلة ذُكر عنهُ انهُ فرَّق في يوم من ايام الغلاء (ويروى: في أيّام قليلة) ثلاثين الف رطل خبزًا »

وقال ابن الاثير في الكامل في تاريخ سنة ٤٩٧ انَّ امين الدولة توفي فجأة وانهُ «كان كثير الصدقة جميل المحضر صالح النيَّة ووقف املاكهُ على ابواب البرّ»

(قلنا) فكان جزاؤهُ على هذا الفضل العميم ان أرغموهُ على جحود دينهِ. فتأمَّل

﴿آدابهُ وشعرهُ﴾ غنيٌّ عن البيان ان رجلًا تولَّى ديوان الانشاء للخلفاء مدَّة خمسًا وستين سنة بلغ من الآداب مبلغًا عظيمًا. قال عماد الدين الاصفهاني يصف

كتابتهُ ويطري حسن انشائهِ :

« كان امين الدولة بليغ الانشاء سديد الآراء رسائلهُ تعبّر عن فضلهِ ووفور علمـهِ. وكان نثرهُ احسن من نظمهِ لتمرُّنهِ عليهِ وانقطاعهِ اليهِ. على انَّ لهُ مقاطعات مستعذبة اراها احلى من الأرْي وأزْين من الحلي وهي في اسلوب شعر الكتّاب بعيدة عن التكلُّف في الصنعة ، ارقّ معنى من الدمعة ، واعذب لفظاً [لمتكلّم] مستبشر الطلعة »

امّا ابن تغري بردي فقد وصفهُ في تاريخهِ (٣: ٣٤٥) بالمترسّل والشاعر المُجيد . وقد خلّف ابن موصلايا كتاباً في الترسُّل ذكرهُ القلقشـنـدي في صبح الاعشى (١٣: ٢٧٢) . امّا شعرهُ فدونك ما جمعنا منهُ نقلاً عن كتاب خريدة القصر لعماد الـدين وعن نكت العميان لخليل بن ايبك الصفدي وعن تاريخ ابن تغري بردي. فمنهُ (من الخفيف) :

يا خليليَّ خلّياني ووجدي فكلامُ العذول(١ ما ليس يجدي
ودّعاني فقد دعـاني الى الحُكْم غريمُ الغرامـة اللّتِ عندي (٢
فعساهُ يرقُّ اذ ملَكَ الرقَّ م بنقدٍ من وصلهِ او بوعدِ
ثمَّ مَنْ ذا يُجير منـهُ اذا جـار ومَنْ ذا على تعدّيهِ يُعدي

وقال في وصف المُدامة (من الطويل) :

وكأسٍ كساها الحسنُ ثوبَ ملاءةٍ فحازتْ ضياءً مُشرقاً يُشبهُ الشمسا
اضاءت على كفّ المُدير وما درى وقد دَجتِ الظلماءُ أصبحَ ام أمسى

ومن شعرهِ ايضاً (من السريع) :

يا هنـدُ رِقّي لفتىً مُدْنفٍ يَحسنُ فيهِ طلبُ الأجرِ
يرعى نجومَ الليل حتى يرى حلَّ عُراهـا بيدِ الفجرِ

١) ويروى : فلام العذول
٢) ويروى : غريم الغرام للذي عندي . واللّتِ بدل اللتي لضرورة الوزن

ضاق نطاقُ الصبر عن قلبهِ عنـد اتّساع الخرْق في الهَجْرِ

وهو القائل (من الوافر) :

اقول للائمي في حبّ ليلي وقـد ساوى نهـارٌ منهُ ليلا
أَقِـلَّ فما أَقلَّتْ قطُّ أرضٌ مُحبّاً جرّ في الهِجْران ذَيْلا

وقال في الشوق ووصف الخمرة (من الطويل) :

أَحِنُّ الى روضِ التَّصابي وأرتاحُ وأَمتَحُ من حوضِ التصافي وامتاحُ
واشتاقُ رِئْماً كلَّما رُمتُ صيدَهُ تَصُدُّ يدي(١ عنهُ سيوفٌ وارماحُ
غَزالٌ اذا ما لاح او فاح نشرُهُ تُعَذَّبُ ارواحٌ وتَعْـذُبُ ارواحُ
بنَفْسي وان عَزَّتْ واهلي اهلُهُ لها غُرَرٌ في الْحسْن تبدو وأوضاحُ
نجومٌ اعاروا النورَ للبدر عندما اغاروا على سِربِ الملاحة واجتاحوا
فتَتَّضحُ الأَعذارُ فيهم اذا بدَوْا ويفتضحُ الاخوان(٢ فيهم اذا لاحوا
وكَرْخيَّةٍ عذراء يُعْذِرُ حبُّها ومن زَنَّدها في الدهر تُقْدَحُ افراحُ(٣
اذا جُليَتْ في الكأس والليلُ ما انجلى تقابلَ إِصباحٌ لدَيْكَ ومِصْباحُ
يطوفُ بها ساقٍ لسُوق جَمالهِ نَفاقٌ لإِفسادِ الهوى فيهِ إِصلاحُ
بهِ عجمةٌ(٤ في اللفظ تُغْري بوصلهِ وان كان منهُ في القطيعة إِفصاحُ
وغُرَّتهُ صبحٌ وطُرَّتهُ دُجى ومَلبَسُهُ دُرٌّ ورِيقتُـهُ راحُ

١) ويروى: تَصدَّى يُرى
٢) ويروى : ويفتضحُ اللاحون
٣) ويروى : يغذرُ . . . ومن دَنّها . . تُقدح اقداح. واراد بالكرخ خمر كَرْخ بغداد
٤) ويروى : لهُ عجمةٌ

أباح دمي مذ بُحتُ في الحبّ باسمهِ ... وبالشجو من قبلي المحبّون قد باحوا

وأوعدني بالسوء ظلماً ولم يكن ... لإشكال ما يُفضي الى الضَّيم ايضاحُ

وكيف اخافُ الضَّيم او احذرُ الرَّدى ... وغوثي على الايام أبلجُ وضَّاحُ

وظِلُّ نظام الملك للكَسْر جابرٌ ... وللضرّ منّاعٌ وللخير منّاحُ

وله ايضاً (من الطويل) :

واني لَصبٌّ بالصَّبا مذ غداتها ... هبوبٌ بهاتيك الخيام يجولُ

ومن عجَبٍ ان أبتغي من نسيمها ... شفاء عليلٍ والنسيمُ عليلُ

ولهُ في خريدة القصر من نسخة ليدن ابياتٌ اخرى منها دالية بديعة لم يسمح لنا الزمان بنسخها. امّا ترسُّلهُ فقد ورد منهُ مثال في تاريخ المجدل لابن ماري (ص١٣٣–١٣٥) وذلك نسخةُ من انشاء عهدٍ كتبهُ باسم الخليفة القائم بامر الله لجاثليق النساطرة القطرك عبديشوع نذكر منهُ بعض فقراتهِ كمثال من انشاء ابن الموصلايا.

بسم الله الرحمن الرحيم توكلت على الله وحده

«هذا كتابٌ امر بكتبتهِ عبدالله ابوجعفر الامام القائم بامرالله تعالى «اعتضادي بالله» لعبد يشوع الجاثليق القطرك. امّا بعد فالحمد لله الواحد بغير ثانٍ ، القديم لا عن وجود زمان ، الذي قصرَتْ صيغة الاوهام عن ادراكهِ ، ونضلت صفة الافهام عن بلوغ يدى (مدى) صفاتهِ . . . ليس كمثلهِ شيء وهو السميع البصير»

الى ان قال :

«الحمد لله الذي استخلص امير المؤمنين من ازكى الدرجة والارومة واحلّت (واحلّهُ) من عزّ الامانة ذروةً من المجد منيعةً غير مروه (غير مَرُومة)» . . .

«ولمّا أنهي الى حضرة امير المؤمنين تميزك من نظرائك ، وتحلّيك من السداد بما يستوجبُ معهُ من امثالك البالغة في وصفك واطرائك ، وتخصصك بالانحاء التي فُت

فيها ساو (شأو) اقرانك ، وأفدتَ بها ما قصَّر معهُ مُساجلُك من ابناء جنسك ان يعدلك في ميزانك ، وما عليك (عليه) نِحلتُك من حاجتهم الى جاثليق كافل بامورهم ، كافٍ في سياسة جمهورهم ... فلم يصادفوا من هو بالرئاسة عليهم احقّ واحرى ، وللشروط الموجبة للمقدَّم فيهم اجمع واحوى ، وعن اموال وقوفهم اعفّ واورع ، ومن نفسهِ لداعي التحرّي فيها أتبع ومنك اطوع ، فأصاروك لهم راعياً ، ولتشييد نظامهم ملاحظاً واعياً ، وسألوا إمضاء نصبك عليهم ... فرأى امير المؤمنين الاجابة الى ما وجَّهتْ اليه فيهِ الرعيَّة ... مقتدياً فيما اسداهُ اليك ، واسناهُ من انعامهِ اديك ، بافعال الائمّة الماضين والخلفاء الراشدين ، صلوات الله عليهم اجمعين ، مع امثالك من الجثالقة الذين سبقوا ، وفي مقامك اتَّسقوا ، واوعز ترتيبك جاثليقاً لنسطور النصارى في مدينة السلام والاصقاع وزعيماً لهم وللروم واليعاقبة طُرًّا ولكل من تحويه ديارُ الاسلام من هاتين الطائفتين.... وان يُمضَى تثقيفك لهم وأَمرُك فيهم اسوةً بما جرى الامر عليهِ من كان قبلك بينهم ... فقابلْ نعمة امير المؤمنين عندك بما يستوجب من شكر يبلغ فيهِ المدى الاقصى ....

«عُرض هذا المنشور بحضرة سيّدنا ومولانا الامام القائم بامر الله امير المؤمنين اعزّ الله انصارَهُ وضاعف اقتدارَهُ ، وأنفذَهُ وامضاهُ ، وشرَّفهُ بالعلامة الطاهرة على اعلاهُ ، فليُعتَمد وليُعمل بحسبهِ ومقتضاهُ ، ان شاء الله

٢٠ أبو نصر بن موصلايا

﴿ اسمهُ وزمانهُ ﴾ هو تاج الرؤساء ابو نصر هبة الله ابن صاحب الخبر حسن ابن عليّ ابن اخت امين الدولة السابق ذكرهُ . كان مولدهُ سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٦م) «توفّي على ما رواهُ عماد الدين الاصبهاني في خريدة القصر وابن خلكان في تراجمهِ (ص ٥٤٠) في عشيّة الاثنين حادي عشر جمادى الاولى سنة ٤٩٨ ببغداد (اوائل شباط ١١٠٥) ولهُ سبعون سنة وبين موتهِ وموت خالهِ سنة إلّا عشرة أيام (هلاليّة)

﴿ دينهُ ﴾ كان ابو نصر كخالهِ امين الدولة نصرانيًّا من النِحلة النسطوريّة وبقي على نصرانيّتهِ الى السنة ٥٦ من عمرهِ فأسلم مُكرهاً مع خالهِ كما مرّ . قال

الشيخ خليل بن ايبك الصفدي: « لمّا رسم الخليفة المقتدي في رابع صفر سنة ٤٨٤ إلزام اهل الذمّة الغيارَ والتزام ما شرَطهُ عليهم عمر بن الخطّاب (١ فهربوا كلّ مهرب واسلم ابو غالب الاصباغي وابن موصلايا صاحب ديوان الانشاء وابن اختـهِ ابن صاحب الخبر على يد الخليفة »

﴿ آدابهُ واخبارهُ ﴾ قال عماد الدولة الاصبهاني :

ربّى ابا نصر خالهُ فكتب بين يديهِ في ديوان الانشاء في الايام القائميّة والمقتديّة والمستظهريّة وأسلم مع خالهِ على يد الامام المقتدي . وكان لمّا أضرَّ خالهُ يكتب عنهُ ما جرت بهِ العـادة من الإنشاءات . فلما توفي خالهُ رُدَّ ديوان الانشاء اليهِ في الأيّام المستظهريّة . وخرج في الرسالة الى السلاطين مرارًا . وعاد من الرسالة الى بركيارق (٢ بعد موتهِ الى بنداد . . . وكان لا يقاربهُ احد في الانشاء والعبارة ولم يكتب كتاباً قطّ فرجع فيه الى مبيضّهِ »

وقد ذكرهُ ابن تغري بردي (٣ : ٣٠٤) بعـد ذكرهِ فتح الفرنج لانطاكية وانتصارهم على جيش الامراء المسلمين قال :

« كتب دقاق ورضوان (٣ والامراء الى الخليفة المستظهر العبّاسي يستظهرونهم . فاخرج الخليفة ابا نصر بن الموصلايا الى السلطان بركيارق ابن السلطان ملكشاه السلجوقيّ يستنجدهُ »

وقد ذكرهُ ابن الاثير في الكامل في تاريخ سنة ٤٩٥هـ (١١٠٢م)

« في هذه السنة في ربيع الاوّل (كـ ٢ ١١٠١م) خرج تاج الرؤساء ابن اخت امين الدولة ابن سعد بن موصلايا الى الحلّة السيفيّة مستجيرًا بسيف الدولة صدقة . وسبب ذلك ان الوزير الاعزّ وزير السلطان بركيارق كان ينسب اليهِ انهُ هو الذي يُميل جانب الخليفة الى سلطـان محمد . فسار خائفاً واعتزل خالهُ امين الدولة الديوان وجلس في دارهِ . فلما قُتل الوزير الاعزّ على ما ذكرنا عاد تاج الرؤساء من الحلّة الى بنداد وعاد خالهُ الى منصبهِ »

وقال في تاريخ سنة ٤٩٧هـ (١١٠٤م) :

« ولمّا مات امين الدولة خُلع على ابن اختهِ ابي نصر ولُقّب نظام الحضرتَين وقُلّد ديوان الانشاء »

وقال في تاريخ ٤٩٨هـ (١١٠٥م) :

« وفيها توفي ابو نصر ابن اخت ابن الموصلايا وكان كاتباً للخليفة جيد الكتابة وكان عمره

---

١) ما يُنسب هنا لعُمَر في الزام اهل الذمّة الغيار لا يثبتهُ التاريخ الصحيح

٢) بركيارق ومحمّد هما ابنا السلطان ملكشاه السلجوقي الذي استولى على بنداد فتنازع الملكَ بعدهُ ولداهُ ٣) كان دقاق صاحب دمشق ورضوان صاحب حلب

سبعين سنة. ولم يُخلف وارثاً لانه اسلم واهلهُ نصارى فلم يرثوهُ وكان يُبخَّل الَّا انهُ كان كثير الصدقة »

ووصفهُ ابن خلكان في ترجمة خاله قال :

«كان تاج الرؤساء ابو نصر فاضلًا لهُ معرفة بالادب والبلاغة والخطّ الحسن وكان ذا رسائل جيدة وهي مدوَّنة ايضاً ومشهورة»

﴿ شعرهُ ﴾ روى لهُ عماد الدين الاصبهاني شعرًا (Ms de Leide 881, p. 45-46) قال ملغزًا في الخاتم (من الوافر) :

ومنكوحٍ اذا ملكَتْهُ كفٌّ   وليس يكون في هذا مِراءُ
لهُ عين تخلّلها (١ ضياءٌ   فان كُحلت فبالميل العماءُ
وقد اوضحتُهُ وأبنتُ عنهُ   ففسِّرهُ فقد بَرِحَ الخفاءُ

ولهُ في دالية الماء (اي الناعورة) (من السريع) :

ومَيْتةٍ فيها حَراكٌ اذا   قامت على مِنبرها خاطِبَهْ
ساعيةً في غير منفوعها   فهي اذًا عاملةٌ ناصبهْ
ان وُطئت تَحمِل من وقتها   حين تُرَى مجذوبةً جاذِبَهْ
تَمدّ غرثاها بريٍّ اذا   اضحت بروقُ للحيا كاذِبَهْ (٢

هذا ما امكنّا الحصول عليهِ من اخبار ابنَيْ موصلايا . وقد ورد ذكر كاتب آخر بهذا الاسم وهو « ابو علي بن الموصلايا» جاء ذكرهُ في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة قال عنهُ (١ : ٢٣٢) انهُ كان كاتباً للوزير ابي قاسم المغربي . وذكرهُ ابن بطلان في رحلتهِ التي روينا منها قسماً انَّ من جملة المتوفّين بالطاعون في اواسط القرن

١) ويروى : تخلّلها

٢) قال في شرحها اي انها اذا قامت على حائطها صارت ذات حركة واذ وُطئت بالارجل تحمل من وقتها بالماء وقلائدها الحبال المعلّقة بها . والحيَا المطر

الخـامس للهجرة كان ابو علي بن الموصلايا من متقدّمي علوم الادب والكتابة .
فيكون سبق عهد امين الدولة وتاج الرؤساء وهو من اسرتهما في بغداد

٢١-٢٢ ابو غالب وابو طاهر ابنا الاصباغي

﴿ اخبارهما ودينهما ﴾ هما اخوان نصرانيّان من كتبة ديوان الانشاء للخلفاء كانا معاصرَين لابنَيْ الموصلايا اضطُرَّا مثلهما الى الإسلام لينجوَا من تذليل النصارى كما مرَّ سابقاً . امّا اخبارهما فلم نجدها في غير خريدة القصر لعماد الدين الاصفهاني نقلناها عن نُسَخ لندن (British Museum, Ms. 1096, ff. 40-46) وباريس (Paris, Ms. 3326, f. 7) وليدن (Leide, Ms. 881, p. 46-49) قال الاصفهاني عن ابي غالب :

« هو تاج الرؤساء ابو غالب بن الاصباغي الكاتب كتب بديوان الذمـام (١ في بعض الايّام المستظهرية وناب عن ديوان الذمام في ايّام المقتدي . ولهُ تصنيف في علم الكتابة . وجماعة الحسّاب وكتّاب العراق يكتبون الحساب على طريقته . وأسلم في صفر سنة ٤٨٤ (١٠٩١ م) قبل اسلام ابني موصلايا يوم حيث خرج التوقيع الشريف بإلزام اهل الذمّة بالغيار وكان من بركات ذلك اسلامهم (كذا) »

وقال عن ابي طاهر : « ابو طاهر بن الاصباغي اخوهُ كان يخدم عفيفاً القائمي (٢ وانصرف عن خدمته فبلغهُ انهُ تهدَّدهُ وكان عفيف قد بنى دارًا وانفق على سقفها في التذهيب اكثر من خمسة آلاف دينـار فعمل فيه ابو طاهر ابياتـاً غاظتهُ فتهدَّد ابا طاهر . ولم يذكر العماد إسلام ابي طاهر

﴿ شعرهما ﴾ روى العماد الاصفهانيّ لابي غالب قولهُ يصف الخمرة وفعلهـا في شاربها (من الكامل) :

عقرَتهمُ معقورةٌ لو سالَمتْ ... شُرَّابَها مـا سُمِّيَتْ بعُقارِ
ذكرت طوائلَها القديمةَ اذ غدَتْ ... صَرعَى تُداسُ بأرْجلِ العصّارِ

١) روى في احدى النسخ : ديوان الزمام وفي نسخة اخرى : ديوان الزمام بالزاي
٢) يريد احد الامراء الذين في خدمة القائم بامر الله الخليفة العباسي

لانَتْ لهم حتى انتشَوْا وتمكَّنتْ منهم فصاحَتْ فيهم بالثارِ

وقال ملغزاً في القمر (من السريع) :

مُقامرٌ مذ كان لم يُقمَرِ كأنّما يلعبُ بالسُّدَّرِ
يعشقهُ الناسُ على جوْرهِ والجورُ ممقوتٌ على الأكثرِ
شبابُهُ المرموقُ في شَيبهِ وشيبهُ مذ كان لم يخطرِ
يدلُّ في البيع ولكنّهُ يميل احياناً مع المشتري
حديثهُ مع انهُ صامتٌ يَهيجُ من شقشَقة السُّمَّرِ(١)

وروى لابي طاهر الابيات التي ذكر فيها تزويق عفيف القائميّ لسقف دارهِ وتذهيبها قولهُ (من الطويل):

تنوّقْ وزوّقْ وادهُنِ السقفَ والعُمْرا فان تمَّ فاكتب تحت زنّاره سطرا
علوٌّ وإقبال ومجدٌ مؤثّلٌ لصاحبهِ حقّاً ومالكهِ دهرا
لمن عندهُ في الدار وجـهٌ مقدّرٌ على مثلِ هذا الوجه والأوجُه الأخرى
وهذا دعاءٌ أنت منهُ مبرّأٌ وكان اميرُ المؤمنين بهِ أحرى

قال فتطيّر عفيف منها ومات بعد شهر واخذ المقتدي السقف فكأنَّ الله أنطق ما في القدَر على لسانهِ

٢٣ ابن بابي

﴿زمانهُ ودينه واخباره﴾ هو احد كبار الكتّاب عاش في اواخر القرن الخامس

١) قال الشارح: سمّاهُ مقامراً لان اسمهُ فعل القمار. ولقّبهُ السُّدَّر (ويروى: الصَّدر) معروف وجورهُ علوهُ. وشبابهُ إبدارهُ. والمنجّمون ذكروا انَّ لهُ ميلاً مع المشتري. وحديثهُ دوام ضوئهِ

للهجرة واوائل السادس اعني في القرن الحادي عشر للمسيح. اصلهُ من بغـداد من نصارى النساطرة وانّما انتقل الى مدينة واسط التي كانت في ذلك العهد من حواضر العراق متوسّطة بين الكوفة والبصرة واشتهر بين ادبائها. وقد افادنا عن كل ذلـك عماد الدين الاصفهاني في تأليفهِ خريدة القصر وجريدة العصر قال : (Ms de Leide. 881, ff 163, Ms de Paris 3326 ff. 163v) «الرئيس ابو غالب نصر بن عيسى ابن بابي الواسطي النصراني توفي بعد الخمسمائة وكان من ظرفاء واسط واعيانها. ولهُ شعرٌ لطيف ونظم ظريف وعبارة مستعذَبة وكلمات مطربة معجبة. ولم أُدرك زمانهُ. انشدني لهُ الرئيس العلاء بن السوادي بواسط سنة ثلث وخمسين وخمسمائة (١١٥٨م) وذكر انهُ كان من بغداد واقام مدَّة عمرهِ بواسط»

﴿شعرهُ﴾ قال ابن السوادي انشدني ابو غالب ابن بابي النصراني الكاتب لنفسهِ (من مجزوء الكامل) :

وَعشِقتُ حتَّى ما أما   لُ وهِمتُ حتى ما أُفيقُ
وانا بـِـغَدْرِيِّ الصبـا   بةِ في الهوى نَسَبي عريقُ

(قال) وانشدني ايضاً ابو غالب لنفسهِ في جاريةٍ دخلت عليهِ يوم كسوف الشمس في لباسٍ اسود (من الكامل) :

عايَنتُ في حُلَلِ السوادِ خريدةً   مثلَ القضيبِ المائلِ الميَّاسِ
قلتُ: أَسَلْمى ماذا اللباسُ وغيرهُ   أدَّى الى الإبْهاج والايناسِ
قالت: فهذي الشمسُ أُختي عُوجِلَتْ   بالافتضاحِ في اعينِ الناسِ
طلعَتْ فشاكلتُ الضياءَ بطلعتي   ودَجَتْ فشاكلتُ الدُّجى بلباسي

(قال) وأنشدني ابن بابي لنفسهِ في بغداد سابع ربيع الاوَّل سنة سبع وخمسين (١١٦٢م) يصف غلاماً ورد من سفر شاحباً (من السريع) :

فـديتُ مَن أقبَـلَ من سَفرةٍ   فأقبلَتْ نفسي على أُنسها
وقلتُ اذ أبصرتُهُ شاحباً   قد خضَّبتْهُ الشمس من وَرْسها

ماكان عندي انَّ شمس الضُّحى تعملُ في الخَلق وفي نفسها

ولهُ في غلام رَمِدٍ (من البسيط) :

واهيَفٍ كقضيب البانِ مقلتُهُ تُنمَى اليها جفون الشادنِ الَخرِقِ
قالوا : تمكَّنَ من اجفانهِ رَمَدٌ ابدى محاجرَها في حلّة الشرَقِ
فقلتُ : بل وجهُهُ شمسٌ منوّرةٌ كسَتْ لواحِظَهُ من حمرةِ الشفَقِ

ولهُ في غلام خازنٍ (من المتقارب) :

أيا خازناً حافظاً للحفا ظِ أصبى الانامَ بوجهٍ مليحِ
لئنْ كنتَ تحفظُ مالي لقد أضعْتَ بهجركَ قلبي وروحي

وقال في غلام خيّاط (من الطويل) :

مررتُ بخيّاطٍ حكى البدرَ طلعةً وشاكلَ غُصنَ البانِ لمّا انثنى قدّا
يَقُدُّ ويَفري الثوب ثمَّ يَخيطهُ فَلِمْ ثوبُ قلبي لا يُخاط وقد قُدّا

وقال في صديقٍ نال رتبةً شريفةً فسها عنهُ (من الطويل) :

منَحْتُكَ صفوَ الودِّ اذ نحن جيرةٌ ومَوْرِدُنا في الأُنس جمُّ الجداولِ
وأمَّلتُ ما قدكان من رُتب العُلى فلا تُخدِ ثَنْ لي فيك زَهْوَ المُطاوِلِ
فانَّ الغصونَ الشامخاتِ تميلُها جَناها فتدنو من يد المُتناولِ

وقال في الشوق (من البسيط) :

عِطفاً سُعادُ فقد أوْدَى بيَ الكَمَدُ وخانَني صاحبايَ الصبرُ والجَلَدُ
وَعُدْتُ اطلبُ في تيّار حُبِّكُمُ شريعةً ارتقي فيها فلا أجِدُ
طَرْفي جنى وفؤادي فيكِ تابِعهُ فكيفَ خُصّ بأثواب الضَّنى الجسدُ

وقال في معناهُ وفيهِ لزوم ما لا يلزم (من مجزوّ الرمل):

كلَّ يومٍ لا أراكم ... هو عندي مثلُ حَوْلِ
فانا المُذنِبُ بالشو ... قِ ولا عُوّادَ حَوْلي
جُلُّ ما ألقاهُ فيكم ... أن أعانيهِ بحَوْلي(١

وقد وجدنا لهُ في مجموعةٍ مخطوطة عند المرحوم طنّوس افندي اصفر. قال ابو غالب الواسطي (ص ٤٩ من الكتاب) (من البسيط):

ما زلتُ أزجرُ قلبي عنكم ثقةً ... بأنَّ عِقدَكُمُ ما زال محلولا
فحلَّ بي عندكم ما كنتُ أحذرهُ ... ليَقضيَ اللهُ امرًا كان مفعولا

وقال يصف المُدام وساقيها (من الطويل):

وصافيةٍ صهباء من نسلِ كَرمةٍ ... منابتُها قد أعرقت في المكارمِ
يطوفُ بها ساقٍ أغرُّ كأنهُ ... هلالٌ تبدّى من مُتون الغَمائمِ
لَواحظُهُ وَقعُ الأسنَّةِ دُونها ... وألفاظُهُ سَلُّ السيوفِ الصوارمِ
وفي عارِضَيهِ للمُحبِّ مَعاذِرٌ ... بخطِّ عِذارٍ كفَّ غَربَ اللوائمِ

وقال في غلام (من المتقارب):

تَبسَّمَ عن بَرَدٍ ناصعٍ ... ولاحَظَ عن مُرهَفٍ قاطعِ
وحطَّ اللِثامَ فقُلنا الغَمامُ ... تجلّى عن القَمَرِ الطالعِ

ورُوي لهُ ايضاً هناك (ص ٤٨) قولهُ (من البسيط):

بِما بعينَيكَ من غُنجٍ ومن حَوَرٍ ... وما بخدَّيك من وَردٍ ومن زَهَرِ

١) الحَوْل في البيت الاوَّل السَّنة وفي الثالث القوَّة والجَلَد

وما بثغرِكَ من دُرٍّ ومن بَرَدٍ وما بهِ من رُضابٍ فائحٍ عطِرِ
وطُرَّةٍ طار لُبّي عند رؤيتها وغُرَّةٍ تركَتْ عيني على غَرَرِ
وحاجبٍ حجبَ السُّلوانَ عن فِكَري وعارضٍ عَرَضَ الاجفانَ للسَهَرِ
وقامةٍ قد أماتَتني على قدمٍ في مَعرَكِ الوَجْد والإطماعِ والحذَرِ
هَبْ لي أماناً من الهجْران انَّ لهُ كاساً تجرَّعتُ منها علقمَ الصبِرِ

٢٤ ابن ابي سالم النصراني

﴿اصلهُ . دينهُ . اخبارهُ . وشعرهُ﴾ هو ايضاً احد الشعراء الذين ذكرهم عماد الدين الكاتب الاصفهاني في كتابهِ خريدة العصر وجريدة القصر (Ms de Paris 1414, ff. 192, Ms de Leide, 881) قال في نسبهِ: « هو الرئيس ابو الحسن عيسى بن الفضل النصراني المعروف بابن ابي سالم» ثمّ ذكر زمانهُ وقد ادركهُ العماد في شيخوختهِ ورآهُ في اواسط القرن السادس للهجرة كشيخ بهيّ ولم يذكر سنة وفاته . وممّا يؤخذ من كلامهِ انهُ خدم بني مروان اصحاب ميّافارقين وبني بُوَيه . وهذا كلامهُ :

«الرئيس ابو الحسن عيسى بن الفضل النصراني المعروف بابن ابي سالم وكان شيخاً بهيًّا . ولما حلّ والدي (١ بالموصل سنة اثنتين واربعين وخمسمائة (١١٤٧ م) كان يزورنا ويعرض علينا العمّ الصدر الشهيد عزيز الدين اليهِ (٢ ولم اثبت لهُ شيئاً فسألت الآن

١) والد عماد الدين الكاتب يدعى صفيَّ الدين ابا الفرج محمّدًا

٢) قول العماد «العمّ عزيز الدين» يريد بهِ عمّهُ ابا نصر احمد الاصبهاني المستوفي وبه عُرف هو بابن اخي العزيز . قال ابن خلكان (ص ٨٩) كان العزيز رئيساً كبير القدر ولي المناصب العليّة في الدولة السلجوقية ولم يزل مقدَّمًا فيها . قصدهُ بنو الحاجات ومدحهُ الشعراء واحسن جوائزهم . . . وكان ابن اخيهِ العماد يفتخر بهِ كثيرًا . قتلهُ السلطان سنجر بن ملكشاهُ سنة ٥٢٥ وقيل ٥٢٦ ه (١١٣٠م)

الشاتانيّ (١ فقال : هذا من بيت كبير ابوهُ كان وزير بني مروان بميافارقين (٢ وامهُ يقال لها الستّ الرحيمة قال لها نظام المُلك (٣ : أنتِ الستّ الرحيمة ؟ قالت : بل الأَمة المرحومة . وكان (ابن ابي سالم) مشهورًا بين ارباب الدولة ولهُ اشعار غثّة وسمينة واهية ومتينة وقد وازنَ الامير تميم بن المعزّ المصري (٤ في قوله :

أَسِرْبُ مَهاً عنَّ ام سِرْبُ جِنَّهْ حكَيْتُنَّهُنَّ ولَسْتُنَّ هُنَّهْ

بقصيدة اوّلها (من الطويل) :

لقد عَذُبَ الماءُ من رِيقِهِنَّهْ وطابَ الهواءُ بأنفاسِهِنَّهْ

ولهُ الى بهاء الدولة (٥ صاحبَ شاتان (٦ وقد سافر الى حصن زياد (٧ (من الطويل) :

١) الشاتاني هو علم الدين ابو علي حسن بن سعيد ولد في شاتان بلدة في نواحي ديار بكر سنة ٥١٣ ﻫ (١١١٩م) وتوفي في شعبان سنة ٥٧٩ ﻫ (١١٨٣م) كان اديبًا شاعرًا سكن بغداد ومدحهُ العلماء . وكان قدم دمشق وعقد لهُ فيها مجلس وعظ سنة ٥٣١ (١١٣٧م) وقدم على صلاح الدين أيوب في مصر سنة ٥٧٣ (١١٧٧م) فاكرم مثواهُ

٢) بنو مروان المذكورون هنا يُنسبون الى ابي عليّ بن مروان الكردي تولى بعد ان قُتل باد خالهُ سنة ٣٨٠ ﻫ (٩٩٠م) على ديار بكر وعلى المدن اللاحقة بها كآمد وارزن الروم وميافارقين وحصن كيفا ومضى الى مصر فقلّدهُ الخليفة العلوي المعزّ لدين الله ولاية حلب وكانت وفاتهُ سنة ٣٨٧ ﻫ (٩٩٧م) قتلهُ اهل آمد فخلفهُ اخواهُ ممهّد الدولة ابو منصور (٣٨٧-٤٠٢) ثم نصر الدولة ابو نصر احمد (٤٠٢-٤٥٣) ثم ابنا نصر سعيد ونصر (٤٥٣-٤٧٢) واخرهم منصور ابن نصر بن احمد فاستولى على دولته سنة ٤٧٨ فخر الدولة بن جهير (١٠٨٥ م)

٣) نظام الملك هو ابو علي الحسن كان اصله من طوس . اتّصل بألب ارسلان بن داود بن ميكائيل السلجوقي فخدمهُ بصفة وزيره فعزّ شأنهُ وبنى المدارس والمساجد . قال ابن خلكان هو اوّل من انشأ المدارس فاقتدى بهِ الناس واليهِ تنسب المدرسة النظاميّة في بغداد سنة ٤٥٧ (١٠٦٥م) قتلهُ صبيّ ديلمي سنة ٤٨٥ في ١٢ رمضان (١٠٩٢م)

٤) يريد ابا علي تميم بن المعزّ . كان ابوهُ صاحب الديار المصريّة والمغرب وهو الذي بنى القاهرة المُعزّية . لم يملك ابنهُ تميم بعدهُ لانّ ولاية العهد كانت لاخيهِ العزيز وكان هو شاعرًا ماهرًا لطيفًا ورد ذكرهُ في كتاب اليتيمة للثعالبي مع كثير من مقاطيع شعرهِ (١ : ٣٠٥-٣٤٥) توفي تميم سنة ٣٧٤ ﻫ وكان مولدهُ ٣٣٧ ﻫ (٩٤٨-٩٨٤م)

٥) هو بهاء الدولة ابو نصر بن عضد الدولة بن بُوَيه ملك العراق توفي سنة ٤٠٣ ﻫ (١٠١٢ م) ٦) شاتان قلعة في ديار بكر

٧) قال ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٢٧٦) : « حصن زياد بارض ارمينية ويعرف اليوم بخرتبرت وهو بين آمد وملطية وهو الى مَلَطْيَة اقرب »

تكونُ بمُفارقينَ ووُحشتي تزيدُ لِنأيٍ عنكمُ وبِعادي
فكيف احتيالي والمهامهُ بيننا تحولُ واطوادٌ لحصنٍ زِيادِ

هذا ما رواهُ العماد الاصفهاني ولم نقف على ذكر ابن ابي سالم في غير العماد كما انهُ لم يعرّف سنة وفاتهِ

٢٥ ابو الفتح بن صاعد

﴿اسمهُ ودينهُ وشعرهُ﴾ هو ايضاً من شعراء بغداد الذين ورد ذكرهم في خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني ومنهُ يُعرف زمانهُ انهُ كان في القرن السادس للهجرة والثاني عشر للمسيح وقد دعاهُ في كتابهِ (Ms de Leide, 881, f. 54r: Ms de Paris, 1447, ff. 54v) «جمال الرؤساء ابا الفتح بن صاعد النصراني». وقد وجدنا في مخطوط آخر من مكتبة ليدن في كتاب اخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء للملك المنصور صاحب حماة المتوفى سنة ٦١٧ﻫ (١٢٢٠) (Ms de Leide 884) ثمَّ في طبقات الشعراء لابن ابي اصيبعة (١ : ٢٧٥) انهُ يُدعى «جمال الرؤساء ابا الفتح هبة الله بن الفضل بن صاعد البغدادي»

ولم يُفدنا هؤلاء الكتبة شيئاً عن اخبار ابي الفتح إلّا انهم رووا لهُ قطعاً من شعرهِ . فمنها رواهُ العماد الكاتب قولهُ ملغزًا في وصف خيمةٍ (من الوافر) :

وذاتِ ذوائبٍ بيضٍ خوالٍ وليس بياضُها من فرطِ كِبْرِ
لها فرجٌ وليست ذاتَ بعلٍ يطاها الناسُ من عبدٍ وحُرِّ
وآذانٌ وليس تُصيخ سمعاً الى الداعي وليست ذات فَقْرِ
ويحملُ بطنُها عددًا كثيرًا ولم ترَ حاملًا شخصًا بظَهْرِ
ترى في ساقها قيدَيْ حديدٍ وكلٌّ منهما في عَرْضِ فِتْرِ
وتُنظَر اكثرَ الاوقاتِ حُبلَى وفي وقتِ الولادةِ ذاتَ طُهْرِ

فَفَسِّرْ ما ذكرتُ وكن مُبيناً لِما أَلغزتُ من معنًى وشِعْرِ

وروى لهُ صاحب اخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك قولهُ في غلام (من مجزوء الرَّمل):

زاد في حُسْن حبيبي ما بهِ زادَ الجنونُ
عارضٌ أنبتَهُ الحُسْـنُ لِترعاهُ العيونُ

وقال في العِذار (من المنسرح):

يلومُني في هواهُ قومٌ ما رأيهم في الهوى صحيحُ
فكيف أَسلو وقد بدا لي عذارُهُ الاخضرُ المليحُ

وقال في وصف غلام (من مجزوّ الخفيف):

يا لعَينٍ فسِحرُها جلَّ عن سِحرِ بابلِ
وجفونٍ قسِيُّها منعَت من تواصُلي
وعِذارٍ تقيمُ عُذ ريَ عند العواذلِ
تحت صُدغٍ مُبَلبلٍ زائدٍ في بلابلي
لا تسلّيتُ عن هوا هُ وان كان قاتلي

وقد جاء في كتاب طبقات الاطبَّاء لابن ابي اصيبعة انَّ امين الدولة ابا الحسن هبة الله المعروف بابن التلميذ الطبيب النصراني كتب الى المترجَم جمالِ الرؤساء ابي الفتح جواباً الابياتَ التالية (١: ٢٧٥):

ما نشرُ انفاسِ الرياض مريضةً عوَّادُها طلُّ النَّدى وقطارُ
بدميثةٍ مِيثاء حلَّى وجهَها وحبا عليها حنوةٌ وعرارُ

كفلَتْ بثروها مؤبدةً جا ... وكفى صداها جدولٌ مدرارُ
بكَتِ السماء فأضحكتْها مثلَما ... ابكي فتضحكُ بي الغداةَ نوارُ
واذا تعارضُها ذُكاءُ تشمّسَت ... فتمازَجَ النوّارُ والنوّارُ
مشَتِ الصّبا بفروعها مختالةً ... فصبا المشوقُ وغيرهُ استعبارُ
واذا تغنّى الطيرُ في أرجائها ... ابدى بلابلَ صدرِه التذكارُ
يومًا بأطيب من جوارك شاهدًا ... او غائبًا تدنو بك الاخبارُ

٢٦ ابن ابي الخير سلامة الدمشقي

﴿اصلهُ دينهُ زمانهُ﴾ هو ايضاً احد الشعراء النصارى الذين نظمهم في تراجمِ عماد الدين الكاتب الاصفهاني في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر. على انهُ لم يزد في تعريفهِ لهُ على سطرين فقال (Ms de Paris 1414, ff. 71v et Ms de Leiden, 245, n° 71): «هو ابو الحسن بن ابي الخير سلامة كان نصرانيًّا من اهل دمشق وكاتباً لتاج الملوك اخي الملك الناصر فيهِ ادب وذكاء»

فمن هذه الالفاظ القليلة يظهر اوّلًا اصلهُ فانّهُ من اهل دمشق. ثم دينهُ النصراني وزمانهُ اذ عاش في الفصل الثاني من القرن السادس للهجرة. يتقرّر ذلك من كونهِ كاتباً لتاج الملوك اخي الملك الناصر. ولكن من هو تاج الملوك ومن هو الملك الناصر؟ اذ لم يزد العماد في هويّتها وقد عُرف غيرهما بتاج الملوك وبالملك الناصر فبقينا مرتابين في امرهما الى ان تحقّقنا انّ تاج الملوك هذا هو اخو الملك الناصر يوسف بن أيوب الشهير بصلاح الدين فاتح الشام والجزيرة ومصر المولود سنة ٥٣٢ هـ والمتوفى سنة ٥٨٩ (١١٣٨_١١٩٣م) . وكان للسلطان صلاح الدين عدّة اخوة اشتهر منهم الملك العادل سيف الدين ابو بكر. وكان اصغر اخوتهِ تاجَ الملوك هذا واسمهُ تاج الملوك بوري تبع اخاهُ صلاحَ الدين لمّا خرج من مصر قاصداً فتح الشام والجزيرة. فبلغ الى الكرك وسار الى الحسى فاقرّ اخاهُ تاج الملوك على الناس وامرهُ بان يسير بهم يمنةً. ثمَّ لحقوا بالسلطان بعد اسبوع بالازرق وهو ماء في طريق حاجّ الشام وذلك في اوّل سنة ٥٧٨ (١١٨٢م) هذا ما رواهُ شهاب الدين المقدسي في كتاب الروضتين

ثم مشى في خدمة اخيهِ السلطان لفتح بلاد نور الدين زنكي وحاصر معهُ الموصل وكان صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود قال ابن شدَّاد في تاريخ صلاح الدين : «ونزل تاج الملوك بوري اخو صلاح الدين على باب العادي وجرى بينهم القتال ففُتحت الموصل . ثمَّ عاد السلطان الى حلب فحاصرها وفتحها في صفر سنة ٥٧٩ (١١٨٣م)». قال ابو الفداء في تاريخهِ : «وكان في جملة من قُتل على حلب تاج الملوك بوري بن ايوب اخو السلطان الناصر . وكان كريماً شجاعاً طُعن في ركبتهِ فانفكَّت فمات منها» . وقال ابن شدَّاد في سيرة صلاح الدين : وشقَّ امرُ موتهِ على السلطان وجلس للعزاء . . .

ففي خدمة تاج الملوك هذا كان ابن ابي الخير سلامة النصرانيّ كاتباً وكان مقيماً في دمشق وطنهِ كما يلوح من شعره

ولنا في تعريف زمانهِ انَّ عماد الكاتب ذكر تاريخ بعض شعرهِ في السنة ٥٧٢ (١١٧٦م) لكنَّهُ لم يذكر سنة وفاتهِ

﴿ادبهُ وشعرهُ﴾ رأيتَ في ما قالهُ عماد الكاتب انَّ ابا الحسن بن ابي الخير سلامة «كان فيهِ ادب وذكاء» ثمَّ روى لهُ عدَّة قِطَع شعريَّة فاتَّسع بروايتها على خلاف عادتهِ في وصف معظم الشعراء الذين ذكرهم . وبين قصائدهِ ما قالهُ في تاج الملوك سيّدهِ ومنها يتَّضح انَّهُ لم يكن فقط كاتباً بل كان شاعرًا ايضاً مقرَّباً من الملوك . ولعلَّهُ صنَّف ديواناً وقف عليهِ العماد الاصفهاني فنقل عنهُ المقاطيع المذكورة التي تشهد لهُ بحسن القريحة وسلامة الذوق . فممَّا نقلهُ قولهُ يمدح تاج الملوك من ابيات صنَّفها في زمن الربيع (من البسيط) :

تاجَ الملوك ادام اللهُ نِعمتَهُ ... أسخى البريَّةِ من عُجْمٍ ومن عَرَبِ
مولًى أياديهِ في ارضٍ يَحُلُّ بها ... أجدى واحسنُ آثارًا من السُّحُبِ
تفتَّحَ النَّورُ فيها من أناملهِ ... فتنجلي منهُ في أثوابهِ القُشُبِ
حتى ترى روضَها يحكي مواهبَهُ ... فالبعضُ من فضَّةٍ والبعض من ذَهَبِ

ولهُ من قصيدة بعث بها اليهِ في الربيع (من السريع) :

مولاي مجدُ الدين قد عاوَدَتْ ... دِمَشْقَ من بعدك أشجانُها

نَيْرَبُها (١ قد مات شوقاً الى م المولى وواديها ومَيْدانُها
مالت اليهِ في بساتينها من شدَّة الأشواق اغصانُها
وأقسمَتْ من بعدهِ لا صَحَا من لَوْعة الأشجانِ نَشْوانُها
ومَاسَ من اشواقهِ (٢ آسُها واهتزَّ اذ بانَ لهُ بانُها
وغنَّتِ الاطيارُ من شَجْوها واختلفت في الدَّوح الحانُها
واصفرَّ في الروضةِ مَنْثورُها من شوقهِ واخضرَّ رَيْحانُها
رَقْرَقَتِ الدمعَ عليهِ كما تَرَقْرَقَتْ بالماء غُدْرانُها
فلا خَلا يا خيرَ هذا الورى بُطنانُها منك وظُهْرانُها
تلك هي الجَنَّةُ لكنَّها مذ غِبْتَ عنها غابَ رِضْوانُها

(قال) ولهُ فيهِ وقد وعدَهُ بخلعةٍ (من البسيط) :

يا مَنْ لهُ الشكرُ بعد الله مفترَضٌ عليَّ ما عشتُ في سرّي وفي عَلَني
ان كان غيرُكَ لي مولًى أؤمّلهُ وأرْتجيهِ فكانت خِلْعتي كفني

(قال) ولهُ يقتضيهِ بالخلعة وقد عزم على السير الى العسكر المنصور (من المجتث) :

مولايَ جُدْ لي بوَعْدي من قَبْلِ سَيْرِ الركابِ
أَنْعِمْ عليَّ بثوبٍ تَرْبَحْ جزيلَ ثوابي
ثوبٌ تكامَلَ حُسناً كخُلْقك المستطابِ

---

١) قال ياقوت في معجم البلدان (٤: ٨٥٥) : « نيرب قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين انزه موضع رأيتهُ »

٢) في الاصل : اسواقهِ

كـأنهُ زمَنُ الوصلِ م في زمان الشبابِ
وفُوطَةٌ مِثـلُ شِعْري رقيقةٌ او شرابي
طويلةٌ مثلُ ليلي لمـاَّ جفـا أحبابي
كأنَّهـا رمَضـانٌ اذا اتى في آبِ

قال العماد: ومن محاسنهِ في تاج الملوك (من مجزوء الكامل) :

يا حبَّذا ابواهُ اذ ولداهُ من كرَمٍ وخيرِ
وكذاكَ قد يُستَخرَجُ م الدُّرُّ النفيس من البُحورِ
والشمسُ من انوارها يبدو سَنا القمر المنيرِ
ما زال منـذ فِطـامهِ في عقلِ مُكتهلٍ كبيرِ
مولًى حوى سِنَّ الأكا برِ وهو في سنّ الصغيرِ
ولقد رقَى درَجَ الأوا ئلِ وهو في الزمن الاخيرِ

وقال فيهِ ايضاً يستجديهِ (من الكامل) :

يا من يَعُمُّ سماحـهُ ونوالـهُ كرَماً كما عمَّ السحـابُ المُطِرُ
ويفوح ما بين الأنام ثنـاؤهُ فكأنهُ في كلّ حينٍ عنـبرُ
اني شَقِيتُ وفي ظِـلالـك أنعمُ ولقـد ظَمِئتُ وفي يمينك أبحرُ
ولقـد ذَلَلتُ وانتَ حصنٌ مانعٌ ولقـد ضللتُ وانت بـدرٌ نيّرُ
اغنى جـداكَ الناسَ الّا فـاتَني فالله يُغني من يشاء ويُفقرُ
فلئن نظرتَ اليَّ نظرة مُجمِلٍ فلأنت أولى بالجميل واجدَرُ

ثم قال عماد الدين صاحب الترجمة : ومدحني (اي ابن ابي الخير) وهي في حُسن

الفريدة في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين (وخمسمائة) (١١٧٧م) (من الكامل) :

أمُطيلَ عَذْلي في الهوى ومُفنِّدي هل انت من غيّ الصَّبابة مُرشدي
هيهاتِ ما هذا الكلامُ بزاجري فاْنقُص أبيتَ اللعنَ منهُ او زِدِ
انت الفداء ومَن يلومُ لشادنٍ انا في هواه مضلَّلٌ لا اهتدي
يجلو لعينك غرّةً في طُرّةٍ فيُريك احسنَ ابيضٍ في اسودِ
يسطو على عشّاقهِ من قدّهِ وجفونهِ بمثقَّفٍ ومهنَّدِ
قمرٌ يَظَلُّ الماء في وَجَناتهِ والنارُ بين ترقرقٍ وتوقُّدِ
ومن العجائب أنَّ نارًا خالطَتْ ماء وانَّ ضِرامَها لم يخمُدِ
وكذاك ماء الدمع إن تَنْضَحْ بهِ(١ نارَ الصبابة والأسى تتوقّدِ
فصَبابتي لمّا تَخِفّ وأدمعي لمّا تَجِفّ وزفرتي لم تَبرُدِ
كم بتُّ ارعى الفرقدَين كلاهما شغفاً بمن يرنو بعينَي فرقدِ
آليتُ ارقدُ في هواه ومن يكن ذا لوعةٍ وعَلاقة لم يرقُدِ
علَّ الليالي يكتسِبنَ بشاشةً يوماً فتُنجزَ بعد مَطْلٍ مَوْعِدي
ان رقَّ لي بعد القَساوة قلبُهُ فالماء يَقْطر من صِفاح الجَلْمدِ
فاجعلْ لِحاظك في محاسن وجههِ ان تستطعْ نظرًا اليهِ ورَدِّدِ
تنظر الى الانوار بين مُمسَّكٍ ومُثبَّجٍ ومُمرَّجسٍ ومورَّدِ
فكأنها نَوْرُ الربيع اذا بدا او حسنُ خطّ محمّدِ بن محمّدِ(٢
هذا عِماد الدين والدنيا معاً وملاذُ كلِّ مؤمّلٍ او مجتدي

١) ويُروى : أنضح ٢) هو اسم الممدوح عماد الدين الاصفهاني

هذا الذي ما أُغلقت ابوابُهُ   من دون مُستَجدٍ ولا مُستنجِدِ
هذا الذي أَحيا العُلوم واهلَهـا   بعد الرَّدى والعُرفُ إحياء الردي
وابانَ منها كلَّ نهجٍ دارسٍ   دَرْسَ الرسوم من الديار الرُّصدِ(١
بيضاء حسنٍ مـا دجَتْ الّا بدا   فأَضاء مثلَ الكوكبِ المتوقـدِ
لو عاش حينَئذٍ فرامَ تشبُّهاً   عبدُ الحميد(٢ بخطِّهِ لم يُحمَدِ
يَقِظٌ لهُ القلمانِ في انشائهِ   وحُسامهِ في مَصْدرٍ او مَوردِ
انْ حـاول الانشاء يوماً مـا فَيَا   تاهيك من دُرٍّ هنـاك منضَّدِ
ويُضمِّن اللفظَ البديع مَعانياً   اشهى من الماء الفرات الى الصَّدِي
وكأنَّ خطَّ حسامـهِ في طِرْسهِ   شَعرٌ تنمنَمَ في عوارضِ أغيَـدِ
لو قُلِّد الـدنيا كفاها وحدَهُ   في الحالتَينِ ولم يُردْ من مُسعِـدِ
واقام منتهضاً بكل عظيمةٍ   منهـا وقوَّم كلَّ مـا متأوِّدِ
هذا وامَّا الفقهُ فهو إمامُهُ   فبعلمهِ في الفقه كلُّ مُقتدي
فلوَ أنَّ اسعد عاش بعد وفاتهِ   يوماً فساجلَـهُ(٣ بهِ لم نسعدِ
واذا انبرى للشعر خلتَ قريضَهُ   اطواقَ درٍّ في نحور الخُرَّدِ
شعرٌ ترشّفُهُ النفوس كأَنَّهُ   لفظُ الحبيب مقرِّرًا للموعدِ
او طِيبُ وَصْلٍ بعد كُرْهِ قطيعةٍ   من ذي انبساط بعـد طول تحقُّدِ
واذا تفاخر بالأُروم مَعاشرٌ   فلهُ العـلاء عليهمُ بالمَحْتِدِ
مـا زال يخبرُ فضلُهُ بل نُبلُهُ   عن حسن شِيمتهِ وطيبِ المَوْلِدِ

١) ويروى: الصُّمَّدِ
٢) هو عبد الحميد ابو غالب صاحب الرسائل البليغة قتلهُ السفاح سنة ١٣٢ﻫ(٧٤٩م)
٣) وفي الاصل. فساحلهِ

جلَّ الذي اعطاكَ يا ابن محمَّدٍ ... في كلّ فضلٍ باهرٍ طولَ اليدِ
اقسمْتُ بالكرم الذي اوتيتَهُ ... لولاكَ ما اتَّضحَتْ سبيلُ السؤددِ

وقال عماد الدين: وكتب اليَّ ايضاً (من الطويل):

ألا قُلْ لمن ذمَّ الزمانَ جهالةً ... وعنَّفَهُ في ما جناهُ وفنّدا
دَعِ العجزَ وأنهَضْ غيرَ وانٍ الى امرئٍ ... يكُنْ لك فيما انت راجيهِ مُسْعِدا
فانَّك لم تبلغ من الدهر طائلًا ... فتَحْمَدَهُ حتى تزور محمَّدا
وانَّ عماد الدين امنعُ مَعْقِلٍ ... اذا ما رماكَ الدهرُ يوماً تعمَّدا
وأسيَرُ هذا الناس فضلًا وسؤددًا ... وأغزرُهم برًّا (١ وأكثرهم ندًى
تفرَّدَ إلَّا انَّهُ الناسُ كلُّهم ... وان كان في عَليائهِ قد تفرَّدا
مُعِزٌّ مُذِلٌّ مانحٌ مانعٌ معاً ... يُرجَّى ويُخشى واعدًا متوعّدًا
اذا ما رأى يوماً بإبعادهِ العِدى ... اقام لخوف الانتقام وأقعدا
جديرٌ بجِلِّ الامر أشكلَ حلُّهُ ... برأيٍ بهِ في كلّ عشواء يُهتَدَى
لهُ قلمٌ ما هزَّهُ في مُلِمَّةٍ ... من الدهر الّا هزَّ سيفاً مهنَّدا
اذا انسلَّ من بين الانامل خِلْتَهُ ... يُنظِّم في القِرطاس درًّا مبدَّدا
اذا ما رأى يوماً بعينٍ كَحيلةٍ ... رأيتَ لديهِ ناظرَ الرمح ارمدا
وان يَتحرَّكْ يَسكنِ الخطبُ فادحاً ... ويبيضُ وجهُ الرُّشد ان هو سُوِّدا
لأَنت عمادُ الدينِ أحسَنُ شيمةٍ ... واطيبُ هذا الناس اصلًا ومحتِدا
فلو جاز يوماً ان يُخلَّدَ سيّدٌ ... كريمٌ بما أسدي لكنتَ المخلَّدا

١) وفي نسخة : واعوزهم ندًا

ومما استحسنهُ لهُ العماد الاصفهاني قولهُ (من البسيط) :

يا حبّذا يومُنا والكاسُ ناظمةٌ نَظمَ الحُباب عليها شملُ احبابِ
ونحن بين أزهار تَحفُّ بانهـارِ م وما بين اقداحٍ وأكوابِ
والماءُ تلعبُ ارواحُ النسيم بهِ ما بين مـاضٍ وآتٍ ايَّ تَلْعابِ
كأنّـهُ زَرَدُ الزُّغف السوابغ أوْ نَقْشٌ لأطيارِ(١ او تفريك اثوابِ

وروى لهُ ايضاً في الشوق ووصف الربيع (من البسيط) :

سَلِ الحبيب الذي هام الفؤادُ بهِ هل يذكر العهد انَّ العهدَ مذكورُ
ايَّام نأخذُها صهباء صافيةً يُمسي الحزينُ لديهـا وهو مسرورُ
يَسْعى بها غصنُ بانٍ في كثيبٍ نقاً لـهُ على القوم ترديدٌ وتـكريرُ
اذا اتاكَ بكأسٍ خلتَها قبساً يَسْعى بهِ في ظـلام الليل مقرورُ
يُعطيكـهُ وهو ياقوتٌ ويأخذهُ اذا أشرتَ اليـهِ وهو بلّورُ
والارضُ قد نسجت ايدي الربيع لها وشياً تردَّت بهِ الآكامُ والقُورُ
فالتبرُ مجتمعٌ فيها ومفترقٌ والزهرُ منتظمٌ فيها ومنثورُ
كأنَّ منثورها والعين ترمقهُ دراهمٌ حين تبدو او دنانيرُ
ما شئتَ من منظرٍ في روضها نضرٍ كأنَّما نَوْرُهُ من حُسنهِ نورُ
تَظلُّ اطيارها تشدو بها طرباً اذا تبدَّت من الصبح التباشيرُ
من بلبلٍ كلَّما غنَّاكَ جاوبَهُ فيهـا هزارٌ وقُمْريٌّ وشُحرورُ
كأنَّما صوت ذي صَنجٍ يجاوبُه من ذاكَ نايٌ وذا بَمٌّ وذا زِيرُ

(١) وفي الاصل: نقش الطيار

٢٧ جرجس الانطاكي النصراني

(اخباره ودينه) هو ايضاً ممّن نظمهم العماد الاصبهاني في كتابه خريدة القصر وفريدة العصر (Paris, 1414 ff. 157 et 3330 ff. 157. Leide 881, n° 157) يدعى الفيلسوف الانطاكي النصراني وهو موصوف كفيلسوف وشاعر معاً . كان اصلهُ من انطاكية فرحل الى مصر ومارس فيها فنّ الطبابة واشتغل بالفلسفة . قال جمال الدين القفطي في تاريخ الحكماء (ص ١٥٧) : « جرجس الفيلسوف الانطاكي نزيل مصر يزعم انهُ قرأ على علماء بلدهِ واستوطن مصر وطبّب بها »

وهناك وجدهُ ابو الصلت امية بن عبد العزيز لمّا دخل مصر سنة ٥١٠ هـ (١١١٦م) وذكر في رسالتهِ المصريّة التي وصف فيها ما رآهُ في ديار مصر من هيئتها وآثارها ومَن اجتمع بهم من الاطباء والمنجمين والشعراء وغيرهم من اهل الادب (راجع ابن ابي اصيبعة ٢ : ٦٣)

ودونك ما قالهُ في جرجس الانطاكي كما رواهُ عنهُ جمال الدين القفطيّ في تاريخ الحكماء (ص ١٥٧) وابنُ ابي اصيبعة في طبقات الاطباء (٢ : ١٠٦) وابن العبري في مختصر تاريخ الدول (ص ٣٤٨) وكلهم نقلوا كلام ابي الصلت حيث يذكرهُ ويذكر معاداتهُ لطبيب يهودي مصري يدعى ابا الخير سلامة بن رحمون كان يتعاطى مثلهُ الطبابة والفلسفة فكان مولعاً بهجائهِ . وهذا ما كتبهُ ابو الصلت بحرفهِ الواحد قال :

« لمّا دخلتُ الى مصر في حدود سنة عشر وخمسمائة ادركتُ بها طبيباً انطاكيًّا يسمّى جرجيس ويلقَّب بالفيلسوف على نحو ما قيل في الغراب ابو البيضاء وللَّديغ سليم . وقد تفرَّغ للتولُّع بابي خير سلامة بن رحمون اليهودي الطبيب المصري و الازراء عليهِ . وكان يزوّرُ فصولاً طبيّة وفلسفيّة يبرزها في معارض الفاظ القوم وهي مُحال لا معنى لها فارغة لا فائدة فيها ثمَّ ينفذها الى من يسأل ابا الخير عن معانيها ويستوضحهُ اغراضها فيتكلّم ابو الخير عليها ويشرحها بزعمهِ دون تيقّظ ولا تحفُّظ باسترسال واستحجاز وقلّة اكتراث واهتبال (ويروى : واهمال) فيؤخذ (ويروى : فيوجد) فيها عنهُ ما يُضحك منهُ »

هذا ما قال ابو الصلت وفي قولهِ « انَّ جرجس الانطاكي لُقِّب بالفيلسوف على نحو ما يقال في الغراب ابو البيضاء وللديغ سليم » تهكُّم ظاهر كانهُ لُقّب بذلك على عكس المعنى وهو نوع من البديع . ولا نعرف شيئاً من اعمال جرجس المذكور لنتحقق صحّة قول ابي الصلت فيهِ

﴿شعرهُ﴾ لجرجس الانطاكي اقوال في الشعر حسنة وكلُّها في هجو ابي الخير الطبيب اليهودي المذكور . ويظهر من كلام ابي الصلت في حقّ ابي الخير انهُ لم يكن محققاً بل متشدِّقاً قال عنهُ (طبقات الاطباء ٢: ١٠٦) : « انهُ كان يكثر كلامهُ فيَضِلّ ويُسرع جوابهُ فيَزِلّ وكان مَثَلُهُ في عظيم ادّعائهِ وقصورهِ عن أيسَر ما هو متعاطيهِ كقول الشاعر :

يشمِّر للُّجِّ عن ساقهِ ويغمرهُ الموجُ في الساحلِ

او كما قال الآخر :

تمنّيتمُ مائتي فارسٍ فردَّكمُ فارسٌ واحدُ

وقال ابو الصلتُ : وأُنشدتُ لجرجس وهو احسن ما سمعتُهُ في هجو طبيب مشؤوم وانا متّهم لهُ فيهِ (من السريع) :

انَّ ابا الخيرِ على جهلهِ يخفُّ في كفّتهِ الفاضلُ

عليلُهُ المسكينُ من شؤمهِ في بحرِ هُلْكٍ ما لهُ ساحلُ

ثلاثةٌ تدخلُ في دفعةٍ طَلعَتُهُ والنعشُ والغاسِلُ

وقال ابو الصلت : ولبعضهم (يعني جرجس الانطاكي) فيهِ (من الخفيف) :

لابي الخير في العلا ج يدٌ ما تُقَصِّرُ

كلُّ مَن يستطبُّهُ بعد يومَين يُقبَرُ

والذي غابَ عنكمُ وشهِدناهُ أكثرُ

ولجرجس في هذا الطبيب (من الطويل) :

جُنونُ ابي خيرٍ جنونٌ بعينهِ وكلُّ جنونٍ عندهُ غايةُ العقلِ

خُذوهُ وغُلّوهُ وشُدُّوا وثاقَهُ فما عاقلٌ مَن يَشتهينَ بمُختَلِ

وقد كان يؤذي الناسَ بالقول وحدهُ فقد صار يؤذي الناسَ بالقول والفعلِ

وقد اردف عماد الدين ابياتاً في هذا المعنى ولم يذكر قائليها ولعلَّ منها ما هو لجرجس الانطاكي فمنها :

قُلْ للوبا انتَ وابنُ زُهرٍ قد جُزْتما الحدَّ في النكايَهْ

ترفَّقا بالورى قليلاً في واحدٍ منكما كفايَهْ

وقال آخر :

ما خطرَ النبضُ على بالهِ يوماً ولا يعرفُ ما الماء
بل ظنَّ انَّ الطبَّ دُرَّاعةٌ ولحيةٌ كالقُطْنِ بيضاء

وقال آخر في مثلهم :

وطبيبٍ مجرَّبٌ ما لهُ با م لنُجحٍ في كل ما يجرِّب عادَهْ
مرَّ يوماً على مريض فقلنا قُرِّعينا فقد رُزقتَ الشهادَهْ

٢٨ ابو الفرج يحيى ابن التِلميذ

﴿اصلهُ واخبارهُ ودينه﴾ هو الاجلُّ الحكَم معتمد الملك ابو الفرج يحيى بن صاعد بن يحيى بن التلميذ النصراني النسطوري. قال جمال الدين القفطي (ص ٣٦٤) : «كان طبيبَ الدولة العبَّاسيَّة في زمانهِ ويستشار برأيهِ ولهُ الفضل الوافر والادب الغزير والمعرفة الكاملة. واتَّفقت لهُ سعادة جدٍّ حتى كسب الاموال وعاش الى آخر عهد المستظهر بالله في حدود سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م)»

قال ابن ابي اصيبعة في طبقات الاطباء ١ : ٢٧٦) : كان معتنياً (ويروى : متعيّناً) في العلوم الحكميَّة ، متقناً للصناعة الطبيَّة ، متحلياً بالادب ، بالغاً فيهِ اعلى الرُّتب ، وكذلك كان لامين الدولة ابن التلميذ جماعة من الانساب ، كلٌّ منهم متعلّق بالفضائل والآداب ، وقد رأيتُ بخطّ الاجلّ معتمد الملك يحيى ابن التلميذ ما يدلُّ على فضلهِ ، وعلوّ قَدْرهِ ونُبلهِ ، وكان من المشايخ المشهورين في صناعة الطبّ ولهُ تلاميذ عدَّة

﴿شعرهُ﴾ لم يكن يحيى ابن التلميذ طبيباً نطاسياً فقط بل كان ايضاً شاعرًا مُجيدًا. قال الملك المنصور صاحب حماة (Ms Leide 884, p. 340) : «يحيى ابن التلميذ الحكيم كان يلقَّب معتمد الدولة وكان فاضلاً اديباً وديوان شعره مشهور». ومنهُ يتَّضح انَّ شعرهُ كان وافرًا حتى جُمع في ديوانٍ ولم نجد لهُ ذكرًا في احدى مكاتب حواضر البلاد ولا عند الخاصَّة والعامَّة. وانَّما ذكر لهُ الادباء عدَّة مقاطيع جمعناها في ما يلي. فمن شوقيَّاتهِ قولهُ نقلاً عن احدى مجموعات باريس (Paris, Ms 3412, ff. 32v) (من البسيط) :

اللهُ ابقاكَ للدنيـا وللدينِ ولا يُخلِيكَ من عزٍّ وتمكينِ
روحي بروحك ممزوجٌ ومتَّصلٌ وكلُّ عـارضةٍ تُؤذيك تُؤذيني

ولهُ فيها (ff. 35) : (من الخفيف) :

أنعِما بالوصل أيا الفرقـدانِ واسلَما من صروف هـذا الزمانِ
كم أشتَّ الفراقُ بين حبيبٍ وحبيبٍ وانتما تصحبـاني
وستُقضي اليكما عن قريبٍ نَوبـةُ البَين ثمَّ تفترقـانِ

وروى لهُ في هـذا المعنى صاحب الايضـاح على المفتاح (ص ١٤٨) (من السريع) :

بدا الينا أرَجُ القادمِ فبرَّد النُّلَّـة من هـائمِ (١
روَّح عن قلبي على نأيـهِ وقد يَلَذُّ الطَّيفُ للحالمِ

ورُوي لهُ في الغزل في طبقات الاطباء (من المتقارب) :

فراقُكَ عندي فراقُ الحياةِ فـلا تُجهزنَّ على مُدْنِفِ
عَلِقتُكَ كالنار في شَمْعها فما إن تُفارِقُ او تنطفي

ومن ظريف اقوالهِ قولهُ في دار جديدة بناها سيف الدولة صَدَقةُ وقعت فيهـا النار يوم فراغهِ من بنائها (من الكامل) :

يا بانياً دار العُلى مُتَلَهِياً (٢ لِتزيدَها شرفاً على الـكيوانِ
عَلِمَتْ بأنك انمـا شَيَّدْتَها للمجدِ والإفضالِ والإحسانِ
فتَقَت عوائدكَ الكرامَ وسابقَتْ تَستقبلُ الاضيافَ بالنيرانِ

---

١) رواية ابن ابي اصيبعة ١ : ٢٧٠ : من حائمِ
٢) ويروى : مليَّنها . وملأتها

وقال في المنى (من الكامل):

عَلِقَ الفؤادُ (١ على خُلوَ حبِّها عِلقَ الذُّبالةِ في حشا المصباح
لا يُستطاعُ الدهرَ فُرقةُ بينهم إلّا لحينِ تفرُّق الاشباحِ (٢

وقرأنا لهُ في بعض المجاميع المخطوطة في مكتبتنا الشرقيّة (من المنسرح):

إرْضَ لمن غابَ عنكَ بكبرهِ فذاكَ ذنبٌ عِقابُهُ فيهِ
لو لم ينَلْهُ من الجفاء سوى بُعدِكَ عنهُ لكان يكفيهِ

وقال في هلاك الظالم (من الخفيف):

واذا أنبتَ المُهيمنُ للنمل م جَناحاً أَعدَّها للتَّردّي
ولكلّ امرئٍ من الناس حدٌّ وهلاكُ الفتى جوازُ التعدّي

ولهُ ايضاً وفيهِ اشارة منطقيّة (من الكامل):

تَعِسَ القياسُ فللغرامِ قضيَّةٌ ليستْ على نَهجِ الحِجى تَنقادُ
منها بقاء الشَّوقِ وَهو بزَعْمهم عرَضٌ وتَفنى دونهُ الأجسادُ

وروى لهُ الدميري في حياة الحيوان (٢ : ٣٢) قولهُ في تشبيه السَّمك وضرر النسيم بها وهو يروى لهبة الله ابن التلميذ (من المتقارب):

لَبِسْنَ الجواشِنَ خوفَ الرَّدى عليهنَّ من فوقهنَّ الخُوَذْ
فلمَّا أُتيحَ لها أُهلِكت ببَرْدِ النسيمِ الذي يُستلَذْ

ومن هجوهِ ما قالهُ في مُعَنٍّ (الرجز):

---

١) و في طبقات الشعراء: قَلِقَ الفؤادُ . . .
٢) وروى: لا يستطيعُ الدهرُ . . . تبلُّجَ الإصباح

لنا مغنٍّ ان شدا تدفئنا ثلوجهُ
فموتنا خروجهُ (١ وبعثنا خروجهُ(٢

وليحيى ابن التلميذ عدَّة ألغاز بالشعر. من ذلك ما اخبر بهِ عليّ بن يوسف بن ابي المعالي سعد بن علي الحظيري قال: وجدتُ بخطّ الرجل الحكيم معتمد الملك يحيى ابن التلميذ لنفسهِ لغزًا في الابرة وخيطها (من الوافر):

وفاغرةٍ فماً في الرِجل منها ولكن لا تُسيغُ بهِ طعاما
ومُخطَفَةِ الحشا في الرأس منها لسانٌ لا تُطيق بهِ الكلاما
تصول بشوكة تبدو وسمٍّ (٣ وما مَن ذاقَهُ يَرِدُ الحِماما
تجرُّ وراءها ابدًا اسيرًا كما قادت يَدُ الحادي الزِماما
منيعًا ذا قوًى لكن تراهُ بقبضتها ذليلًا مُستضاما
فتُلفيهِ بحبسها مقيماً طِوالَ الدهر لا يأبى المُقاما
أيا عجباً لها سوداء خَلْقًا تُريك خلائقاً بيضاً كراما
غدت عُريانةً عن كلّ لُبسٍ وفاضِلُ ذَيْلها يكسو الأناما

وقال ملغزًا في قوس رواهُ عماد الدين في خريدتهِ (من الوافر):

وما ذو قامةٍ ذاتِ اعوجاجٍ يَئِنُّ وينحني عند الهِياجِ
لهُ المكرُ الخفيُّ مع التَمطّي كمَكرِ الراحِ في القدَحِ الزُجاجِ

١) خروج المغني ان يَمُدَّ صوتَهُ في الغناء ويُخرجهُ في الايقاع. يريد انهُ اذا فعل ذلك مات السامعون من قبح صوتهِ ٢) اي اذا خرج عادت الينا الحياة
٣) سمُّ الابرة خرمُها

وروى لهُ ابن منظور في نثار الازهار (ص ١٠٦) لغزًا في الظلّ (من الطويل):

وشيءٍ من الاجسام غيرِ مجسَّمٍ لهُ حركاتٌ تارةً وسكونُ
اذا بانتِ الانوارُ بانَ لناظري وامّا اذا بانت فليس يبينُ
يتمّ اوانُ كونهُ وفسادُهُ وفي وسْط مَخباهُ المُحاقُ يكونُ

وللشريف ابي العلاء محمّد بن الهبارية قصيدة مدح فيها يحيى ابن التلميذ وكان ابو العلاء قد اتاهُ الى اصبهان فحصَّل لهُ يحيى من الامراء والاكابر مالًا جزيلًا. وفيها يقول:

وجميعُ ما حصَّلتُهُ وجمعتهُ منهم وكنتُ لهُ بشعري كاسبا
نُعمى ابي الفرج بن صاعدٍ الذي ما زال عني في المكاسبِ نائبا
هو لا عدِمْتُ علاهُ حصَّل كلَّ ما أمَّلتُهُ ورمى فكنتُ الحالبا
يحيى بنُ صاعدِ بنِ يحيى لم يزل للمكرمات الى جنابي جانبا
ما زال يُنعشني نداهُ حاضرًا وينوبُ عني في المطالبِ غائبا
في باب سيف الدولة أبنِ جمالها وكذا نصير الدين كان مخاطبا
كاتبتُهُ بحوائجي وهززتُهُ فوجدتُهُ فيها الحسامَ القاضبا
ما زال يغرسني يداهُ ولم أزل بنداهُ ما بين البريّة خاطبا

ومنها:

لا زلتُ أثني بالذي اوليتَني وعلى المديح محافظًا ومواظبا
وبقيتَ لي ذُخرًا ودمتَ ممتَّعًا بالمجد للأبرادِ منهُ ساحبا
ثقةَ الخلافة سيّد الحكماء معتمدَ م الملوك الفيلسوفَ الكاتبا

فيستفاد من هذا المديح ما كان عليه يحيى ابن التلميذ من المنزلة العالية عند الخلفاء وكبار الدولة ثمّ قيامهُ بخدمة الادباء كابن الهباريّة واقامتهُ مدَّة في اصبهان. ويحيى ابن التلميذ هو جدُّ امين الدولة هبة الله الشهير بابن التلميذ الآتي ذكرهُ

٢٩ هبة الله ابن التلميذ

﴿اسمهُ ونسبهُ﴾ قال ابن ابي اصيبعة في طبقات الاطبَّاء (١ : ٢٥٩) : « هو الأَجلّ موفَّق الملك امين الدولة ابو الحسن هبة الله بن ابي العلاء (وفي تراجم الاعيان لابن خلكان (٢ : ٢٥٢) : بن ابي الغنائم صاعد بن ابرهيم (وفي ابن خلكان : صاعد بن هبة الله بن ابرهيم بن عليّ) بن التلميذ » . وقد لُقّب ايضاً بسلطان الحكماء كما روى عماد الدين الاصفهاني في الخريدة . وقال ابن ظافر الازديّ في بدائع البدائع (ص ٥٤) : « هو المعروف بابن التلميذ . وانَّما امُّهُ من بنات التلميذ فعُرف بذلك » . وقال جمال الدين القفطي في تاريخ الحكماء (ص ٣٤٠) : « وابن التلميذ هو جدُّهُ لأُمّهِ والحكيم معتمد الملك ابو الفرج يحيي هو ابن بنتهِ فنُسب اليهِ » وقال ابن ابي اصيبعة عن والد هبة الله : « وكان امين الدولة وهو ابو العلاء صاعد طبيباً فاضلًا مشهورًا » . وقال في محلّ آخر (١ : ٢٧٦) : « وكذلك ايضاً كان لامين الدولة ابن التلميذ جماعة من الانساب كلٌّ منهم متعلّق بالفضائل والآداب » . وزاد على قولهِ فيهِ : « واكثر اهلهِ كتَّاب » . وذكرهُ عمرو بن متى في اخبار فطاركة كرسيّ المشرق من كتاب المجدل (ص ١٠٣) ودعاهُ « بالطبيب الغياثي »

﴿زمانهُ ودينهُ﴾ كان اصل امين الدولة من بغداد . فيها كان مولدهُ نحو السنة ٤٧٤هـ (١٠٨١م) . قال ابن ابي اصيبعة (١ : ٢٦٤) : « وكانت وفاة امين الدولة ببغداد في ٢٨ من شهر ربيع الاوَّل سنة ٥٦٠ (شباط ١١٦٤) . امَّا عماد الاصفهاني فجعل وفاتهُ في صفر من تلك السنة . قال في خريدة القصر : « هلك ابن التلميذ الطبيب النصراني بصفر سنة ٥٦٠ هـ وقد ناهز المئة وعاش الى زماننا ورأيتهُ وهو شيخ . . . »

امَّا دينهُ النصراني فلا يشكّ فيهِ احدٌ . قال ابن ابي اصيبعة : « ومات نصرانيًّا » وقال عمرو بن متى في المجدل (ص ١٠٦) في ترجمة البطريرك ايشوعياب : « وفي ايامهِ توفي امين الدولة ابن التلميذ رضي الله عنهُ ودُفن في الصحن الداخلاني ببيعة العتيقة » ويتَّضح من ذلك انهُ كان نسطوريًّا . وقال ابن الازرق الفارقيّ في تاريخهِ : « مات ابن

التلميذ في عيد النصارى • وقال جمال الدين القفطي: توفي وذهنهُ بحالهِ

﴿اخبارهُ﴾ قال ابن ابي اصيبعة: «كان ابن التلميذ في اوّل امرهِ قد سافر الى العجم وبقي بها في الخدم سنين كثيرة» ثمَّ عاد الى بغداد. ولمَّا توفي يحيى بن التلميذ قام امين الدولة مقامه وهو ابن بنتهِ وخدم الخلفاء والملوك واتخذه الخليفة المقتفي بالله (٥٣٠—٥٥٥ هـ = ١١٣٦—١١٦٠ م) كطبيبهِ الخاصّ وجعل لهُ راتباً بدار القوارير فقطعهُ الوزير عون الدين بن هبيرة ولم يعلم الخليفة بقطعهِ حتى اشار الى ذلك ابن التلميذ اشارةً لطيفة اذ قال لهُ الخليفة يوماً: قد كبرتَ يا حكيم. فاجابه: «نعم يا مولانا وتكسَّرت قواريري: «فادرك الخليفة بعد البحث سرَّ جوابهِ وتقدَّم بردّ راتبهِ بدار القوارير عليهِ وزادهُ اقطاعاً آخر (تاريخ الحكماء ص ١٤١). وأُقيم ساعوراً اي رئيساً على البيمارستان الكبير في بغداد المعروف بالبيمارستان العضدي المنسوب الى عضد الدولة ابن بويه الى حين وفاتهِ. وخدم ابن التلميذ بعد وفاة المقتفي ابنهُ المستنجد. قال ابن ابي اصيبعة (١: ٣٦٢) كانت دار امين الدولة التي يسكنها في بغداد في سوق العطر ممَّا يلي بابهُ المجاور لباب الغربة من دار الخلافة المعظَّمة بالمشرعة النازلة الى شاطئ دجلة

﴿مقامهُ وعلومهُ وفضائلهُ﴾ قد اتَّسع الكتبة في وصف هبة الله بن التلميذ واطنبوا في فضلهِ قال عماد الدين الاصبهاني في الخريدة:

«هو مقصدُ العالم في علم الطبّ بقراطُ عصرهِ وجالينوس زمانهِ خُتم بهِ هذا العلم ولم يكن في الماضين من بلغ مداهُ في الطبّ. عُمّر ابن التلميذ طويلًا، وعاش نبيلاً جليلًا، ورأيتهُ وهو شيخ بهيّ المنظر حسن الرُّواء عذب المُجتلى والمُجتنى لطيف الروح ظريف الشخص بعيد الهم عالي الهمَّة ذكيّ الخاطر مُصيب الفكر حازم الرأي شيخ النصارى وقسّيسهم ورأسهم ورئيسهم»

ونقل ابن خلّكان (٢ : ٢٥٣) ما ورد عنهُ في كتاب نموذج الاعيان من شعراء الزمان فيمن أُدرك بالسماع او بالعيان:

«كان ابن التلميذ متفنّناً في العلوم ذا رأيٍ رصين، وعقل متين، طالت خدمتهُ للخلفاء والملوك، وكانت منادمتهُ احسن من التبر المسبوك، والدرّ في السلوك، اجتمعتُ بهِ مراراً في آخر عمرهِ، وكنتُ أُعجب في امرهِ، كيف حُرم الإسلام مع كمال فهمهِ، وغزارة عقلهِ وعلمهِ، والله يهدي من يشاء بفضله، ويُضلّ من يريد بحكمهِ، وكان اذا ترسّل استمالَ وسطا، وان نظم وقع بين ارباب النظم وسطاً»

ونقل ابن ابي اصيبعة عن موفّق الدين البغدادي في هبة الله ابن التلميذ ما يدلّ على مروءتهِ ونزاهتهِ وعظم نفسهِ قال :

«كان ابن التلميذ حسن العشرة كريم الاخلاق عنده سخاء ومروءة واعمال في الطب مشهورة وحدوس صائبة . . . قال ومن مروّتهِ انّ ظهر دارهِ كان يلي المدرسة النظاميّة فاذا مرض فقيه نقلهُ اليهِ وقام في مرضهِ عليهِ . فاذا أبلّ وهب لهُ دينارين فصرفهُ»

وممّا حكاهُ عبد اللطيف عن امين الدولة وكأنّهُ قد تجاوز في هذه الحكاية قال :

«وكان امين الدولة لا يقبل عطيّةً الّا من خليفة او سلطان فعرض لبعض الملوك النائية دارهُ مرضٌ مزمن فقيل لهُ : ليس لك الّا ابن التلميذ وهو لا يقصد احدًا . فقال : انا اتوجّه اليهِ . فلما وصل أفرَدَ لهُ ولغلمانهِ دورًا وأفاض عليهِ من الجرايات قدر الكفاية وابثَ مدّةً . فبرئ الملك وتوجّه الى بلادهِ وارسل اليهِ مع بعض التجّار اربعة آلاف درهم واربعة تخوت عتابيّ واربعة مماليك واربعة افراس . فامتنع من قبولها وقال : انّ عليّ يمينًا ان لا اقبل من احد شيئًا . فقال التاجر : هذا قدرٌ كبير . فقال : «انا لمّا حلفتُ لم أستثنِ» . واقام شهرًا يراودهُ وهو لا يزداد إلّا إباءً ونأيًا . فقال لهُ عند الوداع : ها انا اسافر ولا ارجع الى صاحبي واتمتّع بالمال فتُقلَّد مِنّتهُ وتفوتك منفعتهُ ولا يعلم احدٌ انك رددتهُ . فقال : ألستُ اعلم في نفسي اني لم أقبلهُ فنفسي تشرُفُ بذلك علمَ الناس او جهلوا »

وكان ابن التلميذ مع سموّ فضلهِ حسن السَّمت وافر الوقار كثير التواضع . وجرى لهُ مناقشات مع احد حكماء زمانهِ ابي البركات هبة الله بن علي بن ملكا وكان يهوديًا فاسلم وكان معروفًا بالصَّلَف والكبرياء على خلاف ابن التلميذ فقال البديع الاسطرلابيّ فيهما :

ابو الحسن الطبيب ومقتفيهِ ابو البركات في طرَفَيْ نقيضِ
فذاك من التواضُع في الثريَّا وهذا بالتكبُّر في الحضيضِ

ووصف ابو سعيد بن ابي سهل البغدادي ابن التلميذ فقال :

« رأيتُ امين الدولة ابن التلميذ فاجتمعتُ بهِ وكان شيخًا ربْع القامة عريض اللحية حلوَ الشمائل كثير النادرة (قال) وكان يحبُّ صناعة الموسيقى وكان يميل الى اهلها »

ولهُ اخبار كثيرة تدلُّ على براعتهِ في الطبّ رويناها سابقًا في المشرق(١

١) المشرق ٩[١٩٠٦] : ٧٨١

﴿آدابهُ وتآليفهُ﴾ ذكر شهاب الدين العمري سعة معارف ابن التلميذ في كتاب مسالك الابصار في اخبار ملوك الامصار (نسخة المكتبة الخديويَّة ص ٣٣٦) قال في طبقات الاطباء:

«ومنهم امين الدولة ابن التلميذ تفرَّد زمانهُ، وندَّ (وفقَ ؟) أقرانهُ، وبلغ بطبهِ مبالغ الأشراف، ووصل في فهمهِ حدَّ الإشراف. وكان يتكلَّم في مجالس الخلفاء منبسطاً، يتقدَّم في مجال السؤال للضعفاء متوسّطاً، لسابقة خدمهِ، وباسقة صُنعهِ في بيت الإمامة دون باقي خَدَمهِ، ولا تجلَّت بهِ شِيمةُ من مآثر، وحلَّت بأدبهِ مما لا يقدر عليهِ مكاثر، حتى كان يناظر جلَّة الفقهاء، وجملة اهل العلم سوى السفهاء، ويفرّس الادباء، ويفرش لمواطئ الاطبَّاء، ويضرب بقلمهِ عصا ابن البوَّاب، ويطرف طَرَفُ طرسهِ مُقْلة ابنِ مُقلة بفاضل الجلباب، وهو على دينهِ المخالف يكرهُ الصدور، ويجره جرَّة (كذا) البدور»

قال ابن ابي اصيبعة (١ : ٢٥٩): «كان ابن التلميذ جيّد الكتابة يكتبُ خطّاً منسوباً وقد رأيتُ كثيراً من خطّهِ وهو في غاية الحسن والصحَّة وكان خبيراً باللسان السرياني والفارسي متبحّراً في اللغة العربية... وكان يترسَّل ولهُ ترسّل كثير جيّد وقد رأيت لهُ من ذلك مجلدًا يحتوي على انشاء ومراسلات...» ثم ذكر (ص ٢٧٦) عدَّة تآليف صنّفها في الطبّ لا يزال بعضها في خزائن الكتب الشرقيَّة كاقراباذينه ورسالتهِ في الفصد والاقناع والمقرَّبات. وقد وجدنا لهُ في مكتبة الكلدان في دياربكر سنة ١٨٩٥ رسالة لطيفة في اثبات عقائد الدين المسيحي سنعود اليها ان شاء الله. ولهُ الرسالة الأمينيَّة كتبها الى ولدهِ وكان يُعرَف برضي الدولة ابي نصر قال ابن ابي اصيبعة (١ : ٢٦٠): «ولم يكن مدركاً لصناعة الطب وكان في سائر احوالهِ بعيدًا عمَّا كان عليه والدهُ» وقال (ص ٢٦٤):

«خلَّف ابن التلميذ نعماً كثيرة واموالاً جزيلة وكتباً لا نظير لها في الجودة فورث جميع ذلك ولدهُ وبقي مدَّةً ثمَّ انهُ خُنق في دهليز دارهِ وأُخذ مالهُ ونُقلت كتبهُ على اثني عشر جملاً الى دار المجد بن الصاحب وكان ابن امين الدولة قد اسلم قبل موتهِ»

﴿شعرهُ﴾ قال ابن ابي اصيبعة (١ : ٢٥٩): «ولابن التلميذ شعر مستظرف حسن المعاني إلَّا انهُ اكثر ما يوجد لهُ البيتان او الثلثة وامَّا القصائد فلم اجد لهُ منها الّا القليل». وقد نظمهُ العماد الاصبهاني في كتابهِ خريدة القصر في جملة الشعراء وقال عنهُ: «كان من اكبر كتَّاب النصارى لهُ ابيات افراد كلُّها فرائد وكلمات وافية رائقة، شافية شائقة» وقال صاحب كتاب اخبار الملوك ونزهة المالك والملوك في

طبقات الشعراء (Ms Leid, p. 427) فوصف نظمَهُ بقولهِ : «ان شعرهُ كثير المُلح » ودونك بعض ما وقفنا عليهِ من ذلك نفصّلهُ ابواباً

﴿ لهُ في المديح ﴾ مـا كتب بهِ في صدر رسالة الى جمال الدين ابي الفتح بن الفضل بن صاعد جواباً (من الكامل) :

ما نَشرُ أنفاسِ الرياضِ مريضةً   عُوَّادها ظِلُّ النَّدى وقِطارُ
كفلَتْ بثَرْوتها موَبدةً بها   وكَفى صداها جدولٌ مِـدرارُ
بكَتِ السماء فأضحَكتها مثلَ مـا   أَضحكَ فتضحكُ بي الغداةَ نَوارُ
واذا تُعـارضهـا ذكاء تَشعْشَعتْ   فتمازج الـنُّوَّارُ والـنُّوَّارُ
مشَتِ الصبا بفروعها مختـالةً   فَصبا المَشوق وغيرُهُ أَستعبـارُ
واذا تغنَّى الطـيرُ في ارجـائها   أَبدى بلابلَ صَدرِها التَّـذكارُ
يوماً بأطيبَ من جِوارِكَ شاهدًا   او غـائباً تَدنو بك الاخبـارُ

وكتب الى الوزير سعد الملك نصير الدين (من البسيط) :

لا زال جَدُّكَ بالاقبال موصولاَ   وَجدُّ ضِـدِّكَ بالاذْلالِ مَغلولا
ولا عَدِمتَ من الرحمانِ مَوْهبةً   تُعيـد رَبعَك بالعافين مـأهولا
فنعمَ مُنطـلِقُ الكفَّين انت اذا   أَضحي اللئيمُ عن المعروف مغلولا
تجودُ بالمال لم تسأل يداهُ وإن   تُسأَلْ فصاحتُهُ بَذَّ الورى قِيـلا
لا يستريحُ الى العِلّات معتذرًا   اذا الضَّنينُ رأى للبُخـل تأويلا
يبادر الجودَ سبقاً للسؤَّال يرى   تعجيلَهُ بعد بَذْل الوجه تأجيلا
لاغرو ان كُسِفَت شمسُ الضُّحَى وبدت   فأكثرَ الناسُ تقبيحاً وتهليلا
فأنت سيفُ غياث الدين أَغمَدَهُ   صَوناً وعاد على الاعداء مسلولا

فما يليق بغير السَّعْد مُسنَدُهُ وإن أعاروهُ إعظاماً وتبجيلا
فاسلَم على الدهر في نَعماء صافيةٍ من النوائب مرهوناً ومأمولا

ومن ظريف قولهِ في شريفٍ كان يتواضع (من الطويل):

تواضعَ كالبَدْر أُستنارَ لِناظِرٍ على صَفَحات الماء وهو رفيعُ
ومَنْ دونَهُ يسمو الى المجد صاعدًا سموَّ دُخانِ النار وهو وَضيعُ

وقال يمدح موفَّق الدين ابا طاهر الحسين بن محمَّد. وكان ابن التلميذ دخل مدينة ساوة واشتغل في خزانة كتبها التي اوقفها موفَّق الدين على المدينة (من المنسرح):

وُفِّقتَ للخير اذ عَمَّمتَ بهِ طُلَّابَهُ يا موفَّق الدينِ
أزلفتَ للناس جَنَّةً جمعتْ عيونَ فضلٍ أشهى من العينِ
فيها ثمارُ العقولِ دانيةٌ قطوفُها حُلوةُ الأفانينِ
لا زلتَ تسمو بكلِّ صالحةٍ بمُسْعِدَيْ قدرةٍ وتمكينِ
ويرحمُ اللهُ كلَّ مستمعٍ مُشيِّعٍ دعوتي بتأمينِ

ولهُ (في الشكر والتهانئ والهدايا) قال يشكر مستوفي الممالك العزيز ابا نصر ابن حامد (من الطويل):

لَعمرُ ابيك الخير ليس بواحدٍ من الناس إلَّا حامدًا لابن حامدِ
كأنَّهمُ دانوا الإلهَ بشكرهم علاهُ ولكن لا كشكر ابن صاعدِ
همُ خبَّروا عنهُ فأثنوا بصالحٍ وعندي بما أثنيتُ خيرَ المشاهدِ

ومن تهانئهِ قولهُ يهنئ بخلعةٍ (من الوافر):

لئنْ شرُفتْ مناسبُها وجلَّتْ لقد زُفَّتْ الى كُفْءٍ شريفِ

الى مَنْ زانها وأزْدان منهـا   كسالفةِ المَليحة والشُنوفِ

واهـدى الوزيرَ ابن صَدَقـة كتاب المحاضرات للراغب وكتب معهُ (من الكامل) :

لمَّا تعذَّر ان اكونَ ملازماً   لجنابِ مولانا الوزير الصاحبِ
ورغبتُ في ذكري بحضرة مجده   أذْكرتُهُ بمحاضرات الراغبِ

وكان ابو القاسم بن الفضل عتب على ابن التلميذ في امرٍ فاجابهُ خالعاً عليهِ قيصاً مصمتاً اسود وكان السواد من اعلام الدولة العبّاسيَّة (من الطويل) :

أُحبُّكَ في السوداء تَسحبُ ذيلَها   خطيباً ولكن لا بذكر مثالبي

وقال ايضاً يسترضيهِ (من الطويل) :

اتاني كتـابٌ لم يَزِدْني بصيرةً   بسؤْددِ مُهديها اليَّ وفضلهِ
فقلتُ وقد أَخجلتَني بابتدائهِ :   أَبى الفضلُ إلَّا ان يكون لاهلهِ

ولهُ ﴿في الرثاء﴾ قال في رئيسٍ مات في يومٍ ممطرٍ (من الكامل) :

كم ذا الوقوفُ على غُرورِ أماني   أَأَخذتَ من دنياكَ عِقْدَ أمانِ
هل عيشةٌ بعد الرِضا مَرضيَّةٌ   كلَّا ولو كانت خلودَ جِنانِ
انَّ السماء بفقدهِ لَحزينةٌ   فرياحُها نَفَسُ الكئيبِ العاني
الغيثُ أَدمُعُها وما برَقَتْ به   نارُ الجوى والرَّعدُ للإرْنانِ (١
لو ذاق فَقْدَكَ مَنْ يلوم على البكا   لَزَرى على التَّنسيم (٢ والسُّلوانِ

١) ويروى : للاحزان
٢) ويروى : على التبسم

تَبِعوكَ اذ صلّوا عليك ولم تزَلْ كالنَّجم تُهديها بكلّ مكانِ
لا يُبعدَنْك وما البعيدُ بمن نأى حيّاً ولكنَّ البعيدَ الداني

وقال يرثي صاحب الحلّة الامير سيف الدولة صدَقة بن منصور بن دبيس لمّا قُتل سنة ٥٠١هـ (١١٠٧م) في واقعة كانت بينهُ وبين عسكر السلطان محمّد شاه. وكان هذا الامير على ما وصفهُ ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (éd. Popper, vol. 2 p. 351) كريماً عفيفاً عن الفواحش وكانت دارهُ ببغداد حَرَماً للخائفين ولم يتزوّج غير امرأة واحدة وكانت سيرتهُ مشكورة وخصائلهُ محمودة ان سلم من مذهب اهل الحلّة فان اباهُ كان من كبار الرافضة. وهذا رثاء امين الدولة فيهِ (من الطويل):

لِيَبْكِ ابنَ منصورٍ عُفاةُ نوالهِ اذا عصفَت بالريح نَكباءُ حَرْجفُ
ويذكُرُهم مَنْ ردَّهم ببُؤسهِ فتًى كان يلقاهم ببِشْرٍ ويُسْعِفُ
ولمَّا سما فوق السماء بهمَّةٍ (١ يغضُّ لها طَرْفُ الحسودِ ويُطرِفُ
رمَتْهُ الليالي بل رمَتْنا برُزْئهِ كبدر الدُّجى في ليلة التِّمّ يُخسَفُ
عليكَ سلامٌ لا تزالُ قلوبنا على حزَنٍ ما هبَّتِ النيبُ (٢ توقفُ
ولا برِحَتْ عينُ السماء بوَبْلها على جدَثٍ واراكَ تَهمي وتَذرِفُ

ولابن التلميذ اقوال حسنة «في الفكاهات واللطائف» منها وصفهُ لزجاجتَيهِ (من مجزوء الكامل):

بزجاجتين قطَعتُ عمري وعليهما عوَّلتُ دهري

١) ويروى: رقا وسما فوق السماء بهمَّةٍ
٢) ويروى: النبتُ

بزُجاجةٍ مُلِئَت بحِبرٍ وزُجاجةٍ مُلِئَتْ بخمرِ
فبذا أُثبِتُ حِكمَتي وبذا أُزيلُ هُمومَ صدري

ومن قولهُ في شرب الخمرة (من الرجز) :

كأسٌ يُطفّي لَهبَ الأُوامِ ثانٍ يُعينُ هاضمَ الطعامِ
وللسرورِ ثالثُ المُدامِ والعقلُ يُنفيهِ مَزيدُ جامِ

ومن لطائفهِ ما قالهُ ليُكتَب على حصيرٍ (من الكامل) :

أَفرَشتُ خدّي للضيوفِ ولم يزَلْ خُلقي التواضُعَ للَّبيبِ الأَكيسِ
فتواضُعي أَعلى مكـانيَ بينهم طورًا فصرتُ أُحِلُّ صدر المَجلِسِ

وقال في مَسنَد الرأس (من الخفيف) :

رُبَّ وَصلٍ شَهِدتُهُ فتمتَّعـتُ عِنـاقاً بالعاشقَينِ جَميعا
وَجدَاني للودِّ اهلًا وللسـرِّ مكاناً وللصديق مُطيعا

ولهُ في مِجمَرة البَخُور (من المتقارب) :

اذا الهَجرُ أَضرَمَ نارَ الهوى فقلبيَ يُضرِمُ للهجر نارا
أَبوحُ بـأسراريَ المُضمَرا تِ تبدو سِرارًا وتبدو جَهارا
اذا ما طوى خبَري صاحبٌ أَبى طيبُ عَرْفيَ الّا انتشارا

وقال فيها بمعناه (من الخفيف) :

كلُّ نارٍ للشوقِ تُضرَمُ بالهجرِ وناري تَشُبُّ عند الوصالِ
فاذا الصدُّ راعني سكنَ الوجدُ ولم يَخطِرِ الغرامُ ببالي

ومثلهُ في المجمرة ايضاً (من مجزوء الكامل):

يشكو المحبُّون الجوى عند التفرُّقِ والزِّيالِ
وأشدُّ ما أُصلى بنا رِ الشوقِ اوقاتَ الوصالِ

وقال ايضاً يصفها (من المنسرح):

رُبَّ حِمًى لا تُرامُ عِزَّتُهُ أَبحتُهُ النفسَ غيرَ محجوبِ
يُبدي عِياني لِمَنْ تأمَّلني نارَ مُحِبٍّ ونَشرَ محبوبِ

ومن لطائفهِ يصف مَغسل الشَّرْب (من الطويل):

اذا ما خطبتَ الودَّ بين معاشرٍ فكُنْ لهم مثلي تُعَدُّ اخا صِدقِ
اذا استأثروا من كلِّ كأسٍ بصفوها رضيتُ بما أبقوهُ من مَشربٍ رَنْقِ

وممَّا اخبرهُ ابن ابي اصيبعة (١: ٢٧٤) ان ابن التلميذ عالج في مرضهِ الرئيس ابا القاسم عليّ بن افلح الكاتب. فلمَّا نَقِهَ من مرضهِ وكان ابن التلميذ فرض عليهِ الحمية فكتب لهُ ابو القاسم يطلب منهُ ان يأذن لهُ بأكل الخبز:

أنا جوعانُ فأنقذْ نِيَ من هذي المَجاعَهْ
فَرَجي في كسرةِ الخبزِ ولو كانت قُطاعَهْ (١
لا تقُلْ لي: ساعةً تصبرُ ما لي صبرُ ساعَهْ
فَخَواي اليومَ ما يَقبَلُ في الخبزِ شَفاعَهْ

١) قال القُطاعة هو الخشنُ من الدقيق يُقطع من النُّخالة ويُخبز فيُسمى خبز قطاعه

فاجابهُ ابن التلميذ (من الرمل):

هكذا اضيافُ مِثلي يتشكَّوْنَ المَجاعَهْ
غيرَ أني ليس عندي لِمُضِرٍّ من شَفاعَهْ
فتعلَّلْ بسَويقٍ فهو خيرٌ من قُطاعَهْ
بحياتي قُلْ: كما تَرْ سُمُهُ سَمْعاً وطاعَهْ

وممَّا رواهُ ابن ظافر الازديّ في كتابهِ بدائع البدائه (ص ٥٤) قال: اخبرني القاضي السعيد ابو قاسم هبة الله بن سناء الملك رحمهُ الله قال: اخبرني الجليل الوافد من العراق على الدولة المصريّة قال: اجتمعتُ في بعض الأيام بامين الدولة ابي الحسن هبة الله بن صاعد بن التلميذ فاخذتُ في ذمّ الدهر وإخنائهِ على اهل الفضل واذا بكلاب صَيْد التي برسم الخليفة قد أُبرزت في جِلال الوشي والديباج فحرَّك ذلك ما كنا نتجاذب أهدابَهُ في ذمّ الدهر فقلتُ (من الرجز):

مَن كان يُلبِسُ كَلْبَهُ وشياً ويقنَعُ لي بجِلْدي (١

فاستجزتُهُ فقال واجاد:

الكلبُ خيرٌ عندهُ منّي (٢ وخيرٌ منهُ عندي

ولابن التلميذ ﴿ هجو ﴾ قليل فمن ذلك ما هجا بهِ الطبيب اوحدَ الزمان ابا البركات اليهودي الذي أسلم وكان تعيَّنَ معهُ في خدمة الخليفة المستضيء بالله. قال ابن ابي اصيبعة (١: ٢٦٠):

« ان اوحد الزمان كان قد كتب رقعةً يذكر فيها عن ابن التلميذ اشياء يبعدُ جدًّا ان

١) ويُروى: من كان يكسو الكلبَ وشياً ثم يقنع . . .
٢) ويروى: فالكلبُ مني عندهُ خيرٌ

تصدُرَ عن مثلهِ ووهب لبعض الخدم شيئًا واستسرَّهُ ان يرميها في بعض طُرُق الخليفة من حيث لا يعلم بذلك احد (وهذا مما يدلُّ على شرٍّ عظيم) وانَّ الخليفة لمَّا وجد تلك الرقعة صعب عليهِ جدًّا في اوَّل امرهِ وهمَّ ان يوقع بامين الدولة ثمَّ انهُ بعد ذلك رجع الى رأيهِ وأشير عليهِ ان يبحث ويستأصل عن ذلك وان يستقرئ من الخدم من يُتهمهُ بهذا المعنى. ولمَّا فعل ذلك انكشف لهُ انَّ اوحد الزمان كتبها للوقيعة بابن التلميذ فحنِقَ عليهِ حنقًا عظيمًا ووهبَ دمَهُ وجميع مالهِ وكتبهِ لامين الدولة ابن التلميذ. ثمَّ انَّ امين الدولة كان عندهُ من كرم الطباع وكثرة الخيريَّة انهُ لم يتعرَّض لهُ بشيء وبُعدَ اوحدُ الزمان بذلك عن الخليفة وانحطَّت منزلتهُ. ومن مطبوع ما لامين الدولة فيهِ قولهُ (من البسيط) :

لنا صديقٌ يهوديٌّ حماقتُهُ اذا تَكَلَّمَ تبدو فيهِ من فيهِ
يَتيهُ والكلبُ اعلى منهُ مَنزِلةً كأنَّهُ بعدُ لم يَخرُج من التيهِ

وقال ابن التلميذ في ولدهِ وكان في سائر احوالهِ بعيدًا عمَّا كان عليهِ والدهُ (من المنسرح) :

اشكو الى الله صاحباً شَكِساً تُسعِفُهُ النفسُ وهو يَعسِفُها
فنحنُ كالشمسِ والهلالِ معاً تُكسِبُهُ النورَ وهو يَكسِفُها

وفيهِ قال يؤنبهُ (من الكامل) :

والوقتُ أنفسُ ما عُنيتَ بحفظهِ وأراهُ أسهلَ ما عليكَ يَضيعُ

وقال يهجو صديقاً اسمهُ سعيد خانهُ (من السريع) :

حُبّي سعيدًا جوهرٌ ثابتٌ وحُبُّهُ لي عَرَضٌ زائلُ
بهِ جهاتي الستُّ مشغوفةٌ وهو الى غيري بها مائلُ

وروى لهُ محمَّد بن خضر الحلبيّ يهجو الوزير الدركزيني (من مجزوء الكامل) :

قالوا: فلانٌ قد وَزَرْ فقلتُ: كلَّا لا وَزَرْ

والله لو حُكِّمتُ فيهِ م جعلتهُ يرعى البقَرْ

وقال فيهِ (من مجزوء الكامل):

قالَ الأنامُ وقد رأو ه مع الحداثةِ قد تصدَّرْ:
مَنْ ذا المجاوِزُ قــدرَهُ قلتُ: المُقدَّمُ للمؤَخرْ

ومثلهُ في رجلٍ قليل الوفاء (من مجزوء الكامل):

قد قلتُ للشيخ الجليـــلِ الأريحيِّ ابي المُظفَّرْ:
ذكِّر فُلانَ الدين بي قال: المُؤَنَّثُ لا يُذكَّرْ

وقال يهجو آخر المسمَّى حيدرًا (من الكامل):

مذ صار حيدرُ بَيْدَقَ الصَّدْرِ ومُشيرَهُ في الـنَّهي والأَمرِ
والمستنابُ على نيابتهِ ايقَنْتُ انَّ العَجْزَ في الصَّدْرِ

وقال يهجو انساناً بالعين (من المنسرح):

مـدوَّرُ الـكَعْبِ فأتَّخِذْهُ لثَلِّ غَرْسٍ وثَـلِّ عَرْشٍ
لو رمقَتْ عينهُ الثريَّا أَخرَجَها في بنـاتِ نَعْشٍ

ولهُ ايضاً في شقيٍّ يخاف الهجو (من السريع):

يا خائف الهَجْوِ على نفسهِ كُنْ في أمانِ الله من مَسّهِ
انت بهذا العِرْضِ بين الورى مثل (القــذى) يَنبعُ من نفسهِ

ومن اقوال امين الدولة ﴿في الشوق﴾ ما رواهُ الصفدي في شرح لاميَّة العجم (١: ١٤٧) (من المنسرح):

عاتبتُ اذ لم يزُرْ خيالك والـنَّومُ بشوقي اليهِ مسلوبُ
فزارني مُنعِماً وعاتبني كما يقالُ المنامُ مقلوبُ

وقال بمعناه (من البسيط):

يا دارُ لا تُنكري مني التفاتَ فتًى فِراقُ احبابهِ أجرى مَدامعَهُ
عهدتُ فيكِ قُمَيرًا كان يؤنسني حيناً فعيناي تستقري مطالعهُ

ولهُ يتشوَّق الى اصحابهِ في بغداد (من الطويل):

على ساكني بغدادَ مني تحيَّةٌ تُحمِّلها ريحُ الشمال اليهمِ
تخبّرُهم انّي صَحبتُ معاشرًا سواهم فأبكاني الزمانُ عليهمِ

ومثلهُ (من الطويل):

خليلٌ نأَى عني فبُدِّلتُ بعدهُ مُقيمَ الجوى من صفوِ عيشٍ وطيبهِ
اغار عليهِ صرفُ دهرٍ فنالَهُ وعمّا قليلٍ سوفَ يُلحِقُني بهِ

ولهُ في الشوق ايضاً (من المنسرح):

لا تَعجبوا من حنينِ قلبي إليهمُ وأعذروا غرامي
فالقوسُ مع كونها جمادًا تئنُّ من فُرقةِ السِهامِ

وكذلك قال يتشوَّق (من السريع):

كيفَ أَلَفُّ العيشَ في بَلدةٍ سُكّانُ قلبي غيرُ سُكّانها
لو انّها الجنّةُ قد أُزلِفَتْ لم أَرضَها إلّا برِضوانها

وكان جمال الدين ابو القاسم بن افلح كتب يُعرب عن شوقه لابن التلميذ:

انى وحقّكَ منذ ارتحلتَ   نهاري حنينٌ وليلي أنينُ
وما كنتُ اعرفُ قبلُ امرأً   بجسمٍ يقيمُ وقلبٍ يبينُ
يقولُ الخليُّ اذا ما رأى   ولوعي بذكراك لا يستكينُ :
تسلَّ. فقلتُ: دهاك الفراقُ   أتدري جوى البَيْنِ ابن يكونُ
وكيفَ السبيلُ الى سلوتي   وحُزني وفيٌّ وصبري خَؤُونُ

فكتب امين الدولة في جوابه (من المتقارب):

وانّي وحبِّك مُذ بِنْتُ عنك   م قلبي حزينٌ ودمعي هَتونُ
وأَخلَفَ ظنّيَ صبرٌ مُعينٌ   وشاهِدُ شكوَايَ دمعٌ مَعينُ
فللّه ايّامُنا الخاليا   تِ لو ردَّ سالفَ دهرٍ حنينُ
وانّي لَأرعى عهودَ الصَّفاء   ويكلأُها لك ودٌّ تصونُ
وأحفَظُ ودَّك عن قادحٍ   وودُّ الاكارمِ عِلْقٌ ثمينُ
ولِمْ لا يكونُ ونحن اليَدا   نِ انتَ بفضلك منها اليمينُ
اذا قلتُ: أَسلوك. قال الغرا   مُ: هيهاتِ ذلك ما لا يكونُ
وهل ليَ في سَلوةٍ مَطمَعٌ   وصبري خَؤُون وودّي امينُ

ونظم ايضاً ابن التلميذ ﴿في الغزل﴾ اللّين بحسن الذوق كقوله (من المتقارب):

لِسَيفِ جُفونك فضلٌ على   مَواضي السيوفِ التي في الجفونِ
فتلك مع القتل لا تستطيـ   ـعُ رَجْعَ النفوسِ بدَفع المَنون

وعيناك يقتلني شَزْرُهـا وأحيا بإيماضها في سكونِ

وقوله بمعناهُ (من الكامل) :

تمَّتْ محاسِنُهُ سوى كَلَفٍ حُلوِ المَواقع زانَهُ بِشرُ
وَسَموا بهِ لألاء غُرَّتهِ عَمْداً لِيُعلَمَ انَّهُ بَدرُ

ولهُ في وصف الخال (من البسيط) :

لا تحسبنَّ سوادَ الخال عن خلَلٍ من الطبيعةِ او إحداثهُ غَلَطُ
وانَّما قلمُ التصوير حين جرى بنُونِ حاجِبهِ في خدّهِ نقَطا

ومن غزَلهِ (من الكامل) :

يا مَنْ لَبِسْتُ عليهِ أثوابَ الضَّنا صُفْراً مُشَهَّرَةً بحُمْرِ الأَدْمعِ
أَدْرِكْ بقيَّةَ مُهجَةٍ لو لم تَذُبْ شوقاً إليك نفيتُها من أضلعي

ومنهُ (من الخفيف) :

انت شُغْلي في كلّ حالٍ فنومي بخيالٍ ويَقْظتي بأذكارِ
طالَ ليلي بطول هَجرِكَ لا دا م وشوقي الى الليالي القِصارِ

وقال ايضاً (من الخفيف) :

لا تَظُنَّنْ تخلُّفي لِمَلالٍ انتَ من خوف سَلْوَتي في أمانِ
رُبَّ هجرٍ يكونُ أَدْعى الى الوَصْـل ووصلٍ أدعى الى الهِجرانِ

وهذه ﴿حِكَم ابن التلميذ﴾ وكلّها لطيفة مصيبة . قال يصف اواخر حياة الشيخ (من المتقارب) :

اذا وَجَدَ الشيخُ في نفسهِ نشاطاً فذلك موتٌ خفي
ألستَ ترى انَّ ضوء السّراجِ لهُ لَهَبٌ قبلَ ان ينطفي

وقال في العلم واسبابهِ (من المتقارب):

سُقِ النّفسَ بالعِلْمِ نحو الكمالِ تُوافِ السعادةَ من بابها
ولا تَرجُ ما لم تُسبِّبْ لهُ فانَّ الامورَ بأسبابها

وقال في انحجاب الحقيقة عن النفس (من البسيط):

لولا حِجَابٌ امامَ النفس يَمنعُها عن الحقيقةِ فيما كان في الأزَلِ
لَأدركَتْ كلَّ شيءٍ عزَّ مطلبُهُ حتى الحقيقةَ في المعلولِ والعِلَلِ

وقال في تأثير العلم في العاقل وفي الجاهل (من الكامل):

العِلمُ للرَّجل اللَبيبِ زيادةٌ ونقيصةٌ للأحمق الطيَّاشِ
مثلُ النهار يزيد ابصارَ الورى نورًا ويُغشِي أعينَ الخُفَّاشِ

وما اظرف قولهُ في تواضع الشريف (من الطويل):

اذا كنتَ محمودًا فانّك مُرمِدٌ عيونَ الورى فأكحلْهُم بالتواضعِ

ومن قولهِ في حذر العدوّ الصغير (من البسيط):

لا تَحقِرنَّ عدوًّا لانَ جانِبُهُ ولو يكونُ قليلَ البَطشِ والجَلَدِ
فالذُّبابةِ في الجُرحِ المُمَدّ يدٌ تنالُ ما قَصُرَت عنهُ يدُ الأسدِ

وقال يصف الكريم واللئيم (من المنسرح):

نفسُ الكريمِ الجَوادِ باقيةٌ فيهِ وان مسَّ جلدَهُ العَجَفُ

والحرُّ حرٌّ وان ألمَّ بهِ الـضرُّ ففيهِ العَفافُ والأَنَفُ
والنَّذل لا يهتدي لمكرُمةٍ لأنَّ ذاك المزاجُ منحرفُ
فالقَطرُ سُمٌّ ان احتواهُ فمُ الـصلِّ ودرٌّ ان ضمَّهُ الصَدَفُ

ولهُ في الشباب والشيب (من المنسرح):

قالوا شبابُ الفتى خَوُونٌ والشيبُ وافٍ فلَيسَ يَرحَلْ
فقلتُ : ابعدتمُ قياساً ذاك حبيبٌ وذا مُوكَّلْ

ومن قولهِ في من يرى عيوب غيرهِ دون عيب نفسهِ (من الكامل):

وأرى عيوبَ العالمينَ ولا ارى عيباً لنفسي وهو منّي اقربُ
كالطَرْفِ يَستَجْلي الوجوهَ ووجهُهُ منهُ قريبٌ وهو عنهُ مُعزَبُ

وقال في آخر عمرهِ (من الكامل):

كانت بُلَهْنِيَةُ الشَبيبَةِ سَكرَةً فصحَوتُ واستأنفتُ سيرةَ مُجمِلِ
وقعدتُ ارتقبُ الفَناءَ كراكبٍ عرفَ المَحَلَّ فبات دون المنزلِ

وقال في تحامل الدهر على الضعفاء (من الوافر):

أَجِدَّكَ انَّ من شِيَمِ الليالي م العنيفةِ ان تجورَ على اللَّهيفِ
كمثل الخَلْطِ أغلبَ ما تراهُ يصبُّ اذاهُ في العضو الـضَعيفِ

وقال يصرف النفس عن اللذة (من المجتث):

قد كنتُ اعتَدُّ حيناً لُقياكَ أنفَسَ رِبحِ
فقد بدَتْ عن سُلوٍّ سماهُ عقلي بنُصحِ
مالي أهيمُ بحُسنٍ يكونُ علّةَ قُبحي

وقال في العزم والجدّ (من السريع) :

واظِبْ على الجدّ ولا تَنْخَدِعْ بالهزْلِ ان ساعدكَ الجَدُّ
ولا تقُلْ انَّ لهُ موضعاً فالهزلُ في موضعهِ جَدُّ

ولابن التلميذ بعض « الالغاز » كخالهِ ابي الفرج منهـا قولهُ في سحاب (من الرجز) :

وهاجمٍ ليس لهُ من عُذوى مُستبدلٍ بكلّ مَثوًى مثوى
بكاؤهُ وضحكُهُ في معنًى اذا بكَى أَضحَكَ اهلَ الدنيا

وألغز في الميزان فاجاد (من الرجز) :

ما واحدٌ مختلفُ الأَهواء يَعدِلُ في الارضِ وفي السَّماء
يحكمُ بالقِسطِ بلا رِياء أَعمى يُري الرشادَ كلَّ رائي
اخرسُ لا من عِلّةٍ وداء يُغني عن التصريح بالايماء
يجيبُ ان ناداهُ ذو امتراء بالرَّفعِ والخَفض عن النداء
يُفصحُ ان عُلّقَ في الهواء

ولهُ لغزٌ في الدِّرع (من الطويل) :

وبيضاءَ لا للبيضِ والسُّمرِ قدُّها تَظاهَرَ في تقويمهـا الحَرُّ والبَرْدُ
تجلّتْ لنـا حبّاً ولم تجرِ في رحاً ولكنْ تولّاهُ لهـا الرقُّ والبُردُ
وقيتُ بها نفسي فكانتَ كأنّها هي الشمسُ محجوباً بها الكوكبُ الفردُ

وألغز في الابرة كأبي الفرج فقال (من الطويل) :

وكاسيةٍ رِزْقاً سواها يحوزُهُ وليس لهـا حمدٌ عليهِ ولا أجرُ

مفرّقةٌ للشَّملِ والجَمْعُ دأبُها وخادمةٌ للناسِ تخدمها عَشْرُ (١

اذا خطرَتْ جرَّت فُضُول ذيولها سجيّةُ ذي كِبْرٍ وليس بها كِبْرُ

ترى الناس منها يلبسون الذي نَضَتْ تعمّهمُ جودًا وليس لها وَفْرُ

لها البيتُ بعد العزّ غيرُ مدافعٍ الى بأسهِ (٢ تُعزى المهنّدةُ البُتْرُ

أَضرَّ بها مثلي نُحولُ بجسمها وإن لم يَرُعْها مثلَ ما راعني هَجْرُ (٣

ولابن التلميذ مقاطيع غير هذه فاكتفينا بما سبق ذكرهُ . ولعلَّهُ وقع ايضاً بعض اختلاط بين ما رُوي لهُ وما روي لابي الفرج خالهِ فانّ بعض ما ذكرناهُ للثاني يروى في كتب اخرى للاوَّل والعكس بالعكس . وما لا ريب فيهِ انَّ كليهما امتاز بالنثر والنظم وانَّما اتَّسع الرواةُ بذكر هبة الله وكان اقرب اليهم زماناً واوسع شهرةً وقد مدحهُ كثيرون من الشعراء ورثوهُ بعد موتهِ . فمن ذلك داليّةٌ للسيّد النقيب الكامل ابن الشريف الجليل رواها ابن ابي اصيبعة (١ : ٢٦٥) اوَّلها :

امينَ الدولة اَسْلَمْ للايادي على رغم المناوي والمعادي

ثمَّ روى قصيدة للشريف ابي يعلي محمَّد بن الهبارّيّة الشهير يقول في مدحهِ :

شمسُ مجدٍ لا تراها ابدًا عن سموَّات العُلى مُنْكسفَهْ

جلَّ ان يُدرَك وصفًا مجدُهُ انهُ اكبرُ من كلّ صفَهْ

غدَتِ الدنيا ومن فيها معًا لعلاهُ بالعلى معترفه

وقال اثير الدين ابو جعفر عبدالله يرثيه :

فُقِدَ الطبيبُ فليس يوجد صحَّةٌ م الموجود منًّا بعد ذا المفقودِ

ورُوي غير ذلك لابن اسماعيل الطغرائي ولابن جكينا وللبديع الاصطرلابيّ ولابي القاسم هبة الله بن الفضل ما يُعرب عن سموّ منزلة ابن التلميذ واعتباره لدى اعيان زمانهِ وادبائهم

---

١) اي الاصابع العشر ٢) ويروى : الى بابهِ

٣) ويروى : مجرُ

٣٠ محفوظ النّيلي

﴿اسمهُ ونسبهُ ودينهُ وزمانهُ﴾ هو الحكيم ابو العلاء محفوظ ابن المسيحيّ بن عيسى النصرانيّ النيليّ الطبيب والاديب الشاعر . كان من اهل العراق ونسبتهُ الى النيل وهي بلدة على الفرات في سواد الكوفة بين الكوفة وبغداد . وقد عُرف ايضاً بالواسطيّ لانهُ كان نزيل مدينة واسط يسكنها فنُسب اليها . امّا زمانهُ فانهُ كان في اواسط القرن السادس للهجرة والثاني عشر للميلاد

﴿علمهُ وادبهُ﴾ قال فيهِ جمال الدين القفطيّ في تاريخ الحكماء (ص ٣٢٧—٣٢٨) : « كان محفوظ طبيباً فاضلًا نبيلًا مذكورًا في وقتهِ عالمًا بصناعة الطبّ مرتزقًا بهـا جميل المشاركة محمود المعالجة . ولهُ مع ذلك ادبٌ طريٌّ ، وخاطر في النظم سريّ ، وكان موجودًا بالعراق سنة ٥٥٩ (١١٦٤م) »

وقد عرفهُ عماد الدين الاصفهانيّ وذكرهُ في خريدة القصر وجريدة العصر (Ms de Paris 1447 f. 165r) قال : « الحكيم ابو العلاء محفوظ سكن واسط وعُرف بها واكتسب بالطبّ . وكان فاضلًا عالمًا مَرْضيّ الصنعة في مداواة المرضى مستقيم الرأي في تسقيم السقيم . لم يزل يتردَّد اليّ مدّةَ اقامتي بواسط أَستطبُّهُ ، وأجِد عنَهُ الله بطبّهِ من الصحّة ما أَستحبّهُ ، وكان لَهِجاً بالإلغاز ، ولِمَا يسمعهُ من ذلك شديد الاهتزاز ، واشعارهُ فيهِ مستقيمة الصدر وسليمة الأَعجاز، توفي في اوائل سنة ستين وخمسمائة (١١٦٥م) وكان قبل ذلك بأشهُر قريبةٍ يجتمع بنا ونتذاكر ما قيل في اللغز »

وممّا ذكرهُ ابن ابي اصيبعة في طبقات الاطبّاء (ص ٢١٧—٢١٨) ان عليّ بن هبة الله الاثردي شرَح كتاب دعوة الاطباء لابن بطلان وألّفهُ لابي العلاء محفوظ

﴿ اشعارهُ ﴾ لم نقف لمحفوظ على شعر إلّا ما رواهُ عنهُ عماد الدين الاصفهاني في الالغاز . قال : ممّا أنشد فيهِ لنفسهِ بواسط في عاشر شوّال سنة تسع وخمسين (وخمسمائة) لغزٌ في العقل (من المنسرح) :

مَا حاضِرٌ ما يُرَى لهُ شخصٌ فإنّهُ في اختفـائـهِ لِصٌّ
يُضيءُ في البيتِ كالسراج وقد يَشوبُ وقتاً ضياءهُ غَمصُ
يَبين نُقصانُهُ وليس لهُ رُجحانُ كَمّيـةٍ ولا نَقصُ
لكنّهُ عادلٌ يميلُ وما رأيتُ مَيلاً بالعدلِ يختصُّ
يَهزِمُ جيش الخُطوبِ مُقتدرًا وقد يُرى أنّهُ عاجزٌ نِكصُ
أعوانُهُ عدّةٌ ثمانيةٌ (١ بهم يَنُمُّ الضَّلالُ والفَحصُ
فهو كنُوحٍ في الفُلكِ يستترُ وهم كأصحابهِ اذا أُحصوا (٢
فقد كشفتُ الغطاء مجتهدًا حتّى بدا من ظهورهِ نَقصٌ (٣

وألغز في النار وارتفاع لهيبها عن الارض (من السريع):

ما صورةٌ كوَّنها ربُّهـا من عالَمِ الجِنَّةِ والإنسِ
فأصبحتْ للإنس معشوقةً تُهدي اليهم لـذَّةَ النفسِ
فما لها من بَعدهـا رَجعةٌ الى مَقَرِّ الوَصلِ والأُنسِ
فما هيَ يا من غـدا عالماً يَحُلُّ مـا يُلغَزُ في الطِّرسِ

قال العماد وانشدني محفوظ في الإلغاز لنفسهِ بالرُمّانـة بمعنى الثمرة والقَبّان (من الرجز):

---

١) يريد بالثانية القوى التي يستعين بها العقل وهي الحواسّ الخمس ثمَّ الخيـال والحسّ وقوّة الارادة

٢) يقول انَّ عدد هؤلاء الاعوان ثمانية كعدد الاشخاص الـذين كانوا في سفينة نوح فنجوا من الطوفان

٣) النَّقص بالقاء الزيادة والمبالغة

يا عالماً يَستفهِمُ عن كلّ ما يُشتبَهُ
ما حامِلٌ عذراءُ لم تزنِ ولا تُتَّهمُ
أولادُها في جوفِها تحت الضلوعِ جُثَّمُ
كلٌّ لهُ من تربِها (١ عليهِ ثوبٌ يُقسَمُ
شِفاهُها كثيرةٌ فأعلَمٌ وأخرَمُ
لكن لها فردُ فمٍ ورأسها هوَ الفمُ
من الجِنان أُخرِجتْ وللجَحيمِ تُسلَمُ
وما اتت جَريمةً ومثلُها لا يُجرِمُ
بل فضلُها عند الأنا مِ ظاهرٌ يُغتَنَمُ
امثالُها بينهمُ لها صِفاتٌ تُعلَمُ
فالبعضُ منها حاكمٌ يَعدِلُ فيما يَحكُمُ (٢
والبعضُ منها في الصدو رِ جالسٌ يَحتشِمُ (٣
كلٌّ يرى حقوقَهُ عليهِ فرضاً يُلزِمُ
ومن شهير امرِها اذ مثلُهُ لا يُكتَمُ
انَّ بها يشقى السَّقيمُ والنديمُ ينعمُ (٤

١) كذا في نسخة . ويروى : في شرجا . ولعلّ الصواب من ثرّجا اي من لحمها وشحمها
٢) الرمّانة هنا القبّانة التي تتخذ للوزن
٣) يشبّه ثديُ النساء بالرمّانة
٤) ويروى : يندم

وقد كشفتُ سِرَّها وعند هذا أختِمُ

قال العماد . وانشدني ايضاً لنفسهِ في واسط رابع ذي القعدة سنة ٥٥٩ ملغزًا في آلة الطرب المعروفة بالناي (من الوافر) :

ومملوكٍ رشيقِ القدِّ ألمَى · بهِ تَلهو وتبتهجُ النفوسُ
صَموتٌ ناطِقٌ أرِقٌ نَؤُومٌ · عجيبٌ شَخصُهُ شخصٌ نفيسُ
ويوحِشُ ذِكرُهُ رَبعَ التصابي (١ · ولولاهُ لَما أنِسَ الجليسُ
لهُ رأسٌ يُخالفُ منهُ جسماً · بلا رِجلٍ فقِسْ ما تقيسُ
اذا ما بانَ عنهُ ظلَّ مَيْتاً · وإمَّا عاد عاودَهُ الحسيسُ
يئنُّ أنينَ صبٍّ مُستهامٍ · مَشُوقٍ قد نأى عنهُ أنِيسُ
وليس بذي صباباتٍ ليَهوَى · ولكنَّ الهوى (الهَوا) فيهِ حبيس

ولهُ مُعمًّى في غلامٍ اسمهُ سعيد (من الوافر) :

وذي غُنجٍ عَلِقتُ هَواهُ بَلوَى · فبَلبلَني بطَرفٍ بابليِّ
لهُ اسمٌ ضِدُّ حالي في هواهُ · ففَتِّشهُ تَجِدهُ بغيرِ عِيِّ
اذا أسقطتَ حرفاً منهُ يوماً · فذاكَ يومُ افراحٍ وزيِّ
وان أسقطتَ ثانيهُ اتباعاً · غدا مولًى لعبدٍ او وليِّ
وان أسقطتَ ثالثهُ اختيارًا · يصيرُ أسماً لعبدٍ أرمنيِّ

١) يريد هنا التأي مصدر نأى وهو الهجران الذي يستوحش الاصدقاء ذكرهُ

وان اسقطت رابعهُ اضطرارًا أتى نوعٌ من المَشيِ الوَحِيِّ
فان تكُ ذا حِجًى وأخا أحاجٍ ففسِّرْ يا أخا القلب الذكيِّ

وألغز في المسمَّى كمالًا (من السريع):

ذا مالكٌ رِقِّي هوايَ لهُ مَن اسمُهُ في البيتِ منظومُ
تهجَّهُ واجعلْ لهُ اوَّلًا آخِرَهُ فالاسمُ مفهومُ

قال العماد الاصفهاني: وكان لمحفوظ بن المسيحيّ عندي رسمٌ في كلّ سنة يصل اليهِ من الحنطة فكتب اليَّ يُلغز بها ويطلب الرسم (من الوافر):

عمادَ الدين دعوةَ مستفيدٍ لأنك كاشفٌ عن كل دَيْنِ (١
فما صفراءُ كالذهبِ المُصفَّى ولونُ لُبابها لونُ اللُّجَيْنِ
محبَّبةٌ الى الارواحِ طُرًّا بها تقوى النفوس بغير مَينِ
لها اسمٌ نِصفُهُ شعبٌ قديمٌ كما زعموا بإحدى الأُمَّتينِ (٢
ونصفٌ جاء في القرآن نصفًا لأوَّل سورةٍ بقراءتينِ (٣
لها وقتٌ تُداسُ بكل رِجلٍ ووقتٌ فيهِ تُرفَعُ باليدَيْنِ
أجِبْ عنها وَجُدْ بالرَّسم معها وقاكَ اللهُ آفةَ كلِّ عينِ

واخبر العماد قال: كنتُ نظمتُ لغزًا في كوز الفقَّاع وهو الشراب الذي يتَّخذ من الشعير وانشدتهُ ابا العلاء محفوظًا فأثبتَهُ واتى بجوابهِ. وهذه هي الابيات التي لي:

١) ويروى: عن كلّ زينِ
٢) يشير الى الجنّ وهو يدعى ايضًا الحنّ بالحاء. وذاك نصفُ اسم الحنطة. الأمَّتان الاسلام والنصرانيَّة واراد هنا الاسلام ٣) يشير الى سورة طه في القرآن وهي نصف لفظة حنطة

ما صورةٌ ما مثلُها صورَهْ كأنَّها في العمق مطمورَهْ
تُمطَرُ للريّ ومن ذا رأى مطمورةً للريِّ ممطورَهْ
منكوحةٌ ما لم تضع حملَها مسدودةُ الأنفاس محسورَهْ
محرورةُ القلب ولكنَّها مضروبةٌ بالبَرْد مقرورَهْ
كأنّما النارُ بأحشائها على اشتدادِ البَرْد مسجورَهْ
تظلُّ مُلقاةً على رأسها خمَّارةٌ تُحسَب مخمورَهْ
مُمارةُ الهامةِ من غيرها قصيرةُ القامةِ ممكورَهْ
كأنّها راسٌ بلا جُثَّةٍ موصولةٌ إن شئتَ مبتورَهْ
كهامةٍ صلعاء عاوقةٍ ما استعملَتْ موسًى ولا نُورَهْ
زامرةٌ في فَمِها زَمرُها وهي بغير الزَّمر مشهورَهْ
دوَّارةٌ إن انتَ ارسلتَها متروكةُ الاستار مستورَهْ
مَن فضَّها تبصقُ في وجهِهِ كأنَّها بالفُحش مأمورَهْ
تُورثُ تميساً لمن باسَها وهي على ذلك مشكورَهْ
معسولةٌ ريقتُها مَزَّةٌ مُرسَلَةٌ بالهضم منصورَهْ
ان عُقلَت فرَّت وإن أُنشطَتْ فرَّت وثارت منك مذعورَهْ
كم عسلٍ ذاقت وكم سكَّرٍ وأنعُمٍ ليست بمكفورَهْ
ملمومةٌ من صخرةٍ صَلدَةٍ فاجرةُ الماء ومفجورَهْ
من الصفا جسمٌ ولكن ترى على صفاء الماء ناموزَهْ
فيا حليفَ المأثرات التي اضحت لاهل الفضل مشهورَهْ
أنعِمْ وعجِّلْ حلَّ اشكالها فهي لدى فضلك مأسورَهْ

فاجاب محفوظ النيلي (من الرجز):

يا ذا الذي أعربَ إلغازُهُ عن فِطنَةٍ بالعلم مغمورَهْ
انَّ التي أطنبتَ في وصفها حتَّى اغتدت في الناس مشهورَه

صغيرةُ الجُثَّةِ دَحداحةٌ بارِدَةُ المَلمَس محرورَهْ
تعذَّبتْ في النار حتّى اذا ماتت غدَتْ في الثلج مقبورَهْ
محبوبةُ المَخرَج لكنّها منكوحةٌ ليست بمستورَهْ
ان فضَّها النـاكحُ مقهورةً فـاضت بمـاءٍ فَيض مَخمورَهْ
او بصقَتْ في وجه مُفتضِّها فـإنها في ذاكَ معـذورَهْ
لأنهـا تسقيـهِ خمرًا بمـا يحلِّـل المَخمورُ تخميرَهْ
ويصبحُ الشَّبعانُ ذا شهوةٍ كلبيَّةٍ بالجوع مـذكورَهْ
صورتُها تحكي اذا قِستَها مُضمَغَـةً بالصَّمغِ مـأسوره
فهـذهِ من طينَـةٍ صُوّرت وفي لهيب النـار مسجورَهْ
وتلك من جوهرةٍ صَلـدَةٍ مُذابـةٍ بالنار مصهورَهْ
فخُذ جوابي ملغزًا مثل ما ألغزتَهُ في هـذهِ الصورَهْ
وهي لمن يؤثرُ كشفي لها فُقّاعـةُ الـفُقّـاعِ محصوره

٣١ سعيد النيليّ

والمحفوظ النيليّ مواطنُ نصر الفي وشاعر مثلهُ من بلدة النيل قرب واسط . ذكرهُ ابن ابي اصيبعة في طبقات الاطبّاء قال (١ : ٢٥٣) : «هو ابو سَهل سعيد بن عبد العزيز النيليّ المشهور بالفضل عـالم بصناعة الطبّ جيّد المصنَّفات متفنّن في العلوم الادبيَّة بارع في النظم والنثر ومن شعرهِ (من الخفيف) :

يا مُفَدَّى العِذار والخدّ والقَدِّ بنفسي وما أراها كثيرا

ومُميري من سُقْم عينَيْهِ سُقْماً دمتُ مُضنى بهِ ودمتَ مُعيرا

إسْقِني الراحَ تَشْفِ لوعةَ قلبٍ باتَ مُذ بِنتُ للهموم سميرا

هيَ في الكاسِ خمرةٌ فاذا ما أفرِغتْ في الحشا استحالت سرورا

(قال) وللنيلي من الكتب اختصار كتاب المسائل لحُنَيْن . تلخيص شرح جالينوس . كتاب الفصول مع نُكَت من شرح الرازيّ

هذا ولم نجد ذكرًا لسعيد النيليّ في غير ابن ابي اصيبعة

٣٢ ابن اصطفانوس الروميّ

كان حق هذا الشاعر ان يتقدَّم مع شعراء القرن الخامس للهجرة إلّا انّنا خُدعنا بترجمتِهِ المخطوطة خطأً سقيماً فنقلناها على علّاتها عن كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لكمال الدين الحلبيّ عن نسخة لندن (Car Mss. Brit. n° MCCXC) قال: «كان ابن اصطفانس فيلسوفاً شاعرًا وُلد بالروم ونشأ بأنطاكية وكان ذا هيبةٍ اديباً شاعرًا نحويًّا فيلسوفاً نظّارًا. سافر الى العراق ولقيَ بهِ العلماء ولُقّن من العلوم والآداب ما علا بهِ صيتُهُ واشتهرَ ذكرهُ في الازمان». ثمّ ورد هناك اخبار أُخرى ممحوة لقدمها يؤخذ منها انَّ ابن اصطفانوس أُرسل سفيرًا الى خليفةٍ قرأنا اسمهُ «المستضي». وظنّنا انهُ الخليفة العبّاسي الذي تولّى الخلافة من السنة ٥٦٦ الى ٥٧٥هـ (١١٧٠ــ١١٨٠م) وقرأنا هناك اسم وزيرهِ «علي بن عبد الرحمان اليازوري» فاستنتجنا انَّ ابن اصطفانوس الروميّ الشاعر عاش في اواسط القرن السادس للهجرة والثاني عشر للمسيح. فافادنا جناب عبدالله افندي مخلص من حيفا انَّ الوزير المذكور هو «الحسن بن عليّ بن عبد الرحمان اليازوري (بالياء)» الذي كان وزيرًا للخليفة الفاطمي المستنصر بالله في مصر الذي ملك من السنة ٤٢٧ الى ٤٨٧هـ (١٠٣٥ــ١٠٩٥م) وعليهِ يجب القول انهُ وقع غلط في اسم الخليفة العبّاسي المستضي. بالله. ومنهُ ينتج انَّ ابن اصطفانوس عاش في القرن الخامس للهجرة والحادي عشر للمسيح . فنشكر

لحناب المراسل افادتهُ فقد ازال بها ما وقع من الالتباس في النسخة التي اخذنا عنها. وفيها ورد اسم رجل اجتمع بـه ابن اصطفانوس يُدعى «يوسف بن الكفرطابي الذي كان يدرّس في كفرطاب» لم نعرف من امرهِ شيئاً. هذا مـا رواهُ كمال الدين ولم نقف في غيرهِ على اخبار ابن اصطفانوس

٣٣ القس يعقوب الماردانى

كان يعقوب الماردانى احد قسوس اليعاقبة السريان ذكرهُ الشيخ المؤتمن ابو اسحاق ابن عسّال في جدول كتبة النصارى الذي قدَّمهُ على كتابهِ اصول الدين (ص ٢٨ من نسخة مكتبتنا الشرقيَّة) روى اسمهُ بعد يحيى بن عديّ وعيسى بن زُرْعة ويحيى بن جريز (ويقال جرير) فقال: «القس الفاضل يعقوب الماردانى صاحب دعوة القسوس»

امَّا دعوة القسوس هذه فعلى ما يظهر كتابٌ ادبي روى فيهِ المؤلف اخبارًا ادبيَّة تروى لقسوس النصرانيَّة. وقد جاء في طبقات الاطبَّاء لابن ابي اصيبعة (١ : ٢٤٣) انَّ ابن بطلان الذي سبق لنا ذكرهُ هو صاحب دعوة القسوس والمشهور انهُ صاحب دعوة الاطباء كما اثبتنا هناك. والقس يعقوب هذا كان من تبَعة البدعة اليعقوبيَّة. امَّا نسبتهُ «الماردانى» فاراد بها «ماردين» مدينـة الجزيرة الشهيرة وكان الصواب ان يُنسب اليها «الماردينى» فرواها على صورة شاعت على ألسنة بعض العامَّة

وكنَّا أيسنا من اكتشاف شيء من كتاب دعوة القسوس حتى السنة ١٩٠٤ اذ اطَّلعنا في دار المرحوم الوجيه بشاره يارد على مخطوطات قديمة مخرومـة كان من جملتها كرّاس من قطع صغير طولهُ ١٨ سنتمترًا في عرض ٢١ س ذي ورق صفيق مصفرّ لقدمهِ ينقص اوَّلـهُ ويبلغ ١١٣ صفحة وفي الصفحة ٢٢ سطرًا كُتب بخطّ نسخي ناعم ومتقَن بحبرين اسود واحمر يرتقي الى القرن الثامن عشر. وهو مجموع شعر قـديم لشعراء مسلمين بينهم بعض النصارى. ففي الصفحة ١٠٣ منهُ فصلٌ عنوانهُ «ومما وُجد من القصائد والاشعار الخمريَّة» ذُكر فيهِ بعض الخمريَّات مترفعًا عن الخمرة المادّيَّة الى ذكر الخمرة الالهيَّة في سرّ النصرانيَّة بينها قطَعٌ اخذها من كتاب دعوة القسوس قال (ص ١٠٥): هذه خمريَّة من كتاب دعوة القسوس (من الوافر):

أَعَـادَ بنعمة الربِّ المسيح علَيَّ بذلك الخمرِ المليحِ
لقـد غفلَتْ خطوبُ الـدهرِ عنَّا وقد ظمئت الى الصَّهبـاء روحي
وقد حضرَتْ ومَن تَهوى فبادِرْ ورو جوانحي بـدم الذبيحِ
فلو كانت حراماً ما أُبيحَتْ لِمَنْ يَختارُ شُربَ دمِ المسيحِ
ولا داوَى بهـا ربُّ البَرَايا بليَّةَ آدمَ المُلقى الجريحِ
ولا أوصى الرسول بها جهـارًا وحلَّلَ شُربَهـا أَمرُ السَّليحِ (١
فإن بادرتَ لَفُزتَ بكل شُكرٍ وحصَّلتَ السرورَ مع المديحِ
وإن أخَّرتَ دعوتَنـا لمعنًى أَلِلعـذر القبيحِ أمِ المليحِ ؟
وتطمعُ بالزيارةِ بعد وقتٍ لتَمحوَ ما سطَرتَ من القبيحِ
تَجِدْنا كالمُخـدَّرِ في سرورٍ وانت ببابنا مثلَ الطريحِ

(قال) ولهُ ايضاً في معناه (من الطويل):

أيا مَن غدا ذُخري لكلِّ مُلمَّـةٍ تَأمْ ولا زيـدٌ سواهُ ولا عَمرو
هلُمَّ الى الراحِ التي كان صانَهـا لَنادون كلَّ الخلقِ في دَنِّها العُمْرُ (٢
فبادِرْ فمـا اللَّـذَّاتُ إلَّا غنيمةٌ فشمِّرْ اليها قبل ان ينفَـدَ العُمْرُ

ولهُ ايضاً فيها وقد احسن وصف اسرارها (من الكامل) :

شَمِّرْ ذيولَـكَ في عُرى الزُّنَّارِ وأَعجَـلْ الى دَنٍّ طُـلِي بالقـارِ
فلقَدْ تَحَجَّرَ طِينُهُ في رأسِهِ من كثرة الأَيَّامِ والأَعمارِ

١) اراد بالرسول القديس بولس. والسَّليح والسَّليح ومن السريانيَّة ܫܠܝܚܐ هو بمعناه
٢) العمر الكنيسة والدير وبذكره يتضح انهُ اراد الخمر المقدَّسة والقربان

واكشفْ تجدْ شمسَ الضُّحى محجوبةً في جُنحِ لَيلِ القارِ والفَخّار

قالوا :العُقارُ.ولو أضاءَ لعقولهم مقدارُها ما سُمّيَتْ بعُقارِ

نورٌ يفوقُ سناءَ كلَّ طريفةٍ من ساطعِ الأَضواءِ والانوارِ

سرٌّ يُسِرُّ بهِ الى تبّاعهِ نورُ العقولِ وكاشفُ الأَضرارِ

قد قلتُ لمّا أبرزَتْ في كأسها : تَعِسَ الذي باعَ الضيا بغُبارِ

مالوا الى الدينار قلتُ: عُدِمتُكُمْ أَدَمُ المسيحِ يُباعُ بالدينارِ ؟

قد كانَ قبلَهُمُ يهوذا بائعاً دمَهُ بتَزْرِ النَّزْرِ للكُفّارِ

وهو ايضاً القائل لله درُّهُ (من الكامل) :

نورٌ بكفّكَ أَم شِهابُ النارِ جَمرٌ تَضرَّمَ ام نُضارٌ جاري

شمسُ الضُّحى في الكأسِ أَم فَجْرٌ م تبسَّمَ صُبحُهُ من تحتِ ليلِ القارِ

هذي التي مزَجَ المخلّصُ كأسَها في يوم عيدِ الفِصْحِ للأَطهارِ

هذي التي جلَتْ بها انوارُها عن سائرِ الاشجارِ والأَثمارِ

صفراءُ لكن حُمرَةٌ في خدِّها من لَطمِ أَخمَصِ أَرْجُلِ العُصّارِ

لمّا رمَتْ عنها الكثيفَ تمكَّنَتْ وتلاعبَتْ بلطائفِ الأَفكارِ

وكذا النفوسُ اذا رمَتْ شَهَواتِها قَوِيَت لِعلمِ غوامضِ الاسرارِ

ومن محاسن شعرهِ فيها ايضاً قولهُ (من الطويل) :

أَمِطْ عن سناها الخَتْمَ طال بها العُمْرُ فما صانَها إلّا لأَربابِها العُمْرُ(١)

١) سبق انَّ العُمر الكنيسة والدير

فقد جئتُها يا راهبَ الدير خاطباً   لها راغباً فيها وان كثُرَ المَهْرُ
فقال: أُريدُ المَهرَ تِبرًا فانَّما   لَتُرْجِعُ صِفرَ الكفِّ ان ظهرَ الصُفْرُ
فقلتُ: إذَنْ قُمْ للعُقارِ مبادرًا   فكِلْ لهم تِبرًا وكِلْ لنا خمرًا
فقال: يُباعُ الوقفُ لا الخمرُ خمرَنا   فقد رذلتَ سَلماً يقوم بهِ التِبرُ
فقلتُ لهُ: خبِّرْ حقيقةَ أمرِها   لقد بان لي من سِرِّ انوارها خُبْرُ
فقال: هي الراحُ المسيحيَّةُ التي   جلا امرَها ربّي كما اشتهَرَ الأمْرُ
تناولَها سِمْعانُ ثمَّ تداولتْ   يمرُّ بها عصرٌ ويُذكر لها عصرُ
الى أن وجدنا في المذابح من سَنا   تجوهُرِها سِرًّا فبانَ لنا السرُّ
فكان لها خدْرُ الدِّنان فأصبحتْ   براحاتنا تُجْلى وكاساتُنا الخِدْرُ(١
اذا أُترِعتْ في كأسها او تَشعشعتْ   يُخالُ بها جمرٌ وليس بها جمرُ
مُشعشعة يزهو على البدر نورُها   كأنَّ سناها في جبينك يا بَدْرُ
معطَّرةٌ أعطافُها فكأنَّها   استُعير لها من طيِّ أعطافها النَّشْرُ

وقال ايضاً (من البسيط):

هذه هي الراحُ لا شِبهٌ لجوهرها   ولا يُماثلها باللُّطفِ مشروبُ
قد قال سيّدُنا والكأسُ في يدهِ:   هذا دمي لخلاص الخلقِ مسكوبُ

فترى ما بين هذه الخمريَّات وخمريَّة ابي الحفص الصوفي الشهير بابن الفارض من الشبه. ويعقوب الماردانيّ معاصر لابن الفارض فلا يبعد انَّ احدهما اخذ عن الآخر او جاراهُ في اقوالهِ. وهذه بعض ابيات للفارض يمكنُ عرضُها على اقوال صاحب دعوة القسوس:

---

١) الخَدْر مصدر خدَرَ بالمكان اذا لزمهُ. والخِدْر مقام الجارية المحصَّنة

شَرِبنا على ذكر الحبيب مدامةً سَكِرنا بها من قبل ان يُخلَقَ الكرمُ
لها البدرُ كأسٌ وهي شمسٌ يُديرها هلالٌ وكم يبدو اذا مُزِجَت نجم
فإن ذُكِرَتْ في الحيِّ أصبحَ أهلُهُ نشاوى ولا عارٌ عليهم ولا إثمُ
فلو نضحوا منها ثَرى قبرِ ميّتٍ لعادت اليهِ الروحُ وانتعشَ الجسمُ
ولو قرَّبوا من حائطٍ مُقعَدًا مشى وتَنطِقُ من ذِكرِي مَذاقتها البُكمُ
يقولون لي: صِفها فانت بوَصْفِها خبيرٌ، أَجَلْ عندي باوصافها علمُ
صفاءٌ ولا ماءٌ ولُطفٌ ولا هوًا ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جسمُ
تقدَّمَ كلَّ الكائناتِ حديثُها قديمًا ولا شكلٌ هناك ولا رَسمُ
وقامَتْ بها الاشياءُ ثَمَّ لِحِكمَةٍ بها احتَجَبَتْ عن كلِّ مَنْ لا لهُ فَهمُ
وهامَتْ بها روحي بحيثُ تَمازَجا م اتّحادًا ولا جِرْمٌ تخلَّلَهُ جِرمُ
ولا قبلَها قبلٌ ولا بَعدَ بَعدَها وقَبْلِيَّةُ الأبعادِ فهي لها حَتْمُ
وقالوا: شَرِبتَ الإثمَ. كلَّا وانما شربتُ التي في تركِها عنديَ الإثمُ
هنيئًا لاهل الدير كم سكروا بها وما شَرِبوا منها ولكنَّهم هَمُّوا
على نفسهِ فَلْيَبْكِ من ضاعَ عمرُهُ وليس لهُ فيها نصيبٌ ولا سَهْمُ

فلعمري انَّ الشبهَ ظاهر بين اقوال الفارضي وصاحب دعوة القسوس وعلى رأينا انهُ هو اخذ عن يعقوب الماردلني اقوالهُ فكساها ديباجاً فاخرًا يستطيع النصارى ان يحوّلوا معانيهُ الى سرٍّ طالما ذاقوا طعمهُ الالهي وحُرِمَهُ من لا يُدرك اعظم عطايا الله للعالم اي سرّ محبتهِ في القربان الاقدس

٣٤ يحيى بن ماري

﴿ نسبهُ دينهُ زمانهُ ﴾ ورد ذكرهُ في تاريخ الحكماء لجمال الدين القفطي (ص ٣٦٠–٣٦١) وفي مختصر خريدة القصر في شعراء العصر لعلي المعروف برضاني زاده المتوفى سنة ١٠٣٩هـ–١٦٢٩م) (Ms de Berlin. 7412 pp. 64) وفي مختصر تاريخ الدول لابن العبري(ص ٤١٦) قالوا : هو ابو العباس يحيى بن سعيد بن ماري النصرانيّ المتطبّب المعروف بالمسيحيّ . والمرجَّح انهُ كان نسطوريّ النحلة .

واصلهُ من الطِّيب بلدة بين واسط وخوزستان من موضع يقال لهُ الدُّوَير وكان ابوهُ قد انتقل من الدوير الى البصرة واولد ولدهُ هذا بها. قال جمال الدين: كان ابن ماري عالمًا بالطبّ وكان يطبُّ في مدينة البصرة في زماننا وكان عالمًا ايضاً بالادب ادركنا مَن روى عنهُ وفيمن ادركناهُ ابو حامد محمَّد بن حامد بن الة الاصفهانيّ العماد رحمهُ الله. وتوفي ابو العبَّاس يحيى بن سعيد بالبصرة لعشر بقين من شهر رمضان سنة ٥٨٩هـ(١١٩٣م)

﴿ ادبهُ وشعرهُ ﴾ جاء في مختصر خريدة العصر عن العماد الاصفهانيّ قال: «كان لابي العبَّاس معرفة بالادب وقد عمل ستين مقالةً على منوال المقامات الحريريَّة ورأيتُها معهُ وما قصَّر فيها». وقال جمال الدين القفطي: وكان للمسيحيّ هذا معرفة بالادب صادقة وربَّما امتدح بالشعر اجلَّاء الواردين على البصرة. وأنشأ وصنَّف المقامات الستّين صنَّفها واحسن فيها وكان فاضلًا في علوم الاوائل وعلم العربيَّة والشعر يرتزق بالطب». وذكر الحاج خليفة مقاماته (H.Kh., VI, p. 65, n° 12721) قال: «المقامات المسيحيَّة لابي العباس يحيى بن سعيد بن ماري النصرانيّ البصري الطبيب المتوفّى في رمضان سنة ٥٨٩ نسج فيها على مثال مقامات الحريريّ. قال ياقوت: اجاد فيها. قال الصفدي: ما اجاد ولا قارَبَ الإجادة. والمقامات الجَزَريَّة والمقامات التميميَّة خيرٌ منها وما قارَبتا الحريريَّة»

(قلنا) اننا اطَّلعنا في مكتبة ڤيِنَّا عاصمة النمسة (Flugel : Die arab. Handschriften I, 358, Ms 384) على مجموعة مقامات في عدد سبع وعشرين مقامة نُسبت لابن ماري المذكور وانتسخنا قسماً منها اوَّلها المقامة الفقهيَّة ثمَّ الروميَّة ثمَّ الشعريَّة وآخرها المَرْجيَّة. ثمَّ اطَّلعنا في بغداد في كانون الاوَّل سنة ١٨٩٥ على نسخة أخرى قديمة كاملة من المقامات المسيحيَّة في خزانة كتب الحيدرخانة لم يسمح لنا قصر الزمان بنقلها وانَّما نقل منها حضرة الاب انستاس الكرملي مقدَّمتها ومقامتها الاولى المعروفة بالرهاويَّة فنشرناها في المشرق(٣[١٩٠٠]: ٥٩١ـ٥٩٨). وقد قابلنا بين نسختي ڤيِنَّا وبغداد فرأينا بينهما اختلافاً كبيرًا ليس في عدد المقامات فقط بل في إنشائهما. فالقدّمة في كلتيهما تختلف اختلافاً تامًّا وكذلك يختلف الراوي والمرويّ فانَّ في نسخة بغداد يدعى راوي المقامات يحيى بن سلَّام وفي نسخة ڤيِنَّا

اسمهُ ابو الخير بن الحارث يروي عن ابي الفضل . وقد ارتبنا في نسبة هذه النسخة الى ابن ماري لأنَّ في مقدّمتهِ يذكر نبيَّ الاسلام ويصلّي عليهِ على خلاف عادة النصارى وعلى خلاف ما ورد في نسخة بغداد ودونك قطعةً من مقدّمة نسخة ڤينّا

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهمَّ على ما بلّغتنا من البلاغة ، وسوّغتَ لنا من الصناعة والصياغة، وعلى ما ألهمتنا من التبيان البديع ، والبنيان الرفيع ، وعلى ما ذلّلتَ لنا من جوامح الشوارد ، ودلّيتنا (كذا) عليهِ من لوائح الفوائد ، وما ارشفتنا بهِ من سوافح الموارد ، واشرفتنا عليهِ من سفح المقاصد ، ونشكرك على ما علّمتنا من نوابغ الحِكَم ، ونمّمتنا بهِ من سوابغ النِعَم ، ونصلّي على أفصح من نطق بالضاد والذال ، ومن هو الى الخير هادٍ وعلى الحقّ دالّ ، سيّدنا محمّد الذي اخمد الضلال ، بأحمدِ الخصال ، وعلى سائر صحبهِ والآل ، ما طلع هلالٌ ولمع آل - وبعدُ فانَّ المقامات الحريريَّة اشهر من أن تُذكر ، واكبر من ان تُكبَّر ، وقد حازت قصب السبق في مضمر البلاغة البالغة ، وكلّت فيها البصائر والابصار فهي ما بين رائقة وزائغة ، لان الحريري ادهش كلّ ناسجٍ على منوالهِ ، وحيّر كلّ عامرٍ في مسلك مقالهِ ، حيث اخترع واستوعب ، واقترح واستصوب ، وقد كلّفني مَنْ لا أُطيق ردَّهُ ، ولا استطيع صدَّهُ ، ان اقفو اثرهُ ، واتلو خبرهُ ، ليورق لي في روض الغراس عودٌ ، ويُشرق لي في افق الكمال سعودٌ ، لعمري انهُ تكليفُ ما لا يُطاق ، وتعجز النفس بالامر الشاقّ ، فتطفّلتُ عليها باللطافة ، وارتديتُ فيها بلفافه ، وقنعتُ من البحر بالوشل، ومن الغزيرة بالنزر الاقلّ ، وقد تطفّل قبلي الموصليُّ والقوّاس ، وكلٌّ رمى ولم يصب واخطأ القياس ، ولسان الحال ينادي ، للرائح والغادي

كم عاشقٍ قد ماتَ حولَ خيامنا اسفًا ولم يَظفَرْ بكشف البُرقعِ . . .

وكفى بهذا دليلًا على طريقة الكاتب ولا نبتُّ الحكم في صحّة نسبة هذه المقامات لابن ماري . ويزيدنا ارتياباً فيها انَّ مدار كثير منها على مسائل اسلامية كالفقه والحديث واسانيد قرآنيّة . هذا ما ظهر لنا من مطالعة هذه المقامات في نسخة مكتبة ڤينّا . ولم نجد فيها من البلاغة ما يُنسب الى مقامات ابن ماري ففيها يصحُّ قول الصفديّ : لا اجاد ولا قارب الاجادة

امَّا نسخة بغداد فلعلَّها هي الصحيحة وقد جاء في مقدَّمتها اسم ابن ماري صريحًا على خلاف نسخة فينَّا التي قُدّم الاسم على الكتاب كأنَّهُ من غير قلم مؤلفها . فضلًا عن ان المقامات فيها سبعٌ وعشرون بدلًا من ستّين كما يروي الكتَبة وكما تُرى في نسخة بغداد . ويا ليت احدًا من ادباء الحدباء يتولَّى نشرها بالطبع فيستحقّ شكر محبّي الآثار النصرانيَّة

امَّا شعر يحيى بن ماري فقد روى منهُ العماد الاصفهاني وابن العبري هذين البيتين (من البسيط) :

نَفرَتْ هندُ من طلائعِ شيبي واعترتْها سآمةٌ من وُجومي
هكذا عادةُ الشياطين ينفرْ نَ اذا ما بَدَتْ نجومُ الرُجوم

وروى لهُ العماد قولهُ في مديح (من الكامل) :

واذا نطقتُ فأنتَ لفظُ مقالتي واذا سكتُّ فانتَ سِرُّ خاطري

ومما يروى لهُ في صداقة الادباء الصالحين (من الكامل) :

عُدنا وعادَ الأُنسُ والأَفراحُ واضاء في مِشكاتنا المصباحُ
وجرت منادمةٌ يفوح أريجها كالروض نمَّ بعَرْفهِ الأَرياحُ
وعلى العَفافِ قد انطوت أحوالُنا حبًّا بتقوى الله وهي رَباحُ
لا عيبَ فينا غير حُسْنِ فَعالنا جهرًا وهل يهوى الفسادَ صلاحُ
تأبى المحبَّةُ بالفسادِ وما لها عمَّن تحلَّى بالصَّلاح بَراحُ
كم عاشقٍ قد ذلَّ بعد فسادهِ والعزُّ في اهل التُّقى وضَّاحُ

ومن ظريف ألغازه ما قالهُ في الجسم والروح (من الطويل) :

إلفانِ لم يُدرَك حقيقةَ واحدٍ سوى اللهِ والثاني لدى الحسِّ ظاهرُ
يُفارِقُ ذا هذا ويبقى وذا غليظٌ تراهُ في الوجودِ النواظرُ
وذاك قديمٌ في الحدوث وذا لهُ حدوثٌ قريبٌ والمعاندُ كافرُ

ومثلهُ لغزهُ في القبر والنعش (من الطويل) :

رفيقانِ منقولٌ وآخرُ ثابتٌ وكلٌّ لكلٍّ لازمٌ واجبُ القهرِ
يُحمَّلُ هذا ساعةً ورفيقُهُ يُضمَّنُ ما يبقى الى زمن الحشرِ
يحفُّ بهذا الناسُ من كلِّ جانبٍ الى ذاك حتى يَغنموا غايةَ الأجرِ
ويَستودعوا ما أثقلوا منهُ ظَهرَهم لآخرَ حتى يأذنَ اللهُ بالأمرِ

وكذلك ألغزَ في الليل والنهار (من الطويل) :

وضِدَّينِ هذا مثلُ هذا تعاقَبا وكم بهما عدَّ الانامُ حقائبا
فهذا بصيرٌ لا يَضِلُّ عن الهدى وهذا عميٌّ ليس يُبصرُ ذاهبا
تَحرُّكُنا في ذا وفي ذا سكونُنا وطورًا نرى سعياً وطورًا تجانُبا
وفي ذَينِ آياتٌ لاهلِ النُّهى على جلالة ربِّ العرشِ تُبْدي العجائبا

٣٥ بنو مماتي النصارى الاقباط

﴿اصلهم ودينهم وزمنهم﴾ بنو مماتي اسرةٌ شريفة قبطيَّة اصلها من اسيوط في صعيد مصر كانت تدين فيها بالنصرانيَّة وهي تنتمي الى ابي مليح الملقَّب بمماتي. قال ابن خلكان (ص ١٠١) : «كان ابو مليح نصرانيًّا وانَّما قيل لهُ مماتي لانهُ وقع في مصر غلاءٌ عظيم وكان كثير الصَّدقة والإطعام وخصوصاً لصغار المسلمين

فكانوا اذا رأوهُ نادى كلّ واحدٍ منهم «مَمَّاتي» فاشتهر بهِ»

قال ياقوت في معجم الادباء (٢ : ٢٤٤) يذكر انتقال بني ممَّاتي الى مصر قال :

«قدموا مصر وخدموا وتقدَّموا وولُوا الولايات . وهو (اي ابو مليح) مع ذلك من اهل بيت في الكتابة عريق. وهو كالمستولي على الديار المصريَّة ليس على يده يدٌ . . وكان الى ممَّاتي كثير من اعماله»

وكان في تلك الأيَّام وزيرًا على مصر بَدرُ الجمالي امير الجيوش في ايام الخليفة المستنصر بالله وكان ابو مليح احد عمَّالهِ يكتب في ديوان مصر ويتولَّى استيفاء الديون

ومما اخبرهُ ياقوت في معجم الادباء (٢ : ٢٤٤—٢٤٦) عن الوزير جمال الدين الشيباني ما حرفهُ :

«بلغني انَّ بعض تجَّار الهند قدم الى مصر ومعهُ سمكة مصنوعة من عنبر قد تُنُوِّقَ (في الاصل تُنُوِّقَ بالغلط) فيها وأُجيد وطُيِّبت ورُصِّعت بالجواهر فعرضها على بدر الجمالي ليبيعها منهُ فسامها من صاحبها فقال : لا أنقصها من ألف دينار شيئًا . فأُعيدت اليهِ . فخرج بها من دار بدرٍ فقال لهُ ابو مليح : أَرِني هذه السمكة . فأراهُ ايَّاها فقال لهُ : كم سُمتَ فيها ؟ فقال : لا أُنقصها من الف دينار درهمًا واحدًا . فاخذ بيدهِ وقبض ألف دينار من مالهِ وتركها عندهُ مدَّةً . فاتَّفق ان شربَ ابو مليح يومًا وسكر وقال لندمائهِ : قد اشتهيتُ سمكًا هاتُمْ المِقْلى والنار حتى نقليهُ بحضرتنا . فجاؤوهُ بمقلى حديد وفحم وتركوهُ على النار وجاء بتلك السمكة العنبر فتركها في المقلى . فجعلت تنقلي وتفوح روائحها حتى لم يبقَ بمصر دارٌ إلَّا ودخلَتها تلك الرائحة . وكان بدرُ الجمالي جالسًا فشمَّ تلك الرائحة وترايدت . فاستدعى الخُزَّان وامرهم بفتح خزائنهِ وتفتيشها خوفًا من حريق قد يكون وقع فيها . فوجدوا خزائنهُ سالمةً فقال : ويحكم انظروا ما هذا . فتنشَّوا حتى وقفوا على حقيقة الخبر فاستعظم وقال : هذا النصراني الفاعل الصانع قد أكل اموالي واستبدَّ بالدنيا دوني حتَّى امكنهُ ان يفعل هذا . وتركهُ الى الغداة فلما دخل اليهِ وهو مُغضَب قال لهُ : « ويحك أَستعظِمُ انا وانا ملكُ مصر شريَ سمكة من العنبر فأتركها استكثارًا لثمنها فتشتريها انت . ثمَّ لا يُقنعك حتى تقليَها وتذهب في ساعةٍ واحد بألف دينار مصرية ؟ ما فعلتَ هذا إلَّا وقد نقلتَ بيت اموالي اليك وفعلت » . فقال لهُ : « والله ما فعلتُ هذا الَّا غَيرةً عليك ومحبة لك فانَّك اليوم سلطان نصف الدنيا وهذه سمكةٌ لا يشتريها إلَّا ملك فخفتُ أن يذهب بها الى بعض الملوك ويخبرهُ بأنك استعظمتها ولم تشترها فأردتُ ان اعكس الامر وأُعلمهُ انك ما تركتها إلَّا احتقارًا لها وانَّما لم يكن لها عندك مقدار وانَّ كاتبًا نصرانيًا من كتَّابك اشتراها وأحرقها فيشيع بذلك ذكرُك ويعظم عند الملوك قدرُك » . فاستحسن بدر ذلك منهُ وامر لهُ بضعفي ثمنها وزاد في رزقهِ»

واردف ياقوت : وكان مماتي مع ذلك كريماً ممدحاً قد مدحهُ الشعراء . فذكر ابو الصلت في كتاب الرسالة المصريّة لهُ انَّ ابا طاهر اسماعيل بن محمّد النشاع المعروف بابن مكنسة (١ كان منقطعاً اليه فلمَّا مات مماتي رثاهُ ابن مكنسة بقصيدة منها :

ماذا أُرجّي من حيا ۝ ةٍ بعد موت ابي المليح (٢

طُويَتْ سماء المكرما ۝ تِ وكوّرت شمسُ المديح

ما كان بالنكس الدنيّ ۝ ـم من الرجال ولا الشحيح

ولما وليَ الافضلُ ابن امير الجيوش بدر الجمالي بعد ابيهِ دخل اليهِ ابن مكنسة مادحاً فقال لهُ : ذهب رجاؤك بموت ابي المليح فما الذي جاء بك الينا ؟ وحرمهُ ولم يقبل مديحهُ

وقرأنا في كتاب البدر السافر في انس المسافر (ص ١١٤) لكمال الدين ابي الفضل جعفر الادفوي المتوفَّى سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤١م) انَّ ابا مليح مماتي كان اسمهُ مينا وانهُ ابن ابي زكريَّا بن ابي قدامة . قال(ص ١٩٨) :

« وكان جوهريًّا بمصر وكان يصبغ البلُّورَ صبغةَ الياقوت فلا يميّز بينهما إلّا الخبير بالجوهر . قال الوزير القفطي : حكى لي رجلٌ يُعرَف بالرشيد الصائغ انــهُ اذا كان نودي على القصّ من صنعتهِ تشوَّفت نحوهُ العيون اكثر من تشوُّفها الى غيرهِ من الجوهر لجودتهِ وحسن منظرهِ »

﴿ولدهُ المهذَّب مماتي﴾ قال ياقوت في معجم الادباء (٢ : ٢٤٦) : « امَّا المهذَّب ولدهُ (اي ولد ابي مليح) وكان يلقَّب بالخطير فانهُ كان كاتب ديوان الجيش بمصر في اواخر ايَّام المصريّين (يريد الفاطميين) واوَّل يوم بني أيوب مدَّةً فقصدهُ الكتّاب وجعلوا لهُ حديثاً عند صلاح الدين يوسف بن ايوب او(وزيره)اسد الدين شيركوهُ وهو يومئذٍ المستولي على الديار المصرية فخاف المهذَّبُ فجمع اولاده ودخل على السلطان واسلموا على يده فقبلهم واحسن اليهم وزاد في ولاياتهم »

ثمَّ نقل هناك ما اخبرهُ ابو المكارم اسعد ابن المهذَّب عن ابيــهِ الخطير قال انهُ كان مرتَّباً على ديوان الاقطاعات وهو على دين النصرانيَّــة فلمَّا علم اسد الــدين شيركوه في بــدء امرهِ بمصر انهُ نصراني وانهُ يتصرَّف [في عملهِ] بلا غيار نهــاهُ وامرهُ بغيار النصارى ورفع الذؤابة وشدّ الزنّار وصرفهُ عن الديوان فبادر هو واولاده

١) وفي الخطط للمقريزي (٢ : ١٦٠) يدعوهُ : ابن المكيسة وهو تصحيف

٢) ويروى : « من ذا أُؤمّل» ويروى : تناثرت شُهب العلا من بعد . . .

فأسلموا على يدهِ فاقرّهُ على ديوانهِ مدّةً ثم صرفهُ عنهُ فقال فيه ابن الذروي :

لم يسلمِ الشيخُ المطيرُ رغبةً في دين أحمدْ
بل ظنَّ انَّ بحالهُ يُبقي لهُ الديوانَ سرمدْ
والآنَ قد صرفوهُ منهُ فدينهُ فالعود أحمدْ

فترى من هذا ما كان يقاسيهِ النصارى من العنت فيُسلمون لا حبًا بالاسلام واقتناعاً بصحّتهِ بل خوفاً من ضرر يلحق بهم او منصب يفقدونهُ . فلا يصحّ ان ننظم مثل هؤلاء في سلك المسلمين . وقد اخبر ياقوت الرومي عن سبب وفاة المهذَّب (ص ٢٤٨) قال :

ومن عجيب ما جرى للخطير انهُ كان يوماً جالساً في ديوانهِ في حجرة موسومة بديوان الجيش من قصر السلطان بمصر . وكانت حجرةً حسنة مرخَّمة منمَّقة فجاءهُ قومٌ وقالوا لهُ : قم من هاهنا . فقال لهم : ما الخبر ؟ فقالوا : قد تقدَّم الملك العادل ابو بكر بن أيُّوب بأخذ رخام هذه الحجرة وان نمسّر بهِ موضعاً آخر . فخرج منكسرًا كاسفاً فقيل لهُ في ذلك فقال : « قد استُجيبَتْ فينا دعوةٌ وما اظنّني اجلس في ديوان بعدها . أما سمعتم اذا بالغوا في الدعاء علينا قالوا : خرّبَ الله ديوانَهُ . وما بعد الخراب الّا اليباب . ثم دخل منزلهُ وحُمَّ فلم يخرج منهُ إلّا ميتاً »

وكانت وفاة الخطير يوم الاربعاء ٦ رمضان سنة ٥٧٧ (١١٨٢م) وذكر الأُدباء للمهذَّب شعرًا فمن ذلك ما قالهُ لاسد الدين شيركوهُ لمَّا امرهُ بالغيار (من السريع) :

يا أسد الدينِ ومَنْ عدلُهُ يَحفَظُ فينا سُنَّةَ المصطفى
كفى غِيارًا شدُّ أوساطِنا فما الذي اوجبَ(١) كشفَ القفا

ومن شعرهِ ما رواهُ عنهُ سعيد بن ابي الكرم بن هبة المصري يتغزَّل بابي سعيد ابن ابي اليمن النحَّال وزير العادل وكان نصرانيًا وأسلم وكان املحَ الناس وجهاً فقال المهذَّب (من السريع) :

وشادنٍ لمَّا بَدا مُقبِلًا(٢) سبَّحتُ ربَّ العرش باريهِ
ومُذْ رأيتُ النَّحلَ في خدّهِ(٣) أيقنتُ انَّ الشهْدَ في فيهِ

وكان ابن النحَّال يسكن في اوَّل درب نور الدين في مصر وكان في آخرهِ صبيٌّ آخر

---

١) ويروى : يوجبُ

٢) وفي ياقوت (ص ٢٤٨) : وشاذن (بالذال وهو غلط) لمَّا أتى

٣) ويروى : النمل في خدّهِ

نصراني مثلهُ حسناً يُعرَف بابن زنبور فقال المهذّب (من الطويل) :

حوى دربُ نور الدين كلَّ شمَرْدلٍ مشدَّدةٍ اوساطُهم بالزنانيرِ
فأوّلُهُ للشَّهد والنَّحلِ منزلٌ وآخرهُ يا سادتي للزنابيرِ

ومن ظريف قولهِ ممَّا رواهُ الادفوي (من الطويل) :

ولمَّا بكَتْ عيني دماء لِفَقْدكم تيقَّنتُ انَّ القلبَ فيهِ كلومُ

وروى لهُ العماد الاصبهاني في الخريدة قولهُ في كتمان السرّ (من البسيط) :

واكتمُ السرَّ حتَّى عن إعادتهِ الى المُسِرّ بهِ من غير نسيانِ
وذاك أنَّ لساني ليس يُعلِمُهُ سَمْعي بسرّ الذي قد كان ناجاني

وروى ايضاً (Ms. Berlin 7412, ff. 180) يصف الخمر (من البسيط) :

اذا انبرتْ من فمِ الابريقِ تحسَبُها شِهابَ ليلٍ رُمي في الكاسِ شَيْطانا

قال : ومن شعرهِ من قصيدةٍ (من الطويل) :

ابيتُ رقيبَ النجم منها كأنَّما عُيوني لم يُخلَقْ لهنَّ جفونُ

ومنها :

كأنَّ ظلامَ الليل اذ لاحَ بَدْرُهُ دُجوجيُّ شَعْرٍ لاحَ منهُ جبينُ
كأنَّ الثريَّا ترقبُ الليلَ غَيرةً فقد هجرَتْ منها المنامَ عيونُ
كأنَّ سُهيلًا في مطالع أُفقهِ فؤادٌ مَرُوعٌ خامرَتْهُ ظُنونُ
كأنَّ السُّها تبدو أواناً وتنجَلي لدى الليلِ سِرٌّ في حشاهُ مَصُونُ

﴿ابنُ الاسعد مَمَّاتي﴾ هو شرف الدين ابو المكارم اسعد بن المهذَّب مَمَّاتي المصري الكاتب الشاعر. قال ياقوت في معجم الادباء(٢ : ٢٤٩)والمقريزي في الخطط (٢ : ٢٦٠) : «خلف اباهُ على ديوان الجيش وتصدَّر فيهِ مدَّةً طويلة ثمَّ أُضيف اليهِ ديوان المال وهو اجلُّ ديوان من دواوين مصر واستمرَّ في ذلك مدَّة ايام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأيَّام ابنهِ الملك العزيز عثمان وولي نظر الدواوين واختصَّ بالقاضي الفاضل عبد الرحمان بن علي البيساني فنفق عليهِ وحظي عندهُ وكُرِّم لديهِ فقام بامرهِ واشاع من ذكرهِ ونبَّه على فضلهِ وصنَّف لهُ عدَّة تصانيف باسمهِ وكان يسمّيهِ بلبل المجلس»

قال المقريزي في الخطط : «ولم يزل بمصر حتى ملك السلطان الملك العادل ابو بكر بن أيوب ووَزَرَ لهُ صفيُّ الدين عليّ بن عبدالله بن شكر فخافهُ الاسعد لِما كان يصدر منهُ في حقهِ من الاهانة وشرع الوزير ابن شكر في العمل عليهِ ورتَّب لهُ مؤامرات ونكبَهُ وأحال عليهِ الاجناد ففرَّ من القاهرة وسقط في حلب»

قال ياقوت في معجم الادباء حدَّث الصاحب جمال الدين الاكرم قال: لمَّا ورد الاسعد الى حلب نزل في داري فاقام عندي مدَّةً وذلك في سنة ٦٠٤ (١٢٠٧م). وعرف الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين خبرهُ فاكرمهُ وأجرى عليهِ في كل يوم دينارًا صوريًّا وثلثة دنانير أُخرى أُجرة دار . . . واقام عندهُ على قدم العطلة الى سنة ٦٠٦ وفيها مات سلخ جمادى الاولى سنة ٦٠٦ (١٢٠٩م) عن ٦٢ سنة فدُفن بظاهر حلب بمقام بقرب قبر ابي بكر الهروي»

واشتهر الاسعد بادبهِ ومصنَّفاتهِ. قال العماد الاصبهاني: «كان فاضلًا اديبًا شاعرًا ناثرًا . . . وتأدَّب وصنَّف مصنَّفات في فنون عدَّة منها كتاب سرّ الشعر صنَّفهُ للملك العزيز. وكتاب علم النثر. ونظَم سيرة السلطان صلاح الدين يوسف ونظم كتاب كليلة ودمنة. ومن تآليفهِ الممتعة كتاب صحَّة الحقّ على الخلق في التحذير من سوء عاقبة الظلم وهو من اهمّ ما طالعهُ الملوك كان السلطان صلاح الدين يُكثر النظر فيهِ. وصنَّف ايضاً للملك العزيز كتاب قوانين الدواوين فيما يتعلَّق بدواوين مصر ورسومها واصولها واحوالها في اربعة اجزاء ضخمة ذكر فيهِ اربعة آلاف ضيعة من اعمال مصر ومساحة كل ضيعة وقانونَ ريّها ومتحصَّلها من عين وغلَّة وكتب اخرى

كثيرة عدَّدها ياقوت في معجم الادباء (٢ : ٢٥١)

ولاسعد مماتي ديوان شعر تعدَّدت محاسنهُ فروى منهُ الادباء عدَّة مقاطيع. فمن ذلك ما رواهُ عنهُ السيوطي في اخبار مصر والقاهرة (٢ : ٢٠٧و٢٠٨) يصف جزيرة مصر (من الطويل):

جزيرةَ مِصرٍ لا عَدتْكِ مَسرَّةٌ ولا زالتِ اللذَّاتُ فيكِ اتّصالُها
فكم فيكِ من شمسٍ على غُصن بانةٍ يُميتُ ويُحيي هَجْرُها ووِصالُها
مغانيكِ فوقَ النيلِ اضحَتْ هوادجاً ومختلفاتُ الموجِ فيها جِمالُها(١
ومن أعجبِ الاشياء انَّكِ جَنَّةٌ تُدِفُّ على اهلِ الضَّلالِ ظلالُها(٢

وقال في الروضة وقد حلَّها السلطان الكامل محمَّد (من الطويل):

جزيرةَ مصرٍ انتِ اشرفُ موضعٍ على الارض لمَّا حلَّ فيكِ محمَّـدُ
وفيكِ عَلا البَحرانِ لكنَّ كفَّ ذا على الناسِ أندى بالعطاء وأجودُ
واصبحَتِ الاغصانُ من فرَحٍ بهِ تمايلُ والأَطيار فيكِ تَغرَّدُ
فرَقَّ نسيمٌ حين سار وجَـدْوَلٌ ويشدو هَزارٌ حين يرقصُ أملَدُ

وانشد في وصف الخليج (من الوافر).

خليجٌ كالحُسام لـهُ صِقالٌ ولكنْ فيـهِ للرَّائي مَسرَّهْ
رأيتُ بهِ المِـلاحَ تَعومُ فيهِ (٣ كـأنَّهمُ نجـومٌ في المَجرَّهْ

وممَّا قالهُ في تحامُل الوزير صفيّ الدين عليهِ وهربهِ الى حلب (من الطويل):

---

١) روى المقري في نفح الطيب (١ : ٢١) : فيك حبالها
٢) وفي المقري: تمدُّ. اراد انها يستظلُّ تحت اغصانها غير المسلمين فنعتَهم باهل الضلال
٣) كذا في الاصل. وفي نسخة اخرى : تجيد عوماً

تنكَّرَ لي ودُّ الصفيِّ ولم أكُنْ بهِ رافعاً رأساً لوِ اعتدلَ الزَّمَنْ
ولكن علا عند انخفاضٍ وساءني وحسبُكَ من شخصٍ تركتُ لهُ الوطنْ

وقال ايضاً (من مجزوء الكامل):

لا تقبلنَّ من الوُشا ةِ وتُقبِلَنَّ على العواذِلْ
فالعينُ قد جُنَّتْ ببُعْـدِكَ والدموع لها هواطِلْ

ودخل يوماً على صلاح الدين فوجدهُ يلعب بالشطرنج فقال (من السريع):

ان يَكُنِ الشِطرَنجُ مَشغَلَةً لعليِّ القَدرِ والهِمَمِ
فهي في ناديك تذكرةٌ لأمور الحربِ والكَرَمِ

وقال في غلام نحويّ (من السريع):

وأهيفٍ أحدثَ لي نَحوُهُ تعجُّباً يُعرِبُ عن ظَرْفِهِ
علامةُ التأنيثِ في لفظهِ وأحرفُ العِلَّةِ في طَرْفِهِ

وروى لهُ الصفدي في شرح لاميَّة العجم (من السريع):

أَيَسكُنُ الناسُ وقد حاطَهُمْ سبعةُ افلاكٍ عليهم تدُورْ
والدارُ في الاخرى دهاليزُها في هذه الدنيا لُحودُ القُبورْ

وقال في وصف الحسود (من الخفيف):

لا تُصغِ للحَسودِ في ذَمِّهِ م النعمةَ مع كونهِ العجولَ اليها
فهو مثلُ السحابِ اذ حجبِ الشمسَ م عن العينِ ثمَّ يبكي عليها

ومما مدح بهِ الظاهر الغازي في حلب قولهُ (من الوافر):

أَسكَرانُ نديمُ العَدُوِّ غازٍ واسماء الملوكِ لها حُلاها
كأنَّ السُمْرَ رَيِّشَها طوالٌ فكم نَفسٍ بهنَّ قد استقاها
اذا اكتحلَتْ عيونٌ من عُداةٍ بغيرِ حيلةٍ وجدَتْ عَماها

وأطمعَ نفسَ أسمرهِ واضحى يفتّش من قوسٍ ما خباها
كأنك خِلتها سترَتْ كميناً فتطعنها لتُبصِرَ ما وراهـا
سلِ البيت المقدّس عنهُ يُخبرْ بسُورة فتحـهِ لمـاً تلاهـا

وروى لهُ ابن خلكان في المعاتبة (من الوافر):

تُعـاتبني وتَنهى عن امورٍ سبيلُ الناسِ ان يَنهوكَ عنها
أتَقدِرُ ان تكونَ كمثل عيني وحقّك ما عليَّ أضرُّ منها

وقال منوّهاً بنهري دمشق ثَورا و بَرَدَى (مجزوء الوافر):

حكى نهرينِ ما فيْ الار ضِ مَن يَحكيهما أبدا
حكى في خَلقهِ ثَوْرًا وفي اخلاقهِ بَرَدى

اخذهُ من قول بعضهم فيهما وفي نهر يزيد:

ضاهى ابنُ بشرانَ مدينةَ جلّقٍ كلاهما يوم الفخـارِ فريدُ
ألفاظهُ بَرَدى وصورةُ خلقـهِ ثورا ونقصُ العقلِ هو يزيدُ

وقال في الغزل (من الرجز):

سمراء قد أزرَتْ بكل أسمرٍ بلونها ولينهـا وقدّهـا
انفاسُها دخانُ ندٍّ خالهـا وريقُها من ماء وَردِ خدّهـا
لو كتبَ البدْرُ الى خدمتها رسالةً ترجمهـا بعبدِهـا

وقال يصف كريماً (من الطويل):

لنيرانهِ في الليلِ ايُّ تحرُّقٍ على الضَّيفِ إن أبطا وايُّ تَلَهُّبِ
وما ضرَّ من يَعشو الى ضوء نارهِ اذا هو لم ينزل بآل المهلّبِ

٣٦ الاسعد ابن عسّال

﴿ اصلهُ ودينهُ وشعرهُ ﴾ بنو العسّال ثلثـة اخوة المؤتمن والصفي والاسعـد

اشتهروا كلُّهم بالآداب والتصنيف في القرن الثالث عشر للميلاد وقد اثبتنا ما وقفنا عليهِ من مصنَّفاتهم في كتابنا المخطوطات العربية الكتبة النصرانيَّة (ص١١–١٣). وكان اصلهم من مدينة سدَمَنت في الفيوم من اسرة القس بطرس السَّدَمَنتي الذي ذكرنا لهُ بعض التآليف في الكتاب المذكور (ص ٦٢) انتقلوا الى مصر ودخلوا في دواوين الدولة المصريَّة على عهد المماليك. ولم نعثر لاحد منهم على آثار شعريَّة إلَّا للمدعوّ الاسعد ابا الفرج هبة الله. ورد لهُ في احد مخطوطات مكتبة الاقباط في مصر ارجوزة صنَّفها في تعريف قوانين الميراث عند النصارى. ذكرها الاديب جرجس فيلوثاوس عوَض ملحقةً بكتاب المجموع الصفوي تأليف اخيهِ الشيخ الصفي ابي الفضائل بن العسَّال. وها نحن نورد منها قسماً صالحاً تثبت ما كان لهُ من المقدرة بالنظام. قال:

مقدّمة

الشكرُ لله الوحيدِ الذاتِ سبحانَهُ مثلَّثَ الصفاتِ
أحمَدُهُ كمثلما هوَ أهلُهُ اذ فاضَ بحرُ جودِهِ وفضلُهُ
أزيدُ في التمجيدِ والتسبيحِ لابن الالهِ السيّد المسيحِ
أنقذَنا من ظلمة الجهالَهْ ومن جحيمِ الكفر والضلالَهْ
يا أيُّها الطالبُ علمَ الشرعِ في الإرْث خُذْ مُختصَرًا من فرعِ
إسمَعْ هُديتَ أفضَلَ السبيلِ جمَلتَهُ نظماً بلا تفصيلِ
إبدأْ بما يصلحُ للأكفانِ والقبرِ والحُمَّالِ والقربانِ
أوْفِ الديونَ قبلَ أن تُقسَما فالشَّرعُ قد صيَّرهُ مُقدَّما

عدد مراتب الورّاث

وإن تُرِدْ مَعرِفَةَ المَراتبِ لكي تُعَدَّ من ذوي المناصبِ

فانّها عشرونَ واثنتــان بَعيدُهــا محتجبٌ بالــداني
لا رتبــةٌ مع قَبلِهــا بوارثَهْ رابعةٌ ليس ها مع ثالثَهْ
اولُها البنونُ والبنــاتُ لا فرقَ بل هُنّ مساوَياتُ
والأمُّ مثلُ احــدِ الاولادِ والابُ مثلٌ في القياس الهــادي
ان مات ميتٌ ولــهُ فردُ ولَــدْ لزوجــهِ الرُّبعُ فعَنــهُ لا يُحَــدْ
والنصفُ والربعُ لابن الميّتِ أعطِ لهُ هذا بلا تشتُّتِ
وكلّ ما زادوا عن الثلاثَهْ تكونُ مثلهنّ في الوِراثَــهْ
مثالهُ كان البنونَ اربعَــهْ فالخُمسُ حصّتُها بلا مدافعهْ

ثمّ يعدّد الناظم بقية المراتب الى ان يقول :

والزوجُ ان ماتَ بــلا اولادِ للزوجةِ النصفُ بلا عِنــادِ
والزوجُ والزوجة في الحكم سَوى والنصفُ للاهلِ فدَعْ عنك الهوَى

ومنها :

والامُّ ان كانت مع الأعمامِ تحوزُ ثُلثَيــهِ بلا كــلامِ
اولادُ عمٍّ ميّتٍ من حُــكمِهمْ ثُلثٌ لُهم مع زوجةٍ لعمّهمْ
وجدّةٍ من والدِ وجدّتِهِ ثُلثٌ لهمْ من إرثهِ مع اخوتهْ
هذا اذا لم تكنِ الوصيّهْ أحكامُها شرعيّةٌ مَرضيّــهْ
لأنّها ان لم تكن شرعيّهْ كان كمَن ماتَ بلا وصيّهْ

لا يمنعُ المرء من التصرُّفِ   في النصفِ والرُّبع بلا توقُّفِ
فان يَزِدْ عنهُ فلا تَدَعهُ   واعمَلْ بما قلنا ولا تُضِعْهُ
والملكُ إن يوقَفْ لغير مؤمنِ   فبَطِلِ الوَقْفَ ولا تُمكِّنِ
وأسقفٌ ومثلهُ في التكرِمَهْ   يكتبُ ما يملكُ قبل التقدمَهْ
حتَّى اذا تنيَّحوا فأهلُهُمْ   غيرَ الذي جاءوا بهِ ليس لهُمْ
وما يَزِدْ فانَّهُ للبِيعَهْ   بكل هذا تحتمُ الشريعَهْ
ومن يَمُتْ في الدير من رهبانِ   فلن يجوزَ ارثهُ علماني
لكنَّه للدير والإخوانِ   كما يراهُ اعظمُ الرهبانِ

وهذه خاتمتها :

نظمتُها للحفظِ حتَّى يَسْهَلا   فاستغفرِ الرحمانَ لي ثم اسألا
فان تجدْ عيباً فسُدَّ الخللا   فجَلَّ من لا عيبَ فيهِ وعلا

ولم نقف على سنة وفاة ناظم هذه الارجوزة كما تُجهل سنة وفات اخويهِ المؤتمن والصفيّ . وما لا شكَّ فيهِ انَّ الاخوة الثلثة اشتهروا منذ اوائل القرن الثالث عشر وبلغوا اواسط ذلك الجيل . وقد جاء لاحدهم الشيخ الصفيّ في آخر بعض تآليفهِ انهُ كتبهُ سنة ٩٥٥ للشهداء وهي توافق السنة ١٢٣٨ للمسيح

٣٧ ابن ابي الثناء ابن كاتب قيصر

﴿نسبهُ دينهُ وادبهُ﴾ ذكرهُ معاصرهُ ابو اسحاق المؤتمن ابن عسّال في مقدّمة

كتابهِ عن النحو القبطي المسمّى «السلّم المقوَّى»(١ قال: «هو الرئيس الاوحد العالم الفاضل علم الرئاسة ابو اسحاق ابرهيم ولدُ الشيخ الرئيس النفيس ابي الثناء ابن الشيخ صفيّ الدولة كاتب الامير عَلَم الدين قيصر ابقاه الله ورحم آباءه» وكان ابن ابي الثناء قبطيًّا من نصارى الفيُّوم من اشراف قومهِ وكان كاتباً بليغاً وشاعرًا مجيدًا. أمّا لقبهُ بابن كاتب قيصر فلأنّ أباهُ الشيخ ابا الثناء اتّصل باحد كبار العلماء في زمانهِ وهو علَم الدين ابو المعاني قيصر بن ابي القاسم بن عبد الغنيّ الاسفوني المولود في أسفون من صعيد مصر سنة ٥٦٤ وقيل سنة ٥٧٤ھ(١١٦٩–١١٧٨م) والمتوفّى في دمشق سنة ٦٤٩ھ (١٢٥١م). وقد ذكرهُ ابو الفداء في تاريخهِ (٣: ١٩٥) وقال «انهُ هو المعروف بتعاسيف وكان اماماً في العلوم الرياضيّة اشتغل بالديار المصريّة والشام ثمَّ سار الى الموصل وقرأ على الشيخ كمال الدين موسى بن يونس علم الموسيقى ثمَّ عاد الى الشام وتوفي بدمشق (٢». فقد خدم ابو الثناء هذا العالِمَ فعُرِف ابنهُ بابن كاتب قيصر

فالمذكور اشتهر بالادب واشتغل بلغتهِ القبطيّة فصنّف فيها مقدّمة دعاها التبصرة وتعقّب فيها آثار الانبا يوحنّا اسقف سمنُّود في كتابهِ السُلَّم الكنائسي (MFO, I, 125-126) . ولهُ ذكرٌ في كتب آداب العرب ورووا لهُ شعرًا ننقلهُ هنا عنهم . فمن ذلك ما رواهُ صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي في كتاب الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه (Ms de Paris, 3345, p. 120r) قال: ومما جاء في وصف الياسمين قول ابن ابي الثناء المعروف بكاتب قيصر (من البسيط):

يا حبَّذا ياسمينُ الروضِ حين غدا ... يُهدي من الريح طِيباً غيرَ مكتتمِ
كأنَّ زهرتهُ في كفّ لاقِطها ... والروضُ مُنتثرٌ في إثرِ مُنتظمِ
فراشةٌ هجرت حتّى اذا وَصَلَتْ ... تلازمتْ مع مَنْ تهوى فمًا لِفمِ

وروى له ابن منظور صاحب لسان العرب في كتابهِ نثار الازهار في الليل والنهار

١) اطلب مجموعة آثار المكتب الشرقيّ (MFO, I, 123)
٢) لهُ كُرة فريدة على هيئة الارض وصفها ابو الفداء في تاريخهِ (راجع مجلّة الزهراء ٣: ٤٤٩–٤٥٥)

(ص ١١٠) قولهُ واصفًا دعاهُ «تاج الملك بن كاتب قيصر (من الخفيف):

وكأنَّ الهلالَ قوسُ لُجَيْنٍ والثُّرَيّا في الغربِ كالقِرْطاسِ
وكأنَّ النجومَ افواقُ نَبْلٍ عابراتٌ حادَتْ عن البِرْجاسِ

٣٨ اخوهُ علم الملك ابن ابي الثناء

كان على مثال اخيهِ ابرهيم اديباً ذكر لهُ خليل بن ايبك الصفدي بيتين في الياسمين جارى فيهما قول اخيهِ (من المتقارب):

أرى ياسميناً مُحَشًّى غدا الى الندِّ في نَشرهِ يَنْتمي
كمثل قُصاصَةِ نِصفيّةٍ تَلَوَّثَ اطرافُها بالدمِ

اطلب ايضاً وصفهُ لبركة (ص٦٦٦)

٣٩ ابو الربيع سليمان الماردينيّ

﴿نسبهُ وزمنهُ ودينهُ وادبهُ﴾ هو ابو الربيع سليمان بن اسماعيل (ويروى اسماعيل ابن سليمان) ابن ابي الليث النصراني الماردينيّ كان من ادباء القرن الثالث عشر معاصرًا لابن منظور وعاش في مصر. وكان شاعرًا ورد لهُ مقاطيع متفرّقة في تآليف الادباء. من ذلك ما رواهُ ابن منظور في نثار الازهار (ص ١٠٤) يصف فيهِ نجوم السماء قال (من الخفيف):

رُبَّ ليلٍ تخالُ فيهِ الدَّراري زَهَرَ الرَّوضِ والمَجرَّةَ نَهْرا
والثُّرَيّا كأنَّها كأسُ خمرٍ أطلَعَتْ فوقها الفواقعَ دُرّا

وتخالُ السماء حُلَّةَ خزٍ نُثِرت فوقها الدراهمُ نَثْرا
وكأنَّ الصباحَ جامُ لُجَيْنٍ ملأتهُ أشِعَّةُ الشَّمسِ خمرا

وروى لهُ في موضع آخر يصف المجرَّة (من الخفيف) :

وترى الزُّهر في المَجرَّةِ كالزَّهر م طفا فوق جدولٍ وغديرِ

ومن حكمهِ قولهُ في الثقة بالله في الشدائد (من السريع) :

لا تيأَسَنْ لِلضَيقِ فيْ أَمرٍ وكُنْ في ثقةٍ من سائرِ العَيْبِ
ولا تقُلْ بابُ الرجا مُغلَقٌ وعندهُ مَفاتِحُ الغَيْبِ

وممَّا ورد في مطالع البدور لعلاء الدين الغزولي (١ : ٢٥) وفي حلبة الكميت (ص ٢٩٤) وفي نفحات الازهار لعبد الغنيّ النابلسي (ص٣٨٧) قولهم بحرفٍ واحد : « حكى الاديب ابو الربيع سليمان بن اسماعيل بن ابي الليث المسيحي (١ قال : جمعني مجلسُ أُنسٍ مع الاديب اسحاق بن ابي الثناء المسيحي بالفيُّوم في بستانٍ فيهِ بركة عليها فوَّارة من الماء فتجاذبنا في اهداب وصفها فقال ابو اسحاق (من الخفيف) :

بِركةٌ تصعَدُ الانابيبُ منها يقعُدُ الماءُ فوقها ويقومُ
فلِذا أطلعتْ فواقعَ تبدو كالقواريرِ من زُجاجٍ تعومُ
وكأنَّ السماءَ صفحتُها الزرْ قاء والياسمينَ فيها نجومُ

(قال ابو الربيع) وقلتُ انا (من المنسرح) :

وبركةٍ تذهلُ العقولُ بها تحارُ في حُسن وصفها الفِكَرُ (٢

١) وفي حلبة الكميت : « المبجّي » وهو تصحيف

٢) ويروى : في بعض وصفها

كأنها مُقلـةٌ مُحدِقـةٌ عَبْرى من الوَجْدِ(١ نالها السَّهَرُ
تبكي وما فارَقتْ لها وَطناً يوماً ولا فاتَ اهلَها وطرُ
تخالُ أنْبوبَهـا لصِحَّتِـهِ والماء يعلو بهِ وينحـدِرُ
كصَوْلجانٍ من فضَّـةٍ سُبِكَتْ فواقعُ المـاء تحتَهـا أُكَرُ

ومن ظريف ما اخبر به ابن منظور في نثار الازهار (ص ٣١) مـا حرفهُ قال : «جرَتْ في قِصَر النهار نادرةٌ. أنشدني سليمان بن اسماعيل الارديني المسيحي لنفسهِ فيما زعم من قصر النهار (من المتقارب) :

ويومٍ حواشيـهِ ملمومةٌ ظَنَنَّاهُ من قِصَرٍ مُدْمَجـا
قنصتُ غزالَتـهُ والْتفتُّ أُريدُ أُختَها فاحتمَتْ بالدُّجى(٢

فاثبتُّ البيتين عندي. فاخبرني بعد ذلك ابو الحسن بن سعيد انهُ وقف في تاريخ إرْبل لابن المستوفي لابي عبدالله محمد بن ابي الوفاء القنيصي على ذكر البيتين بحرفهما. قال ابن المستوفي ثمَّ ورد علينا ابو الحسن علي بن يوسف الصفَّار فنسبها لنفسهِ (قال) ولعلَّهما ليسا لهُ ولا لابن القنيصي. فقيَّدت هذا على هذه الصورة. ثمَّ جرى بعد ذلـك مذاكرة في هذه الابيات وتحادث فيها الشعراء فقالَ بعضُ من حضر: هذهِ الابيـات عندي في تعليقٍ لُغز. فرغبنا اليهِ في الكشف عنها فاحضر التعليق فاذا فيه. «خرج المنتخب العاني(٣ (منسوب الى عانة جزيرة بالفرات) مع الملك الزاهر ابن صلاح الدين صاحب البيرة للصيد فأثاروا ظبيةً في آخر النهار فاستطردَتْ لهم فلم يدركهـا السلطان إلَّا عند غروب الشمس فأمسكها ونظر الى الشمس وهي تغربُ فاستظرف هذا الاتفاق وقال لشاعرهِ: قُلْ في ذلك شيئاً. فقال:

ويوم حواشيهِ ملمومةٌ علينا نحاذرُ ان تُفرَجـا

---

١) وفي نفحات الازهار: مين من الوجه بالتصحيف

٢) اراد بالغزالة الاولى الحيوان وبأختها الشمس التي الغزالة من اسمائها

٣) وفي الاصل: العافي بالفاء وهو تصحيف

قنصتَ غزالتَـهُ والتفتَ الى أختها فاحتمت بالدجى

قال المصنّف: فصحَّ عندي انَّ هذا هو قائلها على الخصوص وانَّ الجميع لصوص. (قال) وقد قرأت كتاب اللصوص للجاحظ فلم اسمع فيهِ بأنَّ ثلاثة لصوص اجتمعوا بالاتّفاق الظريف على بيتٍ واحد

٤٠ رشيد الدين ابو حُلَيْقة

﴿اسمهُ اصلهُ نسبهُ دينهُ﴾ افادنا ابن ابي اصيبعة في كتابهِ الممتع عيون الانباء في طبقات الاطباء (٢ : ١٢١ــ١٣٢) معلومات متفرّقة عنهُ وعن اجدادهِ ما نستخلصهُ هنا للقرَّاء. قال يذكر اسمهُ ونسبهُ (ص ١٢٣): «هو الحكيم الاجلّ العالم رشيد الدين ابو الوحش بن الفارس ابي الخير بن ابي سليمان داود بن ابي المنى بن ابي فانة ويعرف بابي حُلَيقة»

وذكر جدَّهُ ابا سليمان داود وكان متطبباً (ص ١٢١) فقال عنهُ انَّهُ «كان من اهل القدس ثمَّ انتقل الى الديار المصريَّة» ومما رواه ان ملك القدس الفرنجي اموري (Amaury) وهو يدعوه «ماري» لمَّا وصل الى الديار المصريَّة اعجبهُ طبُّهُ فطلبهُ من الخليفة ونقلهُ معهُ هو واولادهُ الخمسة الى البيت المقدس. فخدم الملك هناك وعالج ابن الملك المصاب بالجذام ثمَّ ترهَّب

وممَّا اخبرهُ عنهُ انهُ ارسل احد ابنائهِ وبشَّر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بفتحهِ القدس فاصابت ذرّيته لذلك حظوة كبيرة لدى السلطان

واردف ابن ابي اصيبعة ذلك بتراجم ابناء ابي سليمان. وكان اكبرهم الحكيم (ابو سعيد مهذَّب الدين) الذي خدم صلاح الدين ثمَّ الملك العادل وولدهُ المعظم وتوفي سنة ٦١٣هـ (١٢١٦). ويدعى الثاني (ابا شاكر) خدم الملك الكامل ابن الملك العادل وتوفي سنة وفاة اخيهِ ابي سعيد. واسم الثالث (ابو نصر) كان ايضاً طبيباً وتوفي بالكرك. والرابع (ابو الفضل) كان طبيباً نطاسياً وهو اصغر اخوتهِ توفي سنة ٦٤٤ وعمرهُ ٨٤ سنة هجريَّة (١١٦٤ــ١٢٤٦ م) خدم الملك المعظم بالكرك والملك الكامل بمصر.

الخامس (ابو الخير فارس) تربّى مع ابن ملك الفرنج المجذوم وخرج من بين اخوته الاربعة الاطباء جنديا

ورشيد الدين ابو حُلَيقة هو ابن ابي الخير فارس. دُعي ابا حُلَيقة لحَلَقة من فضَّة في اذنه وُصِفت لهُ عند ولادتهِ دفعاً للموت الذي اصاب اخوتهُ قبلهُ فعاش هو وعُرف بابي حُلَيقة

﴿دينهُ واخبارهُ﴾ كان رشيد الدين ابو حليقة نصرانياً كجدّه ابي سليمان الذي صرَّح ابن ابي اصيبعة بنصرانيَّتهِ وكذلك اولادهُ وحفيدهُ رشيد الدين. وقد اتّسع ابن ابي اصيبعة في وصف معارفهِ الطبيَّة وعلاجاتهِ الغريبة بترياقٍ عجيب وضعهُ فشفى بهِ كثيرين ممَّن أَيِس الاطباء من حياتهم وحكموا بوفاتهم القريبة. وذكر خِدَمهُ الممتازة لاربعة من الخلفاء الايوبيين في مصر وهم الملوك الكامل ثم العادل ثمَّ الصالح وتورانشاه. وعاش الى زمن المماليك وخدم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (٦٥٨— ٦٧٦ هـ = ١٢٦٠—١٢٧٧م) ولم يذكر سنة وفاته

﴿ادبهُ وشعرهُ﴾ قال ابن ابي اصيبعة يصف معارف رشيد الدين واخلاقهُ ويذكر اجتماعهُ بهِ (٢: ١٢٣):

« كان اوحد زمانهِ في صناعة الطب والعلوم الحكميَّة متفنّناً في العلوم والآداب حسن المعالجة لطيف المداواة رؤوفاً بالمرضى محباً لفعل الخير مواظباً للامور الشرعية متفنّناً في العلوم والآداب حسن المعالجة لطيف المداواة رؤوفاً بالمرضى محباً لفعل الخير. ولقد اجتمعتُ بهِ مرَّاتٍ ورأيتُ من حسن معالجتهِ وعشرتهِ وكمال مروَّتهِ مايفوق الوصف »

وقد ذكر لهُ عدَّة تآليف طبيَّة منها كتاب في الامراض واسبابها وعلاماتها ومداواتها. وكتاب في الادوية المفردة دعاهُ المختار في الالف عقَّار. وكتاب الادوية المركَّبة التي قد اظهرت التجربة نجحها وكتب مقالةً في انَّ الملاذّ الروحانيَّة الذّ من الملاذّ الجسمانيَّة وعلّل ذلك بقولهِ « اذ الروحانيَّة كمالات وادراك الكمالات. والجسمانيَّة انَّما هي دفع آلامٍ أُخرى وان زادت اوقعت في آلامٍ أُخرى » وهو نعم القول. ولهُ ايضاً مقالة في ضرورة الموت علَّتهُ بتحلُّل بدن الانسان بالحرارة التي في داخلهِ وبحرارة الهواء الذي من خارج. فكان يتمثل بهذا البيت:

واحدهما قاتلي فكيف اذا استجمعا

وكان رشيد الدين شاعرًا روى لهُ ابن ابي اصيبعة بعض المقاطيع نرويها هنا عنهُ . فمن ذلك قولهُ من ابيات يصف فيها منظرة سيف الاسلام (من الكامل) :

سمَحَ الحبيبُ بوَصْلهِ في ليلةٍ غفَلَ الرقيبُ ونام عن جَنَباتِها
في روضةٍ لولا الزوالُ لشابهَتْ جنّاتِ عَدْنٍ في جميع صِفاتِها
فالطيرُ يَطْرَبُ في الغصون بصوتِهِ والراحُ تجلي في الكؤوسِ صفاتِها
ومَجالِسُ القمرِ المنيرِ تنزَّهت فيهِ الحواسُّ باسمها وكناتِها

وقال يذكر ايام اجتماعهِ بالمحبوب ووداعه لهُ (من الطويل) :

أَحِنُّ الى ذكر التواصل يا سَعْدُ حَنينَ النياقِ العيسِ عنَّ لها الوِرْدُ
فسَعْدى على قلبي أَلَذُّ من المُنى وقُربي لها عند اللقاء هو القَصْدُ
حوت مَبْسِماً كالدُرِّ أضحى منظَّماً وثغرًا كمثل الأُقحُوانِ بهِ شَهْدُ
وفَرْعاً كمثل الليل او حظِّ عاشقٍ ووجهاً كوجهِ الصُبْح هذا لذا ضِدُّ
اقولُ لها عند الوداع وبيننا حديثٌ كنَشْرِ المِسْكِ خالطَهُ نَدُّ
تُرى نلتقي بعد الفراقِ بمنزِلٍ ويظفَرُ مشتاقٌ أَضرَّ بهِ البُعْدُ
تمرُّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ وذكرُكُم باقٍ يُجدِّدهُ العَهْدُ
ولكنَّ خوفَ الصَّبِّ ان طال هَجْرُكم لَيقضي ولا يَقْضي لهُ منكمُ وعدُ
عَشِقْتُ سيوفَ الهندِ من أَجلِ أَنَّها تُشابِهُها في فعلِ أَلحاظِها الهِنْدُ
ولي في الرماحِ السُمْرِ سُمْرٌ لأَنَّها تُشابِهُها قدًّا فيا حبَّذا القَدُّ

وفي الورد معنًى شاهدٌ فوق خدّها ... نُشاهدهُ فيها اذا عُـدِمَ الوردُ
وبي من هواها ما جحدتُ وعَبَّرتْ ... بهِ عَبْرتي يوماً وما نفَعَ الجَحْدُ

وقال مشبّباً (من الطويل):

خليليَّ انّي قـد بَقِيتُ مُسَهَّـدًا ... من الحبّ مأسورَ الفؤادِ مُقيَّـدُ
بحبّ فتاةٍ يُخجِلُ البدرَ وَجْهُـا ... ولا سيَّما في ليلِ شَعْرٍ اذا بـدا
ضَلَلْتُ بها وهي الهلالُ ملاحةً ... فوا عجباً منهُ أضلَّ وما هَـدَى
لها مَبسِمٌ كالدُرّ اضحى منظَّماً ... ونُطقٌ كمثل الدرّ أمسى مبدّدا

ولما كان رشيد الدين في دمياط اتاهُ خبر والـدهِ انهُ كان مرض في القـاهرة ثم حظي بالعافية فكتب لهُ (من الكامل):

قطرَتْ عليَّ سحـائبُ النَّعماء ... مذ زالَ ما تشكو من البَلْوَاء
ولَبِسْتُ مذ ابصرتُ خطَّك نعمةً ... فبما اقوم لشكرهـا بوَفاء

وقال ابن ابي اصيبعة يذكر اهل رشيد الدين فقـال (٢ : ٢٢٨) : وجماعة اهـل الحكيم رشيد الدين ابي حُلَيقةاكثر شُهرتهم في الديارالمصريَّة والشام ببني شاكر لشهرة الحكيم ابي شاكر وصُنعتهِ الذائعة فصار كلّ من لهُ نسب اليهِ يُعرَفون ببني شاكر وان لم يكونوا من اولادهِ . ولما اجتمعتُ بالحكيم رشيد الدين ابي حُلَيقة — وكان قد بلغهُ انني ذكرتُ الاطبّاء المشهورين من اهلـهِ ووصفت فضلهم وعلمهم — تشكَّر مني وتفضَّل فانشدنهُ بديهاً (من السريع) :

وكيف لا اشكرُ مَن فَضْلُهم ... قـد سار في المشرقِ والمغربِ
تشرقُ منهم في سماء العُـلا ... نجومُ سعـد قـطُّ لم تَغرُبِ
قومٌ ترى اقـدارَهم في الورى ... بالطبِّ تَسْمو رتبةَ الكوكبِ

كم صنّفوا في الطب كُتبًا أتت بكل معنًى مبدعٍ مُغربِ
وانّ شكري في بني شاكرٍ ما زال في الأبعد والاقربِ
خلّدتُ مجدًا دائمًا فيهمُ بحُسْن وصفٍ وثنا طيّبِ

وقد ذكر ابن ابي اصيبعة ولدًا لرشيد الدين يدعى ابا سعيد زاول الطبابة كابيهِ وقال عنهُ انهُ أسلم في ايّام الملك ظاهر بيبرس . وفي خطط المقريزي (٢ : ٣٧٨) جاء ذكر ولد آخر لرشيد الدين لم يُسلم دعاهُ علَم الدين ابا نصر جرجس بن ابي حليقة روى عنهُ انهُ خدم الملك الكامل وحضر وفاتهُ

٤١ ابن مرتين

﴿زمنهُ وشعرهُ﴾ هو شاعر نصرانيّ اندلسيّ ذكرهُ ابن العربيّ في مسامراتهِ (٢ : ٣١١ و٢٣٧) قال في باب العشّاق والعشق . انشدني ابن مرتين من هذا الباب يصف ما في الحبّ من الخير والشرّ من الحسن والضرّ (من الكامل) :

الحُبُّ فيهِ حلاوةٌ ومرارةٌ والحبُّ فيهِ شقاوةٌ ونعيمُ
الحبُّ أهوَنُهُ شديدٌ قادحٌ والحبُّ اصغرَ ما يكونُ عظيمُ
الحبُّ صاحبُهُ يبيتُ مُسهَّدًا ويطيرُ منهُ فؤادُهُ ويهيمُ
الحبُّ لا يَخفى وان اخفيتَهُ انَّ البُكاءَ على المحبِّ نميمُ
الحبُّ يشهدُ صادقًا (١ في وجههِ عند التنفُّس انَّهُ مهمومُ
الحبُّ داءٌ قد تضمَّنهُ الحشا بين الجوانحِ والضلوعِ مقيمُ

ولم نطّلع على شيء آخر من شعر ابن مرتين . وانّما يؤخذ من ذكرهِ في مسامرات ابن

١) ويروى : صارخًا

العربي انهُ عاش قبلهُ اعني قبل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للمسيح لأنَّ ابن العربي توفي سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠ م)

ثمَّ وجدناهُ مذكورًا في كتاب المقّري «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب» (٢: ٨٨٩) حيث دُعي بالقائد ابن مرتين ويتعيَّن زمانهُ في عهد المعتمد على الله بن عبَّاد صاحب اشبيلية (٤٦١ـــ٤٨٤ هـ ١٠٦٨ـــ١٠٩١ م) فيكون اذن من شعراء القرن الخامس للهجرة والحادي عشر للمسيح

٤٢ ابن زطينا

﴿ نسبهُ زمانهُ دينهُ ﴾ وصفنا في المشرق (١٨ [١٩٢٠]: ٥٩٦ـــ٦٠٧) كتاباً مخطوطاً قديماً من اواخر القرن الثالث عشر او اوائل الرابع عشر ونقلنا عنهُ هناك شذراتٍ تاريخيَّة مهمَّة. ففي الصحيفة الثانية عشرة منهُ ورد ذكر ابن زطينا فقال المؤلف في تاريخ سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨ م): «وفي هذه السنة توفي ابو الفضل جبريل بن زطينا كاتب الديوان كان اوَّلًا نصرانيًّا واسلم في ايام الخليفة الناصر لدين الله». ومنهُ يتَّخذ انَّهُ عاش في اواخر القرن السادس للهجرة الى الربع الاوَّل من القرن السابع. وانهُ كان نصرانيًّا وامَّا اسلامهُ فنعرف انهُ لم يكن اختياريا لِما صار وقتئذٍ من الضغط على النصارى كما ورد في الكتاب المذكور (ص٥٩٦ـــ٥٩٧) عن ابن فضلان الذي كتب الى الخليفة الناصر لدين الله يحضُّهُ على مناهضة النصارى والضغط عليهم. ومن ثمَّ لا نرتاب في نظمه بين النصارى. ويؤخذ من شعرهِ انهُ عمَّر طويلًا

وقد ذكر المؤرخ المذكور الذي نقلنا عنهُ في تاريخ سنة ٦٣١هـ (١٢٣٢ م ص٧٩٥) انَّ هبة الله ابن زطينا خلف اباهُ جبريل في الديوان ورُتّب كاتب السكّة وذلك بايعاز ابن حاجب قيصر النصراني كما يلومهُ في ذلك ابن رضوان. وهو دليل على نصرانية هبة الله وعلى انَّ اسلام والدهِ كان تظاهرًا ليس حقيقيًّا

﴿ ادبهُ وشعرهُ ﴾ ورد ذلك في الكتاب المخطوط الذي اشرنا اليه فقال: وكان (ابن زطينا) ذا فضل وادب ولهُ نظمٌ ونثرٌ واشياء مستحسنةٌ ومن شعره قولهُ

يحضُّ على التوبة والصلاة والصوم (من السريع) :

إنْ سَهِرَتْ عينُك في طاعةٍ   فذاك خيرٌ لك من نَوْمِ
أمسكَ قد فاتَ بعلّاتهِ   فاستدرِكِ الفائتَ في اليومِ
وان قسا القلبُ لأكدارهِ   فصقِّهِ بالذكرِ والصومِ

ولهُ في الاستغاثة بالله عند البليَّة (من الوافر) :

اذا أعيا عليك الامرُ فارجعْ   الى ربٍّ عوائدُهُ جميلهْ
فكم من مسلكٍ مع ضيقِ سلكٍ   تجلَّى واستبانَ بغيرِ حيلهْ

وقال يذكر ضعفهُ لتقدُّمهِ بالعمر (من السريع) :

أريدُ من نفسي نشاطَ الشَّبابْ   ودونَ ما أبغيهِ شيبُ الغُرابْ
فكيفَ والسبعون جاوزتُها   ومذهبُ العمرِ رُمي بالذَّهابْ
ومطلبي عزٌّ وما دونهُ   تأباهُ نفسي وأموري صِعابْ
وقد تحيَّرتُ ولا غروَ أنْ   يحارَ مَنْ يطلبُ ما لا يُصابْ

٤٣ صاعد بن عيسى بن سمّان

﴿زمنهُ دينهُ شعرهُ﴾ ورد ذكر صاعد في تاريخ كمال الدين ابن العديم الذي عنوانهُ بغية الطلب في تاريخ حلب (Ms de Paris nº 726, ancien fonds, ff. 18r) فقال هناك يذكر ابن سهلون :

« اسرائيل بن سهلون ابو الحسن الطبيب الحلبي اظنُّهُ من نصارى حلب ظفرتُ لهُ ببيتٍ من الشعر قرأتهُ بخطّ بعض كتّاب حلب ممّا اختارهُ من شعر صاعد بن عيسى ابن سمّان الكاتب النصراني الحلبي . فكان صديقهُ ابو الحسن اسرائيل بن سهلون الطبيب عمل بيتاً وهو (من الطويل) :

أيا طيفَ من أهوى تسربلتَ عِفَّةً   واشبهتَ في الاحلام فعلكَ يقظانا

فاجابه يعني صاعد بن عيسى :

ولكنّنا مُتْنا من الوَجد قبل أنْ يُسلِّمَ دُجيًّا(١ بالسلام فأحيانا
على مِثْلِ هذا الفعلِ كانت إمامةٌ تُواصِلُنا أحيانًا وتهجرُ أحيانا
اذا كنتُ لا ألقاك في الدهرِ يَقْظةً فيا ليت انّيَ ما عِشْتُ وَسْنانا

فمن ذكر صاعد في تاريخ كمال الدين يتعيَّن انهُ سبق هذا الكاتب المتوفَّى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١م)٠ وقد سها عن ذكره محمّد افندي راغب في كتابهِ اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء

٤٤ نصر الله الغِفاري

﴿زمنهُ شعرهُ﴾ ورد ايضاً ذكرهُ في احد مخطوطات لندن الذي عنوانهُ كتاب تذكرة العلماء والشعراء (Ms Br. Mus. 1108) للمملوك تاني بك الخزندار فنظم بين شعراء القرن الثالث عشر للميلاد نصرالله بن هبة الله الغِفاري الكاتب الشاعر النصراني وروى لهُ من الشعر قولهُ في توبتهِ عن شرب المدام (من الخفيف) :

أيها الخِلُّ خلّني وهمومي شغلَتْني ندامتي عن نديمي
عدِّ عنّي كأسَ المُدامِ فاني تائبٌ عن وِصال بنتِ الكرومِ
ختمَ اللهُ لي بخيرٍ فما لي اربٌ في رحيقها المختومِ
انا لا اسمعُ الغناء فما لي ولثاني الثقيلِ والمزمومِ(٢

قال ومن شعرهِ ايضاً قولهُ في كذب المنجّمين (من الوافر) :

اذا حكَمَ المُنجِّمُ في القضايا بحُكمٍ جازمٍ فأرْدُدْ عليهِ
فليس بعالمٍ ما اللهُ قاضٍ فقلِّدْني ولا تَرْكَنْ اليهِ



(١ الدُجّي نسبة الى الدُجّة وهي شدّة الظلام
(٢ ثاني الثقيل والمزمومُ من الاصوات المعروفة عند المغنين وارباب الموسيقى

ملحق

بشعراء النصرانيّة بعد الاسلام

القسم الاول

نشر هنا فوائد شتى من زيادات وتنقيحات على الاجزاء الثلاثة السابقة من كتاب شعراء النصرانية بعد الاسلام. والاعداد تشير الى هذه الطبعة المفردة

ملحق بالشعراء المخضرمين

٢ الحارث بن كلَدة (ص ٤—٧)

ورد في العقد الفريد لابن عبد ربّه (ج٣ ص٤١٤ — ٤١٦) حديثٌ للحارث بن كلدة مع كسرى انو شروان الفارسيّ رواهُ بعده ببعض التصرُّف ابن ابي اصيبعة في طبقات الاطبَّاء (١ : ١١٠ — ١١٢) وفيه دلالة على عقلـهِ وادبهِ ومعرفتهِ بالطبّ كانت خاتمتهُ كما جاء في العقد اذ قال كسرى : «لله درُّك من عربيّ لقد أُعطيتَ علماً وخُصصتَ بهِ من بين الحمقى وفطنةً وفهماً » ثمَّ امر باعطائهِ وصِلتهِ وقضاء حوائجهِ

وقد ورد للحارث في رسالة الغفران لابي العلاء المعرّي (ص ١٦) قولهُ في صديق (من الوافر) :

فما عسلٌ بباردِ ماءِ مُزْنٍ ... على ظَمـإٍ لِشارِبِهِ يُشابُ

بـأشهى من لُقيّكُمُ الينـا ... فكيفَ لنا بهِ ومتى الإيابُ

الصفحة ٥ السطر ١٤ــ٢٠) هذه الابيات البائيَّة المنقولة عن الحماسة البصريَّة المتضمنة الطف عتاب ذُكرت في شواهد الكشاف للزمخشري وفيها بعض روايات كما ترى: البيت ٢ «أُعتِبُهم غِضابُ» ــ ٤ «أغيَّرهم تَنَاءٍ» اي تباعُد ــ ٥ «لا يدوم لهُ وصالٌ» ــ وقد روى الزمخشري للحارث هذا البيت (ص١١٧):

نَقَبوا في البلاد من حذَرِ المو ... تِ وجالوا في الارض كلَّ مجالِ

الصفحة ٦ س ٤ــ٥ روى صاحب الحماسة البصريَّة هذين البيتين للحارث بن كَلَدة وقدَّم عليها بيتين آخرَين:

انَّ اختيارك لا عن خِبْرةٍ سلفَتْ ... إلّا الرجاءَ وممَّا يُخطىء البصَرُ

كالمستغيثِ ببطن السَّيل تحسَبُهُ ... جزرًا يبادرهُ اذ بَلَّهُ المطَرُ

وهو يقدّم البيت الرابع «ان السعيد» على الثالث «لا اعرفنَّك» وقد روى «إذ ازْسلتَ . . إذْ لا تنفع»

ومما رُوي للحارث إيضاً قولهُ يذكر الزَّبابة وهي الفارة البرّيَّة الصمَّاء يشبّه بها الرجل الجاهل (كتاب الحيوان للدميري ٢ : ٤ــ٥) من (مجزوء الكامل):

ولقد رأيتُ معاشرًا ... جمعوا لهم مالًا ووُلْدا

وهمُ زَبابٌ حائرٌ ... لا تسمعُ الآذانُ رعدا

٤ اكثم بن صيفي (ص ١٠–١٤)

روى لهُ الجاحظ في كتاب الحيوان (٣ : ١٥) قولهُ (من المتقارب):

نُرَبّي وَيَهلِكُ آباؤُنا ... وبين نُرَبّي بنينا فَنينا

٥ عبد المسيح بن بُقَيْلَة (ص ١٣–٢٠)

ص ١٥ س ١٩ الخ (اصمُّ ام يسمع) لهذه الابيات روايات مختلفة . وقد رُويت

على غير ترتيبها . البيت ١ رواهُ النويري في نهاية الارب (٣: ١٢٩): « فأزلَمَ بهِ » — ٣ رُوِي فيهِ: « آل ذنب بن حَجَنْ »

الصفحة ١٦ س ٢ فيهِ: « يسري بالوسن . . . يجوب في الارض على ذات شجن » — س ٣ فيهِ: ترتعني — س ٤ فيهِ: « تاقهٌ » بالفاء — س ١٣ روى المرتضي في اماليهِ (١: ١٨٩) انباءُ عِلّات . . . فجنوٌ ومحفور — س ١٤ فيه « فجنوٌ ومحقورٌ »

ص ١٨ س ١ (لقد بنيت . . . حصناً) روى المرتضي في اماليهِ (١: ١٨٩): بنيتُ . . . قصراً — ٢ روى: به انينُ

ص ١٩ س ١٩ (تُروِّح بالخورنق) روى السيّد المرتضي في اماليهِ (١: ١٨٩): تَرُوح الى الخورنق

ص ٢٠ س ٨ (انلت بُلغ المزيد) روى في المرصَّع لابن الاثير (ص ٤١): فوق المزيد — س ١٠ (انال بالشرف) روى: انالُ في الشرَف

٦ الحُرَقة هند بنت النعمان (ص ٢٠—٢٩)

ص ٢٤ س ١٩—٢٠ (قصّة هند والحجّاج) رُويت هذه القصة مع تفاصيل اخرى في احد مخطوطات مكتبتنا الشرقيَّة كتاب الحكايات والعتاب (ص ١١١—١١٢)

ص ٢٦ س ١٢ (صان لي ذمّتي) يروى البيت: حاط لي ذمّتي . . . الكريمُ الكريما

ص ٢٧ س ٢٢ (قصّة الحرقة مع سعد بن وقّاص) رواها الشحري (شرح شواهد المغني للسيوطي ١: ٢٤٦) مع المغيرة بن شعبة ويدعو الحرقة هناك « الخُرَقة » بالخاء

ص ٢٩ س ٩—١٣ (اعداء الخ) تروي هذه الابيات في حماسة ابي تمام (ص ٤٠٢) لعُتَيّ بن مالك العقيلي وروى البيت الخامس: « ولم تُلقِ رحلَنا . . جوز الليل » قال « جوز الليل وقت ميلهِ وجنوفهِ الى المغيب

— س ١٣ (ولم نَلوِ رَحلينا) ويروى: ولم نُلقِ رَحلينا ولعلّها الرواية الصحيحة

٧ الزبرقان (ص ٢٩–٣٧)

ورد في نقائض الفرزدق وجرير (ص ٩٠٥–٧٠٦ ed. Bervan) عن زوجة الفرزدق الملقّبة بذات الخمار قال: «هي هُنَيدة بنت صعصعة عمّة الفرزدق اخوها غالب ابو الفرزدق وخالها الاقرع بن حابس بن عقال المجاشعي وزوجها الزبرقان بن بدر» وقال ابن الاثير في كتاب المرصَّع (ص ٩١–٩٢ ed. Seybold) : «سُمّيت بذات الخمار لوضعها خمارَها بحضرة ابيها واخيها وخالها وزوجها. فقالوا لها: ما عهدناكِ متبرّجة. فقالت: دخلتني الخُيلاء حين رأيتكم. فمن جاءت من نساء باربعة يحلّ لها ان تضع خمارها كاربعة جئتُ بهم فصُرْمتي (١ لها: ابي صعصعة بن ناجية واخي غالب ابن صعصعة وخالي الاقرع بن حابس وزوجي الزبرقان بن بَدْر

ومما رواهُ الثعالبي للزبرقان في كتابهِ احوال العالم في مخطوطات مكتبتنا الشرقية (ص١٣) قولهُ (من الطويل):

اخوكَ الذي لا ينقُض الدهرَ عهدَهُ ... ولا عن صروف الدهر يَزْوَرُّ جانِبُهْ

وليس الذي يلقاكَ بالبِشْر والرضى ... وان غبتَ عنهُ تابعَتْكَ عقارِبُهْ

فخذ من اخيك العفو واغفر ذنوبَهُ ... ولا تكُ في كل الامور تُحاسِبُهْ

ثمَّ ألحق هذه الابيات بثلثة اخرى تُروى في الاغاني (٣ : ٢٧) وفي حماسة البحتري (العدد ٣٣٦) وفي غيرهما لبشَّار بن بُرْد من قصيدة شهيرة قالها في مديح عُمر بن هبيرة. وروى الدميري في حياة الحيوان للزبرقان قوله (من البسيط):

تعدو الذئابُ على من لا كلابَ لهُ ... وتتَّقي مَربِضَ المستأسِدِ الضاري

ص ٣٠ س٢٢ (نحن الكرام..) يروى البيت ايضاً : فلا حيٌّ يقاومنا فينا العلاء..

١) قال الصرمة خمسون ناقة وقيل مائة

الصفحة ٣٢ س ١٥ــ١٦ (الطبري ٣: ١٩٢٤) يُصلح العدد: الطبري ١: ١٩٦٤

ص ٣٤ س ٣ــ١١ (قال دثار بن شيبان) الابيات الآتية رواها في نقائض جرير والفرزدق (ص ٧١٤) ونسبها الى شيبان بن دثار النمري روى البيت الثاني: «بما اجترمت» ولم يروِ البيت الاخير

ص ٣٤ س ١٢ (عامر بن بَهْدلة) وفي نقائض جرير والفرزدق يدعى عامر بن أُحَيمر بن بهدلة

٨ عدي بن حاتم (٣٧-٤١)

لعدي بن حاتم الطائي اخبار كثيرة متفرّقة في كتب الادب وقد ذكرنا منها ما هو أثبت واصدق. راجع ايضاً العقد الفريد لابن عبد ربهِ (٣: ١٤٨) ونهاية الارب للنويري (٣: ١٥٨) وكتاب حسن الصحابة في اشعار الصحابة (ص ٣٨ــ٤٢)

ص ٣٩ س ١٢ــ١٧ (اجيبوا يا بني ثُعَل) هذه الابيات قد شرحها محمد موستارلي جابي زاده في حسن الصحابة (ص ٤٠ــ٤٢). وقد روى في البيت الثاني: من بعد النِقاء. قال: النقاء بالكسر واصلهُ مقصور.. وهو مخّ العظام وشحمها من السِمَن

ص ٤٠ س ١٧ (كرم عديّ) ما رويناهُ هنا عن كرم عديّ نقلًا عن ابن قتيبة ذكرهُ ايضاً ابن عبد ربّهِ مرّتين في العقد في الجزء الاوّل (ص ١١٧) وفي الجزء الثالث (ص ١٣١). وقد روى البيت الثاني (١: ٤١) : كنصل السيف سُلّ من الخلل. وروى البيت الثالث في الجزء الاوّل: «ليس تُعذَرُ بالعِلَل» وفي الجزء الثالث: ليس تعذر بالعذل. وروى البيت الرابع: «فان تفعلوا شرًّا»

١٠ النجاشي الحارثي (٤٣-٥١)

قد وقفنا للنجاشي على مقاطيع اخرى غير التي ذكرناها. فمن ذلك ما ورد له في نقائض جرير والاخطل (ص ١٢٩) يهجو بني العَجلان (من الطويل):

اذا اللهُ عادى اهلَ لؤمٍ ورقّةٍ فعادى بني العجلانِ رَهطَ ابنِ مُقبلِ
قُبَيِّلةٌ لا يَغدِرونَ بذمّةٍ ولا يَظلِمون الناسَ حبّةَ خردلِ
وما سُمّي العُجلانَ إلّا لقولهم خُذِ الصَّحنَ فاحلُبْ ايها العبدُ واعجَلِ (١

وروى له الجاحظ في البيان والتبيين (٢ : ٧٤) قوله لام كثيّر ابنة الصلت (من الطويل) :

ولستُ بهنديٍّ ولكنْ ضَيقّةٌ على رجلٍ لو تعلمينَ مزيرِ (٢
وأعجَبني للسَّوط والنَّوط والعصا ولم تُعجبيني خلّةً لأميرِ

وفي الاخبار الطوال للدينوري ما رواه للنجاشي (ص ١٨٥) يذكر قتالاً جرى بين جَعدة بن هبيرة وعتبة بن ابي سفيان في صفّين فانهزم عتبة وقال النجاشي (من البسيط) :

انّ شَتمَ الكريمِ يا عُتبَ خَطبٌ فأعلَمنْهُ من الخطوبِ عظيمُ
أمّه امُّ هانئٍ وابوهُ من لؤيِّ بن غالبٍ لَصميمُ
انّهُ للهُبَيرةِ بن ابي وَهـبٍ أقرّت بفضلهِ مخزومُ

وقال ايضاً (من البسيط) :

ما زلتَ تنظرُ في عِطفيكَ أُبّهةً لا يرفعُ الطَّرفَ عنك التيهُ والصَّلَفُ
لمّا رأيتهمُ صُبحاً حَسِبتَهمُ أُسدَ العرينِ حمى أشبالَها الغَرَفُ (٣
ناديتَ خيلَكَ اذ عضَّ السيوفُ بها عُوجي اليَّ فما عاجوا وما وقفوا
هلّا عطفتَ الى قتلى مصرّعةٍ منها السَّكونُ ومنها الأزدُ والصَّدَفُ

١) ويروى . لقيلهم . خذ القَعْبَ
٢) الضَّيِّق الشكّ والمُزير الدافع على الزيارة ٣) الغَرَف انواع من الشجر

قد كنتُ في منظرٍ عن ذا ومُستمعٍ يا عُتبَ لولا سَفاهُ الرأي والنَّزَفُ

وروى لهُ الدينوري ايضاً (ص ١٩٨) قولهُ يمدح الاشتر لمّا قاتل اهل الشام وردّ لواءهم (من المتقارب):

رأيتُ اللواء كظِلِّ العُقابِ يُقحِمُهُ الشَّامِيُّ الأخزَرُ

دَعَونا لهُ الكبشَ كَبشَ العراقِ وقد خالط العسكرَ العسكرُ

فردَّ اللواء على عَقْبِهِ وفازَ بحُظْوَتها [1] الأشترُ

وجاء في كتاب وقعة صفّين بعد البيت الاوّل:

كليثِ العرينِ خِلالَ العَجاج وأَقبَلَ في خيلهِ الأبتَرُ

ثم زاد في آخرها:

كما كان يفعلُ في مثلها اذا ناب مَعصوصِبٌ مُنكَرُ

فان يَدفعِ اللهُ عن نفسهِ فحظُّ العراقِ بها الأوفَرُ

اذا الأشترُ الخيرُ خَلَّى العراق فقد ذهب العُرفُ والمُنكَرُ

وتلك العراقُ ومن قد عرفتَ كَفَقْعٍ تبيَّنَهُ القَرقَرُ

الصفحة ٤٤ س ١٧ (تعاف الكلاب) روى الحصري في زهرة الآداب (هامش عقد الفريد ١ : ٢١): «وتأكلُ من عوفِ بن كعبِ بن نهشل

ص ٤٥ س ١٨ (يا أيها الملك) ورد في ديوان الاخطل (ص ١١٢) البيت الاخير من رائيته منسوباً للنجاشي في هذه القصيدة وهو البيت الآتي:

قد أقسم المجدُ حقّاً لا يحالفهم حتّى يحالفَ بطنَ الراحةِ الشعَرُ

ص ٤٨ س ١٥ (دعاً يا معاوي) هذان البيتان اللذان نقلناهما عنَ المبرّد رواهما

[1] ويروى: بخطوتها

الدينوري في الاخبار الطوال (ص ١٧١) وقال انّ النجاشي قالها ردًّا على ابيات كعب ابن جُعَيل ثمّ ألحقها بخمسة ابيات أُخر وهي:

يَرَوْنَ الطعانَ خلالَ العَجاجِ وضربَ القوانسِ في النَّقعِ دِينا
همُ هزَموا جَمعَ جَمعِ الزُّبَيرِ وطَلْحَةَ والمعشرِ الناكثينا
فان يكرَهِ القومُ مُلكَ العراقِ فقدماً رَضِينا الذي تكرهونا
فقولوا لِكَعْبٍ اخي وائلٍ ومَن جعلَ الغثَّ يوماً سَمينا
جَعلتُم عليًّا وأشياعَهُ نظيرَ ابن هندٍ أَما تستحونا

وممّا يروى للنجاشي ايضاً ما قالهُ يوم صفّين لمّا عزل عليّ الاشعثَ بن قيس واقام في مقامه حسّان بن مخدوج (راجع كتاب وقعة صفّين (ص ١٠٠) من الطويل):

رَضِينا بما يَرضى عليٌّ لَنا بهِ وان كان فيما يأتِ جَدْعُ المناخرِ
وصيُّ رسولِ اللهِ من دون اهلهِ ووارثهِ بعد العمومِ الاكابرِ
رَضِي بابن مخدوجٍ فقُلْنا الرِضى بهِ رضاكَ وحسّان الرِضى للعشائرِ
وللأشعثِ الكنديّ في الناس فضلةٌ توارثَهُ من كابرٍ بعد كابرِ
متوَّجُ آباءٍ كرامٍ اعزّةٍ اذ المُلكُ في اولاد عمروِ بن عامرِ
فلولا اميرُ المؤمنين وفضلُهُ علينا لأَشْجَيْنا حُرَيثَ بن جابرِ
فلا تطلبنَّا يا حُرَيثُ فانّنا لقومك دِرْءٌ في الامور الغوامرِ
وما بابنِ مخدوجٍ بن ذُهلٍ نقيصَةٌ ولا قومُنا في وائلٍ بعَوائرِ
وليس لنا الّا الرضى بابنِ حُرَّةٍ أشمَّ طويلِ الساعدَين مُهاجرِ
على انّ في تلك النفوسِ حزازةً وصدعاً يؤابيهِ اكفُّ الجوابرِ (١

١) آباهُ يؤابيهِ جعلهُ يمتنع عنهُ

الصفحة ٥٠ س ١ــ٧ (وماء كلون الغِسْل) هذه الابيات التي يخاطب فيها النجاشي الذئبَ تُروى في عدّة كتب كالمحاضرات للراغب الاصفهاني (٢: ٢٩٢) وكشرح شواهد المغني للسيوطي (ص ٢٣٩) وغيرهما. روى الراغب (ر) البيت الاوّل: وماء كلون البَوْل... جاوَزْتُهُ مَحْلِ. ورواهُ السيوطي (س):

وماءٍ قديم العهد بالورْدِ آجنٍ يخالُ رضاباً او سلافاً من السلِ (كذا)

وروى س البيت الثاني: «لقيتُ... ضليعٌ». وروى ر،س البيت الثالث: «هل لكَ في اخٍ» ثمَّ روى ر «يؤاسي عليكَ بلا اثرٍ ولا تحـلِ». وروى ر البيت الرابع: «لم يأتهِ تبعٌ». وروى س البيت الخامس. «ولا مستطيفهُ» ثمَّ روى ر: «وهاكَ اسقني». وروى ر البيت السادس: «من السَّخْل». والصَّغْو الجانب والسَّجْل الدلو. وروى ر البيت السابع: «مُطْرب «فاستعوى.. وعدتُ وكلٌّ»

١١ جُحَيَّة بن المضرَّب (ص ٥١–٥٥)

قد التبس علينا وعلى غيرنا هذا الاسم فرويناهُ جُحَيَّة كما ورد في الاغاني الجزء الرابع (١١٨) وفي الجزء الحادي والعشرين (١٤ــ١٦) وفي فهارس الاغاني ولعلَّ الصواب حُجَيَّة بتقديم الجيم كما جاء في تاج العروس (١٠: ٨٤)

ص ٥٤ س ١٨ــ١٩ (بمتصححاتٍ) ويروى: بمتضحاتٍ. «ولم يَدَعْ» والصواب: «ولم يدَعِ»

ص ٥٥ س ٧ (يصونون احساباً) ويروى: إحساناً

١٢ امرؤ القيس بن عابس (ص ٥٦–٦٠)

ص ٥٩ س ١٨ــ١٩ (رُبَّ خِرْقٍ) هذا البيت من الخفيف لا من الرمل وقد ورد في معجم البلدان لياقوت (٣: ٨٢٩) ذكرهُ هناك مع بيتين آخرين هكذا:

رُبَّ مِزْقٍ مثل الهلال وبَيْضا ءَ حَصانٍ بالجزع من عَنْواسِ

قد لقُوا الله غيرَ باغٍ عليهم واقاموا في غير دار أُنَاسِ
فصبرنا صبرًا كما عَلِمَ اللهُ م وكنّا في الصبر أهلَ اياسِ

١٣ نائلة بنت الفرافصة (ص ٦٠–٦٣)

جاء في نقائض جرير والفرزدق (ص ١٩٠) «انَّ ليلى بنت الاحوص هي امُّ بسطام بن قيس واخت فرافصة الكلبي» فهي اذن عمّة نائلة بنت الفرافصة

الصفحة ٦٠ س ١١ (فتحنَّثت) قد اصلح ابن عبد ربهِ (٣: ٢٧٢) رواية الطبري فرواها: فتحنّفت

— س ٢٠ (تحت ركابهم) اصلح: تحثُّ ركابَهم

ص ٦١ س ٢٢ (وتبكي قرابتي وقد غُيِّبت) رواها ابن عبد ربهِ في العقد: «وتبكي صحابتي وقد ذهبت»

ص ٦٢ س ٢٢ (دعت بفهر فهتمت فاها) جاء في كتاب اخبار النساء لابن تيميَّة (ص ٧٠):

«انهُ لما قُتل عثمان رض وقفت على قبره امرأتهُ نائلة بنت الفرافصة الكلبي فترحَّمت عليهِ ثمَّ انصرفت الى منزلها ثم قالت: اني رأيتُ الحزن يبلى كما يبلى الثوب وقد خشيتُ ان يبلى حزنُ عثمان من قلبي الخ . . . وخطبها معاوية فبعثت اليهِ اسنانها وقالت: أذات عروس ترى. (وقالوا) لم يكن في النساء احسن منها مضحكًا»

١٤ مَيْسون الكلبيَّة (ص ٦٣–٦٤)

ص٦٤ س ١–٩ (لَبيتٌ تخفق الارواح. .) رُوي البيت الاوَّل في غرر الخصائص (ص ٣٧): «تخفقُ الارياحُ. ورُوي فيهِ البيت الخامس: «وبكرٌ يتبعُ الأَظلال. . من بغلٍ رَدوفِ». ورُوي البيت السابع: «من عِلجٍ عنيفِ»

١٥ ابو زُبَيد الطائي (ص ٦٥–٩١)

ص ٦٧ س ١٧ (اعطيهمُ الودّ) رواهُ السيد المرتضى في اماليهِ (٤: ١٩٤): «اعطيهمُ الجهدَ مني بَلْهَ ما أَسعُ»

الصفحة ٦٨ س ٢ـــ٣ (ابنَ عِرِيسةٌ الخ) روى السيد المرتضى هذين البيتين:

أَبنُ عِرِسيَّةَ عُنَّابها أَشِبُ ودونَ غايتهِ مُستَورِدٌ شرِعُ
شاسي الهبوط زَنَاء الحامِيَين متى تَنْشَعْ بوادرهُ يَحدُثْ لها فَزَعُ

ص ٦٩ س ٦ـــ٢٤ (تذكار الأسد....) هذا الوصف للأسد لابي زُبيد الطائي ورد في تآليف عديدة غير التي ذكرناها كأمالي السيد المرتضى (٤ : ١٩٤ـــ١٩٥) وكتاب الف باء للبلوي (١ : ٣٨٥ـــ٣٨٦) مع اختلافات في الروايات بعضها حسنٌ وبعضها تصحيف نكتفي بالاشارة

ص ٧١ س ٤ (كالحجر المُلَملَمِ) رواهُ البلوي: «كالحجر المثلَّمِ»

ـــ س ١٣و١٧ (قُضاقِضٌ) رواهُ: «فُصاقصٌ» ـــ س ١٥ (للاقران هطَّام) رواه: «هضّام»

ص ٧٢ س ٥ (وعينانِ كالوَقبَين..) رواهُ الجاحظ في كتاب الحيوان (٤ : ١٤٦) «في ملْ صخرةٍ ترى.. تَسَعَّرُ»

ص ٧٦ س ١٦ـــ٢٠ (يا ليت شعري) وجدنا في كتاب الحيوان للجاحظ (٤ : ١٤٦ و٥ : ٦٩) هذين البيتين لعلّهما من اصل هذه القصيدة وفيهما وصف الاسد وهما:

كأنَّ عينيهِ في وَقبَين من حجَرٍ قِيضا اقتناصاً باطرافِ المناقيرِ
اذا تبهنَسَ يمشي خِلتَهُ وَعِثاً وهتْ سواعِدُهُ من بعد تكسيرِ

ص ٧٨ س ٣ (واستظلَّ العصفور) روى الجاحظ في كتاب الحيوان (٥ : ٧٣): «واستكنَّ العصفور» ـــ س ٥ (من سموم) روى الجاحظ: «كأنّها نَفحُ نارٍ سَجَرَتها المُجَيرَةُ العمَّاء»

ص ٨٠ س ٢ـــ٣ (تذبُّ عنهُ..) رواهُ الجاحظ في كتاب الحيوان (٣ : ٩٨): كذَوْدِ العُرس» ـــ وروى الشطر الاوّل من البيت التالي: «اذا وَنَى وِنيَةً دلَفنَ لها»

ـــ س ٦ـــ٩ (ألا أبلِـغْ..) هذه الابيات من بحر الوافر لا الطويل. روى الشريشي في شرح المقامات (١ : ٧٢) البيت التالي (س ٨):

فما انا بالضعيفِ فتظلموهُ ولا حظِّي اللقاء ولا الخسيسُ

ومنها بيتان روى اوّلها الجاحظ في كتاب الحيوان (٤ : ٩٥) وثانيها ابو العلاء المعري في كتاب الغفران (ص ١٠٨) :

يُحَجِّنُ كالمحاجن في فتوحٍ يَقيها قِصّةَ الارض الدخيسُ
فثار الزاجرون فزاد منهم تِقرّاباً وصادفهُ ضَبيسُ

الصفحة ٨٢ س ١٥ الخ (خبّرتنا الركبانُ) هذه الابيات ذُكرت في كتاب شواهد الكشاف (ك ص ١٠٠) وفي شرح شواهد المغني للسيوطي (ص ٢١٩). روى البيت الاوّل في الكشاف: « خَبَّرَتنا الركبانُ ان قد فخرتم وفرحتم »

ص ٨٣ س ٢ (هل علمتم) روى ك : « هل سَمِعتم من معشرٍ شافهونا »

— س ٥ (ثمّ لما تشذّرت واتافت) قال السيوطي في شرحه : « تشذّرت رفعت الحرب ذَنَبها . واتافت رفعت رأسها

ص ٨٣ س ٨ (ولقد قاتلوا) جاء في شرح شواهد الكشاف بعد هذا قولهُ :

وحملناهمُ على صَعْبَةٍ زَوْ راءَ يَعلونها بغيرِ وِطاء

— س ١٣ (ما اطافَ المُبسُ) روى ك : « ما اطافَ الخميسُ »

ص ٨٩ س ١٠ (من يَكدني . .) روي : « بشي . » وهو تصحيف . وهذا البيت يستشهد بهِ النحويّون لبيان كون فعل الشرط يكون مضارعاً وجوابهُ ماضياً

انتهت الملحوظات على القسم الاوّل من شعراء النصرانيّة بعد الاسلام



القسم الثاني

ملحق بالشعراء الامويين

١ هدبة بن الخشرم (٩٥–١١٣)

الصفحة ٩٦ س ٢٠–٢١ (زيادة بن زيد) صهر هُدْبة بن الخشرم رُويت لهُ في كتاب مجموعة المعاني (طبعة الجوائب ص ٤٢) ابيات عينية حسنة اوَّلها :

وقد ابرزَتْ مني الحروبُ مجرَّبًا   صليبًا على وقع الحروب مُشيَّعَا

ص ١٠١ س ٣–١٢ (ألا يا لقومي) وردت هذه الابيات ايضاً في كتاب الالفاظ لابن السكيت (ص ٤٥٨) وفي شرح شواهد المغني للسيوطي (س) (ص ٩٦). س ٤ (فلا تتقي) روى السيوطي الشطر الاوَّل : « فلا ذا جلالٍ هِبْنَهُ لجلالهِ — س ٧ (عمدتُ) روى س : « لا يعيرِ . ولا يُسَبُّ بهِ قبري» — س ١١ (رَمَينا) روى س : « فصادَفَ سهمُنا منيّة نفسٍ» — س ١٢ (ووراءك من معدى) روى س : من مَعْدِ

ص ١٠٤ س ١ (يا ويل نفسي على غدٍ) روى س (ص ٩٧) : يا لهف نفسي

— س ١٢ (لقد زعمت) ذكر ابن السكيت في اصلاح المنطق اول هذه الابيات :

أَتُنكرُ رسمَ الدارِ ام انتَ عارفُ   أَلَا لا بلِ العرفانُ فالدمع ذارفُ

وفيها :

ترى وَرَق الفتيانِ فينا كأنَّهم   دراهمُ منها جائزاتٌ وزائفُ (١

١) قال في شرحهِ ورَقُ القوم أحداثهم . والورق المال والدراهم ايضاً

راجع ايضاً ابن السكيت في تهذيب الالفاظ (ص١٢١)

الصفحة ١٠٤ س ١٦(هدبة بعث الى عائشة)وفي شرح شواهد المغني للسيوطي (ص٩٧): «بعث الى امّ سلمة»

ص ١٠٥ س٣ (ابن امّ كلاب) قال ابن الاثير في المرصَّع (ص١٨٨ـــ١٨٩): ابن ام كلاب هو رجل من المدينة عشقتهُ حُبّي المدنيَّة فتزوَّجتهُ على كبر سنّها فضُرب بها المثل

ص ١٠٦ س١٤(وليس اخو الحرب...)رواهُ الاصبهاني في الراغب(٢: ١٠٣): «اخو الحرب الغليظة...اذا زيّنتهُ الحربُ...»

ص١٠٧س١٧ (انَّ حزناً انبدا باديءُ شرّ)رُوي:«انَّ حزناً منكما اليوم يسرّ»

ص ١٠٩ س١٧ (طرتُ...) وردت ابيات من هذه القصيدة في العقد الفريد لابن عبد ربهِ (٣: ١٨٢)

ص ١١٠ س٣ (فيأمن خائف) رواهُ في العقد: «ويأتي اهلهُ النائي الغريبُ»

ص ١١١ س ١٤ (وبعض رجاء المرء) رُوي البيت في نهاية الارب للنويري(٣: ١١١) لهرمة بن الخشرم بتصحيف اسم هُدبة وهو يروي: «ليس نائـلاً عناء وبعضُ اليأس اعفى»

٢ موسى بن جابر (ص ١١٣–١١٨)

في كتاب محاضرات الراغب الاصبهـاني (١: ١٥٧) ورد ذكر عمرو بن جـابر الحنفي اخي موسى وروى لهُ بيتاً في وصف عدوّ يكاشر عـدوَّه اذا حضرهُ (من الوافر):

يكاشِرني وأعلَمُ أنْ كلانا(كذا) على ما ساءَ صاحبَهُ حريصُ

٣ شمعلة التغلبي (ص ١١٨–١٢١)

ص ١١٩ س ٢٠ (روى المبرّد هذا الخبر ونسبهُ الى عبد الملك) وهكذا وجدناه منسوباً الى عبد الملك في كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري المطبوع حديثاً (ص

١٨٩) وروى البيت الاول لشعلة: «وضربة بالرجل متى تهافتت... ولا نكر» وروى البيت الثاني: «وانَّ امير المؤمنين وفعله»

٤ اعشى بني تغلب (ص ١٢٢-١٢٩)

ذُكر في لسان العرب (١٧: ٨٠ في مادَّة نوم) بيت لعمرو بن الأَيهم وهو

نعَمَاني بشربةٍ من طِلاءِ   نَعَمَتِ النيمُ من شبا الزمهرير

قال المصحح في الهامش: «قولهُ الايهم في التكملة في مادَّة هيم ما نصَّهُ: واعشى بني تغلب اسمهُ عمرو بن الاهيم» قلنا: لم نجد في غير هذا المكان ما يؤيد زعم المصحح. راجع ما قلناهُ عن اسم الاعشى التغلبي ونسبهِ (ص ١٢٢)

ومما يروى للتغلبي في الصحاح وفي اللسان في مادَّة «غا» قولهُ (من الوافر):

وقافيةٍ كأنَّ السمَّ فيهـا   وليس سليمُها ابـدًا بنـامي

صرفتُ بهـا لسانَ القومِ عنكم   فخرَّت للسنابك والخوامي

قال: النامي الناجي. وروى لهُ النويري في نهاية الارب (٢: ٥) (من الطويل):

وكانوا أُناسًا ينفحون فأصبحوا   وأكثرُ ما يعطونك النظرُ الشَّزْرُ

٥ اعشى بني ابي ربيعة (ص ١٢٩-١٣٥)

الصفحة ١٣٠ س٣ (دخل على عبدالله) والصواب: على عبدالملك بن مروان الخليفة الاموي. وقد كنَّى الخليفةُ الاعشى بابي عبدالله

— س١٨ (قدم اعشى بني ربيعة على عبد الملك بن مروان) زاد ابن عبد ربهِ في العقد الفريد (١: ١١٨): وعن يمينهِ الوليد وعن يساره سليمان فقال لهُ عبد الملك: ماذا بقي يا ابا المغيرة؟ قال: مضى ما مضى وبقي. وانشأ يقول...

— س٢٠ (وما انا في امري) روى في العقد الفريد: «وما انا في حقي»

ص ١٣١ س ١-٤ (ولا مسلمٍ مولاي) روى في العقد: «من سوء ما جنى.. من سوء ما اجني» — س٢ روى في العقد: «وانَّ فؤادي» — س ٣ وروى الشطر الاوَّل:

« وفضلَ في الاقوام والشعر انني » — س٤ روى: « واني وان فضّلتُ» ثم روى قول عبد الملك لولديهِ الوليد وسليمان: « أتلوماني على هذا ؟ »

١٠ القطامي التغلبي (ص ١٩١–٢٠٣)

الصفحة ٢٠٠ س ٤—١٤ (واني وان كان المسافر) وردت هذه الابيات في زهر الاداب للحصري (الطبعة الجديدة ٣ : ٧١—٧٢). روى البيت الثاني: « يخبر ما رأى » وهو تصحيف — س ٦ روى الحصري : « لُمخبركَ الأَنباء — س ٧ روى : « تلفَّتُ في ظلّ » — س٩ (تصلّى) روى بعد هذا البيت:

فجئتُ اليها مِن دلاصٍ مُناخةٍ ومن رجُلٍ عاري الاشاجعِ شاحبِ

سرى في جليد الليل حتى كأنّما تخرَّمَ بالاطرافِ شوكُ العقاربِ

تقول وقد قرَّبتُ كُوري وناقتي اليك فلا تُذعِرْ عليَّ ركائبي

ص ٢٠١ س ١—٣) (من المشتري القدِّ) روى الحصري: من المشترين القَدْر — س٢ روى: عليَّ مَبيت السوء

١٣ العجّاج بن رؤبة (ص ٢٢٨–٢٣٨)

ص ٢٣٠ س٢ (الحمد لله الذي اعطى الشبر) هو البيت الذي اسندنا اليهِ قولنا بانّ العجاج كان يدين بالنصرانيّة في اوائل حياتهِ. وقد اعترض علينا السيد المغربي في جريدة الف باء الشاميّة (عدد ٩ حزيران ١٩٢٥) فأجبنا على اعتراضهِ وبيّنّا لجنابهِ الاسباب الاربعة التي حملتنا على نظمهِ بين شعراء النصرانيّة بعد الاسلام (في المشرق ٢٣ [١٩٢٥] : ٥٥٨) ثم فيه ٢٤ [١٩٢٦] : ٨٠)

ص ٢٤٨ س ٧ (فما فُجع الاقوام من رزئها لك) هذا تصحيف والصواب : من رُزْءِ هالكِ »

القسم الثالث

ملحق بشعراء الدولة العباسية

٥ الموصلي النصراني (ص٢٥٤)

ص ٢٥٤ س ١٣ــ١٦ (عدي ونعيمٌ) هذه الابيات التي رواها البيهقي للموصلي النصراني وجدناها في نفح الطيّب للمقّري (١: ٥١٣) منسوبة الى شاعرة نصرانيّــة قال: «انشدنا الامام اللغوي رضيُّ الدين ابو عبد الله محمد بن علي بن يوسف الانصاري الشاطيّ لزينب بنت اسحاق النصراني الرَّسْعَنيّ» نذكرها هنـا بحرفها ويا ليتـهُ زادنا علماً عن زينب النصرانية المذكورة :

عَديٌّ وتَيمٌ لا أُحاوِلُ ذِكْرَهم بِسُوءٍ ولكنّي مُحِبٌّ لهـاشمِ
ومـا يعتريني في عليّ ورهطـهِ اذا ذُكِروا في اللهِ لومـةُ لائمِ
يقولون: ما بالُ النصـارى تُحِبُّهم واهلُ النُّهى من أَعْرُبٍ وأعاجمِ
فقـلتُ لهم: اني لَأَحسَبُ حبَّهم سرى في قلوب الخَلْقِ حتى البهائمِ

٦ بشر بن هارون (ص ٢٦٢–٢٦٣)

جاء في كتاب جامع التواريخ لابي علي المحسن التنوخي المتوفى سنــة ٣٨٤ هـ (٩٩٤م) (في الصفحة ٥٢ ed. Margoliouth): أنشدني ابو نصر بشر بن هــارون الكاتب النصراني البغدادي لنفسهِ في ابي رفاعة بن كامل احد خلفاء القضاة ببغداد على سوادها (من الوافر):

قضى شعري على القاضي بحُكمٍ اجاب اليهِ مصفوعاً مُذالا
ولو لم يَستجبْ لنَتَفْتُ منـه .سِبالًا ان وجدتُ لهُ سبــالا
ونتفُ سبالـهِ شيءٌ مُحـالٌ لأنَّ الخَـلْقَ صيَّرهُ مُحـالا

قال : وانشدني لنفسهِ في شعبان سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠م) في رئيسين صُرف احدهما بالآخر (من الوافر) :

مضى من كان يُعطينــا قليــلا ... واوفى من يَشِحُ على القليــلِ
واحسَبُ ان سيَملكنــا مُكــدٍ ... متى اطَّردَ القياسُ على الــدليلِ
فقل للفــاطميِّ لقــد تمــادت ... اناتُك في الحلول وفي الرحيلِ
فحُثَّ السَّير عــلَّ الله يَهــدي ... شِفــاءً منــك للبلــدِ العليــلِ

١٠ عيسى بن فرُّخنشاه (ص ٢٦٣ـــ٢٦٦)

ص٢٦٤ س٢٢ (ذكر لهُ الصابي) والصواب : ذكر لهُ الصولي . وقد جاء في كتاب الاعجاز والايجاز للثعالبي (طبعة مصر ١٨٩٧ ص ١٣) : عيسى بن فرُّخنشاه وزير المعتز كان يقول : القلمُ الرديءُ كالولد العاقّ . قــال ابن عبَّاد : و كالاخ المُشاقّ . وكان عيسى يقول لا اشكر لحظةً واشكو لفظةً

١٢ ابن بطلان المتطبّب (ص ٢٦٦ـــ٢٧٧)

ذكر محمَّد افندي راغب الطبَّاخ في تاريخ حلب (٤ : ١٩٤ـــ١٩٦) فصلًا في عناية ابن بطلان ببناء البيمارستانات بانطاكية وحلب

ص ٢٧٠ س٩ (وفاة ابن بطلان) ذكرنا اختلاف الكتبة في تعيين سنة وفاة ابن بطلان بين السنة ٤٤٤ و٤٦٣هـ (١٠٥٢ـــ١٠٧٠م) . وذكر الطبَّاخ في تاريخ حلب (٤ : ١٩٦) انَّ ابن بطلان توفي بانطاكية يوم الجمعة ٨ شوَّال سنــة ٤٥٨ (١٠٦٦م) والله اعلم

ومن الشعر المنسوب الى ابن بطلان ميميَّة في وصايا طبيَّة اوَّلها :

احفظ بنيَّ وصيَّتي واعمــل بهــا ... فــالطبُّ مجموعٌ بنصِّ كلامي

رواها ابن ابي اصيبعة في طبقات الاطباء (١ : ٢٩١) قال انها نسبت الى الرئيس ابن سينا والى ابن بطلان والصحيح انها لمحمد بن محلي بن الصائغ العنتري

١٤ عون الراهب (ص ٢٧٨–٢٧٩)

وردت في كتاب ادب الكاتب للصولي (ص٨١) ابيات في القلم انشدها عون ولعلّهُ عون الراهب المذكور هنا

١٩ امين الدولة ابن موصلايا (ص ٢٨٣–٢٨٨)

هذا ما كتبهُ ابن الميسّر في آخر الجزء الثاني من اخبار مصر (ص ٩٩ .ed Massé) :

« امين الدولة ابو سعد العلاء بن ابي علي الحسن بن وهب بن الموصلايا كاتب الانشاء بدار الخلافة ببغداد. كتب للقائم واقتدى واستظهر (أصلح : وللمقتدي والمستظهر) خمساً وستين سنة وكان ابتداء خبره منه في ايّام القائم سنة ٤٣٢ ومات في ١٨ جمادى الاولى سنة ٤٩٩ ه‍ (١١٠٦م) بعد ما أُخر وكان عمِي (عُمِي) على ابن اخيه ابي نصر وكان نصرانياً فاسلم في ايام المقتدي على يده ولم يزل موقّراً وناب في الوزارة ولهُ شعر وكان قد جمع من (بين) حسن الخطّ والبلاغة ولد ليلة السبت ١٦ شوّال سنة ٤١٢ه‍ (١٠٢١م)

٢١ ابو غالب ابن الاصباغي (٢٩١–٢٩٢)

اسمهُ عبيد الله بن هبة الله كما جاء في وفيات الاعيان لابن خلكان (٢ : ١٧) الصفحة ٢٩١ س٢١ (عقرتهم معقورةٌ) ذكر المقري في نفح الطيب (١ : ٤٤٦) ابياتاً لابي بكر محمّد بن زهر في وصف الخمرة :

ومُوَسّدين على الأكُفّ خدودَهم ... قد غالهم نوم الصباح وغالني
ما زلتُ اسقيهم واشربُ فَضْلهم ... حتّى سكرتُ ونالهم ما نالني
والخمرُ تعلمُ كيف تأخذُ ثأرها ... اني أملْتُ إناءها فأمالني

ثمَّ قال «وزعم ابن خلكان (٢ : ١١) انَّ ابن زهر ألمَّ في الابيات المذكورة

يقول الرئيس ابي غالب عُبيد الله بن هبة الله» ثمَّ ذكر الابيات وروى البيت الأوَّل: «عاقرتهم مشمولةً» وروى البيت الثاني: «ذكرتُ حفائدها»

٢٨ . ابو الفرج يحيى ابن التلميذ (ص ٣١٠–٣١٤)

وصف ياقوت في معجم الادباء أبا الفرج بن التلميذ فقال (٧: ٢٨٢): كان اديباً شاعرًا وكان مقيماً باصبهان مقرَّباً عند الامراء والاعيان وقصدهُ الشريف ابن الهبَّاريَّة الاديب الشاعر فأكرمهُ وحباهُ وحصل لهُ بواسطتهِ من الامراء والاكابر مالٌ عظيم فدحهُ بعدَّة قصائد. توفي ابو الفرج معتمد الملك سنة ٥٥٩ (١١٦٤ م)

ص ٣١١ س١٣ (فما ان تُفارقُ) روى في معجم الادباء «فما ان تفارقهُ» (كذا) وقد روى لهُ ياقوت هناك هذين البيتين (من السريع):

ما هذه الدنيا لطالبها إلّا بلاءٌ وهو لا يدري
اذا اقبلَتْ فسدَتْ امانتُهُ او ادبرَتْ شغلَتْهُ بالفكرِ

٢٩ هبة الله بن التلميذ (ص ٣١٥–٣٣٤)

وصفهُ ياقوت في معجم الادباء (٧ : ٢٤٣) وصفاً جميلًا فذكر معرفتهُ باللغات الفارسيَّة واليونانيَّة والسريانيَّة وتضلُّعَهُ بالعربيَّة وذكر نظمهُ الفائق وتقدُّمهُ عند الخلفاء وعلوَّ مكانتهِ لديهم وانهُ «عُمر طويلًا نبيه الذكر جليل القدر وانهُ كان مقدَّم النصارى في بغداد ورأسهم ورئيسهم وقسيسهم وكان حسن العشرة كريم الاخلاق ذا مروءة وسخاء حلو الشمائل كثير النادرة وكان يميل الى صناعة الموسيقى ويقرّب اهلها» وذكر لهُ شعرًا (٢٤٦–٢٤٧)

٣٤ يحيى بن ماري (ص٣٤٧–٣٥١)

ذكرهُ ياقوت في معجم الادباء (٧: ٢٩٥) وقال فيهِ انهُ توفي بالبصرة ثمَّ روى لهُ في الاقتصاد (من الكامل):

نعمَ المعينُ على المروءة للفتى ... مـالٌ يصونُ عن التبـذّلِ نفسهُ
لا شيء انفعُ للفتى من مـالـهِ ... يقضي حوائجـهُ ويجـلبُ أُنسَهُ
واذا رمتْـهُ يـدُ الزمان بسهمـهِ ... غدتِ الدراهمُ دون ذلك تُرْسَهُ

(قال) ولهُ ايضاً (من الكامل):

لاموا على صَبِّ الدموع كأنّهم ... لا يعرفون صبـابتي وولوعي
كُفّوا فقد وعَدَ الحبيبُ بزورةٍ ... ولـذا غسلتُ طريقـهُ بدموعي

وروى ايضاً (من الخفيف):

نفرَتْ هندُ من طـلائعِ شيبي ... واعترَتْهـا شآمـةٌ من وُجومي
هـكذا عـادةُ الشيـاطين ينفُرْ ... نَ اذا مـا بدَتْ نجومُ الرُّجومِ

٣٥ بنو مماتي النصارى الاقباط

ذكر محمّد افندي راغب الطبّاخ في تاريخ حلب (٤: ٣٢٢) اسعدَ بن مماتي واتسع في ذكره وروى شيئاً من شعرهِ في وصف الثلج (ص ٣٢٧—٣٢٨)

انتهى



فهرس

القسم الثالث من شعراء النصرانيّة

شعراء الدولة العباسية

كتاب

شعراء النصرانية

بعد الاسلام

القسم الرابع

شعراء القرون المتأخرة

مباشرة بالقرن الرابع عشر

شعراء النصرانية

في القرون المتأخرة

القسم الرابع

مقدمة

هو القسم الاخير من كتابنا في شعراء النصرانيَّة بعد الاسلام ويبتدئ في القرن الرابع عشر بعد الدولة العبَّاسية وانتهاء الحروب الصليبية. ويُختم بشعراء القرن التاسع عشر دون الاتساع في من شاع ذكرهم وانتشرت آثارهم ودواوينهم

وممَّا يجب التنبيه عليهِ انَّ آثار شعراء النصرانيَّة في اواخر القرون الوسطى الى القرن السابع عشر قليلة جدًّا وذلك لحولٍ اصاب اللغة العربية عموماً في بلاد الشرق بتملُّك دول غير عربية كدولتي المماليك المصريين البحريَّة والبرجيَّة وكدولة الاتراك. فقلَّما تجد من التآليف النفيسة المشبعة الممتّعة كالتي سبقت ذلك العهد. وزد على ذلك ما وقع في تلك الاجيال من الحروب الطاحنة منها اجنبية ومنها اهليَّة أُصيبت بها الآداب بضربة اليمة

وما يقال اجمالًا عن كل الشعوب الشرقيَّة يصحُّ خصوصاً في النصارى الذين زادت احوالهم سوءًا وضنكاً فكانوا اشبه بعبيد لا يتنسَّمون رائحة الحريَّة فيقصرون همَّتهم بامر المعاش ولا يكادون يتفرَّغون للمعارف والدروس العقليَّة. وغاية ما كانوا يدركونهُ بعضُ الالمام بمبادئ اللغة والكتابة. واذا وقفتَ على شيءٍ من آثارهم تجدها ركيكةَ . ... التركيب والانشاء يغلب عليها الالفاظ العامية الحوشيَّة كالزجليَّات

والاناشيد العامية وبقي ذلك الى اواسط القرن السابع عشر حيث ظهرت تلك النهضة الادبية التي تولى امرها بعض ادباء النصارى الحلبيين بمساعدة المرسلين من الرهبان والمتخرّجين في المدرسة المارونية في رومية العظمى وقد افادت هذه النهضة بلاد سوريّة عموماً فاستفاد منها المسلمون والنصارى معاً وهي اصل النهضة الجديدة التي اتّسع نطاقها في القرن التاسع عشر وملئت اليوم سائر انحاء الشرق

هذا ما لزم شرحهُ في اوّل هذا القسم الرابع من مجموعنا في شعراء النصرانية بعد الاسلام . فنبتدئ وعلى الله التكلان

١ سليمان الغزّي

بكل سرور نفتتح هذا القسم بذكر شاعر لم يأتِ لهُ ذكر في كتب المستشرقين وفي التاريخ الوطني القديم . نريد بهِ سليمان الغزّي مؤلف ديوان كبير يُعدّ افضل مثالٍ للشعر النصراني الديني الذي لم يسبقهُ الى معانيهِ آخر

﴿تعريف الرجل﴾ لقد افرغنا الوسع للوقوف على اخبار هذا للشاعر سواء كان في التواريخ الشرقية والغربية النصرانيّة والاسلامية ام في الآثار الكنسيّة . فلم نجد لهُ ذكرًا حتى لم ينوّه بذكره احد من ابناء طائفتهِ الملكية ممّن بحثوا في اخبارها ومشاهير رجالها كالبطريرك مكاريوس الحلبي صاحب التآليف الواسعة وكمؤرخي البطريركية الانطاكية القدماء والمحدثين

وغاية ما يمكن الحصول عليهِ في تعريفهِ انّما يُستفاد من مراجعة ديوانهِ خصوصاً وكان سبقنا الى ذلك جناب الكاتب الاديب والمؤرخ المحقّق عيسى افندي اسكندر المعلوف في مقالةٍ حسنة نشرها سنة ١٩١٠ في مجلة النعمة (١ : ٦١٩و٦٥٨) . وقد راجعنا نحن ايضاً النسخ العديدة التي وقفنا عليها من ديوانهِ وتتبّعنا قصائدها لتقتبس من خلالها بعض التعليمات المفيدة للكشف عن اخبار ناظمها . فدونك ما حصلنا عليه

﴿اسمهُ واصلهُ﴾ اسمهُ مدوّن في صدر كلّ نسخ ديوانه على هذه الصورة «الشيخ الفاضل العالم الكامل سليمان الحكيم ابن حسن الغزّي رضي الله عنهُ» وفي نسخة

« قدّس الله روحهُ ونوَّر ضريحهُ» . وجاء اسمهُ في نسخة ديوانهُ المصون في مكتبة القبر المقدَّس للروم الاورثذكس في القدس الشريف(١ « الشيخ الجليل العالم الفضيل الرئيس الحكيم الشيخ العَلَم سليمان بن حسن الغزّي عليه الرحمة والرضوان اعاد علينا فضائلهُ وعلومهُ ويُفهمنا قصائدهُ ومنظومهُ »

فيحصل من هذه الاقوال ان المترجَم كان اسمهُ سليمان وانّ اباهُ كان يُسمى حسناً وكلا الاسمين يشترك فيهم قديماً النصارى والمسلمون . وانّ اصلهُ كان من مدينة غزّة التابعة لولاية فلسطين على ساحل بحر الشام بين يافا والعريش

﴿زمانهُ﴾ لا يُستفاد شيء من ديوان سليمان الغزّي لتعريف زمانه اللهمّ الّا ذكرُ بعض اديرةٍ زارها سبقت العهد التركي كدير صموئيل ودير البقاع ممّا طُمست آثارها قبل القرن السادس عشر . ولنا على زمانهِ دليل آخر في نسخ ديوانه . فانّ نسختهُ المصونة في القبر المقدَّس تاريخها سنة ١٦٩٠ . واقدم منها نسخةٌ في حلب ذكرها عيسى افندي المعلوف (النعمة ١ : ٦٢٥) تاريخها سنة ١٥٥٧ . ولعلّ احدى نسخ مكتبتنا الشرقيّة اقدم عهداً كما يلوح من كتابتها وورقها فالمرجَّح انّها كتبت حوالي القرن الخامس عشر

فليس اذن بمستبعد ان يكون الشاعر عاش في القرن الرابع عشر كما ذهب اليهِ صديقنا عيسى افندي (ص ٦٢١)

﴿دينهُ واخبارهُ﴾ نصرانية سليمان الغزّي ثابتة واضحة وضوح الشمس في كل قصيدةٍ من قصائده وكلها منظومات دينيَّة نصرانية . وانمَّا في نصرانيتهِ مشكلٌ أوُلد في النصرانيَّة ام ارتدَّ اليها عن دين آخر . وبعد مراجعة ديوانهِ والامعان في قصائده تحقَّقنا انهُ لم يولد نصرانيّاً وانّهُ كان مسلم النحلة فتنصَّر بعد ردحٍ من الدهر فتراهُ يشير كثيرًا الى حياتهِ السابقة ويذرف الدموع السخينة على ضلالهِ وآثامهِ . كقولهِ في مطلع قصيدةٍ (من الطويل) :

خليلَيَّ انَّ الخير للدهر نافعي ولاشكَّ فعلُ الشرّ بالموت قاطعي

---

١) اطلب الصفحة ٥٨ من برنامجها اليوناني العربي عدد ٥٤

ولا تَلحياني إنْ بكيتُ خطيئتي ونوحا عليَّ تارةً وابكيا معي
خليليَّ ما بَعد الخطايا رزيَّةٌ ولا بدعةٌ بل فوقَ كلَّ البدائعِ
دَعا مقلتي تذري الدموع فربَّما نفى زفراتِ القلبِ فيضُ المدامعِ

ومثلهُ قولهُ (من البسيط) :

انا الذي كنتُ أَولى ان اموتَ كما اخطيتُ دون المسيحِ ما بهِ عَيبُ
يا ربِّ أَثبت لنا نعماكَ فيهِ فما لنا سواهُ عظيم القدر مطلوبُ
واغفر لمن نظم الابياتَ زلّتهُ فإثمهُ بإزاء عينيهِ منصوبُ

وربّما اشار الى ما عرفهُ من مزاعم المسلمين كقولهِ في يوم البعث (من البسيط) :

لا تطمعوا انَّ يوم البَعث يُطعمكم من الفواكهِ اثمارًا وأعنابا
ولا يزوّجكمُ حورًا فيعجبكم جمالهنَّ لدى الفردوس إعجابا
انَّ المعادَ لدارٌ ما ترونَ بها من المطاعم والملبوس جلبابا
فاحذروا الآن لا يطغيكمُ احدٌ وبئس مَن خالف الانجيل كذّابا
يأتيكمُ القومُ في شكل الخراف ترا هم عند كشف ستار الوجهِ أذيابا

﴿مذهبهُ﴾ ولكن تُرى ايَّ مذهبٍ تمذهَبَ بهِ عند ارتدادهِ . من المعلوم انَّ في القرن الرابع عشر كان نصارى الشرق ثلثَ فرقٍ الروم واليعاقبة والنساطرة . وانما بمولد سليمان بن حسن في غزَّة يتعيَّن ايضاً المذهب الذي تبعهُ اعني بهِ الروم ولم يكن في غزَّة في عهدهِ غيرهم من النصارى ثبتوا هناك الى زمن الاتراك ولنا سلسلة من اساقفتهم ناقصة (راجع مقالةً حسنة عن آثار النصرانيّة في غزَّة وضواحيها في المشرق ١ [١٨٩٨]: ٢١١–٢١٦) . ثمَّ في شعر سليمان الغزّي ما يصرّح بمذهبهِ في قصيدتهِ النونيَّة التي اوّلها (من البسيط) :

مـا كلّ معتمدٍ بالمـاء نَصْراني غير اعتمادِ حياة العـالَم الثـاني

فانهُ يُعدّد بدَع النصرانيَّة ويكفّرها كآريوس ومكدونيوس ونسطور ويعقوب البرادعي وغيرهم الى ان يقول :

هذي مذاهبُ اقوامٍ لكفرهمِ ضلُّوا الهدى عن طريقٍ شِبْه عميانِ

فالفضل للأرثـذكسيّين إنّهمُ تمذهبوا مذهباً في الله حقَّـاني

وليس في روميَّتهِ واورثذكسيَّتهِ ما يُشتمُّ منهُ نفي تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وكثيرًا ما يذكر في شعرهِ القديس بطرس هامة الرسل ورئاستهُ كما ورد في الانجيل

﴿ زواجهُ ﴾ ويظهر من عدَّة مقاطيع من شعرهِ انهُ كان مقروناً بالزواج فيذكر زوجتهُ ويرثي ولـدًا لهُ وحيدًا مات في العشرين من سنهِ وخلّف ولدًا صغيرًا اسمهُ ابراهيم سبق والدهُ الى القبر (من البسيط) :

قد كنتُ ربَّيتُ نجلًا قلتُ ينفعني بعد المماتِ فماتَ النجلُ من دوني

جادت عليَّ الليالي في تصرُّفهـا فبانَ عن والـدٍ مفجوعٍ محزونِ

كغصن بانٍ تثنَّى في شبيبتـهِ في جسمهِ او كأغصان الرياحينِ

دفنتُهُ ابنَ عشرينَ وهـا أنـذا شيخٌ بـلغتُ الى عـصر الثمانينِ

لو استطعتُ فداهُ مـا فُجعتُ بهِ وكيف يُعطَى فِداهُ وهو يفديني

أظَـلُّ مستوحشاً ممَّن يؤانسني ابكي فمـا احـدٌ منـهُ يُسلّيني

قد اشتهيتُ أُتمّ العمرَ معتصماً بتوبةٍ في ديارات الرهابينِ

حتى اموتَ ونفسي غير آسفـةٍ عـلى حيـاةٍ الى موتي تؤدّيني

لولا حريمٌ أُراعيهم واحفظُهم فهم عن الزهد في الدنيا يَعيقوني

يا ربِّ فأستر لأعمالي اذا كُشِفت يوم المعـادِ بديوان الـدواوينِ

فبيعةُ الله أَوْلى بي وأَحْفَظُ لي — من كلّ حافظةٍ كانت تُرَبّيني

وقال في محلّ آخر يذكر وفاة ابنهِ الوحيد (من البسيط):

حلّ المشيبُ برأسي بعد صبغتهِ — وحُسنهِ فلَبِستُ الضُّعفَ والخرَفا
قد كنتُ آمَلُ بأُبني ان يساعدني — على الزمان فاذ كادَ أَستوى حُتِفا
أَلِفْتُهُ فقضى دهري بفرقتهِ — ولستُ اوّلَ مفجوعٍ بمَن أَلِفا
فصرتُ فردًا وحيدًا غيرَ معتقِبٍ — إبناً فأَشْغَف في الدنيا بهِ شغَفا
يانفس ان ضَعُفت منكِ القوى هرَماً — فما يُعينك إلّا راحمُ الضُّعفا

ومن قولهِ اللطيف الدالّ على رقة قلبهِ واسفهِ على فقيدهِ (من المنسرح):

يا ساكناً بالتراب يا سكَني — مشتملًا في التراب بالكفنِ
اني اخافُ الترابَ يُفسدُ ما — لامَسَهُ من نعومةِ البدنِ
يا حبَّذا مضجعٌ حللتَ بهِ — لولا غِطاءٌ لوجهك الحسنِ
ازورهُ أَشتكي جفاهُ فما — يسمعُ قولي ولا يكلّمني
اشغَلَهُ الدهرُ عن موانستي — ومنهُ بعدَ الدنوّ أَبعدني
هيهاتِ لا عَودةٌ تقرّبني — منكَ ولا ان شكوتُ ترحمُني

﴿زهدهُ وترهُّبهُ﴾ رأيتَ ان المترجم كان مرتبطاً بروابط الزواج وانهُ كان متقدّماً بالعمر على انهُ كان يتوق الى حلّ قيودهِ ليزهد في الدنيا ويترهّب وقد تحقّقت امانيُّهُ كما يظهر من بعض اقوالهِ في قصائدهِ حيث يذكر انهُ ترهَّب في القدس قال في اوّل لاميّتهِ (من الطويل):

ترهَّبتُ زهدًا من مباشرةِ النَّسلِ — واعرضتُ إعراضاً عن المال والاهلِ

وقلتُ لنفسي حان ان تتيقَّظي فانك في فعل الرذائل في شُغْلِ
وما لبس الناسُ السوادَ لِحُسنهِ ولكنّهُ ثوبُ التواضُع والذلِّ
تراءى لنا فيهِ المسيحُ تَنسُّكا لنزهدَ في ثوب التعظُّم والنُّبلِ
وسرتُ الى البيتِ المقدَّس تائباً من الإثم في غُصْن الشبيبةِ والجَهْلِ

وختمها بالاستغفار من السيد المسيح فقال :

أَقِلني خطائي وأعفُ عن قُبحِ زلّتي فمثلكَ مَن يعفو على خاطىءٍ مثلي

﴿اسقفيّتهُ﴾ والظاهر انَّ هذا الشيخ الجليل الذي ترهَّب بعد الثانين من عمرهِ حتى كاد يبلغ الهرَم رُقّي الى درجة الاسقفية . وذلك مما صرَّح بهِ مخطوط مكتبة القبر المقدَّس السابق ذكرهُ حيث اشار الى بعض تآليفهِ (ص٥٣) التي سيأتي ذكرها فقال ما حرفهُ : «مسائل واجوبة من ديوان الغزّي وكان اسمهُ سليمان وكان مطران غزّة رضي الله عنهُ» . فهذه الافادة النفيسة تزيد في تاريخ النصرانيّة في الشرق بعض الايضاح ولاسيما غزّة التي لم يُعرَف شيء من اخبارها في القرون الوسطى . وفي قصيدتهِ الفائية التي مطلعها (من الكامل) :

النفسُ تبقى والجوارحُ تتلفُ حتّى يبيد الهيكلُ المتألّفُ

يصرّح باسقفيتهِ حيث يقول :

يا بيعة الله الكريمةُ إسمعي ممّا يقولُ في الكتابِ الاسقفُ
فهو المخاطبُ عن مسيح الله في ناموسهِ وهو الأعزُّ الاشرفُ
لا تغفلي عمّا يقولُ تكبُّرًا فذوو الفساد من الاجابةِ يأنفوا

والى مثل هذا اشار في محل آخر متواضعاً (من الوافر) :

بنو امّي عسى أن تَستغفروا لي خطائي بين اولادِ الزؤانِ

فقد نجّستُ ثوبَ القدس جهلًا بمَن بجَلال كسوتهِ كساني

وممّا يستفاد ايضاً من ديوان سليمان الغزّي انه كان غنيّ الحال ثمّ ابتلاهُ الدهر ببلاياهُ وفي ذلك يقول (من البسيط):

قد كنت في نعمةٍ لله سابغةٍ لو طاوَلُوها ذوو الاقدام لم يصلوا

زالت وما زالتِ الايامُ تفسدها كانت لهُ اصلحت بالناسِ لو عقلوا

وقال في محلّ آخر (من الطويل):

طمعتُ بذي الدنيا فصرتُ الى البلى كما صار قبلي لِلْبلى كلُّ طامعِ

وقد قسّم الورّاثُ مالًا ذخرتُهُ فنفعُهم من تركتي غيرُ نافعِ

فكلُّ الذي جمّعتُهُ واقتنيتُهُ من المال والاولادِ ليس بتابعي

ولا بُدَّ ان يسترجعَ الدهرُ كلَّما أعارَ وأعطى يوم ردِّ الودائعِ

فطوبى لمن يأتي بربحٍ وويلُ من يوافي بخُسرانٍ ووَكْسِ بَضائعِ

ومثله قولهُ في نكبات الدهر (من الخفيف):

دفعتْني ايّامُهُ والليالي من علوّ القصور للاجداثِ

وكذا كلُّ من تقدَّم قبلي قطعتْهُ نوائبُ الأحداثِ

كلّ راثٍ لغيرهِ من حتوفٍ سوف يَلقى من حتفهِ غيرَ راثِ

وجديدِ الزمان من بعد حينٍ يتلاشى الى البلى والرّثاثِ

ويُستفاد ايضاً لتاريخ حياة سليمان شاعرنا ما قالهُ في الاديرة التي احتلّها وتبرّك منها (من الوافر):

رأيتُ القدسَ في حُلم المنامِ كضوءِ النور في كدر الظلامِ

فقدَّمتُ المَسيرَ اليـهِ أَسعى ... على قَـدَمَيَّ في عُقبِ الصيـامِ
وحيـدٌ لم يُصاحِبْني رفيقٌ ... لخوفي من فساد الإلتئـامِ
نزلتُ بـديرِ صَموِيلَ (١ المعلَّى ... تجاهَ الطُّور من جهةِ الشآمِ
لأَدْخلَ بيت صهيونَ (٢ المزكَّى ... فـأُقرئَ ساكنيـهِ بالسلامِ
وأجعـلَ مَرْيُحنَّا (٣ في حلولي ... بارض الغَور للنَّجوى امامي
وارق الذوق والحوريب (٤ ايضاً ... كـأنَّ رؤيايَ فيهِ لـهُ ذِمـامي
وفي دير البِقاع (٥ هجعتُ ليـلاً ... وإخواني على بَرْدِ الرُّخـامِ
ونحو السِيقِ اعني سيقَ سابا (٦ ... هممتُ فـلا يخيب ليَ اهتمامي
دخلتُ بغير جاريةٍ اليـهِ ... ولا امرأةٍ عـلى شكل الغُـلامِ
وفي دير الدواكس (٧ عدتُ أعدو ... سريعاً مثـل طيَّـار الحَمامِ
ومنهُ الى كنيسةِ بيتَ عَنْيا ... دخلتُ مجرَّدًا مثـل الحُسامِ

---

١) يُعرف اليوم بنبي صموئيل لقبر هذا النبي في مكانهِ وموقعهُ على تلّ عالٍ يُشرف على القدس من جهتها الشرقية وهو بينها وبين عمواص كان فيهِ قديمًا دير للرهبان

٢) احد الجبال المبنيَّة عليها مدينة القدس وهناك كانت العليَّة التي اكل فيها السيد المسيح العشاء السرّي قبل موتهِ. هي اليوم في حوزة المسلمين

٣) هو احد الاديار المتعدّدة التي كانت قديمًا في جهات الغور قريبًا من نهر الاردنّ بُني على اسم القديس يوحنا المعمدان

٤) الذوق هو ايضًا من الاديرة الشهيرة التي اقامها النصارى في المكان الذي صام فيهِ السيد المسيح اربعين يومًا. واماً حوريب فجبل سينا الذي تجلَّى فيهِ الرب لموسى

٥) ليس البقاع هذه بقاع لبنان وانمَّا هي سهل واسع ليس بعيدًا من بيت لحم كان فيهِ دير نسبهُ الشاعر اليهِ

٦) السيق لفظة اعجميَّة يراد بها الدير. ودير القديس سابا دير شهير للروم في وادٍ عميق بين القدس وأريحا. لا يزال عامرًا

٧) احد الاديرة الشهيرة التي كانت في غور الاردنّ تُرى الى اليوم بعض آثارهِ

لأسمعَ صوت رهبانٍ أووها وألثمَ قبرَ عازرَ في الرُّخامِ
وأسمع في كنيسةِ بيتَ لحمٍ من الانجيل تفسير الكلامِ
وفي صِهيونَ قمتُ وقام فيهِ ليغسل أرجل الرُّسل الكرامِ

﴿وفاتهُ﴾ لم نقف على تاريخ وفاة سليمان الغزّي كما أننا لا نعلم بأيّة ميتةٍ مات. وقد أفاد جناب عيسى افندي في مقالتهِ (ص ٦٢٠) انهُ «مات شهيدًا كما رأى ذلك في بعض التعاليق على نسخة من ديوانهِ». فان صحَّ الخبر كان للغزّي فخرٌ جديد اذ اصاب ما تمنّاهُ واشار اليهِ بشعرهِ حيث قال يذكر هيكل جسدهِ ويطلب تضحيتهُ لربهِ (من الكامل):

وبهِ امجّدهُ لوَ اعلَمُ أنّهُ يَرضى بصبري تحت ضرِّ بلائي
حتى تتمَّ شهادتي فيكونَ لي كأسُ المنيّةِ مثلَ كأسِ رواءِ
واقومَ عن يمناهُ وارثَ ملكهِ اذ كان فقري موجباً لغنائي

وعلى كل حال ان ثبت خبر استشهادهِ وجب القول انهُ نال هذه النعمة بعد حياةٍ طويلة تجاوزت الثمانين حتى ناهزت التسعين من عمرهِ

﴿علومهُ﴾ خلَّف سليمان الغزّي ما عدا ديوانهُ آثارًا اخرى متفرّقة يُستدلّ منها انهُ كان ضليعاً بالتاريخ الكنسي والعلوم الدينية وفنّ المجادلة مع المخالفين. فممّا رُوي عنهُ في مجموعة كبيرة مخطوطة في مكتبة القبر المقدّس (تحت عدد ١٠١ ص ٨٥) في اوّلها عدَّة مقالات لبولس ابن الراهب وللشيخ المكين نشرناها سابقاً. ثمَّ كتابٌ في اثبات الامانة هذا عنوانهُ (ص ٥٣): «وايضاً نكتب شيئاً في برهان الامانة ممّا رتّبوهُ (كذا) المجامع المقدّسة والآباء الثلثمائة وثمانية عشر والآباء القدّيسون مسائل واجوبة ... من سليمان مطران غزّة». وهو يبتدئ بذكر المجمع الاوّل مجمع نيقية. وقد وقفنا على نسخة من هذا الكتاب في مجموعة للخوري الفاضل الاب قسطنطين الباشا ناسخها «صفرونيوس بن موسى الطرابلسي ابن الحاج سليمان الطرابلسي البتروني الاصل سنة ٧١٥٢ للعالم (١٦٤٤ م)»

ثمَّ لهُ في مجموعة القبر المقدَّس المذكورة مقالة ثانية هذا عنوانها: « وللغزّي ايضاً رضي الله عنا وعنهُ في معنى ايمان النصارى » . يتبعها مقالة ثالثة اوَّلها « اللهمَّ اني اسألك بحجة ناسوتك »

ومثل هذه المقالات ما اطَّلعنا عليهِ في مجموعة للمنسنيور جرجس منش في حلب ومجموعة مثلها لحضرة الخوري قسطنطين الباشا « رسائل وردود للغزّي على المخالفين للامانة المستقيمة وعلى الهراطقة كآريوس واوطيخا ونسطور ويعقوب البرادعي وساويروس » ثمَّ مقالات اخرى عندهما في وحدانيَّة الخالق وفي التجسُّد والصلب وفي الانسان والعالم . وبعض فصولها مسجَّعة

وهذا مثال من نثرهِ وهو دعاء مسجَّع ننقلهُ عن احدى نسخ ديوانهِ المصونة في مكتبتنا الشرقيَّة (ص ٩٧)

اللهمَّ اني اسألك يا نور الانوار ، وعالِمَ الاسرار ، وكاشف الاضرار ، الملك الجبَّار ، ذا العزَّة والوقار ، مُنزل الامطار ، ومحصي نبات الاشجار ، وواضعَ الارض في القرار ، وجاعل الشمس لضياء النهار ، الذي اسكنَ الوحوشَ القفار ، والسمكَ البحار ، والجوَّ صنوفَ الاطيار ، يا من لا تحويهِ الامكنةُ والاقطار ، ولا تُدركهُ العقول والابصار ، ولا تغيرهُ الازمنةُ والادهار ، خالقَ الانسانِ المختار

اللهمَّ نسألك بحلول كلمتك الازليَّة ، في العذراء النقية ، ان تجعلنا من الابرار ، وان تخلّصنا بقيام مسيحك من شرّ الاشرار ، انك لم تُهمل انسانك في سقطتهِ الى الابد ، بل تعطَّفت عليهِ بعد طول المدد ، واصلحت منهُ ما كان فسد ، وفككتَ من سبي الموت نفسهُ والجسد . حينئذٍ ابصر بعد العمى . ورَوِيَ بعد الظما ، وصارت السماء لهُ ارضاً والارضُ سما ، فاشكري يا نفسي إلهكِ المحسن اليكِ والمسبغ نعمهُ لديكِ ، كما يجب عليكِ ، انهُ تعالى المستحقُّ المديح ، والمستوجب الاكرام والتسبيح ، الآن وكل اوان الدهر الداهرين . امين

ولهُ دُعاء يطلب فيهِ من الله ان يجعل نظرهُ على الكنيسة التي تولى تدبيرها كأسقفها اعني غزَّة فقال متأنقاً :

اللهمَّ بقاف القدرة ، وميم المُلك ، وحاء الحياة ، ونون النُّطق ، وجيم الجلالة ، وهاء الهيبة ، وواو الوقار والوحدانية ، والكاف الجامعة بين الكون والكلمة ، اسألك ان ترحم هذه الكنيسة القليلة العدد ، المائلة الأَوَد ، أعطها يا ربّ حياة الابد ، وخلّصها من كل شرّ ونكد ، بشفاعة أجلّ مَن حملَت ولد ، العذراء امّ النور وجميع القديسين . آمين

﴿ ديوانهُ ﴾ هو اوَّل ديوان نصراني بحت فانَّ قصائدهُ كلَّها لا تحتوي غير المعتقدات المسيحيَّة والمعاني المسيحيَّة والاشارات المسيحيَّة بحيث يجوز ان يقال انهُ هو

اوّل شاعر نصراني ديني له التقدّم على كل الذين ظهروا بعد ذلك في القرون التالية . والغالب على القصائد الوصف والمديح والزهد وبعض الرثاء

والقصائد المذكورة تنيف عن السبعين ومعظمها بين الاربعين والخمسين بيتاً ومنها ما يزيد عن السبعين بل له ارجوزة الفية تنيف على مائتي بيت يكاد المجموع يبلغ قريباً من ثلثة آلاف بيت من كل بحور الشعر . وفي رأس كل قصيدة دعاء من الناسخ كالوف عادة كتبة الدواوين الاسلاميَّة فتارة يطلب له الغفران وتارة يترحّم عليه وحيناً يدعو له بالخير كقوله : « قدَّس الله روحهُ ونوَّر ضريحهُ » وكقوله : « زاد الله برَّهُ واجزل ثوابهُ » او « عظَّم الله اجرهُ » او « اضاء الله رمسهُ » او « آنس الله وحدتهُ » او « رضي الله عنهُ » او « سمَّح الله نفسهُ » الى غير ذلك من الادعية الدالَّة على اعتبار الكتبة لهذا الشاعر

واذا أعملنا بصر الانتقاد في شعر سليمان الغزّي وجب ان نفرق بين نظمه ومعانيه . فانَّ نظم الشاعر لا يخلو من ضعف سواء كان في التراكيب ام في الجوازات الشعريَّة فانَّ في قصائده اغلاطاً نحويَّة ومسوّغات شعريَّة تجاوز فيها الحدود عن سواهُ من الشعراء . ولعلَّ بعض هذه الاغلاط اللغويَّة والخلل في ضبط الاوزان الشعريَّة قد تسرَّب الى ديوانه بفعل الناسخين او قل بالحري الماسخين . فمنها ما يصعب اصلاحها . الّا انَّ هناك من الشوائب ما لا يمكن نسبتهُ لغيره لغةً ونظماً فيسكّن المتحرّك ويحرّك الساكن ويصرف ما لا ينصرف ويمنع المعرَّب عن اعرابه ويجمع الفعل مع ظهور فاعله وينصب المرفوع ويرفع المنصوب ويبدل همزة الوصل بهمزة القطع ويعكس الى غير ذلك ممَّا يدلُّ على انهُ لم يدقّق في ضبط اللغة وفي لزوم قوانين العروض

على انَّنا لا يمكنَّا ان ننظم شعرهُ في جملة الشعر العامّي فانَّهُ اعلى منهُ طبقةً واضبط وزناً

امَّا المعاني فانَّ شاعرنا يجاري فيها كبار الشعراء فانهُ يحسن إبراز افكاره بصورة لطيفة ويعرضها بالتشابيه البديعة والتعابير الرائقة ويتفنن بالمعاني فيخرجها على ضروب شتى تزيدها رقَّةً وتأثيراً في القلوب . وها نحن نختار بعض المقاطيع من شعره ليقف القرَّاء على محاسنه . ومن ديوانه في مكتبتنا الشرقيَّة خمس نُسخ ترقى اقدمها الى نحو القرن الخامس عشر قد سقط اوراق قليلة من اوَّلها وآخرها . وكُتبت الثانية والثالثة

في القرن السابع عشر . والرابعة تاريخها السنة ٧٢١٢ لآدم(١٧٠٤م)بيد الشماس عيسى ابن جرجس عازرية . والخامسة حديثة العهد . فمن قوله الذي افتتح به احدى نسخنا وصفهُ للايمان الحقّ وتابعيهِ ظاهراً وباطناً (من البسيط) :

ما كلُّ معتمدٍ بالماء نصراني غيرَ اعتمادِ حياةِ العالَمِ الثاني (١
وبالمسيح شعوبُ الارض إعتمدوا ونافقَ البعضُ منهم بعدَ ايمانِ
صاروا كاعضاء جسمٍ في طبيعتهِ منهم مُعينٌ ومنهم غيرُ أعوانِ
كم بطراكٍ غيرِ محمودٍ بخدمتهِ واسقفٍ غيرِ مغبوطٍ ومطرانِ
من الاراطقةِ المشهورِ ميلُهمُ عن الصواب الى زُورٍ وبُهتانِ
قد فضَّل اللهُ عنهم بيعةً جُمعت احجارُها من اقاليمٍ وبلدانِ (٢
بَنَى لها الحقُّ بُنياناً فارتفعتْ الى السماء بأعمادٍ واركانِ
من الزَّبرْجد في ترتيبهِ نُظِمَتْ ما بينَ دُرٍّ وياقوتٍ ومَرجانِ
اساسُها صخرةُ الايمانِ راسخةٌ من تحتِ ذاتِ اساطينٍ وحيطانِ
وكلُّ ذي جسدٍ يحلو لناظرهِ اذا تراءى باجناسٍ وألوانِ (٣
فالرومُ والروسُ والافرنجُ حلُّوا بقُرْ م بِ الهندِ والخوزِ والأبخازِ واللانِ(٤
والارمنيُّون والبَشناكُ وافقَهم اهلُ الجزيرة اعني اهلَ حرَّانِ
وارضُ شيرازَ والاهوازِ فاتَّفقوا مع العراقِ الى اقصى خراسانِ
من مطلعِ الشمس حتّى حدِّ مغربِها الى الفراتِ وسَيحانٍ وجَيحانِ(٥

١) يريد ان معموديَّة الماء لا تكفي للخلاص دون معموديَّة الروح بقداسة الحياة

٢) يريد بالبيعة الكنيسة الحقيقيَّة وبأحجارها مؤمنيها

٣) اي انَّ الكنيسة الواحدة تقوم بشعوب مختلفة بالجنس واللون واللغة مع اشتراكهم بالايمان الواحد

٤) الخوز اهل خوزستان في بلاد فارس . والابخاز جيلٌ من الناس في بلاد الكرج . واللان اهل بولونية

٥) سيحان وجيحان نهران كبيران في تركستان

بيضٌ وشقرٌ وسمرٌ في كنائسهم قد سبَّحوا الله مع صُفرٍ وسُودانِ
فكلّ قومٍ الى دينِ المسيحِ أتوا وبالهدى رَبحوا من بعدِ خُسرانِ
شعوبُ شعبٍ لكلٍّ منهمُ لغةٌ تبلبلَت من لسانٍ كان سرياني (١
وكان منطقُ رُسلِ الله قد خُلقوا قبلَ الرسالةِ بالانجيلِ عبراني
صارت لكلّ رسولٍ منهمُ لغةٌ جميلةٌ ذاتُ إسنادٍ وبنيانِ
ولم يُحابوا بتعليمٍ وما عرضوا ايمانهم في الورى إلّا ببرهانِ
لذلك افترقوا في نشرِ دعوتهم ولم يخافوا جميعاً كَيدَ شيطانِ
حتى اذا كمُلَتْ لله خدمتُهم ناموا فكم ابغضوا نوماً ليقظانِ (٢
وقام في عصبةِ الشيطانِ بعدَهمُ مذاهبٌ ذاتُ إشراكٍ وطغيانِ
فقال أرْيُسُ نُطقُ الله خالقِنا اعني القديمَ حديثٌ زائلٌ فانِ (٣
وقال مكدونيُوسُ الروحُ ليس لهُ اقنومُ بي عدد اذ كان جسماني (٤
وقال نسطور ناسوتُ المسيحِ على لاهوتهِ جوهران او قَنُومانِ (٥
وقال يعقوب قولُ الله صحّ لنا من ذات اقنومَ لا من ذات ثُنيانِ (٦
الى ان ختم بما ذكرناهُ سابقاً

١) زعم بعض القدماء انّ اللغة السريانيّة كانت لغة الابوين الاولين

٢) اراد بنومهم موتهم في سبيل المسيح . امَّا نوم اليقظان فاشارة الى الخاطئ العائش في خطيئتهِ

٣) يريد بالنطق السيد المسيح كلمة الله الذي زعم اريوس انهُ مخلوق فحرمتهُ الكنيسة في المجمع النيقوي

٤) كان ضلال مكدونيوس بقولهِ انّ الروح القدس مخلوق من الابن وليس بإله فحرمهُ المجمع المسكوني الثاني

٥) جعل نسطور في السيد المسيح اقنومين احدهما انساني سبق بمولدهِ والآخر الهي اقترن بالانسان ومن ثمّ نكر أمومة مريم الالهيّة فحرمهُ مجمع افسس

٦) هو يعقوب البرادعي القائل بانّ في المسيح طبيعةً واحدة كما هو اقنوم واحد وهذه البدعة حُرمت في المجمع الخلقيدوني

هذي مذاهبُ اقوامٍ لِكُفرِهمُ ضلُّوا الهدى من طريقٍ شبهَ عميانِ
فالفضلُ للأرثذُكسيّين (١ انهمُ تمذهبوا مذهباً في الله حقّاني

وينسب في هذه القصيدة لابن الله قبل تجسُّدهِ ما صنعهُ من العجائب مع بني اسرائيل اذ خلَّصهم من ظلم فرعون وقادهم الى ارض الميعاد ثمَّ يُلحقها بعجائبهِ بعد تجسُّدهِ فقال :

فهو المخلّص لإسرائيلَ من رجلٍ عاداهُ في ظلمهِ موسى بنُ عمْرانِ
وهو الذي من مياهِ البحرِ أخرجهُ جهرًا وانزلهُ في ارضِ فارانِ
وهو الذي بسحابِ الغيمِ ظلَّلهُ فلم تضرَّ لهُ شمسٌ بأبدانِ
وهو الذي أنبعَ الأمواهَ من حجرٍ صخرٍ ليشربَ منهُ كلُّ عطشانِ
وهو الذي إصطفى هارونَ مغتفرًا مآثمَ الشعبِ في تقريبِ قربانِ
وهو المؤدّي لإيشوعَ ابنِ نونٍ الى ارض الوراثةِ من أعمال عمّانِ
وهو الذي ردَّ قرنَ الشمسِ في مغربٍ حتى تمكّن من تهديمِ سيرانِ (٢
وهو الذي قد بنى صهيونَ بيعتَهُ قدساً فتمَّ بناها من سليمانِ
وهو الذي بكلامِ الحقِّ أوحى بأن يقيمَ فيها ملوكًا ذاتَ تيجانِ
وهو الذي لشعوبِ الارضِ أسكنها فقادهم نحوها من غير إبهانِ
وهو الذي بطلاءِ الطينِ ابرأ عينَيْ م أكْمَهٍ فشُفي في عينِ سلوانِ
وهو الذي طهَّر البرصَ الأُولى طلبوا منهُ شفاءً فنالوا طُهرَ ابدانِ
وهو الذي أشبعَ الآلافَ حين أتَوْا خبزًا واكفاهمُ من خمسِ رُغْفانِ
وهو الذي مسَّتِ الإمرأةُ بُرْدتَهُ فعُوفيت من نزيفٍ من دمٍ قانِ

---

١) ليس معنى الارثذكسيين هنا كنيسةً خاصة بل الكنيسة الحقيقيَّة المستقيمة الرأي المبنيَّة على الصخرة البطرسيَّة. والكنيسة الرومانيّة تُدعى بالكنيسة الاورثذكسيَّة في صلوات التقديس

٢) جمع بين آيتين ليشوع لمَّا اوقف الشمس في مسيرها ثمَّ لمَّا اخرب اسوار اريحا بابواق الكهنة. السيران جمع سُور

وهو الذي أمر المخلوع يحملُ ما قد كان يعلو عليهِ فوق أمتانِ (١
وهو الذي ضرَبَ الجانَ الأولى عَلقوا بالمجدليَّةِ ربُّ الإنس والجانِ
وهو الذي حوَّل المَا يومَ عُرْسهمُ خمرًا وريحتُهُ أذكى من آلبانِ
وهو الذي سار فوق البحر مُنْطَلِقاً يمشي على البحر اكراماً لسمعانِ
وهو الذي يومَ سبتٍ قال: عازرُ قمْ فقام مشتملًا اثوابَ أكفانِ
وهو الذي منح الغفران خاطئةً ألقت على قدَمَيْهِ طيبَ أدهانِ
وهو الذي غسَّل الأقدامَ متَّضعاً لرُسْلهِ كحكيمٍ صالحِ الشانِ
وهو الذي من جحيم النار أنقذَنا بعد الهلاك بإثمِ الوالدِ الجاني

الى ان ختم بقولهِ:

فسبِّحوا اللهَ يا اولادَ بيعتهِ ومجِّدوا بمزاميرٍ وألحانِ
ثمَّ اطلبوا منهُ للمسكينِ قائِلها أجرًا يؤُولُ الى فوزٍ بغفرانِ

ومن محاسن قولهِ وصفهُ لزوال العالم وتحريضهُ على التوبة (من البسيط):

لا يعجبنَّك من يصفو لهُ الزمنُ فالمرءُ عند صفاء الدَّهر يُمتحَنُ
وارغَبْ بنفسك عمَّا ليس ينفعُها فلا سرورٌ لها يبقى ولا حَزَنُ
أما ترى حركاتِ الدهرِ دائرةً لا تستقرُّ ولا يُبطي بها وَهَنُ
يُباينُ البعضُ بعضاً من كواكبها ويدنو بعضُها من بعضٍ فيقترنُ
كم فرَّقت شملَ قومٍ بعد وَصْلِهمُ وجمَّعت شمل قومٍ غيرهم فدَنوا
كم من عظيمٍ جليلٍ من ذوي ثقةٍ لهُ المهابةُ والافضالُ والمِنَنُ
اتى الزمانُ عليهِ في تصرُّفهِ فأُعدِمَ الملكُ والسلطانُ والسَّكَنُ
كفى بهم أنَّهم عن رَبْعهم رحلوا الى القبور كقومٍ قبلَهم ظَعَنوا

١) جمع مَتن اي كتف

والتربُ يحجبُ جسماً عزَّ مطلبُهُ ولو تمزَّقَ عن اعضائهِ الكفَنُ
ويأكل الدودُ ابداناً منعَّمةً ولا يعزُّ عليها منظرٌ حسَنُ

ومن محاسن اقوالهِ ما انشدهُ في قيامة السيد المسيح (من الكامل):

زالت شكوكُ الناسِ والأوهامُ في البعثِ اذ قامَ المسيحُ فقاموا
والحقَّ يشهد أنهم من آدمٍ ماتوا وبادت في التراب عظامُ
حتى تجسَّد للخلاص مبشِّرًا بحياتنا فجلَتْ لهُ الأيامُ
هذا الذي أحيا لنا لاهوتُهُ ناسوتَهُ فالموتُ منهُ منامُ
والقبرُ مفتوحٌ تقدَّس باسمهِ وعلا على كلِّ البلاد الشامُ (١
يا قبرُ ابن يسوعُ هل وصلوا الى ما دبَّروهُ بموتهِ الحكَّامُ
يا قبرُ هل بلغَ العداةُ مُرادَهم ام فاتهم بحسابهم ما راموا
يا قبرُ خفَّ لك الالهُ كرامةً وسقاكَ من كأس الحياةِ غمامُ
يا قبرُ نورُ اللهِ فيك مُشعشعٌ جندُ السماء لمجدهِ خدَّامُ
يا قبرُ انَّك في القيامةِ شاهدٌ عدلٌ لاجلك قامتِ الاجسامُ
هذا الذي وهبَ الحياةَ لآدمٍ فتحيَّرت لصفاتهِ الأفهامُ
لو لم يمُتْ لما انقضَتْ توراتهم وتعطَّلت بفروضها الأحكامُ
أنتَ الإمام لمن زكَتْ أفعالُهُ والحقُّ فيما قد تقولُ إمامُ
طوبى لمعتمدين بأسمكَ ثمَّ مَنْ بسطوا يدَيهم في الصلاةِ وصاموا
طوبى لمن هربوا اليك وخلَّفوا اموالَهم للوارثين وهاموا
طوبى لمن حملوا كما آمرتَهم صُلبانَهم فهمُ عليك كرامُ

١) يعدّ الشاعر القدسَ الشريف من الشام كما ترى

لولا الامانةُ لم تصحَّ ظنونُهم أبدًا ولم تُصدِّقهمُ الأحلامُ
قرَّبتَ لحمَ الفِصحِ عن آثامنا خبزًا وصار لنا الحياةَ مُدامُ
فتقرَّبوهُ يا بني ميراثهِ فساها تَسقطُ عنكمُ الآثامُ
وأدعوا لمن قال القصيدةَ انهُ رجلٌ يحقُّ لمثلهِ الإكرامُ

وقد احسن في وصف نوائب الدهر فقال (من البسيط):

حَبلُ الوِصالِ من الأعوانِ منصرمُ وكلُّ ما بنَتِ الأيامُ منهدمُ
يا دهرُ رُدَّ الى جسمي شبيبتَهُ فقد تعالى عليَّ الشَّيبُ والهرَمُ
أبكيتني بعد ما أضحكتني زمناً والناسُ لا بُدَّ أن يبكوا ويبتسموا
وساكنو هذه الدُّنيا على وجلٍ من المنيَّةِ والموجودُ منعدمُ
دنياهمُ اخبرَتنا ما الذي فعلَت قد شتَّتت شملَهم بادوا وما سلِموا
قد كنتُ ابكي على توديعهم أسفاً فأرتجي يومَ لُقياهم اذا قَدِموا
واكتمُ الدَّمع خوفاً للفراقِ وما أُطيقُ كتمانَ دمعي وهو منسَجِمُ
إني لأعجب يومَ البَينِ من جَلَدي والنارُ في باطنِ الاحشاء تضطرمُ
يا نفسِ قومي بخوفِ اللهِ تنتفعي انَّ الأُلى كفروا بالحقِّ قد أثموا

ومن ظريف قولهِ ما وصف بهِ الايمان المسيحي ومفاعيلهُ العجيبة (من الطويل):

بمعرفةِ الايمان أثبتُّ حُجَّتي وتدنو من الآب القديمِ بُنُوَّتي (١

١) يريد ان المسيحيَّ بالمعموديَّة ينال شرف البنوَّة الالهيَّة كما ورد في الاسفار المقدسة

بمعرفةِ الايمان عُمِّدتُ كالذي ... بإعمادهِ بالماء طهَّر حلّتي (١
بمعرفة الايمان أسمعُ منطقاً ... لانجيلهِ من قُدْس صهيونَ تَبْعتي
بمعرفةِ الايمان أَمحَضُ وُدّ مَنْ ... يجاهرُ في بُغضي ويبغي منيّتي
بمعرفة الايمان أَحفظُ جانبي ... وادعو المساكينَ الاصاغرَ اخوتي
ومَن لطم الخدَّ اليمينَ أُدِرْ لَهُ ... شمالي ولم أَحقِدْ عليهِ بلطمتي
وأترك عن ذكر القبيح تغافُلاً ... لقومٍ أرادوا بالقبيح أَذيّتي
بمعرفةِ الايمان أخلعُ زينتي ... إذا كان ثوب الكِبْر يوجب سقطتي
وأَلبسُ ثوب الإتضاع وذِلّهُ ... ليُوجب يوم البَعْث عزّي ورفعتي
بمعرفة الايمان أُطعِم جائماً ... وأَكسُو لِعُريانٍ إذا شاء كُسْوتي
ولِلغُرَبا آوي من البرد منزلي ... وأُكرمهم في حال ضعفي وقوّتي
بمعرفة الايمان أُصبح باذلاً ... لكلّ عليل أو حبيسٍ معونتي

الى ان قال مخاطباً السيّد المسيح:

فيا سيّدي أَنت الطبيبُ لعلّتي ... وموجبُ أسبابَ الحياةِ لسَقْطَتي
كتابكَ ناموسي وجسمُكَ هيكلي ... ووجهُكَ في أَعلى السماوات قُبْلتي
وفيك اذا صلّيتُ أَسجدُ موقناً ... بانّ إلاهَ العرشِ يسْمَعُ دعوتي
ويقبلُ قرباني بك اللهُ خالقي ... ويُصلح أَحوالي بموتي وعيشتي

وقال يذكر تتمّة النبوّات بمجيء المسيح من قصيدة (من الكامل):

١) يشير الى عماد السيد المسيح الذي قبلَ عمادَ التوبة من يد يوحنّاً المعمدان كي يعطينا العماد المطهّر من الخطايا

وتجسَّم النُّطقُ القديمُ تجسُّماً (١ تاريخُهُ وحسابُهُ محسُوبُ
سبعون سابوعاً سنيناً أُحصِيَتْ من دانيالَ ودانيالُ لبيبُ
ولقد أتى داوُودُ في ميلادهِ قولًا عن الربّ القديم ينوبُ
إذْ قال: قال الربُّ أنت اليومَ لي م ابنٌ وإن ماأتتْ عليك شعوبُ
ويقول شَعْيا تحبلُ العذرا بمن للناس بالميراثِ منهُ نصيب
ولقد تنبَّأَ عن يهوذا مُعلناً بالحقّ عنهُ. شيخُهُ يعقوبُ
إذ قال إنَّ الْمُلك منهُ ينقضي والانبيا إذا أتى المحبوبُ
يعني مسيحاً قام مَلْكاً في السما وعدوُّهُ بصليبهِ مصلوبُ
هذا الذي إنجيلهُ لشعوبهِ بالحقّ من داء القلوب طبيبُ
وبموتهِ أحيا طبيعةَ آدمٍ إذ كان آدمُ للخطاء رَكوبُ
يا ربِّ مَتِّعنا بهيكل قدسهِ للدهر انَّك للدعاء مُجيبُ

وقد قال في مديح العذراء مريم ووصف بشارتها (من الوافر):

سما شرفٌ لمريمَ في العذارى وفخرٌ في جميع الاصفياء
فأمسَتْ في الدهور بلا مثالٍ بتولًا وهي امٌّ في سَواء
أتاها بالبشارةِ جبرئيلٌ ملاكُ السرّ في حُلَل البهاء
فقال: حييتِ مريمُ لا تُراعي مباركةً تكوني في النساء
بحقّ تحبلين الآن بابنٍ هو ابنٌ لعليِّ الكبرياء

١) اراد بالنطق كلمة الله الازليّة التي حلَّت فينا وصارت جسدًا

يكونُ لهُ على يعقوبَ مُلكٌ الى دهرِ الدهورِ بلا فناء
فقالت للملاك: وكيف هذا وما بشرٌ تقرَّب من رِدائي
فقال: عليكِ روح الله يأتي وقوَّتهُ تحلُّ من العلاء
ومَن تلدينَ فالقدُّوسَ يُدعى وإبنَ الله يُسمى في الملاءِ
فقالت: ها أنا أَمةٌ لربّي فأَقبَلُ ما اتيتَ بلا إِباء
فصدَّقتِ البشارةَ بابتهاجٍ وتمَّ بذاك قولُ الانبياء
ولم يُخصَص بهذا الأَمر إلّا لمريمَ وهي أَتقى الاتقياء
فشكرٌ للعلي المولى وفخرٌ بأُمّ النور والدةِ الضياء
فانَّ لنا بها في الارض مجداً وما بين الملائكِ في السماء
فنحن الخلقُ كان بنا سقامٌ فاضحتْ مريمٌ سببَ الشِفاء
أتتنا بالخلاص فأنقذتنا بذاك من الخطيئةِ والبلاء
وكان لآدمٍ من قبلُ وعدٌ فمَنَّ على يديها بالوفاء
فأهدوها بلا ملَلٍ سلاماً جديداً في الصباح وفي المساء
تولّاها وليٌّ وهو يرجو شفاعتها غداً عند القضاء

فترى من هذه الامثلة انَّ سليمان الغزّي كان مشبعاً من العلوم الدينيَّة عارفاً معرفةً تامَّة بعقائد الكنيسة وآدابها وتاريخها · وكان في وسعنا ان ننقل عنهُ قصائد كثيرة بهذا المعنى لولا خوف الاطالة المملَّة · وفي ما ذكرنا ما يكفي لبيان فضلهِ كشاعر مُجيد على الرغم ممَّا سوَّغ لنفسهِ من الاجازات الشعريَّة

﴿ تنبيه ﴾ حاول الاستاذ المغربي احد علماء دمشق تخطئتيا في جريدة الف باء بخصوص تنصُّر سليمان بن حسن الغزّي فنقول: انَّنا لم نُقدم على قولنا جزافاً بل لاسباب·

اوّلًا لان احد الذين بعنا منهُ اقدم نُسخة ديوان هذا الشاعر افادنا انهُ يعرف بالتقليد تنصُّر ذاك الشاعر بعد اسلامهِ. ثانياً انّ اسم والد الشاعر «حسن» هو اسم شائع خصوصاً عند المسلمين. وان وُجد قليل من النصارى الذين عُرفوا بهِ. وثالثاً ما يحويهِ الديوان من الردّ على بعض مزاعم المسلمين كما روينا. ورابعاً استشهادهُ اي موتهُ في سبيل الدين ممَّا يثبت ذلك وان اراد جناب الاستاذ ان يطَّلع على صحّة الرواية فليطالب بها جناب عيسى افندي اسكندر المعلوف وهو راوٍ ثقة سبق الى ذكرها. خامساً بل نجد في سكوت النصارى عن تنصُّر سليمان الغزّي علّةً تثبت تنصُّرهُ اذ لم يجسر النصارى على الاعلان بهِ خوفاً من الدولة وتعصُّب اهل دينهِ

٢ فخر الدين ابن مكانس

﴿اسمهُ ونسبهُ﴾ قال ابو المحاسن ابن تغري بردي في المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (Ms de Paris, 2071, ff. 40v): «هو عبد الرحمان بن عبد الرزّاق بن ابراهيم الرئيسُ فخر الدين ابو الفرج وقيل ابو الفضل ابن شمس الدين ابن علم الدين الشهير بابن مكانس القبطيّ المصري الحنفي الاديب الشاعر». فمن لقبهِ والقاب اجدادهِ ترى ما كان لهُ من الشرف والاعتبار

﴿زمانهُ واعمالهُ﴾ قال ابو المحاسن في النجوم الزاهرة (éd. Popper ٧١) وفي المنهل الصافي (ibid.) «كان مولدهُ بالقاهرة سنة خمس واربعين وسبعمائة (١٣٤٤م) ونشأ بها وتعانى قلمَ الديون وغلب عليهِ الادب حتى صار بارعاً فيه الى الغاية مع المشاركة الجيّدة في انواع الادبيات. تولّى نظر الدولة بديار مصر مدّةً طويلة ثمَّ صار وزيرًا بدمشق فباشرها مدّةً الى ان طُلب الى القاهرة ليستقرَّ بها وزيرًا فاستقى (فاستسقى ؟) في الطريق فدخل القاهرة ميتاً وقيل مات بعد ايّام في ١٥ ذي الحجّة سنة ٧٩٤هـ(١٣٩٢م)»

﴿دينهُ﴾ وُلد فخر الدين ابن مكانس نصرانيًّا لكنَّهُ أسلم وذلك ليس رغبةً في الاسلام او اقتناعاً بصحَّتهِ بل طمعاً في الارتزاق وحبًّا بالمناصب الشرفيَّة. ولسنا لنروي ذلك جزافاً بل اثباتاً للحقيقة التاريخيَّة ولنا على قولنا اصدق شاهد في ما ذكرهُ

ابن تغري بردي في المنهل الصافي عن المقريزي قال ما حرفهُ الواحد: «قال المقريزي بعد ان أثنى على ادبهِ (اي ابن مكانس) وفضلهِ إلّا انهُ كان لعراقة آبائهِ في النصرانيَّة يستخفُّ بالاسلام واهلهِ ويُخرج ذلك في اساليبَ من سخطهِ (سخفهِ) وهزلهِ. أخبرني محمَّد بن ابراهيم البشتكي وكان قد عاشرهُ دهرًا طويلًا انهُ سمع المؤذّن يقول في إذانهِ: «واشهد انَّ محمَّدًا رسول الله» فقال: هذا محضرٌ لهُ ثمانمائة سنة نودي فيه للشهادة وما ثبتَ. ومات ولهُ عدَّة بنات نصارى. عاملهُ الله بما يستحقُّهُ» انتهى كلام المقريزي. قلتُ (القول لابن تغري بردي): هذا شأن سائر اقباط مصر قديمًا وحديثًا إلّا انَّ فخر الدين هذا كان انسلخ من ابناء جنسهِ بما اشتمل عليهِ من الفضيلة والادب والشعر الرائق» انتهى ما نقلناهُ عن المنهل الصافي وهو يؤيد ما قلناهُ عن النصارى الذين يعدلون الى الاسلام انهم انَّما يفعلون ذلك لغايات بشرية فيحقُّ لنا ان ننظمهم في سلك النصارى

﴿ادبهُ وشعرهُ﴾ كان فخر الدين ابن مكانس من كبار المتأدبين. ذكرهُ السيوطي في حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة (١: ٣٣٠) قال عنهُ «انهُ كان وزير دمشق وناظر الدولة بمصر» وانهُ كان «احد فحول الشعراء ولهُ ديوان انشاء» الّا انهُ قد غلط بذكر وفاتهِ «سنة اربع وستين وثمانمائة» والصواب ما رويناهُ انهُ مات سنة ٧٩٤هـ. وقد جمع ابنهُ مجد الدين ديوان شعرهِ وانشائهِ منهُ نسخ خطيَّة في خزانة كتب باريس وبرلين ولندن وغوطا ومونيخ ومصر وقد روينا لهُ في كتابنا مجاني الادب (٢ ع ١٠٩) منتخبًا من ارجوزتهِ التي اوَّلها:

هل من فتًى ظريفِ مُعاشرٍ لطيفِ
يسمعُ من مقالي ما يُرخصُ اللآلي

وهي طويلة وفيها يقول:

أسلكْ مع الناس الأَدَبْ ترى من الدهر العجَبْ
لِنْ لهمُ الخطابا واعتمدِ الآدابا
لا تُغضبِ الجليسا لا توحِشِ الانيسا
لا تَصحَبِ الخسيسا لا تُسخطِ الرئيسا

وختمها بقوله:

فهاكها وصيّه تصحبها التحيّه
تحملها الكرامُ اليك والسلامُ

وروى لهُ النواجي في حلبة الكميت (ص ٣٠٨–٣١٣) موشحاً طويلاً وصف فيهِ رياض القاهرة ومحاسنها فيقول منها (من الرجز):

باكر الى جزيرة الفيل(١) التي تختال في افنانها كالجنَّةِ
ولا تَمِلْ من وجهها لوجهةِ صِفْ حُسنَها لمائها والخُضرَةِ
وقفْ بشاطيها ولا تُعدّي
واجلس من المُنية جنبَ الشاطي في فُرُش الروض على بساطِ
فهي من التدبيج في إفراطِ عروسةٌ تختال بالأقراطِ
ومن لآلئ نَوْرِها في عِقدِ

ومنها قولهُ في بئر البلسم في المطريَّة وهي البئر التي قدَّسها السيد المسيح فأنبتت البلسم قال:

وانظر الى انوار بئر البَلسَمِ فهي سبيلُ صحّتي من سَقَمي
لكونها فيما يقالُ تنتمي الى المسيح السيّد ابن مريمِ
مُحيي بإذن اللهِ مَيْتَ اللَّحدِ
بئرٌ لها التعظيمُ والجلاله بدرُ أنارتْ واستنارتْ هالَهْ
أنموذجُ الفردوس لا محالَهْ فيها عن الجنّةِ أيُّ دلالَهْ
تُذكِّر الناسَ نعيمَ الخُلدِ

وقال يعاتب صديقاً اسمهُ سراج الدين الاسكندراني لهجرهِ الخلّان ويدعوهُ

(١) جزيرة الفيل هي من جزائر نهر النيل قريباً من القاهرة دُعيت بذلك لانَّ مركباً كبيراً كان يُعرف بالفيل انكسر في موضعها. قال المقريزي في الخطط (٢ : ١٨٥) «وجزيرة الفيل هي الآن بلد كبير خارج باب البحر من القاهرة»

الى مجلس أنس (من البسيط):

يا ذا الذي فكرُهُ مثلُ اسمهِ يَقِدُ ... فَقُدتَ عنّا وما من شأنك الفَنَدُ
بمَ اعتذارُكَ عن هذا الصدودِ لنا ... هذا وقد ضمَّنا بالجيرةِ البلَدُ
عافاكَ ربُّكَ من داء القطيعةِ بل ... شفاكَ من داء أمرٍ كلُّهُ نكَدُ
فيمَ التَّواني وشهرُ الصوم مقتبلٌ ... عن خمرة ضوؤها في الكأس يتّقِدُ
وفتيةٍ مُخلِصينَ الودَّ قد جُبلُوا ... على المحبَّة لا حقدٌ ولا حسَدُ
ان ذاع وصفُكَ في ناديهم طَرِبوا ... او جالَ ذكرُكَ فيما بينهم سَجَدوا
اذا هجرتَ بني الآداب فأبْدُ لنا ... بمَ اعتذارُكَ لا اهلٌ ولا وَلَدُ
ما هكذا تفعلُ الدنيا بصاحبها ... فالناسُ بالناس والاخوانُ تُفتَقَدُ
وبعدُ فاحضُرْ وذَنْبُ البُعدِ مغتفَرٌ ... وان تطاولَ من هجرانِكَ الأمَدُ
لازلتَ ترقى على زهر النجوم عُلًى ... ما هبَّتِ الريحُ اقواماً وما رصدوا

ومن حُسن اوصافهِ قولهُ يصف دوحةً وارفة الاغصان على شاطئ النيل (من البسيط):

يا سَرحةَ الشاطئِ المُنسابِ كوثَرُهُ ... على اليواقيتِ في أشكالِ حَصْباء
حلَّت عليكِ عزاليها السَّحابُ اذا ... نوءُ الثُّرَيّا استهلَّت ذات أنواء
وان تبسَّم فيكِ النَّورُ من جذَلٍ ... سقاكِ من كلِّ غيمٍ كلُّ بكّاء

ومنها:

لن يُدركَ الطَّرْفُ أقصاها على كَلَلٍ ... حتى تعودَ لهُ لَحَظاتٌ حَوْلاء
مالت على النهر اذ جَشَّ الخريرُ بهِ ... كأنّها أُذُنٌ مالت لإصغاء
باكرتُها في سَراةٍ من أصاحبنا ... لا ينطوونَ على حقدٍ وشحناء
تداعبوا في معاني شعرهم فأرَوْا ... ردَّ الاحبَّةِ في الفاظِ أعداء

ومن شعرهِ قولهُ يذكر ابنهُ فضل الله (من الطويل):

أرى وَلَدي قد زادهُ اللهُ بهجةً وكمَّلهُ في الخَلق والخُلق مُذ نشا
سأشكر ربي حيثُ أُوتيتُ مثلَهُ وذلك فضلُ اللهِ يؤتيهِ من يشا

ولمّا تسلطنَ الملكُ الظاهر برقوق سلطنتهُ الثانية سنة ٧٩٢ (١٣٩٠م) غضب على الصاحب فخر الدين ابن مكانس. قال ابن اياس (١: ٢٩٣): «ضربهُ علقةً قويَّة. ثم علَّقهُ من رجليهِ بسرياق (١ فاقام وهو منكوس على رأسهِ نصف نهار ثمَّ انَّ بعض الامراء شفع فيهِ فأنزلوهُ» فقال في هذه الواقعة (من البسيط):

وما عُلِّقتُ بالسرياقِ منتكساً لزلَّةٍ (٢ اوجبتْ تعذيبَ ناسوتي
لكنني مذ نفثتُ السحرَ من ادبي (٣ عُذِّبتُ تعذيبَ هاروتٍ وماروتِ

وقال يذكر يوم الحساب (من الكامل):

وا سوءتاهُ اذا وقفتُ بموقفٍ ما ينجلي فيهِ سوى الإقرارِ
وسوادُ وجهي عند اخذ صحيفتي وتَطلُّقي منها شبيهَ القاري

﴿ اخوهُ عبد الكريم ابن مكانس ﴾ أسلم كاخيهِ فخر الدين وتعيَّن قاضياً وذكرهُ ابن اياس في تاريخ السنة ٧٨٨ (١٣٨٦م) قال (١: ٢٦٤) «وفيها طلع السلطان الظاهر برقوق على القاضي عبد الكريم ابن مكانس واستقرَّ بهِ في نظارة الجيش عوضاً عن موفَّق الدين ابي الفرج الذي ضربهُ مائة وخمسين عصاً. ثمَّ قال (ص ٢٦٦) في تاريخ سنة ٧٨٩ (١٣٨٧م):

«وفي ربيع الاوَّل جرت واقعة غريبة وهي انَّ السلطان دخل الى القصر الكبير في غير يوم الموكب فلمَّا جلس بالشبَّاك رأى خيمةً على بُعدٍ مضروبة في الروضة على شاطئ النيل فبعثَ مَن كشف عن خبرها. فلمَّا عاد القاصد اخبر السلطان انَّ بتلك الخيمة كريم الدين الصاحب ابن مكانس ومعهُ جماعة وهم يشربون الخمر. فارسل اليهم جماعةً من المماليك فاحضروهم بتمامهم وكمالهم بين يدي السلطان فأمر بضرب الصاحب كريم الدين بالمقارع وقرَّر عليهِ خمسين الف دينار وعفا عن الباقين. وهذا من الغرائب»

---

١) لم نجد للسرياق ذكرًا في كلّ المعاجم العربيَّة ولعلَّها التركيَّة «صريق» وهي خشبة كبيرة كانوا يعلّقون عليها المجرمين يدعوها الفرنج «pilori»

٢) ويروى: لحرمة

٣) ويروى: من غزلي

وفي ذكر هذه الرواية ما يرينا عن صحة اسلام كريم الدين ابن مكانس كأخيهِ فخر الدين . ولم نقف على تاريخ وفاته

﴿ابنهُ مجد الدين ابن مكانس﴾ هو ابن فخر الدين الذي سبق ذكرهُ قال ابو المحاسن بن تغري بردي في تاريخ سنة ٨٢٢ (١٤١٩م) يذكر وفاتهُ : « وتوفي الاديب الفاضل مجد الدين فضل الله ابن الوزير الاديب فخر الدين عبد الرحمان بن عبد الرزّاق ابن ابرهيم بن مكانس القبطيّ الحنفي الشاعر المشهور في يوم الاحد خامس عشرين شهر ربيع الآخر . ومولدهُ في شعبان سنة تسع وستين وسبعمائة (١٣٦٨م) ونشأ تحت كنف والدهِ وعنهُ اخذ الأدب وتفقَّه على مذهب ابي حنيفة رضَ وقرأ النحو واللغة وبرع في الادب وكتب في الانشاء مدَّةً وكانت لهُ ترسُّلات بديعة ونظمٌ رائق ومن شعرهِ قولهُ (من الوافر) :

بحقّ اللهِ دَعْ ظُلْمَ المُعنَّى ومَتِّعْهُ كما يَهوى بأُنْسِكْ
وكيفَ الصدُّ يا مولايَ عمَّنْ بيومكَ رُحتَ تَهجرهُ وأَمسِكْ

ولهُ في محاسن روضٍ (من الوافر) :

تَناوَمْنا شذا ازهـار روضٍ تحيَّرَ ناظري فيـهِ وفِكْري
فقلتُ نبيعُكَ الأرواحَ حقًّا بعَرْفٍ طَيِّبٍ منـهُ ونَشْري

وقال يمدح الشيبَ لبعثهِ على التوبة (من الطويل) :

جزى اللهُ شيبي كلَّ خيرٍ فـانَّهُ دعاني لما يُرضي الإلهَ وحرَّضـا
فأقلَعتُ عن ذَنْبي وأَخلصتُ تائباً وأمسكتُ لمَّا لاح لي الخَيطُ أبيضا

ولمجد الدين ديوان شعر منهُ نسخة في مكتبة برلين . وقـد ذكرهُ السيوطي في كتاب حسن المحاضرة فقال عنهُ : «تعانى الادبيَّات ومهر ومات بالطاعون»

٣ شاكر بن ريشه القبطي

هو ايضاً كما يظهر من اسمهِ ونسبهِ من نصارى الاقباط المرتدّين الى الاسلام لطمع في النفس كما رأيت في فخر الدين بن مكانس . وغاية ما وقفنا عليهِ من ترجمة حياتهِ ما ورد في كتاب ابن حَجَر العسقلاني المعنون بالدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة(Ms. du British Museum Suppl. 613-4,) قال : «هو شاكر بن ريشه القبطي الوزير تاج الدين وُلّيَ نظر الخاص بعد مَقْتَل صرغتمش ١ وولي الوزارة بعد ابن الخصيب وكان يتعانى الآداب وينظم الشعر مات سنة ٧٦٥هـ(١٣٦٤م)»

ولم نقف على شيء من شعرهِ . وقد ذكر ابو المحاسن بن تغري بردي في المستوفي بعد الوافي (Ms de Paris, I, ff. 31r) اخاهُ عبدالله . قال: «عبدالله بن ريشه امين الدولة القبطي الأَسلمي ناظر الدولة . كان المذكور من اعيان الكتبة الاقباط وباشر في عدَّة خدم بالطالع والنازل (كذا) حتى وليَ نظر الدولة واستمرَّ الى ان توفي في ليلة الاربعاء سادس جمادى الاولى سنة ٧٩٠ (١٣٨٨ م)»

٤ يوسف بن رزق الله الموقّع

كان ايضاً من اقباط مصر الأَسلَمِين . ذكرهُ ابن حجر العسقلاني في الدُّرر الكامنة (ibid I. c.) قال: «يوسف بن رزق الله الموقّع جمال الدين ابن اخت شرف الدين بن فضل الله باشر التوقيع بصفد وبغزَّة قبلها وكان لهُ كرم ومروءة ولهُ نظمٌ وسَط وعُمر طويلًا لعلَّهُ قارب التسعين وثقُل سمعهُ لكنَّ حواسَّهُ كلها صحيحة وهمَّتهُ همَّة ابن ثلثين وهو يباشر التوقيع في صفد سنة ٧٤٤ (١٣٤٣ م)

١) كان احد كبار الامراء في خدمة الملك الصالح صلاح الدين ابن الملك الناصر حسن . قال ابن اياس في كتاب تاريخ مصر في تاريخ سنة ٧٥٥ عند عودة الملك الى السلطنة: «وصار الامير شيخو والامير صرغتمش في دولة الناصر حسن صاحبي الحلّ والعقد ومدبّري المملكة» ثم قال في تاريخ سنة ٧٥٨هـ (١٣٥٧ م) انَّ الامير صرغتمش ترايدت عظمتهُ فصار في رتبة الاتابكي . ثمَّ قبض عليهِ السلطان وحبسهُ فمات في حبسهِ سنة ٧٦١هـ (١٣٦٠م)

٥ ابن القلاعي

﴿خلاصة اخباره﴾ هو جبرائيل بن بطرس الماروني الشهير بابن القلاعي ولد في لبنان في اواسط القرن الخامس عشر وتاقت نفسهُ الى العلم منذ نعومة اظفارهِ لكنَّ حالة لبنان في ذلك العهد لم تسمح لهُ بغير معرفة مبادئ القراءة والكتابة. ثمَّ زهد في الدنيا بعد ان اختبر قلَّة هنائها. واتَّصل بالمرسل الفرنسيسي رسول لبنان فرا غريفون فارسلهُ الى ديرهم العامر في القدس الشريف. فما لبث ان طلب الانضمام الى رهبانيَّة القديس فرنسيس فأُرسل الى رومية سنة ١٤٧١ مع رفيق من وطنهِ يُدعى يوحنَّا. فانكبَّا هناك على العلوم الادبيَّة والدينيَّة حتى اتقناها ورُقيا الى درجة الكهنوت

وفي السنة ١٤٩٣ أبحرا قافلَين الى اوطانهما. لكنَّ مركبهما الشراعي أُصيب بانواء هائلة هلك بسببها غرقاً رفيق ابن القلاعيّ ونجا هو بنعمةٍ خاصَّة من الله فاخذ يتعاطى في وطنهِ كلَّ اعمال الرسالة ليثبِّت اهل جلدتهِ في ايمانهم ويردَّ غارات اليعاقبة الذي كانوا ساعين في تضليل اللبنانيين وزرع زؤان تعاليمهم في الجبل. فتصدَّى لهم وفنَّد اضاليلهم وصان مواطنيهِ من فسادهم وقرَّر امام رؤساء طائفتهِ دوام اتحاد الموارنة مع الكرسي الرسولي

وفي السنة ١٤٩٦ أُقيم ابن القلاعي رئيساً على دير رهبانهِ في قبرس فسكن في مدينة افقسيَة (او نيقوسية) في دير الصليب وعُني بامور اهل المدينة بكل غيرة ولاسيما بالموارنة المهاجرين الى قبرس. ولمَّا توفي اسقف قبرس الماروني يوسف الكيزفانه سنة ١٥٠٧ طلب الموارنة ان يقام خلفاً لهُ على كرسيّ قبرس مواطنُهم ابن القلاعي فاجاب الرؤساء الى طلبهم فسُقِّف المذكور وساس رعيَّتهُ احسن سياسة الى آخر حياتهِ فانتقل الى رحمة ربّهِ سنة ١٥١٦

﴿علومهُ وآدابهُ﴾ هو اوَّل كاتب مارونيّ اشتهر بتآليفهِ التي عدَّدها البطريرك الدويهيّ في تاريخ الطائفة المارونيَّة (ص١٥٣–١٥٤). فمن اخصّ مصنَّفاتهِ مقالات في التعاليم المسيحيَّة وفي اسرار البيعة وفي الطقوس وتفنيد الهرطقات وفي الحقّ القانوني الماروني مع خمسين موعظة في اخصّ المعتقدات الكاثوليكيَّة وتراجم قديسين

﴿الشاعر﴾ كان جبرائيل ابن القلاعي شاعرًا فطريًّا لم يعرف من العروض والاوزان الّا ما ارشدتهُ اليهِ الطبيعة وما سمعهُ في وطنهِ لبنان من الاغاني العاميّة او المنظومات البيعيّة السريانيّة . فعلى هذا الاساس بنى زجليّاتهِ التي خلّف منها شيئًا كثيرًا . فاذا قستَها بالشعر الموزون والكلام الفصيح نفرتَ منها وانّما كانت العامّة تستحسنها وتتغنى بها وبالخصوص لِما كانوا يجدون فيها من ذكر حوادث الاجداد وحروبهم ومن التعاليم الدينيَّة والادبيَّة ومن قصص الشهداء والقدّيسين ولاسيا من سيرة السيد المسيح ووالدتهِ الطاهرة . وقد برع ابن القلاعي في كل ذلك فكان لاناشيدهِ وزجليّاتهِ تأثير كبير في قلوب ابناء طائفتهِ ولعلّها كانت من اقوى العوامل لحفظ اهل ملّتهِ في دينهم المستقيم ولصيانتهم من وباء الاضاليل

وها نحن نذكر شيئًا من زجليّاتهِ ليقف القرّاء على طريقتهِ النظميَّة . وقد سبق لهُ في المشرق (١٨ [١٩٢٠]: ٢٥٠—٢٥٦) مناحة او مرثاة قالها لمّا غرق رفيقهُ « الاب يوحنّا اوجوان الراهب الفرنسيسي الماروني» ونشرها حضرة المنسيور جرجس منش ومما جاء فيها قولهُ :

باب الفراج يا حبيبي بالحقّ درب الخلاصْ
تركتني في التجاريبِ وانت ذقت المغاصْ (١
ما كُونّا تنينا (٢ اخوهْ زيّ الطيور بالقفاصْ
لماذا تخيّب نصيبي من سكنة لجج البحار؟

ومنها : يا حوت ابلعْتْ يونانْ رابع يوم اخرجتهُ صحيح
وصار نبي صادقْ عن قبر يسوع المسيح
اجعل اخي مثل يونان في وسط بطنك يستريح
واخرجْهُ منهُ زي يونان يكرز بما قد اختبار (٣

١) يريد بالمغاص على ظنّنا غوصهُ اي غرقهُ في البحر
٢) هذا على لفظ العامّ يريد كنّا اثنينا ٣) يريد بما اختبَرَ وتعلّم

طوباك يا كاهن الله لأنك اقتبلت الكليل
من اجل الطاعة استحقيت تسلك طريق الجليل
طوبى لأمك غنيّه (١ الذي ربّتك يا فضيل
قربان تقدّمت مقبول صالح وحسن الثمار

وهذا مثال آخر قالهُ في ما جرى للسيد المسيح عند موتهِ :

وقال يسوع: الروح اسلّمك يا ابي وقد احتنى رأسهُ وصار كالنائما
بساعة انفلق الصخر في وقت موته واظلمت الدنيا وصار التهدّما
والشمس انكسفت بغير وقتها حتى القمار اظلم في وقته معتّما
وانزعزعوا الأموات جوَّا قبورهم وليس عاد نجوم تزهر في السما
وصار الظلام من السادسة للتاسعة على سائر الاقطار مسودّ مظلما
نظر المقدّم ذي العجائب كلّها ودقّ على صدره وخَفْ وتوهّما
وقال : ابن الله كان هذا صالحاً جميع اليهود هربوا بخوف وتقمقما
قالون لبيلاطوس: تشيله عن الصليب لانّ غدا السبت يوماً معظّما
وقال لهم : اكسروا رجليهم حتى يموتوا واحفروا قبرهما
كسّرون رجلين اللصوص اثنينهم ويسوع وجدوه ميّت زي نائما
ليس كسّرون رجليه لكن بحربه طعنوهُ في جنبهِ خرج دماً وما
لونجين كان اسمهُ الذي طعن المسيح وكانت اعيانهُ تغشّت بالعما
ولمّا سكب الدم على عود حربتهِ وضعهُ على عينيهِ بنور اسرجهما
وصاح يقول : انا بيسوع مؤمناً تشهّدْ على اسمهُ وصار مكرّما

ولهُ زجليّة مطوّلة في تاريخ لبنان وعن اصل الطائفة المارونيّة وفيها يقول:

نرجع نخبر عن مارونْ كان عالم بما في القانونْ

(١) غنيّه اسمُ والدتهِ على ما يظهر

من انطاكيــة ابوه اغاتونْ   مطران مع السريان قد صارْ
جــاء لطرابلس وتـكلّمْ   مع الكردينال وعليه سلّمْ
لقاه شاطرْ فاهمْ معلّمْ   اخذه معهُ في الابحارْ

قال للبـابا اخبـارهُ   وثبّت قولـه واسراره
رسمه بطركْ واعطـا لهْ   درعاً واوصاه يتحـذّرْ

قال لهُ تجنّب الملكيّه   واليعاقبـة والقبطيّـه
جبل لبنان يكون لك رعيّه   في كفرحيّ مات ذا المختارْ

ومنها وصفهُ للحركة اليعقوبيَّة في لبنان بعد ذكرهِ «لعبد المنعم اليعقوبي الذي مات موتة لا دين ولا ايمان» قال يذكر ابن شعبان :

البطركْ كان في قنوبينْ   وابن شعبان في حردينْ
جـا يخـدع المسيحيّين   منهُ تنسّل ثلاث طغيـانْ

ومن اصله كان رومي   وبعد ذلك صار ماروني
جاء اليــه داسوس ملعوني   يدعى عيسى باسم مطرانْ

ابن شعبان مع جماعة حردينْ   وصاروا في زيّ الشيـاطينْ
واطغا العدماء والمنقطعينْ   يعلّمون البنات مع الصبيانْ

ويصلّبون بواحد صابعْ   وينكروا مجمع الرابـعْ
وبابا لاون السابع(١   وملك الارتودكسي مرقيانْ

ومارون صار ملبوكْ معهم   وكلّ عـديم كان يتبعهم

١) والصواب القديس لاون الاوّل المعروف بالكبير الذي ثبّت المجمع الخلقيدوني ضد القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح

والافعى المسمّه تلذعهم ولا كان يفزع من النيرانْ

مات الافعى وقام ابنُه وفي الطغيان انحس منه

عن الايمان قد ضاع ظنُّه وراد يحرق لمن ينهانْ

فترى من هذه الامثلة ما تميَّز بهِ اوَّل قوَّال لبنانيّ صبرت زجليَّاتهُ على افات الزمان فلهجتهُ تُشعر بقرب عهد اللبنانيّين بالتكلّم بالعربيَّة مع آثار اللغة السريانيَّة الشائعة بينهم

٦ ابراهيم الانطاكي

﴿اخبارهُ وشعرهُ﴾ هو ابراهيم الانطاكي ثمَّ الحلبي المعروف بأُصطا ابراهيم الحمامي النصراني. قال محمَّد بن ابراهيم الحلبي المتوفي سنة ٩٧٢ للهجرة (١٥٦٣ م) في كتابهِ دُرّ الحَبَب في تاريخ حلب (Flügel, *Ms. de Vienne*, ff. 11[V]) : كان شاعرًا ذا ذكاء وذوق مع كونهِ عاميًّا ولهُ موشّحات وتصانيف واعمال موسيقية مشهورة على لحن فيها وديوان حافل سمَّاه «برهان البرهان». ثمّ ذكر شيئًا من شعره وختم بقولهِ: توفي ليلة عيد الفطر سنة ستّ وعشرين وتسعمائة (١٥٢٠م):

من شعرهِ موشّح قال فيهِ:

باكرْ يا صاحْ	لرشف قدحْ	فالكاسُ زنا	دَ الخَمر قَدَحْ
واشرب قدحاً	وانفِ ترَحاً	واُجنحْ مرحاً	وألمحْ لِمُلَحْ
بكّرْ في الكأ	سِ اذا جُليتْ	بالبسط اكا	دُ أطيرُ فرَحْ
تنفي الاحزا	نَ بساحتها	وبنَشوتها	كم شحٍّ سَمَحْ
في شرح معا	ني بَهجتها	قدحٌ منها	للصدر شَرَحْ
تنفي الاسقامْ	من الاجسامْ	بها ما هامْ	وراحَ نصَحْ

واشرع في صبح غبقتها — فالديك على م الندمان صدح
والوقتُ صفا والحبّ وفى — والكاسُ شفى والهمُّ سرح
والجوُّ خلا والبدرُ جلا — والطيرُ تسلا والكاسُ طفح

الى ان قال :

ما زلتُ مسا ني مغتبقاً — في الحضرةِ حتى الصُّبحُ وضح
من عظم سرو ري في فرحي — ايقنتُ بانَّ م العقل شطح

وهو القائل في وداع احباب (من الرمل):

مُقلتي يوم النوى اذ رحلوا — خلّفت من أجلهم طيبَ الكرى
ان تسلْ عمّا جرى من ادمعي — فوق خدّي بعدهم يا ما جرى

وقال في معناهُ (من الرجز):

أحبابَنا من بعدكم — اجريتمُ مدامعي
مَن لي معيناً في الهوى — يبقى على المَدى معي

وقال في وصف غلام (من الطويل) :

ولي رشأ حازَ الجمالَ بأسرهِ — لهُ طلعةٌ فاقت على شَفَق الفجرِ
تحيّرَ فيهِ الواصفون لحسنهِ — وقالوا: عجزْنا عنهُ بالفكرِ والذكرِ
فقلتُ لهم: هذا الذي صحّ انَّهُ — كما شاعتِ الاخبارُ في البرّ والبحرِ
ترآى ومرآةُ السماء صقيلةٌ — فأثّر فيها وجهُهُ صورةُ البدرِ

ولهُ في آخر (من الرجز) :

مُهَفْهَفٌ من لطفهِ اعطافُـهُ ترنّحت وخدُّهُ لشقوتي وَرْدَتُهُ تفتّحت

وقال يهجو بعض الامراء وفيهِ نوع الاكتفاء (من المجتث):

اميرُنا ذو معـانٍ محرِّكاتِ السَّواكِنْ
حَلا حلاوةَ لفظٍ حلو اللسان ولكنْ...

وقال يهجو صوفيًّا (من البسيط):

للهِ صُوفيٌّ وقتٍ حاز اربعةً لاحت لنا من معانيها عبـاراتُ
دقنٌ ودِلفٌ وعكّازٌ ومسبحـةٌ دكّانُ زوكرةٍ فيها فشاراتُ

٧ عيسى الهزار القوّال

﴿اصلهُ . زمانهُ . ملّتهُ﴾ كان اوّل من ألفتَ نظرَنا الى عيسى الهزار السيد المرحوم عبد يشوع الخيّاط بطريرك الكلدان في سنة ١٩٠٤ فذكر عنهُ انهُ كان قسّيساً ورجح كونهُ عاش في اواخر القرن الثامن عشر وحكى عنهُ انهُ في ليلةٍ تغنّى على السطوح باغاني روحيّة فحنق عليهِ بعض اعدائهِ فارادوا لـهُ سوءًا فهرب من وجههم مختفياً وكان ذلك آخر العهد بهِ . (قال) ولعلّهُ ذهب الى القدس وهناك قضى عمرهُ . وشكّ الكاتب في ملّتهِ أكان من طائفة الكلدان ام من السريان وانما أثبت كونهُ من الموصل

ثمّ وردتنا في السنة ١٩٠٦ مجلّة الشرق المسيحي (Revue de l'Orient Chrétien) واذا في عددها الثالث (ص ٢٥١—٢٧٣) مقالـة مطوّلة نشرهـا المستشرق الاسباني الكاهن مخائيل اسين بلاسيوس (Miguel Asin Palacios) استـاذ العربيّة في مدريد مضمونها قصائد روحيّة باللغة العامّيّة للقوّال عيسى الهزار نقلها عن مخطوطة للعلّامة الكبير فرنسيسكو كوديرا (Fr. Codera) مواطنهِ يؤخذ منها انَّ اسمهُ كان فارساً ثمّ اشتهر بعيسى ولعلّهُ اتّخذ هذا الاسم الاخير لمّا صار كاهناً . وامّا كونهُ كان يسمّى فارساً فالدليل عليهِ ما قالهُ في آخر انشودةٍ من اناشيده

فارس قد نظم هذا المديحْ في العذرا البتول امّ المسيح

وامّا اسمهُ «عيسى الهزار» فقد كرّرهُ مراراً في خاتمة قصائدهِ كقولهِ :

انـا هو عيسى الهزارْ ونظمي في الملا سُكَّرْ

ويقول في محلّ آخر مخاطباً العذراء مريم :

يا درّة داوُد يا شمس الطلولْ عيسى الهزار فيكِ يمدح ويقولْ

ويروي ايضاً في نظمهِ انهُ من طائفة السريان كقوله في مديح آخر للبتول :

وكيف لا امدحها ألوانْ وانا من جملة السريانْ

امّا وطنهُ فيستفاد من اناشيدهِ انهُ كان من نصارى العجم وانهُ قدم من بلاده الى القدس الشريف حيث يقول :

« الى القدس الشريف ارحلْ من بلاد العجمْ »

ويدلّ اسمهُ «الهزار» على اصلهِ العجمي والهزار بالفارسيّة البلبل ولذلك دعا ايضاً نفسهُ «بعيسى هزار الشرقي»

وممّا افادتنا هذه المنظومات المنشورة في مجلّة الشرق المسيحي انَّ عيسى هزار تجوَّل في انحاء الشام وزار صيدنايا ووصفَ كنائسها وصورتها الشهيرة . لا بل امتزج بطائفة الروم المتملّكين عليها فمدح بطريركهم المسمّى يواكيم :

يا ربّ بالبكر مريمْ احفظ لنـا ذا المعلّمْ
انبا يواكيم ابنـا البطريرك المكرّمْ

ولعلّهُ وهو سرياني كما سبق قولهُ عدلَ الى طائفة الروم الملكيين ولذلك دعا البطريرك يواكيم بأبيهِ

ويدلّ على عدوله هذا الى الملكيّة ما عدا قصائدهُ في مزار البتول في صيدنايا زجليّةٌ طويلة قالها في السيّد المسيح وختم كلّ ادوارها بهذه الالفاظ اليونانيّة «اجيوس اوثاوس اجيوس ايسشيروس اجيوس اثاناطوس» اي قدّوس الله قدّوس القويّ قدّوس الحيّ

فبقي علينا تعريف زمانهِ. وذلك مّا يستدل عليهِ من النسخة الخطّيّة التي نقل عنها حضرة اسين پلاسيوس حيث قال انَّ ورقها يشعر بكونها من القرن السادس عشر واوائل السابع عشر

ثمَّ دخلَت في مكتبتنا الشرقيَّة مجموعةٌ قديمة من اناشيد لعدَّة قوَّالين تؤيد هذا الرأي ولا يبعد كونها من اوائل القرن السابع عشر

وقد كتب لنا الطيّب الذكر المرحوم السيّد بطرس شبلي رئيس اساقفة بيروت سنة ١٩٠٧ انهُ وجد في قائمة مخطوطات الفاتيكان التي ألّفها السمعاني فنُشرت في تأليف الكردينال ماي (Mai : Scriptorum Veterum Nova Collectio, t, IV, p. 591. Cod. DCLXXXII) ذِكر مجموعٍ مخطوط تاريخ كتابتهِ سنة١٨٦٨ لليونان الموافقة للسنة١٥٥٧ المسيح فيهِ عدَّة قصائد لعيسى هزار. ومن ثمَّ يترتَّب على ذلك انهُ كان في اواسط القرن السادس عشر. ومن هذا ايضاً نستنتج انَّ البطريرك يواكيم الذي اشار اليهِ هو يواكيم المعروف بابن زياده كان مطراناً على حمص ثمَّ صار بطريركاً ملكيّاً نحو السنة ١٥٩٣ وتولى البطريركيَّة ١١ سنة(١). فيكون اذن عيسى الهزار عاش الى اواخر القرن السادس عشر

﴿منظوماتهُ﴾ هي كلّها مدائح وزجليّات على طريقة العامَّة على اوزان وادوار وقوافٍ خاصَّة. نشر منها حضرة الكاهن اسين پلاسيوس عدَّة امثلة نقلنا شيئاً منها في المشرق (٩ [١٩٠٦]: ١٧٠٨ـــ ١١٠٤). وفي مخطوط مكتبتنا الشرقيَّة الذي اشرنا اليهِ خمسُ زجليّات لعيسى هزار في اوّل هذا المجموع (ص ١ـــ ٢٥) امَّا موضوع هذه الزجليّات فمعظمها مدائح قالها في العذراء مريم والسيّد المسيح. دونك شيئاً من مديحتهِ في قيامة المسيح:

بلّغني المسيح آمالي   وغيرُهُ مخلّص ما لي

في يوم القيامه ذخري   هو كَسْبي وهو راس مالي

سيّدنا يسوع الباقي   في يوم القيامه ديّان

---

١) كان حضرة الخوري قسطنطين باشا ظنَّ أنَّهُ اشار عيسى هزار الى يواكيم ضو (المشرق ١٠ [١٩٠٧]: ٢٨٧-٢٨٨) والصواب يواكيم زياده الذي سبق عهد البطريرك يواكيم ضو

في حبِّه بحور اشواقي ماجت مثل موج الطوفانْ
في اعلى المراتب باقي وسرُّهُ سرى في الاكوان
مدحُ ابن البتول العالي ودينُه العزيز الغالي
وامُّهُ عدَّتي في حشري تحقِّف جميع اثقالي
هو النجم العظيم الزاهرْ من قبرهِ تفيض الانوارْ
ودينُهُ الشريف الطاهرْ كمَّل دين موسى المختارْ
ودعانا بنين القادرْ وآمرنا بشدّ الزنّارْ
ذكرُه في الملا يُحلي لي واصلح جميع احوالي
فأفني في مديحه عمري وارجوهُ في غدٍ يبقى لي

ومن اقوالهِ في العذراء مريمٌ (على وزن يا من احرموني لذيذ المنام):

في العذرا النقيَّة يروقْ النظامْ خلوص البريّه وشمس الانامْ
الدرّه المضيَّة مصباح الظلامْ في الموقف شفاعه منها ارتجي
هي الستّ المطاعه اليها التجي
ما احلى ذكر مريمْ في وسط القلوبْ منها تجسَّمْ ديّان الشعوبْ
يسوع المعظَّمْ غفّار الذنوبْ في يوم القيامه اليها التجي
هي النور والحمايه والصوت الشجي

وهي طويلة وفي ما ذكرنا دليل على براعتهِ في هذا الفنّ فضلًا عن عواطفهِ الدينيّة الشريفة ومعانيهِ الرقيقة اللطيفة

٨ ميخائيل حاتم القوّال

﴿زمانهُ طائفتهُ﴾ هو الشيخ ميخائيل بن حاتم الحمصي. ولد في حمص في اواخر القرن السادس عشر واشتهر في القرن السابع عشر. فكان معاصرًا لعيسى المزار وتأخر بعدهُ وهو من الطائفة الروم الملكيَّة قبل انقسام الملكيين الى اورثذكس وكاثوليك. وفي بعض زجليَّاتهِ يذكر وجودهُ في مصر. ولهُ فيها مديح قالهُ في البطريرك كيرلُس بابا الاسكندريَّة اراد بهِ كيرلس الشهير بلوكاريس (C. Lucaris) الذي نال بالرشوة الجلوس على كرسي الروم الملكيين في الاسكندريَّة نحو السنة ١٦٠٠ قبل ان ينتقل الى كرسي القسطنطينيَّة سنة ١٦٣١ حيث نشر تعاليم البدعة البروتستانيَّة فقام عليهِ اهل ملَّتهِ فنُفي الى جزيرة تنيدوس ثمَّ قُتل سنة ١٦٣٦

ويؤْخذ من شعر ميخائيل حاتم ايضاً انهُ سكن الشام ومدح القديس يوحنا الدمشقي وزار صيدنايا ووصف معبدها الشهير وصورتها العجائبيَّة. ولا نعرف سنة وفاتهِ. ولعلَّهُ عاش الى اواخر القرن السابع عشر. ولم يذكرهُ احد كتبة الروم

وقد دلَّ على زمانهِ في احدى صفحات ديوانهِ (ص ٩٩) المؤرخة في اذار من السنة الهجريَّة ١٠٢٨ (١٦١٩ م). وقد ختم زجليَّة اخرى من منظوماتهِ بتاريخ العالم ٧١١٠ وهي ١٦٠٢ مسيحيَّة

﴿ديوانهُ وشعرهُ﴾ في مكتبتنا الشرقيَّة نسخة فريدة من ديوان ميخائيل حاتم تبلغ ٤٣٦ صفحة من القطع المتوسط وهي بخط يدهِ كُتب في رأس اوَّل صفحة منها:

« نبتدئ بعون الله تعالى بكتابة مدائح لطيفة واشعار في سيدنا يسوع المسيح وسيدتنا الطاهرة مريم وهو من ديوان الشيخ المعلم ميخائيل ابن حاتم الحمصي وهو خطهُ بيدهِ »

والتاريخ كما رأيتُ في السنة ١٦١٩ مسيحيَّة اثبتهُ في آخر زجليَّة طويلة في مديح العذراء مريم كما يلي (ص ٩٧):

يا مريم عبدكِ ميخال حاتم حارْ ... في وصف معنى مديحك عاملي حارْ
وقت الضُّحى والمسا والليل والاسحارْ ... مراصد المديح كالطلسم والاسحارْ
حسن الرقم في نهار السعد من آذارْ ... برج الحمل انتقال الشمس منها دارْ

اوّل ربيع اتّفق لي بالقمر ابـدارْ تاريخ يوم الاحد ذو الشرق بالجندارْ
سنة ١٠٢٨هـ (١٦١٩)

هذا الديوان يحتوي على نيّف ومئة قصيدة من الزجليّات المختلفة الوزن على كل فنون الزجليّات يلقيها الشاعر عفوًا لا يراعي فيهـا شيئاً من قواعد اللغـة شأن معظم القوّالين الذين يجرون على انغام المغنّين. وميخائيل حاتم في اوّل كل زجليّة يـدلّ على اوزانها المعروفة في زمانه بين العامّة كقولهِ مثلًا (ص ١٥٩) «على وزن: يا كثير العفو يا عظيم الشان» وقولهِ (ص ١٨٣): على وزن «ألا يا وردة البحر» وقولهِ (ص ٢٣٩): على وزن «يا عزيز القوم قلّي» وهلمّ جرًّا. ولعلّ معظم هذه الاوزان القديمة قـد أُلغي ونُسي والله اعلم. دونك بعض امثلة من اقوالهِ. قال يعارض احد اقرانهِ على وزن: «جفاني صاحبي وارسل يقلّي»

المطلع

رجـائي فيـك يا يسوعُ وافرْ بما انّك على الاشياء قادرْ

باسمك ابتدي بالنظم جهدي وأُعارض في قريضي نَظمَ ضِدّي
تقبَّل يا يسوع الحيّ نشْدي واجـعلني لـقول الحقّ ناشِرْ

أَما انت المشرَّفُ بالاسامي أَما انتَ المجَّد في الانامِ
أَمـا انت المنوِّرُ للظـلامِ امـا انت لنـا اوّلْ وآخِرْ

أَما انت الذي رفع التـلالا أَما انت الذي أَرسى الجبالا
اما انت الذي حاز الكمالا اما انت الذي بالحق قادرْ

نَعَمْ انت الذي كوَّنتَ عالَمْ كما انت الـذي صوَّرت آدمْ
وانت الذي ابدعت ما لَمْ يَكنْ اذ صرتَ لهُ ناهيْ وآمِرْ

نعم انت الذي زان الكواكِبْ كما انت الـذي للعرش راكِبْ

وانت الذي للغَيث ساكبٌ على زَرْع الثرى مع كلّ زاهرْ

نعم .انت المُسَبَّحُ بالملائكْ كما تملكُ في اعلى سمائكْ
وانت الذي للكلّ مالكْ وحكمُكَ منصفٌ ليس بجائزْ

فهذا هو الذي للناس كلّمْ وهذا هو الذي منّا تجسّمْ
في يوم حلولهِ احشاء مريمْ وفي تأنّسهِ دَمَّتْ بشائرْ

وقال مستعطفاً على وزن «مضى لي سنين مع المالكين»:

يا من لا ينامْ يا زين الأنامْ رمتْني الآثامْ في حال السقيمْ
انهضْني لديكْ وا تكلني عليكْ واجذبني اليكْ جَذباً مستقيمْ
يا كنز الصلاحْ يا عين الفلاحْ أَلقاني الطّلاحْ في الفعل الوخيمْ
انضَحْني بمائكْ من اعلى سمائكْ واذكر في حمائكْ ضعفي يا كريمْ
غِثني يامسيحْ من داء جريحْ رماني طريحْ في الليل البَهيمْ
يا نور الظلامْ يا ربّ السلامْ صُنّي من ملامْ ابناء الجحيمْ
أَهلني أُنيبْ قبل أَن أَشيبْ بنعمة الصليبْ والأمّ الرحيمْ
هي امل نَسْلها ونعمة نَجْلها نسأَل بفضلها فردوس النعيمْ
فيها احتسَبْ منها اكتسَبْ حاتمُ النسبْ ميخال الاثيمْ

ولهُ زجليَّة طويلة في عدَّة صفحات يزجر فيها نفسهُ ويحضّها على التوبة منها قولهُ:

يا نفس غير الله لا تقصدي يا نفس دونهُ خلًّا ما توجدي
يا نفس ان خدمتِهِ تسعدي يانفس هو الكفوء وذو الفضل العجيبْ

يا نفس ذي الدنيا محلٌّ حقيرْ يا نفس من يعشقها يُصبح أَسيرْ

يا نفس افراحها عِبٌ ونيرْ   يا نفس بحبّ الله تُشفي القلوبْ

يا نفس مولاكِ عزيز الجلالْ   يا نفس اوصالكِ بحسن الخصالْ

يا نفس ايّاكِ سبيلَ الضلالْ   يا نفس انّ الجاري فيهِ كئيبْ

حَسْبُك بهذا القليل مثال يبيّن طريقة ميخائيل حاتم في منظوماتهِ الزجليَّة . وهي مع ضعف لغتها لا تخلو من معانٍ بليغة وعواطف شريفة يبرزها بكل اوزان الشعر العامّي . ويشفع فيهِ انهُ كان ينظمها في زمان اصبحت العربيَّة في غاية الخمول في الشرق العربي بعد تولي الاتراك وحالة البلاد السيئة وقلّة المدارس فلا تكاد تجد كاتباً يستحقّ الذكر

٩ انطونيوس فريجي اللبناني

﴿تعريفهُ﴾ في مكتبتنا الشرقيَّة مجموع قديم بالكرشوني كُتب في السنة ١٦٨٤ كما هو مدوَّن في آخرهِ . يبلغ عدد صفحاتهِ ٢١١ صفحة . والكتاب يتألف من قسمين قسم يحتوي زجليَّات ابن القلاعي الذي سبق ذكرها . وقسم آخر من نظم كاتبهِ الذي أفادنا في آخر الكتاب عن اسمهِ واسرتهِ وطائفتهِ فيدعو نفسهُ « انطانيوس ابن ابو منصور حنَّا من بيت فريجي من قرية كفردبيان بجبل لبنان » كتبهُ « في دير مار انطونيوس قزحيَّا في السنة المذكورة » ويطلب الصلاة لاجل « معلّمهِ المطران يوحنَّا السمَرْجَبيلي »

﴿منظوماتهُ﴾ لانطونيوس المذكور زجليَّات كما لابن القلاعي منظومة على اوزان عاميَّة قلَّما تُراعَى فيها قواعد اللغة بينها تراجم قدّيسين وذكر حوادث تاريخيَّة اهمُّها ما ذكرهُ عن فتح الاتراك لقبرس سنة ١٥٧٠ وكوارث طرابلس سنة ١٥٨٠ نذكر هنا منها شيئاً

وقد قال زجليَّةً عن قبرس واصفاً ما حدث بها من ضروب النكبات لمَّا ارسل السلطان سليم الثاني اسطولًا تحت قيادة مصطفى باشا ففتحها وانتزعها من ايدي البنادقة الذين بعد دفاع طويل سلَّموها بالامان . فلم يَفِ المسلمون بوعدهم فقتلوا في الماغوصة القبطان وسلخوا جلدهُ وقتلوا معهُ ٤٠٠ رجل وسبوا من الروم ١٨٠٫٠٠٠

وقتلوا وحرقوا نحو ٥٠،٠٠٠ وقُتل من الموارنـة ١٨،٠٠٠ . ثم حلفوا لاثني عشر الفاً من الجنود المتحصّنين في قرية كاليساسي (؟) على رأس الجبل انّهم اذا سلّموا لا يضرُّونهم بشيء . بل يردُّون لهم قراهم ويولُّونهم عليها . فلمَّا سلَّموا قتلوهم عن آخرهم ثمَّ طافوا كل الجزيرة واستعبدوا اهلها وصيَّروا كنائسهـا جوامع وخانات . وسبوا نساءهـا فارسلوهنَّ الى القسطنطينيَّة في ثلث سفن لكنَّ امرأةً باسلة منهنَّ احرقت السفن فرارًا من العار فذهبنَ شهيدات العفاف

وقــد وصف انطونيوس فريجي شيئاً من ذلك بهذه الزجليَّة التي جعـل عدد ادوارها على عدد حروف المعجم قال ما نرويهِ بحرفهِ الواحد كأثر تاريخي وكدلالة على انحطاط اللغة في ذلك العصر

الالف اليوم قلبي اصبح سكراني ، اذ ليس خمرًا على قوبروس نَدْماني ، الدم يغلي ودمع العين غزراني ، اليد تكتب تواريخ صابت ازماني ، سنة الف وخمسمائة وسبعين ربَّاني

* الباء * بقبروس فؤادي بات مفتكرْ ، من مغرب الشمس طول الليل الى السحرْ ، لخبر سمعتهُ من اولادها كدرْ ، كيف دخلت الترك قبروس واهلها خُسّر ، لاجل الخطا الله عطاها لابن العثماني

* ج * جزيرة قبروس كم جرى فيهـا ، كان النصـارى براحا ساكنين فيهـا ، لكن بعض الفواحش اجهرت فيها ، الخُلف وعـدم المحبَّة قلبَتْ كراسيها ، واهلها كاتبوا الى ابن العثماني

* د * دخلوا الترك والسَّعْد يخدمهم ، عربان وسودان ونصـارى تساعدهم ، كانون الشتا كالصيف ليس بد اذكرهم ، كانون وسوباط هديت الريح بهم ، في البحر دخلوا المراكب تقول حيراني

* ه * هياكل قبروس كانت تشوّقني ، صلبان واقوان ونواقيس تفرّحني ، حين دخلَتْ الترك ادحوهم يا حزني ، ونصبوا موادن ومحارب

الى القبلي ، من بعد قتل اساقفة ورهباني

* الواو * ولّت ملوك الغرب عن قبروس ، قبل دخل مصطفى باشا(١ وصار حيفوس(؟) ، وكان قبطان بالاسقفيّة(٢ وكّل مرقوس ، وقبطان المغوصه(٣و كيل نقولاوس(٤ ،وبدوا يجازوا بعسكر ابن عثماني

* الزاي * زال الحرب من اوّل صيام الكبير ، حاصروا الاسقفيّة الاسلام كبير وصغير ، نقبوا الاسوار وكان حاضر ناس من اغزير ، سابع يوم بايلول دخلوا ودقّوا نفير ، ملكوا وقتلوا خمسين الف نصراني

* الحاء * حرقوهم بالنار يا لله العفو ، واسبون (وسبوا) انفس مائة مع ثمانين الف ، واما الاموال والارزاق ليس يضبطهم وصف ، ايش حال غنم قطيع اذياب خطفهم خطف ، اخذوا وباعوهم في كلّ بلدان

* الطاء * طلبوا الماغوصة وحاطوا بها ،من كلّ جانب في الحصار ضبطوها ، قتلوا من المسلمين(٥ الوف لم عدّوها ،لان الف مدفاع كان فيها ويطلقوها ، صائب دحر العسكار فرغوا يجي ثاني

* الياء * يا حيف على النصارى فرغ زادهم ، وانتام بارودهم وانمسكت دروبهم ، سرعة خراج القبطان يعتفي منهم ، تقدّم الى

---

١) هو لالا مصطفى باشا اقامهُ السلطان سليم الثاني رئيساً على عسكرهِ لفتح قبرس سنة ١٥٧٠

٢) الاسقفيّة هي مدينة نيقوسية (Nicosie) وتدعى ايضاً افقوسية كانت حاضرة جزيرة قبرس حاصرها مصطفى باشا في تموز ١٥٧٠

٣) المغوصة هي فاماغوسطه (Famagouste) من حواضر قبرس

٤) نقولاوس اسمهُ نيقولا دَندولو. نسب الى جهلهِ خصوصاً فتح الاتراك لجزيرة قبرس

٥) يريد ان المدافعين عن مدينة الماغوصة قتلوا بدفاعهم كثيرين من المسلمين

مصطفى باشا وسلَّمهم ٬ قتلوهُ وقتلوا معهُ اربعمائة نصراني

* الكاف * خليت (١قبروس من اكابرها ٬ واستوحشت ارضها باربع اقطارهـا ٬ تركت مساكين تفلح في اراضيهـا ٬ يزينوا جوالي وخراجات يؤدوها ٬ الى طاعة الاسلام في خطّ ديواني

* اللام * لمَّا ملكوا البلاد واطمئنوا ٬ من بعد ما قتلوا الفرسان وانتموا ٬ بعثوا بشارات الى السلطان وزال همّه ٬ وزيّنوا المـدن في البلدان كلّهم ٬ من مصر الى اسطنبول والشام وبلدانِ

* الميم * مدينة طرابلس كانت الميناء حين دخلت المسلمين لقبروس محاربينا ٬ حسّ المدافع بقي واصل لادنينا ٬ ومن قبل ما يدخلوا عملوا اسافينا ٬ قتلوا مقدَّم بشري كان نصراني

* النون * نسوان قبرس ليس ذكرناهم ٬ افعال قبيحة صـارت ليس كتبناهم ٬ اطفال كثير غلمان وجواري اخذوهم ٬ اعجاموا كراد واعراب وسودان هم ٬ وتشتَّتوا حسرة ما صار لها ثاني

* السين * ساقوهم ودموعهم تجري وتفارقوهم في البرّ والبحر ٬ من حدّ اسطنبول والى بلاد مصرٍ ٬ وصاروا عبيد يخدموا سادات بلا أجرٍ ٬ يا كسرة صارت بقبروس بازماني

* العين * عيوني تدمع حين اذكرهم ٬ قد كان لي معرفة في بعض ناس منهم ٬ ومن اهل قبروس تلميذ كان لي منهم ٬ اسبوا اخوته واهله وهو اشترى (نفسهُ) منهم ٬ وخلَّص اخوه الصغير بمائة سلطاني

* الفاء * فرح ابليس في كسرة صارت ٬ في قتل كهنة وكنائس

١) الكاف بالسريانيَّة تؤخذ للدلالة على الهاء والكاف معاً

بارت ٠ البعض عملوهم خانات للتجـارة ٠ والبعض عملوهم جامع لهم صارت ٠ ورفعوا المواذن فوقهم عوض الصلباني

* الصاد * كفرديبان تُدعى قرية الخـاطي ٠ كاتب انطـانيوس براس واطي ٠ ورّخت قبرس تذكار لمن شاطي ٠ ومن لم يتوب غضبهُ يشعل بنيراني

* القاف * قوفروس وبشريّه كانوا فال ٠ على النصارى في السواحل وفي الاجبال ٠ يا حيف عليهم كانوا اهلهم افضال ٠ والانشقاق الـذي رماهم بشوم الحال ٠ ومن بعدهم باعوا الوقوفات رهباني

* الراء * رؤوسات الاسباط انحطُّوا ٠ وارزاق كنـائسهم انباعت وانضبطوا ٠ والبعض تديَّنوا وثمانيـة حطُّوا ٠ والبعض انقلبوا من بعد ما قبضوا ٠ وزنوا الدراهم وراح الرزق لهواني

* الشين * شاشات النصارى قلعوهم ٠ ايضاً وجاليتين في العـام حطّوهم ٠ اسود على روسهم يا ويه اكسوهم ٠ ظلماً على ظـلم الجرح زادوهم ٠ من مصر الى اسطنبول حكم ابن العثماني

* التاء * تماماً احرف الالف على قبروس ٠ وليس كتبنـا جميع افعال بني تركوس ٠ الان لاجل الخطا حكموا كفا نهدوس ٠ يا سامعين القول صلُّوا عسى نخلص ٠ الرب يغفر لنا الف آمين يـكفاني

وختم الزجليَّة بهذه الالفاظ : اذكر يا ربّ العبد الخاطي انطـانيوس ܡܣܟܢܐ ܚܛܝܐ ܡܬܢܝܢܐ ܡܛܠ ܡܪܢ اي الحقير الخاطيْ الراوي لاجل ربّنا

فترى انَّ لغة نصارى لبنان في ذلـك الوقت كانت في غـاية الركاكة وهي الى السريانيَّة اقرب منها الى العربيَّة . ولانطونيوس المذكور زجليَّة من جنس الزجليَّة السابقة ذكر فيها ايضاً على ادوار حروف المعجم ما حدث في طرابلس وجهاتها سنة ١٠٨٥ لمَّا

نُهبت الخزينة السلطانيَّة في جون عكَّار فارسل الباب العالي جعفر باشا الطواشي لمحاربة يوسف باشا ابن سيفا فزحف بجيوشهِ واجرق بلاد عكَّار. ثمَّ تضاعفت الشرور بمجيء ابرهيم باشا والي مصر فصارت امور البلاد ولاسيما النصارى في اسوإ حال فقال انطانيوس ابن مرجي يصف تلك النكبات رهذا اوَّل زجليَّتهِ

الالف اليوم قلبي انبع الافكارْ ٭ أهــدي بهارون وبلد الشام المختار ٭ بيروت وصيداء والبترون جبيل انفه صفار ٭ عرقا واطرابلس والحصن مع عكَّار ٭ بشرّي واغزير والشوف والقرى الاوكار

الباء بتاريخ ربَّاني بديت اذكار ٭ ثمانين وخمسه وخمسمائة والف سطار ٭ دخل طرابلس باشا طواشي دُعي جعفار ٭ وقال خزنة السلطان نهبوها في عكَّار ٭ وأغزير حميت لها ورجالها شطَّار الخ

وللمذكور ايضاً ميميَّتان قالها في وصف رتبة الشعانين وفي مديح القديس ماري بشواي الناسك الشهير وذكر الكاتب اسمهُ في آخر كلّ منها. ولم نجد لهُ ذكرًا في غير كتابنا هذا

١٠ زجليّون آخرون

وكأنَّ فنَّ الزجليَّات اخذ ينتشر في انحاء الشام في القرن السابع عشر على مثال ابن القلاعي وعيسى هزار وميخائيل حاتم. ففي مكتبتنا الشرقيَّة نحو عشرة مجاميع من ضروب الزجليَّات المختلفة الاوزان والادوار والقوافي واغلبها من القرن السابع عشر وردت في بعضها اسماء قائليها دون زيادة في تعريف اصلهم واخبارهم. ففي احد هذهِ المجاميع المتقن الكتابة والتجليد الذي كُتب في اواسط القرن السابع عشر نحو ١٦٥٠ وردت اسماء بعض القوَّالين مع امثلةٍ من اقوالهم فما عدا عيسى هزار وميخائيل حاتم السابق ذكرهما ذُكر اوَّلًا ﴿القس جراسيم﴾ (ص ١٩—٢٥) ورُويت لهُ زجليَّة في العذراء مريم وميلاد المسيح هذا اوَّل ادوارها:

يا شعب يسوع المسيح الباقي للدهرِ استبشروا انحلَّت اوثاقي والحَجَرِ

نور بدا يلمع في الآفاقِ للطُهْرِ في بطن مريم حلّت الأَشراق في البكرِ

ويُختم هذا الدور ثمَّ جميع الادوار التالية بالتقديس المثلَّث باليونانيَّة بالحرف العربي: « اجيوس اوثاوس . اجيوس ايسخيروس . اجيوس اثاناطوس » . ما يدلّ على ان ناظمها كان روميًّا ملكيًّا

ثم يُذكر بعدهُ ﴿يوحنَّا ابن المصري﴾ ويُروى لهُ ثلث زجليَّات (ص ٣٦ــ٣٨) اثنتان في العذرا مريم افتتح الاولى بقولهِ :

لذكر العذرى زينْ افخر النسوانْ سِرْ ايا قلبي وابتهج فرحانْ

قد سمَتْ بالفضلْ امّ شمس العدْل واصطفاها قبلْ خلقهِ الانسانْ

وقال الثانية في ذكر مزار صيدنايا هذا اوَّلها :

رأيت بصيدنايا الجَبل نامي وفيها النور في شكل الغمامِ

ونورًا ظاهرًا منها عِيانًا تعاينهُ الخلائق على الدوامِ

والزجليَّة الثالثة وعظيَّة خصَّ فيها الوصف على العلم والادب اوَّلها :

ما حُلَّةٌ نُسجت بالدرّ والذهبِ إلَّا واحسنُ منها العلمُ والادبُ

ثم ذُكر القوَّال ﴿الخوري يوحنَّا نجل عيسى عويسات﴾ فيروى لهُ عدَّة زجليَّات (ص ٣٨ــ٦٢) في مديح العذراء وخصوصاً مزار صيدنايا . ومن جملتها زجليَّتان يتعيَّن منها زمانهُ وملَّتهُ الملكيَّة قال الواحدة في رثاء البطريرك كير يواكيم ابن زياده المتوفى نحو السنة ١٦٠٣ والاخرى في مديح خلفهِ البطريرك دوروثاوس المعروف بابن الاحمر . افتتح الاولى بقولهِ :

اليَّ يا أجواد بالله اعذروني وفيضون (كذا) الدموع وساعدوني

وافتتح الثانية بقولهِ :

يا شعوب الله اليَّ يا مؤمنينْ قد نظمتُ المدح في الأَب الامينْ

كير ظوروثاوس ابونا الامامْ ابن الاحمر كنوته يا سامعينْ

ثمَّ جاء ذكر القوَّال ﴿يوحنا ابن سالم الدمشقيّ﴾ له زجليَّة في العذراء (ص٧٢) هذا اوَّلها :

ياموالي ساعدوني في مديح امّ الحبيبْ جابرة قصدي وعَوْني
مَن قَصَدْها ما يخيبْ

ثم ذكر القوّال ﴿يوحنّا السمين الحمصيّ﴾ وروى لهُ خمس زجليّات (٨٢ــ١٠٠) كلّها في مديح العذراء مريم وذكر سيّدة صيدنايا جعل ادوار الاولى منها على حروف المعجم وافتتح واحدة اخرى بقولهِ :

البتول فخر الانامْ حبّها صارلي غرامْ مَن قصـدها يا خليلي
من قصدها ما يُضامْ

وذكر ايضاً ثلثة قوّالين من ذلك العهد دعاهم ﴿الخوري يوسف عبود ابن البيض الحمصيّ . وعيسى بن سالم . وموسى ابن المصريّ﴾ وذكر لكل واحـد منهم زجليّة قيلت كلّها في مديح العذراء الطاهرة

وعندنا مجموع آخر من القرن السابع عشر كاد يتلف لقدمهِ والمرجّح انهُ كُتب في الوصل فيهِ زجليّات لعيسى هزار وللقوّالين الآتي ذكرهم ﴿القسيس ايليّا﴾ لـهُ عدّة منظومات في اسرار حياة المسيح ثم المسمّى ﴿عبدالله﴾ لـهُ ايضاً عدّة مدائح دينيّة تقويّة في آلام المسيح واوصاف والدتهِ الجليلة وهو يذكر في آخر احدى زجليّاتهِ انهُ من حصن كَيْفا وهي مدينة مُشرفة على دجلة بين ديار بكر وجزيرة ابن عُمر . ويُذكر ايضاً بين القوّالين المسمّيـان ﴿عبد المسيح وعبـد يسوع﴾ مع ذكر بعض زجليّاتهم . والظاهر انّ كل هؤلاء عـاشوا في القرن السابع عشر في العراق وهم من طائفتي السريان والكلدان الكاثوليك والله اعلم . وفي زجليّاتهم مع ضعف لغتها مسحة عربيّة اعظم من زجّالي لبنان

١١ طيمثاوس كرنوك

هو ايضاً احد الزجليّين الذين اشتهروا في القرن السابع عشر . وقصّتهُ غريبة رواها جناب الفيكنت فيليب دي طرّازي في كتابهِ السلاسل التاريخيّة في اساقفة الابرشيّات السريانيّـة (ص ٣٠ــ٣٢) . هو حُمَيْلي بن ضغفي كرنوك المولود في ديار بكر في اواسط القرن السابع عشر وكان من ملّة اليعاقبة . ولمّا اقام الطيب الذكر يوسف الثاني

بطريرك الكلدان الكاثوليك كرسيَّهُ في مدينة آمد (ديار بكر) تقرّب اليهِ وطلب اليهِ ان يسقّفه على ابناء ملّتهِ السريانيَّة في ماردين ليردّها الى الكثلكة فخُدع بهِ البطريرك يوسف وسقَّفهُ ولعلَّهُ كان يجهل انَّ السريان الكاثوليك كانوا اقاموا لهم بطريركاً شرعيًّا انـدراوس اخيجان فساء السيّد اخيجان تسقيفهُ ومنعهُ عن التصرُّف بدرجتهِ فهرب حُمَيْلي الى اوربَّة وكان قد اخذ في رسامتهِ اسم طيمثاوس. فكان وصولهُ الى رومية سنة ١٦٧٢ فدرس في مدرسة انتشار الايمان مدَّة ثمَّ اخذ يتجوَّل في انحاء اوربَّة كالنمسة وايطالية ويجمع منها الصدقات بحجج مختلفة وعُرف هناك باسم منقول عن العربيَّة كما تراهُ في عناوين كتاباتهِ (Timotheus Zaphi Agnellini Diarbechirensis Mesopotamiæ Episcopus) ثمَّ شاع امرهُ ونُسب الى المكر والخداع فحُبس عدَّة سنين في قلعة نابولي ثم أُطلق سبيله فدُعي الى رومية واعتزل الامور منيباً الى الله باعمال التوبة في دير القديسين الشهيدين قزما ودميان وفيهِ توفي بجريقٍ اصابهُ في احدى ليالي كانون الاوَّل من السنة ١٧٢٤ بعد ان زوَّدهُ بالاسرار احد الكهنة ودُفن مكرَّماً في كنيسة القديس لوقا واحتفل بجنازتهِ الطيّب الذكر مواطنهُ السيد اثناسيوس سفر العطار اسقف ماردين

﴿مصنَّفاتهُ﴾ كان السيد طيمثاوس كزنوك عالمًا باللغة السريانيَّة والعربيَّة والتركيَّة. وكان قد جمع عدَّة مخطوطات عربيَّة وسريانيَّة اوقفها على مجمع انتشار الايمان. ولهُ آثار دينيَّة عربيَّة طُبع معظمها في مدينة پادوا في ايطالية. اولها مختصر كتاب الكمال المسيحي للاب الفونس رودريكس اليسوعيّ عرَّبهُ وطبعهُ سنة ١٦٨٨. ثمَّ ألَّف مجموعاً من الامثال الشرقيَّة المنثورة والمنظومة طبعها في اصلها ونقلها الى اللغة الايطاليَّة سنة ١٦٨٨ ايضاً. وفي السنة ١٦٩٠ طبع ايضاً هناك كتاب زهور المناجات (كذا) الحبيب ونصائح القريب لضعفي الديار بكري مع ترجمتهِ الى الايطاليَّة. وهذا الكتاب قد قدَّمهُ لرئيس الرهبانيَّة الفرنسيسيَّة الاب جوزف ماري بوتاريو (J. M. Botario) ويدعو فيهِ نفسهُ «باحقر اساقفة ماردين طيموثاوس ضعفي الحميلي الديار بكري» وصدَّرهُ بمقدّمة طويلة ذكر فيها الرجَّال عيسى المزار الذي تقدَّمت سيرتهُ. ثمَّ وصف شغلهُ بصناعة الكيميا وتحويل المعادن الى ذهب والمادَّة الجامدة الى نبات وخرافات اخرى كهذه تدلّ على سخافة افكارهِ

ونشر اخيرًا سنة ١٦٩٣ في المدينة ذاتها مدائح وتسابيح تقويّة في التوبة وآلام المسيح وامّه البتول مريم. وكان نشر قبلًا سنة ١٦٧٩ في باريس سبع مزامير التوبة ومديحة العذراء مريم في مطبعة بطرس الصغير (Pierre le Petit)

﴿ شعرهُ ﴾ ليس لطيمثاوس كَرْنوك شعر منظَّم وانَّما لهُ زجليَّات عديدة بل معظم كتبهِ منظومات زجليَّة يتصرَّف فيهـا كلَّ التصرُّف ومدارهـا كلّها على مواضيع روحيَّة دينيَّة تغلب عليها مدائح العذراء مريم فها نحن نروي منها شيئًا بيانًا لطرائقهِ النظميَّة. فهذه مديحة قالها في مقام الرست :

باسم الطاهرة مريمْ يحلو لي المديحْ
وليس يوجد اسم اعظمْ كاسم ابنها المسيحْ
لهذا كلّ متكلّمْ يكرز فيها ويصيحْ
دائم شرفها لجيل وجيلْ هي فريدة بلا مثيلْ
لها الكرامة والتبجيل والشكر والتسبيحْ

منها الكرَم والجودْ ما لها شبيه في الوجودْ
ولابنها ربّنا المعبودْ يليق الكرامة والسجودْ
ودائم بالدوام في كلّ الادهارْ

كيف ما ينجحْ امري ويرجحْ رزقي يربحْ
من ما في خزائنها احتوى يأخذ كلّ انسان بما يرى
من الدرّ الفاخرْ

لابسة بالشمس رداها وتحت رجليها القمرْ
يتلألأ كالنور ضياها وهي نجم الفجرْ
لولاها واللهِ لولاها لكنّا في الخطرْ

هي صباحي هي مصباحي فيها افراحي تتزايد صحيح
هي هي سعدي وتكميل وعدي وغاية قصدي حبي وودّي
وفيها قلبي باضطرام وحبها فيهِ كالنارْ
هي هي ديني ومستعيني فيها يقيني وحبّها في الخاطرْ
لها اسمٌ قوي عالي في الارض والسما
وذكر عالي متعالي هي العذراء مريما
وفيها ينصلح حالي ولو كنتُ في ضما

ادعوها في كل خطَرْ وأجد فيها الظفرْ
واكون بها منتصرْ على الاعداء واستريح

للآب فيها سرورْ وروحهُ عليها حضورْ
والابن منها في ظهورْ ليفتقد شعبه ويزور
ويخلّص الانام من يد المكّارْ

انت هي نور الانوارْ انت هي كنز الاسرارْ
فيك جميع الابرارْ وجدوا لدائهم دوا
من ابنكِ الذي احتوى في بطنك الطاهرْ

ومن مدائحه اللطيفة فيها قولهُ:

منّي اليكِ السلامْ يا عذرا يا بتولْ
انتِ فخر الانامْ امدح فيكِ واقولْ

جبريل قد اتاكِ يا عذرا بالسلامْ

باسمكِ ناداكِ في حُلو الكلامْ
يا طوبى ما اعطاكِ من التبجيل والإكرامْ
فيكِ خلّص آدمْ من قيود الخمولْ

قبلتِ منهُ السلامْ وازداد فيها الفرحْ
بفطنة واحتشامْ عندها الامر اتّضحْ
من قوّة العلّامْ والكل لهُ يسبّحْ
ما في الارض والسما لهُ العزّ والقبولْ

ولدتِ الابن الوحيدْ في مذود بيت لحمْ
من مكان بعيدْ جاؤوا ملوكُ العجمْ
في ميلاده السعيدْ انعتق نسلُ آدمْ
حار فيهِ كلّ حكيم تاهت فيهِ العقولْ

بعد ما وردوا بالفرحْ والسرورْ
لانهم اهتدوا في نجمٍ بالنورْ
ولهُ قد اهدوا ذهب ومرّ وبخورْ
كما قال النبي عنهُ بالفصولْ

والرعاة قد غدوا بالبهجة والفرَحْ
خرُّوا لهُ وسجدوا والملائكة تسبّحْ
في الاعالي مجده بالارض صلح يتّضحْ

وفي الناس المسرَّه تشكر لك بالقبولْ
نطلب منك يا ربّ أبهجنا في اسعادكْ
لك نحبّ لك نرغَبْ على حسب مرادكْ
في كل عيد لك نطنب وفي عيد ميلادكْ
نطلب منك النعمة بقلب خَشوع مَلولْ

١٢ الراهب كامل نُجيم الماروني

﴿زمانهُ وشعرهُ﴾ كان هذا الراهب معاصرًا لطيمثاوس كرنوك فازهر في اواخر القرن السابع عشر. ذكرتهُ المجلة السوريَّة الغرَّاء في عددها الصادر في ابريل ١٩٢٧ (ص٢٣٤—٢٣٨) وروت ما استفادتهُ من اخبارهِ وشعرهِ عن حضرة الاب برنردوس غبيره الحكيم رئيس الرهبانيَّة الانطونيَّة سابقاً. فيلوح منهُ ان الخوري كامل نجيم كان احد رهبان دير ويفون مترهّباً فيهِ على طريقة العبَّاد اللبنانيين القدماء قبل انشاء الرهبانيَّات القانونيَّة المنشأة في اوائل القرن الثامن عشر. وقد رُويت هناك لهذا الراهب زجليَّة لطيفة صنَّفها سنة ١٦٩٠ وصف فيها وصفاً مدقَّقاً لعيشة اولئك الرهبان نستعيرها عن رصيفتنا المحققة

زجلية الراهب كامل نجيم

١ مَنْ يتبَعْ درب القديسْ مار انطونيوس النفيسْ
الربّ ينجّيهِ من ابليسْ ومن حيَل الشيطاني
٢ وضع لنا يا اخوه قوانينْ وهم يحفظونا من المجانينْ
ويكونوا لنا معينينْ في هذا الدهر الفاني

٣ وبعد ذلك ننال الملكوت   ونسجد دوْم لاسم التالوت
ونسبّح لربّ الجبروتْ   مع الآباء الرهبانِ

٤ كذلك من يريد يكون معهمْ   وفي السما يرافقهمْ
يقبل القوانين مثلهمْ   طاعة وعفّة يا اخواني

٥ والفقر ايضاً هو المسكنه   ثلاثة قوانين للرهبنه
يخلّصوا الراهب من اللعنه   ويسكنوهُ في الاجنانِ

٦ ومن يُريد يدخل المحاربه   لازم يقعد بالتجربه
لئلّا تأتيه الكربه   ويصير من الندمانِ

٧ وبعده ينذر على نفسه   النذورات بحضور رئيسه
لئلّا الشيطان يوسوسه   ويرميه في الطغيانِ

٨ وامّا القديس البارّ   مار انطونيوس المختارْ
كوكب النجم المزهرْ   زايد عن الرهبانِ

٩ كما هو باين من الاخبارْ   ومن قصص باقي الابرارْ
زاد هو عن جميع الاحبارْ   بالقوانين والاحسانِ

١٠ امتناع عن اللحم دايمْ   قانون رابع دوم صايمْ
نذر مختص ايضاً قائمْ   ومن يخالفه يكون سكرانِ

١١ ويقطع الاربعا والجمعَهْ   ويصوم دائماً الى التاسعَهْ
وصلواته تكون متشفّعَهْ   في من يتبعه من الآنِ

١٢ وايضاً خمسين يوم صيامْ   مفروضة بتلك الأيّامْ
والصلاة دائم دوامْ   يشكر ويسجد حقّاني

١٣ في خامس عشر من تشرينْ   يبدا بالصيام والقوانينْ
ويطرد ايضاً المجانينْ   اعني بتشرين الثاني

١٤ وثاني صيام هو اربعين يومْ بتالي الفطاس ايها القومْ
وهو صيام المسيح الى اليومْ يعيننا الله الرحمانِ
١٥ وايضاً اصوام الميلادْ وبطرس وبولس يا اجوادْ
يرزقنا اله العبادْ بشفاعته يا اخواني
١٦ وقطاعة السيدة مريمْ تكون شفيعتهُ بالعالمْ
لينجو من جميع المظالمْ ومن حريق النيرانِ
١٧ ومن يتشبَّه بالقديسْ مار انطونيوس الحبيسْ
ويخلصنا من ابليسْ في صلوات الطوباني
١٨ قضى عمره في الصيامْ لغياب الشمس كلّ الأيامْ
والصلاة ايضاً قيامْ نهاره وليله سهرانِ
١٩ ومن جهة اللبس يا اخوه عبا عاللحم وقلسوه
وبشتيك وزنَّار جلد حقوه والنوم على الحصير كانِ
٢٠ ولمّا يرقدوا الرهبانِ لا يحلُّوا زنَّار يا اخواني
والقلسوه ايضاً كمانِ ولا ينام عند العلماني
٢١ وايضاً لا يكثر الدورانْ وياخذ حذره من النسوانْ
لئلا يوقع بالتوهانْ ويستسلم للشيطانِ
٢٢ وفي الديوره تكون سَكْنتُه تحت الطاعة مع اخوتُه
ولا يكمل يقاعْ بشبكتُه اعني مصيدة الطغيانِ
٢٣ والصلاة تكون في اوقاتها في ليلها مع اشياتها
ونهارها مع فرضاتها تنال اجرة الجنانِ
٢٤ وقراءة كتب القدّسين وايضاً قصص القديسين
والرهبان المحبوسينْ ليشفعوا فينا يا اخواني

٢٥ وابداً على عريس لا نصلّي ولا نصير اشابين بالكلّي
ولا نحضر عرس بالجملي ولا نركب خيل يا اخواني
٢٦ والخمر لا تكثّر شربه لئلّا يوميك في الكرابه
ويرميك العدو في الضربه وتسقط في السنيرانِ ·
٢٧ ولا تكثّر الحديث يا انسانْ لئلّا توقع بالنقصانْ
وتبقى من رفقة الشيطانْ وتصير من الخسرانِ
٢٨ واهرب من مجد الباطلْ وإلّا توقع في العاطلْ
ومن الكبريا ايضاً ماطلْ واحظر من الطغيانِ
٢٩ واحظَرك من الناس ورفقتهم ومن عطاهم ومعاملتهم
ومن الدوران بيناتهم تخسر كل الازمانِ
٣٠ ومن الموت لا تكونوا غافلينْ وفي امور الله متكاسلينْ
إلّا دائم متيقظين في عبادة الرّبانِ
٣١ والمحبّة لله والقريبْ وتكون تُحسن للغريبْ
بالاكل والشرب أيها الحبيب يكون لك كنزاً غير فاني
٣٢ لانهُ هكذا قال سيّدنا بهؤلاء الوصيّتين علّمنا
كمال الانبيا وناموسنا وهم يرضوا الربّانِ

١٣ المطران جرمانوس فرحات

منذ استولت تركيَّة على البلاد الناطقة بالضاد في العشر الثاني من القرن السادس عشر أُصيبت الآداب العربيَّة بضربة أليمة . فكثرت الحروب وتفاقمت الشرور حتى ضعفت همم الأدباء عموماً وكسدت اسواق المعارف وأُقفلت المدارس الَّا القليل منها لا تتجاوز في تعليمها مبادئ العربيَّة وقلَّما تجد بين المؤلفين كاتباً ذا سعة اللهمَّ الَّا في بعض العلوم الفقهيَّة او النحويَّة. وغاية ما يُذكر عن شعراء ذلك الوقت ابيات

قليلة ذات معانٍ مبتذلة تشهد لصاحبها بالخمول دون النبوغ

وكانت حالة النصرانيّة اسوأ اذ لم يجد تبعتها اساتذة جديرين بالتعليم فكان المسيحي اذا بلغ الى معرفة الكتابة والقراءة عُدّ من المعلمين الماهرين. اما الشعر بينهم فانّهُ كان اسماً بلا مسمّى. وقد رأيت شاهداً على انحطاطهم في ما رويناهُ من الزجليّات السابقة المختلّة الاوزان الركيكة الانشاء

وقد بقي الامر على هذا المنوال الى اواسط القرن السابع عشر حيث ظهرت في الشام نهضة كان الساعدون على تعزيزها المرسلين الذين قدموا الى سوريّة في العقد الثالث من القرن السابع عشر ومثلهم تلامذة رومية الموارنة فهؤلاء بثّوا في العموم وخصوصاً بين النصارى روح النشاط والغيرة التي ظهرت ثمرتها في اواخر ذلك العصر وفي اوائل القرن الثامن عشر. وكان الفضل الاعظم في ذلك لحلب وطوائفها المسيحيّة المختلفة. فاشتهر بين بطاركتها واساقفتها بعض الكتبة الذين شاعت تآليفهم التي شرّفوا بها وطنهم الشهباء

امّا الشعر النصراني فكان ظهورهُ بعد حين في اواخر القسم الثاني من القرن السابع عشر. فكان المجلّي في هذه الحلبة الراهب الحلبي جبرائيل ثمّ المسقّف على وطنهِ باسم جرمانوس فرحات

﴿ ترجمتهُ ﴾ هو جبرائيل بن فرحات مطر الحلبيّ المولد والحصرونيّ الاصل. رأى النور في الشهباء في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٦٧٠ وانكبّ منذ نعومة الاظفار على الدرس فبعد اتقانهِ المبادئ في مكتب طائفتهِ تعلّم اللغات على تلميذ رومية البارع الخوري بطرس التولوي واحرز الآداب اللغويّة والفنون العربيّة على بعض الشيوخ اخصّهم الشيخ المسلم سليمان النحوي والشيخ النصراني ابو المواهب يعقوب الشهير بالدبسيّ واجتمع ايضاً بالمرسلين فاخذ عنهم علومهم فاقرّ الجميع بنبوغهِ

وفي الخامسة والعشرين من عمرهِ احبّ ان يحيي في الشرق مآثر نسّاكهِ القدماء. فيبعث الرهبانيّات المنظّمة من مواتها اذ لم يبقَ منها سوى ظلها الخفيف. فاتّفق مع شبّان مثله على ان يهجروا وطنهم ويأتوا الى لبنان كقدماء النسّاك وقد اشتهر منهم عبدالله قرا ألي وجبرائيل حوّا ويوسف البتن. فصدّق على عزمهم البطريرك اسطفانوس الدويهي وسكنوا مدّةً في دير مُرت مورا. على انهُ وقع بينهم في السنين الاولى

بعض الاختلاف في تقرير رسوم الرهبنة كان سبباً لنفور جبرائيل فرحات واعتزاله عنهم ثم لسفرهِ وسياحتهِ في جهات صقلية وايطالية واسبانية

فلمَّا رجع الى لبنان سنة ١٧١٢ وكانت هدأت الخواطر انضمَّ الى الرهبانيَّة الجديدة وصار غير مرَّةٍ رئيساً عاما عليها الى ان اسند اليهِ البطريرك يعقوب عوَّاد رئاسة اسقفيَّة وطنهِ حلب في ٢٩ تموز سنة ١٧٢٥ فرعاها احسن رعاية وبهمتهِ نمت عدداً وفضلاً الى ان توفَّاهُ الله في ١٠ تموز سنة ١٧٣٢

وللسيّد فرحات آثار كتابيَّة عدَّدها في المشرق (٧[١٩٠٤]: ١٠٠٥) المنسنيور جرجس منش (راجع كتابنا المخطوطات العربيَّة لكتبة النصرانيَّة ص ١٦٠—١٦٢). وقد اشتغل مدَّةً مع الآباء اليسوعيين فساعد الاب بطرس فرومـاج في بعض التعريبات بل كان انفرد في بعض السنين في ديرهم في طرابلس وفكَّر في الدخول في رهبانيَّتهم كما فعل بعدهُ الاب بطرس مبارك والمطران جرجس يمين

﴿شعرهُ﴾ قد سبق لنا القول انَّ اوَّل ديوان نصراني ظهر بمصر المعنى انما كان ديوان سليمان الغزّي الذي روينا اخبارهُ. امَّا في النهضة الاخيرة في ختام القرن السابع عشر واوائل الثامن عشر فكانت قصبة السباق للسيّد جرمانوس فرحات. وقد شاع ديوانهُ منذ عهد حياتهِ فتعدَّدت نسخهُ في المكاتب ولاسيما في حلب وفي اديرة لبنان. منهُ ستّ نسخ قديمة في مكتبتنا الشرقيَّة. وقد سُرَّت مطبعتنا الكاثوليكيَّة بان صار لها شرف التقدُّم بنشر هذا الديوان نشرتهُ اوَّلاً مطبوعاً على الحجر سنة ١٨٥٠ ثمَّ تكرَّر طبعهُ على الحروف الى ان اهتمَّ المرحوم الشيخ سعيد الخوري الشرتوني بمراجعتهِ و واضافة تعاليق عليهِ سنة ١٨٩٤

ومع كبر حجمهِ وعدد قصائدهِ ومقطَّعاتهِ البالغة الخمسمائة بنيِّف لا يزال بعض الادباء يقفون لهُ على منظومات لم ترِدْ في هذا الديوان. وقد نشرنا له في المشرق قصيدتين قالهما في رثاء الشيخ ابراهيم حماده المحسن الى جمعيَّتهِ (٧[١٩٠٤]: ٢٤٢٨٨ :[١٩٢٦] ٣٩٧). وكلّ ذلك ممَّا يثبت للسيّد فرحات غزارة المادَّة وجودة القريحة

على انَّنا لا ننكر انَّ في شعرهِ بعض الضعف على حداثة عهد شعراء النصارى بنظم الشعر فهو يكثر من استعمال الجوازات الشعريَّة فيسكّن المتحرّك ويحرّك الساكن ويتسامح بما لا يتساهل باجازتهِ اهل اللغة. وكلّ ذلك احقّ ان يُنسب الى الخطاط

الآداب في عهدهِ من نسبتهِ الى شخصهِ . كيف لا وتجد بين منظوماتهِ قصائد رنَّانة جارى فيها الشعراء المفلقين كقصيدتهِ الرائيَّة التي يتغزَّل فيها بكمالاتهِ تعالى وهي تبلغ ستين بيتاً اوَّلها (من البسيط) :

اللهُ اللهُ انتَ السمعُ والبصرُ في العاشقين وانت الفوزُ والوطرُ

واوسع منها نونيَّتهُ في مديح القربان التي افتتحها بقولهِ (من الكامل) :

ذلَّت لعزَّةِ دينكَ الأديانُ وتكوَّنت بوجودكَ الاكوانُ
يا أيها المولى يسوعُ ابنُ العلي انت الإلهُ الفاطِرُ الديَّانُ
وافيتنا متجسّدًا لخلاصنا من مريمٍ يا أيها الرحمانُ

ومثلهما حسنًا تغزُّلهُ بجمال قلب يسوع في همزيَّتهِ (من الكامل) :

يا قلبُ طِرْ من وُكنةِ الاحشاء نحو الحبيبِ الفاخرِ الازياء

وما قولنا بتيميَّتهِ التي أطرأ فيها كمالات العذراء مريم (من الكامل) :

لو كان للأفلاكِ نطقٌ او فمُ لترنَّموا بمديحكِ يا مريمُ

فهذه القصائد وكثير غيرها قد استحقَّت لصاحبها ان يُنظَم في سلك كبار الشعراء . ويزيد فضلهُ في انشادها انَّهُ ابتكر تلك المواضيع الدينيَّة التي لم يسبقهُ اليها غيرهُ من وصف اسرار وبسط عقائد وايضاح عادات نصرانيَّة ونسكيَّات رهبانيَّة استجدَّت في عصرهِ ونهج فيها طريقاً لمن اتوا بعدهُ

وقد تفنن السيّد فرحات في غيرها من قصائدهِ فعارض قطرباً بمثلثاتهِ السدريَّة وخمَّس عينيَّة الشيخ الرئيس ابن سينا في وصف النفس

هذا وقد وجدنا لهُ في نُسخ ديوانهِ المصونة في مكتبتنا الشرقيَّة نحوًا من ثلثين قصيدة او قطعة شعر لم تُروَ في ديوانه المطبوع . فها نحن نروي البعض منها كشذور

ذهبيّة حقُّها ان تُصان لكرامتها. فمن ذلك قصيدة قالها في عيد تجلّي الربّ في طور تابور في افتتاح سنة ١٧٢١ (من الكامل):

هذا التجلّي فاْغص فيهِ الأدمُعا ... لترى المسيح بطورهِ مترفّعا
يَنساب جَدولُ نوره متبلّجاً ... في أُفقهِ أَحسِن بنورٍ موقعا
فترى الدّراري من ضياء بهائهِ ... وسَنا محاسنهِ الفريدةِ طُلَّعا
فسما بهِ التابورُ لمّا ان سما ... بذُراهُ جا ربٌّ وقدّس أَربُعا
وجلا وجوهَ الرُّسل لمّا أَنْ رأَوا ... ناسوتَ سيّدنا المسيح مُشَعْشَعا
قد كان قبلًا عنهمُ متوارياً ... في طيّهِ وبأَمرهِ مُتبرّقعا
أَبدى لهم يومَ التجلّي ذاتَهُ ... كي يَعرفوهُ المالئَ المُتوسّعا
فتراهُ في لاهوتهِ متكبّرًا ... وتراهُ في ناسوتهِ مُتخشّعا
بطبيعتَيهِ جاء ينقذُ آدماً ... متجسّدًا يسعى الينا مُذْ سعى
عمّ الكسوفُ الشمسَ في جَلَيانهِ ... والبدرُ أَقسَمَ انّهُ لَنْ يطلُعا
وكذا النجومُ الزُّهرُ ولّت مُذ رأت ... نورَ الإلهِ محقّقاً ما أَبدعا
هذا نهارُ أُولي الإلهِ ورُسْلهِ م ... الابرارِ لمّا شاهدوهُ المُبدِعا
شامُوا ضياءَ إلهِهم فتحيّروا ... ورأَوا ضياءَ الشمس منهُ أَسفعا
وأَراهمُ ذاكَ المقامَ ممجّدًا ... ونسُوا بهِ في الحالِ آيةَ يُوشعا
هذا نهارُ اليُمنِ والإيمانِ في ... آثارهِ وبمثلهِ لن يُسمَعا
ماءُ النعيمِ برَوضهِ متدفّقٌ ... رِدْهُ اذا ما رُمتَ فيهِ المرتعا
قلبُ الشجيِّ مشوَّقٌ فيهِ كما ... كَبِدُ الخليِّ تكادُ ان تتصدّعا

فترى قلوب الحاسدين ذكيّةً وعيونهم في النور أضحت رُتّما
سَقْيا هِضابِ الطورِ لمّا أن بدا في افقهِ ربٌّ تجلّى مُبدعا
وعلاهُ من مولاهُ ما قد زانهُ ورعاهُ ممّا شان ذاكَ وأفظعا
وسقاهُ من ذاك الحيا طَلُّ الندى يكسوهُ ثوباً بالزهور مجزّعا
شمسُ الهدى بزغت بأفقِ سمائهِ وبدا شعاعُ ضيائها ان يسطعا
هذا مسيحُ الله في اكنافهِ متجلياً متمجّدًا مسترفعا
مِعْراجهُ للطور يوضحُ انهُ ملكٌ بدا بين الانام مُشَيّعا
واتاهُ صوتُ ابيهِ يهتفُ شاهدًا هذا هو ابني فامنحوهُ المِسْمَعا
واختار بطرسَ في تجلّيهِ كما إختارهُ رأساً يفوق الاربَعا (١
واتى بيعقوبٍ ويوحنّا الذي قد كان في الرسل الكرام المِصْقعا
فتحيّروا ممّا رأوهُ بارقاً من نوره لمّا بدا ان يلمعا
وسرادقٌ مُدّت عليهم بغتةً مرفوعةٌ من مجدهِ لن توَفعا
نورٌ حقيقيٌّ عليهم مشرقٌ حتى غدوا صرعى لذلك هُجّعا
لا مثل نورِ المُبدعين وحزبهم لا يطلعَنْ من غير ان يتصنّعا

وختمها بعد تفنيدهِ لمزاعم البدعين بقولهِ :

لكنّا نحن نرى بأن الذي يُرى هو مجدُ ناسوتِ المسيح موشّما

١) قال في حاشية : يعني انَّ السيد المسيح اختار رياسة كرسي بطرس الرسول ان ترأس الكراسي الاربعة اي كرسي القسطنطينيَّة والاسكندرية وانطاكية واورشليم

هذا هو الحقّ الصراحُ ومن يَرُمْ طُرق الهدى يُلقِ الينا المِسمعا

ومما لم يُرْوَ في ديوانهِ قولهُ يشجّع نفسهُ وقد ضايقتهُ هواجس ابليس في افكار العالم سنة ١٧١٢ (من مجزوء الرجز):

فيا لكَم رأيتُني ومن بُكاء أَجهشا
اتانا ابليس مُخا دعاً لنا وقد رشا
وآنسَ القلبَ وكم آنسَ لي توحُّشا
ترى وقد وَسْوسَ لي بفعلهِ وأَوْحشا
مشى اليَّ لا رِضىً عليَّ لمَّا ان مَشَى
يرومُ سرّي انهُ بذلك السرّ فشا
فوشى بي وقد ارا هُ يتلاهى كيف شا
خَزِيتَ ابليسُ كفى لا تَرْضى عيني بالعَشا

ويروى لهُ قولهُ في وصف رجل من الغرب امتلك باسمهِ ملكاً ثمَّ اختلسهُ منهُ (من الوافر):

بأَرض الغرب أبصرنا فِعالًا تذكّرنا فِعال المُفترينا
بإنسانٍ ارانا الخير لفظاً بلا معنى فخِلْناهُ مُعينا
دعانا اوَّلًا حتَّى حضرنا فكان من الرجال الناكثينا
وكان سَحابُهُ فينا جَهاماً وخُلَّبُ برقهِ وعدًا خؤوناً
بنى ما قد بناهُ على دمانا دم الشهداء والرهبان فينا
فان يثبت فذا يشهد عليهِ وان يسقط جزاء الظالمينا

وقال يهجو القضاة الجائرين سنة ١٧٢١ (من الطويل) :

سألتُ القضاةَ الآنَ والشرعُ مُشتكٍ عليهم ومنهم يشتكي الجَوْرَ والثقلا
فَلِمْ جُرْتُمُ في الشرعِ والشرعُ عادلٌ وجُزْتم بهِ عدلًا وحُزْتم بهِ عَذْلا
اجابوا لنا انَّ الزمانَ مُوارِبٌ وكلٌّ لهُ فَنٌّ بهِ يَقتضي شُغلا
فلمَّا رأينا الدهر بالحقّ مائلًا فَقلنا وكان الظلم في شرعنا عدلا
ولو لم نَجُرْ في الحكم اصبحَ شرعُنا وعرضُ القضاةِ الآنَ بين الورى نَذْلا
لأنَّا بوادي الجور ننساب والذي يراهُ نراهُ والهوى جامعٌ شَمْلا
فلا تنكروا منّا ومن ذاك ريبةً اذا كان دمعُ العين للمذنب الغُسْلا
فكم هفوةٍ جاءت باثواب توبةٍ تجرّر اذيالًا تُواري بها فِعْلا
ومن قبلُ قد شانت بشأنٍ رسولها فكم صدّقت رُسْلا وكم كذّبت رُسْلا
ألا انّما عقلُ الحكيمِ منزّهٌ عن الجهل فيما يقتضي العقل لا الجهلا

وقال يقابل بين دموع التوبة ودموع المحبة (من البسيط) :

أنحلتَ يا دمعُ جسمي فارْفقنَّ بهِ واكففْ لأنّي علمتُ الإثمَ أنحلَني
فدمعةُ الحبِّ تُبقي الجسم مبتهجاً ودمعةُ الإثم تُبلي الجسم بالوَهَنِ
شتّانَ بين دموع الحبّ ان صدقتْ فيهِ وبين دموع الإثم والدَّرَنِ

وقال في تجسد ابن الله ورفعة الانسان (من الكامل) :

صار الالهُ بحبّهِ متأنساً من مريمٍ فهي الرجا والبابُ
ليخلِّص الخاطي الاسيرَ بموته ويؤلّهَ الانسان وهو ترابُ

وقال في فضيلة التقوى (من البسيط) :

محبَّةُ الله روحُ النفس تُنعشها فينا ولكن لها روحٌ بها الرّضوى
فالجسمُ من غير روحٍ ميّتٌ وكذا محبَّةُ اللهِ لا تحيا بلا تقوى
تقوى الفضائلُ بالتقوى فلن تقوى من عارضٍ ما وإنْ أقوَتْ فلن تقوى

وقال في انتقال العذراء الى السماء (من البسيط) :

ربُّ السماوات والارضين قاطبةً لاقى انتقالَكِ يا بكرًا ولَدْتيهِ
لمّا حصلتِ لهُ امًّا ومُرضعةً حصلتِ في مجدهِ السامي وحُزْتيهِ
اذ صار ناسوتهُ منك بقوّتهِ اراد يمنحُكِ ما قد منحتيهِ
خُذي يمين ابنكِ امًّا مُنجّدةً فالمثلُ بالمثل شرعاً منهُ نِلْتيهِ

وللسيّد فرحات قصيدة فنّد من نكر فيها حرّيّة الانسان في اعماله حاملًا تلك الاعمال على القضاء والقدر منها قولهُ (من مجزوء الكامل) :

يا مَنْ خطَوْتَ الى الرّدَى لا تَعْتَبنَّ على الخُطَى
اذ انت صِرْتَ مخيَّرًا من مُبْدعٍ فيما مضى
أفليس للانسان في الأرْزاقِ الّا ما سعى؟
اين المقدَّرُ قُلْ لنا والعقلُ يصنَعُ ما يَرى؟
فعلامَ تقتلُ سارقاً وعلامَ تمدحُ من وفى؟
ان كنت يا ذا مُجبَرًا فالله يظلمُ من جنى
افسدتَ شَرْعَ اللهِ والاحكامَ كلًّا والنُّهى

زال الشوابُ عن التُّقى وكذا العقابُ عن الزنا
كذبَ الكتاب فلا صلا ةٌ تُرتجى من ذي التقى
حاشا لربٍ عادل بقضائهِ بين الورى
يبدو لدينا جائرًا او قاسياً مثل العدى
فارحم حياتك وانتزح عمَّا تراهُ من العمى
يوماً تُدان وتقتضي ذاك الجزاء بلا مِرَا
فالخيرُ خيرُك ان بدا والشرُّ شرُّك ان جرى
انت المُثابُ على الوفا انت المدان على الاذى
ان صالحاً او طالحاً ولكلِّ مرءٍ ما نوى

وللسيّد الشاعر الحلبيّ غير ما ذكرنا مما لم يُنشر بالطبع الَّا انَّ الباقي منهُ قد تشوَّه بالنَّسخ والمسخ فنكتفي بما سبق

١٤ الخوري نيقولاوس الصائغ

لا يمكنّا ان نفصلهُ عن معاصرهِ السيّد جرمانوس فرحات فانهما كانا كالفرقدين في سماء الكنيسة الكاثوليكيَّة بل كشقيقين في خدمتها. وقد تشابها في امور كثيرة فكلاهما من وطن واحد وكلاهما آثر المهاجرة الى لبنان وكلاهما عدل عن العيشة العالميَّة الى التنسك في الرهبانيَّة وكلاهما رأس زمناً طويلًا رهبانيَّتهُ وكلاهما نبغ بالكتابة نثرًا وشعرًا وتوفّيا قبل الشيخوخة البالغة

ترجمتهُ وُلد المترجم في الشهباء في السنة ١٦٩٢ من ابوين ملكيَّين عريقين في الفضل والتقوى وكان ابوهُ صائغاً فأُطلق على ابنهِ نيقولاوس اسم الصائغ ونشأ في حجر والديهِ فتًى صالحاً ذا تقى وذكاء عجيبين. ولمَّا ترعرع أنس في محيطهِ تلك النهضة الادبيَّة التي استفزَّ لها الشبَّان الكاثوليك في حلب فكانوا الاساس الاوَّل للصرح الادبي الذي تشيّد بعدهم في ربوع سوريَّة فانضمَّ اليهم نيقولاوس واستقى من مورد

الذين سبقوهُ ولاسيا جبرائيل فرحات فاتخذهُ كدليلهِ واستاذهِ كما اعلن بهِ في ديوانه حيث قال في مديحهِ (من الطويل):

إمامي وذُخري بل غَناني ومَغنمي غَنمتُ بـه غُنماً تَجِلُّ غنـائمُهْ
فان يَكفرِ الإحسانَ من ليس شاكرًا فأَشبهُ بالكفران من هو كاتِمُهْ
حلبتُ بهِ وُسعَ الإناء معـارفاً يُلازمني جُنحَ الدُّجى وأُلازِمُهْ
جنيتُ ثمار الحمد من دوح فضلهِ وزَهوَ ثناء عنـهُ شُقَّتْ كمائمُهْ

ولمَّا عرف انَّ بعضاً من اهل وطنهِ انقطعوا الى الله في لبنان شعر بالـدعوة الى الرهبانيَّة فودَّع الشهباء سنة ١٧١٦ وتنسَّك في دير مار يوحنَّا الصابغ في قرية الشوير. وما عتم ان وطَّن نفسهُ على الفضائل الرهبانيَّة حتى عُدَّ من ارسخ الرهبان قدماً في ممارسة العيشة الفضلى وفي العلوم الدينيَّة فرُقِّي الى درجة الكهنوت سنة ١٧١٩ بوضع يد السيّد سلفستروس دهَّان مطران بيروت

ومذ ذاك الحين أُسندت اليهِ مهامّ رهبانيتهِ الحنَّاويَّة الكريمة فقام بها قيام الرجل المحنَّك الحازم الذي لا يثني عزمهُ شيء من المحن والمشقَّات. فعرف اخوتهُ انهُ مختار من الله ليدبّر جماعتهم وينظّم امورها فوقع عليهِ اختيارهم للرئاسة العامَّة سنة ١٧٢٧ ثمَّ عادوا وكرَّروا انتخابهُ في تسع مجامع متوالية الى السنة ١٧٥٦ فعُني بامور الرهبانيَّة الحنَّاوية عناية تامَّة ماديًّا وادبيًّا وروحيًّا. فمن فضلهِ ومن مالهِ الخاصّ بنى لدير الشوير كنيستهُ على اسم القديس نقولاوس شفيعهِ وشيَّد عدَّة قـلالي لأوى الرهبـان واهتمَّ باديرة الرهبانيَّة الثلاثة التي كانت لها في لبنان ورأس بعلبك وفتح للعابدات دير سيّدة البشارة في الزوق واقام هناك ديرًا على اسم الملاك ميخائيل وبمساعيهِ فُتح دير مكين (دير الشير) وزحلة (مـار الياس الطوق) ونال من مكارم الحبر الاعظم ان تعطى لرهبانيتهِ في رومية كنيسة سيّدة السفينة (Navicella). واليهِ يعود الفضل بوضع القوانين لرهبانيَّتهِ التي اثبتها الكرسيّ الرسولي سنة ١٧٥٧. واكتسب بحسن ادارته وسياستهِ ثقة اعيان الجبل حتى مشايخ الدروز والمتاولة. وكانت وفاتهُ في اواخر السنة ١٧٥٦ في ١٧ كانون الاوَّل منها ودَّع الحياة بكل ورع وطمأنينـة وخشوع مزوَّدًا بكل اسرار الكنيسة وذلك في قرية الزوق في دير مار ميخائيل

﴿ادبيَّاتهُ وشعرهُ﴾ كان الخوري نقولاوس الصائغ مولعاً بالآداب العربيَّة منذ حداثة سنهِ . ومع كثرة اشغاله بعد الترهُّب لم يزل يمرّن قلمهُ في الكتابة والتأليف . فممَّا يروى لهُ تاريخ الرهبانيَّة الحنَّاويَّة ومواعظ لآحاد واعياد السنة ورسائل مختلفة بعضها في شؤون خاصَّة وبعضها ادبيَّة محضة

امَّا شعرهُ فعُني معاصروهُ من اخوتهِ الرهبان بجمعهِ في ديوان كبير سبقت مطبعتنا الى نشرهِ كنشرها ديوان زميلهِ جرمانوس فرحات فكان ظهورهُ لاوَّل مرَّة سنة١٨٥٩ . ثمَّ اعاد فيهِ النظر المرحوم الشيخ ابرهيم اليازجي فنقَّحهُ وطُبع بعد ذلك مرارًا

وان أعملنا في هذا الديوان نظر الانتقاد امكننا ان نعارضهُ بشعر استاذه المطران فرحات فقد عالج مثلهُ فنونَ الشعر حين لم يرسخ بعد قدم النصارى بكل دقائق العروض فتسامح كلاهما بجوازات لم يأنس بها الشعراء المفلقون . وانَّما يشفع بهما انهما كانا من المقدَّمين في النهضة الادبيَّة المستحدثة . .

وما لا ينكر انَّ للخوري نقولا الصائغ نفساً شعريًا في كثير من قصائده لاسيما تلك التي أنشدها في وصف العقائد الكاثوليكيَّة وفي الدفاع عن حوض الدين بازاء كنيسة الروم المنفصلة التي تحاملت في عهدهِ على الذين ارتدُّوا الى الكنيسة البطرسيَّة فذهب بعضهم ضحايا تعصُّب الفوتيوسيين . فتراهُ يخوض في اسرار البيعة وتعاليمها الغامضة فيقرّبها الى الادراك بشروحهِ وتشابيهِ الرائعة كما تراهُ في قصيدتهِ عن انبثاق الروح القدس من الآب والابن التي اوَّلها (من الطويل) :

رأى اللهُ كليًّا بمرآة ذاتهِ وذاك بفعل العقلِ فانطبعتْ طبعا
وقام بهذا صورةً جوهريَّةً لما كانتِ الأعراض عن ذاتهِ منْعا
فمن عقلهِ النطقيِّ أصدر كِلْمَةً هي ابنٌ لهُ يُسمى ومولودَهُ يُدعى

الى ان قال:

وما الروحُ إلَّا صادرٌ من كليهما كنفحة حبٍّ شأنهُ الجودُ والإرْعا
تعالى عن الاشباه والمثل نخلةً هو الآبُ إض منبتٍ خصبهُ جذعا
كذاك وهذا الجذعُ أطلع طلْعَهُ فقُلْ انَّما الاثنانِ قد بثقا الطَّلْعا

او الآبُ شمسٌ والشعاعُ ونورهُ   هما الابنُ والروحُ اللذان أُرسلا شفعا

او الآبُ عينُ الماء والابنُ نهرها   وروحهما الماءُ المُفاضُ كما يُدعى

او النفس ذات قوى ثلثٍ وانها   لواحدةٌ ذاتاً فثِقْ واحذر الخدعا

ومن قصائده الرنّانة ما قاله في مديح البيعة الرومانيّة يقابل بين نماها ونفـاق بيعة القسطنطينيّة كقصيدته القافيّة التي ختمها بقوله (من الرجز):

إحفظ بيُمْنك أُمّةً   ليست بغيرك واثقَهْ

بمريم الطُّهر التي   هي خيرُ بكرٍ عاتقَهْ

لها سلامُ الله من   كل البرايا الناطقَهْ

ومنها موشّحة الشهير الذي يصف فيه عِناد المكابرين للحقّ:

يا لَقَوْم قد تناهى وانتشرْ   غيُّهم في كلّ قُطرٍ واشتهرْ

ايها القوم الذين انتجعوا   نُجعَة الإغواء حتى انقَجعوا

يا لقومي هل لكم ان ترجعوا   فلقد امستْ حِكايا كم سَمَرْ

يا لقومِ

ومثلها قصيدتهُ في رئاسة القديس بطرس على الكنيسة وسلطانهِ المُطلق وقيام خلفائهِ الاحبار الرومانيين في كرسيّهِ اولها (من الطويل):

أَماناً لبُنيانٍ غدا أُسّهُ الصفا   هو الراسخُ الاركانِ والثابتُ الاصلُ

فهذا الاساسُ الصَلدُ بطرسُ صخرُهُ م   الامانةُ والأُسُّ الذي ما لهُ ثَـلُّ

وهي طويلة وكلها بدائع. ولهُ ايضاً يستقبح الانشقاق ويندّد بالذين كانوا سبباً لهُ فقال في قصيدة لاميّة تبلغ ابياتها نحو ٢٠٠ بيتاً اولها (من الكامل):

للانشقاق الرذْل شرُّ مَعاني   في أمرهِ قد حارَ كلُّ مُعاني

كم ذا أُكابدُ من مكايد حَربِهِ   بفؤاديَ العاني بهِ وأُعاني

وللخوري نيقولاوس ما عدا هذه القصائد الدينيّة الرنّانة منظومات عديدة جارى

فيها مشاهير الشعراء بعضها في الآداب الاجتماعيَّة وبعضها في وصف الاخلاق. وقد تفكَّه في كثيرٍ منها فروى فيها الالغاز والاحاجيَّ والتواريخ ولهُ بديعيَّتان لطيفتان وارجوزة طويلة في الصلاة وشروطها وطرائقها. ومع ضخم ديوانهِ لا يزال لهُ قصائد متفرّقة لم تُنشر بالطبع وجدناها في بعض النسخ الخمس التي في مكتبتنا الشرقيَّة منها بائيَّة في نحو ثمانين بيتاً انشدها سنة ١٧٢٤ وصف فيها نكبات الدهر وسوء معاملات بعض اخوانهِ المتقلبين عليهِ. هذه نخبةٌ منها (من مجزوء الكامل):

ذا الدهرُ ميدانُ المصائبْ وبنوهُ فُرسانُ المعاطِبْ
ما هذه الدنيا التي هيَ للورى وادي المتاعِبْ
فخَّ البلايا والرزايا والدنايا والمصاعِبْ
دهرٌ عجيبٌ لا ترا لُ صروفهُ تُبدي الاعاجِبْ
تأتي بكلّ غريبةٍ حتى ترى منها الغرائبْ
في كلّ يومٍ نكبةٌ محمولةٌ فوق المناكِبْ
وبليّةٌ قد أوقرتْ مَتْنَ الكواهل والغواربْ

الى ان خصَّص بالملامة مَن خان ودادهُ فقال :

ابناء امّي أغرَضو ني والسهامُ أتت صوائبْ
لو أنْ يعيّرني الاعا دي لَاحتملتُ ولم أُعاتِبْ
او انَّ ضدّي غرَّني ماكان ذاك من الغرائبْ
بل يا شقيق الروح انت م كسوتَني ثوب المثالِبْ
وجعلتَني غرضاً لسهم م منك راشتهُ المعايبْ
هذا جزا من كان لم يتحَامَ عن لُحمَةِ اللواسبْ

لدَغ الفؤادَ ولم أقلْ هذا الفتى نَسلُ العقارِبْ
ما زلتُ امدحُهُ واشكر م وَهو لي هاجٍ وثالِبْ
لا غروَ من روَغانهِ اذ هذهِ سِمَةُ الثعالِبْ
ذا طبعُهُ لا تعجبوا لفعلِهِ فالطبعُ غالِبْ
فذَرُوا ملامتَهُ لانَّ م اللومَ عندي غير واجبْ
ذا مُكسِبي صَفحَ الاذى فالصفحُ من أسنى المكاسِبْ

وممَّا فات جامعي ديوان الخوري نقولا الصائغ قولهُ في مديح مريم العذراء (من الكامل) :

انَّ البتولةَ ذاتُ امرٍ نافذٍ تَنهى وتأمرُ في الأنام وتَحكُمُ
ذاتُ المقام السامي في فلَك العُلى في حكمها كلُّ القضاء مُسلَّمُ
هي مَعقِلُ المستجير وملجأ م المُستغيثِ وجَنَّةٌ لا تُثلَمُ
بكرٌ تَسامى فضلُها فهي التي من مُستميحٍ نوالها لا تَسأمُ
خيرُ الفدى بحرُ الندى وزَدُ الصَّدى كنزُ الجدى تهَبُ العطاء وتُنعِمُ
تَعنو لخدمتها البريَّةُ أسفَلا ولها الملائكُ في الاعالي تخدِمُ
قد قوَّضتْ ظُلَم الضلالِ لأنها عَلَمُ الهدايةِ والطِرازُ المُعلَمُ
هي مَسكِنُ الله العظيم وانَّها قدسُ المقادسِ والخِباء الاعظمُ
والكوكب السَّحَريُّ نورُ العرشِ مَن دانت لهُ شمس الضُّحي والأنجمُ
هذي هي الحجرُ الكريمُ قد اجتبا هُ وهامَ فيهِ الفيلسوفُ الاكرمُ
مُذ حلَّ فيها عاقدًا جسماً لهُ على انهُ بِقُنومهِ متقسِّمُ

متنزّهاً لاهوتهُ عن لازمٍ لكنّما ناسوتهُ مستلزمُ
ربٌّ بسيط جسمهُ متركّبٌ يمشي فيعيا او يجوع فيَطعَمُ
فقنومهُ فذٌّ وليس بتوأمٍ وكلا الطبيعة والمشيئة توأمُ
يا عُمدتي في شدّتي ومعونتي ببليّتي والفوزُ فيها يعظمُ
فلأمدحنّك ما حييتُ وإن أمُتْ فلتمدحنّكِ تُربتي والأعظمُ
حقٌّ على الافلاك مدحك في العُلى لو كان للافلاكِ نُطقٌ او فمُ
فعلى مديحك أجمعت وتجمّعتْ عربُ البريّة كلّها والأعجمُ
أُهديكِ بِكرَ الفكر خيرَ خريدةٍ في بحرها دُرُّ المديحِ مُنظَّمُ
برَعَ الختامُ بها بمسكِ ثنائها أعظِمْ بمدحٍ باللّطائمِ يُختَمُ

وروى له مكرديج الكسبجي في ريحانة الارواح قولهُ في العدوّ والصديق الماذق (من السريع):

كم من عدوٍّ نلتُ خيرًا بهِ كم من صديقٍ حزتُ منهُ الأسى
فاحذرْ أيا ذا الحزمِ يا ذا النُهى من روح ذي بغضٍ لك ان تيأسا

وروى له ايضاً (من الخفيف):

يا بُنيَّ كن شاكرًا غير شاكٍ كي ترى الله في بلاكَ مُعينا
ليس بُدٌّ من القصاص ولكن إن يكن هاهنا فألطَفُ لِينا
انّ اوجاع ذي الدُّنى لا تُوازي ذلك المجدَ حين يظهرُ فينا

ومن اقوالهِ التي لم تُرَ في ديوانهِ قولهُ يصف الشباب وشهواتهِ (من الوافر):

اذا ما الشابُّ شابَ وشبَّ فيهِ لظى الشهوات يَستعر استعارا

فيشبهُ رُبى يعلوهُ ثَلجٌ ويَقذفُ جوفُهُ شررًا ونارا

وللخوري نقولا الصائغ رسائل نثريّة كتبها في اغراض شتى وربّما تأنّق فيها وزانها بضروب السَّجع والجناس. وها نحن نضرب منها مثلًا وتلك رسالة وجّهها الى احد مشاهير رهبانيّته الخوري يواكيم مطران البعلبكي (اطلب كتابنا المخطوطات العربيَّة لكتبة النصرانيَّة ص ٩١) ذكر لهُ فيها ما اصاب رهبانيَّتهُ من النكبات بفعل بعض المعادين وقد ضمَّن هذه الرسالة اشارات لطيفة الى العلوم المختلفة كما سترى في الالفاظ المخطوط عليها قال :

﴿اقتباسات من علوم الصرف والنحو والبديع﴾ من بعد تقبيل يديكم والتماس دعائكم . انَّهُ يليقُ بي ان ابثّكم شرح ما توجَّهَ من امرنا مع الناكري المعروف ولا نلقي عوامل الجزم على مُعتلّها بل نحوها بصحَّة سالمة ولا نغفل عن الحاق وصف مُبتدإها وخبرها . ولولا منازعة الهموم التي اوجبت الاشتغال ولم تدعَ لنا حالًا ولا تمييزًا لما تأخرنا من تقديم بيان كل شيء. ممَّا دخل علينا من النواسخ التي صيَّرت بيننا وبين المدوِّ بُعد الفراسخ ، وتوكيد ابتدال صفة الامور بانعطاف القاصد لانهُ بعد ان حدَّ لنا القسمة بالقياس فاذ رضينا بها عدل عنها . وذلك الابتداء انتسخ بهذا الخبر وقد رفع الدعوة الى الجمع ناصبًا لنا بِشصِّ المكيدة ليخفض جانب حقّنا او يجرَّ عليهِ ذيل الإلغاء بتقدير حذف كلّ ما يُضاف الينا من الحقّ الصريح والمضمر . والله اعلم بمصدر افعاله ان كان صحيحًا او مؤوَّلًا وان كان ضميرهُ متّصلًا مع الله او منفصلًا لعلّة ما . وقد جعل معرفة الحق نكرةً وسوَّغ الابتداء بها بعموم الباطل وخصوص نفي المتنافين وجوب ولايتنا

﴿اقتباسات من علم المنطق﴾ وجعلنا موضوع ما حمل علينا من القضايا الوهميَّة . مع انَّ هذا اللازم لا يُلزم . ودعواهُ الكبرى انَّنا لم نسمع منهُ ولا الصغرى ومن ثمَّ حصل التنافي والتضادّ والتباين والتناقض وعكس القضايا فصار جميعها نقيض الوضع . جعل الحدّ بيننا حتى مجيءَ الجواب وتعريف ما يجب ان يحكم بهِ بعد الحكم الجازم والنتيج اللازم . وقد جنَّس ونوَّع بنا فصولًا وأزهق نصولًا بالعرَض العرَضيّ على جوهر ما قام بذاتهِ من الحقّ بحمد الله تعالى حتى غدا حقُّنا كأنه طبيعة لا اقنوم لها

مع انَّ العدل اقنوم الحقوق والجوهر الاوَّل لطبيعة المعاملات. ومن ثمَّ سلب حقوقنا وجرَّدنا منها. وأنَّى ينتج وجوب حقّ من قضايا كلها سالبة

﴿اقتباسات من علم الهندسة﴾ «حتى غدوتُ مما نالني من هؤلاء كأنني جزء لا يتجزأ. او كنقط في دائرة الحوادث تحت خط مستقيم من الكوارث ولو امكن لانزويتُ الى زاوية او مربّع واستغنت بالموحد ذاتاً والمثلث الاقانيم على هؤلاء الاربع. ومما خطّ لي الزمان من الاختلال صرتُ مثل كرة تلعب بيَ الاحوال حتى صار طولي عرضاً وعمقي سطحاً وبسيطي مركباً والمجوف محدباً. وهذه جملةٌ تُغني عن التفصيل وهي أولى بافضل التفضيل

﴿مقتبسات من علم العروض والبحر الشعر﴾ وكنتُ أوثر ان اعرض للكبديع افعاله وعروض الموازين باعماله الَّا انها ذات شرح طويل مديد وافر غير انهُ سريع الرجز خفيف الحركات او مضارع لهُ فيما يتدارك كلما يكون من جملة اولئك بالكمال، تراهُ منسرح الكلام جزَج يقتضب انواعاً من الاحتيال والاغتيال، يبسط عنهنَّ العذر وينقبض ويكفّ متى يسمع شيئاً غير متقارب لِمناهُ. وهذا اوجز ما يمكن من الشرح على صدور متون تقتضي حواشي، يكلّ عنها الناظمُ والناشي، ويرتع بميدانها الحاسد والواشي

﴿مقتبسات من علم الابراج الفلكيَّة﴾ «ولو كنتُ ممتعاً بين ابراج السماء لم أخل ان احتمل ما حمل قلبي من لذع عقرب الغموم، وعقلي من سرطان الهموم، والكمد، ما لا يقوى عليه الاسد. ولمَّا نُكس ميزان الحظّ ومال، ورعى جَديَ النحس سنبلة الاقبال. وامتلأت دَلوُ النفاق والجور، الذي لا يحمله الثور، وابتلَع حوتُ الغدر جوزاء العدالة أيقنتُ انهُ لم يبقَ في قوس الصبر منزع فمن ثمَّ اقول

﴿مقتبسات من اسماء البلدان والمدن والانهر﴾ «ان عراق العيش تكدَّر فما راق، ولا راق لي عُمرٌ تقضَّى بإعراق، لانَّ الذي كأنَّهُ بدجلة الآسي، لم يزل مَوصل الاذى اليَّ ويسيء، البصرة نحوي ويلحظني باللحظة الزوراء عن قبلة السِّلم فخلتُ اني في ميدان الحرب لا مدينة السلام. وغدوت في حيرة اصدأت القلب فأبعدتهُ من الريّ واودعتني البلابل، حتى كانني في بابل، بين اهلها المتمرّدين، والعوذ بالله من قوم ماردين، او كأنني في جوسق المِحَن وكأنَّ الدهر حلب لي من انداء المحنة الشهباء

لبانَ التعب ، وسربلني بأطمار الذلّ بعد ثياب العزّ وهي عزاز ، وابتزّ في كل الابتزاز ، ولطّخني العاصي بعرّة المعاصي ، حتى كأني في حماة وهيهات ان يرحضني العاصي ، فغدوتُ شاعرًا بالبلاهة افضل من اهل حمص ولكن بصيغة المفعول لا الفاعل ولم يبقَ على جدّ الاحتيال ربة . ومما نالني من اهل قاره انشد كلّ وقت «قِفا نبكِ» . ومذ تعرّفتُ بهؤلاء النكرات ما شام طَرفي ما طال الامد سوى بارق الكمد ، لكنّما الدهر تصدّى لفتكي ولله الحمد ما اناله في صدد . فوددتُ لو كنتُ في بعلبك مساجد الاصنام او اختها تدمر

ولمّا التحفتُ بجبّة الذلّ اطال كلب الجور العقور عليّ نبحه وصارت همّتي كالسلحفاة وكانت قبلُ كاللبؤة فغضّت العين وطاطأ الراس وحسبتُ اني في قاع بحر الهموم يضيّق بعيني رُحب البقاع ، والفلوات ذات الاتساع ، كيف لا وقد أبسرَ نخلُ الظُلم والبغي ، وزحل العدل عن سبيله أيّة زحلة وزحزح ، وانفصم مَتنُ الحقّ فما ارتفع له راس ، وغدت مسودّة جُرْد العهود ذات شراس وشماس ، ناكرة الإخاء والايناس ، فلم يتهيأ لي في مصر ولا كفرسلوان ولا ما ينقّي وَضر الهموم ولا عين سلوان . . .

«وكان عهدي بفلان انهُ كأرزة لبنان ، لا تهزّهُ الرياح الزعازع ، فاذا هو كالقصبة امام وجه الريح تلعبُ بهِ الزوابع ، ولقد اثقل كاهلي نير البلايا من كلّ حادثة ، لان سكّة الجور في كل البلاد حادثه . فالحمد لمن لا يُحمَد على مكروهٍ سواهُ . انَّ الأيام دكّت طور اوطاري شرَّ دكّة ، حتى حصلتُ بارض عكّة ، ابيت منها بليلةٍ عكّة ، وجدّلني الدهر اذ جادلتُهُ جدالًا افضى بي الى جدل العناء فلم اجد جذلًا . وصفد الهمُّ قلبي بوثاقٍ وقَيْد وقطَعَ اوصال راحتي بجدّ شفاعمر او زيد . . . وصرت اشبه بمن انحدر من اورشليم الى اريحا ، ووقع بين اللصوص فصار جريحًا ، ولكني ارجو من حضرة القدس الجليل ذي الحرم الجليل ، وصخرة الرجاء الذي لا يخيب ولا يستحيل ، ان يرفعنا في القيامة على جبل صهيون السماويّة . ويجعلنا اهلًا لنتمتّع في جبل الخليل ويزيل من بيننا وبينهُ ذلك الحجاز الذي حجزتهُ الآثام والخطأ ويجعلنا من اهل المدينة التي رآها يوحنا نازلة من السماء ويقرّب منّا اليه الخطى لكي تونس النفس بعد وحشتها نار تلك الديار ، ويقرّ بها القرار ويخلّصنا من كفر هذه الدنيا . ويُحظينا بعصر ديارهِ الفاخرة ، ويذود عنّا شرّ العُداة بقوّتهِ القاهرة ، ويثبّتنا في حصن كنيستهِ المحاربة لنفوز بالحظوة

في الكنيسة المنصورة محلّة المجد الوريف التي تسمو على كل غور ونجد وثغر وريف ويروينا من ماء نيلها العذب وينقع منّا الظمأ ويرفعنا من هرم هذا العمر فوق قسطاط جَلَد السماء ويُصعدنا من هذا الصعيد ويزلفنا الى صعوده حيث لا صُعد للنفوس ولا تصعيد، ويرشدنا الى جدَد الحقّ الرشيد انهُ لخيرُ هادٍ ورشيد

«وما وجّهتُ اليكم هذه العبارة — والعارف تكفيه الاشارة — إلّا لاني اخال انّ الضرّ لاحقني غاية الالحاق، ويطاردني كأني راكبُ بولاق، قاصداً نكسي ونفسي. وهذا فعل من كان قاصد السوء فلنسعفهُ بالصلاة والدعاء»

فترى ما في هذه الرسالة من التكلّف والتصنّع وانما هي دليل على اقتدار صاحبها من مجاراة أدباء زمانه الذين أُولعوا بمثل هذه الفنون الاصطناعيَّة. ولهُ في ديوانه رسالة اخرى وجّهها الى معاصره ومواطنه الاديب مكرديج الكسيح من مشاهير ادباء الشهباء في القرن الثامن عشر ضمّنها ايضاً ضروباً من فنون الانشاء نظماً ونثراً

١٥ الشاعر ابرهيم الحكيم

هو احد ابناء الشهباء الذين ساعدوا في وطنهم على تلك النهضة الادبيــة التي لاح فجرُها بين النصارى في القرن الثامن عشر

﴿لمعة من ترجمته﴾ لسنا نعرف سنة مولد الشاعر ابرهيم الحكيم والمرجّح انهُ ولد في اوائل القرن الثامن عشر او اواخر السابع عشر. امّا اخبارهُ فلم يدوّنها احد من كتبة عصره وانّما اطّلعنا على بعض اطوارها بما ورد في ديوانه الذي استخرجهُ من زوايا النسيان جناب صديقنا الاستاذ عيسى افندي اسكندر المعلوف بعد اطّلاعه على ما نشرناهُ في المشرق (١٠ [١٩٠٧]: ٥٥٩؛ ٥٨١؛ ٧٠٨) من قلمه بخصوص رحلته من حلب الى مصر وقد جاء فيها عدّة قصائد وجدها في ذاك الديوان المخروم في اوّله والضائع اسم مؤلفه

فيؤخذ من هذه الآثار انَّ ابرهيم الحكيم ولد في حلب من أُسرة كريمة من طائفة الروم الكاثوليك. ونشأ هناك وتخرَّج على علمائها النصارى وقد ذكر منهم منصوراً الحكيم من اقربائهِ الذي ورد ذكرهُ في اخبار طائفتهِ كاحد الدافعين عن حقوقها في وجه الدولة التركية في حلب والاستانة ثمَّ دان بالاسلام طمعاً بالشرف. ومنهم العالمان الشهيران الشمَّاس عبدالله زاخر والخوري نقولا الصائغ وقد همَّ بمدحهما شاكراً ثمَّ رثاهما بعد وفاتهما

وكانت اقامة ابرهيم الحكيم في وطنهِ يتعاطى فيها صناعة الطبّ على مثال اجدادهِ الذين أُطلق عليهم اسم بيت الحكيم فورثهُ بعدهم. وجاء لهُ في ديوانهِ قصيدة يشكو فيها صناعتهُ ويصف ما ينال المرءَ بسببها من المصاعب افتتحها بقولهِ (من الكامل):

تبّاً لرزقٍ يبتغيهِ الآسي تبّاً لذلك من عيون الناسِ
تبّاً لمرءٍ عند ضرّ الناسِ يأ تي ربحهُ بالكَرْهِ والإِخساسِ
تبّاً لسوءِ صناعةٍ محسودةٍ مضروبةٍ بالقلّ والإِفلاسِ
تلقى الطبيب ولو حوى الاموال لا تبقى لديهِ لآخرِ الانفاسِ

وهي طويلة (اطلب المشرق ١٩٠٧ ص ١١١٦) وقد ختمها بقولهِ:

يبقى الطبيبُ عدوَّ كل الاهل والاحباب بل عدوَّ كلّ الناس

على انَّ مهنتهُ هي التي قرَّبتهُ من رجال الدولة كعُمر آغا يحيي بك ومحمَّد آغا ابن رستم. وانتدبهُ عثمان باشا والي حلب ليرافقهُ الى الاناضول فوصل بمعيَّتهِ الى سيواس سنة ١٧٥٧ وقد ذكرها في شعرهِ

ثمَّ دعتهُ الظروف واضطرَّتهُ الاحوال الى الخروج من وطنهِ في السنة ١٧٤٠ فرحل الى آطنه ثم رجع الى الشهباء ثمَّ خرج منها سائحاً سنة ١٧٥٠ الى اللاذقية فزار

صهيون وذكر آثارها ثمَّ رحل الى حمص واقام فيها مدَّةً (١٧٥٠ــ١٧٥٢) فعاد الى وطنهِ الى ان خرج سنة ١٧٥٧ الى سيواس بصحبة عثمان باشا

ولمَّا كرَّ راجعاً الى وطنهِ لم تطل فيهِ مدَّتهُ فانَّ البطريرك الدخيل سيلفسترس كان نال فرماناً لضبط كنائس الشام ومطاردة الكاثوليك فقدم حلب احد انصارهِ المسمَّى فيليمون فاضطرَّ مطران الروم الكاثوليك السيد مكسيموس حكيم ان يهرب من وجهه الى لبنان . فاخذ يضطهد الكاثوليك فحبس منهم وقتل منهم واراد ان يلقي في السجن ابرهيم الحكيم لتحمُّسهِ للدين ففرَّ من وجههِ وسافر من حلب الى لبنان ومنهُ الى مصر فقضى فيها سنتين ولا نعلم ما جرى لهُ بعد ذلك ونرجح كونهُ قضى نحبهُ في وطنهِ

ولم نطَّلع على سنة وفاة ابرهيم الحكيم . والظاهر انهُ عُمر طويلًا فقد وقفنا لهُ على ابيات كتبها سنة ١٧٨٢ لضريح جرجي بشارة صائغ ختمها بهذا التاريخ :

فأَذكرُ القول في التاريخ «بينكمُ فاجأني الموتُ كي احظى بمولائي»

وكان ابرهيم مقترناً بالزواج فرزقهُ الله اربعة بنين إلَّا انَّهم ماتوا صغارًا وكان اكبرهم يدعى جبرائيل رثاهُ ابوهُ سنة ١٧٤٣

﴿اخلاقهُ وآدابهُ﴾ انَّ الآثار الباقية من قلم ابرهيم الحكيم صورة ناطقة عن حسن طباعه وآدابهِ . وفي مقدَّمة صفاتهِ تديُّنهُ وعراقتهُ في معرفة عقائد النصرانيَّة فتراهُ وهو عاليّ يصف تعاليم الكنيسة وصفاً شائقاً ويتغنَّى بمحامد السيّد المسيح وقلبهِ الاقدس ويصف حبَّهُ الالهي ثمَّ يطري صفات والدتهِ الجليلة ويلتجي الى شفاعتها كأُمّ البنين ويتَّسع بذكر الرسل الاطهار

ومن صفاتهِ صدق معاملاتهِ مع اهل وطنهِ والاجانب من مسلمين ونصارى ونفورهُ من ذوي المراء والنفاق واهل الريبة فيصفهم في شعرهِ وصف الرجل الفاضل الذي لا تعمل بهِ ظواهر الخداع

وقد اكثر في شعرهِ ذكر الزهد والتوبة ما يدلّ على ميل نفسهِ الى العيشة المسيحيَّة الفضلى

امّا أدبُهُ فانَّ آثار قلمهِ تدلّ على رقيّهِ فتجد نثرهُ ونظمهُ في طبقةٍ راضية وإن تسامح في نظمهِ ببعض الجوازات الشعريَّة كسالفيهِ السيّد فرحات والحوري نقولا. وقد جاراهما في الفضل فلم يقتصر على الدينيَّات والادبيَّات بل تعاطى كلّ فنون الشعر وقد ذُكرت لهُ بديعيَّةٌ في مديح السيد المسيح ووالدتهِ ورسلهِ وكنيستهِ (المشرق ١٩٠٧ : ٨٣٦ـ٨٤٢) ولهُ في اوصاف البلاد والرجال ومشاهد الطبيعة اقوال تدلّ على جودة قريحتهِ وبديع تخيُّلاتهِ وحسن ذوقهِ هذا فضلًا عن غزارة مادَّتهِ واتّساعهِ في بسط المعاني. وها نحن نذكر شذورًا من اقوالهِ فنحيل القرّاء الى ما نُشر من منتخبات قصائدهِ في المشرق (١٠ [١٩٠٧]: ٨٣٣ ; ٨٦٠ ; ١٠١٦ ; ١١١٠) وقد وقفنا على قسم من ديوانهِ الذي حصل عليهِ مبتورًا جناب صديقنا الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف فنقتبس منهُ شيئًا . قال متغزّلًا في محاسنهِ تعالى جلّت قدرتهُ (من الكامل) :

يا واحدًا شُرِّفتَ في علياكا ... في قدرةٍ ما حازها إلّاكا
تُفدى بروحي يا قُصارى بُغيتي ... بل مُنيتي أنعِمْ عليَّ بذاكا
وأرِ لحاظَ الصبِّ مَنظرك البهي ... واشفِ عليلًا يرتجي لُقياكا
أُمنُنْ عليَّ بنظرةٍ مترحِّمًا ... قد شاقني رؤياك ثم علاكا
ان هبَّ ريحُ الصُبحِ او ريحُ المسا ... تتلفَّتُ الابصار نحو لِقاكا
تهتزُّ اوراق الرياض بزهوها ... فهي لسانٌ يبدي عزَّ سناكا
ان مالت الاغصانُ في روضٍ فهي ... كأناملٍ تومي وليس سواكا
والوُرقُ مذ تعلو الغصون فانها ... تروي بلذَّةِ شَدْوها أسماكا
والسُّحْب لو رَكِبَ اليراعُ بمتنها ... تُملي بفيض الماء وجه سخاكا
والبدرُ في افقِ السماء مصرّحٌ ... لولاكَ ما عرَفَ البها لولاكا
فالكلّ منك وجودهم فتُنيرهم ... بسنائك السامي وانت كفاكا

أألفاكَ بي بسوادِ قلبي جائلًا لكنَّ عيني تشتهي رؤياكا
أنعم عليَّ بنظرةٍ اذ انني أيِستُ ان لم استشفَّ خفاكا

ومن محاسن شعرهِ قولهُ في مديح قلب يسوع الاقدس سنة ١٧٣٢ (من الكامل) :

يا ايُّها القلبُ الالهي الاقدسُ يا منبعَ الجود الذي لا يُحبَسُ
يا منهل الفيضِ الذي بورودهِ ماءُ الحياة لكلّ من يتقدَّسُ
يا منبر الثالوث والكنزُ الذي خيراتُهُ مَنْ أمَّها لا يَيأَسُ
يا مصدر الجود الذي عمَّ الورى خيرًا تكلُّ الألسُنُ عنهُ وتخرُسُ
انت الوجودُ وانتَ عينُ الجود بل انت الحياةُ لكلّ من يتنفَّسُ
انت الجمالُ بل الكمالُ باسرهِ ولهذهِ الاوصافِ تعنو الانفُسُ
انت الحبيبُ وانت عينُ الحبِّ م والحاوي الكمالات التي لا تُعكَسُ
انت الذي اضرمتَ نار الحبِّ في قلب الذين هويتَ ان يتقدَّسوا
أضرمْ بقلبي هذه النار التي تحيا القلوب بها وتعلو الاروُسُ
ارجوك يا مولايَ قبل الموت ان تُعطي عُبَيْدكَ ما بهِ يتهجَّسُ
ان ترتضي قلبي لقلبك منحةً وذبيحةً حسناءَ لا تتدنَّسُ

ومن تغزُّلهِ في مديح مريم العذراء قصيدتهُ اللطيفة التي يقول فيها (من الطويل) :

لقد عُفتُ كلَّ الحبِّ من دون حبّها فكلُّ ودادٍ ما عدا ودّها دَهَا

فحتّامَ ارجو في الأنام مودّةً وقد زاد وَجدي دونَ أحبابها بِها
فيلوا اليها واملكوا العزّ والعزا فمن كان منسوباً الى عُزّها زها
فقد جُمعت فيها المحاسنُ كلُّها فهيهاتَ ان يحوي محاسِنَها نُهى
واذ لم يكن في الناس نِدٌّ لحسنها ظَنَنّا اباها البدر او أُمّها مُها
لذا حارتِ الالبابُ في حُسنِ وَصفها ولما قَدرَتْ إحصا ثنا فَضلِها لَها
اذا أسفَرَت اخفى ضيا الشمسِ نورُها وأدهشَ أبصار الورى ما بِها بَها
فَيا حبّذا ذُلّي لديها وحبّذا دِماي فلو شاءت لأبذُلُها لَها
هيَ العروة الوثقى وهي الملجأُ الذي يقينا اذا ما الخطبُ من ضدّها دَها

ومن مديحهِ قولهُ من قصيدةٍ رائيَّة طويلة اوّلها (من الطويل):

أَلا ليتَ هذا الدهرَ يصحو من السُكرِ ويصفو لما ابداهُ من كَدَرِ الغَدْرِ

ومن مديحهِ ايضاً الهمزيَّة التي قالها في السيد جبرائيل حوشب اسقف حلب المارونيّ وخلف السيد فرحات (من الكامل):

غنَّت حمامُ الروضة الغنّاء برخيمِ شدوِ ثغورها اللّمياء
وأمدَّها أرَجُ النسيم بنفحةٍ فُضَّت كختم المسك في الارجاء

ومنها:

كنزُ التقى جبريلُ بل مأوى النقا خيرُ الوجود وجودُ كلّ سناء
راعٍ امينٌ حارسٌ متيقّظٌ نَدبٌ كريمٌ لجّة الأنداء

فهو السراج العالي فينا منارُهُ　　مـذ لاح أخفى ظلمة الإغواء
صرحٌ على جبـل الفضيلةِ ثابتٌ　　لا يختفي عن اعين النظراء

وهي طويلة تنيف على ٦٠ بيتاً ختمها بقولهِ:

منّي السلامُ لـك دواماً طالمـا　　صدحَتْ حمام الروضة الغنّاء

ولهُ في مديح بعض السادات (من الطويل):

همامٌ كساهُ اللهُ ثوباً مُدبَّجاً　　من الفضل والآداب والمجد والفخرِ
لهُ تشهد الراوُون في كلّ قبـلةٍ　　وتنشدُهُ الكتّاب في البَدْو والحَضرِ
حَزُومٌ أبتْ إلّا امتداحاً صفاتُهُ　　برغمٍ من الاعداء طوعاً بلا قسرِ
غيُور على الايمان في كلّ حادثٍ　　نصوحٌ سديد الرأي في النَّهي والأمرِ
لك اللهُ من ندبٍ لقد قرن التُّقى　　مع العلم والفَضل المنيف مع الطُّهرِ
أتته المعالي اللاني عزَّت على الورى　　وحنَّت اليـهِ كالقَطيم الى الظئرِ
أيا طالبين السَّير في اثرهِ أقصروا　　فاينَ السُّهى ياقوم من كفِّ مستقري
فتلك اختصـاصاتٌ فللّه ان يشا　　يخصُّ بها من شاء فضلًا بلا شُكْرِ

وقال في الشوق الى بطرس احد اصدقائهِ وهو في الغربة (من الطويل):

إلامَ أُداري الشوق وهو خؤُونُ　　وأُخفي ألتياعاً والدموعُ شؤُونُ
الى الله أشكو من أذَى الدهر لوعةً　　يحنُّ لها القلبُ الخلي ويلينُ
ووحشةَ دارٍ غـاب عنها أنيسُها　　فعدتُ بقلبٍ يعتريهِ انينُ
لكلّ من الأدْواء طبٌّ لـدائهِ　　ولكنّما داء الـفراق دفينُ

ألا أيها الخلُّ الصدوقُ بودّهِ وان غرَّبَتْهُ في البعادِ شطونُ
ابثّك شوقاً ذاب منهُ تجلّدي وحسبي نُحولي شاهدٌ وضمينُ
كأنَّ أُوَيقاتٍ تقضَّت بقُربكم لطائفُ طيفٍ في الصباحِ تبينُ
لقـد نبّهت مني الشجونُ لواعجاً من الشَوق لم تُغمض لهنَّ جفونُ

ومنها:

ألا يا نسيماً علَّ في ساحة النَّوى فأحياهُ عن طلِّ السَّحاب هَتُونُ
تلطَّفْ رعاكَ الله واحمـلْ تحيّتي فانَّك في نقْل السلام امينُ
الى مَرْبع التقوى الى مَنْبع الجدى الى مَنْ فؤادي في حماهُ رهينُ
الى بطرس المفضال والمُخلص الذي تراهُ بصدقِ الودِّ ليس يَمـينُ
هو مؤنسي بل ضوء قلبي فمن تُرى لذلّي على هـذا المُصـاب يُعينُ

وختمها بقولهِ:

اليك شقيقَ الروح بكرًا توجّهت لها من معاني الوَجد فيك فنونُ
فدُمْ يا ابنَ ودّي في ذُرى الخير والرضا مع اليُمْن والاقبال حيثُ تكون
منيعاً شديدَ البأسِ في كل حادثٍ لك السعدُ خِدْنٌ والفلاحُ قرينُ

ومن رثائهِ قولهُ في صديقهِ الشمّاس عبدالله عبده مـات بغية بكرهِ يوسف (من الطويل):

لقد جار دهري وانتضى سيفَ غَدْرهِ فأفنى اصطباري ثم أوهى شبيبتي
وساء بنزع القلب من مهجتي وهل يُرَى لي شخصٌ بعدَ فقـدِ الاحبَّةِ
بموت العزيز القَرْم ذي الهمَّة التي علَتْ في المهمَّات العظامِ بحليـةِ

هو النَّدْبُ عبدالله نصرةُ من أتى وجيعاً كسيرَ القلب بادي الفجيعةِ
فيا ليت شعري هل يُرَجّى لقومهِ سلوٌّ على المفقودِ ام بُرْءُ عِلّةِ
سوى نجلهِ ذاك المفدّى لدى الورى هو يوسف المفضالُ عزُّ الايمّةِ
هو شبلُ ذاك القسورِ القَرْمِ مَنْ نشا بحُسن السجايا والحِمى والمزيّةِ
لئن لم يَفُزْ منهُ بتوديعهِ ولا ببعض كُلَيْماتٍ شفاءٌ لِغلّةِ
فانَّ لسان الحال عنهُ كقائلٍ: «ألايا حبيبي دون اهلي وصحبتي
ويا يوسفُ النجلُ السعيد فان ترى جزاءً لأتعابي وتسكينِ لوعتي
فلا تُغضِيَنْ طَرْفَ العنايةِ والعَنا عن اخوتك اللائي هم رُوحُ مُهجتي»

ومن اوصافهِ الحسنة ما قالهُ في سفرهِ بحرًا في سفينة قلاعيّة قبل ان يشعر بهيجانهِ وتلاطم امواجهِ اذ كان البحر هاديًا والسير مؤاتيًا واديم السماء صافيًا والنسيم عليلًا (من الطويل):

يقولون انَّ البحرَ ساءت مصائبُهْ وقد كثُرَتْ آفاتُهُ ومَعاطِبُهْ
واني رأيتُ البرَّ اقوى شدائدًا وأعظمَ اهوالًا وتُضني متاعِبُهْ
حُزونٌ وأوعارٌ نزولٌ ثمَّ ارتقا وسَيْل وحطٌّ ثمَّ قومٌ تُناهِبُهْ
وفي البحر راحاتٌ كأنَّ الفتى بها ينامُ على مَهْدٍ تساوتْ مناكِبُهْ
تَسير بهِ الركبانُ من فوقِ مَتْنِهِ كأنَّ على سَطْحٍ تعالت جوانِبُهْ
تَهُبُّ عليهِ الريحُ في طيب سَيْرهِ ويا حبّذا سَيْرًا تطيبُ مذاهِبُهْ
ترى سُفُنَهُ من فوقِ صَهَوات ظَهْرهِ كأنَّ قصورًا زيَّنتها حبائِبُهْ

وتحكي قلاعاً طائراتٍ مع الهوا يلاعِبُها ريحُ الصبا وتُلاعِبُهْ
تمرُّ كمرِّ الطير من غير عنوةٍ وتجري كسهمٍ جاد بالحزم ضاربُهْ
فكم سائرٍ فيهِ ينامُ بساحلٍ ويصحو على الشطِّ الذي هو طالبُهْ
يبيتُ ويجري سائرًا غيرَ عالمٍ ولم يَدرِ إلّا طالبتْهُ قوارِبُهْ
وكم تاجرٍ فيهِ رأى بعد فاقةٍ جزيلَ الغنى لمّا اتتْهُ مكاسِبُهْ
وكم سائرٍ فيهِ يلاقي مع المدى عجيبَ امورٍ حين تبدو غرائبُهْ
عليك بهِ يا صاحِ من دون خشيةٍ ترى ما أُحيلاهُ واهنا مشارِبُهْ
ولا تُعطِ أذناً للمجيب بلومهِ فجلَّ الذي لم يَبدُ منهُ معايبُهْ

اجترينا بهذه الامثلة لتعريف ابراهيم الحكيم فانَّ في آثارهِ دليلًا على انَّهُ ساعد ابناء وطنهِ في نهضتهم الادبيَّة التي عمَّت بعدئذٍ انحاء الشام. وذلك ما يشفع ببعض الركاكة التي تُرى في قصائدهِ كما في شعر مواطنيهِ وهم يعيشون في محيط خامل جامد لا يجدون مدارس منظَّمة في وطنهم ترشدهم وترقيهم في الآداب كما انهم لم يأنسوا من الدولة التركيَّة واربابها تنشيطاً على العمل

ولنا في رحلة ابرهيم الحكيم الى لبنان ومصر التي نشرناها في المشرق(١٠[١٩٠٧]: ٥٥٩؛ ٦٨١؛ ٧٠٨) شاهدٌ آخر على فضلهِ في الكتابة. ولهُ هناك نثرٌ بديع تبسَّط فيهِ واعرب عن تفنُّنهِ في الانشاء وحسن الوصف لعواطفهِ الباطنة ولِما عاينهُ في تلك السياحة من البلاد والرجال والمشاهد الطبيعيَّة الفتَّانة والحوادث الواقعة وكلّ ذلك بالسجع اللطيف. فمن قولهِ يصف نوءَ البحر واهوالهُ بعد وصفهِ محاسنهُ وافضالهُ:

« واقبلت الليلة الدهماء، واذا بالجوّ قد تعكَّر وبرد، وابرق وارعد، والبحر أرغى وأزبد، وتعلّى وتمدَّد، واضطرب وهاج، وتزاحمت فيهِ الامواج، وعجّ ولكن ايَّ عجاج، وتطاولت الامطار كالمدرار، وترويع الريح وثار من سائر الاقطار، حتى عدمنا القرار وتقاربت منَّا الاعمار، وتحيّرت الافكار، وترايدت الاحزان والاكدار، وتقطّعت العزائم والاوتار، وعاد كلّ كالمحتار لكثرة الخوف والانذعار، فقضينا ليلةً نابغيّة، بأحزان متنوعة واحتمالات

أبويّة، الى ان طلع الصباح، واضاء بنوره ولاح، ليعرّفنا ايّ ارض شارفنا من البطاح، فأخبرنا بما ينفي الافراح ويزيد الاتراح، حتى عدنا كالاشباح العادمة الارواح . . . ولولم يلفّ النوتيّ القلاع، ويُنزل الشراع، لشردنا الى غير بقاع، وضعنا شرّ الضياع، وبقينا على هذهِ الحال يومين وثلث ليال، مقطوعين الرجاء والآمال، لا نفرق اليمين من الشمال، من شدّة الاهوال. . . »

ولهُ هناك وصف جميل لبيروت ومناظرها ومديح اهلها فيوقفنا على احوال عاصمة لبنان في اواسط القرن الثامن عشر في عهد الشهابيين اذ كان البيروتيّون راتعين في بحبوحة الهناء قبل الجزّار وحكمهِ المشئوم

١٦ الشاعر انطون بيطار الحلبيّ

هذا ايضاً احدى ثمار الدوحة الادبيَّة التي بسطت فروعها في الشهباء في القرن الثامن عشر وكانت باعثةً للنهضة الجديدة التي امتدَّت بعد ذاك الى انحاء سوريَّة

﴿لمحةٌ من اخبارهِ﴾ من العجب العجاب انَّنا لا نجد احدًا من كتبة الشهباء وباحثيها حاول حتى الآن ان يكتب تراجم هؤلاء الجهابذة الذين اولوا وطنهم فخرًا. ومنهم انطون بيطار الذكور فانَّ تاريخ وطنهِ صامت عن ذكرهِ. وكان أملنا من صاحب إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء السيد محمّد راغب الطبَّاخ ان يُدوّن اخباره واخبار زملائهِ النصارى الحلبيين في جملة شعراء القرن الثاني عشر فسها عن ذكرهم فساهُ يسدُّ الخلل في جزئهِ الاخير فانَّ آثار هؤلاء الادباء اوسع وأرقى مما اوردهُ عن كثيرين من المسلمين

فلا يبقى لنا إلَّا ان نعمل النظر في ديوانهِ فنستخلص منهُ لمعة من أخبارهِ

هو انطون بن شكرالله بيطار الحلبي الروم الكاثوليكي. كان مولدهُ في العقد الاوَّل او الثاني من القرن الثامن عشر. عُني منذ حداثتهِ بالآداب وبرع بالكتابة فخدم الدولة العثمانيَّة في دواوينها حتى صار باشكاتباً بين عمَّالها

ويؤخذ من ديوانهِ انهُ عاشر أدباء وطنهِ وامثالهم النصارى تشهد على ذلك رسالة منمَّقة وجَّهها الى الخوري نيقولا الصائغ رئيس الرهبانيَّة الحنَّاويَّة العام جواباً على كتابةٍ مثلها. ولمَّا توفي الخوري سنة ١٧٥٦ قال انطون بيطار يرثيهِ (من الكامل):

أواهُ يا ذا الموت كم أرزيتَنا بمصائبٍ دُهْمٍ كليلٍ حِندِسِ
فاجأتنا ببليّةٍ لم تُحتَملْ وفجعتَنا بالاب نيقولاوسِ
وهدمتَ ركنَ حياتنا بفراقهِ وتركتَنا نلقاهُ موتى الانفسِ
متأسّفين وناحين ولابسين م ردا الاسى والحزنِ اسوأ ملبسِ
سِرْ أيها الابُ السعيدُ الى العُلا متمتّعاً بالمجد ضمن الاطلسِ
وارتع مع الاطهار وامتَمِنْ مع م الحمَل الوديع على الرياض السندسِ
واسعد بحسن ختامٍ تاريخ وسرْ متمتّعاً بنعيم ربّ اقدسِ

وشارك انطون بيطار اهل طائفتهِ بما نالهم من الاضطهاد من اعدائهم وخصوصاً في ايام بطريرك الفوتيوسيين سلبسطرس القبرسي وذويه. وقد ذكر الشهيدَ ابرهيم بن ديمتري بن يعقوب الدلّال المستشهد سنة ١٧٤٢ في عيد الاضحى فرثاهُ بقصيدة مطوّلة اولها (١ (من الكامل) :

يا صاحبي ما بالُ سكّان الحمى كلّا اراهُ والهاً يبكي الدما
أتُرى جرى خطبٌ عظيمٌ ام قضى نَدبٌ كريمٌ أم رأيتُ توهُّما
فأجابني والدمعُ يسبقُ نطقهُ هلّا سمعت بشاهدٍ قد ألما
او ما علمت بانّ ابرهيمَ قد قتلوهُ منهاناً فعاد مكرَّما
ام أنت يا هذا غريبٌ غائبٌ ابداً عنْ أورشليمَ لم تَدرِ بما
إخلَعْ نِعالك ثمّ أقبِل مُسرعاً نحو الضريح ضريحِ من قد عُظِما
فأتيتُ نحو اللّحْد أبصر ما جرى فرأيتُ ما شرَحَ الصديقُ وألمما
قومٌ عيونهمُ تدرُّ بوادراً من حزنهم فكأنّهنّ عيونُ ما

١) وللخوري نيقولا الصائغ في ديوانه (ص٨٠) قصيدة في مديح ذاك الشهيد

ناديتُهم لا تحزنوا بل فافرحوا ان الشهيد بصبرهِ قد نال ما...
نال المواعيد التي ربُّ السما عنها اشار لتابعيهِ مثلما
حيَّا الحَيَا حلباً وروَّى تُربها اذ دمُ ابراهيم فيها قد همى
هذا الذي ضاءت كواكبُ فضله فلذاك عقلُ ذوي الغباوة أظلما
ما مات خوفاً من عذاب جهنَّمٍ او رغبةً ان يقتني ملك السما
بل مات شوقاً في محبَّة ربّهِ ذاك الذي في عشقهِ قد أُلِمَّا

الى ان قال:

طوباهُ اذ حاز الإهانة ههنا وغدا بملك الطاهرين مكرَّما
طوباك ابراهيمُ يا من قد علا فوق العلى متشرّفاً متعظما
طوباك فأسمع من اتى متوسّلا كن لي شفيعاً في النشور تكرُّما
يوماً أُنادي مادحاً ومؤرّخاً يا شاهداً بالموت قد ورثَ السما

ولمَّا اتى جنّاديوس مطران الروم الى حلب واغتصب كنيسة الكاثوليك سنة ١٧٦٦ قال انطون يهجوهُ (من الكامل):

أَذْروا الدموع على المصاب الجاري فلقد اتانا من سماح البارى
أبدوا نحيباً لم يشاهَد مثلهُ مع كثرة الاصوام والاسهارِ
قد حلَّت الارزاءُ في ساحاتنا بسماجة من كثرة الاوزارِ

وهي في نحو مئة بيت وختمهُ بقولهِ في الظالمين:

وَسْطَ الجحيم مقامُكم ابداً الى دهر الدهور وآخر الأَعصارِ

وكان انطون بيطار مقترناً بالزواج ماتت زوجتهُ الاولى لوسيًا سنة ١٧٥٥ فرثاها بقصيدة طويلة تنبئ برقة عواطفهِ اوّلها (من الكامل) :

يا دهرُ أقسمُ بالكليمْ رفقاً بذي القلب الكليمْ
لم يبقَ لي غير الذي ابقيتَ من عظمٍ رميمْ

ومنها :

رحلَت وما نظرتْ الى حالِ اليتامى واليتيمْ
بل احدقَتْ نظرًا الى النهجِ الموْدّي للنعيمْ
فكأنّما زهدَتْ بنا وصبَتْ لمغناها القديمْ
والله يدعو من يشا الى النعيم المستديمْ

واقترن بعدها بزوجة اخرى توفّاها الله بعد ستّ سنين سنة ١٧٦١ فرثاها ايضاً. وفي ديوانهِ اشارة الى بعض افراد اسرتهِ في مقدَّمتهم ابوهُ وامُّهُ لهُ فيها ابيات في تاريخ وفاتها. وكان لهُ عمٌّ في اللاذقيَّة اسمهُ نعمة الله بيطار قد هنَّأهُ ابنُ اخيهِ بولد ابنهِ يوسف سنة ١٧٣٧. وقد وجدنا في بعض المجاميع ابياتاً منسوبة الى ميخائيل بيطار الحلبي ولا شكَّ انهُ من انسبائهِ. ولم نقف على سنة وفاة انطون لكنهُ عاش الى ما بعد السنة ١٧٨٠ كما يظهر من بعض تواريخ ديوانهِ

﴿ديوانهُ﴾ وقفنا في حلب على نسخة من ديوانهِ منذ اربعين سنة فاستنسخناها واذا هي تحتوي على نيّف وعشرين قصيدة او قطعة شعريَّة في معاني الشعر المختلفة من مديح ورثاء وهجو وتهنئة واوصاف وتواريخ. فمن مديحهِ قصيدتهُ في الوزير ابي بكر باشا الذي قدم حلب سنة ١١٧٥هـ (١٧٦١م) فتزيَّنت المدينة بقدومهِ (من الكامل) :

قِفْ في رُبى حلبٍ على أكامها حيِّي منازلها بعَرْف خُزامها
بلدٌ اطاب الله حسن مناخها فزهت على ارض العراق وشامها

قد زانها ملكُ الملوك بزينةٍ كُتبت بشائرُها على اعلامها
بصحيفة الزُهْرا ورَسْم عُطاردٍ والمشتري يُملي على رسّامها
سرَّ القلوبِ فأكثرتْ خير الدعا صَحّ الدجى عطفاً على ايّامها
لاسيما اذ خصّها بمدبّرٍ يعطي الممالك رفعةً بنظامها
اعني ابا بكر الوزير فكم سمَتْ حلبٌ بهِ تعلو السما بمقامها
سعدتْ بهِ مذ حلَّ طالعَ بُرْجها فغدا دوامُ السعد من أحكامها

وهي طويلة. ولهُ رائيّة في مديح سعدالدين باشا افتتحها بقولهِ (من مجزوء الكامل):

للسَّعْد في حلبَ البشائرْ ولقد بدا منها اشائرْ
قرَّت عيونٌ بعد ان للنجم قد كانت تساهرْ
وتعوَّضت بدل المذلّة م والهوانِ بخير ناصرْ

وختمها بهذا التاريخ:

أرّختُ لا ريب يا للسعد في حلبَ البشائرْ

ولانطون بيطار جملة تواريخ قالها في امور جرت في أيامهِ منها في وفيات بعض السادات كالسيّد اغناطيوس جربوع رئيس اساقفة حلب على الروم الكاثوليك سنة ١٧٧٦ وبعض اصدقائهِ كفتح الله بن شكري ارقش (١٧٥٥) وجرجي قز (١٧٥٨) ومنها في مواليد صغار او في عقاب بعض الاشقياء كباقي الدالي باش قاتل الحجاج (١١٨٣) قال فيهِ (من الخفيف):

انَّ باقي الشهيرَ بالآفاقِ قد سقاهُ كأسَ المنيّة ساقي
قيل اين المصيرُ منهُ فأرّخْ قلتُ لا شكَّ في جهنّمَ باقي

وكذا قولهُ في شنق الشقي اليهودي كبرئيل العواني(١١٦٤هـ)(من المجتث) :

ابن الهلاك دَعَوْهُ الى الهلاك المؤبَّدْ
في النار من غير شكٍّ تاريخهُ قُلْ تَخَلَّدْ

وارّخ رجوع السيد محمّد طه زاده الشهير الحلبي وكان نُفي ظلماً سنة ١١٨٥ (من الكامل) :

ظنَّ العدى ان لا رجوع لغائبٍ مذ أظهروا ما في الضمائر كامنــا
فــازداد اجلالًا وعاد فــأرّخوا ها ردّهُ الله بخيرٍ آمنــا

وأرّخ عمارة بيت جديد (من الكامل) :

أكرم بهِ بيتاً بأعلى سفحــةٍ فيهِ انتعاش الروح باللذّاتِ
فهو كفردوس السما ارّختهُ مأوى السرور وجامع النُّزهاتِ

ولشاعرنا ايضاً موشح قالهُ في مولد الياس انطون ابن جرجس عائده من زوجتهِ ساره بعد ان لبثت عقيماً عدَّة سنين سنة ١٧٥٢ (من الرمل) :

يا لَكَمْ جاد لنا ربُّ السما نعماً وافت بروح القُدُسِ
فلــهُ الحمدُ على مــا انعما من غلام بهجةَ الدنيا كُسي

دور

حينما الربُّ لسارا قــد نظَرْ ولدت طفلًا بــديعاً لا نظيرْ
وكذا راحيلُ من ربّ البشَرْ جاءهــا يوسفُ بالخير بشيرْ
أبشروا انَّ ليالينا غُرَرْ وهب الله لنا الظبيَ الغريرْ

انَّ للهِ تعالى حكماً تُشرق الشمس بداجي الحندسِ
ما عليهِ من عسير كما وهب النطقَ لسان الاخرسِ

دور

لا تقل فيما جرى كيف ودَعْ من لهُ الامرُ وكن انت وَديعْ
ليس أذناي ثقيلاتِ السمَعْ فاطلبوني تجدوا قال السميعْ
هاهو اليوم الذي الربُّ صنَعْ فافرحوا فيهِ فذا خير الصنيعْ
واشكروهُ عزَّ قلباً وفماً أن من يحمدهُ لم يَيأسِ
بارئ الخلق اليهِ المنتهى موجد الكونين محيي الأنفسِ

وهي عدّة ادوار تشعر بتقى قائلها وجودة قريحتهِ

امّا آثارهُ النثريَّة فنذكر منها هنا مثالًا وذلك جوابهُ الى الخوري نيقولا الصائغ الذي اشرنا اليهِ :

يقبّل البسيطة عبدٌ بين يدي الاب العام المحترم الخوري نقولا شرَّفه الله تعالى أولى ما نطقت بهِ ألسنة الاقلام البديعة، ونبتَ في رياض الافهام زهر بديعة. واستهلّت بهِ ابكار فرائد المعاني، وتطرزت به صدور الدفاتر بذكاء ابن هاني، شكرٌ لمن وشّحنا ثوب ايضاح معانيهِ اللطيفة، وشرَّفنا بابداع علومهِ الشريفة، وهذَّبنا حسنُ النسق منهُ بنزاهتهِ عن هذه الدنيا الدنية، وادبنا ببراعة الطلب منهُ واستعانته عن يبلغ منهُ المنية، وحمدٌ لمن احسن الاتباع باشتراكهِ في فضايل الاباء الكمَلين نوادر الحقيقة. ومدحٌ لمن رصع تسجيع اوزانه بدرر التشبيه ومساواة اهل الطريقة. اعني بهِ من أهديه تقبيل النسم وهو الاب القانوني المكرم. والسيد الرئيس المفخم ركن الملّة الملكيّة، والمعلم البار المتشرف بالدرجة الكهنوتيَّة، من شيَّد اعمدة الدين، واهدي بعلومهِ كثيراً من الضالّين، الذي نظم هاتيك الدرر من كلامه، ونثر جواهر العقيان من نظامهِ

وبعد المعروض لدى الحضرة العلية، والطلعة البهية، اني في ابرك وقت واشرف ساعة وردت علينا عزيزة مشرفتكم الشريفة، وفريدة الفاظكم اللطيفة، فلثمنا ختامها وفضضناها، وفهمنا رموزها ومغناها، فكانت احلى من العافية للجسم السقيم، والذّ من السِلْم بعد العذاب الاليم. فيا لها من جواهر اذا مسَّها مفتقر الى البيان اغناه جوهرها، وخرائد جمعت بين الحسن والاحسان منظرها طيّبٌ ومخبرها

كتبتُ فلولا ان هذا محالٌ وذاك حرامٌ قستُ خطَّك بالسحرِ
فان كان زهرًا فهو صنعُ سحابةٍ وان كان درًّا فهو من لجّة البحرِ

فحلّيت لساني بعقود انشائها الدرّية، وأطلعت في فلك المسامرة كواكبها الدرّيّة، ودعيت لكم بدوام البقاء، وعلو الارتقاء، فحيّاكم الله واحياكم. وجعلنا لديكم من المتّمين، وقرننا في زمرتكم مع جملة الآباء القديسين

ولكن يا سيدي من اين للعبد ان يتشرف لمكاتبة مولاه، ويفتخر بتذكره على من سواه، وما هذا الّا من لطف المخدوم على الخادم، ومن شيم اخلاق اهل المكارم :

تذكّرني مولاي لله درُّهُ وشرّفني حتى حويتُ المراتبا
وكاتبني المولى بأبهى كتابةٍ فكنتُ لهُ عبدًا فصرتُ مُكاتبا

وهل يمكنني يا سيدي ان املي كتاباً، او اردّ جواباً، مع اني من المبتدئين العائزين، وفي قوة اهل الفصاحة معدود من جملة العاجزين، وما اظنّ جنابكم الّا قصدتم تشجيعي، لتختبروا تسجيعي، وتهدوني الى الطريق المستقيم، الذي حضرتكم عليه مقيم. فمن اين لي ان يتفسر هذا المنام، ويا حبذا ان صحّت الاحلام، ولكن الامر فريد، والسير في طريقهِ بعيد:

تمنيتها بالرقمتَين ودارُها بوادي الغضا يا بُعد ما أتمنّاهُ

وارجو من الله جل شأنه ان يمنحني التيسير، وحاشا ان يكون عليهِ امر عسير، ومع هذا كلما حاولت ان ارد لكم جواب ينعقد لساني، ويقصر عن السير في هذا الميدان عناني، لعلمي انكم عمدة الفصحاء والمتكلمين، وكنز الناظمين والمتعلمين،

الى ان سهل الله ببلوغ الامل ، ورفعتُ عن جنـاني برقع الخجل، فعجبت من نفسي كيف تجرَّأت واهديتُ الصدف الى معدن الدُرر، وقابلت بنفثة ماء بوادر المطر :

أنّى أقابلُ بحرًا فاض لؤلؤه بنفثةٍ من غدير الماء فيّاضِ
ام كيف أُرفلُ في ثوبٍ به قصَرٌ من الفصاحة رثّ غير فضفاضِ

وما تجرّأتُ على هذا الامر الّا لعلمي انكم اهلٌ للكرم، وان العذر يقبل عن زكي الشيم ، وان تجـد عيباً فسُدَّ الخللا، ثم المبدي لجنـابكم انني حثثتُ قريحتي الجامدة ،واضرمت نار فكري الخامدة ، لكي اتشرف في مديحكم بقصيـدة من نظمي لعلمي ان ذكركم يهذّبها،ومديحكم يؤدبها، وان كنت لست من فرسان هذا الميدان ، ولا من قليدة هذه العقيان، ولست من الخيل السابقة، ولا الجياد اللاحقة. لكنني اتبعت قول القائل :

اذا منعَتْك اثمارُ المعالي جناها الغضّ فاقنع بالشميمِ

وها عذري اوضح من الشمس المضيّة ، اذ انني لا اعرف شيئاً من العلوم العربية ، سوى بعض العروض الاندلسية وقليلًا من الخزرجية ، وما عدا هذا وعزيز حياتك يا سيدي لم اقرأ شيئاً على استاذ انمـا اهوى مطالعـة الكتب كثيرًا ، واجهدُ ذهني لكي افهم منها قليلًا، وخاطري ابو عذرهِ ،ومقتضَب حلوه ومره، فاعذرني يا سيدي واغفر لي عن جرأتي هذه وسامحني بما نطقت في مديحكم . وما وفيت حقهُ حين قلت:

حيَّا الحَيا لِلَيـالٍ في رُبى حلبِ قضيتها مَرَحاً في غاية الطربِ
مرّت بنا كوميض البرق مسرعةً وما انقضى وطري منها ولا اربي

الى ان قال :

فاقت بفردوسها كلَّ البلاد كما قد فاق مدحي لنيقولاوس النُّجبِ
الناشر العلمَ نشرَ الزهد مع رهبٍ والطاويَ الجهلَ طيَّ الكبر والعجبِ

مذ قد براهُ الـه الخلق منفعـةً بصدق رشدٍ لاهل الغيّ والكذبِ
اعطاهُ من روحهِ نطقاً وشرّفـهُ او ما تراهُ انار الكون بالخُطَبِ
اعزّه الله بالكهنوت تكرمـةً بروح قدسٍ عليهِ منهُ منسكبِ
فريدُ هذا الورى علماً ومعرفـةً عـلّامة الملّتين العُجم والعربِ
حديدُ ذكرٍ بسيطُ العلم وافرهُ سريع نظمٍ بديهٍ كاملُ الادبِ
اللوذعيُّ الاريب النّدب مركزهُ اعلى العلى يزدري بالسبعة الشهبِ
تخذتُ مدحتهُ دون الورى شرفي دهرًا ومدحُ سواه ليس يجمل بي
وجاء مدحي لـه نقشاً على حجرٍ اضحى كوضع الهنا في موضع النُّقبِ
طيٌّ ونشرٌ وانشاءٌ لـه وكـلا للغيِّ والرشدِ والايمان والرهبِ
روى اراضي قلوبٍ مَحْلةٍ بندى علمٍ ووعظٍ وزهد منه كالسحبِ
اذكى مصابيح دين الحق ثم هدى الى الهُدى بضياها قلبُ كل غبي
مدحي تشرّف في أبن السادة النُّجُبِ م أبن السادة النجب بن السادة النجبِ
يا ذا التقى يا فريـد العصر يا املي هل ملتقى انني في غاية الوصبِ
من نعمة الله قـد وافيت ذا نعمٍ يا خير إبنِ ابٍ من خير إبن أبِ
رفعتَ رايات امر الله منتصبـاً لـنشر دينٍ بعـلم غير منشطبِ
كم قد اضا منك ديواناً بنور تقىً أنرتَ فيهِ دجى الآثام والنوبِ
وان يَكُنْ للسوى كتب ملفّقةٌ فـان في الخمر معنًى ليس بالعنبِ
خذها اليك وقد جاءت مطوقةً بعِقـد درٍّ مديح فيك منتخبِ

مني عليك سلام الله ما طلعت   شمسُ النهار ولاحت سبعة الشهبِ
وما ابتدى بعد حسن الختم منشدُها   حيَّا الحيا لِلَيالٍ في ربَى حلَبِ

١٧ مكرديج الكسيح

﴿ اخبارهُ ﴾ هذا ايضاً من جملة اهل الشهباء الذين نبغوا في القرن الثامن عشر ويُعَدّ من اركان النهضة الادبية التي انبعثت في ذلك العصر ومن الشهباء انتشرت في باقي انحاء سورية ولبنان ثم في القطر المصري

اخبار مكرديج الكسيح كأخبار رصفانهِ السابق ذكرهم لا تزال مطويّة في زوايا النسيان . فدونك كلّ ما امكننا ان نستخرجهُ من ضمن كتاباتهِ ومكاتبات اهل عصرهِ

هو مكرديج بن عبدالله المخلّع او الكسيح وُلد في كلّس بلدة قريبة من حلب في اواخر القرن السابع عشر وانتقل في حداثتهِ الى الشهباء وكان ارمنيَّ الاصل كاثوليكيَّ المذهب ومكرديج اسم ارمني معناهُ يوحنّا المعمدان . امّا اسمهُ الكسيح او المخلّع فالظاهر انهُ لقبٌ يدلُّ على مرضٍ مزمن اصابهُ في قسم من حياتهِ اضطرهُ الى السكون في بيتهِ دون ان يمنعهُ عن الدرس والتأنيف . وقد عمّر المترجم طويلًا ولم نقف على سنة وفاتهِ والمرجح انها وقعت في القسم الثاني من القرن الثامن عشر

﴿ آدابهُ وعلومهُ ﴾ كان مكرديج متضلّعاً من آداب عصرهِ بارعاً في العلوم . فوجد في سقَمهِ باعثاً لخدمة معاصريهِ بالتآليف . وقد سردنا قائمة تآليفهِ في كتابنا المخطوطات العربيَّة لكتبة النصرانيَّة (ص ١٩٥ — ١٩٦) . فمنها مصنَّفات تدلُّ على عظم تقواه وورعهِ مثل كتابهِ ظلّ الكمال في تثقيف الاعمال في فضائل السيّد المسيح وتعاليمهِ . وكتابهِ تردُّد النفس مع الله . وكتابهِ التبر المكنوز لمنفعة الكاروز وضعهُ لافادة الواعظين . وكتابهِ الطبّ الروحاني في الندامة والاعتراف . وخصوصاً كتابهِ

مصابيـح الاحكام الجليَّة في حـلّ المشكلات الانجيليَّة حلّ فيهِ ١٥٠ مشكلاً كتابيًّا

ولهُ تآليف أُخرى ادبيَّة منهـا كتابهُ ريحانة الارواح وسُلَّم الآداب والصلاح أَلَّفهُ السنة ١٧١٨ في ١٢ فصلاً ضمَّنها حكماً في الفضائل الادبيَّة والزهديَّات نقلها عن الاسفار المقدَّسة والآباء والفلاسفة والشعراء ما يشهد على سعة معارفهِ وكثرة مطالعاتهِ

وقد أحبَّ ايضاً ان يخدم اللغة العربيَّة بتأليف كتاب جليل واسع الموادّ دعاه كتاب الاهرامات يبلغ في نسخة مكتبتنا الشرقيَّة نيِّفاً وسبعمائة صفحة قسَّمهُ الى ثلثة اهرام تشبيهاً باهرام الجيزة في مصر . افرد الهرَم الاوَّل للمفردات العربيَّة عن السماء والموجودات العلويَّة والافلاك والمظاهر الجوّيَّة والمواليد الطبيعيَّة والعالم المدَني في ٩٣ باباً . وخصَّ الهرم الثاني باسماء آلات الصنائع والمهن وادوات الحروب في ٤٧ باباً . وروى في الهرم الثالث المفردات المختصَّة بالعلوم اللغويَّة والادبيَّة والفلسفيَّة والرياضيَّة والطبيعيَّة والفرَق الدينيَّة ومساجدهـا وفي عواقب الانسان والعـالم الآخر كجهنَّم والشياطين الخ . فهذا التأليف جدير بأن يُنشر بالطَّبع لكثرة فوائدهِ

﴿ رسائلهُ النثريَّة وشعرهُ ﴾ شُغِف مكرديج الكسيح بالكتابة وقد تُروى لهُ رسائل مسجَّعة منمَّقة كرسائل ادباء عصرهِ التي سبق لنا ذكر بعضها في التراجم السابقة وقد اطرأها الخوري نيقولاوس الصائغ في بعض كتاباتهِ التي وجَّهها اليهِ سنة ١٧١٠ وطُبعت في آخر ديوانهِ (٢٨٧ــ٣٠٠) ويدعوهُ هناك « بتاج الادباء الراغبين وسراج النجباء الطالبين الشماس مكرديج الكسيح جواباً لكتابٍ ارسلهُ اليـهِ» ويعظّم في رسالتهِ فضل الكسيح ويشيد بسعة علومهِ وآدابهِ فيمدحهُ نثرًا وشعرًا مديحًا بليغاً ويعزّيهِ بوفاة اخيهِ يوسف ويحضُّهُ على الصبر في اوجاعهِ ويذكرهُ بفضائل والدهِ التي ورثها ليتشبه بها في حياتهِ . وهي رسالة بديعة تبلغ ٢٠ صفحة

ولمكرديج الكسيح شعر روى هو منهُ شيئاً في كتابهِ ريحانة الارواح فمن ذلك قولهُ يتشوَّق الى السماء (من الطويل) :

أَثِيرَ ٱلسَّمَاءِ هَل إليكَ طريقَةٌ أصيرُ بها مع غايتي ومُناني
اليك مُناني ظَلَّ قلبي مُشوَّقاً ولكن خُطائي في قيود خطاني

وقال في ما يُصيب النفس من تقلّبات الدهر (من الطويل):

قد كانتِ النفسُ كالفِردَوسِ مُزهِرَةً واليوم بورٌ وُحوشُ الجنِّ تأويها
تبّاً لطبعٍ غدا كالشوكِ مَنبَتُهُ ان مالتِ النفسُ يوماً ظلَّ ينكيها

وقال يصف شدائد الحياة (من الطويل):

لقد خُضتُ دون الحقِّ كلَّ بليَّةٍ يهيمُ بها قلبُ الزمان على مثلي
وذقتُ مرار الدهر والموت دونهُ ودُستُ شواظ العذلِ يفترُ عن شغل
وهِمتُ بدين الله والهولُ ضمنهُ وفيهِ أرى الاهوال تعنو الى قتلي

وقال ايضاً يصف بلاياهُ (من الطويل):

سقيمٌ سقاهُ الدهرُ كلَّ بليَّةٍ فأضحى عديماً في مثالٍ مُنَفَّسِ
سطيحٌ على الغبراء تحت قبابهم محيطٌ بأفلاكِ العليِّ تفرُّسي

ولهُ ايضاً في منفعةِ التجارب (من الطويل):

لا تخشَ من رَيب الزمانِ فانهُ دليلُ انتخاب بل تهلَّلْ اذا نَزَلْ
وقبلكَ ابراهيمُ فرَّ ويوسفٌ ترامى بأمرِ شاءَهُ ساكنُ الأزَلْ
وكم من كرامٍ قد أُهينوا وشُرّدوا كَبَيتِ عَروضٍ قد تخبَّلَ وانخزَلْ(١

(١) اشارة الى ما يقع في شعر بعض الكتبة من الجوازات غير المأنوسة كالخبل والانخزال

وقد قال في اختيار الاصدقاء (من الطويل) :

تخيّرْ صديقاً مثل ما وافقهُ الذي يقولُ إلهُ العرشِ ضمنَ الشريعةِ
فربَّ حقيرِ الشأنِ يُنجِي وشاهدي عُوَيدٌ (١ حمانا من جحيمٍ تلظّتِ

فهذا بعض ما بقي من نظمهِ ولعلَّ عند أدباء الحلبيين ما هو اوسع من ذلك فرويناما وقع منهُ تحت يدنا

١٨ الشماس عبدالله زاخر

لم يشتهر عبدالله زاخر بنظم الشعر وانّما كان احد أدباء الشهباء الذين ساعدوا بنفوذهم وقلمهم على النهضة الجديـدة التي نشأت بين نصارى حلب لتعزيز اللغـة العربية واعلاء منارها

﴿ نبذة من اخبـاره ﴾ افادنا عبـدالله زاخر في مذكرة مخطوطة عن اصله واخباره(٢ نقتطف منها ما يلي : هو عبـدالله بن زخريّا بن موسى وقـد لُقّب بالزاخر اشارةً الى اسم ابيهِ وتنويهاً بوفرة تآليفهِ . وهو ابن عمّ الخوري نقولا بن نعمة ابن موسى . قُتل جدُّهما في حلب باس والِيها لوشايةٍ وشى بهِ اعداؤُهُ اليهِ فانتقل ولداهُ زخريّا ونعمة الى حماة لائذَين باقاربهما وهناك وُلد لهما نقولا بن نعمة وعبدالله بن زخريّا او زاخر . كان مولد عبدالله سنة ١٦٨٠ فنشأ في حماة ثم عـاد بهِ والدهُ الى حلب في اوائل القرن الثامن عشر فدخل مدارسهـا وبرع في دروسهِ ثمّ تخرّج على الشيخ سليمان النحوي من ادباء الاسلام مـع غيرهِ من النصارى كجبرئيل فرحات وابن عمّهِ نقولا وعبدالله قرأالي وغيرهم

وكان اهل عبدالله من الروم الارثذكس وانّما تقرّبوا الى الكثلكة بما جرى

١) ويريد بالعُوَيـد عود الصليب الذي بـهِ حصل الخلاص للعالم من نير ابليس
٢) راجع مجلّة اصداء الشرق (Echos d'Orient) ١١ [١٩٠٨] : ١٨٥٧١ و٢٧١

وقتئذٍ من الحركة الدينيَّة في حلب بهمَّة المرسلين . وتفرَّغ عبدالله لـدرس التعاليم الدينيَّة واجتمع ببعض المرسلين الذين وطَّدوهُ في الايمان الكاثوليكي وقد اشتغل معهم في حلب اوَّلاً ثمَّ في لبنان لاسيا الاب بطرس فروماج اليسوعي الذي كان يعرض على عبدالله تآليفهُ فينقّحها . الى ان وقع بينهما نفور بسبب الراهبات الحلبيَّات الباسيليَّات اللواتي اتَّخذنَ اليسوعيين اوَّلاً كرشدين وتبعنَ قانون القديس فرنسيس دي سال مع غيرهنَّ من المترهّبات ثمَّ فُصلنَ عنهنَّ بأمر الكرسي الرسولي ليحافظنَ على طقسهنَّ وكان عبدالله زاخر اكبر الساعين بذلك . وقد قضى السنين الاخيرة من حياتهِ في دير مار يوحنَّا الصابغ في الشوير زاهدًا بالدنيا وهناك أَدار مطبعتهُ الشهيرة فنشر فيها بالطبع المتقن عدَّة تآليف سردناها سابقاً مع تاريخ تلك الطبعة (المشرق ٣ [١٩٠٠]: ٣٥٩ـــ٣٦٢) الى ان توفَّاهُ الله في ١٠ آب من السنة ١٧٤٨

﴿ آدابهُ وتآليفهُ ﴾ قد عدَّدنا في كتابنا المخطوطات العربيَّة لكتبة النصرانيَّة (ص١٠٨ـــ١٠٩) تآليف الشمَّاس عبدالله زاخر ومعظمها كتب لاهوتيَّة جدليَّة أثبت فيها حقائق الدين الكاثوليكي وردَّ على من نكرها او ناصبها من ارمن ويعاقبة ونساطرة وبروتستان ولاسيا من روم ارثوذكس فتتبَّع اضاليلهم وفنَّدها تفنيدًا قاطعاً ينبئ بمعارفهِ الواسعة للاسفار المقدَّسة ولاعمال الآباء وتاريخ الكنيسة . وهي تنيف على عشرة تآليف ضخمة . ولهُ ما خلا ذلك تفسير الايساغوجي لاثير الدين الابهري فدعاهُ شرح الاصول الابهريَّة وقد عُني ايضاً بتعريبات او تصحيحات شتَّى لكتب روحيَّة

﴿ شعرهُ ونثرهُ ﴾ يُنعت عبدالله زاخر بالشاعر في بعض التقاريظ التي قيلت في وصفهِ على أنَّنا لم نقف لهُ الَّا على ابيات نظمها جواباً على ما كتبهُ اليهِ الخوري نقولاوس ابن عمّهِ وكان عبدالله بامهُ مرضهُ فاهداهُ فنجان قهوة فشكرهُ الخوري بهذه الابيات وصحبها بهديَّة:

لقد عمَّت نوالُك باختصاصٍ عليلًا خصَّهُ الداء الاليمُ
فكان دواءَ دائي منك قهوى لها حُسْنٌ بهِ يَشفى السقيمُ
فواصلُك الجزاء وليس فضلٌ لنا والفضلُ فضلكمُ العميمُ

واغتناني الهي الآنَ عنها لانَّ الامرَ ما قال الحكيمُ
شرورٌ لا تدومُ اجلُّ خيرًا من الخير الذي هو لا يدومُ

فاجابهُ عبدالله زاخر بهذه الابيات (من الوافر) :

لقد وافى عقيمَ الفكر نظمٌ بديعٌ دونهُ الدرُّ النظيمُ
واسبغتَ الجزاء وليس فعلٌ يحقُّ لهُ جزاؤكمُ العظيمُ
ولكنَّ الكريمَ بهِ طباعٌ سموُّ المجد والبذلُ الجسيمُ
فشكرًا عدَّ ما اوهبتَ حبًّا وحمدًا كلّما هبَّ النسيمُ

امَّا نثرهُ فيمتاز بسلاستهِ وانسجامهِ وقوَّة برهانهِ . ولا تخلو مقدَّمات كتبهِ من مسحة من البلاغة حلَّاها بالسجع ومنها يُعرف اقتدارهُ على الانشاء البديع

١٩ نعمة بن توما الحلبيّ

هذا ايضًا احد نجوم تلك الثريَّا النصرانيَّة المنيرة التي سطعت ضياؤها في الشهباء في القرن الثامن عشر فاستوقفت نظر المتشوّقين لنورها

سبق حضرة المنسنيور جرجس منش فكتب فصلًا ممتعًا في المشرق (٥[١٩٠٢]: ٣٩٦—٤٠٥) روى فيهِ اخبار نعمة الله بن توما الحلبي نقتبس منهُ المعلومات الآتية :

﴿ اصلهُ ومنشأهُ ﴾ هو نعمة بن الخوري توما الحلبي . وُلد في الشهباء في اواخر القرن السابع عشر وهو من طائفة الروم الملكيين وكان ابوهُ الخوري توما احد كهنتهم يُعرف بفضله وتقواه . والمرجح انهُ عدل مع اهل بيتهِ الى الدين الكاثوليكي في ايَّام البطريرك اثناسيوس دبَّاس . وقد حصل وقتئذٍ ارتداد كثيرين من الروم الى الكثلكة

فترعرع الفتى نعمة ومال الى درس العلوم برغبةٍ واتقنها تحت مراقبة معلّمين وطنيين ثم احكم فنون العربيَّة من فصاحة وبيان وبديع وشعر على الشيخ سليمان النحوي فبرع في الكتابة

﴿ سياحاتهُ وتأهلهُ ﴾ دخل نعمة في جهاد الحياة ولقي مع مواطنيهِ المرتدّين الى الكثلكة عَنَتاً وشدائد زادتهُ رسوخاً في ايمانه · وتعاطى اوّلًا اعمال التجارة وخرج الى انحاء الاناضول فلم يحمد اخلاق اهلها ومعاملاتهم ومما قالهُ يهجو مدينة طوقات (من السريع):

وبلدةٍ ما شامَها ناظرٌ مع اهلها الّا وعنها نَفَرْ
كانّما الاسطبلُ تكوينُها واهلها فيهِ جلوفُ البَقَرْ

ثم ساح مرَّةً أخرى الى اصقاع الشام واجتاز بيروت ووصف احوالها وزار قنصلها الفرنساوي وهو يومئذٍ الشيخ نوفل الخازن الذائع الشهرة فتحفَّى بهِ وبالغ في اكرامهِ كما يلوح من رسالتين وجَّههما نعمة اليهِ شاكرًا لهُ جميلهُ · وفي هذه السياحة قصد زيارة بلدة صيدنايا ليكرم في ديرها صورة العذراء العجائبيَّة وقد نظم في مديحها شعرًا لطيفاً من ذلك قولهُ (من الرمل) :

أَنخْ حصنَ البِكرِ وأُدخل ضارعاً باتّضاعٍ برفعِ المتَّضعا
لُذْ بها تحظى بنصرٍ عاجلٍ فاز مَرْءٌ لحِماها أسرعا
كم نجاها عائمٌ في اثمِهِ واتاها قاصدًا مستَشفِعا
فتزكّى من ذنوبٍ جمَّةٍ بانسحاقٍ لبُّهُ قد صُدِعا
فاليكِ يا ملاذَ الخلقِ قد جئتُ ارجو العفو منك طمعا
فلَكَمْ مثلي اثيمٌ قد حظي منكِ بالغفران لمَّا ضرعا

وكنّا وقفنا سابقاً على رحلة احد الحلبيين من الشهباء الى القطر المصري (المشرق

٥[١٩٠٢]: ١٠٣٠) وكانت غفلًا من اسم كاتبها فظنّنّا انها لنعمة بن توما ثمَّ تحقّقنا بعد ذلك انها لمواطنهِ ابرهيم الحكيم فنشرناها باسمهِ (المشرق ١٠[١٩٠٧]: ٥٥٩الخ)

ثم رجع نعمة الى وطنهِ حلب وتأهّل فيها ورزقهُ الله ولدين جبرائيل وتوما لولا انَّ المنيَّة اخترمت ابنهُ جبرائيل في ريعان شبابهِ فبكاهُ ونظم فيهِ المراثي اللطيفة كقولهِ (من مجزوء الرمل) :

يا الهي حانَ حَيْني حينما الصبرُ فُقِدْ
يا الهي ضاق ذَرْعي وخلا مني الجَلَدْ
يا الهي ضاع رُشدي واذّكاري قد خمَدْ
غاب جبرئيلُ عني يا لكَرْبي وشَرَدْ
آهِ كم اوسَعَني النا سُ عليهِ من حَسَدْ
كم وكم من قائل ذا م الشبلُ من ذاك الأسدْ
يا الهي هل يُرجّى منهُ عَودٌ او يُرَدْ
انَّ هذا لَمُحالٌ لا يرجّيهِ احدْ
ليس لي الّاك يا مَن عندهُ حلُّ العُقَدْ

وزاد الهُ بابتعاد ابنهِ توما عنهُ مهاجرًا الى القطر المصري سنة ١٧٥٥ فقال ابوه مضمّنًا (من الطويل) :

ولمّا قضى التوديعُ فينا قضاءهُ وزفّت مطايا البين رَكْبَ الترحُّلِ
فقلتُ لأصحابي والدمعُ مُنحدري «قفوا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ»

وأُصيب نعمة بشدائد وضنك العيش حتى اضطرَّ ان يبيع اعزَّ ما كان لديهِ اعني كتبهُ التي عدَّد نوادرها في قصيدةٍ تجدها في المشرق(٥[١٩٠٢]: ٤٠٠) ولم تُعرف سنة وفاة المترجم والمظنون انهُ توفي نحو السنة ١٧٧٠

﴿ آدابهُ ﴾ ان الشهرة التي حازها نعمة بن توما بالكتابة والانشاء البليغ لفتت اليهِ نظر البطريرك اثناسيوس دبَّاس المقيم في حلب فاستدعاهُ ليكون كاتب اسراره ومنشئ رسائلهِ . فتولَّى ذلك المنصب في عهدهِ ثمَّ في عهد خلفهِ البطريرك مكسيموس حكيم وانشأ باسمهما عدَّة رسائل ومناشير ومذكرات ووثائق وصكوك توجَّهت الى رومية الى الاحبار الرومانيين والمجمع المقدَّس والى السفراء الفرنسويين في الاستانة والى غيرهم وقد اجاد وافاد بجمعها في مجلَّد خاصّ وسمهُ «بعجالة الطريق لمن رضي بتقليد التلفيق» منهُ نسخة واسعة وصفها جناب الاديب حبيب افندي الزَّيات وحصل عليها المسنيور جرجس منش (المشرق ٥[١٩٠٢]: ٤٠٠ـــ٤٠٠) وفي مكتبتنا الشرقيَّة منهُ نسخة مختصرة في ١٤٢ صفحة هي كتاريخ الكثلكة في حلب في القرن الثامن عشر وما نال المرتدّين الى الدين الكاثوليكي من الاضطهادات من قبل سلفسترس القبرسي وذويهِ . باشر نعمة بجمع هذا الكتاب النفيس في السنة ١٧٥٩ وتتبَّع تدوين كتاباتهِ الى السنة ١٧٦٧

﴿ شعرهُ ﴾ لنعمة بن توما ديوان شعر واسع لدينا منهُ نسخة تستغرق ١١٧ صفحة لهُ فيهِ بين قصائد ومقطَّعات ما يبلغ مائتَي منظومة في كل ابواب الشعر من مديح رجال عظام كأحبار كنيستهِ وارباب الدولة والسادة المسلمين والاصدقاء ومن مراثٍ وتهانٍ وهجو الى غير ذلك من الاغراض . وبينها قسمٌ كبير في المعاني الروحيَّة كمديح السيد المسيح والعذراء مريم ووصف الاعياد السنويَّة والزهديَّات وهي احسن دليل على ما طُبع عليهِ من رُوح التقى والرسوخ في الدين الكاثوليكي . وها نحن نروي نخبة من الديوان المذكور مما يُستدلُّ بها على جودة قريحتهِ . فمن ذلك قولهُ يرجو من الله التوبة (من مجزوء الكامل) :

مَن لي بتوبة خاشعٍ او كيف مثلي يقتنيها
كم قد وعدتُ وعُدتُ عن وعدي وكم عربدتُ فيها
ورجعتُ كالكلب الكلو ب لقَيئهِ رجعاً كريها
آهاً لتفريطي بها من بعد تعويلي عليها

ما لي اليها مُوصِلٌ إلاك يجذبني اليها
ولقد اتيتك راجياً من فيض جودك ابتغيها
يا ليتني احظى بخمرةِ حبّها او اجتليها
واذوق عَذْب رحيقها م الممزوج مع صَهْباء فيها
يا ربِّ هَبْني توبةً تُرْضيك والعزمُ يَقيها
أنعِم عليَّ بصدقها مع حُسن خاتمةٍ تَليها

وكتب يهنئ المفتي نعمة الله افندي جلبي كواكبي زاده لرجوعهِ الى حلب ظافراً باعدائهِ (من السريع):

يا كوكبَ الشهباء تِهْ واتَّئدْ على السوى فالصبحُ يمحو الظلامْ
لولا رآكَ الله اهلاً لَما اعطاكَ ما سُدتَ بكلّ الانامْ
مرجّعاً كيد الاعادي الى نحورهم نصراً لكم والسلامْ

وكتب تحت ايقونة تمثل مريم العذراء اقتناها لذاتهِ (من الوافر):

اليكِ يا ابنة الآب السماوي وامَّ الابن من غير ارتيابِ
وقبَّةَ عهد روحها المعزّي مَعين عواطفِ النِعَم العِجابِ
اقدّم رسم شخصك كي اراكِ بهِ ما دمتُ في هذا الإهابِ
ارجّي بعدهُ منكِ وصولاً اليك عسى اراكِ بلا حجابِ

وقال في صديق لم يثبت على صداقتهِ وتغيَّر عنهُ (من الوافر):

رجوتُك لا عدمتُ سواك ظنّاً بأنّك من جهابذةِ الرجال
فصحَّ بانَّ بعض الظنّ اثمٌ لِما عاينتُ منك من الخِلالِ
بوعدٍ لا وفاء لهُ وكذبٍ وتسويفٍ بآمال المُحالِ
فلم أرَ من رجائي غير اني رجوتُ الوَصْل من صَرْمِ الحبالِ

وقال يقرّظ كتاب عبدالله زاخر الذي ألّفهُ ردًّا على اليـاس فخر (من مجزوء الكامل) :

لله درٌّ من كتا بٍ ساطعٍ بالعلم زاخرْ
ابدى لنا برهانُـهُ خِزيَ ابن فخرٍ بابن زاخرْ

وقال يؤرّخ (سنة ١١٥٤ هـ) استشهاد ابرهيم ابن ديمتري يعقوب الدلّال الحلبي. (من مجزوء الكامل) :

قد نال ابرهيم اكـليلَ الشهادة والسَّنا
نادت ملائكة العلا تاريخه بلغ المُنا

وقال يذكر الموت وغرور الدنيا (من الكامل) :

وردَ المَنونُ فاينَ يا نفسِ المَفرّ والموت سلَّ عليكِ صارمَهُ الذكَرْ
هذه هي الدنيا التي ما شاهها ذو فطنةٍ الَّا وعنها قـد نفَرْ
ولقد عرفنا غرَّها وغرورَهـا منـذ الصِّبـا ومرور ايَّام الصِغَرْ
فارتدَّ عنها يا اخي ولا تكن ممَّن يخالُ بانها تبدي الغُرَرْ
لا ترجُ منها الوصل في لذّاتها كلَّا ولا مـا قلَّ منهـا او ندَرْ
فاذا اتتك بصفو عيشٍ مرَّةً فاعلم بانك عاجلًا سترى الكدَرْ
هذه هي حالاتها وصروفها ومصـيرهنَّ الى المماتِ المنتظرْ
فعليكِ يا نفسِ الرجوعُ الى الذي نجَّاكِ قبلًا من لظى هـذا الشَّررْ
واذري الدموع سخينةً عمَّا بـدا من قبحِ سيركِ في قذى ذاك القذرْ
واستدركي العَوْد اليهِ قبل ما يأتي المَنونُ وينقطع فيهِ الوتَرْ
واستشفعيهِ بامّـهِ البكر التي هي ملجأ الخاطي تقيـهِ من ضرَرْ
فلَكم اتاها مَن علَتْهُ ذنوبهُ فارتدَّ ذا طهرٍ نقيًا من وزَرْ
حاشا حِماها ان تردّ نزيلها ذا خيبةٍ من رفدهـا مُقصًى مُمرّ

وقال بديهاً لما اتاهُ بعض اصحابهِ واردين من الحبا فبشّروهُ بانقطاع الطاعون(من مجزوء الكامل):

اهلاً وسهلاً مرحبا بالقادمين من الحِبا
ومبشّرينا عنوةً بزوال ايّام الوبا
من فيض جودِ قادرٍ بسَلْبِ ما قد أوجبا
ورحمةٍ علويّةٍ تُزيحُ عنّا الغضبا
أكرِمْ بهِ من قادمٍ ابدى البشائرَ مُعْربا
قد صحَّ في مُقْدَمِهِ قولُ الرسول مُرتّبا
اهلاً بأرجل مَن يُبشّر بالسلامة عن نَبا
فَلْيجزهِ الرحمانُ من خير الجزا ما استصوبا
بشفاعة البكر التي تعلو الملائك مَأربا
فلها السلام مؤبَّدا ما رنَّحت ريحُ الصَّبا
واتى النذيرُ مبشّرًا بزوال ايّام الوبا
اذ قيلَ في استقبالهِ اهلاً وسهلاً مرحبا

وفي تلك سنة الطاعون ١٧٦١ انتقل في حلب الى جوار ربهِ الاب اليسوعي فرنسيس كريسيت (François Cruisset) المرسل الرسولي مات شهيد محبّتهِ في خدمة المطعونين فقال نعمة بن توما يؤرّخ وفاتهُ (من الكامل):

يا من أحبَّ الله دون ذاتهِ لعبيدهِ متبرّعاً بحياتهِ
لِيرى كسيّدهِ الذي لمّا افتدى اغنامَهُ احياهمُ بمماتهِ
فيقال هذا العبدُ حقًّا انهُ يُشبه مولاهُ بجدّ صفاتهِ
وهو فرنسيسُ اليسوعيُّ الذي أدّى حساب الله عن وزناتهِ
ومضى ليقبض اجرهُ مثل التي قد حازها من فَيض جود هباتهِ

أكرم بها من اجرةٍ علويّةٍ وردت تؤرّخ حقّ مرغوباتهِ

ونختم هذه المنتخبات بابيات قالها في مطابقة ارادتهِ للمشيئة الالهيَّة وبها اعرب عن تُقاهُ وصبرهِ على آلام الحياة (من الخفيف) :

يا الهاً لهُ القضا والتقاضي انا راضٍ بكلّ ما انت راضي

عبدُ رقٍّ اسيرُ وَصمةِ ذَنبٍ يرتجي من رضاك حسن التغاضي

ذبتُ شوقاً الى رضاك واني خائفٌ من لقاكَ في إعراضي

كم توالت جرائري وذنوبي يوجبُ العدلُ حدَّها بانقباضٍ

فلايّ فراري من حُكم عدلٍ تقضي أحكامهُ بكبح المواضي

ليس الّا لرحمةٍ اوسعتني منك لطفاً أيا سريع التراضي

واختفاني بحصنِ قلبٍ جريحٍ يرحضُ الاثمَ بالدم المستفاضِ

فامزُجِ العدلَ سيّدي برضاءِ يقتضي رأفةً لحلّ اعتراضِ

أعطني منك نعمةً واجتذبني لقَبولٍ بكل ما انتَ قاضي

ورضاءٍ يزينهُ حسنُ صبرٍ لم تَشِبْهُ وساوسُ الافتراضِ

كي أرى في هداك اعظم صبرٍ راضياً منك بالذي انت راضي

ولنعمة بن توما ما خلا القصائد رسائل ادبيَّة اثريَّة مسجَّعة يتخلَّلها الشعر منها رسالة طويلة وجَّهها الى القس جبرائيل فرحات اذ كان راهباً في لبنان في دير ماري اليشاع افتتحها بقصيدة اوَّلها (من الخفيف) :

يا نسيماً سقى الحمى ثمَّ حيَّا بسلام منازلَ الاحبابِ

وسما رقَّةً ولطفاً فأذكى بشذا عرفهِ نواحي الهضابِ

ضمَّنها من العواطف ارقَّها ومن آيات الثناء اصدقها وقد نشر معظمها المنسنيور منش

في المشرق. ولهُ رسالة اخرى نثريّة وشعريّة كتبها باسم البطريرك اثناسيوس يهنئ بها نقولا بك لتعيينهِ والياً على القلاخ اوّلها: « الحمد لله الذي احسن نظام العالم باصالة رأي الملوك القويم، وأيد هذا النظام بالهامهم السلوك في ترتيبـهِ على النهج المستقيم، وانهض هممهم الى القيام بحفظ المعاقل والممالك، والى حراسة البلاد من خطر المظالم والمهالك... »

٢٠ ابن افرنجية

انّ القلادة الادبيّة التي ازدان بها جيدُ الشهباء في القرن الثامن عشر عند نهضتها المشكورة يجب ان يُنظم فيها شاعر آخر عثرنا على آثاره عند احد اصحابنا جناب الاديب اسكندر صافي يوم اجتمعنا بهِ في لندن سنة ١٨٨٨ . فأطلعَنا جنابهُ على مجموع مخطوط عنوانهُ « المجموع المنتظم من فرائد الكلم » لمؤلفهِ ديدهكوز (Didacus) بن انطون افرنجيّة كتبهُ سنة ١٧٨٠ كما ورد في آخرهِ. وقد افردنا لذكره مقالة في المشرق سنة ١٨٩٩ (٢: ٤٤٢ و٤٩١) فنشرنا قسماً مما اودعهُ الكاتب فيهِ من الحكم والامثال والنوادر والفكاهات والمنتخبات الشعريّة فلا حاجة الى تكرارها هنا

وانما وجدنا في هذا المجموع قطعاً شعريّة من نظم المؤلف فلا بُدّ من ان ندرجهُ في سلك شعراء النصرانيّة الذين نسعى باحياء ذكرهم

وكنّا نودّ ان نورد شيئاً من اخبار هذا الشاعر ولكن لسوء الحظّ لم يسعنا وجود شيء منها كما لم نجد الّا اليسير الزهيد من تراجم الشعراء السابق ذكرهم

وغاية ما نعرفهُ عن ابن افرنجيّة انهُ كان حلبيّ المولد والمنشأ من الطائفة المارونيّة ومن اسرة كريمة يدلّ اسمها على اصلها ولعلّها اقتبستهُ من الصليبيين في القرون الوسطى. ولا يزال من هذهِ العائلة بقايا في بلدة اهدن. والمرجّح ان فرعها الحلبي انتقل من لبنان الى حلب مع غيرهم في اواسط القرن السادس عشر على عهد السلطان سليم الثاني

امّا شعرهُ فهذا بعض ما ورد منهُ في المجموع المذكور قال في من رفعهُ الدهر بعد الذلّ (من الكامل):

لا تعجبنَّ بطالبٍ نال العُلى كهلاً وأخفضَ في الزمانِ الاوّلِ
فالخمرُ تحكمُ في العقول مُسيئةً وتُداس اوّل عصرها بالأرجلِ

وكتب الى صديق كان عزّاهُ في نكبةٍ (من البسيط):

لمّا أتاني كتابٌ منـك مبتسمٌ عن كلّ فضلٍ وجودٍ غير محدودِ
حكَتْ معانيهِ في أثناء أسطرهِ آثارَكَ البيضَ في احواليَ السُّودِ

ومن حسن وصفهِ قولهُ في النفس (من الكامل):

يا درّةً بيضاء لاهوتيّةً قد ركّبتْ صدَفاً من الناسوتِ
جَهِلَ النُّهارةُ قَدْرَها لشقائهم وتنافسوا في الـدرّ واليـاقوتِ

ومن طريف قولهِ ما كتبهُ عن جارٍ انتقل عنهُ (من الوافر):

تناءت دارُهُ عنّي ولكنْ خيالُ جمالهِ في القلب ساكِنْ
اذا امتلأ الفؤادُ بهِ فماذا يضرُّ اذا خلت منهُ المساكِنْ

وكذلك قال في مفارقة الوطن وفائدة الاسفار (من الكامل):

لا تكترث لفراق اوطان الصِّبا فعسى تنالُ بغيرهنَّ سُعودا
فالدرُّ يُنظَم عند فقد بحارهِ بجميل أجياد الحسان عقودا

وقال يهجو مغنّياً (من مجزوء الكامل):

قد دهاني ما دهاني من ثقيلٍ في الاغاني
قلتُ اذ غنّى عراقاً ليتني في اصفهـانِ

ومن ظريف اقوالهِ عن لسان قهوة الخمرة تهجو قهوة البنّ (من الطويل):

سمعتُ لسان الحال من قهوة الطّلا تقولُ هلمُّوا واسمعوا انصّ اخباري
فبأسمي تسمَّت قهوةُ البنّ في الملا ولكنها لم تحكِ بالفضل أخماري
فمن كذبها قد سوَّد اللهُ وَجهها وعذّبها بعد الاهانةِ بالنارِ

وقد تفنن ابن افرنجيَّة في شعرهِ فلهُ الموشَّحات والزجليَّات والبديعيَّات . ومن اقوالهِ ما يُقرأ طردًا وعكسًا كقولهِ (من الكامل):

عدلوا فما ظُلِمَتْ بهم دولٌ سَعِدوا فما زلَّت بهم قدَمُ
بذلوا فما شَحَّت لهم شيَمٌ رشدوا فما زالت لهم نِعَمُ

فتُقرأ معكوسة وتُصبح هجوًا بدلًا من المديح:

قَدَمٌ بهم زلَّت فما سَعدوا دولٌ بهم ظُلمت فما عدلوا
نِعَمٌ لهم زالت فما رشدوا شِيَمٌ لهم شَحَّت فما بَذَلوا

ولهُ مناظرة في الشعر العامّي بين التبغ والقهوة اوَّلها:

قصَّة جرت ، بين التُّتن والقهوةْ ، وتفاخر الاثنانْ ، وزادا برهان

الى ان ختمها بتحكيم العرَق بينهما متفكهاً:

قال العرق نحن رفاقْ جملَهْ في جَمعنا نخدمُ اهل الكَيْفْ
انتَ بلاها ما يبان لك لذَّه وانتِ بلاهُ ما تفعليهِ كلُّه زَيْفْ
الطاعن بجنسهِ في المَثَل قد قالوا في الحال هو طاعن بنفسهِ يا حَيْفْ
والصلحُ في الحالة رئيس الاحكام وانتما اثنان بحالة اخوانْ

فتصالح الاثنان وزالت الاحقادْ وتوافقا كأنَّ المقدَّر ما كانْ

وقد نشرنا لابن افرنجيَّة في المشرق (٢[١٨٩٩]: ٤٤٤_٤٤٥) دائرتين تتضمَّنان قصيدتين قافيَّة وعينيَّة تأنَّق في تصويرهما بجزءَين اسود واحمر . وكل بيت يبتدئ من مركز الدائرة وينتهي اليهِ بعد استدارتهِ على شكل عجيب . فليراجعها هناك

وقد قال ابن افرنجيَّة يصف مجموعةً (من السريع):

مجموعُنا هذا لهُ رونقٌ كرونقِ اللؤلؤ في عِقْدهِ
كادت مجاميعُ الورى عندهُ تُثني لديهِ من سنا مجدهِ

ثمَّ يقول معتذرًا لما يكون وقع فيهِ من الاغلاط (من مجزوء السريع):

كتبتُهُ مجتهدًا وليس يخلو من غَلَطْ
فقُلْ لمن يلومُني من ذا الذي ماساء قطّ

وشفعهُ بما هو في معناهُ (من الكامل):

يا ناظرًا فيما عهدتُ لجمعهِ عذرًا فانَّ اخا الفضيلةِ يعذرُ
علماً بانَّ المرءِ لو بلغ المَدى في الفضل والعِرفانِ فهو مقصِّر
فاذا ظفرتَ بزَلَّةٍ فافتَحْ لها باب التجاوزِ فالتجاوزُ أجدَرُ
ومن المحال ان ترى احدًا حوى كُنْه الكمال وذا هو المتعذّرُ
والنقصُ في نفسِ الطبيعةِ كامنٌ فبنو الطبيعةِ نقصهم لا يُنكرُ

خاتمة

يتناول هذا الكتاب من التاريخ الحقبة المشؤومة التي خيَّم فيها الجهل على البلاد الحزينة الناطقة بالضاد بعد انقيادها لزمام المماليك ومَنْ خلفهم من الحكّام الجورة ارباب السيف الدامي واليراع المحطَّم

فيقع طرف القارئ فيها وقوعه على قفر خالٍ وليلٍ مظلم حالك لا يسمع فيه الّا انة المظلوم واستغاثة المضنى ولا يرى الّا لمعة السيف وشهبة النار الآكلة

على أنّ صوت هؤلاء الشعراء في ذلك المنظر المريع ورنّة اوتارهم الضعيفة تعيد الى الفؤاد بعد الرشد فتستأنس الى انشادهم وهم يسبّحون تسبحة المؤمن ويترغون بمحاسن وجه البارئ العظيم . فترى فيهم الجذوة النيرة التي لم تخمد حتى تحت مهب العواصف الى ان يحون الاوان ويقترب الصبح فينهض رجال ذوو عزم ونفس جيَّاشة مثل فرحات والصائغ وابرهيم الحكيم وانطون بيطار فيبدأون بأنغامهم الجديدة تسبحة حياة النهضة العصرية

فلهؤلاء الشعراء النائحين والمسبحين جميعاً كرَّس المرحوم الاب لويس شيخو الطيب الذكر كتابه هذا تخليداً لما سمعه منهم من روح الايمان والامل طيلة تلك الطريق الموحشة



فهرس القسم الرابع

من

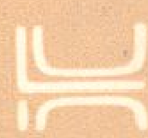
كتاب شعراء النصرانية بعد الاسلام



أنجزت المطبعة الكاثوليكية ش.م.ل
في عاريا - لبنان
طباعة هذا الكتاب في الحادي والثلاثين
من آب سنة ١٩٩١

٠١٩١٠٦ - ١ - ٩١/٨/٣١


منشورات :
دار المشرق - ص.ب : ٩٤٦
بيروت ، لبنان


التوزيع :
المكتبة الشرقية - ساحة النجمة
ص.ب : ١٩٨٦ - بيروت . لبنان